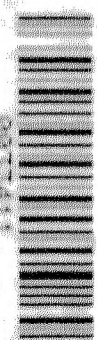


شرح البلغة

ابن أبي عمير

المجلد الثامن

كتاب الجنب



11

0000000000000

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس عشر

دار الجيل
بيروت

محقق الطبع محفوظة للنشر
طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ربه يفتي الحمد لله الوارد العدل »^(١)

القول في أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به في المعركة يوم الحرب

قال الواقدي^(٢): تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن شهاب الزهري وابن قميصة^(٣) أحد بني الحارث بن فهر، وعتبة بن أبي وقاص الزهري، وأبى بن خلف الجهمي. فلما أتى خالد بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصفوف، ووضع المشركون السيف في المسلمين، رمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر رباعيته، وشجّه في وجهه حتى غاب حلق المغفر في وجنته^(٤)، وأدمى شفثيه^(٥).

قال الواقدي: وقد روي أن عتبة أشطى^(٦) باطن رباعيته السفلى. قال: والثبت عندنا أن الذي رمى وجنتي رسول الله صلى الله عليه وآله ابن قميصة، والذي رمى شفثه وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص.

قال الواقدي: أقبل ابن قميصة يومئذ وهو يقول: دلوني على محمد، فوالذي يُخلف به؛ لئن رأيته لأقتلنه، فوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلاه بالسيف، ورماه عتبة

(١-١): « وبك اعتمادى يا كريم » .

(٢) انظر أخبار غزوة أحد في الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

(٣) قبيصة ؛ كسفيه، وهو عمرو بن قبيصة، ذكره صاحب تاج العروس، وقال : « شاعر؛ وهو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد » . (٤) كذا في ١ ، وهو الوجه والذي في ب « وجنته » ؛ تحريف .

(٥) مغازي الواقدي ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٦) أشطى رباعيته : كسرهما .

ابن أبي وقاص في الحال التي جَلَّه ابنُ قَمِيْثَة فيها السيف ، وكان عليه السلام فارسا ، وهو لابسُ درعين مُنقل بهما ، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرس في حُفرة كانت أمامه .

قال الواقدي : أصيبَ ركبته ، جُحِشَتْ^(١) لَمَّا وَقَعَ في تلك الحفرة ، وكانت هناك حُفْرٌ حَفَرها أبو عامر الفاسق كالحنادق للمسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على بعضها وهو لا يشعر^(٢) ، فجُحِشَتْ رُكْبَتاه ، ولم يصنع سيفُ ابنِ قَمِيْثَة شيئا إلا وهز^(٣) الضربة بثقل السيف ، فقد وقع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم انتهض وطلحة يَحْمِلُه من ورائه ، وعلى عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائما .

قال الواقدي : لُحِثْنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُمَانَ عَنْ حمزة بنِ سعيد ، عن أبي بشر المازني ، قال : حضرتُ يومَ أُحُدٍ وأنا غلام ، فرأيت ابنَ قَمِيْثَة عَلا رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالسيف ، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَقَعَ على ركبتيه في حفرة أمامه حتى توارى في الحفرة ، فجعلتُ أصيحُ وأنا غلام حتى رأيتُ الناسُ ثابوا إليه . قال : فأنظرُ إلى طلحة بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ آخِذاً بِحُضْنِهِ حتى قام .

قال الواقدي : ويقال : إنَّ الذي شَجَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شهاب ، والذي أَشْطَى رَباعِيَّتَه وأدَمَى شَفَتَيَه عتبةُ بنُ أبي وقاص ، والذي أَدَمَى وَجْهَتَيَه حتى غابَ الحلق فيهما ابنُ قَمِيْثَة ، وإنه سالَ الدمُ من الشَّجَّة التي في جَبْهَتِهِ حتى أخْضَلَ لَحِيَّتَه . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يَغْسِلُ الدَّمَ عن وجهه ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يقول : كيف يُفْلَحُ قومٌ فعلوا هذا بِنَبِيِّهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ . . . ﴾^(٤) الآية .

(١) الجحش : المدهش ، أو فوقه .

(٢) الواقدي : « ولا يشعر به » .

(٣) كذا في الواقدي . ويقال : وهزه ، أي ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تعريف .

(٤) سورة آل عمران ١٢٨ .

قال الواقدي : ورَوَى سعدُ بنُ أبي وقَّاص قال ^(١) : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ دَمَوْا فَأَرْسَلَ اللهُ صلى الله عليه وآله ، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ دَمَوْا وجهَ رسولِ الله ، اشتدَّ غضبُ الله على رجلٍ قَتَلَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد شفاني من عتبةٍ أخی دعاءَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِهِ حِرْصًا مَا حَرَصْتُ عَلَى شَيْءٍ قَطَّ ، وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُ لِعَاقِبَتِهِ بِالْوَالِدِ ، سَيِّئُ الْخُلُقِ ، وَلَقَدْ تَحَرَّيْتُ صُفُوفَ الْمُشْرِكِينَ مَرَّتَيْنِ أَطْلُبُ أَخِي لِأَقْتُلَهُ ، وَلَكِنَّهُ رَاغِبٌ مِنِّي رَوَّانَ الثَّلَبِ ، فَلَمَّا كَانَ الثَّلَاثَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا عَبْدَ اللهِ مَا تَرِيدُ ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ نَفْسَكَ ؟ فَكَفَفْتُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : اللَّهُمَّ لَا تَحُولَنَّ الْحَوْلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . قال سعد : فوالله ما حالَ الْحَوْلُ عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ رَمَاهُ أَوْ جَرَحَهُ . مات عتبةٌ ، وأما ابنُ قَمِيْثَةَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، : [فَقَائِلُ يَقُولُ : قَتَلَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَ] ^(٢) قَائِلُ [يَقُولُ] ^(٣) : إِنَّهُ رَمَى بِسَهْمٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَأَصَابَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ فَقَتَلَهُ ، فَقَالَ : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ قَمِيْثَةَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : أَقْمَاهُ اللهُ ، فَعَمِدَ إِلَى شَاةٍ يَحْتَلِبُهَا فَتَنْطَحُهُ بِقَرْنِهَا وَهُوَ مَعْتَلِقُهَا ^(٤) فَقَتَلَتْهُ . فَوُجِدَ مَيِّتًا بَيْنَ الْجِبَالِ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ عَدُوُّ اللهِ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مُحَمَّدًا . قال : وابنُ قَمِيْثَةَ رَجُلٌ مِنَ بَنِي الْأَدْرَمِ مِنْ بَنِي فِهْرِ .

وزاد البلاذري في الجماعة التي ثعاهدت وتعاقدت على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد عبد الله بن سُمَيْد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي ^(٥) . قال : وابن شهاب الذي شجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جبهته هو عبد الله

(١) الواقدي : « سمعته يقول : اشتد . . . » .

(٢) من الواقدي . والمعرك والمعرك : موضع القتال .

(٣) كذا في وهو الصواب ، والذي في ب « معتقها » ، تصحيف .

(٤) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزُّهْرِي ، جدُّ الفقيه المحدث محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب^(١) ، وكان ابنُ قُيَيْثَةَ أَدْرَمَ ناقصَ الذَّقْنِ ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدي أيضاً .

قلتُ : سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلتُ له : أهو عمرو بن قُيَيْثَةَ الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيره . فقلتُ له : مابالُ بني زُهْرَةَ في هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وهم أخواله ، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أبي وقَّاص ! فقال : يا بنَ أخي ، حرَّكهم أبو سفيانَ وهاجَّهم على الشرِّ لأنَّهم رجعوا يومَ بدر من الطريق إلى مكة فلم يشمُّدوها ، فاعترضَ عيَرهم ومنعهم عنها ، وأغرَى بهاسفهاءَ أهلِ مكة ، فعيروهم برُجوعهم ، ونسبواهم إلى الجُبْنِ وإلى الإذهان في أمرِ محمد صَلَّى الله عليه وسلم ، واتفقَ أنَّه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقعَ منهما يومَ أحدٍ ما وقع .

قال البَلَاذُريّ : مات عتبة يومَ أحدٍ من وجعٍ أليمٍ أصابه ، فتعذَّب به ، وأصيب ابنُ قُيَيْثَةَ في المعركة ، وقيل : نطحته عَنَزَفَات .

قال : ولم يذكر الواقدي ابنَ شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوهم منه . قال : وحدثني بعضُ قریش أنَّ أفعى نهشتْ عبدَ الله بنَ شهاب في طريقه إلى مكة ، فمات . قال : وسألتُ بعضَ بني زُهْرَةَ عن خبره ، فأَنكَرُوا أن يكون رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله دعا عليه ، أو يكون شجَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله . وقالوا : إن الذي شجَّه في وجهه عبد الله بنُ حُمَيْدٍ الأَسَدِيّ^(٢) .

فأمَّا عبدُ الله بنُ حُمَيْدٍ الفِهْرِيّ ، فإنَّ الواقديَّ وإن لم يذكره في الجماعة الذين

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

تَعَاقَدُوا عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ .
قال الواقدي : وَيَقْبَلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُمَيْدٍ بْنُ زَهْرٍ حِينَ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ - يَعْنِي سَقُوطَهُ مِنْ ضَرْبَةِ ابْنِ قَيْثَةَ - يَرْكُضُ فَرَسَهُ مَقْنَعًا فِي الْحَدِيدِ يَقُولُ : أَنَا ابْنُ زَهْرٍ ، ذُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَوَاللَّهِ لَا قَتْلَنَّهُ أَوْ لَأَمُوتَنَّ دُونَهُ ! فَنَعْرِضُ ^(١) لَهُ أَبُو دُجَانَةَ فَقَالَ : هَلُمَّ إِلَى مَنْ يَبْقَى نَفْسَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِنَفْسِهِ ، فَضَرْبُ فَرَسِهِ فَعَرَقَبَهَا ، فَامْتَسَعَتْ ، ثُمَّ علاه بالسَّيْفِ وَهُوَ يَقُولُ : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ خَرَّشَةَ ، حَتَّى قَتَلَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ ابْنِ خَرَّشَةَ كَمَا أَنَا رَاضٍ عَنْهُ . هَذِهِ رِوَايَةُ الْوَاقِدِيِّ ، وَبِهَا قَالَ الْبَلَاذُورِيُّ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ قَتَلَهُ أَبُو دُجَانَةَ ^(٢) .

فَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٣) . وَبِهِ قَالَتِ الشَّيْعَةُ .

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَاذُورِيُّ أَنَّ قَوْمًا قَالُوا : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ هَذَا قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ . فَلِأَوَّلِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ . وَقَدْ رَوَى كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَقَطَ ثُمَّ أُقِيمَ : اكِفْنِي هَؤُلَاءِ - لِمَجَاعَةٍ قَصَدَتْ نَحْوَهُ - فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَهَزَمَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى ، فَقَالَ لَهُ : اكِفْنِي هَؤُلَاءِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَأَنْهَزَ مَوَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ أُمَيَّةَ بْنَ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْخَزَوْمِيَّ .

قال : فَأَمَّا أَبِي بَنِي خَلْفٍ فَرَوَى الْوَاقِدِيُّ أَنَّهُ أَقْبَلَ يَرْكُضُ فَرَسَهُ ؛ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، اعْتَرَضَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَقْتُلُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : اسْتَأْخِرُوا

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(١) الواقدي : « ليعرض » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحرّبتْهُ في يده ، فرماه بها بين سَابِغَةِ الْبَيْضَةِ والدَّرْعِ^(١) ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه ، فانكسر ضلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلاً^(٢) حتّى ولّوا قافلين ، فمات في الطريق ، وقال : وفيه أنزلتُ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٣) ، قال : يعنى قدّفه إِيَّاهُ بِالْحَرْبَةِ .

قال الواقديّ : وحدثني يونسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الظَّفَرِيُّ ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابنِ كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أبيُّ بْنُ خَلْفٍ قدم في فداء ابنه ، وكان أُسِيرَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فقال : يا محمد ، إنّ عندي فرساً لي أُعْلِفُهَا فَرَقاً^(٤) من ذرّة كلّ يوم لأقتلك عليها . فقال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله : بل أنا أقتلكُ عليها إن شاء الله تعالى .

ويقال : إنّ أبايَاً لَمَّا قَالَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْمَدِينَةِ كُلَّهُ فَقَالَ : بل أنا أقتلهُ عليها إن شاء الله . قال : وكان رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله في القتال لا يَلْتَفِتُ وراءه ، فكان يومَ أَحُدٍ يقول لأصحابه : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَأْتِيَ أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ مِنْ خَلْفِي ، فإذا رأيتُموه فَأَذِنُونِي ، وإذا بأبيِّ يَرْكُضُ على فرسه ، وقد رأى رسولَ الله صَلَّى الله عليه وآله فَمَرَفَهُ ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد لا نجوتُ إنْ نَجَوْتَ ! فقال القوم : يا رسول الله ما كدتَ صانعا حين يَمْشَاكَ أَبِيُّ ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عايه بعضنا ، فأبى رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله ، ودنا أبيُّ ، فتناول رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله الحربة من الحارث بن الصَّمَّةِ ، ثم انتفض كما ينتفض البعير . قال : فتطأيرنا

(١) الدرع السابغة : التي تجرّها في الأرض وعلى كعبيك طولاً وسعة ، وتسبغة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدروع فنتسر العنق .

(٢) ثقيلاً : مشرفاً على الموت .

(٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الفرق ، بسكون الراء وفتحها : مكيال ضخّم لأهل المدينة معروف .

عنه تطاير الشعاريير^(١) ، ولم يكن أحد يشبه رسول الله صلى عليه وآله إذا جدّ الجدّ ، ثم طعنه بالحربة في عنقه وهو على فرسه لم يسقط ، إلا أنه خار كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله ما بك بأس ، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ماضره . قال : واللآلئ والعزى ، لو كان الذى بى بأهل ذى الحجاز لما توافكهم أجمعون ، أليس قال : لا تقتلنه ! فاحتملوه ، وشغلهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى المَحَق^(٢) بعظم أصحابه فى الشعب .

قال الواقدي : ويقال : إنه تناول الحربة من الزبير بن العوام . قال : ويقال إنه لما تناول الحربة من الزبير حمل أبى على رسول الله صلى الله عليه وآله ليضربه بالسيف ، فاستقبله مصعب بن عمير حائلا بنفسه بينهما ، وإن مصعبا ضرب بالسيف أيبا في وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فرجة من بين سابعة البیضة والدرع ، فطعنه هناك ، فوقع وهو يخور .

قال الواقدي : وكان عبد الله بن عمر يقول : مات أبى بن خلف ببطن رابع^(٣) منصرفهم إلى مكة . قال : فإني لأسير ببطن رابع بعد ذلك ، وقد مضى هو من الليل إذا نار تأجج ، فنهبتها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يصيح : العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقي ، فإن هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبى بن خلف ، فقلت : ألا سحفا ! ويقال : إنه مات بسرف^(٤) .

(١) الشعاريير : الذباب .
(٢) الواقدي : « لحق » .
(٣) بطن رابع : واد من دون الحفة ، قال الواقدي : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .
(٤) سرف ، كسكتف : موضع على سبعة أميال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ؛ وهناك توفيت - ياقوت .

القول في الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا

قال الواقدي : حدثني الزبير بن سعيد ، عن عبد الله بن الفضل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله مصعب بن عمير اللواء فقتل ، فأخذه ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له في آخر النهار : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك ، فقال : لست بمصعب ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ملك أيده به .

قال الواقدي : سمعت أبا معشر يقول مثل ذلك .

قال : وحدثني عبيدة بنت نائل ، عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، عنه ، قال : لقد رأيته أرمي بالسهم يومئذ ، فبرده عن رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد ، فظننت أنه ملك .

قال الواقدي : وحدثني إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ؛ عن جده سعد بن أبي وقاص ، قال : رأيت ذلك اليوم رجلين عليهما ثياب بيض ؛ أحدهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخر عن شماله يقاتلان أشد القتال ، مارأيتهما قبل ولا بعد . قال : وحدثني عبد الملك بن سليمان ، عن قطن بن وهب ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ، يقولون : لم نر الخيل البلق ولا الرجال البيض الذين كنّا نراهم يوم بدر .

قال : وقال عبيد^(١) بن عمير : لم تقاتل الملائكة يوم أحد .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن عبد الحميد بن سهيل ، عن عمر بن الحكم ، قال : لم يمد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد بملك واحد ، وإنما كانوا يوم بدر ، قال : ومثله عن عكرمة .

(١) في « عبيد الله » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرت الملائكة يوم أحد ولم تقاتل ، وإنما قالت يوم بدر .

قال : وروى عن أبي هريرة أنه قال : وعدهم الله أن يمدّهم لو صبروا ، فلما انكشفوا لم تُقاتل الملائكة يومئذ .

القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقدي : كان وحشيّ عبد لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إن أبنى قتل يوم بدر ، فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فانت حرّ : محمد ، وعلى بن أبي طالب ، وحمزة^(١) بن عبد المطلب ، فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم . فقال وحشيّ : أما محمد فقد علمت أنّي لا أقدر عليه ، وإن أصحابه لن يساهوه ، وأما حمزة فوالله لو وجدته ناءماً ما أبقضته من هيئته ، وأما على فألتسه . قال وحشيّ : فكنت يوم أحد ألتسه ، فبينما أنا في طلبه طلع على ، فطلع رجلٌ حذِرٌ مرس^(٢) كثير الالتفات ، فقلت : ما هذا بصاحبى الذى ألتس ، إذ رأيت حمزة يفرى الناس فرّياً ، فكمنْتُ له إلى صخرة وهو مكبّس له كئيت^(٣) ، فاعترض له سباع بن أمّ نيار ، وكانت أمّه ختانة بمكة ، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى ، وكان سباع يكنى أبا نيار ، فقال له حمزة : وأنت أيضاً يابن مقطعة البطور ممن يكتر علينا ! هلم إلى ، فاحتمله ، حتى إذا برقت قدماه رمى به فبرك عليه ، فشحطه شحط الشاة ، ثم أقبل على مكباً حين رآنى ، فلما

(١) كذا في ١ ، وهو الوجه ، وفي ب « أو » تحريف .

(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .

(٣) الكئيت : صوت فى صدر الرجل كصوت البكر من شدة النبط .

بلغ المسيل ، وَطِيَّ عَلَى جُرْفٍ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ ، فَهَزَزْتُ حَرْبِي حَتَّى رَضِيْتُ مِنْهَا ، فَأَضْرَبُ بِهَا فِي خَاصَرَتِهِ حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ مَنَاتِهِ ؛ وَكَرَّ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَسَمَهُمْ يَقُولُونَ : أبا عمار ، فلا يجيب ، فقلتُ : قد والله مات الرجل ، وذكُرتُ هندا وما لقيتُ على أبيها وعمَّها وأخيها ، وانكشف عنه أصحابه حين أيقنوا بموته ، ولا يروني ، فأكرَّ عليه فشقتُ بطنه ، فاستخرجتُ كبده ، فحُثْتُ بها إلى هند بنتِ عتبة ، فقلتُ : ماذا لي إن قتلْتُ قاتلَ أبيك ؟ قالتُ : سألني ؛ فقلتُ : هذه كبدُ حمزة ، فضمتُها ثم لفظتها ، فلا أدري : لم تُسْغِها أو قدرتها ؛ فنزعتُ ثيابها وحلبها فأعطانيه ، ثم قالتُ : إذا جئتَ مكة فلك عشرةُ دنائير ، ثم قالتُ : أرني مصرعه ، فأرَّيتُها مصرعه ، فقطعتُ مذاكيره ، وجذعتُ أنفه ، وقطعتُ أُذُنَيْهِ ، ثم جعلتُ ذلك مَسْكَتَيْنِ ^(١) وَمِعْضَدَيْنِ وَخَدَمَتَيْنِ ؛ حَتَّى قَدِمْتُ بِذَلِكَ مَكَّةَ وَقَدِمْتُ بِكَبِدِهِ أَيْضًا مَعَهَا .

قال الواقدي : وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَوْنٍ ، عَنْ الزَّهْرِيِّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْخِيَارِ ، قَالَ : غَزَوْنَا الشَّامَ فِي زَمَنِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، فَمَرَرْنَا بِحِمَصَ ^(٢) بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَقَلْنَا : وَحْشَى ، فَقِيلَ : لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ، هُوَ الْآنَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حَتَّى يُصْبِحَ ، فَبُئْنَا مِنْ أَجَلِهِ ؛ وَإِنَّا لَثَمَانُونَ رَجُلًا ، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ جِئْنَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَإِذَا شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ طَرَحَتْ لَهُ زُرِّيَّةٌ ^(٣) قَدَرٌ مَجْلِسُهُ ، فَقَلْنَا لَهُ : أَخْبِرْنَا عَنْ قَتْلِ حَمْزَةَ وَعَنْ قَتْلِ مُسَيَّمَةَ ؛ فَكَرِهَ ذَلِكَ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَلْنَا : مَا بُنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ . فَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ عَبْدًا لُجَبِيرَ بْنِ مُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ إِلَى أَحَدٍ دَعَانِي فَقَالَ : قَدَرَأَيْتَ مَقْتَلَ طُعَيْمَةَ بْنِ عَدِيٍّ ، قَتَلَهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَمْ تَزَلْ نَسَاؤُنَا فِي حُزْنٍ

(١) المسكة ، بالتحريك : الأذورة . والمعصد : الدملج ، والخدمة ، بالتحريك : الخلخال .

(٢) حمص : مدينة معروفة في بلاد الشام .

(٣) الزريرة : التمرة ؛ أو البساط الذي يتكأ عليه ؛ واحده زربي ، والجماعة زرابي .

شديد إلى يومى هذا ، فإن قتلَ حمزةَ فأنتَ حرٌّ ؛ فخرجتُ مع الناسِ ولى مَزاريقَ ^(١) كنتُ أمرٌ بهند بنتِ عتبة فتقول : إيه أبا دُسمه ! اشف واشتف . فلما وردنا أحدا نظرتُ إلى حمزةَ يقدمُ الناسَ يهدّهم هدّا ، فرآنى وقد كُنتُ له تحتَ شجرة ، فأقبل نحوى ، وتعرّضَ له سباعُ الخزاعي ، فأقبل إليه وقال : وأنتَ أيضا يا بنَ مقطّعة البظور ممن يكثر علينا هُأمٌ إلى ، وأقبل نحوه حتّى رأيتُ برقانَ رجليه ، ثم ضربَ به الأرضَ وقتلَه ، وأقبل نحوى سريعا ، فيعترضُ له جرفٌ فيقع فيه ، وأزرقه بمِزراقٍ فيقع في لبنه حتى خرج من بين رجليه . فقتلَه ، وصررتُ بهند بنتُ عتبة فأذنتها ، فأعطتني ثيابها وحليها ، وكان في ساقِها خَدَمَتانِ من جَزَعِ ظفَارٍ ^(٢) ومسكتانِ من ورق ، وخواتيم من ورق كنّ في أصابع رجليها ، فأعطتني بكلّ ذلك ؛ وأما مُسِيمةُ فإنّا دخلنا حديقة الموت يومَ اليمامة فلما رأيته زرقته بالمِزراق ، وضربَه رجل من الأنصار بالسيف ؛ فربك أعلمُ أينما قتلَه ! إلّا أنّى سمعتُ امرأةً تصيحُ فوق جِدَارٍ : قتلَه العبدُ الحبشى . قال عبيدالله : فقلتُ : أتعرفنى ؟ فأكرّ بصره على وقال : ابن عدى لعاتكة بنتِ العيص ؟ قلتُ : نعم ، قال : أما واللهِ مالى بك عهدٌ بعد أن دفعْتُك إلى أمك في محفَّتِك التى كانت ترضعك فيها ، ونظرتُ إلى برقانِ قدميك حتّى كأنّه الآن .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب المغازى ؛ قال : علتُ هند يومئذ صخرة مشرفة ،

وصرختُ بأعلى صوتها :

والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعرٍ ^(٣)	نحنُ جزيناكم يومَ بدرٍ
ولا أخى وعمّه ويكرى	ما كان عن عتبة لي من صبرٍ
شفيتُ وحشى غليلِ صدرى	شفيتُ نفسى وقضيتُ نذرى

(١) المزاريق . جمع مِزراق ؛ وهو الرمح النصير .

(٢) ظفَار كَقَطَام : بلد باليمن ينسب إليه الجزع .

(٣) ذات سُعر ، أى حر .

فشكرُ وَحَشَى عَلَى عَمْرِى حَتَّى تَرِمَّ أَعْطَى فِي قَبْرِى ^(١)
قال : فأجابتها هند بنت أُنَثة بن المطلب بن عبد مناف :

خزيت في بدرٍ وغير بدرٍ يا بنتَ غَدَّارٍ عظيمِ الكُفْرِ ^(٢)
أفمك الله غداة الفجرِ بالهاشميين الطوال الزُّهْرِ
بكلِّ قطاعِ حُسامٍ يَفْرِى حمزةُ لَيْثِي وعلى صَقْرِى
إذ رامَ شيب وأبوك قَهْرِي نغضبا منه ضواحي النَجْرِ

قال محمد بن إسحاق : ومن الشعر الذى ارتجزت به هند بنت عتبة يوم أحد :

شفيت من حمزة نفسى بأحدٍ حين بقرت بطنه عن الكبد ^(٣)
أذهب عني ذلك ما كنتُ أجدُ من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المعتمدِ ^(٤)
والحرب تعلقكم بشؤبوبٍ برِّدُ نُقدِم إقداما عليكم كالأسدِ ^(٥)

قال محمد بنُ إسحاق : حدثني صالح بنُ كيسان ، قال : حدثتُ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قال لحسان : يا أبا الفريضة ، لو سمعت ما تقول هند ! ولو رأيت شرها قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ! فقال حسان : والله لى أنظر إلى الحربة تهوى وأنا على فارع - يعنى أطمه - فقلت : والله إن هذه لسيلاح ليس بسلاح العرب ، وإذا بها تهوى إلى حمزة ولا أدري ، [ولكن] ^(٦) أسمعنى بعض قولها أ كيفكموها ، فأشده عمر بعض ما قالت ؛ فقال حسان يهجوها :

أشِرت لَسْكَاعٍ وكان عادتُها لؤما إذا أشِرت مع الكُفْرِ ^(٧)

(١) ترم أعظمى : تبلى .
(٢) في ابن هشام : « يا بنت وقاع » .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣ .
(٤) المعتمد : القاصد المؤلم .
(٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر . وبرد - بفتح فكسر - أى ذو برد .
(٦) من سيرة ابن هشام .
(٧) الخبر وهذا البيت في سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤ ، والأبيات في ديوانه ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

أخرجت مرقصةً إلى أحدٍ في القوم مُقْتَبَةً على بَكَرٍ^(١)
 بَكَرٍ تَفَالٍ لَحَارَكِ بِهِ لَاعِنَ مَعَاتِبَةٍ وَلَا زَجِرٍ^(٢)
 أخرجت نائِرةً مُحَارِبَةً^(٣) بِأَبِيكَ وَأَبْنِكَ بَعْدُ فِي بَدْرِ^(٤)
 وَبِعَمِّكَ الْمَتْرُوكِ مِنْجِدٍ لَا وَأَخِيكَ مُنْعَفِرِينَ فِي الْجَفْرِ^(٥)
 فَرَجَعْتَ صَاغِرَةً بِلَا تِرَةٍ مِنَّا ظَفَرْتَ بِهَا وَلَا وَثِرٍ
 وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوها :

لَمَنْ سَوَاقِطٌ وَلَدَانِ مَطْرَحَةٌ بَاتَتْ تَفَحَّصُ فِي بَطْحَاءِ أَجْيَادٍ^(٦)
 بَاتَتْ تَمْخَضُ لَمْ تَشْهَدْ قَوَائِلُهَا إِلَّا الْوَحُوشَ وَالْأَجَنَّةَ الْوَادِي
 يَظَلُّ يَرْجُهُ الصَّبِيانُ مُنْعَفِرًا وَخَالَهُ وَأَبُوهُ سَيِّدَا النَّادِي^(٧)
 فِي آيَاتٍ كَرِهَتْ ذِكْرَهَا لَفَحْشُهَا .

قال : وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ ، عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَتْ : كُنَّا قَدْ رَفَعْنَا^(٨) يَوْمَ أُحُدٍ فِي
 الْأَطَامِ ، وَمَعْنَا حَسَّانَ بَنُ ثَابِتٍ ، وَكَانَ مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ ، وَنَحْنُ فِي فَارِعَ ، لَجَاءَ نَفَرٌ مِنْ
 يَهُودَ يَرُومُونَ الْأَطْمَ ، فَقُلْتُ : دُونَكَ يَا بَنَ الْفُرَيْعَةِ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أُسْتَطِيعُ الْقِتَالَ ،
 وَيَصْعَدُ يَهُودِيٌّ إِلَى الْأَطْمِ ، فَقُلْتُ : شَدَّ عَلَى يَدِي السَّيْفَ ، ثُمَّ بَرْتُ ، فَفَعَلَ ، فَضْرِبْتُ

(١) مرقصة ، أى مرقصه بكرها ، ورقص البعير أسرع في سيره . وفي الديوان : « معقنة » .

(٢) البكر الثفال : البطيء .

(٣) في الديوان : « أقبلت زائرة مبادرة » .

(٤) الديوان : « يوم ذى بدر » .

(٥) والجفر : البشر .

(٦) ديوانه ١٥٨ . وفي الديوان : منبذة » .

(٧) منعفرا ، أى علاه التراب ، ورواية الديوان :

قَدْ غَادَرُوهُ لَحْرَ الْوَجْهِ مُنْعَفِرًا وَخَالَهُ وَأَبُوهُ سَيِّدَا النَّادِي

(٨) رفعنا : عدونا .

عنق اليهودى ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا، قالت: فإني لفي فارِع أول النهار مشرفة على الأطم، فرأيتُ المزراق، فقلتُ أو من سلاحهم المزاريق! أفلا أراه هوى إلى أخى ولا أشعر! ثم خرجت آخر النهار حتى جئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله، وقد كنتُ أعرف انكشافَ المسلمين وأنا على الأطم برجوع حسَّان إلى أقصى الأطم، فلما رأى الدولة للمسلمين أقبل حتى وقف على جدار الأطم. قال: فلما انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعى نسوة من الأنصار لقيته وأصحابه أوزاع، فأول من لقيتُ على ابن أخى فقال: ارجع ياعمة، فإنَّ في الناس تكشفاً، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال صالح: قلت: ادلُّني عليه حتى أراه، فأشار إليه إشارة خفية، فانهيتُ إليه وبه الجراحة. قال الواقدي: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أحد: ما فعل عُمى، ما فعل عُمى انخرج الحارث بن الصِّمَّة يطلبه فأبطأ، فخرج علىَّ عليه السلام يطلبه فيقول:

ياربَّ إنَّ الحارثَ بنَ الصِّمَّةِ كان رفيقا وبنا ذا ذِمَّة^(١)
قد ضلَّ في مَهَامِهِ مُهَمِّمُهُ يَلْتَمِسُ الْجَنَّةَ فِيهَا تَمَّة^(٢).

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولا، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وآله، فأقبل يمشي حتى وقف عليه فقال: ما وقعتُ موقفاً قطَّ أغيظُ إلى من هذا الموقف. فطلعتُ صفية، فقال: يا زبير، اغن عني أمك، وحمزة يُحْفَرُ له، فقال الزبير يا أمَّه، إنَّ في الناس تكشفاً، فارجعي، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرى رسولَ الله صلى الله عليه وآله، فلما رآته قالت: يا رسول الله، أين ابنُ أُمى حمزة؟ فقال: هو في الناس؛ قالت: لأرجع حتى أنظر إليه، قال الزبير: فجعلت أطلُّها إلى الأرض حتى دُفِن وقال رسول الله

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٥٤ مع اختلاف في الرواية.

(٢) المهامة : جم مهمة، وهي المفازة البعيدة.

صلى الله عليه وآله : لولا أن تحزنَ ساؤنا لذلك لتركناه للعافية ، يعنى السَّبَّاعَ والطَّيْرَ حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحواصِلِها .

قال الواقديّ : ورُوى أن صَفِيَّةً لما جاءت حالت الأنصارُ بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دَعُوها ، فجلستُ عنده ، فجعلتُ إذا بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا نَشَجَتْ^(١) ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلتُ فاطمةً عليها السلام تبكى ، فلما بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أصابَ بمثل حمزة أبداً ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفية وفاطمة : أبشرا ، أتانى جبرائيلُ عليه السلام فأخبرنى أن حمزة مكتوبٌ في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطالب أسدُ الله وأسدُ رسوله .

قال الواقديّ : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزة مثلاً شديداً ، فجزّنه ذلك وقال : إن ظفرتُ بقريش لأمثلنّ بثلاثين منهم ، فأُنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٢) فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثّل بأحد من قريش .

قال الواقديّ : وقام أبو قتادة الأنصاريّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي كلّ ذلك يشير إليه أن أجلس ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قتادة ، إن قريشاً أهلُ أمانة ، من بغّهم العواثر كَبّهَ اللهَ لَفيهِ ، وعسى إن طالت بك مدّة أن تحقّر عملك مع أعمالهم ، وفعلالك مع فعلهم ،

(١) يقال : نشج الباكى ، غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

(٢) يقال : مثل بفلان مثلاً ومثلاً بالضم : نكّل به .

(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : والله يا رسول الله ما غضبت إلا لله ورسوله حين نالوا منه ما نالوا ، فقال : صدقت . بئس القوم كانوا للنبيهم .

قال الواقدي : وكان عبد الله بن جحش قبل أن تقع الحرب قال : يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهم أقسم عليك أن نلقى العدو غداً فيقتلوني ويهزقوا بطنى ويمثلوا بى ، فتهقول لى : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأنا أسألك يا رسول الله أخرى ، أن تبلى تركتى من بعدى . فقال له : نعم ، نخرج عبد الله فقتل ومثل به كل المثل ، ودفن هو وحمزة فى قبر واحد ، وولى تركته رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمه مالا بخير .

قال الواقدي : وأقبلت أخته سمنة بنت جحش ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : يا سمن^(١) ، احتسبى ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٢) غفر الله له ورحمه ، وهنئنا له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبى . قالت : من يا رسول الله ، قال : أخوك عبد الله ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٢) غفر الله له ورحمه وهنئنا له الشهادة ، ثم قال : احتسبى ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : بملك مصعب بن عمير ، فقالت : واحزنناه ! ويقال : إنها قالت : واعقرناه . قال محمد بن إسحاق فى كتابه : فصرخت وولولت . قال الواقدي : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد . وهكذا روى ابن إسحاق أيضاً .

قال الواقدي : ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرت يتم بنى فراعنى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله لولده أن يحسن الله عليهم الخلف .

(١) يا سمن ، مرخم « يا سمنة » . (٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

فَتَزَوَّجَتْ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ ، فَكَانَ أَوْصَلَ النَّاسِ لَوْلَدِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ .

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد

قال الواقدي : حدثني موسى بن يعقوب ، عن عمته ، عن أمها ، عن المقداد ، قال : لما تصافَّ القوم للقتال يومَ أُحُد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وآله تحت راية مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، فلما قُتِلَ أَصْحَابُ الْلِوَاءِ وَهَزِمَ الْمُشْرِكُونَ الْهَزِيمَةَ الْأُولَى ، وَأَغَارَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَعْسَكِهِمْ يَنْهَبُونَهُ ، ثُمَّ كَرَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَتَوْهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ، وَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي أَصْحَابِ الْأُولَى ، فَقُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ حَامِلُ لَوَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَخَذَ رَايَهُ الْخَزْرَجُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَحْتَهَا ، وَأَصْحَابُهُ مُحْدِقُونَ بِهِ ، وَدَفَعَ لَوَاءَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى أَبِي الرِّدْمِ أَحَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ آخَرَ نَهَارِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى لَوَاءِ الْأَوْسِ مَعَ أَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ ، فَنَاقَشُوا الْمُشْرِكِينَ سَاعَةً ، وَاقْتَتَلُوا عَلَى اخْتِلَاطٍ مِنَ الصُّفُوفِ ، وَنَادَى الْمُشْرِكُونَ بِشَعَارِهِمْ : يَا لَلْعُرَى ! يَا لَلْهَبَل ! فَأَوْجَعُوا وَاللَّهِ فِينَا قِتْلًا ذَرِيعًا ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا نَالُوا ؛ لَا وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا زَالَ شِيبْرًا وَاحِدًا ، إِنَّهُ لَفِي وَجْهِ الْعَدُوِّ وَثُوبٌ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَرَّةً ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ مَرَّةً ، فَرُبَّمَا رَأَيْتَهُ قَائِمًا يَرْمِي عَنْ قَوْسِهِ أَوْ يَرْمِي بِالْحِجَرِ حَتَّى تَحْجُزُوا ، وَكَانَتْ الْعِصَابَةُ الَّتِي ثَبَتَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، سَبْعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَسَبْعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، أَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَعَلِيُّ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُفُوفٍ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَالزَّيْدُ بْنُ الْعَوَّامِ ،

وأما الأنصار فالجباب بن المنذر وأبو دُجانة^(١) وعاصمُ بنُ ثابت بن أبي الأفلح والحارث ابنُ الصَّمة وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر .

قال الواقدي : وقد رُوي أن سعد بن عبادَةَ ومحمد بن مَسْلَمَةَ ثبَتَا يومئذ ولم يفرّا . ومن روى ذلك جعلهما مكانَ سعد بن مُعَاذٍ وأسيّد بن حُضَيْر .

قال الواقدي : وبإيَّاه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأما المهاجرون فعلى عليه السلام ، وطلحة ، والزبير ؛ وأما الأنصار فأبو دُجانة والحارث بن الصَّمة والجباب بن المنذر وعاصم بنُ ثابت وسهل بن حنيف ، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحد ؛ وأما باقي المسلمين ففرّوا ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يدعوهم في أفراسهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْرَاسِ^(٢) .

قال الواقدي : وحدثني عتبة بنُ جبير ، عن يعقوب بن عُمر بن قَتَادَةَ قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلاً كلهم يقول : وَجْهِي دُونَ وَجْهِكَ ، وَنَفْسِي دُونَ نَفْسِكَ ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ غَيْرَ مُوَدَّعٍ .

قلت : قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت ، فالواقدي ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذري فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، واتفقوا كلهم على أن ضرار بن الخطاب القهري قرّع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يا ابن الخطاب ، إني آليت ألا أقتل رجلاً من قريش . وَرَوَى ذلك محمد بن إسحاق وغيره ، ولم يختلفوا في ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرّعه بالرمح وهو فارّ هارب ، أم مقدّم ثابت ، والذين رَوَوْا أنه قرّعه بالرمح وهو هارب لم يقل

(٢) المهراس : ماء بأحد .

(١) أبو دُجانة ؛ هو سماك بن خرشة .

أحد منهم إنه هرب حين هرب عثمان ولا إلى الجهة التي فر إليها عثمان، ولم يتهرب معتصماً بالجبل، وهذا ليس بعيب ولا ذنب، لأن الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتصموا بالجبل كلهم وأصعدوا فيه، ولكن يبقى الفرق بين من أصدع في الجبل في آخر الأمر ومن أصدع فيه والحرب لم تضع أوزارها، فإن كان عمر أصدع فيه آخر الأمر، فكل المساهين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرق.

ولم يختلف الرواة من أهل الحديث في أن أبا بكر لم يفر يومئذ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والشبوت جهاد، وفيه وحده كفاية. وأما رواية الشيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلا على وطلحة والزبير وأبو جنة وسهل ابن حنيف وعاصم بن ثابت، ومنهم من روى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يعدون أبا بكر وعمر منهم. روى كثير من أصحاب الحديث أن عثمان جاء بعد ثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرض، فقال: لقد ذهبت فيها عريضة^(١).

روى الواقدي قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلغه عني ما أقول لك، فإني لا أعلم أحداً يبلغه غيرك. قال الوليد: أفعل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدت بدرًا ولم تشهد لها، وثبت يوم أحد ووليت، وشهدت بيعة الرضوان ولم تشهد لها، فلما أخبره قال عثمان: صدق أخى، تخلقت عن بدر على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى مريضة، فضرَب لي رسول الله صلى الله عليه وآله بسهمى وأجرى، فكنت بمنزلة من

(١) في النهاية لابن الأثير: «وفي حديث أحد قال للمنهزمين: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى واسعة».

حضر بدرا ، ووليت يوم أحد ، فعفا الله عني في محكم كتابه . وأما بيعة الرضوان فإني خرجت إلى أهل مكة ، بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : إن عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله ، وبائع عني بإحدى يديه على الأخرى ، فساكن شمال النبي خير من يميني فلما جاء الوليد إلى عبد الرحمن بما قال قال : صدق أخى .

قال الواقدي : ونظر عمر إلى عثمان بن عفان فقال : هذا ممن عفا الله عنه ، وهم الذين تولوا يوم التقي الجملان ، والله ما عفا الله عن شيء فردّه . قال : وسأل رجل عبد الله بن عمر عن عثمان فقال : أذنب يوم أحد ذنبا عظيما ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرا فقتلتموه ؛ واحتج من روى أن عمر فرّ يوم أحد بما روى أنه جاءته في أيام خلافته امرأة تطلب برّها من برود كانت بين يديه ، وجاءت معها بنت لعمر تطلب برّدا أيضا ، فأعطى المرأة وردّ ابنته ، فقبل له في ذلك ، فقال : إن أبا هذه ثبت يوم أحد ، وأبا هذه فرّ يوم أحد ولم يثبت .

وروى الواقدي أن عمر كان يحدث فيقول : لما صاح الشيطان : قُتِلَ محمد ، قلت : أرتى في الجبل كائى أروية ، وجعل بعضهم هذا حجة في إثبات فرار عمر ، وعندى أنه ليس بحجة ، لأن تمام الخبر : فانهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . وهويقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ^(١) الآية ، وأبو سفيان في سفح الجبل في كتبتيه يرومون أن يعلوا الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه ليس لهم أن يعملونا . فأنكشفوا ، وهذا يدل على أن رقيقه في الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وهذا بأن يكون منقبة له أشبه .

وروى الواقدي قال : حدثني ابن أبي سبرة ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم ، اسم أبي جهم عبيد ، قال : كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام فيقول : الحمد لله

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

الذى هدانى للإسلام ، لقد رأيتُ ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزموا يومَ أحدٍ وما معه أحدٌ ، وإني لفي كتيبةٍ خَشْناءٍ^(١) ، فما عرفه منهم أحدٌ غيرى ، وخشيتُ إن أغريت به من معى أن يصمدوا له ، فنظرتُ إليه وهو متوجّه إلى الشعب .

قلت : يجوز أن يكون هذا حقاً ، ولا خلاف أنه توجه إلى الشعب تاركا للحرب ، لكن يجوز أن يكون ذلك في آخر الأمر لما يئس المسلمون من النصرة ، فكلهم توجه نحو الشعب حينئذ ، وأيضا فإن خالدا متهم في حق عمر بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشحنة والشنآن ، فليس بمنكر من خالد أن ينعى عليه حركاته ، ويؤكد صحة هذا الخبر ، وكون خالد عفاً عن قتل عمر يومئذ ، ماهو معلوم من حال النسب بينهما من قبل الأم ، فإن أم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، وخالد هو ابن الوليد بن المغيرة ، فأم عمر ابنة عم خالد آجاً ، والرحم تعطف .

حضرتُ عند محمد بن معدّ العلويّ الموسويّ الفقيه على رأى الشيعة الإمامية رحمه الله في داره بدرب الدوابّ ببغداد في سنة ثمانٍ وستمائة ، وقارىّ يقرأ عنده معازي الواقديّ ، فقرأ : حدثنا الواقديّ قال : حدثني ابنُ أبي سبرة ، عن خالد بن رباح ، عن أبي سُفيان مولى ابن أبي أحمد قال : سمعتُ محمد بن مسامة يقول : سمعتُ أذُنَيْ وأبصرتُ عَيْنَيْ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أحدٍ وقد انكشف الناس إلى الجبل ، وهو يدعوهم وهم لا يلبثون عليه ، سمعته يقول : إلى يافلان ، إلى يافلان ، أنا رسولُ الله ، فما عرج عليه واحدٌ منهما ومضياً ، فأشار ابنُ معدّ إلىّ ، أن اسمعُ ، فقلت : وما في هذا ؟ قال : هذه كناية عنهما ، فقلتُ : ويجوز ألا يكون عنهما ، لعله عن غيرها . قال : ليس في الصحابة من

(١) كتيبة خَشْناء : كثيرة السلاح .

يحتشم ويستحيًا من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكناية إلهاماً قلتُ له : هذا وهم^(١) ، فقال : دَعْنَا مِنْ جَدَلِكَ وَمَنْعِكَ ، ثم حلف أنه ما عنى الواقدي غيرهما ، وأنه لو كان غيرها لذكره صريحاً ، وبأن في وجهه التنكير من مخالفتي له .

رَوَى الواقدي قال : لما صالح إبليس : إن محمداً قد قُتِلَ ، تفرق الناس ، فنهض من ورد المدينة ، فكان أول من وردها يُخبر أن محمداً قد قُتِلَ ، سعدُ بن عثمان أبو عبادة ، ثم ورد بعده رجال حتى دخلوا على نساءهم حتى جعل النساء يقلن : أعن رسول الله تفررون ! ويقول لهم ابنُ أمِّ مكتوم : أعن رسول الله تفررون ؟ يؤنّب بهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله خلفه بالمدينة يصلي بالناس ، ثم قال : دُتُونِي عَلَى الطَّرِيقِ - يعني طريقَ أُحُدٍ - فدَلَّوْهُ ، فجعل يستخير كلَّ من لقي في الطريق حتى لَحِقَ الْقَوْمُ ، فعلم بسلامة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع . وكان ممن ولَّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة ابن حاطب وسواد بن غزيرة وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ مَلَلٌ^(٢) ، وأوس بن قَيْطِي في نفر من بني حارثة بلغوا الشَّقْرَةَ^(٣) ولقيتهم أمُّ أَيْمَنَ تَحِيَّ^(٤) في وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هَاكَ الْمَغْرَلُ فَاغْزِلْ بِهِ ، وهَلَمْ . واحتجَّ من قال بفرار عمر بما رواه الواقدي في كتاب المغازي في قصَّة الحديدية ، قال : قال عمر يومئذ : يا رسول الله ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْتَنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ مَعَ الْمَعْرِفِينَ ، وَهَذَا يَنْبَغِي لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تُحَرِّ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أَقَلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا ؟ قال عمر : لَا ، قال : أَمَا لَأَنْكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ وَآخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَأُحْلِقُ رَأْسِي وَرُءُوسَكُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمَعْرِفِينَ ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ

(١) كذا في ب : والذي في أ « ممنوع » .

(٢) ملل ؛ كجبل : موضع بعينه . (٣) الشقرة : موضع معروف لبني سليم .

(٤) يقال : حشا التراب في وجهه يحثوه ويحشيه ، إذا رماه به .

أُحَدِّثُكُمْ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ^(١) وأنا أدعوكم في آخركم ! أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴿ أنسيتم يوم كذا ﴾ وجعل يذكركم أمورا ، أنسيتم يوم كذا ! فقال المسلمون : صدق الله وصدق رسوله ، أنت يا رسول الله أعلم بالله منا ، فلما دخل عام القضية وحلق رأسه قال : هذا الذي كنت وعدتكم به ، فلما كان يوم الفتح وأخذ مفتاح الكعبة قال : ادعوا إلى عمر بن الخطاب ، فجاء فقال : هذا الذي كنت قلت لكم . قالوا : فلو لم يكن فرد يوم أحد لما قال له : أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون .

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل

قال الواقدي : حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : لما صاح الشيطان لعنه الله : إن محمدا قد قتل يحزنهم بذلك ، تفرقوا في كل وجه ، وجعل الناس يميرون على النبي صلى الله عليه وآله لا يلوي عليه أحد منهم ، ورسول الله يدعوهم في أفراسهم ، حتى انتهت هزيمة قوم منهم إلى الميهراس ، فتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أصحابه في الشعب فانتهى إلى الشعب وأصحابه في الجبل أوزاع ، يذكرون مقتل من قتل منهم ، ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن مالك : فكنت أول من عرفه وعليه المغفر ، فجعلت أصيح وأنا في الشعب : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حي ، فجعل يومئذ إلى بيده على فيه أي أسكت ، ثم دعا بالأمم^(٢) فللبسها ونزع لأمته .

قال الواقدي : طلع رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه في الشعب بين السعديين :

(٢) سورة الأحزاب : ١٠ .

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٣) اللأمة : الدرر .

سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ يتكفأ في الدرع ، وكان إذا مشى تكفأ تكفأ ، ويقال : إنه كان يتوكأ على طلحة بن عبيد الله .

قال الواقدي : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالسا للجرح الذي كان أصابه .

قال الواقدي : وقد كان طلحة قال له : إن بي قوة ، فقم لأحملك ، فعمله حتى انتهى إلى الصخرة التي على فم شعب الجبل ، فلم يزل يحمله حتى رفعه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النفر الذين ثبتوا معه ، فلما نظر المسلمون إليهم ظنّوهم قريشا ، فجعلوا يوثقون في الشعب هارين منهم ، ثم جعل أبو دجانة يُلحِق إليهم بعامة حمراء على رأسه ، فعرّفوه فرجعوا ، أو بعضهم .

قال الواقدي : ورؤي أنما طلع عليهم في النفر الذين ثبتوا معه وهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار - جعلوا يولون في الجبل خائفين منهم يظنونهم المشركين ، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يتبسّم إلى أبي بكر وهو على جنبه ويقول له : أُلح إليهم ، فجعل أبو بكر يلح إليهم وهم لا يعرجون حتى نزع أبو دجانة عصاة حمراء على رأسه فأوْفى^(١) على الجبل ، فجعل يصيح ويُلح ، فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وضع أبو بردة بن نيارسها على كبد قوسه ، فأراد أن يرمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تكلموا وناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله أمسك ، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنهم لم تُصِبهم في أنفسهم مصيبة ، وسُرّوا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

قال الواقدي : ثم إن قوما من قريش صعدوا الجبل فعملوا على المساهين وهم في الشعب . قال : فكان رافع بن خديج يحدث فيقول : إني يومئذ إلى جنب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر برجال : منهم سعد بن

(١) أولى : أشرف وعلا .

الرَّبِيع ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع^(١) ويترحم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حميمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فيبناهم على ذلك ردَّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوهم فوقهم قد علوا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون ، وندبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وحضنا على القتال ، والله لكأنى أنظرُ إلى فلان وفلان في عرض الجبل يعدوان هاربين .

قال الواقدي : فكان عمرُ يحدث يقول ، لما صاح الشيطان : قَتِلْ مُحَمَّد ، أقبلتُ أرقى إلى الجبل ، فكأنى أروية ، فانهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيان في سفح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربَّه : اللهم ليس لهم أن يعلوا . فانكشفوا .

قال الواقدي : فكان أبو أسيد الساعدي يحدث فيقول : لقد رأيتنا قبل أن يلقى النعاس علينا في الشعب وإنما سلم لمن أرادنا ، لما بنا من الحزن ، فألقى علينا النعاس ، فمنا حتى تناطح الحِجَف^(٢) ، ثم فرعنا وكأنا لم يصبنا قبل ذلك نكبة . قال : وقال الزبير ابن العوام : غشنا النعاس فما منا رجل إلا وذقنه في صدره من النوم ، فأسمع معتب بن قشير - وكان من المنافقين - يقول : وإني لكالهالم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾^(٣) ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليسر : لقد رأيتني ذلك اليوم في رجال من قومي إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنزل الله علينا النعاس أمنة منه ، مامنهم رجل إلا يغط غطيطة حتى إن الحِجَف لتناطح ، ولقد رأيت سيفَ بشر بن البراء بن معرور سقط من يده

(١) استرجع : قال : إنما لله وإنما إليه راجعون .

(٢) الحِجَف بالتحريك : جمع حِجفة ؛ وهى الزنس .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

وما يشعر به حتى أخذه بعد ما تلبس ، وإنّ المشركين لتحتنا ، وسقط سيف أبي طلحة أيضا ولم يُصب أهل الشكّ والنفاق نَعَسٌ يومئذ ، وإنّما أصاب النعاس أهل الإيمان واليقين ، فكان المنافقون يتكلم كلّ منهم بما في نفسه ، والمؤمنون ناعسون .

قلت : سألتُ ابن النجّار الحدّث عن هذا الموضع فقلت له : من قصّة أخذ تدلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادئ الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان : قُتل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم تاب أكثر المهزّمين إلى النّبى صلى الله عليه وآله ، فارباده حرباً كثيرة طال مدتها حتى صار آخر النهار ، ثم أصدعوا في الجبل معتمدين به ، وأصدع رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتحاجز الفريقان حينئذ ، وهذا هو الذي يدلّ عليه تأمل قصّة أحد ، إلّا أنّ بعض الروايات التي ذكرها الواقدي يقتضى غير ذلك ، نحو روايته في هذا الباب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما صاح الشيطان : إنّ محمداً قد قُتل ، كان ينادي المسلمين فلا يعرفون عليه ، وإنّما يصعدون في الجبل ، وإنّ وجهه نحو الجبل ، فانهزم إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلّ على أنّه أصدع رسول الله عليه وآله في الجبل من أوّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصيحه الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لما غشيهم وهم مشغولون بالنهب واختلط الناس ، فكيف هذا !

فقال : إنّ الشيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة في أوّل الحرب ، ودفعة في آخر الحرب ، لما تصرّم النهار وغشيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قُتل ناصروه وأكلتهم الحرب ، فلم يبق معه إلّا نفر يسير لا يبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعب وأشدّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم في صرخة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبت وحامى عنه أصحابه ، ولقد لقي في الأولى مشقة عظيمة من ابن قتيبة وعُتْبة بن أبي وقاص وغيرهما ،

ولكنّه لم يفارق عُرْضة الحرب ، وإِنَّمَا فارقها وَعَلِمَ أَنَّهُ لم يبق له وجه مُقام في صرخته الثانية .

قلت له : فكان القومُ مختلطين في الصّرخة الثانية حتّى يَصْرُخَ الشيطان : قُتِلَ مُحَمَّد ! قال : نعم ، المشركون قد أحاطوا بالنبيّ صَلَّى الله عليه وآله وبمن بقيَ معه من أصحابه ، فاختلط المسلمون بهم ، وصاروا مغمورين بينهم ، لَقَمَتَهُم بالنسبة إليهم ؛ وظنّ قوم من المشركين أَنَّهُم قد قَتَلُوا النبيّ صَلَّى الله عليه وآله لأنَّهُم فقدوا وجهه وصورته ، فنادى الشيطان : قُتِلَ مُحَمَّد ، ولم يكن قُتِلَ صَلَّى الله عليه وآله ، ولكن اشبهت صورته عليهم وظنّوه غيره ، وأكثَر من حامى عنه في تلك الحال علىّ عليه السلام وأبو دُجَانة وسهلُ ابنُ حنيفة ، وحامى هو عن نفسه ، وجرح قوما بيده تارة بالسهم ، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النَّقْع ^(١) ، وكانت قريشٌ تظنّه واحداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمرُ صعباً جداً ، ولكنّ الله تعالى عصمه منهم بأن أزاغ أبصارهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه ، وهو يقربُ من الجبل حتّى صار في أعلى الجبل ، أصدَد من فم الشعب إلى تدريج هناك في الجبل ، ورقي في ذلك التدريج صاعداً حتّى صار في أعلى الجبل ، وتبعه نفر الثلاثة فلَحِقُوا به .

قلتُ له : فما بال القوم الذين صعدوا الجبلَ من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعَوْدُهُم ؟

قال : أصدَدُوا لحرب المسلمين لا لِطَلَب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ؛ لأنَّهُم ظنّوا أَنَّهُ قد قُتِلَ ، وهذا هو كان السبب في عَوْدِهِم من الجبل ، لأنَّهُم قالوا : قد بلغنا الغرضَ

(١) النَّقْع : غبار الحرب .

الأصلى وقتلنا محمداً ، فما لنا والتصميم على الأوس والخزرج وغيرهم من أصحابه ، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خطر لهم ، فلماذا صعدوا في الجبل .

قال : يخطر لك خاطر ، ويدعوك دايع إلى بعض الحركات ، فإذا شرعت فيها خطر لك خاطر آخر يصرفك عنها ، فترجع ولا تنتمها !
قلت : نعم فما بالهم لم يقصدوا قصد المدينة وينهبوها ؟

قال : كان فيها عبد الله بن أبي في ثلثمائة مقاتل وفيها خلق كثير من الأوس والخزرج ، لم يحضروا الحرب وهم مسلمون ، وطوائف أخرى من المنافقين لم يخرجوا ، وطوائف أخرى من اليهود ، أولو بأس وقوة ، ولهم بالمدينة عيال وأهل ونساء ، وكل هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تأمن مع ذلك أن يأتيها رسول الله صلى الله عليه وآله من ورائها بمن يجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأي الأصوب لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

قال الواقدي : حدثني الضحاك بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تهاجزوا وأراد أبو سفيان الانصراف ، أقبل يسير على فرس له حوراء^(١) ، فوقف على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم في عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أعل هبل ، ثم صاح : أين ابن أبي كبشة ؟ يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُول .

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضاً ، فقال : أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ ثم قال : الحرب سجال ، حنظلة بحنظلة ، يعنى حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبى سفيان ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أجيبه ؟ قال : نعم فأجبه ، فلما قال : أعل هُبل قال عمر : الله أعلى وأجل .

ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : قل له : لله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فقال : عنها يابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبي سفيان : ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال ، فقال عمر : ولا سواء^(١) ؛ قتلانا فى الجنة وقتلناكم فى النار ، فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك لقد جهنمنا إذا وخسرنا ، ثم قال : يابن الخطاب ، قم إلى أ كلكم : فقام إليه فقال : أنشدك بدنيك : هل قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قتيبة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلناكم عنتا ومثلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه ؟ ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمرو قفة ينتظر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لسعد بن أبى وقاص : اذهب فأتنا بخبر القوم ، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا^(٢) الخيل فهو الظعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده ، إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأنجزنهم . قال سعد : فتوجهت أسعى وأرصدت نفسى إن أفرغنى شيء رجعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أسعى ، فبدأت بالسعى حين ابتدأت ، فخرجت فى آثارهم

(١) ولا سواء : يعنى لا يستوى هذا وذاك .

(٢) جنبوا الخيل ، أى ساقوها إلى جانبهم .

حتى إذا كانوا بالعقيق^(١) وأنا بحيث أراهم وأتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفَةً بالعقيق، وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان ابن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالثون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم، فقد وليتم يوم بدر، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نهام صفوان. فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا في المكنن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالمنكسر فقال: ووجه القوم يارسول الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل. فقال: ماتقول؟ قلت: ما قلت يارسول الله، فخلا بي فقال: أحقاً ماتقول؟ قلت: نعم يارسول الله، قال: فما بالي رأيتك منكسراً؟ فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فرحاً بقفولهم إلى بلادهم، فقال صلى الله عليه وسلم: إن سعداً لم يجرب.

قال الواقدي: وقد روى خلاف هذا، روى أن سعداً لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد: خفف صوتك فإن الحرب خدعة، فلا ترى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، وإنما ردّهم الله تعالى.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفت في أعضاء المسلمين، فذهب فرآهم قد امتطوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيح سروراً بانصرافهم.

قال الواقدي: وقيل لعمر بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم

(١) العقيق: موضع بالمدينة فيه عبور ونخيل. (ياقوت).

أحد؟ فقال: ما تريدون إلى ذلك! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله، ثم قال: لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم وتفرقوا في كل وجه، وفاءت لهم فئة بعد؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة، فلو انصرفنا، فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث الناس، وقد تحلف الناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا، وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عقرت من التبل، فمضينا، فما بلغنا الروحاء^(١) حتى قام علينا عدة منها؛ وانصرفنا إلى مكة.

قال الواقدي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عائشة؛ قال: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد ورؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه حتى دخلت في وجهه حلقتان من المغفر، أقبلت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانا، فقلت: اللهم اجعله طلحة بن عبيد الله؛ حتى توافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أبو عبيدة بن الجراح، فبدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنزعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر: فتركته. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم صاحبكم»، يعني طلحة، فأخذ أبو عبيدة بثنيته حلقة المغفر، فنزعها وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة بثنيته الأخرى، فكان أبو عبيدة في الناس أثر^(٢). ويقال: إن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن وهب بن كلفة؛ ويقال: أبو اليسر.

قال الواقدي: وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهب بن كلفة.

قال الواقدي: وكان أبو سعيد الخدري يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروحاء: موضع على أربعين ميلا من المدينة.

(٢) الأثر: الذي لا أسنان له.

أصيب وجهه يوم أحد ، فدخلت الحلقتان من المغفر في وجنتيه ، فلما نزعنا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن^(١) ، فجعل مالك بن سنان يميح الدم بفيه ، ثم ازدردّه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ خَالَطَ دَمَهُ بَدَى فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ . فقل لمالك : تشرب الدم ! فقال : نعم ؛ أشرب دَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ مَسَّ دَمُهُ دَمِي لَمْ نُصِبه النار » .

قال الواقدي : وقال أبو سعيد : كُنَّا مِمَّنْ رُدَّ مِنَ الشَّيْخِينَ^(٢) لَمْ نَجِئْ مَعَ الْمُقَاتِلَةِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ النَّهَارِ بَلَّغْنَا مَصَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ ، جِئْتُ مَعَ غُلَامَانِ بَنِي خُدْرَةَ نَعْرِضُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَنْظُرُ إِلَى سَلَامَتِهِ ، فَرَجَعْنَا بِذَلِكَ إِلَى أَهْلِنَا ، فَلَقِينَا النَّاسَ مَتَفَرِّقِينَ بِيْطَانِ قَنَاةَ ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا هِمَّةٌ إِلَّا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَنْظُرُ إِلَيْهِ ؛ فَلَمَّا رَأَى قَالَ : سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ أَقْلْتُ : نَعَمْ ، بَابِي أَنْتِ وَأُمِّي ! وَدَنُوتُ مِنْهُ ، فَقَبِلْتُ رَكْبَتَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ ؛ فَقَالَ : آجَرَكَ اللَّهُ فِي أَبِيكَ ! ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا فِي وَجْنَتَيْهِ مِثْلُ مَوْضِعِ الدَّرْهِمِ فِي كُلِّ وَجْنَةٍ ، وَإِذَا شَجَّةٌ فِي جَبْهَتِهِ عِنْدَ أَصُولِ الشَّعْرِ ، وَإِذَا شَفْتُهُ السُّفْلَى تَدْمِي ، وَإِذَا فِي رِبَاعِيَّتِهِ الْيَمْنَى شَطِيبَةٌ ، وَإِذَا عَلَى جُرْحِهِ شَيْءٌ أَسْوَدُ ، فَسَأَلْتُ : مَا هَذَا عَلَى وَجْهِهِ ؟ فَقَالُوا : حَصِيرٌ مَحْرَقٌ . وَسَأَلْتُ : مَنْ أَذْمَى وَجْنَتَيْهِ ؟ فَقِيلَ : ابْنُ قَيْثَةَ ، فَقُلْتُ : فَمَنْ شَجَّهَ فِي وَجْهِهِ ؟ فَقِيلَ : ابْنُ شَهَابٍ ؛ فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَ شَفْتَيْهِ ؟ قِيلَ : عَتَبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ . فَجَعَلْتُ أَعْدُو بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى نَزَلَ بِبَابِهِ ، مَا نَزَلَ إِلَّا مَحْمُولًا ، وَأَرَى رَكْبَتَيْهِ بِمَجْجُوشَتَيْنِ^(٣) يَتَكَيءُ [عَلَى]^(٤) السَّعْدَيْنِ : سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَسَعْدُ ابْنُ عُبَادَةَ ؛ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَأُذِّنَ بِاللَّائِلِ بِالصَّلَاةِ ، خَرَجَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ

(١) الشن : القرية الحاقق .

(٢) الشخان : موضع بالمدينة ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وما أظن سميا به .

(٣) يقال : جشش الجلد : سحجه ؛ وهو كالجدش أو فوقه .

(٤) من أ .

يتوكلًا على السَّعْدَيْنِ : سعد بن عبادَة وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته والناس في المسجد يوقدون النيران يتمكدون بها من الجراح ، ثم أذن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابهِ صلى الله عليه وسلم حتى ذهبَ ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله انخرج ، وقد كان نائمًا ، قال : فرمقته فإذا هو أخفّ في مشيئته منه حين دخل بيته ، فصلّيت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صفّ له الرجال ما بين بيته إلى مُصَلَّاهُ يمشى وحده حتى دخل ، ورجعتُ إلى أهلي فخبرتهم بسلامته ، فحمدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوس والخزرج في المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم يحرسونه فرقًا من قريش أن تكرّ .

قال الواقديّ : وخرجت فاطمة عليها السلام في نساء ، وقد رأت الذي بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقته ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدّ غضبُ الله على قوم دمّوا وجهَ رسوله . وذهب علىّ عليه السلام فأتى بماء من المهراس ، وقال : لفاطمة امسكي هذا السيف غير ذميم ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محتضبا بالدم ، فقال : لئن كنت أحسنت القتال اليوم ، فلقد أحسن حاصمُ بن ثابت والحارث بن الصّمة وسهل بن حنيفة ، وسيف أبي دُجانة غير مذموم ؛ هكذا روى الواقديّ .

وروى محمد بنُ إسحاق أن عليًّا عليه السلام قال لفاطمة بيتي شعر ، وهما :

أفاطيم هاء السيف غير ذميم	فلست برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد	وطاعة ربّ بالعباد رحيم

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك سيماك بن خرشة ، وسهل بن حنيفة .

قال الواقديّ : فلما أحضر عليّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطشاً ، ووجد ريحا من الماء كرهها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدم الذي كان بفيه ثم سحجه ، وغسلت فاطمة به الدم عن أيها صلى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بن مسامة يطب مع النساء ، وكن أربع عشرة امرأة ، قد جئن من المدينة يتلقين الناس منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم .

قال الواقديّ : قال كعب بن مالك : رأيت عائشة وأمّ سكيم على ظهورهما القرب تحملانها يوم أحد ، وكانت تحمّنه بذئ جحش تسقى العطشى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسامة عندهن ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتدّ عطشه ، فذهب محمد ابن مسامة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسى - قناة عند قصور التميميين اليوم - فجاء بماء عذب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لن ينالوا منّا مثلاً حتى نستلم الركن ! فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ وهي تفسل جراحه ، وعليّ يصب الماء عليها بالحنّ ، أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدم . ويقال : إنها داوته بصوفة محرقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مداوى الجراح الذي في وجهه بعظم بال حتى ذهب أثره . ولقد مكث يجد وهنّ ضربة ابن قيثة على عاتقه شهرا أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذي في وجهه بعظم .

قال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة : من يأتينا بخبر سعد بن الربيع أفأنتي رأيته وأشار بيده إلى ناحية من الوادي - قد شرع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسامة - ويقال أبيّ بن كعب - نحو تلك الناحية . قال : فأنا وسط القتلى لتعرفهم ، إذ مررت به صريعا في الوادي ، فناديته فلم يجب ، ثم قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليك . قال : فتنفّس كما يتنفّس الطير ؛ ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحى! قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنانا، فقال: طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتنى، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة! والله مالكم عذر عند الله إن خالص إلى نبيكم ومنكم عين تطريف؛ فلم أرم^(١) من عنده حتى مات؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فرأيت أنه استقبل القبلة رفعاً يديه يقول: «اللهم ألق سعد بن الربيع وأنت عنه راضٍ».

قال الواقدي: وخرجت السمداء بنت قيس؛ إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب ابنها مع النبي صلى الله عليه وآله بأحد: النعمان بن عبد عمر، وسليم بن الحارث، فلما نعيها لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: بخير، هو بحمد الله صالح على ماتحيين، فقالت: أروني أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جال^(٢)! وخرجت تسوق ببنيتها بعيرا، [تردها إلى المدينة]^(٣)؛ فلقيتها عائشة؛ فقالت: ما وراءك؟ فأخبرتها^(٤)، قالت: فمن هؤلاء معك؟ قالت ابناي؛ حل^(٥) تحملهما إلى القبر.

قال الواقدي: وكان حمزة بن عبد المطلب أول من جاء به إلى النبي صلى الله عليه وآله بعد انصراف قريش - أو كان من أولهم - فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: رأيت للملائكة تغسله - قالوا: لأن حمزة كان جنباً ذلك اليوم - ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ، وقال: لُقوهم بدمائهم وجراحهم، فإنه ليس أحد يخرج في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة لون جرحه لون الدّم، وريحه ريح المسك، ثم

(١) لم أرم: لم أبرح. (٢) جلل، أى هينة. (٣) من الواقدي.

(٤) الواقدي: قالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فبخير لم يمت، واتخذ الله من المؤمنين شهداء:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾

(٥) حل: زجر للبعير.

قال : ضَعَوْهم فَأَنَا الشَّهِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ حِمْزَةٌ أَوَّلَ مَنْ كَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا ، ثُمَّ جُمِعَ إِلَيْهِ الشَّهَدَاءُ فَكَانَ كَلِمًا أَتَى بِشَهِيدٍ وَضُيْعَ إِلَى جَنْبِ حِمْزَةٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّهِيدِ ، حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعِينَ مَرَّةً ، لِأَنَّ الشَّهَدَاءَ سَبْعُونَ .

قال الواقدي . ويقال : كَانَ يُؤْتَى بِتِسْعَةِ وَحِمْزَةٍ عَاشِرِهِمْ ، فَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ ، وَتُرْفَعُ التَّسْعَةُ ، وَيُتْرَكُ حِمْزَةُ مَكَانِهِ ، وَيُؤْتَى بِتِسْعَةٍ آخَرِينَ فَيُوضَعُونَ إِلَى جَنْبِ حِمْزَةٍ فَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ كَبَّرَ عَلَيْهِ خَمْسًا وَسَبْعًا وَتِسْعًا .

قال الواقدي : وَقَدْ اخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ فِي هَذَا ، وَكَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُونَ : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلَى أَحَدٍ ، وَقَالَ : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ » ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَلَسْنَا إِخْوَانُهُمْ أَسْلَمْنَا كَمَا أَسْلَمُوا ، وَجَاهَدْنَا كَمَا جَاهَدُوا ! قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ أَجُورِهِمْ ، شَيْئًا ، وَلَا أَدْرَى مَا تَحْدِثُونَ بَعْدِي ! فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : إِنَّا لَكَاثِنُونَ بَعْدَكَ !

وقال أنس بن مالك وسعيد بن المسيب : لَمْ يَصَلِّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى قَتْلَى أَحَدٍ .

قال الواقدي : وَقَالَ لِأَهْلِ الْقَتْلِ : احْفَرُوا وَأَوْسِعُوا وَأَحْسِنُوا ، وَادْفَنُوا الْإِثْنَيْنِ وَالثَلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ ، وَقَدِّمُوا أَكْثَرَهُمْ قِرْآنًا . وَأَمْرٌ بِحِمْزَةٍ أَنْ تَمُدَّ بِرُدَّتِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْقَبْرِ ، وَكَانَتْ قَصِيرَةً ، فَكَانُوا إِذَا خَرُّوا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا خَرُّوا بِهَا رِجْلَيْهِ انْكَشَفَ وَجْهُهُ ، فَبَكَى الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ يُقْتَلُ فَلَا يُوْجَدُ لَهُ ثَوْبٌ ! فَقَالَ : بَلَى ؛ إِنَّكُمْ بِأَرْضِ جَزْدِيَّةٍ^(١) ذَاتِ أَحْجَارٍ ، وَسَتَفْتَحُ - يَعْنِي الْأَرْيَافَ وَالْأَمْصَارَ - فَيُخْرِجُ النَّاسُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَبْعَثُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرُ لَهِمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؛

(١) جردية ؛ قال الواقدي : التي ليس بها شيء من الأشجار .

والذى نفسى بيده لاتصبر نفس على لأوائها وشدتها إلا كنت لها شفيعا - أو قال : شهيدا يوم القيامة .

قال الواقدي : وأتى عبد الرحمن بن عوف فى خلافة عثمان بنيا ب وطعام فقال : ولكن حمزة لم يوجد له كفن ، ومصعب بن عمير لم يوجد له كفن ، وكانا خيرا منى !

قال الواقدي : ومرو رسول الله صلى الله عليه وآله بمصعب بن عمير وهو مقتول مسجى ببردة خلقي ، فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت اليوم أشعث الرأس فى هذه البردة ! ثم أمر به فقبر ، ونزل فى قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسوكيبة بن عمرو بن حرملة ، ونزل فى قبر حمزة على عليه السلام والزبير وأبو بكر وعمر ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس على حفرة .

قال الواقدي : ثم إن الناس أو عامتهم حملوا قتلاهم إلى المدينة ، فدفن بالبيع منهم عدة ، عند دار زيد بن ثابت ، ودفن بعضهم ببني سامة ، فنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وآله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم - وكان الناس قد دفنوا قتلاهم - فلم يرد أحد أحدا منهم إلا رجلا واحدا أدركه المنادى ولم يدفن ، وهو شماس بن عثمان الخزومي ، كان قد نُهل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة فقالت أم سامة : ابن عمي يدخل إلى غيري ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : احملوه إلى أم سامة ، فحملوه إليها فمات عندها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يرد إلى أحد فيدفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها ، وكان قد مكث يوما وليلة ولم يذق شيئا ، فلم يصل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غسله .

قال الواقدي : فأما القبور المجتمعة هناك فكثير من الناس يظنها قبور قتلى أحد ، وكان طلحة بن عبيد الله وعبد بن تميم المازني يقولان : هى قبور قوم من الأعراب كانوا

عام الرمادة في عهد عمر هناك ، فأتوا ، فتلك قبورهم . وكان ابن أبي ذئب وعبد العزيز ابن محمد يقولان : لانعرف تلك القبور المجتمعة ، إنما هي قبور ناس من أهل البادية ، قالوا : إننا نعرف قبر حمزة وقبر عبد الله بن حزام وقبر سهل بن قيس ، ولا نعرف غير ذلك .

قال الواقدي : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يزور قتلى أحد في كل حول ، وإذا لقوه بالشعب رفع صوته يقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقيب الدار ! وكان أبو بكر يفعل مثل ذلك ، وكذلك عمر بن الخطاب ؛ ثم عثمان ، ثم معاوية ؛ حين يمر حاجاً ومعتمراً .

قال : وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله تأتيهم بين اليمين والثلاثة فنبكي عندهم وتدعو ، وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة ، فيأتي من خلف قبور الشهداء فيقول : السلام عليكم ؛ ثلاثاً ، ويقول : لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه السلام إلى يوم القيامة . قال : ومر رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر مصعب بن عمير ، فوقف عليه ، ودعا وقرأ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ^(١) ، ثم قال : إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فأتوهم فزورهم وساموا عليهم ، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه . وكان أبو سعيد الخدري يقف على قبر حمزة فيدعو ويقرأ ويقول مثل ذلك . وكانت أم سامة رحمها الله ؛ تذهب فتسلم عليهم في كل شهر فتظل يومها ، فجاءت يوماً ومعه غلامها أنبهان ، فلم يسلم ، فقالت : أي لكع ! ألا تسلم عليهم ! والله لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة .

قال : وكان أبو هريرة وعبد الله بن عمر يذهبان فيسمان عليهم ؛ قالت فاطمة

الْخِزَاعِيَّةُ : سَلَّمْتُ عَلَى قَبْرِ حِمْرَةَ يَوْمًا وَمَعِيَ أُخْتُ لِي ؛ فَسَمِعْنَا مِنَ الْقَبْرِ قَائِلًا يَقُولُ :
وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ! قَالَتْ : وَلَمْ يَكُنْ قَرَبْنَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ .
قَالَ الْوَاقِدِيُّ : فَلَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ دَفْنِهِمْ دَعَا بِفَرَسِهِ فَرَكَبَهُ ،
وَخَرَجَ الْمَسَامُونَ حَوْلَهُ عَامَّتِهِمْ جَرَحَى ، وَلَا مِثْلَ بَنِي سَيْمَةَ وَبَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، فَلَمَّا كَانُوا
بِأَصْلِ الْحَرَّةِ قَالَ : اصْطَفُوا ، فَاصْطَفَتِ الرِّجَالُ صَفَّيْنِ ، وَخَلَفَهُمُ النِّسَاءُ وَعَدَّتْهُنَّ أَرْبَعُ
عَشْرَةَ امْرَأَةً ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فِدَعَا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ،
وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مَعْطَى لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّتْ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ،
وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ
وَفَضْلِكَ وَعَافِيَتِكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّعِمَ الْمَقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ
الْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، وَالْغِنَاءَ يَوْمَ الْفَقَاقَةِ ، عَازِدًا بِكَ ، اللَّهُمَّ مِنْ سُوءِ مَا أُعْطِيتَ ، وَمِنْ
شَرِّ مَا مَنَعْتَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكُرِّهِ
إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ عَذِّبْ كُفْرَةَ أَهْلِ
الْكِتَابِ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ رَسُولَكَ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رِجْسَكَ
وَعَذَابَكَ إِلَهَ الْحَقِّ ، آمِينَ !

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ بَيْنِي حَارِثَةُ يَمِينًا حَتَّى طَلَعَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ
وَهُمْ يَبْكُونَ عَلَى قَتْلِهِمْ ، فَقَالَ : لَكِنَّ حِمْرَةَ لَا بَوَّاءَ لَهَا ! فَخَرَجَ النِّسَاءُ يَنْظُرُونَ إِلَى سَلَامَةِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ أُمُّ عَامِرِ الْأَشْهَلِيَّةِ ، وَتَرَكْتُ النَّوْحَ ، فَنَظَرْتُ
إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ الدَّرْعُ كَمَا هِيَ ، فَقَالَتْ : كُلُّ مَصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ . وَخَرَجْتُ كَبِشَةً بِنْتُ عُبَيْةَ
ابْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ تَعْدُو نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ وَقَفَ
عَلَى فَرَسِهِ ، وَسَعَدُ بْنُ مَعَاذٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ ، فَقَالَ سَعْدُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أُمِّي ، فَقَالَ :
مَرْحَبًا بِهَا ! فَدَنَتْ حَتَّى تَأْمَلْتَهُ ، وَقَالَتْ : إِذْ رَأَيْتُكَ سَالِمًا فَقَدْ شَفَّتْ^(١) الْمَصِيبَةَ . فَغَزَّاهَا بِعَمْرٍو

(١) شَفَّتِ الْمَصِيبَةُ ؛ أَيِ هَانَتْ .

ابن معاذ، ثم قال : يا أمّ سعد : أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد تراقفوا في الجنة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شفّعوا في أهليهم ، فقالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يسكى عليهم بعد هذا ! ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلّفوا ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، وأجر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلّفوا . ثم قال لسعد بن معاذ : حلّ أبا عمرو الدابة ؛ فحلّ الفرس ، وتبعه الناس ، فقال : يا أبا عمرو ، إنّ الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأعز ما كان ؛ اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان مجروحا فليقرّ في داره وليداو جرحه ، ولا تبلغ معي بيتي ؛ عزمة مني . فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله صلى الله عليه وآله ألا يتبعه جريح من بني عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، وباتوا يؤقّدون النيران ويدأون الجراح ، وإنّ فيهم لثلاثين جريحا ، ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقيهنّ ، فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبكين بين المغرب والعشاء ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النوم لثلاث الليل ، فسمع البكاء فقال : ما هذا ؟ قيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة ، فقال : رضي الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ ؛ وأمر النساء أن يرجعن إلى منازلهنّ ، قالت أمّ سعد بن معاذ : فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالنا ، فما بك منّا امرأة قطّ إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا . ويقال : إنّ معاذ بن جبل جاء بنساء بني سيلة ، وجاء عبد الله بن رواحة بنساء بلحارث بن الخزرج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أردت هذا ؛ ونهاهنّ الغد عن النوح أشدّ النهي .

قال الواقدي : وجعل ابن أبي والمناقفون معه يشمتون ويسرّون بما أصاب النساء ، ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن أبي إلى أبنه وهو جريح ، فبات يسكوي الجراحة بالنار ، حتّى ذهب عامّة الليل وأبوه يقول : ما كان خروجك مع محمد إلى هذا

الوجه برأى ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ! والله لكأني كنت أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهود القول السيئ ، وقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وأصيب في أصحابه ؛ وجعل المنافقون يُخَذِّلون^(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرونهم بالتفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله : لو كان من قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِلَ ؛ حتى سمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فعمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : يا عمر ، إن الله مظهر دينه ، ومعزّ نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم . قال : في هؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ! قال : بلى ، وإنما يفعلون تعوذاً من السيف ، وقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضعافهم عند هذه النكبة ، فقال : إني نهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يابن الخطاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن^(٢) .

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إخوانكم ما أصيبوا بأحد جعلت أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مطعمهم ومشرّبهم ورأوا حسن منقلبهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يرّهدوا في الجهاد ، ويكلّوا عند الحرب ! فقال لهم الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٣) .

(٢) استلم الركن : قبله أو لمسه بيده .

(١) يخذلون عنه : يمتنعون من نصرته .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقدي^١ : حدثني موسى بن شيبه ، عن قطن بن وهيب اللثي^٢ ، قال : لما تحاجز الفريقان ، ووجه قريش إلى مكة ، وامتطوا الإبل ، وجنبوا الخيل ، سار وحش^٣ ، عبد جبير ابن مطعم على راحلته أربعا ، فقدم مكة يبشر قريشا بمصاب المسلمين ، فانتهى إلى الثنية التي تطلع على الحجون فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، مرارا ، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيهم بما يكرهون ، فلما رضى منهم قال : أبشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مثلها في زحف قط ، وجرحنا محمدا فأبغضناه بالجراح ، وقتلنا رأس الكنية حمزة بن عبد المطلب ، فنفرت الناس عنه في كل وجه بالشتمات بقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وإظهار السرور ، وخلا جبير بن مطعم بوحش^٤ ، فقال : انظر ما تقول ! قال وحش^٥ : قد والله صدقت . قال : قتلت حمزة ؟ قال : إني والله ولقد زرقته بالزراق^٦ في بطنه ، نخرج من بين نغذيه ، ثم نودى فلم يجب ، فأخذت كبيده وحملت^٧ها إليك لراها . فقال : أذهبت حزن نساينا ، وبردت حر قلوبنا ؛ فأمر يومئذ نساءه بمراعاة الطيب والدهن .

قال الواقدي^٨ : وقد كان عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الخزومي لما انكشف المشركون بأحد في أول الأمر ، خرج هاربا على وجهه ، وكره أن يقدم مكة ، فقدم الطائف ، فأخبر ثقيفا أن أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا ، وكنت أول من قدم عليكم ، ثم جاءهم الخبر بعد أن قريشا ظفرت وعادت الدولة لها .

قال الواقدي^٩ : فسارت قريش قافلة إلى مكة ، فدخلتها ظافرة ، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظير ما دخل عليهم من الكآبة والحزن يوم بدر ، وكان ما دخل

(١) المزراق : الرمح القصير ، وزرقه ، أى رماه .

على قلوب المساءين من الغيظ والحزن يومئذ نظير ما دخل عليهم من السرور والجدل يوم بدر، كما قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْأَاصَابِكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٢)؛ قال : يعنى إنكم يوم بدر قتلتهم من قريش سبعين ، وأسرتهم سبعين ، وأما يوم أحد فقتل منكم سبعون ، ولم يؤسر منكم أحد ، فقد أصبتم قريشا بمثل ما أصابوكم يوم أحد ، وقوله : ﴿ أَنَّى هَذَا ﴾ أى كيف هذا ، ونحن موعودون بالنصر ونزول الملائكة ، وفينا نبى ينزل عليه الوحي من السماء ! فقال لهم فى الجواب : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، يعنى الرُّمَّةَ الذين خالفوا الأمر وعصوا الرسول ، وإما كان النصر ونزول الملائكة مشروطا بالطاعة ولا يعصى أمر الرسول ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ^(٣) ، فعلقه على الشرط !

القول فى مقتل أنى عزة الجمحى ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس

قال الواقدي : أما أبو عزة - واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن مجح - فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه أسيرا يوم أحد - ولم يؤخذ يوم أحد أسير غيره - فقال : يا محمد ، من على ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضيك ، فتقول : سخرتُ بمحمد مرتين . ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

(٢) سورة آل عمران ١٦٥ .

(١) سورة آل عمران ١٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٥ .

قال الواقدي : وقد سمعنا في أسره غير هذا ، حدثني بكير بن مسمار ، قال : لما انصرف المشركون عن أخذ نزلوا بحمراء الأسد في أول الليل ساعة ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزة مكانه حتى ارتفع النهار ، فلحقه المسلمون وهو مستنبه يتلدد ، وكان الذي أخذه عاصم ابن ثابت ، فأمره النبي صلى الله عليه وآله فضرب عنقه .

قلت : وهذه الرواية هي الصحيحة عندي ، لأن المسامحين لم تكن حالهم يوم أخذ حال من يهيم له أسر أحد من المشركين في المعركة إلا أصابهم من الوهن .
فأما معاوية بن المغيرة فروى البلاذري أنه هو الذي جدد أنف حمزة ومثل به ، وأنه انهزم يوم أخذ فمضى على وجهه ، فبات قريباً من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص - وهو ابن عمه ليحاً - فضرب بابيه ، فقالت ، أم كلثوم زوجته وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ، فقال : ابعتي إليه ؛ فإن له عندي ثمن بعير ابتعته منه عام أول ، وقد جئته به ، فإن لم يحمي ذهب فأرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما جاء قال لمعاوية : أهلككتي وأهلككت^(١) نفسك ! ما جاء بك ؟ قال : يا بن عم ، لم يكن أحد أقرب إلي ولا أمت رجا مني منك ، فجتكت لتجبرني ، فأدخله عثمان داره وصيره في ناحية منها ، ثم خرج إلى النبي صلى الله عليه وآله ليأخذ له منه أماناً ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إن معاوية في المدينة ، وقد أصبح بها ، فاطلبوه . فقال بعضهم : ما كان ليعد ومنزل عثمان ، فاطلبوه به ، فدخلوا منزل عثمان ، فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيره فيه ، فاستخرجوه من تحت حماره لهم ، فانطلقوا به إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقال عثمان حين رآه : والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان ، فمبه لي ، فوجهه له ، وأجله ثلاثاً ،

(١) البلاذري : « أهلككتي ونفسك » .

وأقسم : لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقتلنه . وخرج عثمانُ فجُزه وأشترى له بعيرا، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حمراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبارَ النبي صلى الله عليه وآله ، ويأتى بها قريشاً، فلما كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنَّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ ، فأدركوه ، وكان اللذان أسرعاً فى طلبه زيد بن حارثة وعمَّار بنُ ياسر ، فوجداه بالجماء^(١) فضربَ به زيد بالسيف ، وقال عمَّار : إنَّلى فيه حقاً ، فرمياه بسهم فقتلاه ، ثم انصرفا إلى المدينة بخبره ، ويقال : إنَّه أدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل زيدٌ وعمَّار يرميانه بالقبلى حتى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمَّ عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقدي فى كتابه مثل هذه الرواية سواء .

قال البلاذرى : وقال ابن الكلبي : إنَّ معاوية بن المغيرة جدَّع أنف حمزة يومَ أحد وهو قتيل ، فأخذ يقرب أحد، فقتل على أحد بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عقب له إلا عائشة أمَّ عبد الملك بن مروان . قال : ويقال : إنَّ علياً عليه السلام هو الذى قتل معاوية بن المغيرة^(٢) .

قلت : ورواية ابن الكلبي عندي أصح، لأنَّ هزيمة المشركين كانت فى الصدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الألوية ، وكان قتل حمزة بعد ذلك لما كثر خالد بن الوليد الخيل من وراء المسلمين، فاختلفوا ، وانتقض صفُّهم ، وقتل بعضهم بعضاً، فكيف يصح أن يجتمع لمعاوية كونه قد جدَّع أنف حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنَّه إذا كان قد انهزم فى أوَّل الحرب استحال أن يكون

(١) الجماء ؛ تطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزة حين قُتل. والصحيح ما ذكره ابنُ الكلبي من أنه شهد الحرب كلها،
وجدع أنف حمزة ، ثم حصل في أيدي المسلمين بعد انصراف قريش ، لأنه تأخر عنهم
لعارضي عَرَض له فأدركه حينه ، فقتل .

القول في مقتل المجذّر

ابن زياد البلوي والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدي : كان المجذّر بن زياد البلوي حليف بني عوف بن الخزرج ممن شهد
بذرا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصة في الجاهلية قبل قدوم النبي صلى الله
عليه وآله المدينة، وذلك أن حُضَيْرَ الكتائب، والد أسيد بن حُضَيْر، جاء إلى بني عمرو بن
عوف ، فكلم سويد بن الصامت وخوات بن جُبَيْر وأبا لُبابة بن عبد المنذر - ويقال
سهل بن حُنَيْف - فقال : هل لكم أن تزوروني فأسقيكم شرابا ، وأنحر لكم، وتقيمون
عندي أياما ! قالوا : نعم ، نحن نأتيك يوم كذا ، فلما كان ذلك اليوم جاءوه فنحّر لهم
جزورا ، وسقاهم خمرًا ، وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى تغبّر اللحم - وكان سويد بن
الصامت يومئذ شيخا كبيرا - فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا : ما نرانا إلا راجعين إلى
أهلنا ! فقال حُضَيْر : ما أحببتكم ! إن أحببتكم فأقيموا ، وإن أحببتكم فأنصرفوا ،
نفرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من الثمل^(١)؛ فمروا لاصقين بالحرّة
حتى كانوا قريبا من بني عينة^(٢) ، فجلس سويد يبول وهو ثمل سُكْرًا ، فبصر به
إنسان من الخزرج ، نفرج حتى أتى المجذّر بن زياد ، فقال : هل لك في الغنيمة الباردة !
قال : ماهي ؟ قال : سويد بن الصامت، أعزّل لا سلاح معه ، ثمل ، نفرج المجذّر بن زياد
بالسيف مُصلّتا ، فلما رآه الفتيان وهما أعزّلان لا سلاح معهما وليّا ، والعداوة بين الأوس

(٢) الواقدي : « غصينة » .

(١) الثمل بفتحين : أي السكر .

والخزرج شديدة . فانصرفا مسرعين ، ونبت الشيخُ ولا حرَّالْ به ، فوقف المجذّر بن زياد ، فقال : قد أمكنَ اللهُ منك ! قال : ما تريد بي ؟ قال : قَتَلْتُكَ . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدِّماغ ، فإذا رجعتَ إلى أمِّك ، فقل : إني فُتنت سويدَ بن الصامت . فقتله ، فكان قتله هو الذي هَيَّجَ وقعة بُعث . فلما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت ، وأسلم المجذّر فشهِدَا بدرا ، فجعل الحارث بن سويد يطلب المجذّر في المعركة ليقتله بأبيه ، فلا يقدر عليه يومئذ ؛ فلما كان يومُ أحدَ وجَّالَ المساهون تلك الجولة ، أتاه الحارث من خلفه فضربَ عنقه ، فرجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى حمراء الأسد ، فلما رجع من حمراء الأسد أتاه جبرائيل عليه السلام ، فأخبره أنَّ الحارث بن سويد قتل المجذّر غيلةً ، وأمره بقتله ، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليه وآله إلى قُبَاءَ في اليوم الذي أخبره جبرائيل في يوم حارٍّ - وكان ذلك يوما لا يركب فيه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قُبَاءَ ، إنما كانت الأيام التي يأتي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله قُبَاءَ يوم السبت . ويوم الاثنين - فلما دخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليه وآله مسجدَ قُبَاءَ صلى فيه ماشاء الله أن يصلي ، وسمعت الأنصارُ فجاءوا يسألون عليه ، وأنكروا إتيانه تلك الساعة ، في ذلك اليوم . فجلس عليه السلام يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفةٍ موروسة ^(١) ، فلما رآه رسولُ الله صلى الله عليه وآله دعا عويمَ بن ساعدة فقال له : قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضربْ عنقه بمجذّر بن زياد ، فإنه قتلَه يومَ أحدَ . فأحذه عويم ، فقال الحارث : دعني أكلمَ رسولَ الله - ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يريد أن يركب ، ودعا بحماره إلى باب المسجد - فجعل الحارث يقول : قد والله قتلته يارسول الله ، وما كان قتلى إِيَّاه رجوعا عن الإسلام

(١) موروسة : مصبوغة بالورس وهو نبات باليمن معروف .

ولا ارتياها فيه ، ولكنه حية الشيطان ، وأمره وكلت فيه إلى نفسى ، وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت ، وأخرج دينه وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبة . وأطعم ستين مسكينا ، إنى أتوب إلى الله يا رسول الله ! وجعل يمسك بركاب رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو الجذر حضور ، لا يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استوعب كلامه قال : قدمه ياعويم فاضرب عنقه . وركب رسول الله صلى الله عليه وآله فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فضرب عنقه .

قال الواقدي : ويقال : إن الذى أعلم رسول الله قتل الحارث الجذري يوم أحد حبيب بن يساف ، نظر إليه حين قتله ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله وينفخ عن هذا الأمر ، فبينما هو على حمارة نزل جبرائيل عليه السلام ، فأنبأه بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عويمًا فضرب عنقه ، ففى ذلك قال حسان :

يا حارٍ فى سنة من نوم أولكم أم كنت ويحك مغتراً بجبريل^(١)
فأما البلاذري فإنه ذكر هذا ، وقال : ويقال إن الجلّاس بن سويد بن الصامت هو الذى قتل الجذري يوم أحد غيلة ؛ إلا أن شعر حسان يدل على أنه الحارث^(٢) .
قال الواقدي والبلاذري : وكان سويد بن الصامت حين ضربه الجذري بقى قليلاً ثم مات ، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده :

أبلغ جُلّاساً وعبداً لله مالكة وإن دعيت فلا تأخذلها حارٍ

(١) ديوانه ٣١٨ ، وبعده :

أَمْ كُنْتَ يَا بَنَ ذِيادٍ حِينَ تَقْتُلُهُ
وَقُلْتُمْ لَنْ نُرَى وَاللَّهِ مُبْصِرُكُمْ
مُحَمَّدٌ وَالْعَزِيزُ اللَّهُ يُخْبِرُهُ
بَغَرَةٍ فِي فِضَاءِ اللَّهِ تَجْمُؤِلِ
وَفِيكُمْ مُحْكَمُ الْآيَاتِ وَالْقِيلِ
بِمَا يُكِنُّ سَرِيرَاتِ الْأَقْوِيلِ

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

أَقْتَلَ جِذَارَةَ إِذْ مَا كُنْتَ لِأَقِيهِمْ وَالْحَيَّ عَوْفًا عَلَى عُرْفٍ وَإِنْكَارٍ
 قَالَ الْبَلَاذَرِيُّ : جَذَرَةٌ وَجَذَارَةٌ أَخَوَانٌ ، وَهَما ابْنَا عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ
 الْخَزْرَجِ (١) .

قُلْتُ : هَذِهِ الرِّوَايَاتُ كَمَا تَرَى ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ مَكُولٍ فِي « الْإِسْكَالِ » أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ
 سُؤَيْدٍ قَتَلَ الْمُجَذَّرَ غِيلَةً يَوْمَ أَحُدَ ، ثُمَّ التَّحَقَّقَ بِمَكَّةَ كَافِرًا ، ذَكَرَهُ فِي حَرْفِ الْمِيمِ مِنْ هَذَا
 الْكِتَابِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَشْبَهُ عِنْدِي .

الْقَوْلُ فِي مَن مَاتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَحَدٍ جَمَلَةً

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : ذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ
 خَاصَّةً أَحَدٌ وَسَبْعُونَ ، وَبِمَثَلِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ .

قَالَ : فَأَرْبَعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَهُمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ قَتَلَهُ وَحْشَى ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 جَعْفَرٍ بْنُ رِثَابٍ ؛ قَتَلَهُ أَبُو الْحَكَمِ بْنُ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ ، وَشُمَّاسُ بْنُ عُثْمَانَ
 ابْنُ الشَّرِيدِ مِنْ بَنِي كَنْزُومٍ ؛ قَتَلَهُ أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ ، وَمُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ ؛ قَتَلَهُ
 ابْنُ قَمِيئَةَ .

قَالَ : وَقَدْ زَادَ قَوْمٌ خَامِسًا ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مَوْلَى حَاطِبٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . وَقَالَ
 قَوْمٌ أَيْضًا : إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْخَزَوِمِيَّ جُرِحَ يَوْمَ أَحُدَ ، وَمَاتَ مِنْ تِلْكَ الْجِرَاحَةِ
 بَعْدَ أَيَّامٍ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَقَالَ قَوْمٌ : قَتَلَ ابْنَا الْهَبِيبِ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ ، وَهَما عَبْدُ اللَّهِ

وعبد الرحمن ورجلان من بنى مُزَيْنَة وهما وَهْب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُمَيْة ابن قابوس ؛ فيكون جميعُ من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلاً، فأما تفصيل أسماء الأنصار فمذكورٌ في كتب الحديثين ، وليس هذا الموضع مكان ذكره .

القول فيمن قتل من المشركين بأحد

قال الواقدي : قُتِل من بنى عبد الدّار طلحةُ بن أبي طلحة صاحبُ لواء قريش ؛ قَتَلَهُ عَلَى بن أبي طالب عليه السلام مبارزة ، وعُثْمَان بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ حمزةُ بن عبدالمطلب وأبو سعيد بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ سعدُ بن أبي وقاص ، ومسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، قَتَلَهُ عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وكلاب بن طلحة بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ الزبير بن العوام والحارث بن طلحة بن أبي طلحة ، قَتَلَهُ عاصم بن ثابت ، والجلال بن طلحة بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ طلحة بن عبيد الله ، وأرطاة بن عبد شريح ؛ قَتَلَهُ عَلَى بن أبي طالب عليه السلام وقارظ^(١) بن شريح بن عثمان بن عبد الدّار - ويروى فاسط بالسين والطاء المهملتين - . قال الواقدي : لا يُدرى من قَتَلَهُ ، وقال البلاذري^(٢) : قَتَلَهُ عَلَى بن أبي طالب عليه السلام ، وصواب مولاهم : قَتَلَهُ عَلَى بن أبي طالب عليه السلام وقيل : قَتَلَهُ قرمان^(٣) - وأبو عزيز ابن عمير أخو مُصعب بن عمير ، قَتَلَهُ قرمان ، فهو لاء أحد عشر .

ومن بنى أسد بن عبد العزى عبدُ الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد ؛ قَتَلَهُ أَبُو دُجَانَة في رواية الواقدي ، وفي رواية محمد بن إسحاق ، قَتَلَهُ عَلَى بن أبي طالب عليه السلام . وقال البلاذري : قال ابن الكلبي : إنّ عبد الله بن حميد قَتِل يوم بدر

(١) الواقدي : « فارط » ، والبلاذري : « فاسط » .

(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٣٣٤ .

(٣) أنساب الأشراف : « غيره » .

ومن بنى زُهْرَةَ أبو الحكم بن الأحنس بن شَرِيق ؛ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العزّي أنخراعي - واسم عبد العزّي عمرو بن نَضْلَةَ ابن عباس بن سليم ، وهو ابن أم أنمار الحِجّامة بمَكَّة - قتله حمزة بن عبد المطلب ؛ فهذان رجلا .

ومن بنى مخزوم أمّية بن أبي حذيفة بن المغيرة ؛ قتله عليّ عليه السلام ، وهشام بن أبي أمّية بن المغيرة ؛ قتله قزمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان ، وخالد بن أعلم العَقِيلِي ؛ قتله قزمان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ؛ قتله الحارث بن الصّمة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤيّ عبيد بن حاجر ؛ قتله أبو دُجّانة ، وشَيْبَة بن مالك بن المضرب قتله طلحةُ بن عبيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُحجَح أبيّ بن خَلَف ؛ قتله رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، وأبو عَزَّة ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْرًا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .
ومن بنى عبد مناة بن كنانة خالدُ بن سُفْيَان بن عُويْف ، وأبو السَّعْثَاء ابن سُفْيَان بن عُويْف ، وأبو الحُمْراء بن سُفْيَان بن عُويْف ، وغراب بن سُفْيَان ابن عُويْف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قَتَلَهُم عليّ بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن حبيب .

فأما الواقديّ فلم يذكُر في باب من قُتِل من المشركين بأحد لهم قاتلا معيّنًا ، ولكنه ذكر في كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرَةَ بن الحارث بن علقمة قَتَلَ أحد بنى سفيان ابن عُويْف ، وأن رشيدا الفارسيّ مولى بنى معاوية لقي آخر من بنى سُفْيَان بن عُويْف مقتنعا في الحديد وهو يقول : أنا ابن عُويْف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضر به ابن

عوف ضربته جَزَلَه بـائنتين ؛ فأقبل رشيد على ابن عوف فضربه على عاتقه ـ فقطع الدرع ـ حتى جَزَلَه اثنتين وقال : خذها وأنا الغلام الفارسي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه : ألا قلت : أنا الغلام الأنصاري ! قال : فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحد بني سفيان بن عوف أيضا ، وأقبل يعدو نحوَه كأنه كلبٌ ، يقول : أنا ابن عوف ، ويضربه رشيد أيضا على رأسه وعليه المغفر ، ففلق رأسه ، وقال : خذها وأنا الغلام الأنصاري ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ ولا ولد له .

قلت : فأما البلاذري فلم يذكر لهم قاتلا ، ولكنه عدّهم في جملة من قُتل من المشركين بأحد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر مَنْ قتلهم ، فإن صحّت رواية الواقدي فعلى عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلّا واحدا ، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قَتَلَه عليه السلام . وقد رأيتُ في بعض كتب أبي الحسن المدائنيّ أيضا أن عليّا عليه السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عوف يوم أُحد ، وروى له شعرا في ذلك .

ومن بني عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، قتله عليٌّ عليه السلام في إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعُمّار بن ياسر .

فجميع من قُتل من المشركين يوم أُحد ثمانية وعشرون ، قتل عليٌّ عليه السلام منهم ـ ما افق عليه وما اخلف فيه ـ اثني عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريبٌ من النصف .

القول في خروج النبي صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أحد

إلى المشركين ليوقع بهم على ما هو به من الوهن

قال الواقدي^(١) : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المتسركين قد عزموا أن يردوا إلى المدينة فينهبوها ، فأحب أن يريهم قوة ، فصلى الصبح يوم الأحد لثمان خلون من شوال ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات ، فيهم سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ ، والحباب بن المنذر ، وأوس بن خولى ، وقتادة بن النعمان في عدة منهم . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى في الناس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالأمس ، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالمسير ، والجراح في الناس فاشية ، عامة بني عبد الأشهل جريح ، بل كلّها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوكم . قال : يقول أسيد بن حضير - وبه سبع جراحات ، وهو يريد أن يداويها : سمعا وطاعة لله ولرسوله ! فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه ، ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء سعد بن عباد قومه بني ساعدة ، فأمرهم بالمسير ، فلبسوا ولحقوا ، وجاء أبو قتادة أهل خربا ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، فوثبوا إلى سلاحهم ، ولم يعرجوا على جراحاتهم ، فخرج من بني سلمة أربعون حريحا ، بالطّفل بن النعمان ثلاثه عشر جرحا ، وبخراش بن الصّمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحا ، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات ، حتى وافوا النبي صلى الله عليه وسلم بقبر أبي عتبة ، وعليهم السلاح ،

(١) مغازى الواقدي ٣٢٥ وما بعدها .

وقد صفوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ، قال : اللهم ارحم بني سيلة .

قال الواقدي : وحدثني عتبة بن جبيرة عن رجال [من] ^(١) قومه ؛ أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة وعبد الله أثقلهما جرحا ، فلما أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومه يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بطلب العدو ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأننن ، والله ما عندنا دابة نركبها ، ولا ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله انطلق بنا . قال رافع : لا والله ما بي مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نقصد ونجوز ، وخرجنا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبه ، ويمشي الآخرة عقبه ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ما حبسكما ؟ فأخبراه بعلتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكما .

قال الواقدي : وقال جابر بن عبد الله : يا رسول الله ؛ إن مناديا نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصا بالأمس على الحضور ، ولكن أبي خلفني على أخواتي لي ، وقال : يا بني لا ينبغي لك أن تدعهن ولا رجل معهن ، وأخاف عليهن ، وهن نسيات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله صلى الله عليه وآله لعل الله يرزقني الشهادة ، فتخلفت عليهن ، فاستأثر علي بالشهادة ، وكنت رجوتها ، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله . قال جابر : فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبى ذلك

(١) من الواقدي .

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بلوائه وهو معقود لم يحلّ من امس ، فدفعه إلى عليّ عليه السلام ، ويقال : دَفَعَهُ إلى أبي بكر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، في وجهه أثر الحَلْقَتَيْن ، ومشجوج في جَبْهَتِهِ في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيَتْ ، وشفته قد كُلمَتْ من باطنها ، ومنكبه الأيمن مُوهَنْ بضربة ابن قميّة، ورُكبتاه تَجحوشَتان ؛ فدخل المسجد فصلى ركعتين ، والناس قد حَشَدُوا ، ونزل أهلُ العوالي^(١) حيث جاءهم الصريح^(٢) . ودعا بفرسه على باب المسجد ، وتلقاه طلحة بن عبيد الله ، وقد سمع . المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدرع والمغفر لا يُرى منه إلّا عَيْنَاه ، فقال : يا طلحة ، سلاحك ، قال : قريباً ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبس درعى وأخذ سيفي ، وأطرح درقتي في صدري ، وإنّ بي لتسع جراحات ، ولأنّا هُتِمَ بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله منى بجراحي ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة ، فقال : أين ترى القوم الآن؟ قال : هم بالسيالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة لن ينالوا منّا مثل أمس حتى يفتح الله مكّة علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ثلاثة نفرٍ من أسلم طليعةً في آتار القوم ، فانقطع أحدهم ، وانقطع قبال نعل الآخر ، ولحق الثالث بقريش وهم بحمراء الأسد ، ولهم زجل^(٣) يأتَمرون^(٤) في الرجوع إلى المدينة ، وصفوان بن أمية ينهّاهم عن ذلك ، ولحق الذى انقطع قبال نعله بصاحبه ، فَبَصُرَتْ قريش بالرجلين ، فعطفتُ عليهما ، فأصابوهما ، وانتهى المسلمون إلى مَصْرَعِهما بحمراء الأسد ، فقبرهما رسول الله صلى الله عليه وآله في قبر واحد ، فهما القرينان .

(١) العوالي : صيغة بينها وبين المدينة أربعة أميال .

(٢) الصريح : المغيث .

(٤) يأتَمرون : يتشاورون .

(٣) زجل ، أى صوت وجلبة .

قال الواقدي : اسمها سليط ونُعمان .

قال الواقدي : قال جابر بن عبد الله : كانت عامّة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحمل سعد بن عبادَة ثلاثين بعيراً تمراً حتى وافى حمراء الأسد ، وساق جزراً ، فنَحَرُوا في يوم ثنتين ، وفي يوم ثلاثاً ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمع الحُطَب ، فإذا أمسوا أمرهم أن يُوقِدُوا النَّيرانَ : فيوقد كل رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلة نوقد خمساً ناراً حتى نُرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر ممسكِنا ونيراننا في كل وجه ، وكان ذلك ممّا كَهِتَ الله به عدونا .

قال الواقدي : وجاء معبد بن أبي معبد الخزاعي - وهو يومئذ مشركاً إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكانت خُزاعة سُلماً^(١) للنبي صلى الله عليه وآله ، فقال : يا محمد عزّ علينا ما أصابك في نفسك ، وما أصابك في أصحابك ، ولدودنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك ، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء^(٢) وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردقم ، فبئسما صنعتُم ! وهم يجمعون على الرجوع إلى المدينة ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، وقبل أن يكون لهم وفر ، وكان المتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل ، فلما جاء معبد إلى أبي سفيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خَلَفِي يتحرّقون عليكم بمنزل النيران ، وقد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يُلحَقُواكم فيثأروا منكم ، وقد غضبوا^(٣) لتقومهم غضبا شديداً ولَمَن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويحك ، ما تقول ؟ قال : والله ما أرى

(١) سلماً ، أي مسالمون .

(٢) الروحاء : قطيعة كانت لعدي بن حاتم ، على نحو أربعين ميلاً من المدينة .

(٣) الواقدي : « وغضبوا » .

أَنْ تَرْتَحِلُوا حَتَّى تَرَوْا نَوَاصِيَ^(١) الْخَيْلِ ، وَلَقَدْ^(٢) حَمَلْنِي مَا رَأَيْتُ مِنْهُمْ أَنْ قُلْتُ
أَبْيَاتًا ، قَالُوا : وَمَاهِي ؟ فَأَنْشَدَهُمْ هَذَا الشَّعْرَ :

كَادَتْ تَهْدُّ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَايِلِ^(٣)

تَعْدُو بِأَسْدٍ ضِرَاءٍ لَا تَسَابِلُهُ^(٤) عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِلِ^(٥)

فَقُلْتُ وَيْلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِهِمْ إِذَا تَفَطَّمَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجَيْلِ^(٦) !

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلع معبد ، وقال لهم صفوان :
يا قوم ، لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حاربوا^(٧) ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج ؛
فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعت إليهم أن تكون الدولة عليكم . قال :
فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشدكم صفوان وما كان برشيد ، ثم
قال : والذي نفسى بيده لقد سوّمت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأئس الذاهب ،
قال : فانصرف القوم سيرا خائفين من الطلب لهم ، ومرّ بأبى سفيان قوم من
عبد القيس يريدون المدينة ، فقال لهم : هل أنتم مبلغو محمد وأصحابه ما أرسلكم به ؛
على أن أوقّر لكم أبا عركم زبيبا غداً بعكاظ ؛ إن أنتم جئتموني ! قالوا : نعم ، قال : حينما

(١) الواقدي : « حتى ترى نواصي الخيل » . (٢) الواقدي : « ثم قال معبد . . . » .

(٣) الأبيات في ابن هشام ٣ : ٥٤ . تهدي ، أي تسقط من الإعياء . والجرد : الخيل العتاق .
والأبايل : الجماعات .

(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام » . والتابله : القصار .

(٥) الميل : جمع أميل ، وهو الذي لا رمح له . والمعازل : جمع معزال ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٦) تظطمت : اهترت واضطربت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصف من الناس ،
وبعدها في ابن هشام :

إِنِّي نَذِيرٌ لَأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ لِكُلِّ ذِي إِدْرِيَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولٍ

مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخْشَ قَنَابُلُهُ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

(٧) حاربوا ، أي غضبوا .

لقيم محمدًا وأصحابه فأخبروهم أننا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا آثاركم. وانطلق أبو سفيان إلى مكة ، وقدمَ الركبُ على النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بالخمراء فأخبروهم بالذي أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فَأُنزل ذلك في القرآن ، وأرسل معبدًا رجلاً من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجائين ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس فى شرح غزاة مؤتة

نذكرها من كتاب الواقدى - ونزيد على ذلك مارواه محمد بن إسحاق

فى كتابه على عادتنا فيما تقدم

قال الواقدى : حدثنى^(١) ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الحارث بن عُمير الأزديّ فى سنة ثمان إلى ملك بُصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شُرْحَبِيل بن عمرو الغسّانى ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسل محمد . قال : نعم ، فأمر به فأوثق رِباطاً ثم قدّمه فصرّب عنقه ، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وآله رسولٌ غيره ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشتدّ عليه ، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ، فأسرّ عوا وخرجوا ، فمكروا بالجرف ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله الظهر جلس وأصحابه حوله ، وجاء النعمان بن مهضّ اليهودى فوقّف مع الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحَة ، فإن أصيب ابن رَوَاحَة فليرض المسلمون من بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهضّ : يا أبا القاسم ، إن كنت نبياً فسيصاب من سميت قليلاً كانوا أو كثيراً ، إن الأنبياء فى بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سمى مائة أصيبوا جميعاً . ثم جعل اليهودى يقول لزيد بن حارثة : اعهذ فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً . قال زيد : أشهد أنه نبيّ صادق فلما أجمعوا

(١) أخبار غزوة مؤتة فى الواقدى ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٧ وما بعدها .

المسير وعَقَدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللواء بيده دفعه إلى زيد بن حارثة ، وهو لواء أبيض ، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودّ عونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون : دفع الله عنكم ، وردكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحَة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزبدًا^(١)
أو طعنةً يبدى حرّانَ مجهزةً بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكيدا^(٢)
حتى يقولوا إذا مروا على جدتي يأرشد الله من غازٍ فقد رَشَدًا^(٣)

قلت : اتفق المحدّثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول ، وأنكرت الشيعة ذلك ، وقالوا : كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأول ، فإن قُتِلَ فزيد بن حارثة ، فإن قُتِلَ فعبد الله بن رَوَاحَة ، ورووا في ذلك روايات ، وقد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي ما يشهد لقولهم ، فمن ذلك ما رواه عن حسان ابن ثابت وهو :

تأويني ليلٌ يثرب أعسرُ وهم إذا مانوكم الناسُ مُسهرُ^(٤)
لذ كرى حبيبٍ هيّجت لي عبرةً سفوحاً وأسبابُ البكاء التذكرُ
بلى إن فقدان الحبيب بليّةٌ^(٥) وكم من كريم يُبتلى ثم يصبرُ
فلا يُبعدن الله قتلتي تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعاً وأسيفُ المنيّة تخطرُ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٩ . ذات فرغ ؛ أى واسعة ، والزبد ، أصله ما يعلو الماء إذا غلا ؛ وأراد هنا ما يعلو الدم الذي ينفجر من الطعنة .

(٢) مجهزة : سريعة القتل ، وتنفذ الأحشاء : تحرقها وتصل إليها .

(٣) ابن هشام : « وقد » .

(٤) ديوانه ١٧٩ - ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٠ - ٤٤٢ . تأويني : عاودني ورجع إلى ،

ومسهر : داع إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا شَعُوبَ وَخَلَقَ بَعْدَهُمْ بِتَأَخَّرٍ^(١)
 غَدَاةَ غَدَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ إِلَى الْمَوْتِ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ أَزْهَرُ
 أَغْرُ كَصَوِّ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَبِي إِذَا سَيِّمَ الظَّلَامَةَ أَصْعَرُ^(٢)
 فُطَاعَنَ حَتَّى مَالٍ غَيْرَ مُوسَّدٍ بِمُعْتَرِكٍ فِيهِ الْقَنَامَتُ كَسَّرُ
 فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ جِنَانٌ وَمَلْتَفَ الْحِدَائِقِ أَخْضَرُ
 وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ وَفَارًا وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ
 وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ صَدَقَ لَا نُرَامُ وَمَفْخَرُ
 هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ رِضَامٌ إِلَى طُورٍ يَطُولُ وَيَقْهَرُ
 بِهَآئِلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلَى وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ
 وَحَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
 بِهِمْ تَفَرَّجُ الْعَمَاءُ مِنْ كُلِّ مَآزِقٍ عَمَّاسُ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنَّاسِ مَصْدَرُ
 هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَالْكِتَابُ الْمَطْهَرُ
 وَمِنْهَا قَوْلُ كَعْبِ بْنِ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوْهَا^(٣) :

نَامَ الْعَيُونُ وَدَمَعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ سَحَاكَمَا وَكَفَ الرَّبَابِ الْمَسْبِلُ^(٤)
 وَجَدَّا عَلَى الْفَرِّ الَّذِينَ تَتَابَعُوا قَتَلَى بِمَوْتَةٍ أُسْنَدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
 سَارُوا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ طَوْدَةٌ يَقُودُهُمُ الْهَزْبُ بِرَأْسِ الشَّيْلِ^(٥)
 إِذْ يَهْتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلَوَائِهِ قَدَامَ أَوْلَهُمْ وَنَعْمَ الْأَوَّلُ
 حَتَّى تَقْوَضَتِ الصَّفُوفُ وَجَعْفَرُ حَيْثُ التَّقَى جَمْعُ الْغَوَاةِ مَجْدَلُ^(٦)

- (١) شعوب : من أسماء النبية .
 (٢) سيرة ابن هشام : ٣ : ٤٤٢ - ٤٤٥ ، برواية مخالفة .
 (٣) الرباب : السحاب ، والمسبل : المنصب ؛ وفي ابن هشام : « الطباب المخضل » .
 (٤) المشبل : ذو الشبل ؛ والشبل : ولد الأسد .
 (٥) مجدل : مطروح على الجدالة ؛ وهي الأرض . وفي ابن هشام : « وعث الصفوف مجدل » .

فتفجير القمر المنير لفتده والشمس قد كسفت ^(١) وكادت تأفل
 قوم علا بنيانهم من هاشم فرع أشم وسودد متائل ^(٢)
 قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل
 فضلوا المعاشرة عفة وتكرما وتعمدت أخلاقهم من يجهل ^(٣)

قال الواقدي : فحدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن
 رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم
 فقال : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ،
 قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من
 المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث : فأيتهم أجابوك إليها فاقبل منهم ، واكفهم
 عنهم ، ادعهم إلى الدخول في الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل واكفهم . ثم ادعهم إلى التحول
 من دارهم إلى المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على
 المهاجرين . وإن دخلوا في الإسلام وأختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ،
 يجري عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفداء ولا في الغنيمة شيء ، إلا أن يجاهدوا
 مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكفهم عنهم ،
 فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوا أن
 تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري
 أتصيب حكم الله فيهم أم لا ! وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة وأرادوا أن يجعل لهم
 ذمة الله وذمة رسول الله فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله ، ولكن أجعل لهم ذمتك
 وذمة أبيك وأصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا
 ذمة الله وذمة رسوله .

(١) في ب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضاً .

(٢) ابن هشام : « ما يثقل » . (٣) ابن هشام : وتعمدت أحلامهم .

قال الواقدي : وحديثني أبو صفوان ، عن خالد بن يزيد ، قال : خرج النبي صلى عليه وآله مشيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف ووقفوا حوله ، فقال : اغزوا بسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوهكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مقاحص ، فاقلعوها بالسيف ، ولا تقتلن امرأة ، ولا صغيراً ، ضرعاً^(١) ولا كبيراً فانياً ، ولا تقطنن نخلاً ولا شجراً ، ولا تهدمنن بناء .

قال الواقدي : فلما دعا ودّع عبد الله بن رواحة رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : مرني بشيء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غداً بلداً ، السجود فيه قليل ، فأكثرُوا السجود . فقال عبد الله : زدني يا رسول الله ، قال : اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب . فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال : يا رسول الله : إن الله وتر يحب الوتر ، فقال : يا بن رواحة : ما عجرت فلا تعجز إن أسأت عشرين أن تحسن واحدة . فقال ابن رواحة : لا أسألك عن شيء بعدها .

وروى محمد بن إسحاق أن عبد الله بن رواحة ودّع رسول الله صلى الله عليه وآله بشعر منه :

فثبتت الله ما آتاك من حسن تثبتت موسى ونصراً كالذي نصرُوا
إني تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والبشر منه فقد أودى به القدر
قال محمد بن إسحاق : فلما ودّع المسلمين بكى ، فقالوا له : مايكيك يا عبد الله ؟
قال : والله ما بي حب الدنيا ولا صباة إليها ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله

(١) الضرع : الصغير من كل شيء .

عليه وآله يقرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، ^(١) فاست أدري كيف لي بالصدّر بعد
الورود ^(٢) !

قال الواقدي : وكان زيد بن أرقم يحدث ، قال : كنتُ يتيماً في حجر عبد الله بن
رواحة ، فلم أرَ والي يتيماً كان خيراً لي منه ، خرجت معه في جهةٍ إلى مؤتة وصَبَّ
بي وصَبَّبتُ به ، فكان يُرْدِفني خلف رحله ، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين
شعبي رحله :

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسَافَةً أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِجَاءِ ^(٣)
فَسَأَلْتِكَ فَانْعَمِي وَخَلَاكِ دَمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَأَيْ ^(٤)
وَأَبَ الْمُسْلِمُونَ وَخَلَّفُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَرَ الثَّوَاءِ
وَزَوَّدَنِي الْأَقَارِبُ مِنْ دَعَاءٍ إِلَى الرَّحْمَنِ وَانْقَطَعَ الْإِخَاءُ
هَنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ نَخْلٌ وَلَا نَخْلٌ أَسَافَلَهَا رِوَاءِ ^(٥)

فلما سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ : نَحْفَقَنِي بِالدَّرَّةِ وَقَالَ : وما عليك يالْكع أن
يرزُقني الله الشهادة فأستريح من الدنيا ونصّبها ، وهمومها وأحزانها وأحداثها ، وترجع
أنت بين شعبي الرحّل !

قال الواقدي : ومضى المسلمون فنزلوا وادى القرى فأقاموا به أيّاماً ، وساروا حتى
نزلوا بمؤتة ، وبلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل ماء من مياه البلقاء في بكر وبهراء
ولأخهم وجذام وغيرهم مائة ألف مقاتل ، وعليهم رجلٌ من بني ، فأقام المسلمون ليلتين ينظرون.

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(١) سورة مريم : ٧١ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٢ .

(٤) ولا أرجع ؛ جزم الفعل على الدعاء ؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد في هذه الواقعة ولا يرجع لأهله

(٥) في البيت لمقواء .

في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنخبره الخبر ؛ فلما أن
يردنا أو يزيدنا رجالا ؛ فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَوَاحَة
فشجَّعهم ، وقال : والله ما كنا نقاتلُ الناسَ بكثرةِ عدَّة ولا كثرةِ سلاح ولا كثرةِ
خَيْل ؛ إلَّا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به ، انطلقوا فقاتلوا ؛ فقد والله رأينا يومَ بدرٍ ،
وما معنا إلَّا فرسان ، إنما هي إحدى الحُسَيْنَيْن : إمَّا الظُّهورُ عليهم فذاك ما وعدنا
اللهُ ورسولُه ، وليس لوعده خُلْف ، وإمَّا الشهادة فلنحق بالإخوان ، نرافقهم في الجنان .
فشجع الناس على قول ابن رَوَاحَة .

قال الواقديّ : وروى أبو هريرة قال : شهدتُ مؤنة فلما رأينا المشركين رأينا
ملا قِبَل لنا به من العُدَد والسَّلاح والكُراع والدِّياج والحريير والذهب ، فبرقَ
بَصْرِي ، فقال لي ثابتُ بنُ أرقم : مَالَك يا أبا هريرة ؛ كأنك ترى جُوعا كثيرةً أقلتُ :
نعم ، قال : لم تشهدنا ببدر ، إنا لم نُنصِرْ بالكثرة .

قال الواقديّ : فالتقى القومُ ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة ، فقاتلَ حتَّى قُتِل ،
طعنوه بالرَّماح ، ثم أخذَه جعفرُ فنزل عن فرس له شقراءَ فعرَّ قَبْها ، ثم قاتلَ حتَّى قُتِل .
قال الواقديّ : قيل : إنه ضربَه رجل من الرُّوم فقطَّعه نصفين ، فوقع أحسدُ نصفَيْه في
كُرمٍ هُناك ، فوجِد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرُحا .

قال الواقديّ : وقد رَوَى نافعٌ عن ابن عمر أنه وُجِد في بدن جعفر بن أبي طالب
اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرَّماح .

قال البلاذريّ : قطعتُ يداه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد
أبدله الله بهما جناحين يطيرُ بهما في الجنة » ؛ ولذلك سمى الطَّيَّار .

قال الواقديّ : ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رَوَاحَة فنكَل يسيراً ، ثم حَمَل فقاتلَ

حتى قُتِلَ ، فلما قُتِلَ انهزَمَ المسلمون أسوأ هزيمة كانت في كلِّ وجه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواء ثابتُ بنُ أرقم ، وجعل يصيح بالأنصار ، فثابَ إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللواء يا أبا سليمان ، قال خالد : لا بل خُذْهُ أَنْتَ فَلَكَ سِنَّ ، وقد شهدتَ بَدْرًا . قال ثابت : خذْهُ أيُّهَا الرجل ، فوالله ما أخذتُهُ إِلَّا لَكَ . فَأَخَذَهُ خالدٌ وحَمَلَ بِهِ سَاعَةً ، وجعل المشركون يَحْمِلُونَ عليه حتَّى دَهَمَهُ مِنْهُمْ بَشَرٌ كثيرٌ ، فانحازَ بالمسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقديّ : وقد رُوِيَ أَنَّ خالداً ثَبِتَ بِالنَّاسِ فلم يَهْزَمُوا ؛ والصحيح أَنَّ خالداً انهزَمَ بالناس .

قال الواقديّ : حدَّثني محمد بن صالح ، عن عاصم بنِ عمر بن قتادة ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا لَقِيَ النَّاسُ بِمُوتِهِ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَكَشَفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَعْرَكَتِهِمْ ، فَقَالَ : أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : الْآنَ حِينَ اسْتَحْكَمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تَحَبَّبَ إِلَى الدُّنْيَا ! فَمَضَى قُدُّمًا حَتَّى اسْتَشْهِدَ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا لَهُ فَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَسْعَى ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَنَآهَ الْحَيَاةَ وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ ، وَمَنَّاهُ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : الْآنَ حِينَ اسْتَحْكَمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ نَتَمَتَّى الدُّنْيَا ! ثُمَّ مَضَى قُدُّمًا حَتَّى اسْتَشْهِدَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَدَعَا لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اسْتَغْفِرُوا الْأَخْيَارَ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، فَهُوَ يَطِيرُ فِيهَا بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَاقُوتٍ حَيْثُ شَاءَ . ثُمَّ قَالَ : أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، ثُمَّ دَخَلَ مَعْتَرِضًا فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا أَعْتَرَضَهُ ؟ قَالَ : لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَكَلَ فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجَّعَ فَاسْتَشْهِدَ ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ ؛ فَسُرِّيَ عَنْ قَوْمِهِ .

وروى محمد بن إسحاق^(١) قال : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفرًا سكّت عن عبد الله بن رواحة حتى تغيّرت وجوه الأنصار ، وظنّوا أنه قد كان من عبد الله بعض ما يكرهون ، ثم قال : أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قُتل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سُرُرٍ من ذهب ، فرأيتُ في سرير ابن رواحة أزورارا عن سريرى صاحبيّ ، فقلت : لم هذا ؟ فقلت : لأنهما مضيا ؛ وتردّد هذا بعض التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بن إسحاق أنه لما أخذ جعفر بن أبي طالب الرّاية قاتل قتالا شديداً حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ؛ ثم قاتل القوم حتى قُتل^(٢) ، فكان جعفر رضى الله عنه أول رجل عقر فرسه في الإسلام .

قال محمد بن إسحاق : ولما أخذ ابن رواحة الرّاية جعل يتردّد بعض التردّد ، ويستقدم نفسه يستنزها^(٣) ، وقال :

أقسمتُ يا نفسُ لنزليته طَوْعاً وإلا سوف تُكرهينه
مالي أراكِ تكرهين الجنة إذ أجلب الناسُ وشدّوا الرّثة^(٤)
قد طالما قد كنتِ مطمئنة هل أنتِ إلا نطفة في شنة^(٥) !
ثم ارتجز أيضاً فقال :

يا نفسُ إلا تُقتلى تموتى هذا حجام الموت قد صليت

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ . (٢) بعدها في ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حبّذا الجنّة واقترابها طيبةً وبارداً شرابها
والرّوم روم قد دنا عذابها كافرةً بعيدة أنسابها
* على إذ لاقيتها ضرابها *

(٣) ابن هشام : « يستنزل نفسه » . (٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وضجوا .

(٥) النطفة : القليل من الماء الصافي . والشنة : القرية الخلق .

وما تَمَنَيْتَ فَقَدْ أُعْطِيَْتَ إِنْ تَفْعَلْ فِعْلَهُمَا هُدَيْتَ
* وَإِنْ تَأَخَّرْتَ فَقَدْ شَقِيتَ *

ثم نَزَلَ عَنْ فَرْسِهِ فَقَاتَلَ ، فَأَتَاهُ ابْنُ عَمٍّ لَهُ بِبَضْعَةٍ مِنَ لَحْمٍ ، فَقَالَ : اشْدُدْ بِهَذَا صُلْبَكَ . فَأَخَذَهَا مِنْ يَدِهِ ، فَأَنْهَشَ^(١) مِنْهَا نَهْشَةً ثُمَّ سَمِعَ الْحَطْمَةَ^(٢) فِي نَاحِيَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : وَأَنْتَ يَا بَنَ رَوْاحَةٍ فِي الدُّنْيَا ! ثُمَّ أَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ ، فَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ^(٣) .

قال الواقديّ : حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ سِنَانٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ ثَعْلَبَةَ بْنَ أَبِي مَالِكٍ يَقُولُ : انْكَشَفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَوْمَئِذٍ بِالنَّاسِ حَتَّى عَيَّرُوا بِالْفِرَارِ ، وَتَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ .

قال : وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ، قَالَ : أَقْبَلَ خَالِدٌ بِالنَّاسِ مِنْهُمْ مِزِينَ ، فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِهِمْ تَلَقَّوْهُمْ بِالْجُرْفِ ، فُجِعُوا يَحْتُونُ فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ : يَا فُرَّارَ ، أَفَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ ، وَلَكِنْهُمْ كُرَّارَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال الواقديّ : وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ : مَا لَقِيَ جَيْشٌ بَعَثُوا مَبْعَثًا مَا لَقِيَ أَصْحَابُ مَوْئِدَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، لَقَوْهُمْ بِالْشَرِّ . حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ يَنْصَرِفُ إِلَى بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ فَيَدِقُّ عَلَيْهِمْ فَيَأْبُونَ أَنْ يَفْتَحُوا لَهُ يَقُولُونَ : أَلَا تَقَدَّمْتَ مَعَ أَصْحَابِكَ فَقُتِلْتَ ، وَجَلَسَ الْكُفَرَاءُ مِنْهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ اسْتَحْيَاءً مِنَ النَّاسِ ، حَتَّى أَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجُلًا ، يَقُولُ لَهُمْ : أَنْتُمْ الْكُرَّارُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَخَرَجُوا .

قال الواقديّ : حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَبِي الرَّجَالِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ ، عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ ، قَالَتْ : أَصْبَحْتُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَصِيبَ فِيهِ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ مَنَأْتُ أَرْبَعِينَ مَنًا مِنْ أَدَمَ وَعَجْنَتُ عَجِينِي ، وَأَخَذْتُ بَنِيَّ ، فَفَسَلْتُ وَجُوهُهُمْ وَدَهَنْتُهُمْ ، فَدَخَلْتُ عَلَى

(١) انْهَشَ مِنْهَا : أَخَذَ بِفَمِهِ يَسِيرًا .

(٢) الْحَطْمَةُ : زَحَامُ النَّاسِ .

(٣) سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أسماء ، أين بنو جعفر ؟ فجئت بهم إليهم ، فضمتهم وشمتهم ، ثم ذرفت عيناه ، فبكى ، فقلت : يا رسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ! قال : نعم ، إنه قُتل اليوم ، فقامتُ أصبح ، واجتمع إلي النساء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يا أسماء ، لا تقولن هُجْراً ، ولا تضرِبِي صدرًا ، ثم خرج حتى دخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها ، وهي تقول : واعمّاه ! فقال : على مثل جعفرٍ فلتَبْكِي الباكية . ثم قال : اصنعوا لآلِ جعفرٍ طعاماً ، فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن مسلم ، عن يحيى بن أبي يعلى ، قال : سمعتُ عبد الله ابن جعفر يقول : أنا أحفظ حين دَخَلَ النبي صلى الله عليه وآله على أمي ، فَنَعَى إليهما أبي ، فأنظر إليه وهو يَمَسُّحُ على رَأْسِي ورَأْسِ أَخِي ، وعيناه تُهَرِّاقَانُ بالدَّمْعِ حتى قطرت لِحْيَتُهُ ، ثم قال : اللهم إني جعفرًا قَدَّمْتُ إلى أَحْسَنِ الثَّوَابِ ، فأخلفه في ذَرِيَّتِهِ بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذَرِيَّتِهِ ، ثم قال : يا أسماء ، ألا أبشرك ؟ قالت : بلى بأبي وأمي . قال : فإن الله جعل لجعفر جناحين يطيرُ بهما في الجنة ، قالت : بأبي وأمي ، فأعلم الناس ذلك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذَ بيدي يَمَسُّحُ بيده رَأْسِي حتى رَقِيَ على المنبر وأجلسني أمامه على الدَّرَجَةِ السفلى ، وإنَّ الحزنَ ليعرف عليه ، فتكلم فقال : إنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه وابنِ عمِّه ، ألا إنَّ جعفرًا قد استشهد ، وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما في الجنة . ثم نزل ، فدخل بيته وأدخلني ، وأمر بطعام فصنع لنا ، وأرسل إلى أخي فتغدَّينا عنده غدَاءً طيباً ، عمدتُ ساميَ خادمته إلى شعيرٍ فطحنه ، ثم نشفتُه ، ثم أنضجته وآدمته بزَيْتٍ ، وجعلتُ عليه فُلْفُلًا ، فتغدَّبتُ أنا وأخِي معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أَيَّامٍ ندُّورُ معه في بيوت نسائِهِ ، ثم أرجعنا إلى بيئتنا ، وأتاني رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك وأنا أساومُ في شاةٍ ، فقال : اللهم بارك له في صَفَقَتِهِ ، فوالله ما بعْتُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورَكَ فيه .

[فصل في ذكر بعض مناقب جعفر بن أبي طالب]

رَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ "مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ" ، أَنَّ كُنْيَةَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو الْمَسَاكِينِ ، وَقَالَ : وَكَانَ ثَالِثَ الْإِخْوَةِ مِنْ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ ، أَكْبَرَهُمْ طَالِبٌ ، وَبَعْدَهُ عَقِيلٌ ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرٌ ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ بِعَشْرِ سِنِينَ ، [وَعَلَى أَصْغَرِهِمْ سِنًا] ^(١) ، وَأُمُّهُمْ جَمِيعًا فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ^(٢) .

وَهِيَ أَوَّلُ هَاشِمِيَّةٍ وَلَدَتْ لَهَا شَيْئًا ، وَفَضَّلَهَا كَثِيرٌ ، وَقَرَّبُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَعْظِيمُهُ لَهَا مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ .

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ : لَجَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ . وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ كَثِيرٌ ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ خَيْبَرَ قَدِمَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ ، فَالْتَزَمَهُ ^(٣) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ : مَا أَدْرَى بِأَيِّهِمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا ! بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ، أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ !

قَالَ : وَقَدْ رَوَى خَالِدُ الْحَذَّاءُ ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : مَارَكِبُ الطَّيَا ، وَلَا رَكِبَ الْكُورَ ^(٤) ، وَلَا اتَّعَلَّ ، وَلَا احْتَذَى النَّعَالَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَفْضَلَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

قَالَ : وَقَدْ رَوَى عَطِيَّةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، خَيْرُ النَّاسِ حِمْرَةُ وَجَعْفَرٌ وَعَلِيٌّ .

وَقَدْ رَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : خُلِقَ النَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى ، وَخُلِقْتُ أَنَا وَجَعْفَرٌ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ — أَوْ قَالَ — مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) مِنْ مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ .

(٣) التَّرْمِزُ : اعْتَنَقَهُ .

(٢) مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ ٦ ، ٧ مَعَ تَصْرِفٍ .

(٤) الْكُورُ (بَضْمُ الْكَافِ) : الرَّحْلُ بِأَدَاتِهِ .

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهت خلقي وخلُقتي .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " ، كانت هن جعفر عليه السلام يوم قُتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمر : وقد روى ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لي جعفر وزيد وعبد الله في خيمة من در ، كل واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابن رواحة في أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفر مستقيما ليس فيه صدود ، فسألت فقيلا لي : إنهما حين غشيتهما الموت أعرضا وصددا بوجهيهما ، وأما جعفر فلم يفعل .

قال أبو عمر أيضا : وروى عن الشعبي ، قال : سمعتُ عبد الله بن جعفر يقول : كنتُ إذا سألت عمي عليا عليه السلام شيئا ويمننى ، أقول له : بحق جعفر ، فيُعطيني ^(١) .

وروى أبو عمر أيضا في حرف الزاي في باب زيد بن حارثة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أتاه قتل جعفر وزيد بمؤتة بكى ، وقال : أخوأي ومؤنسأي ومحمدئأي ^(٢) .

واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها الرضی رحمه الله عليه ملتقطة من كتابه عليه السلام الذي كتبه جوابا عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخولاني وقد ذكره أهل السيرة في كتبهم ، روى نصر بن مزاحم في كتاب " صيغين " ، عن عمر بن سعد عن أبي ورفاء ، قال : جاء أبو مسلم الخولاني في ناس من قراء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صيغين فقالوا له : يا معاوية ، علام تقاتل عليا وليس لك

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته فقال: ^(١) «إني لا أدعى أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا مثل هجرته ولا قرابته»^(٢)؛ ولكن خبروني عنكم، ألسن تعلمون أن عثمان قُتل مظلوما قالوا: بلى، قال: فليدفع إلينا قتلته لنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه، قالا: فاكذب إليه كتابا يأتيه به بعضنا، فكتب مع أبي مسلم الخولاني:

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب . سلام عليك ، فإنني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله اصطفى محمدا بعلمه ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتبي له من المسلمين أعوانا أيده الله تعالى بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضأهم في الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة من بعده ، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته ، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان ، فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، عرفنا ذلك في نظرك الشرر ، وقولك الهجر ، وتنفسك^(٣) الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، تقاد إلى كل منهم كما يقاد الفحل الخشوش^(٤) حتى تبائع وأنت كاره ، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظم حسدا منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقهم ألا تفعل ذلك في قرابته وصهره ، فقطعت رحمه ، وقصمت محاسنه ، وألبت^(٥) الناس عليه ، وبطنمت وظهرت حتى ضربت إليه آباط الإبل ، وقيدت إليه الإبل العراب ، وحمل عليه السلاح في حرَم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتل معك في الحلة وأنت تسمع في داره الهائلة^(٥) ، لا تردع الظن والتهمة عن نفسك بقول ولا عمل . وأقسم قسما صادقا لو قمت فيما كان من أمره مقاما واحدا تُنهنه الناس

(١-١) صفين : « ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته » .

(٢) صفين : « وفي تنفسك » .

(٣) الخشوش : الذي جعل في عظم أنفه الخشاش ، وهو بالكسر عويد يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع في انقياده » .

(٤) ألبت الناس : جمعهم عليه .

(٥) الهائلة : الصوت الشديد .

عنه ، ماعدل بك من قبلنا من الناس أحدا ، ولحمّا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعمان والبغي عليه ، وأخرى أنت بها عند أنصارِ عثمان ظنين^(١) ؛ إياؤك قتلة عثمان ، فهم عضدك وأنصارك ، ويدك وبطانك ؛ وقد ذكر لي أنك تنصل من دمه ، فإن كنت صادقا فأمكنا من قتلتته نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلا فإنه ليس لك ولأصحابك إلا السيف ؛ والذي لا إله إلا هو لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال ، والبر والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لتلحقن أرواحنا بالله ، والسلام^(٢) .

قال نصر : فلما قدم أبو مسلم على عليّ عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنك قد قتت بأمر وليّته ، والله ما أحبّ أن يغريك . إن أعطيت الحق من نفسك . إن عثمان قتل مسامحا محرّما مظلوما ، فادفع إلينا قتلتته ، وأنت أميرنا ، فإن خالفك من الناس أحدٌ كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتنا لك شاهدة ، وكنت ذا عذر وحجة . فقال له عليّ عليه السلام : اغدُ عليّ غداً ، فخذ جواب كتابك فانصرف ، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جواب كتابه ، فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه قبل ، فليست الشيعة أسلحتهم ثم غدوا فملاوا المسجد فنادوا : كلنا قتلة عثمان ، وأكثروا من الداء بذلك وأذن لأبي مسلم ، فدخل ، فدفع عليّ عليه السلام جواب كتاب معاوية ، فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوما مالّك معهم أمر ، قال : وما ذاك ؟ قال : بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجّوا ، واجتمعوا ، ولبسوا السلاح ، وزعموا أنهم قتلة عثمان . فقال عليّ عليه السلام ، والله ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفة عين قط ، لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينه ، فما رأيتُه ينبغي لي أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طاب الضراب !

(١) ظنين : متهم .

(٢) صفين ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ عليٍّ عليه السلام : من عبد الله عليَّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

أمّا بعد ؛ فإن أخا خولان قديم عليٍّ بكتابٍ منك تذكّر فيه محمداً صلى الله عليه وآله وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحي ، فالحمْدُ لله الذي صدّقه الوعد ، وأيّده ^(١) بالنصر ، ومكّن له في البلاد ، وأظهره على أهلِ العداوة ^(٢) . والشنآن من قومه الذين وتّبوا عليه ، وشنّفوا له ^(٣) ، وأظهروا تكذيبه ^(٤) وبارزوه بالعداوة ، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراجِ أصحابه وأهله ، وألبوا عليه [العرب ، وجادلوه على حربِه] ^(٥) ، وجهّدوا في أمره كلَّ الجهد ، وقلبوا له الأمور حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون ، وكان أئدّ الناس عليه تأليباً ^(٦) وتحريضاً أسرته ، والأدنى فالأدنى من قومه ، إلّا من عصم الله . وذكرت أنّ الله تعالى اجتنبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم - زعمت - في الإسلام ، وأنصحتهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولعمري إنّ مكانهما في الإسلام لعظيم ، وإنّ الصاب بهما لجرح في الإسلام شديد ، فرحمهما الله وجزاهما أحسن ما عيلاً ؛ وذكرت أنّ عثمان كان في الفضل تالياً ، فإن يك عثمانُ محسناً فسيجزيه الله بإحسانه ، وإن يك مُسيئاً فسيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاطمه ذنب إن يغفره ، ولعمري إنّني لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ولرسوله ، أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر . إن محمداً صلى الله عليه وآله لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبئنا أحوالاً كاملةً مجرّمة ^(٧) تامة ، وما يُعبد الله في ربّع ساكنٍ من

(١) صفين : « وتم له النصر » .

(٢) صفين : « العدا » وهو يوافق ما في ١ .

(٣) شنّف له ، أى أبغضه .

(٤) صفين : « النكذب » .

(٥) من صفين .

(٦) صفين : « إلّابا » .

(٧) مجرّمة ، أى كاملة .

من العرب غيرنا ، فأراد قومنا قتل نبيّنا ، واجتياح أصلنا ، وهمّوا بنا الهُوم ، وفعلوا بنا الأفاعيل ، ومنعونا الميرة^(١) ، وأمسكوا عنا العذب ، وأحلسونا الخوف^(٢) . وجعلوا علينا الأرصاد والعيون ، واضطرونا إلى جبل وعُر ، وأوقدوا لنا نار الحرب ، وكتبوا بينهم كتابا ، لا يؤاكلوننا ، ولا يُشاربُوننا ، ولا يُناكحُوننا ، ولا يُبايعُوننا ، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمداً فيقتلوه ويمثلوا به ، فلم نكن نأمن فيهم إلّا من مؤسّم إلى مؤسّم ، فعزم الله لنا على منعه ، والذبّ عن حوزته ، والرّمي من وراء حرّمته ، والقيام بأسياخنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار ، فمؤمّننا يرجو بذلك الثواب ، وكافرنا يُحامي عن الأصل ، وأمّا من أسلم من قريش فإنهم ممّا نحن فيه خلاء ، منهم الخليف الممنوع ، ومنهم ذو العشيّرة التي تدافع عنه ، فلا يبغيه أحدٌ مثل ما بغانا به قومنا من التلف ، فهم من القتل بمكان^(٣) نجوة وأمن ، فكان ذلك ماشاء الله أن يكون . ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة ، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان إذا احمرّ البأس ، ودعيت نزال^(٤) أقام أهل بيته ، فاستقدموا ، فوق أصحابه بهم حدّ الأسلّة والسيوف ، فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أُحُد ، وجعفر وزيد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم غير مرّة ، إلّا أن آجالهم عجّلت ، ومنّيته أخرت ، والله وليّ الإحسان إليهم ، والمِنَّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أنصحُ في طاعة رسوله ولا لنبيّه ، ولا أصبرَ على اللأواء^(٥) والسرّاء والضّرّاء وحين البأس ، ومواطن المكروه مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النّفر الذين سمّيتُ لك ، وفي المهاجرين خيرٌ كثيرٌ يعرف ، جراهم الله خيراً بأحسن

(١) الميرة بالكسر : ما يجلب ؛ ويريد بالعذب الماء .

(٢) أحلسونا الخوف ؛ أى ألزموناه .

(٣) انظر صفين ١٠٠ ، ١١١ .

(٥) اللأواء : الشدة .

(٤) دعيت نزال ، كقطام ؛ أى تنازلوا للحرب .

أعمالهم . وذكّرت حسدى الخلفاء وإبطائى عنهم ، وبغى عليهم ؛ فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكرَاهِيَّةُ لأمرهم فلستُ أعتذر إلى الناس من ذلك ؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيّه الله صلى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أميرٌ ، وقالت الأنصار : منّا أميرٌ ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحقُّ بالأمر ، فعرفتُ ذلك الأنصار فسَلَّمَت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقَّوها بمحمد صلى الله عليه وسلم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقُّ به منهم ، وإلاَّ فإنَّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيباً ، فلا أدري : أضحاي سلموا من أن يكونوا حقِّي أخذوا ، أو الأنصار ظالموا ، بل عرفتُ أن حقِّي هو المأخوذ ، وقد تركته لهم تجاوزاً لله عنهم . وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطيعتى رحمه ، وبألبى عليه فإن عثمان عمل ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما رأيت ، وإنك لتعلم أنى قد كنت فى عزلة عنه إلا أن تتجنّى ؛ فَتَجَنَّ (١) ما بدالك ؛ وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإننى نظرتُ فى هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمرى لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلّفونك أن تطلبهم فى برٍّ ولا بحر ولا سهل ولا جَبَل ، وقد أتانى أبوك حين ولّى الناسُ أبا بكر ، فقال : أنتَ أحقُّ بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف ، أبسطُ يدك أبايُمُك ؛ فلم أفعل ، وأنتَ تعلم أنَّ أباك قد قال ذلك وأراد به حتى كنتُ أنا الذى أبيتُ ؛ لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقِّ منك ، فإن تعرفُ من حقِّ ما كان أبوك يعرف تُصبُ رُشدك ، وإن لم تفعل فسيُغنى الله عنك ، والسلام (٢) .

(١٠)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

وَكَيفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ
تَبَهَّجَتْ بِزِيَمَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا ؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا . وَأَمَرَتْكَ
فَأَطَعْتَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ .
فَأَقْعَسَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخَذَ أَهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَتَمَرَّ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ،
وَلَا تَمَكِّنِ الْغَوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أَعْلَمَكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ،
فَإِنَّكَ مُتَرَفٌّ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَا خَذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلُهُ ، وَجَرَى مِنْكَ
مَجْرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ .

وَمَتَى كُنْتُمْ بِمَعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَوَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ،
وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَلَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ .
وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مَتَمَّ دِيًّا فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .
وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا ، وَأَخْرِجْ إِلَى ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ
الْقِتَالِ ، لَتَتَعَلَّمَ أَيْنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمَغْطَى عَلَى بَصَرِهِ !
فَأَنَا أَبُو حَسَنِ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخَا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ
مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا ، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيًّا ، وَإِنِّي
أَعْلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَ كُتْمُوهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِرًا بِدَمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَاطْلُبْهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضَعُ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَحِيجُ
الْجَمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ ، وَالْقَضَاءِ
الْوَاقِعِ ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاهِدَةٌ ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ .

الشرح

الجلابيب : جمعُ جلباب ، وهي المُلحقة في الأصل ؛ واستُعير لغيرها من الثياب ،
وتجلبب الرجلُ جلببةً ، ولم تدغم لأنها ملحقة بـ « دَحْرَجَة » .

قوله : « وتبهجتُ بزينتها » : صارت ذاتَ بهجة ، أى زينة وحُسن ، وقد بهج
الرجلُ بالضم ، ويوشك : يسرع .

ويقفك واقف ، يعنى الموت ؛ ويروى : « ولا ينحيكِ بحنّ » ، وهو الترس ،
والرواية الأولى أصح .

قوله : « فاقعسُ عن هذا الأمر » ، أى تأخر عنه ، والماضى قعس بالفتح ، ومثله
تقاعس واقعنس .

وأهبة الحساب : عدته ، وتأهب : « استعدّ ، وجمع الأهبة أهب .
وشمرلما قد نزل بك ، أى جِدَّ واجتهد وخِفَّ ، ومنه رجل شمرى بفتح
الشين ، وتكسر .

والغواة : جمع غاوٍ ، وهو الضال .
قوله : « وإلا تفعل » يقول : وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإننى
أعرفُك من نفسك ما أغفلت معرفته .

إنك مترَف ، والمترَفُ الذى قد أترفته النعمة ، أى أطفته .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُروى « مأخذه » بالجمع ، أى تناول الشيطان منك لَبَّكَ وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطان تناوله المعروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الكلام عليه ، ولأن اللفظة تجرى مجرى المثل .

قوله : « وجرى منك مجرى الروح والدم » ، هذه كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

ثم خرج عليه السلام إلى أمر آخر ، فقال لمعاوية : « ومتى كنتم ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة ! » ينبغى أن يُحمل هذا الكلام على نفي كونهم سادة وولاة في الإسلام ، وإلا ففي الجاهلية لا يُسكر رياسة بنى عبد قُتُمس . ولست أقول برياستهم على بنى هاشم ، ولكنهم كانوا رؤساء على كثير من بطون قريش ، ألا ترى أن بنى نوفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأن بنى عبد شمس كانوا في يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عتبة بن ربيعة ، وكانوا في يوم أحد ويوم الخندق قادة الجيش اكان الرئيس في هذين اليومين أباسُفيان بن حرب ؛ وأيضاً فإن في لفظة أمير المؤمنين عليه السلام ما يُشعر بما قلناه ، وهو قوله : « وولاة أمر الأمة » فإن الأمة في العرب هم المسلمون ، أمة محمد صلى الله عليه وآله .

قوله عليه السلام : « بغير قدمٍ سابق » ، يقال : لفلان قدمٌ صِدْق ، أى سابقة وأثرٌ حسنٌ .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عال .
وتمادى : تفاعل ، من المدى ، وهو الغابة ، أى لم يقف بل مَضَى قُدماً .
والغرّة : الغفلة : والأمنية : طمع النفس . ومختلف السرية والعلائية : منافع .
قوله عليه السلام : « فدَرَج الناس جانباً » ، منصوب على الظرف .

والمرين على قلبه : المغلوب عليه ، من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) . وقيل : الرّين : الذنب على القريب .

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها في رسالة كتبها ، ووقفت عليها من كتاب أبي العباس يعقوب بن أبي أحمد الصّيمريّ الذي جمعه من كلام عليّ عليه السلام وخطبه ، وأولها :

أما بعد ، فإنّك المطبوع على قلبك ، المغطى على بصرك؛ الشرّ من شيمتك ، والعُتوّ من خَلِيقَتِكَ ، فشمّر للحرب ، واصبر للضّرب ، فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهات هيهات ! أخطأك ما تمنى ، وهوى قلبك فيما هوى ، فاربّع على ظلمك ، وقسّ شبرك بفترك ، تعلم أين حالك من حال من يزِن الجبال حِمْلُهُ ، ويفصل بين أهل الشكِّ علمُهُ ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا بعد ، يابن صخر ، يابن اللعين ؛ يزِن الجبال فيما زعمت حِمْلُكَ ، ويفصل بين أهل الشكِّ علمُكَ ؛ وأنت الجاهل القليلُ الفقه ، المتفاوتُ العقل ، الشاردُ عن الدين .

وقلت : « فشمّر للحرب ، واصبر » ، فإن كنت صادقاً فيما تزعم ، ويُعينك عليه ابن النّابغة ، فدع الناس جانباً ، وأعفِ الفريقين من القتال ، وابرز إلى لتعلم أيّنا المرين على قلبه ، المغطى على بصره ، فأنا أبو الحسن حقا ، قاتل أخيك وخالك وجدك ؛ شدّخاً يوم بدر ، وذلك السيّف معي ، وبذلك القلب ألقيّ عدوى !

قوله عليه السلام «شدّخا»؛ الشّدخ: كسرُ الشيء الأجوف، شدّخت رأسه فأشّدخ، وهؤلاء الثلاثة: حنظلة بن أبي سُفيان، والوليد بن عتبة، وأبوه عتبة بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خاله؛ وعتبة جدّه، وقد تقدّم ذكرُ قتلِهِ إِيّاهم في غزاة بدر.

والثائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمت حيث وقع دمُ عثمان فاطلبه من هناك»، يريد به إن كنتَ تطلبُ ثأركَ من عند من أجلب وحاصر، فالَّذى فَعَلَ ذلك طلحةُ والزبير؛ فاطلبُ ثأركَ من بنى تميم ومن بنى أسد بن عبدِ العزّى، وإن كنتَ تطلبه من حَذَل، فاطلبه من نَفْسِكَ فَإِنَّكَ حَذَلْتَهُ، وكنتَ قادراً على أن ترفِده^(١) ومُدّه بالرجال، فحَذَلْتَهُ وقعدتَ عنه بعد أن استنجذَكَ وأستغاثَ بك.

وتضجّ: تصوّت. والجاحدة: المنكرة، والحائدة: العادلة عن الحقّ.

واعلم أن قوله: «وكأني بجماعتك يدعونني جزّاعن السيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكون فِرَاسَةً نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإمّا أن يكون إخباراً عن غيب مفصّل، وهو أعظم وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجَب. وقد رأيت له ذكرَ هذا المعنى في كتاب غير هذا، وهو: «أما بعد»، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بمنزلة التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر؛ وليس إبطائي عنك إلّا لوقت أنا به مصدّق، وأنت به مكذّب؛ وكأني أراك وأنت تضجّ من الحرب، وإخوانك يدعونني خوفاً من السيف، إلى كتابٍ هم به كافرون، وله جاحدون.

ووقفت له عليه السلام على كتابٍ آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله: «أما بعد، فطالما دعوتَ أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الحقّ أساطير، ونبتموه وراء

(١) ترفده: أعيته.

ظهوركم ، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم ، وَيَا بَنِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ^(١) . وَلَعَمْرِي لَيَنْفِذَنَّ الْعِلْمُ فِيكَ ، وَلَيَتَمَنَّ النُّورُ بِصِفْرِكَ وَقَمَاءِ تَكَ ، وَلَتُخْسَنَنَّ طَرِيدًا مَذْحُورًا ، أَوْ قَتِيلًا مَثْبُورًا^(٢) ؛ وَلَتُجْزَيْنَنَّ بِعَمَلِكَ حَيْثُ لَا نَاصِرَ لَكَ ، وَلَا مُصَرِّحًا^(٣) عِنْدَكَ . وَقَدْ أَهْبَيْتَ فِي ذِكْرِ عِثَانٍ ، وَلَعَمْرِي مَا قَتَلَهُ غَيْرُكَ ، وَلَا خَذَلَهُ سِوَاكَ ، وَلَقَدْ تَرَبَّصْتَ بِهِ الدَّوَائِرَ ، وَتَمَتَّيْتُ لَهُ الْأُمَانِيَّ ، طَمَعًا فِيمَا ظَهَرَ مِنْكَ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ فَعَلُكَ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أُلْحِقَكَ بِهِ عَلَى أَعْظَمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَأَكْبَرَ مِنْ خَطِيئَتِهِ .

فأنا ابن عبد المطلب صاحبُ السِّيفِ ، وَإِنِّ قَائِمُهُ لِنِي يَدِي ، وَقَدْ عَلِمْتَ مِنْ قَتْلِكَ بِهِ مِنْ صَنَادِيدِ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَفِرَاعِنَةِ بَنِي سَهْمٍ وَمُجَحِّحِ وَبَنِي مَخْزُومٍ ؛ وَأَيَّمْتُ أُنْبَاءَهُمْ ، وَأَيَّمْتُ نِسَاءَهُمْ^(٤) . وَأَذْكُرُكَ مَا لَسْتُ لَهُ نَاسِيًا ؛ يَوْمَ قَتَلْتُ أَخَاكَ حَنْظَلَةَ ، وَجَرَرْتُ بَرَجْلَهُ إِلَى الْقَلْبِيبِ^(٥) ، وَأَسَرْتُ أَخَاكَ عَمْرًا ؛ فَجَعَلْتُ عُنُقَهُ بَيْنَ سَاقِيهِ رِبَاطًا ، وَطَلَبْتُكَ فَفَرَرْتَ وَلَكَ حُصَااصُ^(٦) ؛ فَلَوْلَا أَنِّي لَا أَتَّبِعُ فَارًّا ، لَجَعَلْتُكَ نَالَهُمَا ، وَأَنَا أَوْلَى لَكَ بِاللَّهِ أَلْيَسَ بَرَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ ؛ لَئِنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعَ الْأَقْدَارِ ، لِأَتْرُكَنَّكَ مِثْلًا يَتِمَثَّلُ بِهِ النَّاسُ أَبَدًا ، وَلَأَجْمَعَنَّ بِكَ فِي مَنَاخِكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

وَلَئِنْ أُنْسَا^(٧) اللَّهُ فِي أَجَلِي قَلِيلًا لِأَغْزِيَنَّكَ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ ، وَلَأَنْهَدَنَّ إِلَيْكَ فِي جَعْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ لَا أَقْبِلُ لَكَ مَعْذِرَةً وَلَا شَفَاعَةً ، وَلَا أَجِيبُكَ إِلَى طَلَبٍ وَسُؤَالٍ ، وَلَتَرْجِعَنَّ إِلَى تَحْيُوكَ وَتَرْدُوكَ وَتَلَدُّوكَ ، فَقَدْ شَاهَدْتَ وَأَبْصَرْتَ وَرَأَيْتَ

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٢) مثبورا : مالهكا ؛ أَوْ مَصْرُوعًا عَنِ الْخَيْرِ .

(٣) المصريح : المستغِيث .

(٤) أَيَّتْ نِسَاءَهُمْ ؛ أَيْ تَرَكَتَن بِلَا أَزْوَاجٍ .

(٥) القليب : البئر .

(٦) الحصاص : شدة العدو .

(٧) أُنْسَا اللَّهُ فِي أَجَلِي ؛ أَيْ أَخْرَجَهُ قَلِيلًا .

سُحِبَ الموتِ كيف هطلت عليك بصيِّها (١) حتى أعتصمت بكتاب أنت وأبوك أول من
كفر وكذب بنزوله . ولقد كنت تفرسها ، وأذنتك أنك فاعلها ، وقد مضى منها
مأمضى ، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى ، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هذا الكتاب ،
فاختر لنفسك ، وانظر لها ، وتداركها ، فإنك إن فطرت واستمررت على غيِّك
وغلوائك (٢) حتى ينهد إليك عبادُ الله ، أرَّجت عليك الأمور ، ومُنعت أمرًا هو اليوم
منك مقبول .

يا بن حرب ، إنَّ لجالك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرأى ، فلا يطمعك
أهل الضلال ، ولا يوبقك سفه رأى الجهال ، فوالذى نفسُ عليٍّ بيده لئن برقت
في وجهك بارقة من ذى الفقار لتصعقن صعقة لا تفيق منها حتى يُنفخ في الصور النفخة
التي يثست منها ﴿ كَمَا يَثْسِرُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٣) .

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدرًا مع المشركين ؟ فقال :
نعم شهد بها ثلاثة من أولاد أبي سفيان : حنظلة وعمرو ومعاوية ، قُتل أحدهم ، وأسِر الآخر ،
وأُفلت معاوية هاربًا على رجلَيْه ، فقدم مكة ، وقد انتفخ قدماه ، وورمت ساقاه ، فعالج
نفسه شهرين حتى برأ .

قال النقيب أبو زيد : ولا خلاف عند أحدٍ أنَّ عليا عليه السلام قتل حنظلة
وأسر عمرًا أخاه . ولقد شهد بدرًا ، وهرب على رجلَيْه من هو أعظمُ منهما ومن أخيهما
عمرو بن عبد ود فارس يوم الأحزاب ، شهدا ونجا هاربًا على قدميه ، وهو شيخ كبير ،

(٢) الغلواء : الكبر .

(١) الصيب : المطر المنصب .

(٣) الامتحنة ١٢ .

وارْتُثَ^(١) جريحاً ، فَوَصَلَ إلى مَكَّةَ وهو وَقِيدٌ^(٢) فلم يشهد أحدًا ، فلما برأ شهد الخندق ، فقتله قاتلُ الأبطال ، والذي فاتَهُ يومَ بدرٍ استدركه يومُ الخندق .

ثم قال لى النقيب رحمه الله : أما سمعتَ نادرةَ الأعمش ومُناظِرَه ؟ فقلتُ : ما أعلمُ ما تريد ؛ فقال : سأل رجلٌ الأعمش - وكان قد ناظرَ صاحباً له : هل معاويةٌ من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصْلَحَكَ اللهُ ، هل شَهِدَ معاويةٌ بدرًا ؟ فقال : نعم مِن ذلك الجانب .

واعلم أن هذه الخطبة قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب " صِفَيْن " ، على وجه يقتضى أن ما ذكره الرضى - رحمه الله - منها قد ضمَّ إليه بعضَ خطبةٍ أخرى ، وهذه عادَتُهُ ، لأنَّ غَرَضَهُ التَّقْصِاطُ الفَصِيحُ والبليغ من كلامه ، والذي ذكره نصر بن مزاحم هذه صورته :

من عبد الله عليَّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى فأَتَى أحمدَ إليك اللهُ الَّذِي لا إلهَ إلا هو ، أما بعد ، فإنك قد رأيتَ مُرورَ الدنيا وانقضاءَها وتصرُّفَها وتصرفَها بأهلها ، وخيرُ ما اكتسبَ من الدنيا ما أصابه العبادُ الصالحون منها من التقوى ، ومن يَقسَ الدنيا بالآخرة يَجِدُ بينهما بعيداً . واعلم يا معاوية أنَّكَ قد ادَّعيتَ أسراً لستَ من أهلِهِ^(٣) لافي القَدِيمِ ولا في الحديثِ^(٤) ، ولستَ تقول فيه بأمرين يُعْرِفُ له أثرٌ^(٥) ، ولا عليك منه شاهد [من كتاب الله]^(٥) ؛ ولستَ متعلِّقاً بآيةٍ من

(١) ارتث جريحاً : حمل من المعركة رثينا ؛ أى جريحاً وبه رفق .

(٢) الوقيد : الشد يد الرس ، المشرف على الهلاك .

(٣ - ٣) صفين : « لافي القدم ولا في الولاية » .

(٤) صفين : « أمرة » .

(٥) من صفين .

كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فكيف أنت صانع^(١) إذا
تَشَعَّتْ عنك غيابةُ ما أنت فيه من دُنيا قد فتنَتْ بزينتها ، وَرَكَتْ إلى لذاتها^(٢) ،
وخلَّى بينك وبين عدوك فيها ، وهو عدوٌّ وكتابٌ مُضِلٌّ جاهد مُليح^(٣) ، ملحٌ ، مع
ما قد ثَبَّتْ في نفسك من جهتها ، دعوتك فأحبَّتها ، وقادتكَ فاتَّبعَها ، وأمرتك فأطعَها ،
فأقعس^(٤) عن هذا الأمر ، وخذ أهبةَ الحساب ، فإنه يُوشِكُ أن يَقِفَكَ واقف على
ما لا يَحْنُكَ^(٥) يَحْنٌ .

ومتى كنتم يا معاوية ساسةَ الرعية ، أو ولاةً لأمر هذه الأمة ، بلا قَدَمَ حَسَنٍ ،
ولا شَرَفٍ تَلِيدٍ على قومكم ، فاستيقظ من سِنَتِكَ ، وارجع إلى خالقك ، وشمِّرْ لما
سينزل بك ، ولا تُمَكِّنْ عدوك الشيطانَ من بَغِيْتِهِ فيك ؛ مع أنِّي أعرف أن الله
ورسوله صادقان ، نعوذ^(٥) بالله من لزوم سابق الشقاء وإلا نَفَعَلْ فإني أعلمك ما أغفلتَ
من نفسك ، إنك مُتَرَفٌ ، قد أَخَذَ منك الشيطان مأخذه ، فخرى منك بجرى الدم في
العروق ، ولستَ من أئمة هذه الأمة ولا من رعائها . واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى
الناس أو بأيديهم لحسدُوناهُ ، ولا مُتَمَثَّوْا علينا به ، ولكنَّه قضاؤه مَنِّ مَنَحْنَاهُ وأختصَّنا به ،
على لسان نبيِّه الصادق المصدِّق ، لا أَفْلَحَ من شك بعد العِرْفَانِ والبيِّنة ! ربِّ احْكَمْ
بيننا وبين عدوِّنا بالحق وأنت خيرُ الحاكمين^(٦) .

قال نصر : ^(٧) « فكتب معاويةُ إليه الجواب^(٧) : من معاوية بن أبي سُفْيَانَ إلى عليٍّ
ابن أبي طالب ، أمَّا بعد ، فدَعِ الحسدَ ، فإنَّك طالما لم تَنْتَفِعْ به ، ولا تُفْسِدَ سابقةً

(١-١) صفين : « إذا انشعَّتْ عنك جلايب ما أنت فيه من دُنيا أهبَّتْ بزينتها ، وركنتَ إل لذتها » .

(٢) المليح : اللوح بالسيف ؛ يقال : ألاح بالسيف ؛ ولوح : إذا حركه ولم به .

(٣) أقعس عن هذا الأمر ؛ أى تأخر .

(٤) كذا في صفين و ١ ، وفي ب : « يَحْنُكَ » .

(٥) صفين : « فنعوذ » .

(٦-٧) صفين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهادك بشرة نخوتك ، فإن الأعمال بخواتيمها ، ولا تمحّص سابتك بقتال من لا حق لك في حقه^(١) ، فإنك إن فعل لا تضرّ بذلك إلا نفسك ، ولا تحقق إلا عمالك ، ولا تبطل إلا حجتك ؛ ولعمري إن ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون محموقا ، لما اجتراءت عليه من سفك الدماء ، وخلاف أهل الحق ، فافرا السورة التي يذكر فيها الفلق وتعوذ من نفسك^(٢) فإنك الحاسد إذا حسد^(٣) .

(١) حق الرجل وأحقه ؛ إنا غلبه على الحق .

(٢) صفي : « وتعوذ بالله من شر نفسك » .

(٣) صفي ١٢٣ .

(١١)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدو :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بَعْدُ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مَعْسَكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ ،
أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِذْءٌ ، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا .
وَلْيَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ ائْتَيْنِ ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صِيَاصِ
الْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ الْهَضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمْ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانٍ خَفَاءٍ أَوْ أَمْنٍ .
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ؛ وَعُمُيُونَ الْمَقَدِّمَةَ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ،
فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا أَرْتَحِلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا غَشِيَكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا
الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا أَوْ مَضْمُضَةً .

الشرح :

المعسكر ؛ بفتح الكاف : موضعُ المعسكر ، وحيث ينزل .

الأشرف : الأماكن العالية ، وقبيلها : ما أَسْتَقْبَلَكْ منها ، وضده الدُّبُر .

وسفاح الجبال : أسافلها حيث يَسْفَحُ منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما أُنْعَظُ منها ، واحدها ثَنِي . والمعنى أنه أمرهم أن ينزلوا مسندين

ظهورهم إلى مكانٍ عالٍ كالْهَضَابِ الْعَظِيمَةِ ، أو الجبال ، أو مُنْعَظِ الْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي

مَجْرَى الْخِثَاقِ عَلَى الْعَسْكَرِ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ مِنَ الْبَيَاتِ ، وَلِيَأْمَنُوا أَيْضًا مِنْ إِيْتَانِ الْعَدُوِّ لَهُمْ

من خَلَفِهِمْ ، وقد فسّر ذلك بقوله : كما يكون لكم رِداءٌ ، والرِّداءُ : العَوْنُ ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْهُ مَعَ رِداءٍ يُصَدِّقُنِي ﴾ (١) .

ودونكم مرّداً ، أى حاجزا بينكم وبين العدو .

ثمّ أمرهم بأن يكون مقاتلتهم - بفتح التاء ، وهى مصدر « قاتل » - من وجه واحد أو اثنين ؛ أى لا تتفرّقوا ؛ ولا يكن قتالكم العدو في جهاتٍ متشعبة ، فإنّ ذلك أدعى إلى الوَهْنِ ، واجتماعكم أدعى إلى الظفر ، ثمّ أمرهم أن يجعلوا رقباء في صياصي الجبال . وصياصي الجبال : أعاليها وما جرى مجرى الحصون منها ، وأصل الصياصي القرون ، ثم استعير ذلك للحصون لأنّه يُمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه . ومناكب الهضاب : أعاليها ؛ لثلاثا يأتيكم العدو إمّا من حيث تأمنون ، أو من حيث تخافون .

قوله عليه السلام : « مقدّمة القوم عُيُونُهُمْ » ، المقدّمة ، بكسر الدال ، وهم الذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدّمة القوم ، أى الفرقة المتقدمة . والطلّائع : طائفة من الجيش تُبعث ليُعلم منها أحوال العدو . وقال عليه السلام : المقدّمة عيون الجيش . والطلّائع عيون المقدّمة ، فالطلّائع إذا عُيُونُ الجيش .

ثمّ نهاهم عن التفرّق ، وأمرهم أن ينزلوا جميعاً ويحلوا جميعاً ، لثلاثا يفجّأهم العدو بغتة على غير تعبئةٍ واجتماعٍ ، فيستأصلهم ؛ ثمّ أمرهم أن يجعلوا الرّماح كِفّةً إذا غشيهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى أجعلوها مُستديرة حولكم كاللدايرة ، وكلّ ما استدار كِفّةً بالكسر ، نحو كِفّة الميزان ، وكلّ ما استطال كِفّة بالضم نحو : كِفّة الثوب وهى حاشيته ، وكِفّة الرّمل ، وهو ما كان منه كالحبل .

ثمّ نهاهم عن النوم إلا غراراً أو مضمضةً ، وكلا اللَّفْظَيْنِ ماقول من النوم .

وقال شبيب الخارجي : الليلُ يكفيك الجبان ، ويصف الشجاع .

وكان إذا أُمسى قال لأصحابه : أتاكم المدد ، يعني الليل .

قيل لبعض الملوك بيتُ عدوك . قال : أكره أن أجعل غلبتي سرقة .

ولما فصل قحطبة من خراسان وفي مجلته خالد بن برمك ، بينا هو على سطح بيت في قرية نزلاها وهم يتغدّون نظر إلى الصّحراء فرأى أقاطيعَ ظباء قد أقبلت من جهة الصّحاري حتى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ، ناد في الناس : يا خيل الله اركبي ؛ فإن العدو قد قرب منك ، وعامة أصحابك لن يُسرجوا ويُلجموا حتى يروا سرعان^(١) الخيل . فقام قحطبة مذعورا فلم ير شيئا يروعه ، ولم يُعاب غبارا ، فقال لخالد : ما هذا الرأي ؟ فقال : أيها الأمير ! لا تتشاغل بي ، وناد في الناس ، أما ترى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعها حتى خالطت الناس ! وإن وراءها لجمعاً كثيفاً . قال : فوالله ما أسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقع^(٢) وساطع القبار ، فسلموا ، ولولا ذلك لكان الجيش قد اضطلم^(٣) .

(١) سرعان الخيل : أوائلها .

(٢) النقع : القبار .

(٣) اضطلم : استؤصل وأبيد .

(١٢)

الأضل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له :

أَتَقِيَ اللَّهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرِّ الْهَرْدَيْنِ ، وَغَوَّرِ بِالنَّاسِ ، وَرَفِّقْ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَمَلُهُ سَكَنًا ، وَقَدَرُهُ مُقَامًا لَا ظَعْنًا ، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًا ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوً مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَبَاعِدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَعَائِهِمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

البنرخ :

معقل بن قيس ، كان من رجال الكوفة وأبطالها ، وله رئاسة وقدم ، أوفده عمار ابن ياسر إلى عمر بن الخطاب مع الهزمزان لفتح تستر^(١) وكان من شيعة علي عليه السلام ، وجهه إلى بني ساقه فقتل منهم وسبي ، وحارب المستورد بن علفة الخارجي

(١) تستر ، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه : أعظم مدينة بخوارستان .

من تميم الرباب ، فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه بدجلة ، وقد ذكرنا خبرها فيما سبق ،
ومعقل بن قيس رياحى من ولد رياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة
ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تُقاتلن إلا من قاتلك » ، نهى عن البغى .

وسير البردین : هما الغداة والعشي ، وهما الأبردان أيضا .

ووصاه أن يرفق بالناس ولا يكلفهم السير في الحر .

قوله عليه السلام : « وغور بالناس » : انزل بهم القائلة ، والمصدر التقوير ، ويقال
للقائلة : الغائرة .

قوله عليه السلام : « ورفه في السير » ، أى دعه الإبل ترد رِفهاً^(١) ، وهو أن ترد الماء
كل يوم متى شاءت ولا ترهقها وتجشمها السير . ويجوز أن يكون قوله : « ورفه في السير » ،
من قولك : رففت عن الغريم ، أى نفست عنه .

قوله عليه السلام : « ولا تسر أول الليل » ؛ قد ورد في ذلك خبر مرفوع ، وفي الخبر أنه
حين تنشر الشياطين . وقد علل أمير المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى
جعله سكنا ، وقدره مقامالا ظعنا » ، يقول : لما امتن الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل
ليسكنوا فيه^(٢) كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير
والحركة في آخره وهو من جملة الليل أيضا ؟ ويمكن أن يكون فهم من رسول الله
صلى الله عليه وآله أن الليل الذى جعل سكنا للبشر إنما هو من أوله إلى
وقت السحر .

(١) أى رد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ﴾ .

سورة يونس ٦٧ .

ثم أمره عليه السلام بأن يريح في الليل بدنه وظهره ، وهي الإبل ، وبنو فلان
مظهرون ، أى لهم ظهر ينقلون عليه ، كما تقول : منجبون ، أى لهم نجائب .
قال الراوندى : الظهر . الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ما ذكرناه .
قوله عليه السلام : « فإذا وقفت » أى فإذا وقفت ثقلك وراحلك لتسير ، فليكن
ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندى : « فإذا وقفت » ثم قال وقد روى : « فإذا واقفت » ، قال : يعنى
إذا وقفت تحارب العدو وإذا واقفته ، وما ذكره ليس بصحيح ولا روى ، وإنما هو
تصحيف ، ألا تراه كيف قال بعده بقليل : « فإذا لقيت العدو » ! وإنما مراده هاهنا الوصاة
بأن يكون السير وقت السحر ووقت الفجر .

قوله عليه السلام : « حين ينبطح السحر » ، أى حين يتسع ويمتد ، أى لا يكون السحر
الأول ، أى ما بين السحر الأول وبين الفجر الأول ، وأصل الانبطاح السعة ، ومنه الأبطح
بمكة ، ومنه البطيحة ، وتبطح السيل ، أى اتسع في البطحاء ، والفجر انفجر انشق .

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدو أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس ، والواجب
أن يكون الرئيس في قلب الجيش ، كما أن قلب الإنسان في وسط جسده ، ولأنه إذا كان
وسطاً كانت نسبته إلى كل الجوانب واحدة ، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطرف
الآخر ، فربما يختل نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدو دنوً من يريد أن يُنشب الحرب ، ونهاه أن
يبعدُ منهم بُعداً من يهاب الحرب ، وهي البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾^(١) ،

(١) سو البقرة ١٧٧ .

أى حين الحرب ، بل يكون على حالٍ متوسطّة بين هذين حتى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تبدءوهم بالقتال قبل أن تدعّوهم إلى الطاعة وتُغذّروا إليهم أى تصيروا ذوى عذر في حربهم .
والشّئان : البغض ، بسكون النون وتحريكها .

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب]

وفي الحديث المرفوع : « لا تتمنّوا العدوّ فعسى أن تبتلوّ بهم ، ولكن قولوا : اللهم أكفنا شرهم ؛ وكفّ عناّ بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يضجّون فعليك الأرض جُلوساً ، وقولوا : اللهم أنت ربّنا وربّهم ، وببيدك نواصينا ونواصيهم ، فإذا غشوكم فنوروا في وجوههم » .

وكان أبو الدرداء يقول : أيّها الناس ، اعملوا عملاً صالحاً قبل الغزو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم .

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين استعمله فقال : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدوّ فكن بعيداً من الحملة ، فإنّي لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسرّ بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غيرة ، وأقل من الكلام ، فإن ما وُعِيَ عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتابي فأمضه ، فإنما أعمل على حسب إنفاذه ، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك ، وأسبغ عليهم من النفقة ، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تَلَحَّنْ فِي عَقُوبَةٍ فَإِنْ أَدْنَاهَا وَجِيعَةٌ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَيْهَا وَأَنْتَ تَكْتَفِي بِغَيْرِهَا ، وَأَقْبَلْ مِنَ النَّاسِ عَلَانِيَتِهِمْ ، وَكُلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ فِي سَرِيرَتِهِمْ ، وَلَا تَعْرِضْ عَسْكَرَكَ فَتَفْضَحَهُ ، وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَضِيعُ دُئَانُهُ .

وَأَوْصَى أَبُو بَكْرٍ أَيْضًا عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ : سِرْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، وَلَا تَنْزِلَنَّ عَلَى مُسْتَأْمِنٍ ، وَقَدِّمِ النَّذِيرَيْنِ يَدَيْكَ ، وَمَهْمَا قَلْتَ : إِنْ فَعَلَ فَاغْلُظْ ، وَلَا تَجْعَلَنَّ قَوْلَكَ لَعْنًا فِي عَقُوبَةٍ وَلَا عَفْوَ ، فَلَا تُرْجَى إِذَا أَمَنْتَ ، وَلَا تُخَافَ إِذَا خَوَّفْتَ . وَانْظُرْ مَتَى تَقُولُ وَمَتَى تَفْعَلُ ، وَمَا تَقُولُ وَمَا تَفْعَلُ ، وَلَا تَتَوَعَّدَنَّ فِي مَعْصِيَةٍ بِأَكْثَرِ مِنْ عَقُوبَتِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَثِمْتَ ، وَإِنْ تَرَكْتَ كَذَبْتَ ، وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَإِذَا لَقِيتَ فَاصْبِرْ .

وَلَمَّا وَلَّى يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ سَلَّمَ بِنِزْيَادِ خُرَّاسَانَ قَالَ لَهُ : إِنْ أَبَاكَ كُنِيَ أَخَاهُ عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَتَّكِلَنَّ عَلَى عَذْرِ مَنِّي ، فَقَدْ اتَّكَلْتَ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ ، وَإِيَّاكَ مَنِّي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَقُولَ : إِيَّاكَ مِنْكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مِنْكَ أَخْلَفَ فِيكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حَظِّكَ ، فَاطْلُبْ أَقْصَاءَهُ ، وَقَدْ تَبِعَكَ أَبُوكَ ، فَلَا تَرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَاذْكُرْ فِي يَوْمِكَ أَحَادِيثَ غَدْرِكَ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءَ : يَنْبَغِي لِلْأَمِيرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سِتَّةُ أَشْيَاءَ : وَزِيرٌ يَثِقُ بِهِ ، وَيُفْشِي إِلَيْهِ سِرَّهُ ، وَحَصْنٌ إِذَا لَجَأَ إِلَيْهِ عَصَمَهُ - يَعْنِي فِرْسًا - وَسَيْفٌ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَقْرَانُ لَمْ يَخَفْ نَبَوْتَهُ ، وَذَخِيرَةٌ خَفِيفَةُ الْحَمْلِ إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ وَجَدَّهَا - يَعْنِي جَوْهَرًا - وَطَبَّاخٌ إِذَا أَقْرَى مِنَ الطَّعَامِ صَنَعَ لَهُ مَا يَهَيِّجُ شَهْوَتَهُ ، وَامْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ إِذَا دَخَلَ أَذْهَبَتْ هَمَّهُ . فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ : وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجِيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ،

ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قله إذا اجتمعت كلمتهم .

كان يقال : ثلاثة من كنّ فيه لم يفلح في الحرب ؛ البغي ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بُغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾^(١) ، والمكر السيئ ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾^(٢) ، والتكث ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾^(٣) .

يقال : خرجت خارجةً بخراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمه ذلك ، فقيل : ما بهمكم منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبي أسود يكفيك أمرهم ، فقال : لا أوجه ، وإن وكيعا رجل فيه كبر ، وعنده بغي ، يحقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاة بحضمه فلم يحترس ، فوجد عدوه فيه غرّة ، فأوقع به .

وفي بعض كتب الفرس : إن بعض ملوكهم سأل : أي مكاييد الحرب أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار القوة والسرور والعلبة ، وإماتة الفرق ، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح ، ولا انتصاح لمن يغش ، وكتمان السر ، وإعطاء المبلغين على الصدق ، ومعاقبة المتوصلين بالكذب ، وألا تخرج هاربا فتجوجه إلى القتال ، ولا تضيق أمانا على مستأمن ، ولا تدهشك الغنيمة عن المجاوزة .

وفي بعض كتب الهند : ينبغي للعاقل أن يحذر عدوه المحارب له على كل حال ؛ يرهّب منه الموائبة إن قرّب ، والغارة إن بعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكر إن رآه وحيدا . وينبغي أن يؤخر القتال ما وجد بُدّا ، فإن النّفقة عليه من الأنفس ، وعلى غيره من المال .

(٢) سورة فاطر ٤٣ .

(١) سورة يونس ٢٣ .

(٣) سورة الفتح ١٠ .

(١٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمَا مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ ، فَاسْتَمِعَا لَهُ
وَأَطِيعَا ، وَأَجْعَلَاهُ دِرْعًا وَجَنًّا ، فَإِنَّهُ يَمُنُّ لَا يُخَافُ وَهُنُ وَلَا سَقَطَتُهُ ، وَلَا بُطُوهُ عَمًّا
الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا لَبِطَ عَنْهُ أَمْثَلُ .

[فصل في نسب الأشتر وذكر بعض فضائله]

الشرح :

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك
ابن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من
أكابر الشيعة وعظمائها ، شديد التحقيق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره ، وقال
فيه بعد موته : رحم الله مالكا ، فلقد كان لي كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله
ولما قُنت على عليه السلام على خمسة ولعنهم وهم : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو
الأعور السلمي ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن أرطاة ، قُنت معاوية على خمسة ، وهم :
علي ، والحسن ، والحسين - عليهم السلام - وعبد الله بن العباس ، والأشتر ، ولعنهم .
وقد روى أنه قال لما ولي على عليه السلام بنو العباس على الحجاز واليمن والعراق : فماذا
قتلنا الشيخ بالأمس ! وإن عليا عليه السلام لما بلغته هذه الكلمة أحضره ولاطفه
واعتذر إليه وقال له : فهل وليت حسنا أو حسينا أو أحدا من ولد جعفر أخي ، أو عقيلة

أو واحدا من ولده ! وإنما ولّيت ولد عمّي العباس ، لأنّي سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عمّ ، إنّ الإمارة إنّ طلبتها وكلّت^(١) إليها ، وإن طلبتك أعنت عليها . ورأيتُ بنيه في أيام عمرو وعثمان يجدون في أنفسهم إذ ولّى غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يولّ أحدا منهم ، فأحببتُ أن أصل رحيمهم ، وأزيل ما كان في أنفسهم ؛ وبعد فإنّ علمتُ أحداً من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتيتُ به . فخرج الأشر وقد زال ما في نفسه .

وقد روى المحدثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله ، وهي شهادة قاطعة من النبيّ صلى الله عليه وآله بأنه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " ، في حرف الجيم ، في باب « جُنْدَب » قال أبو عمر^(٢) :

لما حضرتُ أبا ذرّ الوفاة وهو بالرّبذة^(٣) بكّت زوجته أمّ ذرّ ، فقال لها : ما يُبْكِيكِ ؟ فقالت : مالى لأبكي وأنت تموت بقلّة من الأرض ، وليس عندى ثوبٌ يسعُكَ كفنا ، ولا بدّ لي من^(٤) القيام بجهازكِ ! فقال : أبشري ولا تبكي ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بينَ امرأَيْنِ مُسلمينَ ولَدانِ أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً » ؛ وقد مات لنا ثلاثة من الولد . وسمعتُ أيضاً رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول للنفرِ أنا فيهم : « ليموتنَّ أحدُكم بقلّة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر أحدٌ إلّا وقد مات في قرية وجماعة فأنا - لأشكّ - ذلك الرجل ، والله ما كذبتُ ولا كُذِّبتُ ، فانظري الطريق . قالت أمّ ذرّ : فقلتُ : أتى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطُّرق ! فقال : اذهبي فتبصري . قالت : فكنت

(١) وكلّت إليها ، أى احتجّت إليها ومجّزت .

(٢) بسنده عن علي بن المديني ، عن يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشر . عن أبيه .

(٣) الرّبة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قريبة من ذات عرق .

(٤) الاستيعاب : « للقيام » .

أَشْتَدَّ^(١) إِلَى الْكَثِيبِ ، فَأَصْعَدَ فَأَنْظُرَ ، ثُمَّ أَرْجَعَ إِلَيْهِ فَأَمَرَّضَهُ ، فَبَيْنَا أَنَا وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ إِذْ أَنَا بِرِجَالٍ عَلَى رِكَابِهِمْ^(٢) كَأَنَّهِمُ الرَّخْمُ^(٣) تَخَبُّ بِهِمْ رَوَاحِلُهُمْ ، فَاسْرِعُوا إِلَيَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ وَقَالُوا : يَا أَمَةَ اللَّهِ ، مَا لَكَ ؟ فَقُلْتُ : امْرُؤٌ مِنَ الْمَسَاهِلِينَ يَمُوتُ ، تَكْفَنُونَهُ ؟ قَالُوا : وَمَنْ هُوَ ؟ قُلْتُ : أَبُو ذَرٍّ ، قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَدَّوْهُ بِأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَهْبَرُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِنَفَرٍ أَنَا فِيهِمْ : « لِيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِمَقْلَةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ، وَلَيْسَ مِنْ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ ، وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَّبْتُ ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُنِي كَفَنًا لِي أَوْ لَا مَرَأَتِي لَمْ أَكْفَنْ إِلَّا فِي ثَوْبٍ لِي أَوْ لَهَا ؛ وَإِنِّي أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ إِلَّا يَكْفِنَنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ بَرِيدًا أَوْ نَقِيًّا ! فَالْت : وَلَيْسَ فِي أَوْلَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ قَارَفَ بَعْضُ مَا قَالُ ، إِلَّا فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ لَهُ : أَنَا أَكْفَنُكَ يَا عَمَّ فِي رَدَائِي هَذَا ، وَفِي ثَوْبَيْنِ مَعِيَ فِي عَيْتِي مِنْ عَزَلٍ أُمِّي ؛ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : أَنْتَ تَكْفِنَنِي ، فَمَاتَ فَكَفَّنَهُ الْأَنْصَارِيُّ وَغَسَلَهُ النَّفَرُ الَّذِينَ حَضَرُوهُ وَقَامُوا عَلَيْهِ وَدَفَنُوهُ ؛ فِي نَفَرٍ كُلُّهُمْ يَمَانُ^(٤) .

رَوَى أَبُو عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ قَبْلَ أَنْ يَرَوِيَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَوَّلِ بَابِ جُنْدَبَ : كَانَ النَّفَرُ الَّذِينَ حَضَرُوا مَوْتَ أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبْذَةِ مُصَادِفَةً لِمَجَاعَةٍ ؛ مِنْهُمْ حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ ، وَمَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرُ^(٥) .

قُلْتُ : حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ هُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ الَّذِي قَتَلَهُ مُعَاوِيَةُ ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الشَّيْعَةِ وَعِظَامَائِهَا ، وَأَمَّا الْأَشْتَرُ فَهُوَ أَشْهَرُ فِي الشَّيْعَةِ مِنْ أَبِي الْهَذِيلِ فِي الْمَعْتَزَةِ .

(١) أَشْتَدَّ : أَعْدُو .

(٢) الرَّخْمُ : جَمْعُ رَخْمَةٍ ، الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ .

(٣) الرَّخْمُ : جَمْعُ رَخْمَةٍ ، الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ .

(٤) الْأَسْتِيْعَابُ : ٨٣ .

(٥) الْأَسْتِيْعَابُ : « وَفَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ دَعَتْهُمْ امْرَأَتُهُ لِيَلِيَهُ فَنَشَدُوا مَوْتَهُ ، وَغَسَلُوا عَيْنَيْهِ ، وَغَسَلُوهُ وَكَفَنُوهُ فِي ثِيَابِ الْأَنْصَارِيِّ ، فِي خَبَرٍ عَجِيبٍ حَسَنٍ فِيهِ طَوْلٌ » .

قرأ كتاب "الاستيعاب" ، على شيخنا عبد الوهاب بن سُكنية الحديث وأنا حاضر ، فلما انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدباس - وكنت أحضر معه سماع الحديث - : لتقل الشيعة بعد هذا ما شاءت ، فإنا قال المرتضى والمفيد إلا بعض ما كان حُجْر والأشترُ يعتقده في عثمان ، ومن تقدمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فسكت .

ودكرنا آثار الأشتر ومقاماته بصفين فيما سبق .

والأشتر هو الذي عانق عبد الله بن الزبير يوم الجمل فاصطروعا على ظهر فرسهما حتى وقعا في الأرض ، فجعل عبد الله يصرخ من تحته : اقتلوني ومالك ! فلم يعلم من الذي يعنيه لشدة الاختلاط وثوران النقع^(١) ؛ فلو قال : اقتلوني والأشتر لقتلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتر :

أعائشَ لولا أنني كنت طاوياً ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا^(٢)
غداة يُنادي والرماح تنوشه كوقع الصيبي : اقتلوني ومالك^(٣)
فنجّاه مني شيعه وشبابه وأنى شيخ لم أكن متماسكا
ويقال : إن عائشة فقدت عبد الله فسألت عنه ، فقيل لها : عهدنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : وأكل أسماء !

ومات الأشتر في سنة تسع وثلاثين متوجّها إلى مصر والياً عليها لعلي عليه السلام .
قيل : سقى سماً ، وقيل : إله لم يصح ذلك ، وإنما مات حتف أنفه .

فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك ، كان شديد البأس ، جواداً

(٢) الطاوى : الجائع .

(١) النقع : الغبار .

(٣) تنوشه : تناوله .

رئيسا حلما فصيحا شاعرا ، وكان يجمع بين اللين والعنف ، فيسطو في موضع السطوة ، ويرفق في موضع الرفق .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي في غير عنف ، ولين في غير ضعف .

وكان أنوشروان إذا ولي رجلا أمر الكاتب أن يدع في العهد موضع ثلاثة أسطر ليوقع فيها بخطه ، فإذا أتى بالعهد وقع فيه : سئس خيار الناس بالمودة ، وسفلتهم بالإخافة ، وامزج العامة رهبة برغبة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إني لأهم أن أخرج للناس أمرا من العدل ، فأخاف ألا تحمله قلوبهم ، فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من ذاك سكنت إلى هذا .

وقال معاوية : إني لا أضع سني في حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له : كيف ؟ قال : إذا مدوها خلتها ، وإذا خلوها مدتها .

وقال الشعبي في معاوية : كان كالجمال الطيب . إذا سكت عنه تقدم ، وإذا رُد تأخر .

وقال يزيد ابنه : قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع ، وإياك والقتل ، فإن الله قاتل القتالين .

وأغلظ له رجل فحلم عنه ، فقيل له : أتحم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس والسننهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

ونفّر سليم مولى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ويحك فما أدرك صاحبك بسيفه شيئا قطّ إلّا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ما السياسة يا أبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع صدق مودّتها ، واقتيادك قلوبَ العامّة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرّقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة قالها في الأثر ، وهى قوله : « لا يخاف بُطْنُهُ عَمَّا الاسراعُ إليه أحزم ، ولا إسراعه إلى ماالبطء عنه أمثل .

قوله عليه السلام : « وعلى من في حيزٍ كما » أى فى ناحيتكما .

والمجنّ : الترس .

والوهن : الضعف .

والسَّقطة : الغلطة والخطأ .

وهذا رأى أحزم من هذا ، أى أدخل فى باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من هذا أى أفضل .

(١٤):

الأفضل :

ومن وصية له عليه السلام لمسكره بصفين قبل لقاء العدو :

لَا تُقَاتِلُونَهُمْ حَتَّى يَبْدُوَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ يَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرَكُكُمْ إِيَّاهُمْ
حَتَّى يَبْدُوَكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا
مُذْبِرًا ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعَوِّرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تُهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى
وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَّيْنِ أَمْرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ ؛
إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمْشَرِكَاتٌ ، وَإِنْ سَكَنَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ ، فَيَعْبُرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

الشرح :

نهى أصحابه عن البغي والابتداء بالحرب ، وقد روى عنه أنه قال : ما نُصِرْتُ عَلَى
الْأَقْرَانِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ إِلَّا لِأَنِّي مَا ابْتَدَأْتُ بِالْمُبَارَزَةِ . ونهى - إذا وقعت الهزيمة - عن
قتل المدبر ، والإجهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « وَلَا تُصِيبُوا مُعَوِّرًا » هو من يمتصم منك في الحرب بإظهار
عورته لتكف عنه ، ويجوز أن يكون المعور هاهنا المريب الذي يظن أنه من القوم وأنه
حضر للحرب وليس منهم ، لأنه حضر لأمر آخر .
قوله عليه السلام : « وَلَا تُهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى » ، أي لا تحرّكوهن .

والفهر: الحَجَر : والهِراوة : العصا.
وعَطَف «وعقبه» على الضمير المستكن المرفوع في « فيعير » ولم يؤكد للفصل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ ^(١) ، لما فصل بلا عطف ولم يحتاج إلى تأكيد .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد في الشعر في هذا المعنى قول الشاعر ^(٢) .
إِنَّ مِنْ أَكْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتْلُ بَيْضَاءِ حُرَّةٍ عَطْبُولٍ ^(٣)
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ
وقالت امرأة عبد الله بن خلف الخزاعية بالبصرة لعلّ عليه السلام بعد ظفروه - وقد مرّ بابها : يا على ، يا قاتل الأحيّة ، لا مرحباً بك ! أيتّم الله منك ولدك كما أيتّم بني عبد الله بن خلف ! فلم يرُدّ عليها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها ، فهيمت إشارته ، فسكتت وأنصرفت . وكانت قد سترت عندها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، فأشار إلى الموضع الذي كانا فيه ، أي لو شئتُ أخرجتهما ! فلما فهيمت أنصرفت ، وكان عليه السلام حليماً كريماً .
وكان عمر بن الخطّاب إذا بعث أمراء الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عون الله ،

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات تنسب لعمر بن أبي ربيعة ، مالحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبُول : الشابة التيبة الممتلئة . وبعده :

قُتِلْتُ بَاطِلًا عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إِنَّ لِلَّهِ دَرُّهَا مِنْ قَتِيلٍ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا يُمثّلوا عند الغارة ، ولا تُسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هريماً ، ولا امرأة ، ولا وليداً ، وتوقّوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الرّحّفين وعند حمة النّهضات وفي شنّ الغارات ، ولا تغلّوا عند الغنائم ، ونزّهوا الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

واستشار قومكم أكرم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : ألقوا الخلاف على أمراءكم ، واثبتوا ، فإن أحزم الفريقين الرّكين^(١) ، وربّ عجلة تهب^(٢) ريثا .

وكان قيس بن عاصم المقرئ إذا غزا شهيد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم : أيّاكم والبعي ، فإنه ما بعى قوم قطّ إلا ذلّوا ؛ قالوا : فكان الرجل من ولده يظلم فلا ينتصف مخافة الذلّ .

قال أبو بكر يوم حنين : لن نُغلب اليوم من قلة - وكانوا اثني عشر ألفاً - فهزموا يومئذ هزيمة قبيحة ، وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾^(٣) .

وكان يقال : لا ظفر مع بعى ، ولا صحّة مع بهم ، ولا ثناء مع كبير ، ولا سُودد مع شحّ .

(٢) الرّيث : الإبطاء ؛ وهو مثل .

(١) الرّكين : العزيز المتنع .

(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحسنه في سوء عاقبة البغي ما ذكره ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار"، أن فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك ساربخنوده نحو بلاد الهياطلة، فلما انتهى إليهم اشتدّ رعبُ ملكهم أخشنوار منه وحذره، فناظر أصحابه ووزراءه في أمره فقال رجل منهم: أعطني مَوْثِقًا من الله وعهدًا تطمئنّ إليه نفسي أن تكفيني الغمّ بأمر^(١) أهلي وولدي، وأن تحسن إليهم، وتخلّفيني فيهم، ثم أقطع يدي ورجليّ والقي في طريق فيروز حتى يمرّ بي هو وأصحابه، وأنا أكفيك أمرهم^(٢)، وأورّطهم مؤرّطًا تكون فيه هلكتهم. فقال له أخشنوار: وما الذي تنتفع به من سلامتنا وصلاحِ حالنا إذا أنت هلكت ولم تشركنا في ذلك! فقال: إني قد بلغت ما كنت أحب أن أبلغ من الدنيا، وأنا موقن أن الموت لا بدّ منه، وإن تأخر أيا ما قليلة، فأحب أن أختم على بأفضل ما يُختم به الأعمال من النصيحة بسلطاني، والنكاية في عدوّي، فيشرف بذلك عقي، وأصيب سعادة وحظوة فيما أُمّى.

ففعل أخشنوار به ذلك، وحمله فألقاه في الموضع الذي أشار إليه، فرّ به فيروز في جنوده، فسأله عن حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ما يراه وأنه شديد الأسف، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش في غزو بلادِه وتخریب مدينته، ولكنّه سيّدلّ الملك على طريق هو أقرب من هذا الطريق الذي يريدون سلوكه وأخفى، فلا يشعر أخشنوار حتى يهجم عليه فينتقم الله منه بكم، وليس في هذا الطريق من المكروه إلّا تفور^(٣) يومين، ثم تفضون إلى كلّ ما تُحبّون.

(١) العيون: «أن تكفيني أهلي وولدي». (٢) العيون: «أكفيك مؤمنهم وأمرهم».

(٣) التفور: إتيان النور. وفي عيون الأخبار: تفوز يومين؛ أي السير في الغاية.

فقبل فيروز قوله بعد أن أشار إليه وزراؤه بالانتقام له ، والحذر منه ، [وبغير ذلك]^(١) . فخالفهم وسلك تلك الطريق ، فانتبهوا بعد يومين إلى موضع من المغازة لا صدَرَ لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبين لهم أنهم قد خدعوا ، فتفرقوا في تلك المغازة يمينا وشمالا ، يلتمسون الماء ، فقتل العطش أكثرهم ، ولم يَسَلَمَ مع فيروز إلا عدَّة يسيرة ، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه ، فواقعه في تلك الحال التي هم فيها من البَقْلَة والضرَّ والجهد ، فاستمکنوا منهم ، بعد أن أعظموا^(٢) النكايَة فيهم .

وأسير فيروز ، وقرَّب أخشنوار أن يَمُنَّ عليه وعلى من بَقِيَ من أصحابه على أن يجعل له عهدَ الله وميثاقه ؛ ألا يفزُّوهم أبدا ما بقى ، وعلى أن يحدَّ فيما بينه وبين مملكتهم حداً لا يتجاوزُه جنودُه . فرضى أخشنوار بذلك ، نفَّل سبيله ، وجعل بين المملكتين حِجْرًا^(٣) لا يتجاوزُه كَلٌّ واحد منهما .

فمكث فيروز بُرْهة من دهره ، ثم حمَّله الأنفُ على أن يعود لَمَزُو الهياطلة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فهوَّه عنه ، وقالوا : إنَّك قد عاهدته ، ونحن نتخوَّف عليك عاقبة البغي والدنَّدر ، مع ما في ذلك من العار وسوء القالة^(٤) .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألا أجوز الحجرَ الذي جعلناه بيننا ، وأنا أمرُ بالحجر فيحمَلُ أمامنا على عَجَل .

فقالوا : أيُّها الملك ، إنَّ العهد والوفاق التي يتعاطاها النَّاسُ بينهم لا تُحمَلُ على ما يسِرُّه المعطى لها ، ولكن على ما يعلن به المعطى إياها ، وإلَّا جعلت عهدَ الله وميثاقه على الأمر الذي عرفه ، لا على الأمر الذي لم يخطر له ببال . فأبى فيروز ومضى في غزوته حتى انتهى إلى الهياطلة ، وتضافَّ الفريقان للقتال .

(١) من عيون الأخبار . (٢) عيون الأخبار : « وأعظموا النكايَة » .

(٣) عيون الأخبار : « حدا لا يتجاوزُه » :

(٤) القول في الخير ، والقالة في الشر ، وفي عيون الأخبار : « القالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صَفِيهِم ، فخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إني قد ظننتُ أنه لم يدعك إلى مُقَامِك هذا إلا الأَنَفَ ممَّا أصابك ، ولعمري إن كذًّا قد احتلنا لك بما رأيتَ لقد كنتَ التمسَ مِنَّا أعظمَ منه ، وما ابتدأناكَ ببغى ولا ظُلم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحرينا ، ولقد كنتَ جديرا أن تكون من سوء مكافأَتِنَا بمنَّا عليك وعلى من معك ، ومن نقضَ العهد والميثاق الذي أكَدَّته على نفسك أعظمَ أنفًا ، وأشدَّ امتعاضًا ممَّا نالك مِنَّا ، فإنَّا أطلقناكم وأنتم أسارى ، ومَنَّا عليكم وأنتم على الهلكة مُشرفون ، وحقنَّا دماءكم ولنا على سَفَكها قُدرة . وإننا لم نَجْهركَ على ما شرطتَ لنا ، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه ، والمريدُ لنا عليه ، ففكرَ في ذلك ، وميَّزَ بين هذين الأمرين فانظر أيُّهما أشدَّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يَقْدِرْ له ولم يَنْجَحْ في طَلَبِه وسَلَكَ سبيلا فلم يظفر فيه ببغينه ، واستمكن منه عدوه على حال جهْد وضيعة منه وممن هم معه .

فمن عاينهم وأطلقهم على شرطٍ ، شَرَطوه وأمرٍ اصطَلحوا عليه ، فاصطبر^(١) بمكروه القضاء ، واستحيا من الغدر والنكث ، أن يقال : نقضَ العهدَ وأخفر^(٢) الميثاق ، مع أني قد ظننتُ أنه يزيدك الحاجة^(٣) ما ننق به مِن كثرة جنودك ، وما ترى من حسن عُدَّتِهِم ، وما أجِدُنِي أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصِك بِهِم ، عارفون بأنك قد حملتهم على غير الحق ، ودعوتهم إلى ما يُسخط الله ، وأهم في حربنا غير مستبصرين ، ونبيأتهم على مناصحتك مدخولة .

فانظر ما قَدَّرَ غَناء من يُقاتل على هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ نكايته في عدوه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظفر فمع عار ، وإن قُتِل فإلى النار ! وأنا أذكرك الله الذي جعلته

(١) عيون الأخبار : « فاضطر » .

(٢) أخفر ميثاقه : نقض عهده ؛ وفي عيون الأخبار : « خفر الميثاق » .

(٣) عيون الأخبار : « نجاحا » .

على نفسك كفيلا ، وأذكرك نعمتي عليك وعلى مَنْ معك ، بعد يأسكم من الحياة ، وإشفائكم عَلَى الممات ، وأدعوك إلى ما فيه حَظُّكَ ورُشْدُكَ من الوفاء بالعهد ، والاقتراء بأبائِكَ وأسلافكَ الذين مضوا عَلَى ذلك في كلِّ ما أَحَبُّوه وكرِهوه ، فأحمدوا عواقبه وحسُن عليهم أثره .

ومع ذلك فَإِنَّكَ لستَ عَلَى ثقة من الظفر بنا ، وبلوغ هُمَمَتِكَ^(١) فينا ، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله ؛ وتنادى عدوُّ الله يَمْنَحُ النصرَ عليك ، فأقبلْ هذه النصيحة فقد بالغتُ في الاحتجاج عليك ، وتقدّمتُ بالإعذار إليك ، ونحن نَسْتَظْهِرُ بالله الذي اعتَدَرْنَا إليه ، ووثقنا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرت بكثرة جنودِكَ ، وازدهتكَ عِدَّةُ أصحابِكَ ، فدونك هذه النصيحة ، فبالله ما كان أحدٌ من أصحابِكَ يبالغ لك أَكْثَرَ منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يحرمَنَّك منفعتها مخرجها مني ، فإنه ليس يُزْرَى بالمنافع والمصالح عند ذوى الآراء صُدُورُها عن الأعداء ، كما لا تحسُن المضارُّ أن تكون عَلَى أيدي الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تَسْمَعُ من مخاطبتي إِيَّاكَ ضعفٌ من نفسي ، ولا من قِلَّةِ جنودي ، ولكنني أحبيتُ أن أزداد بذلك حِجَّةً واستظهارا ، فأزداد به للنصر والمُعونة من الله استيجابا ، ولا أؤثر عَلَى العافية والسلامة شيئا ما وجدتُ إليهما سبيلا^(٢) .

فقال فيروز : لستُ ممن يَرَدِّعه عن الأمرِ يَهَمُّ به الوعيد ، ولا يصده التهديد والترهيب ، ولو كنتُ أَرَى ما أطلب غَدْرًا مني ، إذا ما كان أحدٌ أنظرَ ولا أشدَّ إبقاءً مني على نفسي ، وقد يَعْلَمُ اللهُ أني لم أجعل لك العهدَ والميثاقَ إلا بما أضمرتُ في نفسي ، فلا يغرُّكَ الحالُ التي كنتَ صادفتُنَا عليها من القِلَّةِ والجهدِ والضعفِ .

(١) التهمة : الحاجة والمهوية .

(٢) في عيون الأخبار بعدها : « فأبى فيروز إلا تعلقا لحجته في الحجر الذي جعله حدا بينه وبينه » .

فقال أخشنوار : لا يغرنك ما تَخَدَع به نفسك من سَحْلِكَ الحَجَرِ أَمَامَكَ ، فإنَّ الناس لو كانوا يُعْطُونَ العهودَ على ما تَصِف من إِسْرارِ أَمْرٍ وإِعْلانٍ آخر ، إذا ما كان ينبغي لأحد أن يَغْتَرَّ بِأَمَانٍ ، أو يَثِقَ بِعَهْدٍ ! وإذا ما قَبِلَ الناسُ شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك ، ولكنَّه وضع على العلانية ، وعلى نية من تُعَقِّد له العهود والشروط . ثم انصرف . فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أخشنوار حَسَنَ الحَاوِرَةِ ، وما رأيتُ للفرس الذي كان تحتَه نظيراً في الدوابِّ ، فإنه لم يُزِلْ قِوَامُهُ ، ولم يَرَفَعْ حِوَاظِرُهُ عن مواضعها ، ولا صَهْلُهُ ، ولا أَحَدٌ شَيْئاً يَقْطَع به الحَاوِرَةُ في طولٍ ما تَوَاقَفْنَا .

وقال أخشنوار لأصحابه : لقد وافقتُ فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كله ، فلم يتحرَّك ، ولم ينزع رجله من ركابه ، ولا حتى ظهره ، ولا التفتَ يميناً ولا شمالاً ، ولقد تورَّكت أنا مراراً ، وتمطَّيت على فرسي ، والتفتُ إلى مَنْ خَلْفِي ، ومددتُ بصرى فيما أمامي ، وهو منتصب ساكنٌ على حاله ، ولولا محاورته إِيَّاي لظننتُ أنه لا يبصرني . وإنما أراد بما وصَّفا من ذلك أن يُكشِّرَ هذان الحديثان في أهلِ عسكرها فيشتغلا بالإفاضة فيهما ، عن النَّظر فيما نذاكراً . فلما كان في اليوم الثاني أخرج أخشنوار الصحيفة التي كتبها لهم فيروز ، ونصبها على رُمحٍ ليراها أهلُ عسكر فيروز فيعرفوا غدره وبغيه ، ويخرجوا من متابعتِه على هَواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتفض عسكرهم واختلفوا ، وماتلَّسوا إلا يسيراً حتى انهزموا ، وقتل منهم خاقٌ كثيرٌ ، وهلك فيروز ، فقال أخشنوار : لقد صدق الذي قال : لا مردَّ لما قدَّر ولا شيء أشدَّ إحالةً لمنافع الرأى من الهوى واللَّجاج ، ولا أضيع من نصيحة يُمنَحها من لا يوطَّن نفسه على قبولها ، والصبر على مكروهاها ، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغي والغدر ، ولا أجلب لعظيم العار والنُّضوح من الأنف وإفراط العجب^(١) .

(١٥)

الأُنْسُلُ

وكان عليه السلام يقول إذا لقي المدو محاربا :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ
الْأَقْدَامُ ، وَأُنْصِيَتِ الْأَبْدَانُ .

اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْدُونُ الشَّنَّانِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ .
اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَسْتَقْتِ أَهْوَانِنَا .
رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .

البَّيْرُخُ :

أفضت القلوب : أى دنت وقرَّبت ، ومنه أفضى الرجلُ إلى امرأته أى غشيها ،
ويحوز أن يكون « أفضت » أى بسرَّها ، فحذف المفعول .

وأنصيت الأبدان : هزلت ، ومنه النَّضْوُ ، وهو البعير المهزول .

وصرَّح : انكشف . والشَّنَّانُ : البغضة .

وجاشت : تحرَّكت واضطربت .

والمَرَاجِلُ : جمع مِرْجَلٍ ، وهى القِدْرُ .

والأَضْغَانُ : الأحقاد ، واحدها ضغن .

وأخذ سديف مولى المنصور هذه اللفظة فكان يقول فى دعائه : اللهمَّ إِنَّا نَشْكُو

إليك غيبة نبينا وتشتت أهوائنا، وما شملنا من زيف الفتن، واستولى علينا من غشوة الخيرة حتى عاد فينا دولة بعد القسمة، وأمارتنا غلبة بعد المشورة؛ وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة؛ واشترت الملاهي والمعازف بمال اليتيم والأرملة، ورعى في مال الله من لا يرعى له حرمة، وحكم في أبشار المؤمنين أهل الذمة، وتولى القيام بأموارهم فاسق كل محلة، فلا ذائد يذودهم عن هلكة، ولا رايح ينظر إليهم بعين رحمة، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرى من مسغبة، فهم أولو ضرع وفاقة، وأسراء فقر ومسكنة، وحلفاء كآبة وذلة. اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته، واستحکم عموده، واستجمع طريده، وحذف وليده، وضرب بجرانه، فأتح له من الحق يداً حاصدة، تجذ سنامه، وتمش سوقه، وتصرع قائمه، ليستخفى الباطل بقبح حليته، ويظهر الحق بحسن صورته. ووجدت هذه الألفاظ في دعاء منسوب إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعله من كلامه، وقد كان سديف يدثوبه.

(١٦)

الأفضل :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدَنَّ عَلَيْنَاكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمَلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطَّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَالضَّرْبِ الطَّلْحِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشْلِ .
وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْ أَسْتَسْلَمُوا ، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

الشرح :

قال : لا تستصعبوا فَرَّةً تَفِرُّونَهَا بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، تَجِبُّونَ بِهَا مَا تَكْسِرُ مِنْ حَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَسْتَصْعِبُوهُ فَرَّةٌ لَا كَرَّةَ بَعْدَهَا ؛ وَهَذَا حَضٌّ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَكْرُوا وَيَعُودُوا إِلَى الْحَرْبِ إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ كَسْرَةٌ .

ومثله قوله : « وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمَلَةٌ » ، والجَوْلَةُ : هزيمة قريبة ليست بالمعنة ^(١) .
وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ ، مِنْ ذَمَرِهِ عَلَى كَذَا أَى حَضَّهُ عَلَيْهِ . وَالطَّعْنُ الدَّعْسِيُّ : الَّذِي يُحْسِنُ بِهِ أَجْوَابُ الْأَعْدَاءِ ، وَأَصْلُ الدَّعْسِ الْحَشْوُ ، دَعَسْتُ الْوَعَاءَ : حَشَوْتُهُ .
وَضَرْبُ طَلْحِي ، بِكَسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِ اللَّامِ ، أَى شَدِيدٌ ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ .

(١) المعنة ؛ من الإيمان ؛ وفي ب : « بمنعة » تحريف .

ثم أمرهم بإماتة الأصوات ، لأنَّ شِدَّةَ الضَّوضاءِ في الحرب أمارة الخوف والوجل .
 ثم أَقسَمَ أن معاوية وعمرأ ومنَ والاهما من قريش ما أسلموا ولكن استسلموا خوفا
 من السيف وناقضوا ؛ فلما قَدَرُوا على إظهار ما في أنفسهم أظهروه ؛ وهذا يدلُّ على أنه
 عليه السلام جعل محاربتهم له كُفْراً .
 وقد تقدّم في شرح حال معاوية وما يذكّره كثير من أصحابنا من فساد عقيدته
 ما فيه كفاية .

[نَبَذَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَشَابِهَةِ فِي الْحَرْبِ]

وأوصى أكرمُ بنُ صَيْفِيٍّ قوماً نهَضُوا إلى الحرب فقال : ابرزوا للحَرْبِ ، وادَّعُوا
 الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف ، واعلموا أن كثرة الصّياح من الفشل ،
 والمرء يعجز لا محالة .
 وسمعتُ عائشةُ يومَ الجمل أصحابها يُكَبِّرون ، فقالت : لا تكبروا هاهنا ، فإنَّ
 كثرة التكبير عند القتال من الفشل .
 وقال بعض السلف : قد جمع الله أدبَ الحرب في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ۖ ﴾ (١) الآيتين .
 وقال عتبة بنُ ربيعة لقريش يوم بدر : ألا ترؤنهم - يعني أصحابَ النبي صلى الله
 عليه وآله - جُثِيًّا على الرُّكب ، يتلمظون تلمظ الحيات !
 وأوصى عبدُ الملك بنُ صالح أميرَ سَريّةٍ بعثها ، فقال : أنت تاجرُ الله لعباده ، فكُنْ
 كالمضارب الكيس الذي إن وجدَ ربُّها تجر ، وإلا احتفظ برأس المال ؛ ولا تطلب

(١) سورة الأنفال ٤٥ ، ٤٦ .

الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال
عدوك عليك .

وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشَقَّ جيشك ؛
فإن الله تعالى ينصر القوم بأضعفهم .

وقال ابن عباس - وذكر علياً عليه السلام : مارأيتُ رئيساً يُوزَنُ به ، لقد رأيتُه يومَ
صِفِّينَ وكان عينيه سراجاً سليطاً ^(١) وهو يحمّس أصحابه إلى أن انتهى إلى وأنا في كنف
فقال : يامعشر المسلمين ، استشعروا الخشية ، وتجلّببوا السكينة ، وأكملوا الأمة... الفصل
المذكور فيما تقدم .

(١) السليط : زيت به يضاء .

(١٧)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواً عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَى الشَّامِ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتْ الْعَرَبَ إِلَّا حُسَّاسَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ ؛ أَلَا وَمَنْ
أَكَلَهُ الْخُلُقُ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .
وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرَّجَالِ ، فَلَسْتُ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ،
وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ! فَكَذَلِكَ نَحْنُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةُ كَهَاشِمٍ ،
وَلَا حَرْبُ كَعْبِدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُمَيَّانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ، وَلَا
الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُذْغِلِ . وَلَيْسَ الْخَلْفُ
خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلَفًا هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .
وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَدَلَّنَا بِهَا الْعَزِيزَ ، وَنَعَشْنَا بِهَا الدَّلِيلَ . وَلَمَّا
أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا ، وَأَسَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا ، كُنْتُمْ مِنْ
دَخَلَ فِي الدِّينِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ، عَلَى حِينِ فَارَ أَهْلِ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ
الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا ، وَلَا عَلَى
نَفْسِكَ سَبِيلًا . وَالسَّلَامُ .

البُشْرُخ :

يقال : طلبتُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغبا إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ ^(١) أى مُرسلا .

ويُروى « إِلَّا حُشَاشَةَ نَفْسٍ » ، بالإفراد ، وهو بقيّة الروح في بدن المريض .
وروي : « أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فإلى النار » ، وهذه الرواية أليق من الرواية المذكورة في أكثر الكتب ، لأنّ الحق يأكل أهل الباطل ، وَمَنْ رَوَى تلك الرواية أضمر مضافا تقديره « أعداء الحق » ، ومضافا آخر تقديره « أعداء الباطل » . ويجوز أن يكون مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فإلى الْجَنَّةِ ، أى من أفضى به الحق ونصرتُه والقيامُ دونه إلى القتل ؛ فإن مصيره إلى الجنة ، فيسمى الحق لما كانت نصرتُه كالسبب إلى القتل أكلا لذلك المقتول ، وكذلك القول في الجانب الآخر .

وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشما بإزاء عبد شمس ، لأنّه أخوه في قُعدد ^(٢) ، وكلاهما ولدُ عبد مناف لصلبه ، وأن يكون أمية بإزاء عبد المطلب ، وأن يكون حربُ بإزاء أبي طالب ، وأن يكون أبو سُفيانُ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كل واحد من هؤلاء في قُعددٍ صاحبه ، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان في صِفِّين بإزاء معاوية اضطرَّ إلى أن جعل هاشما بإزاء أمية بن عبد شمس .

فإن قلت : فهلا قال : « ولا أنا كُأنت » ؟ قلتُ : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السَّيْفُ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسامين كافةً ، نعم قد يقولها لا تصرّحا ، بل تعريضا ، لأنه يرفع نفسه على أن يقيسها بأحد .

وها هنا قد عرّض بذلك في قوله : « ولا المهاجرُ كالطليق » . فإن قلت : فهل معاوية

(١) سورة النمل ١٢ .

(٢) قُعدد ؛ أى قريب الآباء من الجد الأكبر .

من الطُّلَقَاء؟ قلت : نعم ، كلُّ من دَخَلَ عليه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله مَكَّةَ عَتَوَةً بالسَّيْفِ فَلَمَّكَه ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِ عنِ إِسْلَامٍ أوْ غَيْرِ إِسْلَامٍ فَهُوَ مِنَ الطُّلَقَاءِ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ كَصَفْوَانَ ابْنِ أُمَيَّةٍ ، وَمَنْ أَسْلَمَ كَمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أُسْرِى فِي حَرْبٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ أَمِنَ عَلَيْهِ بِفِدَاءٍ أوْ بغيرِ فِدَاءٍ فَهُوَ طَلِيقٌ ، فَمَنْ أَمِنَ عَلَيْهِ بِفِدَاءٍ كُسْهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَمَنْ أَمِنَ عَلَيْهِ بِغيرِ فِدَاءٍ أَبُو عَزَّةَ الْجَمَحِيُّ ، وَمَنْ أَمِنَ عَلَيْهِ مُعَاوِضَةَ أَيْ أَطْلَقَ لِأَنَّهُ يَأْزَاءُ أُسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَعْمُرُو بْنُ أَيْ سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ مَعْدُودُونَ مِنَ الطُّلَقَاءِ .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولا الصريح كاللصيق » ، وهل كان في نسب معاوية شبهة ليقول له هذا ؟

قلت : كلاً فإنه لم يقصد ذلك ، وإنما أراد الصريح بالإسلام واللصيق في الإسلام ، فالصريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً ، واللصيق فيه مَنْ أسلم تحتَ السيفِ أو رغبةً في الدنيا ، وقد صرح بذلك فقال : « كنتم ممن دخل في هذا الدين إما رغبةً وإما رهبةً » .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولتبس الخلف خلفاً يتبع سلفاً هوى في نار جهنم » ؟ وهل يُعَابُ المسلم بأن سَلَمَهُ كانوا كُفَّاراً !

قلت : نعم ، إذا تَبِعَ آثَارَ سَلَفِهِ وَاحْتَذَى حَذْوَهُمْ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاعَابَ مُعَاوِيَةَ بِأَنْ سَلَمَهُ كُفَّارَ فَقَطْ ، بَلْ بَكُونُهُ مُتَبِعاً لَهُمْ .

قوله عليه السلام : « وفي أيدينا بعدُ فضلُ النبوة » أى إِذَا فَرَضْنَا تَسَاوَى الْأَقْدَامِ فِي مَا ثَرَأَ أَسْلَافُكُمْ كَانَ فِي أَيْدِينَا بَعْدُ الْفَضْلُ عَلَيْكُمْ بِالنَّبُوَّةِ الَّتِي نَعْمُنَا بِهَا الْخَامِلَ ، وَأَخْلَنَّا بِهَا النَّبِيَّه .

قوله عليه السلام : ، « على حينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ » ، قال قوم من النُّحَاة :

« حينَ » مَبْنِيٌّ هَاهُنَا عَلَى الْفَتْحِ . وقال قوم : بل مَنْصُوبٌ لِإِضَافَتِهِ إِلَى الْفَعْلِ .
قوله عليه السلام : « فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيْبًا » ، أى لَا تَسْأَلْهُ مِنْ أَعْمَالِكَ
مَا يَدُومُ بِهِ كَوْنُ الشَّيْطَانِ ضَارِبًا فِيكَ بِنَصِيْبٍ ، لِأَنَّهُ مَا كَتَبَ إِلَيْهِ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَّا بَعْدَ
أَنْ صَارَ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ أَوْفَرُ نَصِيْبٍ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَهْيُهُ عَنْ دَوَامِ ذَلِكَ وَأَسْتِمْرَارِهِ .

[ذَكَرَ بَعْضُ مَا كَانَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ يَوْمَ صِفِّينَ]

وَذَكَرَ نَصْرُ بْنُ مُزَاحِمٍ بْنُ بَشَّارٍ الْعُقَيْلِيُّ فِي كِتَابِ "صِفِّينَ" أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ
كَتَبَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَعَاوِيَةَ قَبْلَ لَيْلَةِ الْهَرِيرِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ . قَالَ نَصْرٌ : أَظْهَرَ
عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مُصَبِّحٌ مَعَاوِيَةَ وَمُنَاجِزٌ لَهُ ، وَشَاعَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ . فَفَرَعَ أَهْلُ
الشَّامِ لِذَلِكَ ، وَانْكَسَرُوا لِقَوْلِهِ . وَكَانَ مَعَاوِيَةُ بْنُ الضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ صَاحِبَ رَايَةٍ بَنَى
سُلَيْمٍ مَعَ مَعَاوِيَةَ مُبِيضًا لِمَعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَهُ هَوًى مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِأَخْبَارِ مَعَاوِيَةَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطَّفَيْلِ الْعَامِرِيِّ ، وَهُوَ مَعَ
أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَيُخَبِّرُ بِهَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا شَاعَتْ كَلِمَةُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَلَ لَهَا
أَهْلُ الشَّامِ ، وَبَعَثَ ابْنُ الضَّحَّاكِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطَّفَيْلِ : إِنِّي قَاتِلٌ شِعْرًا أَذْعَرُ بِهِ أَهْلَ
الشَّامِ وَأُرْغِمُ بِهِ مَعَاوِيَةَ ، وَكَانَ مَعَاوِيَةُ لَا يَتَّهِمُهُ ، وَكَانَ لَهُ فَضْلٌ وَتَجَدُّةٌ وَلِسَانٌ ، فَقَالَ لَيْلًا
لِيَسْتَمَعَ أَصْحَابُهُ :

أَلَا كَيْتَ هَذَا اللَّيْلُ أَطْبَقَ سَرْمَدًا	علينا وأنا لا نرى بعده غدا
وَيَالَيْتَهُ إِنْ جَاءَنَا بِصَبَاحِهِ	وجدنا إلى مجرى الكواكب مضعدا
حِذَارَ عَلِيٍّ إِنَّهُ غَيْرُ مُخْلَفٍ	مدى الدهر مالبس الملثمين موعدا
وَأَمَا قَرَارِي فِي الْبِلَادِ فَلَيْسَ لِي	مقام وإن جاوزت جابلق مضعدا

كَأَنِّي بِهِ فِي النَّاسِ كَاشَفُ رَأْسِهِ عَلَى ظَهْرِ خَوَارِ الرَّحَالَةِ أَجْرَدَا
يَخُوضُ غِمَارَ الْمَوْتِ فِي مُرْجَجَةٍ يُنَادُونَ فِي نَقْعِ الْعَجَاجِ مُحَمَّدًا^(١)
فَوَارِسُ بَدْرِ وَالنَّضِيرِ وَخَيْرِ وَأَحَدِ يَهْرُونَ الصَّفِيحِ الْمَهْنَدَا
وَيَوْمَ حَنِينٍ جَالَدُوا عَنْ نَبِيِّهِمْ فَرِيقًا مِنَ الْأَحْزَابِ حَتَّى تَبَدَّدَا^(٢)
هَنَالِكَ لَا تَلْوِي عَجُوزٌ عَلَى أُنْبَاهَا وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنْ قَوْلٍ : نَفْسِي لَكَ الْفَدَا
فَقُلْ لَابْنِ حَرْبٍ مَا الَّذِي أَنْتَ صَانِعُ أَتَثْبِتُ أَمْ نَدْعُوكَ فِي الْحَرْبِ قُعْدَدَا^(٣) :
فَلَا رَأْيَ إِلَّا تَرَكْنَا الشَّامَ جَهْرَةً وَإِنْ أَبْرَقَ الْفُجْعَا فِيهَا وَأَرْعَدَا^(٤)

فلما سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية ، فهم يقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرده من الشام ، فلحق بمصر وندم معاوية على تسيره إياه . وقال معاوية : لشعر السامى^(٥) أشد على أهل الشام من لقاء على ، ماله قاتله الله ، لو صار خلف جابلق مصعدا لم يأمن عليا ! ألا تعلمون ما جابلق ؟ يقوله لأهل الشام ، قالوا : لا ، قال : مدينة في أقصى المشرق ليس بعدها شيء .

قال نصر : وتناقل الناس كلمة على عليه السلام : «لأننا جزئهم مصبجا»^(٦) ، فقال الأشتري : قد دنا الفضل في الصبايح وللسلم رجال وللحروب رجال

(١) المرجحة : الأمر العظيم .

(٢) جالدوا : دافعوا .

(٣) القعد : الحمان القاعد عن الحرب ؛ وبعده في صفين :

وطني . بالآلا يصبر القوم موقفاً يقفه وإن لم يجر في الدهر لمدى

(٤) الفجعا : كثير الكلام المتشجع بما ليس عنده .

(٥) صفين : « لقول السامى » .

(٦) صفين : « لاني مناجز القول إن أصبحت » .

فرجالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍ مَقْعَمٍ لَاتَهْدُهُ الْأَهْوَالُ^(١)
 يضربُ الفارسَ المدجَّجَ بالسَّيِّفِ إذا فَرَّ في الوَغَا الْأَكْفَالُ
 يابَنَ هَنَدٍ شُدَّ الحِيازِمَ للهِمِ تِ وَلَا تَذْهَبُنْ بِكَ الْأَمَالُ
 إن في الصَّبحِ إن بقيتِ لأَمْرًا تَتَفَادَى مِنْ هَوْلِهِ الْأَبْطَالُ
 فيه عَزَّ الْعِرَاقُ أَوْ ظَفَرُ الشَّامِ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ وَالزَّلْزَالُ
 فَاصْبِرُوا لِلطَّعَانِ بِالْأَسَلِ السُّمِّ رِ وَضَرْبِ تَجْرِي بِهِ الْأُمُشَالُ^(٢)
 إن تَكُونُوا قَتَلْتُمُ النَّفَرَ الْيَمِيْنِ ضَ وَغَالَتْ أَوْلُوكَ الْآجَالُ^(٣)
 فَلَمَّا مِثْلَهُمْ غَدَاةُ التَّلَاقِ وَقَلِيلٌ مِنْ مِثْلِهِمْ أَبْدَالُ
 يُخْضِبُونَ الْوَشِيحَ طَعْنًا إِذَا جَرَّتْ مِنَ الْمَوْتِ بَيْنَهُمْ أَذْيَالُ^(٤)
 طَلَبَ الْفَوْزَ فِي الْمَعَادِ وَفِيهِ تُسْتَهَانُ النُّفُوسُ وَالْأَمْوَالُ

قال : فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأَشْتَرِ قال : شعرٌ منكر ، من شاعرٍ منكر ،
 رأسُ أهلِ الْعِرَاقِ وَعَظِيمُهُمْ ، وَمِسْعَرُ حَرْبِهِمْ ، وَأَوَّلُ الْفِتْنَةِ وَآخِرُهَا ، قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَعَاوَدَ عَلِيًّا
 وَأَسْأَلُهُ إِقْرَارِي عَلَى الشَّامِ ، فَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِبْ إِلَيْهِ ، وَلَأَكْتُبَنَّ
 ثَانِيَةً فَأَتَّقِي فِي نَفْسِهِ الشُّكَّ وَالرَّقَّةَ . فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَضَحَّيْكَ : أَيْنَ أَنْتَ يَا مُعَاوِيَةَ
 مِنْ خُدْعَةِ عَلِيٍّ ! قَالَ : أَلَسْنَا بَنَى عَبْدَ مَنْفٍ ! قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لَمْ تَنْبُوْهُ دُونَكَ ،
 وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَكْتُبَ فَأَكْتُبْ ؛ فَكْتُبْ مُعَاوِيَةَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَجُلٍ مِنْ
 السَّكَاكِ يَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُقْبَةَ ، وَكَانَ مِنْ نَافِلَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ :

أما بعد فإنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنحها بعضنا على

(١) الحَدَبُ : الشَّدِيدُ الصَّابِ ، وَالْمَقْعَمُ ، مَنْ قَعِمَ فِي الْأَمْرِ كَنَصَرَ تَجُومًا ؛ إِذَا رَمَى بِنَفْسِهِ فِيهِ
 خُجَّاءٌ بِالرَّوِيَةِ .
 (٢) الْأَسَلُ : الرِّمَاحُ . وَالسُّمُّ : الْعَوَالِ .
 (٣) يَقَالُ : غَالَهُ غَوْلٌ ؛ إِذَا أَهْلَكَ .
 (٤) الْوَشِيحُ : شَجَرُ الرِّمَاحِ .

بعض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نندم به على ماضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمنى لك بيعة وطاعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطاني الله مامنت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما أخاف ، وقد والله فارقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستدل به عزيز ، ولا يسترق به حرث ، والسلام .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علي عليه السلام قرأه ، ثم قال : العجب لمعاوية وكتابه !^(١) ودعا عبيد بن أبي رافع كاتبه ، فقال : اكتب جوابه^(٢) .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض ، فإنى لو قتلت فى ذات الله ، وحييت ؛ ثم قُتِلْتُ ثم حييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك : إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ماضى ، فإنى ما نقصت عقلى ، ولا ندمت على فعلى . وأما طلبك الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم مامنعك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فاست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض ! فلعمري إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمة كهانم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الحق كالباطل ، وفى أيدينا بعد فضل النبوة التى أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الدليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتاب علي عليه السلام كتبه عن عمرو بن العاص أيما ، ثم دعا

(١-١) صفين : « ثم دعا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه ، فقال : اكتب إلى معاوية » .

فأقرأه إياه ، فشمت به عمرو - ولم يكن أحد من قريش أشد إعظاماً للعلّي من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه - فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله درك يا بن هندٍ ودرّ الأمرين لك الشهود !
أقطع لا أبا لك في عليٍّ وقد قرع الحديد على الحديد !
وترجوا أن تُخَيَّرَ به بشكٍّ وتأمل أن يهابك بالوعيد^(١)
وقد كشف القناع وجرّ حرباً يشيبُ لهولها رأس الوليد
له جباؤه مُظلمة طحونٌ فوارسها تلهب كالأسود^(٢)
يقول لها إذا رجعت إليه^(٣) وقد ملّت طعان القوم : عودي
فإن وردت فأولها وروداً وإن صددت فليس بذى صدود
وماهى من أبى حسن بُكرٍ ولا هو من مسالك البعيد
وقلت له مقالة مستكينٍ ضعيف الركن منقطع الوريد
دعن لي الشام حسبك يا بن هندٍ من السّوات والرأي الزّهيد
ولو أعطاكها ما زددت عزّاً ولا لك لو أجابك من مزيد
فلم تكسرْ بذاك الرأي عوداً لركته ولا ما دون عود^(٤)

فلما بلغ معاوية شعراً عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيل رأيي ، وتعظم عليّا وقد فصحك ! فقال : أما تفيل رأيك فقد كان ، وأما إعظامي عليّا فإنك بإعظامه أشدّ معرفةً مني ، ولكنك تطويه وأنا أنشره . وأما فضيحتي فلم يفتضح أمرواً لقيّ أبا حسن^(٥) .

(١) صفين : « ورجوا أن يهابك بالوعيد » .

(٢) الجأواء : الكتيبة يعلوها السواد لكثرة الدروع .

(٣) صفين : إذا دلفت إليه » .

(٤) الركبة . الضعف . (٥) صفين ٥٣٥ - ٥٤٠

(١٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَعْرِسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَأَحْلُلُ عُقْدَةَ الْخُوفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِيبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّقُوا بَوْغٌ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِمًا مَاسَةً ، وَقَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مُأْجُرُونَ عَلَى صَلَاتِهِمْ ، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهِمْ .

فَارْبَعُ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ ، وَالسَّلَامُ .

الشُّنْخُ :

قوله عليه السلام : مَهْبِطُ إِبْلِيسَ : موضع هُبوطه .

ومعْرِسُ الْفِتَنِ : موضع غَرَسِهَا ، وَيُرْوَى « وَمُعْرِسُ الْفِتَنِ » ، وهو الموضع الذي يَنْزِلُ فِيهِ الْقَوْمُ آخِرَ اللَّيْلِ لِلِاسْتِرَاحَةِ ، يُقَالُ غَرَسُوا وَأَغْرَسُوا .

وقوله عليه السلام : « فَحَادِثُ أَهْلِهَا » ، أى تَعَاهِدُهُم بِالْإِحْسَانِ ، مِنْ قَوْلِكَ : حَادِثُ السَّيْفِ بِالصِّمَالِ .

والتنمر للقوم : الغلظة عليهم ، وللمعاملة لهم بأخلاق النمر ، من الجرأة والوثوب ،
وسند كرتصديق قوله عليه السلام : « لم يغب لهم نجمٌ إلا طلع لهم آخر » .
والوغم : الترة ، والأوغام : الترات ، أى لم يهدر لهم دمٌ فى جاهلية ولا إسلام ،
يصدهم بالشجاعة والحمية .

ومأزورون ، كان أصله « موزورن » ، ولكنه جاء بالألف ليحاذى به ألف
« مأجورون » وقد قال النبى صلى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فاربغ أبا العباس » ، أى قف وتثبت فى جميع ماتعمده فعلا
وقولا من خير وشر ، ولا تعجل به فإنى شريكك فيه إذ أنت عاملى والنائب عنى .
ويعنى بالشر هاهنا الضر فقط ، لا الظلم والفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وكن عند صالح ظئى فيك » ، أى كن واقفا عنده كأنك
تشاهده فتمنعك مشاهدته عن فعل ما لا يجوز .
فال رأى يقيل ، أى ضعف وأخطأ .

[فصل فى بنى تميم وذكر بعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " التاج " أن لبنى تميم ماثر لم
يشركهم فيها غيرهم . أما بنو سعد بن زيد مناة فلها ثلاث خصال يعرفها العرب :
إحداها : كثرة العدد فإنه أضعف عددها على بنى تميم حتى ملأت السهل والجبل
عدلت مضر كثرة ، وعامة العدد منها فى كعب بن سعد بن زيد مناة ، ولذلك قال أوس
ابن مفرء :

كَعْبِي مِنْ خَيْرِ الْكَعَابِ كَعْبًا مِنْ خَيْرِهَا فَوَارِسًا وَعَقْبًا
* تَعْدِلُ جَنْبًا وَتَتِمُّ جَنْبًا *

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنتَ أَعْلَمُ مَا يَرْمُلُ مُوَيْسِلٍ فَقَرَى عُثْمَانُ إِلَى ذَوَاتِ حُجُورٍ
لَعَلَّتْ أَنْ قَبَائِلًا وَقَبَائِلًا مِنْ آلِ سَعْدٍ لَمْ تَدِنْ لِأَمِيرٍ
وقال أيضا :

تَبَكَّى عَلَى سَعْدٍ وَسَعْدٌ مُقِيمَةٌ يَبْزِينَ قَدْ كَادَتْ عَلَى النَّاسِ تَضَعُفُ^(١)
ولذلك كانت تسمى سعد الأكرمين . وفي المثل : « فِي كُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ »^(٢) .
والثانية : الإفاضة في الجاهلية ، كان ذلك في بني عَطَارِدَ ، وهم يتوارثون ذلك كأكبر
بن كابر ، حتى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمعَ النَّاسُ أَيَّامَ الْحَجِّ بَمَنَى لَمْ يَبْرَحْ أَحَدٌ
مِنَ النَّاسِ دِينًا وَسَنَةً حَتَّى يَجُوزَ الْقَائِمُ بِذَلِكَ مِنْ آلِ كَرَبِ بْنِ صَفْوَانَ ، وقال أوسُ
بن مَعْرَاءَ :

وَلَا يَرِيْمُونَ فِي التَّعْرِيفِ مَوْقِفَهُمْ حَتَّى يَقَالَ : أَجِيزُ وَآلَ صَفْوَانَا

وقال الفرزدق :

إِذَا مَا أَلْتَقَيْنَا بِالْحَصْبِ مِنْ مَنَى صَبِيحَةَ يَوْمِ النَّجْرِ مِنْ حَيْثُ عَرَفُوا^(٣)
تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ حَوْلَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
والثالثة : أن منهم أشرف بيت في العرب الذي شرفته ملوكُ نَحْمَ . قال المنذر بن
المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفودُ العرب ودعا بِبُرْدَى أَبِيهِ مُحَرَّقِ بْنِ الْمُنْذِرِ
فقال : لِيَلْبَسَ هَذِينَ أَعَزُّ الْعَرَبِ وَأَكْرَمُهُمْ حَسَبًا . فَأَحْجَمَ النَّاسُ ، فقال أَحْمِرُ بْنُ

(١) ديوانه ٥٦٩ .

(٢) بجمع الأمل ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه : « فِي كُلِّ أَرْضٍ سَعْدٌ بَنِي زَيْدٍ » ؛ قاله الأضبط بن قريش .

(٣) عرفوا ؛ أى وقفوا بعمرات .

خَافَ بَنِي بَهْدَلَةَ بَنِي عَوْفٍ بَنِي كَعْبٍ بَنِي سَعْدٍ بَنِي زَيْدٍ مَنَاةَ بَنِي تَمِيمٍ : أَنَا لَهَا ، قَالَ الْمَلِكُ :
بِإِذَا ؟ قَالَ : بَأَنَّ مُضَرَ أَكْرَمَ الْعَرَبِ وَأَعَزَّهَا وَأَكْثَرُهَا عَدِيدًا ، وَأَنَّ تَمِيمًا كَاهِلُهَا ^(١)
وَأَكْثَرُهَا ، وَأَنَّ بَيْتَهَا وَعَدَدُهَا فِي بَنِي بَهْدَلَةَ بَنِي عَوْفٍ ، وَهُوَ جَدِّي . فَقَالَ : هَذَا
أَنْتَ فِي أَصْلَائِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، فَكَيْفَ أَنْتَ فِي عِزَّتِكَ وَأَدَانِكَ !

قَالَ : أَنَا أَبُو عَشْرَةٍ ، وَأَخُو عَشْرَةٍ ، وَعَمُّ عَشْرَةٍ . فَدَفَعَهُمَا إِلَيْهِ ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ
الزُّبَيْرِيُّ قَانَ بَنِي بَدْرِ فِي قَوْلِهِ :

وَبُرِّدَا ابْنِ مَاءِ الْمَزْنِ عَمِّي أَكْتَاسَاهُمَا بِفَضْلِ مَعَدٍّ حَيْثُ عُدَّتْ حِمَايِلُهُ
قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ خَصْلَةٌ ، قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمَنْقَرِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « هَذَا
سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ » ، فَفَعَلَهُ سَيِّدُ خَنْدِفٍ وَقَيْسُ بْنُ يَسْكَنَ الْوَبَرِ .

قَالَ : وَأَمَّا بَنُو حَنْظَلَةَ بَنِي مَالِكِ بْنِ زَيْدٍ مَنَاةَ بَنِي تَمِيمٍ فَلَهُمْ خِصَالٌ كَثِيرَةٌ . قَالَ : فِي
بَنِي دَارِمٍ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ ، وَهُوَ بَيْتُ مُضَرَ ، فَمِنْ ذَلِكَ زُرَّارَةُ بْنُ عُدَّاسٍ بْنُ زَيْدِ بْنِ
دَارِمٍ يُقَالُ : إِنَّهُ أَشْرَفَ الْبُيُوتِ فِي بَنِي تَمِيمٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْسُ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ الْمَرْهُونَةُ
عِنْدَ كِسْرَى عَنْ مُضَرَ كُلِّهَا ، وَفِي ذَلِكَ قِيلُ :

وَأَقْسَمُ كِسْرَى لَا يَصَالِحُ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ حَتَّى يَرَهْنَ الْقَوْسَ حَاجِبُ
وَمِنْ ذَلِكَ فِي بَنِي مُجَاشِعٍ بَنِي دَارِمٍ صَمْعَصَمَةُ بْنُ نَاجِيَةَ بْنِ عَقَالِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سُفْيَانَ
ابْنِ مُجَاشِعٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا الْوَيْثِدَ ، قَامَ الْإِسْلَامُ وَقَدْ اشْتَرَى ثَلَاثُمِائَةَ مَوْءُودَةٍ فَأَعْتَقَهُنَّ
وَرَبَّاهُنَّ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَتَدَبَّرُ الْبَنَاتِ خَوْفَ الْإِمْلَاقِ .

وَمِنْ ذَلِكَ غَالِبُ بْنُ صَمْعَصَمَةَ ، وَهُوَ أَبُو الْفَرَزْدَقِ ، وَغَالِبٌ هُوَ الَّذِي قَرَأَ مِائَةَ
ضَيْفٍ ، وَاحْتَمَلَ عَشْرَ دِيَّاتٍ لِقَوْمٍ لَا يَعْرِفُهُمْ ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ ذَلِكَ أَنَّ بَنِي كَلْبٍ

(١) كَاهِلُهَا ، أَيْ أَعْلَامُهَا .

ابن وَبَرَةَ افتخرتُ بينها في أُنْدِيتِها ، فقالت : نحن لُبَابُ العربِ وقلُوبُها ، ونحن الذين لا نُنَازِعُ حَسَبًا وَكَرَمًا . فقال شيخُ مِهم : إنَّ العربَ غيرُ مقرَّةٍ لكم بذلك ، إنَّ لها أحسابا ، وإنَّ منها لُبَابا ، وإنَّ لها فعلا ، ولكن ابعثوا مائةً منكم في أحسن هيئة وبزَّة ينفرونَ من مرثوابه في العرب ويسألونه عَشَرَ دِيَّاتٍ ، ولا يَنْتَسِبُونَ له ، فمن قَرَّاهم وبذلَّ لهم الدِّيَّاتِ فهو الكَرِيم الذي لا يُنَازِعُ فصلا ؛ فخرجوا حتَّى قدِموا على أرضِ بني تميم وأسَد ، فنَفَرُوا الأحياءَ حيًّا فحْيًا ، وماءَ فِماء ، لا يَجِدُونَ أحدا على ما يريدون ؛ حتَّى مرَّوا على أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيٍّ ، فسألوه ذلك ، فقال : مَنْ هؤُلاءِ القَتلى ؟ وَمَنْ أنتم ؟ وما فِصْنُكم ؟ فإنَّ لكم لَشَأَنًا باختلافكم في كلامِكُم ! فدَعَلُوا عنه ، ثم مرَّوا بِقُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ اليرْبُوعِيٍّ فسألوه عن ذلك ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : من كلبِ بنِ وَبَرَةَ . فقال : إني لأبغى كَلْبًا بَدَمَ ، فإنَّ أنساخَ الأشهرِ الحُرُمِ وأنتم بهذه الأرضِ وأدرَككم الخيلُ نَسَكَلَتْ بكم وأنكَلَتْكم أمهاتُكم . فخرجوا من عنده مرعُوبين ، فمرَّوا بِعُطَارِدِ بنِ حاجبِ بنِ رُرارة ، فسألوه ذلك ، فقال : قولوا بَيَّانًا وخذوها ، فقالوا : أمَّا هذا فقد سأَلَكُم قبل أن يُعْطِيَكُم فتركوه ، ومرَّوا ببني مُجاشعِ بنِ دارم فأَبَوْا على وادٍ قد امتلأَ إِبْلا فيها غالبُ بنُ صَعْصَعَةٍ هِنَا^(١) منها إِبْلا ، فسألوه القَرَى والدِّيَّاتِ ، فقال : هاكم البُزْلُ قبلَ النُزولِ فابتزَّوها من البَرِّكِ وَحُورُوا دِيَّاتَكُم ، ثم انزلوا ، فتنزلوا وأخبروه بالحال ، وقالوا : أرشدك اللهُ مِنْ سَيِّدِ قَوْمٍ ! لقد أَرَحْتَنَا من طولِ النَّصَبِ ، ولو عَلِمْنَا لَقَصَدْنَا إِلَيْكَ ، فذلك قولُ الفرزدَقِ :

فَلله عَمِينًا مَنْ رَأَى مِثْلَ غَالِبٍ قَرَى مائةً ضِيفًا ولم يَتَكَلَّمْ^(٢)
وَإِذْ نَبَحَتْ كَلْبٌ عَلَى النَّاسِ إِنْهُمْ أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُتَكَرَّمِ

(١) هُنَا الإِبِلُ يَهْجُوها : طَلَّاهَا بِالْهِنَاءِ ، وَهُوَ الْفَطْرَانُ .
(٢) دِيْوَانُهُ ٧٥٩ ، وَرَوَايَتُهُ : « أَلَا هَلْ عَلِمْتُمْ مِيتًا قَبْلَ غَالِبِ » .

فلم يَجُلْ عن أحسابها غير غالبٍ جَرَى بِنَانِي كلَّ أبلَجٍ خِضرم^(١)
قال : فأما بنو يَرْبُوع بن حنظلة ، فمنهم . ثُمَّ مِنْ بنى رِيَّاح بن يَرْبُوع عَتَّاب بن هَرْمِيَّ
ابن رِيَّاح ، كانت له رِدَافَةُ الملوك ، ملوكِ آلِ المُنْذِر ، ورِدَافَةُ الملوك أن يُثَنَّى به في الشُّرب ،
وإذا غاب الملكُ خَلَفَهُ في مجلسه ، وورث ذلك بُنُوهُ كابرًا عن كابر ، حتَّى قامَ الإسلام ،
قال لبيدُ بن ربيعة :

وشهدتُ أنجبة الأكارمِ غالبًا كَعَمِي وأردافُ الملوكِ شهود^(٢)
ويَرْبُوع أولُ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا من المشركين ، وهو واقِد بنُ عبدِ الله بن ثعلبة بن
يَرْبُوع ، حليفُ عمر بن الخطَّاب ، قتل عمرو بن الحضرميَّ في سرية نخلة ، فقال عمرُ
ابن الخطَّاب يفتخر بذلك :

سَقِينَا من ابن الحضرميِّ رماحنَا بنخلة لما أوقَدَ الحرب واقِدُ
وظلَّ ابنُ عبدِ الله عثمان بيننا يُنازعه غُلًّا من القدِّ عاند^(٣)
ولها جِوَادُ العَرَبِ كُلِّها في الإسلام ؛ بدأ العرب كلَّها جِوَدًا ، خالدُ بنُ عَتَّاب بن وَرْقَاء
الرياحي . دخل الفرزدقُ على سليمان بن عبد الملك ، وكان يَشْنُوهُ لكثرةِ بَأُوهِ^(٤) ونفْره ،
فتجهمه وتنكَّر له ، وأغلظَ في خطابه حتَّى قال : مَنْ أنتَ لأَمِّ لك ! قال : أوما تعرِفني
يا أمير المؤمنين ؟ أنا من حيٍّ هم من أوفى العَرَبِ ، وأحلم العرب ، وأَسودِ العَرَبِ ، وأجودِ العَرَبِ
وأشجعِ العَرَبِ ، وأشعرِ العرب . فقال سليمان : والله لتحتججنَّ لما ذَكَرتِ أو لأوجعنَّ ظَهْرَكَ ،
ولأبعدنَّ دارَكَ . قال : أما أوفى العرب فحاجبُ بنُ زُرارة ؛ رَهَن قوسَه عن العرب
كلَّها وأوفى . وأما أحلمُ العرب فالأحنفُ بنُ قَيْسٍ يُضْرَبُ به المثلُ حِلْمًا ، وأما أسودُ
العرب فقَيْسُ بنُ عاصم ، قال له رسول الله صَلَّى الله عليه وآله : « هذا سيِّدُ أهل الوَبَر » ؛

(١) الأبلج : الواضح . والحضرم : الجواد المعطاء .
(٢) النمل بالضم : ملوك من حديد يجعل في العنق ، والجمع أغلال .
(٣) لم أجده في ديوانه .
(٤) البأو : الفخر .

وأما أشجعُ العرب فالحريش بنُ هلال السعدى ؛ وأما أجودُ العرب فالحالد بن عتّاب ابن ورفاء الرياحى ، وأما أشعرُ العرب فهانذا عندك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شيء لك عندنا ، فارجع على عقبك ؛ وغمه ما سمع من عزّه ، ولم يستطع له ردّا ، فقال الفرزدق في أبيات :

أتيناك لا من حاجةٍ عرّضتُ لنا إليك ولا من قلةٍ في مجاشع^(١)

قلت : ولو ذكر عُتَيْبَةُ بنُ الحارث بن شهاب اليزبوعى وقال : إنه أشجعُ العرب لكان غيرَ مُدافع . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَعَ القمرُ إلى الأرض لما التَّقَفَه إِلَّا عُتَيْبَةُ بنُ الحارث لثقافته بالرُّمَح . وكان يقال له : صيادُ الفوارس وسمّ الفوارس ، وهو الذى أسَرَ بسطامَ بن قيس ، وهو فارس ربيعة وشجاعُها ، ومكث عنده فى القيد مُدَّة حتّى استوفى فِدَاءَه وَجَزَّ ناصيته ؛ وَخَلَّى سبيله على ألا يغزو بنى يربوع . وعُتَيْبَةُ هذا هو المُقدَّم على فُرْسَانِ العرب كلّها فى كتاب طبقات الشُّجْعَانِ ومقاتل الفُرسَانِ ، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميّاً ، لأن جريرا يفتخر به ، لأنه من بنى يربوع ، فحملته عداوةُ جرير على أن عدل عن ذكره .

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تميم خِصَالٌ تعرفها لهم العرب ولا ينازعهم فيها^(٢) أحد ؛ فمنها أكرمُ الناس عمّا وعمّة ، وجدّاً وجدّة ، وهو هند بنُ أبى هالة ، واسم أبى هالة نباش بنُ زُرارة أحدُ بنى عمرو بن تميم ، كانت خديجة بنتُ خويلد قبل

(١) ديوانه ٤٩١ .

(٢) ١ : « عليها » .

النبي صلى الله عليه وآله تحت أبي هالة ، فولدت له هنداً ، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وهندُ بنُ أبي هالة غلامٌ صغير ، فتبناه النبي صلى الله عليه وآله ، ثم ولدت خديجةُ من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيةَ وأمَ كلثومَ وفاطمةَ ، فكان هندُ بنُ أبي هالة أخاهم لأُمِّهم ، ثم أولد هند بن أبي هالة هندُ بن هند ، فهند الثاني أكرمُ الناس جدًّا وجدَّةً ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة ، وأكرمُ الناس عمًّا وعمَّةً - يعنى بنى النبي صلى الله عليه وآله وبناته .

ومنها أن لهم أحكم العرب في زمانه أكرمُ بن صَيْفٍ ؛ أحد بنى أسد بن عمرو بن تميم ، كان أكثر أهل الجاهلية حكماً ومثلاً وموعظة سائرة .

ومنها ذو الأعواز ، كان له خراجٌ على مضر كافة تؤدِّيهِ إليه ، فشاخَ حتى كان يُحمَلُ على سريرٍ يُطاف به على مياه العرب ، فيؤدَّى إليه الخراج ، وقال الأسود بن يَافِرُ النَّهْشَلِيُّ وكان ضريباً :

ولقد علمتُ خلافَ ما تُناشئُ أنَّ السبيلَ سبيلُ ذى الأعوازِ

ومنها هلال بنُ أحوَزَ المازنِيُّ الذى سادَ تيمياً كلها في الإسلام ، ولم يسُدّها غيره .

قال : ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة الخزوميّ مسجد الكوفة ، فأتتهى إلى حَلَقَةٍ فيها أبو الصَّقْعَبِ التيميّ ، من تيمِّ الرِّباب ، والخزوميّ لا يعرفه ، وكان أبو الصَّقْعَبِ من أعلم الناس ، فلما سمع علمه وحديثه حسده ، فقال له : بمن الرجل ؟ قال : من تيمِّ الرِّباب ؛ فظنَّ الخزوميّ أنه وجدَ فرصةً ، فقال : والله ما أنت من سعد الأكثرين ولا من حنظلة الأكرمين ، ولا من عمرو الأشدِّين ! فقال أبو الصَّقْعَبِ : فمَن أنت ؟ قال من بنى مخزوم . قال : والله ما أنت من هاشمِ المنتخبين ، ولا من أمية المستخلفين ،

ولا من عبد الدار المستحجيين ، فمَن تفخر ؟ قال : نحن رِيحانة قريش ، قال أبو الصقعب :
قُبِحَ لما جئت به ! وهل تدري لم سُميتُ مخروم رِيحانة قريش ؟ سُميتُ لحظوة نسائها
عند الرجال ، فأفحّمه ..

رَوَى أبو العباس المبرّد في كتاب ” الكامل “ ، أن معاوية قال للأحنف بن قيس
وجارية ^(١) بن قدامة ورجال من بني سعد معها كلاما أحفظهم ، فردّوا عليه جواباً مقدّعا ،
وامرأته فاختة بنت قرظة في بيت يقرّب منهم ، وهي أمّ عبد الله بن معاوية ، فسمعت
ذلك ، فلما خرجوا قالت : يا أمير المؤمنين ، لقد سمعت من هؤلاء الأجلاف كلاماً ملقواً
به فلم تُنكر ، فكذت أن أخرج إليهم فأسطو بهم ! فقال معاوية : إن مضر كاهل
العرب ، وتمام كاهل مضر ، وسعدا كاهل تميم ، وهؤلاء كاهل سعد ^(٢) .

وَرَوَى أبو العباس أيضاً أن عبد الملك ذكّر يوماً بني دارم فقال أحد جلسائه :
يا أمير المؤمنين ، هؤلاء قوم محظوظون - يعني في كثرة النسل وتمام الذرية - فلذلك انتشر
صيتهم . فقال عبد الملك : مانقول ! هذا وقد مضى منهم لقيط بن زُرارة ولم يُخلف عَقِبا ،
ومضى قَعْقاع بن مَعْبَد بن زُرارة ولم يُخلف عَقِبا ، ومضى محمد بن عُمَيْر بن عطارِد بن
حاجب بن زُرارة ولم يُخلف عَقِبا ! والله لا تنسى العرب هذه الثلاثة أبداً ^(٣) .

قال أبو العباس : إن الأصمعيّ قال : إن حرباً كانت بالبادية ثم اتصلت بالبصرة ،
فتفأقم الأمر فيها ، ثم مشى بين الناس بالصلح ، فأجتمعا في المسجد الجامع . قال : فبعثتُ
وأنا غلام إلى خيرار بن القَعْقاع من بني دارم ، فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي ، فدخلتُ ،
فإذا به في شملة يخالط بزراً لعنيز له حُلُوب ، فخبّرتُه بجمّعة القوم ، فأمهّل حتى أكلتِ
العنز ، ثم غسّل الصحيفة وصاح : يا جارية ، غَدّينا ، فأثته بزيت وتمرٍ ، فدعاني ، فغَدّرتُه

(١) ب : « حارثة » ، والصواب ما في ١ والكامل .

(٢) الكامل ١ : ٣٠٨ .

(٣) الكامل ١ : ٦٥ .

أن آكلَ معه حتى إذا قَضَى من أكله وحاجته وطَرا وَتَبَّ إلى طِينٍ مُلَقَّى في الدار، ففَسَلَ به يده ، ثم صاح : يا جارية ، اسقيني ماء ؛ فأتته بماء ، فشرَّ به ومسَحَ فضلَه على وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ماء الفُرات بقمَر البَصرة بزَيْت الشام ، متى نُوذَى شكرَ هذه النِّعم ! ثم قال : على بردائي ، فأتته برداء عدني^(١) فارتدى به على تلك الشَّملة . قال الأصمعي : فتجافيتُ عنه استقباحاً لزيَّه ، فلما دخل المسجدَ صَلَّى ركعتين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تَبَقْ حُبُوةٌ إلا حُلَّتْ إعظاماً له ، ثم جلس فتحمَّل جميعَ ما كانَ بين الأحياء في مالِه ثم انصرف^(٢) .

قال أبو العباس : وحدثني أبو عثمان المازني ، عن أبي عُبيدة ، قال : لَمَّا أَتَى زيادُ ابنُ عمرو المِرْبَدَ في عَقِب قَتْل مسعود بن عمرو العَتَكِي ، وجاء زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكِي لِيُثَارَ به من بني تميم صَفَّ أصحابه ، فجَعَلَ في الميمنة بكر بن وائل ، وفي الأيسرة عبد القيس ، وهم لُكَيْز بن أَفصى بن دُعَي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، وكان زياد بن عمرو العَتَكِي في القلب ، فَبَلَغَ ذلك الأحنف بن قيس ، فقال : هذا غلامٌ حَدَث ، شأنه الشُّهرة ، وليس يبالي أين قَذَفَ بنفسه ! فندب أصحابه ، فجاءه حارثة بن بدر الغدائي ، وقد اجتمعتُ بنو تميم ، فلما أَتَى^(٣) قال : قوموا إلى سيِّدكم ، ثم أجلسه فناظره ، فجعلوا سعدا والرباب في القلب ورؤسهم عبس بن طلق الطعان المعروف بأخي كهمس ، وهو أحد بني صُرَيم بن يربوع ، فكانوا بجِذاء زياد بن عمرو ومن معه من الأزد ، وجعل حارثة بن بدر الغدائي في بني حنظلة بجِذاء بسكر بن وائل ، وجعل عمرو بن تميم بجِذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيك عبسٌ أخو كهمسٍ مُقارعة الأزد في المِرْبَدِ^(٤)
ويكفيك عمرو على رسلها لُكَيْز بن أَفصى وما عددوا

(١) عدني : منسوب إلى عدن أين ، وهي جزيرة باليمن ، تنسب إليها الثياب العدنية .

(٢) الكامل ١ : ١٣٩ .

(٣) الكامل : « طلع » .

(٤) في هذا البيت لافواء .

وَنَكْفِكَ بَكَرًا إِذَا أَقْبَلْتُ بِضَرْبِ يَشِيبُ لَهُ الْأَمْرَدُ
وَلَكَيْزُ بْنُ أَفْصَى تَعَمَّ عَبْدَ الْقَيْسِ. قَالَ : فَلَمَّا تَوَاقَفُوا بَعَثَ إِلَيْهِمُ الْأَحْنَفُ : يَا مَعْشَرَ
الْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَرَبِيعَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَأَنْتُمْ
جِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبُذُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَنْتُمْ بَدَأْتُمُونَا بِالْأَمْسِ ، وَوَطَّئْتُمْ حَرِيمَنَا ، وَحَرَقْتُمْ
عَلَيْنَا ، فَدَفَعْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي الشَّرِّ مَا طَلَبْنَا فِي الْخَيْرِ مَسْلَكًا ، فَتَيَمَّمُوا بِنَا
طَرِيقَةً مُسْتَقِيمَةً^(١) . فَوَجَّهَ إِلَيْهِ زِيَادُ بْنُ عَمْرٍو ، تَحْيِيزَ خَلَّةٍ مِنْ ثَلَاثَ : إِنْ شِئْتَ فَانْزِلْ
أَنْتَ وَقَوْمُكَ عَلَى حَكْمِنَا ، وَإِنْ شِئْتَ نَخْلُ لَنَا عَنِ الْبَصْرَةِ ، وَارْحَلْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ إِلَى حَيْثُ
شِئْتُمْ ، وَإِلَّا فَدُؤُوا قَتْلَانَا ، وَاهْدُرُوا دِمَاءَكُمْ ، وَلِيُودَ مَسْعُودٌ دِيَةَ الْمَشْعَرَةِ .

.. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ : « دِيَةَ الْمَشْعَرَةِ » ، يَرِيدُ أَمْرَ الْمُلُوكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ
الرَّجُلُ إِذَا قُتِلَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ وَدِيَّ عَشَرِ دِيَّاتٍ - فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْأَحْنَفُ :
سَنَخْتَارُ . فَانْصَرَفُوا فِي يَوْمِكُمْ ، فَهَرَّ الْقَوْمُ رَايَاتِهِمْ وَأَنْصَرَفُوا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ بَعَثَ الْأَحْنَفُ
إِلَيْهِمْ : إِنْ كُمْ خَيْرْتُمُونَا خِلَالًا لَيْسَ لَنَا فِيهَا خِيَارٌ ، أَمَّا النُّزُولُ عَلَى حَكْمِكُمْ فَكَيْفَ يَكُونُ
وَالْكَلَمُ^(٢) يَقْطُرُ ، وَأَمَّا تَرَكُ دِيَارِنَا فَهُوَ أَخُو الْقَتْلِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ
كُتِبْنَا عَلَى نَفْسِكُمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٣) ،
وَلَسَكُنَ الثَّلَاثَةُ إِيَّاهِمْ حُلًّا عَلَى الْمَالِ ، فَنَحْنُ نُبْطِلُ دِمَاءَنَا ، وَنَدِي قَتْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا
مَسْعُودٌ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ . فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى
أَنْ يَقْفُوا أَمْرَ مَسْعُودٍ ، وَيُعْمِدُوا السِّيفَ ، وَتُودَى سَائِرُ الْقَتْلَى مِنَ الْأَزْدِ وَرَبِيعَةَ ، فَضَمِنَ
ذَلِكَ الْأَحْنَفُ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ إِيَّاسَ بْنَ قَتَادَةَ الْجَاشَعِيَّ رَهِينَةً حَتَّى يُوْدَى هَذَا الْمَالُ ، فَرَضَى
بِهِ الْقَوْمُ ، فَفَخَّرَ بِذَلِكَ الْفَرَزْدَقُ ، فَقَالَ الْجَرِيرُ :

(٢) الْكَلَمُ : الْجَرْحُ .

(١) الْكَامِلُ : « قَاصِدَةٌ » .

(٣) سُورَةُ النِّسَاءِ ٦٦ .

ومنا الذى أعطى يديه رهينة لغارى معديوم ضرب الجمجم^(١)
 عشية سأل المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيف الصوارم
 هنالك لو تبغى كلياً وجدتها أذل من القردان تحت المناسم
 ويقال : إن تيمنا فى ذلك الوقت مع باديتها وحلقائها من الأسورة والزط والسباجة
 وغيرهم كانوا زهاء سبعين ألفا ، وفى ذلك يقول جرير :

سائل ذرى يمن ورهط محرق والأزد إذ ندبوا لنا مسعودا^(٢)
 فأتاهم سبعون ألف مدجج متسريلين يلامقا وحديدا^(٣)

قال الأحنف بن قيس : فكثر على الديات فلم أجدها فى حاضرة تميم ، فخرجت
 نحو يبرين إلى بادية تميم ، فسألت عن المقصود هناك ، فأرشدت إلى قبة ، فإذا شيخ
 جالس بفنائها مؤتزر بشملة ، محتب بحبل ، فسأمت عليه ، وانتسبت له ، فقال لى :
 ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قلت : توفى . قال : فما فعل عمر بن الخطاب الذى
 كان يحفظ العرب ويحوطها ؟ قلت : توفى . قال : فأى خير فى حاضرتم بعدها ؟ قال :
 فذكرت له الديات التى لزمنا للأزد وربيعة ، قال : فقال لى : أقم ، فإذا راع قد أراح
 عليه ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح علينا آخر مثلها ، فقال : خذها ، فقلت : لأحتاج
 إليها . قال : فانصرفت بالألف عنه ، والله ما أدرى من هو إلى الساعة^(٤) !

(١) ديوانه ٨٦١ ، والعاران ، منى غار ، وهو الجيش . (٢) ديوانه ١٧٢ ؛ وهو مسعود بن عمرو العتيق .
 (٣) اليلاق : جم يلق ؛ وهو القباء ، فارسى معرب . وفى الكامل : « يلامعا » ، واليلع : هو الدرع .
 (٤) الكامل ١ : ١٤٠ - ١٤٣ .

(١٩)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكَّوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَاحْتِقَارًا
وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشَرِّكِهِمْ ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُحْفَوُا
لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسَ لَهُمْ جَلْبَابًا مِنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بَطَرَفٌ مِنَ الشَّدَّةِ ، وَدَاوِلٌ لَهُمْ بَيْنَ
الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَامْرُجٌ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

البنرخ :

الدَّهَاقِين : الزعماء أربابُ الأملاك بالسَّواد ، واحدهم دِهَقَان بكسر الدال ،
ولفظه معرَّب .

ودَاوِلٌ بينهم . أي مرة هكذا ومرة هكذا ، أمره أن يسلك معهم مَهْجَا
متوسطا ، لا يُدْنِيهِمْ كُلَّ الدَّوَى لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ ، وَلَا يَقْصِيهِمْ كُلَّ الْإِقْصَاءِ لِأَنَّهُمْ
مُعَاهِدُونَ ، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخِذَةً مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَسَمِينَ بِنَصِيبِ .

(٢٠)

الأصل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة - وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها :

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا ، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، لِأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ، ثَقِيلَ الظَّهِرِ ؛ ضَيْلَ الْأَمْرِ . وَالسَّلَامُ .

الشرح :

سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى . قوله عليه السلام : « لِأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً » ، مثل قوله : « لِأَحْلَنَنَّ عَلَيْكَ حِمْلَةً » ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال .

ثم وصف تلك الشدة فقال : « إِنَّهَا تتركك قَلِيلَ الْوَفْرِ » ، أى أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المساهين .

وثقيل الظهر ، أى مسكين لا تقدر على مئونة عيالك .

وضئيل الأمر ، أى حقير ، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالفاقة والثروة ، فإذا افتقرت صغرت عندهم ، واقتحمتك أعينهم .

(٢١)

الأضد

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا ، وَأَذْكَرَ فِي الْيَوْمِ غَدًا ، وَأَمْسَكَ مِنَ الْمَالِ بِقَدَرِ
ضُرُورَتِكَ ، وَقَدَّمَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ جَاجَتِكَ ، أَنْزَجُو أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ أَجْرَ
الْمُتَوَاضِعِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْتَعَهُ
الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ يَحْزِي بِمَا
أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

الشرح :

المتمرِّغ في التَّعِيم : المتقلب فيه . ونهاه عن الإسراف وهو التبذير في الإنفاق ،
وأمره أن يُمْسِكَ من المال ما تدعو إليه الضرورة ، وأن يقدم فضول أمواله وما ليس له
إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدَّخره ليوم حاجته ، وهو يوم البعث والنشور .

قلتُ : قبح الله زيادا ! فإنه كافأ إنعام على عليه السلام وإحسانه إليه واصطفاؤه له
بملاحة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيئته ومحبيه والإسراف في لعنه ، وتهجين
أفعاله ، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ، ولم يكن يفعل ذلك لطلب
رضا معاوية ، كلا ، بل يفعله بطبعه ، ويعاديه بباطنه وظاهره ، وأبى الله إلا أن يرجع إلى
أمه ، ويصحح نسبه ، وكلُّ إناء ينضح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد نفخ تلك الأعمال السيئة
بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور !

(٢٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى ، وكان ابن عباس يقول : ما انتفعت بكلامي بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كأنتفاعي بهذا الكلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُذِرْكَهَ ، فَلْيَكُنْ سُورُوكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسْفَكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

الشرح :

يقول : إن كل شيء يصيب الإنسان في الدنيا من نفع وضرر فبعضاء من الله وقدره تعالى ؛ لكن الناس لا ينظرون حق النظر في ذلك ، فيسرو الواحد منهم بما يصيبه من النفع ، ويساء بفوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك النفع الذي أصابه ، كان لا بد أن يصيبه ، وأن ما فاته منه كان لا بد أن يفوته ، ولو عرف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن .

ولقائل أن يقول : هب أن الأمور كلها بقضاء وقدر ، فلم لا ينبغي للإنسان أن يفرح بالنفع وإن وقع بالقدر ، ويساء بفوته أو بالضرر وإن وقعا بقدر ! أليس العريان يساء

بقُدوم الشتاء وإن كان لا بدّ من قدومه ، والمحموّم غبّاً^(١) يساء بتجدد نوبة الحمى ، وإن كان لا بدّ من تجدّدها ! فليس سبب الاختيار في الأفعال ممّا يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشيء منها .

والجواب ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على أن الإنسان ينبغى أن لا يعتقِد في الرزق أنه أُنَاه بسعيه وحركته فيفرّح مُعْجَباً بنفسه ، معتقداً أن ذلك الرزق ثمره حركته واجتهاده ، وكذلك ينبغى ألا يساء بفوات ما يفوته من المنافع لأنما نفسه في ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفساد الحيلة والاجتهاد ، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغى أن يُحمَل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لَكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(٢) .

من النظم الجيّد الروحانيّ في صفة الدنيا والتحذير منها ، والوصاء بترك الاغترار بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورده أبو حيّان في كتاب ” الإشارات الإلهيّة “ ، ولم يسمّ قائله :

دارُ الفجائعِ والهمومِ ودا	ر البثِّ والأحزانِ والبُلوى
مرُّ المذاقة غبٍّ ما احتلبتْ	منها يدّاك وُبَيَّةُ المرعى
بيننا الفتى منها بمنزلةٍ	إذ صار تحت ترابها ملقى
تقفو مساوئها محاسنها	لا شيء بين النعمى والبُشرى
ولقلّ يومٌ دَرَّ شارِقُه	إلا سمعتَ بهالكِ يُنمى
لا تعنَّ على الزّمان لما	يأتى به فلقمًا يرصى

(٢) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣ .

(١) الغب من الحمى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً .

للمرء رزقٌ لا يفوت ولو جَهد الخلائقُ دونَ أن يفنى
يا عامرَ الدنيا المعدَّة لها ماذا عملتَ لدارك الأخرى !
ومهدَّ الفرشَ الوطيئةَ لا تُفعلِ فراشَ الرقَّة الكبرى
لو قد دُعيتَ لقد أجبتَ لما تُدعى له فانظر متى تُدعى !
أتراك تُحصى كم رأيتَ من الـ أحياء ثم رأيتهم مَوْتى
مَنْ أصبحتَ دنياه همَّتْهُ فمتى ينالُ الغايةَ القُصوى !
سبحانَ من لا شيء يَعِدُّهُ كم من بصير قلبه أعمى !
والموتُ لا يخفى على أحدٍ مِمَّنْ أَرى وكأنه يخفى
والليلُ يذهبُ والنهارُ بأحبِّى ، وليس عليهما عدوى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضرب به ابن ملجم لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَتُحَمَّدُوا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَا تُضَيِّعُوا سَلَتَهُ ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ ، إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَى فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَاَلْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا : ﴿ أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ^(١) .

وَاللَّهُ مَا فَجَّأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدُ كَرِهَتُهُ ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ؛ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ ^(٢) .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْخُطْبِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكَرُّرَهُ .

الشرح :

فإن قلت : لقائل أن يقول : إذا أوصاهم بالتوحيد واتباع سنة النبي صلى الله عليه وآله

(٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

(١) سورة البور ٢٢ .

فلم يبقَ شيءٌ بعد ذلك يقول فيه : أقيموا هذين العمودين وخَلَاكم ذمٌّ ؛ لأنَّ سنَّة النبي صَلَّى الله عليه وآله فعلٌ كُلٌّ واجب . وتجنَّب كلَّ قبيح ؛ لخلاصهم ذمٌّ فماذا يقال ؟ والجواب أنَّ كثيرا من الصَّحابة كَانُوا أَنْفُسَهُمْ أَمْوَرًا مِنَ النَّوَافِلِ شَاقَّةً جَدًّا ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ، وَمِنْهُمْ الْمُرَابِطِيُّ الشُّغُور ، وَمِنْهُمْ الْمُجَاهِدُ مَعَ سِقُوطِ الْجِهَادِ عَنْهُ لِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ ، وَمِنْهُمْ تَارِكُ التَّكْلِاحِ ، وَمِنْهُمْ بَارِكُ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ ؛ وَكَانُوا يَتَفَاخَرُونَ بِذَلِكَ ، وَيَتَنَافَسُونَ فِيهِ ، فَأَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَبَيِّنَ لِأَهْلِهِ وَشِيعَتِهِ وَقْتَ الْوَصِيَّةِ أَنَّ الْمَهْمَّ الْأَعْظَمَ هُوَ التَّوْحِيدُ ، وَالْقِيَامُ بِمَا يُعْلَمُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ وَاجِبٌ ، وَلَا عَلَيْكُمْ بِالْإِخْلَالِ بِمَا عَدَا ذَلِكَ ، فَلَيْتَ مِنَ الْمِائَةِ وَاحِدًا نَهَضَ بِذَلِكَ ، وَالْمُرَادُ تَرْغِيهِمْ بِتَخْفِيفِ وَظَائِفِ التَّكَالِيفِ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ۝١٦ ﴾ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ! « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ » .

قوله : « وَخَلَاكم ذمٌّ » : لَفْظَةٌ نَقَالَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ أَلَى قَدْ أَعَذَرْتُمْ ، وَسَقَطَ عَنْكُمْ الذَّمُّ . ثُمَّ قَسَمَ أَيَّامَهُ الثَّلَاثَةَ أَقْسَامًا فَقَالَ : أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ أَى كُنْتُ أَرْجَى وَأَخَافُ ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، أَى عِظَةٌ تَعْتَبِرُونَ بِهَا . وَأَنَا غَدًا مَفَارِقُكُمْ ، أَى كُونُ فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ دَارِكُمْ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ إِنْ بَقِيَ وَلَمْ يَمُتْ مِنْ هَذِهِ الضَّرْبَةِ فَهُوَ وَلَى دَمِهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا ، وَإِنْ شَاءَ اقْتَصَصَ ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ فَالْفَنَاءُ الْمَوْعَدُ الَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ .

ثُمَّ عَادَ فَقَالَ : وَإِنْ أَعْفُ ، وَالتَّقْسِيمُ لَيْسَ عَلَى قَاعِدَةِ تَقْسِيمِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَالْمَعْنَى مِنْهُ مَعْنُومٌ ، وَهُوَ إِمَّا أَنْ أَسْلَمَ مِنْ هَذِهِ الضَّرْبَةِ أَوْ لَا أَسْلَمَ ، فَإِنْ سَامَتْ مِنْهَا فَأَنَا وَلَى دَمِي ؛ إِنْ شُلْتُ عَفُوتُ فَلَمْ أَقْتَصَصْ ، وَإِنْ شُلْتُ اقْتَصَصْتُ ، وَلَا يَعْنِي بِالْقَصَاصِ هَاهُنَا الْقَتْلُ ، بَلْ ضَرْبَةٌ بِضَرْبَةٍ ، فَإِنْ سَرَتْ إِلَى النَّفْسِ كَانَتْ السَّرَايَةُ مُهْدَرَةً كَقَطْعِ الْيَدِ .

ثم أَوْماً إلى أنه إن سلّم عفا بقوله : إن العفو لي إن عفوت قرّبة .
 ثم عدّنا إلى القسم الثاني من القسمين الأوّلين ، وهو أنه عليه السلام لا يسلم من هذه ؛
 فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتصّوا وإن شاءوا عفا .
 ثم أوماً إلى أنّ العفو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أمرهم أمراً
 صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . وهذا لفظ الكتاب
 العزيز ، وينبغي أن يكون أمره بالعفو في هذا الكلام محمولاً على الندب .
 ثم أقسم عليه السلام أنه ما نجّاه من الموت أمرٌ أنكره ولا كرهه ، فجأني الشيء :
 أتأني بغتةً .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقاربٍ ورَدَ » ، والقارب : الذي يسير إلى الماء وقد
 بقي بينه وبينه ليلة واحدة ، والاسم : القرب ، فهم قاربون ، ولا يقال « مقربون » ،
 وهو حرف شاذٌّ .

(٣٤)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ
لِيُوجِبَ لَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ .

الشرح :

قد عاتبت العثمانية وقالت : إنَّ أبا بكر مات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ، وإنَّ عليّاً عليه السلام مات وخلف عقاراً كثيراً - يعنون نخلاً - قيل لهم : قد علم كلُّ أحدٍ أنَّ عليّاً عليه السلام استخرج عيوناً بكدِّ يده بالمدينة ويذبح وسويعة ، وأحبها بها مواتاً كثيراً ، ثم أخرجها عن مملكته ، وتصدق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في مملكته ، ألا ترى إلى ما تتضمنه كُتُبُ السِّير والأخبار من منازعة زيد بن عليٍّ وعبدِ الله ابنِ الحسن في صدقاتِ عليٍّ عليه السلام ، ولم يُورث عليٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلا عبيده وإماءه وسبعائة درهم من عطائه ، تركها ليشتري بها خادماً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً ، على حسب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت المعاملة بالدرهم إذ ذاك ، وإنما لم يترك أبو بكر قليلاً ولا كثيراً لأنه ما عاش ، ولو عاش لترك ، ألا ترى أنَّ عمر أصدق أم كلثوم أربعين ألف درهم ، ودفعها إليها ، وذلك لأنَّ هؤلاء طالت أعمارهم ، فمنهم من درَّت عليه أخلاف التجارة ، ومنهم من كان يستعمر الأرض ويزرعها ، ومنهم من استفضل من رزقه من النِّع^(١) .

(١) النِّع : النِّعمة .

وفضّلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده ، ويحرث الأرض ويستقي الماء ويغرس النخل ، كلّ ذلك يباشره بنفسه الشريفة ، ولم يستبق منه لوقته ولا لعقبه قليلا ولا كثيرا ؛ وإنما كان صدقة ؛ وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وله ضياع كثيرة جليلة جدا بخيبر وذلك وبني النضير ، وكان له وادي نخلة وضياع أخرى كثيرة بالطائف ، فصارت بعد موته صدقة بالخبر الذي رواه أبو بكر . فإن كان على عليه السلام معيبا بضياعه ونخله فكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله إنما ترك ذلك صدقة فرسول الله صلى الله عليه وآله ما روى عنه الخبر في ذلك إلا واحد من المسلمين ، وعلى عليه السلام كان في حياته قد أثبت عند جميع المسلمين بالمدينة أنها صدقة ، فالتهمة إليه في هذا الباب أبعد . وروى : « ويُعطيني به الأمانة » ، وهي الأمن .

الأصل :

منها :

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بِأَكُلِ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَّثَ بِحَسَنِ حَدَّثَ وَحُسَيْنٌ حَتَّى ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ ؛ وَإِنْ لَا بَنَى فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لَبَنَى عَلِيٍّ .

وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنَتِي فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَفُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيمًا لِحُرْمَتِهِ ، وَتَشْرِيفًا لِمُصْلَمَتِهِ ، وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمَالَ عَلَى أَصُولِهِ ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهُدًى لَهُ ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهِ نَحِيلَ هَذِهِ الْقَرْىِ وَدِيَّةَ حَتَّى تُشَكَلَ أَرْضُهَا غِرَاسًا .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِىَ اللَّاتِى أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِىَ حَامِلٌ فَتُتَمَسَكَ عَلَى وَلَدِهَا وَهِىَ مِنْ حَفْظِهِ ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِىَ حَيَّةٌ فَهِىَ عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ .

قَالَ السَّيِّدُ الرَّضِىُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَحْلِهَا وَدِيَّةً » ، الْوَدِيَّةُ :
الْفَسِيلَةُ ، وَجَمْعُهَا وَدِئٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حَتَّى تُشَكِلَ أَرْضُهَا غِرَاسًا » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ،
وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ النَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا النَّاطِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ
الْصِّفَةِ الَّتِى عَرَفَهَا بِهَا ، فَيُشَكِّلُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسِبُهَا غَيْرَهَا .

الشُّنْخُ :

جَعَلَ الْحَسَنُ ابْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَايَةَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِ ، وَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ
بِالْمَعْرُوفِ ، أَيْ لَا يُسْرِفُ ، وَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ مَقْدَارَ الْحَاجَةِ ، وَمَا جَرَتْ بِمِثْلِهِ عَادَةٌ مِنْ
يَتَوَلَّى الصَّدَقَاتِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ^(١) .

ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ مَاتَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ بَعْدَهُ حَيًّا فَالْوَلَايَةُ لِلْحُسَيْنِ ، وَالْهَاءُ فِي « مَصْدَرِهِ »
تَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ ، أَيْ يَصْرِفُهُ فِي مَصَارِفِهِ الَّتِى كَانَ الْحَسَنُ يَصْرِفُهَا فِيهَا . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ هَٰذَيْنِ
الْوَلَدَيْنِ حَصَّةٌ مِنْ صَدَقَاتِهِ أَسْوَدَ بَسَائِرِ الْبَنِينَ ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ

(١) سورة التوبة ٦٠ .

نَهِمَا لَكُونَهُمَا قَدْ فَوَّضَ إِلَيْهِمَا النَّظْرُ فِي هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، قَدْ مُنِعَا أَنْ يُسْهِمَا فِيهَا شَيْءٌ ،
 وَإِنَّ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُهَا غَيْرُهُمَا مِنْ بَنِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّنْ لَا وَلَايَةَ لَهُ مَعَ وَجُودِهَا ،
 نَحْمُ بَيْنَ لِمَاذَا خَصَّهِمَا بِالْوَلَايَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِشَرَفِهَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَآلِهِ ، فَتَقَرَّبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنْ جَعَلْتُ لِسَبْطِيهِ هَذِهِ الرِّيَاسَةَ ،
 وَفِي هَذَا رَمَزٌ وَإِزَارَةٌ مِنْ صَرَفِ الْأَمْرِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مَعَ
 وَجُودِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْأَمْرِ ، أَيْ كَانَ الْأَلْيَقُ بِالْمُسْلِمِينَ وَالْأَوْلَى أَنْ يَجْعَلُوا الرِّيَاسَةَ بَعْدَهُ لِأَهْلِهِ
 قُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيمًا لِحُرْمَتِهِ ، وَطَاعَةً لَهُ ، وَأَنْفَةً لِقَدْرِهِ ، صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ تَكُونَ وَرَثَتُهُ سُوْقَةً ، يَلِيهِمُ الْأَجَانِبُ ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْ شَجَرَتِهِ
 وَأَصْلِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ هَيْبَةَ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ فِي صَدُورِ النَّاسِ أَكْبَرُ إِذَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالْحَاكِمُ
 فِي الْخَلْقِ مِنْ بَيْتِ النَّبُوَّةِ ؛ وَلَيْسَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذِهِ الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ لِلنَّبُوَّةِ إِذَا
 كَانَ السُّلْطَانُ الْأَكْبَرُ بَعِيدَ النَّسَبِ مِنْ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

ثُمَّ اشْتَرَطَ عَلَى مَنْ بَلَى هَذِهِ الْأَمْوَالَ أَنْ يَتْرَكَهَا عَلَى أَصُولِهَا ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرَتِهَا ، أَيْ
 لَا يَقْطَعُ النَّخْلَ وَالثَّمَرُ وَيَبِيعَهُ خَشَبًا وَعِيدَانًا ، فَيَفْضِي الْأَمْرَ إِلَى خَرَابِ الضِّيَاعِ وَعُطْلَةِ الْعَقَارِ .
 قَوْلُهُ : « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَى » أَيْ مِنَ الْفُسْلَانِ الصَّغَارِ ، سَمَّاهَا ،
 أَوْلَادًا ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ لَيْسَتْ « أَوْلَادُ » مَذْكُورَةً ، وَالْوَدِيَّةُ : الْفَيْسِيلَةُ .

تُشَكِّلُ أَرْضَهَا : تَمْتَلِي بِالْغِرَاسِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ طَرِيقَةٌ وَاضِحَةٌ .

قَوْلُهُ : « أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ » ، كُنَايَةً لَطِيفَةً عَنْ غُشْيَانِ النِّسَاءِ ، أَيْ مِنَ السَّرَارِيِّ ؛ وَكَانَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ يَذْهَبُ إِلَى حِلِّ بَيْعِ أُمَهَاتِ الْأَوْلَادِ ، فَقَالَ : مَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي لَهَا وَلَدٌ مَتَّى ؛
 أَوْ هِيَ حَامِلَةٌ مَتَّى وَقَسَمْتُ تَرْكْتِي فَلْتَكُنْ أُمُّ ذَلِكَ الْوَلَدِ مُبِيعَةً عَلَى ذَلِكَ الْوَلَدِ ، وَيُحَاسَبُ بِالْثَمَنِ
 مَنْ حَصَّنَتْهُ مِنَ التَّرَكَةِ ، فَإِذَا بَاعَتْ عَلَيْهِ عَتَقْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْوَلَدَ إِذَا اشْتَرَى الْوَالِدَ عَتَقَ الْوَالِدَ

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فُتَمَسَكَ عَلَى وَلَدِهَا » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ،
وهى من حظه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعها لأنها خرجت عن
البرق بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعها .

فإن قلت : فلماذا قال : فإن مات ولدها وهى حيّة ؟ وهلا قال : فإذا قُوتِ
عليه عتقت ؟

قلت : لأن موضع الاشتباه هو موتُ الولد وهى حيّة ، لأنه قد يظنُّ ظانٌّ أنه إنما
حرّم بيعها لمكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبيّن أنها قد صارت حرّة مطلقاً
سواء كان ولدها حيّاً أو ميتاً .

(٢٥)

الأضل

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وإنما ذكرنا هنا
جَمَلًا منها ليعلم بها أنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق ، ويشرع أمثلة العدل في صغير
الأمر وكبيرها ، ودقيقها وجليلها :

أُطْلِقَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا ، وَلَا تَجْتَازَنَّ
عَلَيْهِ كَارِهًا ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْخَلِيِّ
فَانْزِلْ بِمَا هُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ؛ حَتَّى
تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمْ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تُخْذِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ اللَّهِ ، أُرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ ،
لَا أَخْذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ
إِلَى وَلِيِّهِ !

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَأَنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
تُخَيِّفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تُعَسِّفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ
لَهُ مَا شِئْتَ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلُهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ
عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ .

وَلَا تُنْفِرَنَّ بِهَيْجَةٍ وَلَا تُفْرِغَنَّهَا ، وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا .
وَأَصْدَعْ أَلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ .
ثُمَّ أَصْدَعْ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ ؛ فَلَا تَزَالُ
كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَالَا لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ؛ فَأَقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ .

فَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلَّهُ ، ثُمَّ أَصْبَحَ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَزْدًا وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛ وَلَا تَأْمَنْنَ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيزًا ، غَيْرَ مُعْتَفٍ ، وَلَا مُجْجِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ .

ثُمَّ أَحْذَرُ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ ، نُصَيِّرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ إِلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصْلِيهَا ، وَلَا يَمْصُرُ لَتَبَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بَوْلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا ، وَلِيَعْدِلَ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلِيُرْفَهُ عَلَى اللَّاْغِبِ ، وَلِيَسْتَأْذِنَ بِالنَّقَبِ وَالظَّلَايِعِ ، وَلِيُورِدَهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدْرِ ، وَلَا يَعْدِلَ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ ، وَلِيُرْوِّحَهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلِيُمَهِّلَهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَغْصَابِ ، حَتَّى تَأْنِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بِدُنَا مُنْقِيَاتٍ ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مُجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْبَيْزُج :

وقد كرّر عليه السلام قوله : « لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ »

في ثلاثة مواضع من هذا الفصل :

الأول قوله : « حتى يوصله إلى وليّهم لِيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ » .

الثاني قوله عليه السلام : « نُصَيِّرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » .

الثالث قوله : « لَنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ » ، والبلاغة لا تقتضى ذلك ، ولكنى أضنه أحب أن يختلط ، وأن يدفع الظنَّة^(١) عن نفسه ، فإن الزمان كان في عهده قد فسد ، وساءت ظنونُ الناس ، لاسيما مع ما رآه من عثمان واستثنائه بمالِ النِّعَةِ .

ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تَقْوَى اللَّهِ » ، « عَلَى » ليست متعلّقة بـ « انطلق » ، بل بمحذوف ، تقديره : مواظبًا .

قوله : « وَلَا تُرْوَعَنَّ » أى لَا تُفَرِّغَنَّ ، والرَّوْعُ الفزع ، رُعته أروعُه ، وَلَا تُرْوَعَنَّ بتشديد الواو وضمَّ حَرَفِ المضارعة ، من رَوَّعت للتكثير .

قوله عليه السلام : « وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارَهَا » ، أى لَا تَمُرَنَّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرُورَكَ . ورُوى : « وَلَا تَخْتَارَنَّ عَلَيْهِ » ، أى لَا تَقْسِمَ مَالَهُ وَتَخْتَرُ أَحَدَ الْقِسْمَيْنِ ، والهاءُ في « عَلَيْهِ » ترجع إلى « مُسَامًا » وتفسير هذا سيأتى فى وصيته له أن يَصْدَعَ الْمَالَ ثُمَّ يَصْدَعَهُ ، فهذا هو النِّهْيُ عَنْ أَنْ يَخْتَارَ عَلَى الْمِسْلِمِ . والرواية الأولى هى المشهورة .

قوله عليه السلام : « فَأَنْزِلْ بِمَائِهِمْ » ، وذلك لأنَّ الغريبَ يُحَمَّدُ مِنْهُ الانقباض ، وَيُسْتَهْجَنُ فِي الْقَادِمِ أَنْ يُخَالِطَ بِيوتَ الْحَيِّ الَّذِي قَدِمَ عَلَيْهِ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ لَا تَلِيْقُ رُؤْيَاهُ ، وَلَا يَحْسُنُ سَمَاعُ صَوْتِهِ ، وَمِنْ الْأَطْفَالِ مِنْ يَسْتَهْجِنُ أَنْ يَرَى الْغَرِيبَ أَنْبَسَاطَهُ عَلَى أَبْوَيْهِ وَأَهْلِهِ ، وَقَدْ يَكْرَهُ الْقَوْمُ أَنْ يَطْلُعَ الْغَرِيبُ عَلَى مَا كَلِمَهُمْ وَمَشْرَبَهُمْ وَمَلْبَسَهُمْ وَبَوَاطِنَ أَحْوَالِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُونَ فَقَرَاءَ فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْرِفَ فَقَرَاهُمْ فَيَحْتَقِرَهُمْ ، أَوْ أَغْنِيَاءَ أَرْبَابَ ثَرَوَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْلَمَ الْغَرِيبُ ثَرَوَتَهُمْ فَيَحْسُدَهُمْ ، ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَمْضِيَ إِلَيْهِمْ غَيْرَ مُتَسَرِّعٍ وَلَا عَجَلٍ وَلَا طَائِشٍ نَزِقٍ ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَهُمْ فَيَسْلُمَ عَلَيْهِمْ

(١) : الضنة النهمة .

ويحييهم تحيةً كاملة ، غير مخدجة ، أى غير ناقصة ، أخذجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة ، وخدجت : ألفت الولد قبل تمام أيامه . وروى : « ولا تُخدج بالتحية » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حق لله تعالى ؟ يعنى الزكاة ، فإن قالوا : لا ، فلينصرف عنهم ، لأن القول قول رب المال ، فله قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدق إليه .

قوله : « وأنعم لك » ، أى قال : نعم .

ولا تعسفنه ، أى لا تطلب منه الصدقة عسفاً ، وأصله الأخذ على غير الطريق . ولا ترهقه : لا تكلفه العسر والمشقة .

ثم أمره أن يقبض ما يدفع إليه من الذهب والفضة ، وهذا يدل على أن المصدق كان يأخذ العين والورق كما يأخذ الماشية ، وأن النصاب فى العين والورق ندفع زكاته إلى الإمام ونوابه ، وفى هذه المسألة اختلاف بين الفقهاء .

قوله : « فإن أكرها له » : كلام لا مزيد عليه فى الفصاحة والرياسة والدِّين ، وذلك لأن الصدقة المستحقة جزء يسير من النصاب ، والشريك إذا كان له الأكثر حرّم عليه أن يدخل ويتصرف إلا بإذن شريكه ، فكيف إذا كان له الأقل .

قوله : « فلا تدخلها دخول متسلط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طبع الولاة ، وخصوصاً من يتولى قبض الماشية من أربابها على وجه الصدقة ، فإنهم يدخلونها دخول متسلط حاكم قاهر ، ولا يبقى لرب المال فيها تصرف ، فهى عليه السلام عن مثل ذلك .

قوله : « ولا تنفّرن بهيمةً ، ولا تُفرّعنّها » ، وذلك أنّهم على عادة السوء يَهْجُون^(١) بالقطيع حتى تنفر الإبل ، وكذلك بالشاء إظهارا للقوّة والقهر ، وليتمكن أعوانهم من اختيار الجيّد ، ورَفَض الرديء .

قوله : « ولا تسوئن صاحبها فيها » أى لا تعمّوه ولا تُخزّوه ، يقال : سوّته في كذا سوائيةً ومَسائيةً .

قوله : « واصدّع المال صدعين وخيّره » ، أى شقّه نصفين ثم خيّره ، فإذا اختار أحد النصفين فلا تعرّضنّ لما اختار ، ثم اصدّع النصف الذي ما ارتضاه لنفسه صدعين وخيّره ، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقيّ من المال بمقدار الحقّ الذي عليه ، فاقبضه منه ، فإن استقالك فأقلّه ، ثم اخلط المال ، ثم عدّ لمثل ما صنعت حتى يرضى ، وينبغي أن يكون المعيبات الخمس وهى الملهوسة ، المكسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قِسْمته ثم يقسم وإلا فربّما وقعت في سهم المصدّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة .

والعود : المّسنّ من الإبل ، والهرمة : المّسنة أيضاً ، والمكسورة : التي أخذ قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والملهوسة : المريضة قد هلكسها المرض وأفنى لحمها ، والهلاس : السّل . والعوار : بفتح العين : العيب ، وقد جاء بالضم .

والمعنّف : ذو العنف بالضم وهو ضدّ الرّفق . والميجّيف : الذى يسوق المال سوقا عنيفا فيجحف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونقيّه^(٢) .

والمُغلب : المُتعب ، واللّغوب : الإعياء .

وحَدَرَتُ السفينة وغيرها — بغير ألف أحدُرُها بالضم .

(١) يقال : هجج بالسبع : صاح به ، وبالجل زجره .

(٢) النقي ، بكسر النون وسكوت القاف : المخ .

قوله : « بين ناقة وبين فضيلها » الأفصح حذف بين الثانية ؛ لأنّ الاسمين ظاهران ،
ولأنّ تكرّر إذا جاءت بعد المضمّر ، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرو ، وذلك
لأنّ الجرور لا يُعطف عليه إلاّ بإعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المالُ بين
زيدٍ وعمرو ، وأنشدوا :

بين السحاب وبين الرّيح ملامّةٌ قعاقعٌ وظبّيّ الجوّ تحترط^(١)
وأيضاً :

بين النّدى وبين برقة ضاحكٍ غيثٌ الضّريكِ وفارسٌ مقدّم^(٢)
ومن شعر الحماسة :
وإنّ الذي يديني وبين بنى أبنى . وبين بنى عمى لخلفٌ جدّا^(٣)

وايس قولٌ من يقول : إنه عطف بين الثالثة على المضمير الجرور بأولى من قول
من يقول : بل عطف بين الثالثة على بين الثانية ، لأنّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تمضّر لبنها » ، المضر حَلَب مافى الضرع جميعه ، نهاء من أن
يحبّ اللبن كلّهُ فيبقى الفصيلُ جائعاً ؛ ثمّ نهاء أن يُجهدّها ركوباً ، أى يُتعبها ويحمّلها
مشقّةً ؛ ثمّ أمره أن يعدّل بين الركاب في ذلك ، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها ،
ليكون ذلك أرواحاً لمنّ ، ليرفّه على اللاغب ، أى ليقهّره ولتُعفّ عن الركوب ليستريح .
والرفاهيّة : الدّعة والراحة .

والنّقب : ذو النّقب ، وهو رقّة خفّ البعير حتى تكاد الأرضُ تجرحه : أمره أن
يستأنّى بالبعير ذى النّقب ، من الأناة ، وهى المُهلة .

(١) الملحة : الحرب ، والقعاقع : حكاية أصوات الترسة في الحرب . والظبّي : جمع ظبّة ، وهو حديد السيف .

(٢) برقة ضاحك : موضع بعينه . (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، والبيت للمقعن الكندي .

والظالم : الذى ظَلَمَ ، أى غَمَزَ فى مَشْيِهِ .
 والغُدُرُ : جمع غدير الماء . وجوَادُ الطريق : حيث لا يَنْبُت المرعى .
 والنُّطَافُ : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القليل .
 والبُذْنُ بالتشديد : السَّمان ، واحدها بادن .
 ومُنَقِيَّاتُ : ذواتُ نَقْيٍ ، وهو المُنَخَّ فى العَظْمِ ، والشَّحْمُ فى العَيْنِ من السَّمنِ ، وأَنْقَتَ
 الإبلُ وغيرُها : سَمَنَتْ وصارَ فيها نَقْيٌ ، وناقاة مُنَقِيَّةٌ ، وهذه الناقاة لا تُنْقِي .

(٢٦)

الأضل :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بمته على الصدقة :

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَاشَاهِدَ غَيْرُهُ ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتُهُ ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْبِهُهُمْ ، وَلَا يَعْصِيَهُمْ ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ .

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصيباً مَفْرُوضاً ، وَحَقّاً مَعْلوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلِ مَسْكِنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ .

وَإِنَّا مُوفُونَكَ حَقَّكَ ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصَّمَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَالسَّائِلُونَ

وَالْمَدْفُوعُونَ ، وَالْفَارِغُونَ وَأَبْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ ، وَلَمْ يُبْزَهِ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا ، فَقَدْ أَحْلَلَ بِنَفْسِهِ الدَّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ الْغَيْشِ غَيْشُ الْأُمَّةِ . وَالسَّلَامُ .

الشنخ:

حيث لا شهيد ولا وكيل دونه ، يعنى يوم القيامة .
قوله : « ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر » ، أى لا يُنافق فيعمل الطاعة فى الظاهر .
والمعصية فى الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتجنبون النفاق والرياء هم المُخلصون .
وألا يحبهمهم : لا يواجههم بما يكرهونه ، وأصل الجبه لقاء الجبهة أو ضربةها ،
فلما كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالضارب جبهته به سُمى بذلك جبهها .
قوله : « ولا يعصهمهم » : أى لا يطيعهم بالبُهتان والكذب ، وهى العصية ،
وعصيت فلانا عصها ، وقد عصيت يافلان ، أى جئت بالبُهتان .
قوله : « ولا يرغب عنهم تفضلا » ، يقول : لا يحقرهم ادعاء لفضله عليهم ، وتميزه
عنهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغب عن القوم ، أى يأنف من الانتماء إليهم ، أو من
المخالطة لهم .

وكان عمر بن عبد العزيز يدخل إليه سالم مولى بنى مخروم وعمر في صدر بيته فيدعى
عن الصّدر ، وكان سالم رجلا صالحا ، وكان عمر أراد شرائه وعتقه ، فأعتقه مواليه ؛ فكان
يسميه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أنت تحبى لسالم ! فقال : إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه
فضلا فلا تأخذ عليه شرف المجلس . وهم السراج ليلة بأن يحمّد ، فوَبَّ إلى رجاء بن حيوة
ليُصلحه ، فأقسم عليه عمر بن عبد العزيز ، فجلس ، ثم قام عمر فأصاحه ، فقال له رجاء : أتقوم
أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، فمت وأما عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن
عبد العزيز .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « لا تَرْفَعُونِي فَوْقَ قَدْرِي فَتَقُولُوا فِيَّ »
ما قالت النصارى في ابن مريم ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي
رَسُولًا .

ثم قال : إنَّ أَرْبابَ الْأَمْوَالِ الَّذِينَ تَجِبُ الصَّدَقَةُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ إِخْوَانُكَ فِي الدِّينِ ،
وَأَعْوَانُكَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِنَّمَا يُمْكِنُ الْعَامِلُ اسْتِيفَاؤُهُ بِمَعَاوَنَةِ رَبِّ الْمَالِ
واعترافه به ، ودفعه إليه ، فإذا كانوا بهذه الصِّفَةِ لم يُحْزَ لَكَ عَضُّهُمْ وَجَبُّهُمْ وادِّعَاءُ
الْفَضْلِ عَلَيْهِمْ .

ثم ذكر أنَّ لهذا العامل نصيباً مفروضاً من الصدقة ، وذلك بنصِّ الكتاب العزيز ؛
فكما نُوَفِّيكَ نَحْنُ حَقَّكَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُوفِّيَ شُرَكَاءَكَ حَقُّوْقَهُمْ ، وهم الفقراء والمساكين
والغارمون وسائرُ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ ، وهذا يدلُّ على أنَّه عليه السلام قد فَوَّضَهُ
فِي صَرْفِ الصَّدَقَاتِ إِلَى الْأَصْنَافِ الْمَعْلُومَةِ ، ولم يأمره بأن يحمل ما اجتمع إليه ليوزَّعه هو
عليه السلام على مستحقيه كما في الوصية الأولى ، ويجوز للإمام أن يتولَّى ذلك بنفسه ، وأن
يَكِلَهُ إِلَى مَنْ يَثِقُ بِهِ مِنْ عَمَّالِهِ .

وانتصب « أَهْلَ مَسْكَنَةٍ » لِأَنَّهُ صِفَةٌ « شُرَكَاء » ، وفي التَّحْقِيقِ أَنَّ « شُرَكَاءَ » صِفَةٌ
أَيْضًا مَوْصُوفُهَا مَحْذُوفٌ ، فيكون صِفَةً بَعْدَ صِفَةٍ .

وقال الراوندي : انتصب « أَهْلَ مَسْكَنَةٍ » لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ « شُرَكَاءَ » ، وهذا غلط ،
لأنَّه لَا يُعْطَى مَعْنَاهُ لِيَكُونَ بَدَلًا مِنْهُ .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدة ، فظنَّه مَنَوَّنًا وليس كذلك ، بل هو بُؤْسَى عَلَى
وِزْنِ « فُعْلَى » كَفُضِّلَى وَنُعِمَى ، وهى لفظة مؤنثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياته ولا عيش إلا ما حباكَ به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرقاب المذكورون في الآية ، وهم المسكاتون يتعذر عليهم أداء مال الكتابة ، فيسألون الناس ليتخلصوا من ربة الرق . وقيل : هم الأسارى يطلبون فكاً أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرقاب في الآية الرقيق ، يسأل أن يبناعه الأغنياء فيعتقوه . والمدفوعون هاهنا هم الذين عنامهم الله تعالى في الآية بقوله : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ ^(١) ، وهم فقراء الغزاة ، سأمهم مدفوعين لفقرهم . والمدفوع والمدفع : الفقير ، لأن كل أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه . وقيل : هم الحجيج المنقطع بهم ، سأمهم مدفوعين لأنهم دفعوا عن إتمام حجهم ، أو دفعوا عن العود إلى أهلهم .

فإن قلت : لم حلت كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما فسرت به ؟ قلت : لأنه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية ، فترك ذكر المؤلفات لقلوبهم لأن سأمهم سقط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يدفع إليهم حين الإسلام ضعيف ، وقد أعزّه الله سبحانه ، فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين ، وبقيت سبعة أصناف ، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل .

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله : « وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً » ، فبقيت ستة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها ، وهي : الفقراء ، والمساكين ، والغارم ، وابن السبيل ، وأبدل لفظتين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلت : ما يقوله الفقهاء في الصدقات ؟ هل تصرف إلى الأصناف كلها أم يجوز صرفها إلى واحد منها ؟

(١) سورة التوبة ٦٠ .

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة فهي مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إنما هي لهم لا لغيرهم ، كقولك : إنما الخلافة لقريش ، فيجوز أن تصرف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرف إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعة من الصحابة والتابعين . وأما الشافعي فلا يرى صرفها إلا إلى الأصناف المعدودة كلها ، وبه قال الزهري وعكرمة .

فإن قلت : فمن الغارم وابن السبيل ؟

قلت : الغارمون الذين ركبهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب . وقيل : هم الذين يعملون الحمايلات فدينوا فيها وغرموا ، وابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، فهو - وإن كان غنيا حيث مأله موجود - فقير حيث هو بعيد .

وقد سبق تفسير الفقير والمسكين فيما تقدم .

قوله : « فقد أحل بنفسه الذل والخزي » ، أى جعل نفسه محلا لها ، ويروى : « فقد أحل بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذل والخزي أى جعل نفسه محلا ، ومعناه جعل نفسه فقيرا ، يقال : خل الرجل : إذا افتقر ، وأحل به غيره ، وبغيره أى جعل ، غيره فقيرا ، وروى : « أحل » بنفسه بالخاء المهملة ، ولم يذكر « الذل والخزي » . ومعنى « أحل بنفسه » أباح دمه ، والرواية الأولى أصح ، لأنه قال بعدها : « وهو في الآخرة أذل وأخزى » .

وخيانة الأمة : مصدر مضاف إلى المفعول به ، لأن الساعى إذا خان فقد خان الأمة كلها ؛ وكذلك غش الأمة ، مصدر مضاف إلى المفعول أيضا ؛ لأن الساعى إذا غش في الصدقة فقد غش الإمام .

(٢٧)

الأنزل :

ومن عهدله عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر - رضى الله عنه - حين قلده مصر :

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَأَبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّاحِظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظْمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ ، وَلَا يَنَاسَ الضَّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتُورَةِ ، فَإِنْ يَعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ ؛ وَإِنْ يَغْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكُهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سَكِنَتْ ، وَأَكَلُوا بِأَفْضَلِ مَا أَكَلَتْ ، فَحَظُّوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظَّى بِهِ الْمُتَرَفُّونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَّارَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ ؛ وَالتَّجَرَّ الرَّاسِخُ ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنََّّهُمْ حَبْرَانِ اللَّهُ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ ، لَا تَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً ، وَلَا يَنْقُضُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ لَذَّةِ .

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا ؛ أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا ، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا !

وَأَنْتُمْ طَرَدْتُمُ الْمَوْتَ ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مُعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ؛ وَالدُّنْيَا تُطَوَّى مِنْ خَلْفِكُمْ .

فَاخْذَرُوا نَارًا قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تَسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةً ، وَلَا تُفَرِّجُ فِيهَا كُرْبَةً .

وَإِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنْ اللَّهِ ، وَأَنْ يَحْسَنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حَسُنُ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ عَلَى قَدَرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ .

وَأَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَدَى بَكْرٍ ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ ، فَأَنْتَ مُحَقَّقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَا تُسَخِّطَ اللَّهُ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ؛ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْقًا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ .

صَلِّ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا الْمَوْقِتِ لَهَا ، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتُهَا لِفَرَاغٍ ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ .

الشرح :

آسِ يَنْبَهُمْ : اجْعَلْهُمْ أُسْوَةً ، لَا تَفْضَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَنَبِّهِ بِذَلِكَ عَلَى وَجوبِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أُسْوَةً فِي جَمِيعِ مَاعِدَا ذَلِكَ ، مِنَ الْعَطَاءِ وَالْإِنْعَامِ وَالتَّقْرِيبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ ﴾ ^(١) .

قوله : « حتى لا يطمع العظماء في حَيْفِكَ لَهُمْ » ، الضمير في « لَهُمْ » راجعٌ إلى الرعيّة لا إلى العظماء ، وقد كان سبق ذكرهم في أوّل الخطبة ، أَيْ إِذَا سَلَكَتَ هَذَا الْمَسْلَكَ لَمْ يَطْمَعِ الْعِظَمَاءُ فِي أَنْ تَحِيفَ عَلَى الرعيّة وتظاهروا وتدفّعوا أمواهم إليهم ، فَإِنَّ وُلاةَ الْجُورِ

(١) سورة الإسراء ٢٣ .

هكذا يفعلون ، يأخذون مال هذا فيعطونه هذا . ويجوز أن يرجع الضمير إلى العطاء ، أى حتى لا يطمع العطاء في جورك في القسم الذى إنما تفعله لهم ولأجلهم ، فإنّ ولاية الجور يطمع العطاء فيهم أن يحيفوا في القسمة في الفئء ، ويخالفوا ما حده الله تعالى فيها ، حفظا لقلوبهم ، واستماله لهم ، وهذا التفسير أليق بالخطابة ؛ لأنّ الضمير في « عليهم » في الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء ؛ فيجب أن يكون الضمير في « لهم » في الفقرة الثانية عائداً إلى العطاء .

قوله : « فإن يعذب فأنتم أضلم » أفعّل هاهنا بمعنى الصّفة ، لا بمعنى التفضيل ، وإنما يراد فأنتم الظالمون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) . وكقولهم : الله أكبر . ثم ذكر حال الزّهاد فقال : أخذوا من الدنيا بنصيب قوى ، وجعلت لهم الآخرة ؛ ويروى أنّ الفضيل بن عياض كان هو ورفيق له في بعض الصحارى ، فأكلا كسرة يابسة ، واغترفا بأيديهما ماء من بعض العُدران ، وقام الفضيل فخطّ رجله في الماء ، فوجد برّده ، فالتذّب به وبالحال التي هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوكُ وأبناء الملوكِ ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا .

وروى : « والمتجّر المريح » ، فالرّابح فاعلٌ من ربح ربحاً ، يقال : يبيعُ رابح أى يُربح فيه ، والمربح : اسم فاعل قد عدّى ماضيه بالهمزة ، كقولك : قام وأقمتُه .

قوله : « جيرانُ الله عداءٌ في آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد ، لأنّ البارئ تعالى ليس في مكان وجهه ليكنوا جيرانه ، ولكن لما كان الجار يُكرم جاره سمّاه جيران الله ، لإكرامه إياهم ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت في السّماء والعرش هو السماء العليا ، كان في الكلام محذوف مقدّر ، أى جيرانُ عرش الله غداً .

قوله : « فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخُطْبٍ جَلِيلٍ ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا وَشَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا » ، نَصْرٌ صَرِيحٌ فِي مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا فِي الْوَعِيدِ ، وَأَنَّ مِنْ دَخَلَ النَّارَ مِنْ جَمِيعِ الْمَكْلُفِينَ فَلَيْسَ بِخَارِجٍ ، لِأَنَّهُ لَوْ خَرَجَ مِنْهَا لَكَانَ الْمَوْتُ قَدْ جَاءَهُ بِشَرٍّ مَعَهُ خَيْرٌ ، وَقَدْ تَنَقَّى نَفِيًّا عَامًّا أَنْ يَكُونَ مَعَ الشَّرِّ الْمَعْقَبِ لِلْمَوْتِ خَيْرٌ أَلْبَتَّةَ .

قوله : « مِنْ عَامِلِهَا » ، أَيُّ مِنَ الْعَامِلِ لَهَا .

قوله : « طُرْدَاءُ الْمَوْتِ » ، جَمْعُ طَرِيدٍ ، أَيُّ يَطْرُدُكُمْ عَنْ أَوْطَانِكُمْ وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا ، لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ ، إِنْ أَقْتَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ هَرَبْتُمْ أَدْرَكَكُمْ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : طُرْدَاءُ هَاهُنَا : جَمْعُ طَرِيدَةٍ وَهِيَ مَاطَرْدَةٌ مِنَ الصَّيْدِ أَوْ الْوَسِيقَةِ^(١) ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّ « فَعِيلَةً » بِالتَّأْنِيثِ لَا تُجْمَعُ عَلَى فِعْلَاءٍ . وَقَالَ النُّحَوِيُّونَ : إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾^(٢) جَاءَ عَلَى « خَلِيفٍ » لَا عَلَى « خَلِيفَةٍ » ، وَأَنشَدُوا لَأَوْسَ بْنِ حَبَرٍ بَيْتًا ، اسْتَعْمَلَهَا جَمِيعًا فِيهِ ، وَهُوَ :

إِنْ مِنَ الْقَوْمِ مَوْجُودًا خَلِيفَتُهُ وَمَا خَلِيفُ أَبِي كَيْلَى بِمَوْجُودٍ^(٣)

قوله : « أَلَزَمَ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ » ، لِأَنَّ الظِّلَّ لَا تَصِحُّ مَفَارَقَتُهُ لِذِي الظِّلِّ مَا دَامَ فِي الشَّمْسِ ، وَهَذَا مِنَ الْأَمْثَالِ الْمَشْهُورَةِ .

قوله : « مَعْقُودٌ بَنَوَاصِيكُمْ » ، أَيُّ مَلَاذِمُكُمْ ، كَالشَّيْءِ الْمَعْقُودِ بِنَاصِيَةِ الْإِنْسَانِ أَيْنَ ذَهَبَ ذَهَبَ مَعَهُ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : أَيُّ الْمَوْتِ غَالِبٌ عَلَيْكُمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾^(٤) ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُخِذَ بِنَاصِيَتِهِ لَا يُمْكِنُ الْخِلَاصُ ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : « أَخَذَ بَنَوَاصِيكُمْ » .

قوله : « وَالْدُنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ » مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : الْمَوْتُ وَالنَّاسُ كَسُطُورٍ

(١) الْوَسِيقَةُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ الْإِبِلِ ، إِذَا سَوَّقَتْ طَرِدَتْ مَعًا .

(٢) سُورَةُ النَّملِ ٦٢ .

(٣) دِيَوَانُهُ ٢٥ ، وَرَوَاتُهُ : « وَمَا خَلِيفُ أَبِي وَهَبٍ » .

(٤) سُورَةُ الرَّحْمَنِ ٤١ .

في صحيفة يقرأها قارئٌ ويَطْوِي ما يقرأ ، فكلما ظهر سطرٌ خفي سطر .

ثم أمره عليه السلام بأن يجمع بين حُسن الظن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مقامٌ جليل لا يصل إليه إلا كلُّ ضامرٍ مهزول ، وقد تقدّم كلامنا فيه . وقال علي بن الحسين عليه السلام : لو أنزل الله عزَّ وجلَّ كتاباً أنه معذَّب رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه ، وأنه راحمٌ رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه ، أو أنه معذَّبٍ لاحتالة ما زدتُ إلا اجتهداً ثلثاً أرجع إلى نفسي بلائمة .

ثم قال : « وَلَيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي » ، يقال للأقاليم والأطراف : أجناد ، تقول : وَلِيَ جُنْدَ الشَّامِ ، وَلِيَ جُنْدَ الْأَرْدُنِّ ، وَلِيَ جُنْدَ مِصْرَ .

قوله : « فَأَنْتَ مُحَقَّقٌ » ، كقولك حَقِيقٌ وَجَدِيرٌ وَخَلِيقٌ ، قال الشاعر :

وإني لمحقونٌ بالآلِ يطولني نداءهُ إذا طاولته بالقصائدِ

وتُنافِح : تُجَالِد ، ناخِطٌ بالسيف أي خاضعتُ به .

قوله : « ولو لم يكن إلا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوصاة عليه أن يخالف على نفسه ، وألا يتبع هواها ، وأن يُخاصِمَ عن دينه ، وأن ذلك لازمٌ له ، وواجبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليُفعله ولو ساعة من النهار ، وينبغي أن يكون هذا التقييد مصروفاً إلى المناخة عن الدين ، لأن الخصامَ في الدين قد يمتنع عنه مانع ، فأما أمره إياه أن يخالف على نفسه فلا يجوز صرفُ التقييد إليه ، لأنه يُشعر بأنه مفسوخٌ له أن يتبع هَوَى نفسه في بعض الحالات ، وذلك غيرُ جائز ، بخلاف المخاصمة والنضال عن المعتقد .

قال : « وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْقاً مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ » ، أَخَذَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فَقَالَ لِعَمْرِ بْنِ هُبَيْرَةَ

أمير العراق : إن الله مانعك من يزيد ، ولم يمنعهك يزيد من الله - يعنى يزيد بن عبد الملك .

ثم أمره بأن يصلى الصلاة لوقتها ؛ أى فى وقتها ، ونهاه أن يحمله الفراغ من الشغل على أن يعجلها قبل وقتها ، فإنها تكون غير مقبولة ، أو أن يحمله الشغل على تأخيرها عن وقتها فبإثم .

ومن كلام هشام بن عتبة أخى ذى الرئمة - وكان من عقلاء الرجال - قال المبرد فى الكامل : حدثنى العباس بن الفرج الرياشى بإسناده ، قال هشام لرجل أراد سفرا : أعلم أن لكل رُفقة كُلبا يشرّ بهم فى فضل الزاد ، ويهرّ دونهم ، فإن قدرت ألا تكون كلب الرُفقة فأفعل ، وإيتاك وتأخير الصلاة عن وقتها ، فإنك مُصليها لاحتالة ، فصلّها وهى تُقبل منك (٢) .

قوله : « واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك » ، فيه شبهة من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصلاة عماد الإيمان ، ومن تركها فقد هدم الإيمان » . وقال صلى الله عليه وآله : « أول ما يحاسب به العبد صلاته ، فإن سهل عليه كان مابعد أسهل ، وإن اشتد عليه كان مابعد أشد » .

ومثل قوله : « ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه » ، مارواه المبرد فى " الكامل " ، عن عائشة قالت : من أَرْضَى الله بِإِسْخَاطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِإِسْخَاطِ اللَّهِ وَكَذَلَّهِ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ .

ومثل هذا مارواه المبرد أيضا قال : لما وُلِّيَ الحُسَيْنُ بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هرمة : إني لست كمن باع لك دينه رجاء مدحك ، أو خوف ذمك ، فقد رزقنى (٣)

(١) الكامل : « بإسناده » .

(٢) الكامل ١ : ٢٦٢ .

(٣) الكامل : قد أفادنى الله بولادة نبيه المادح » .

الله عزّ وجلّ بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله المادح ، وجبّني المباح ، وإنّ من حقّه على
ألا أغضّي على تقصير في حقّ الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أنيت بك سكران لأضربك حدّاً
للخمر ، وحدّاً للشكر ، ولأزيدنّ لموضع حرّمتك بي ، فليكن نركك لها لله عزّ وجلّ
نُعْن^(١) عليه ، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم ، فقال ابن هرمة^(٢) :

نهاني ابنُ الرسولِ عن المُدامِ وأدبني بآدابِ الكرامِ
وقال لي اصطبرْ عنها ودّعها خلوفِ الله لا خوفِ الأنامِ
وكيف تصوّري عنها وحبي لها حبٌّ تمكّن في عظامي !
أرى طيبَ الحلالِ على خُبنا وطيبَ النفسِ في خُبثِ الحرامِ^(٣)

(١) كذا في الكامل ، وفي ب : « تعز » .

(٢) الكامل : « فنهض ابن هرمة وهو يقول » .

(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأُخْلُ:

ومن هذا العهد :

فإنَّهُ لَا سَوَاءَ ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ ؛ وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِشِرْكِهِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقٍ الْجَنَانِ ، عَالِمِ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ .

الشرح :

الإشارة بإمام الهدى إليه نفسه ، وبإمام الردى إلى معاوية ، وسماه إماما ، كما سمي الله تعالى أهل الضلال أئمة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ ^(١) ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدو النبي صلى الله عليه وآله ليس يعني بذلك أنه كان عدوا أيام حرب النبي صلى الله عليه وآله لقريش ، بل يريد أنه الآن عدو النبي صلى الله عليه وآله ، لقوله صلى الله عليه وآله له عليه السلام : « وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله » . وأول الخبر : « وليك ولي ، وولي ولي الله » ، وتماؤه مشهور ، ولأن دلائل النفاق كانت ظاهرة عليه من فلتات لسانه ومن أفعاله ، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، فلتطلب من كتبهم ، خصوصا

من كُتِبَ شيخنا أبي عبد الله ، ومن كنب الشيخين أبي جعفر الإسكافي ، وأبي القاسم البجلي ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم .

ثم قال عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إني لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا » أي ولا مشركا يظهر الشرك ، قال : لأن المؤمن يمنعه الله بإيمانه أن يُضِلَّ الناس . والمشرك مُظْهِرُ الشُّرْكِ ، يَقْمَعُهُ اللهُ بِإِظْهَارِ شُرْكَهِ وَيَحْذُلُهُ ، وَيَصْرِفُ قُلُوبَ النَّاسِ عَنْ اتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْهُ لِإِظْهَارِهِ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، فَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَسْكُنُ نَفُوسُهُمْ إِلَى مَقَالَتِهِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْمُنَافِقَ الَّذِي يُسِرُّ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ ، وَيُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَالْأَفْعَالَ الصَّالِحَةَ ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ ذَا لِسَنٍّ وَفَصَاحَةٍ ، يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا تَعْرِفُونَ صَوَابَهُ ، وَيَفْعَلُ سِرًّا مَا تُنْكِرُونَهِ لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَيْهِ ، وَذَاكَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ تَسْكُنُ نَفُوسُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ فَيَقْلِدُهُ النَّاسُ ؛ فَيُضِلُّهُمْ وَيُوقِعُهُمْ فِي الْمَفَاسِدِ .

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذي كنبه المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بن سليمان ، وأنا أذكره مختصرا من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

قال أبو جعفر : وفي ^(١) هذه السنة عَرَّمَ المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس ، ، نفوذه عبيد الله بن سليمان اضطراب العامة ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٦٤ وما بعدها .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أوّل شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدّم^(١) إلى العامة بلزوم أفعالهم ، وترك الاجتماع والعصبية^(٢) ، والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا^(٣) ، ومنع^(٤) القصاص عن القعود على الطرقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت بالجانبين من مدينة السلام في الأربعاء والحال والأسواق يوم الأربعاء لستين بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصاص من القعود في الجانبين ، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين ، ونودي في المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره ومنع القصاص وأهل الحلق من القعود ، ونودي : إنّ الذمة قد برئت ممن اجتمع من الناس في مناظرة أو جدال ، وتقدّم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترجّحوا على معاوية ، ولا يذكروه [بخير]^(٥) ، وكانت عادتهم جارية بالترحم عليه ، وتحدث الناس أنّ الكتاب الذى قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فلما صلى الناس بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يُقرأ : وقيل : إن عبيد الله بن سليمان صرفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي ، وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتضد عليه ، فمضى يوسف فكلم المعتضد في ذلك ، وقال له : إني أخاف أن تضطرب العامة ، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحرّكت العامة أو انطقت وضعتُ السيف فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون في كل ناحية ، ويميل إليهم خلق كثير ، لقربتهم من رسول الله صلى عليه وآله ، وما في هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط

• (٢) الطبرى : « القضية » .

• (٤) الطبرى : « ومنع » .

• (١) الطبرى : « الأمر بالتقدم » .

• (٣) من الطبرى .

ألسنةً ، وأثبت حجةً منهم اليوم . فأمسك المعتضد فلم يردّ إليه جواباً ، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة العامة من شبهةٍ قد دخلتهم في أديانهم ، وفسادٍ قد لحقهم في معتقدهم ، وعصبيةٍ قد غلبت عليها أهواؤهم ، ونطقت بها ألسنتهم ، على غير معرفه ولا روية ، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بينة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن المتبعة ، إلى الأهواء المبتدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) . خروجا عن الجماعة ، ومسارةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفرقة ، وتشتيئا للكلمة ، وإظهاراً لمواالات من قطع الله عنه المواالات ، وبتر منه العصمة ، وأخرجنه من الملة ، وأوجب عليه اللعنة ، وتعظيما لمن صغر الله حقه ، وأوهن أمره ، وأضعف رُكنه ، من بني أمية ، الشجرة الملعونة ، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلكة ، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾^(٢) .

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ؛ ورأى^(٣) ترك إنكاره حرّاجا عليه في الدين ، وفسادا لمن قلده الله أمره من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم الخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وبسط اليد على المعاندين^(٤) ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسامعين أنّ الله جل ثناؤه لما ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يصدّع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه ، وأنذرهم وبشرهم ،

(٢) سورة البقرة ١٠٥ .
(٤) الطبري : « العاندين » .

(١) سورة القصص ٥٠ .
(٣) الطبري : « ترك » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ، وصدق قوله ، واتبع أمره ^(١) فغير يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له ، وإشفاقاً عليه ، فثمنهم مجاهد ببصيرته ، وكافرهم مجاهد بنصرتهم وحميتهم ، يدفعون من نابذه ، ويقهرون من عازّه وعانده ، ويتوثقون له ممن كانفه وعاضده ، ويباعون من سمح بنصرتهم ، ويتجسسون أخبار أعدائهم ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ المدى ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة ، وأحسن هدى ورغبة ، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . معدن الحكمة ، وورثة النبوة ، وموضع الخلافة . أوجب الله لهم الفضيلة ، وألزم العباد لهم الطاعة .

وكان من عانده وكذبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقونه بالضرر والتثريب ^(٢) ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، وينابذونه بالعداوة ، وينصبون له الحاربة ويصدّون من قصده ، وينالون بالتعذيب من اتبعه ، وكان أشدهم في ذلك عداوة ، وأعظمهم له مخالفة ، أولهم في كل حرب ومناصب ، ورأسهم في كل إجلاب وفتنة ، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها ؛ أبا سفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرها ، وأشياعه من بنى أمية الملعونين في كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عدّة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضى حكمه في أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً ، ويدافع مكاييداً ، ويجلب منابذاً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمر الله وهم كارهون ، فتعوّذ بالإسلام غير منطوي عليه ، وأسر الكفر غير مقلع عنه ، فقبله وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم . ثم أنزل الله

(١) الطبرى : « نقر » .

(٢) التثريب : « العتاب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُوءَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴾^(١) ، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بنى أمية .
ومما ورد من ذلك في السنة ، ورواه ثقات الأمة ، قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه^(٢) : « لعن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقفوها يا بنى عبد شمس تلقف الكرة ، فوالله ما من جنة ولا نار ؛ وهذا كفر صراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

ومنه ما يروى من وقوفه على نثية أحد من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده : هاهنا رمينا محمدا وقتلنا أصحابه .

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوة .
ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله فوجم لها . قالوا : فما رأت بعدها ضاحكاً^(٣) ؛ رأى نفراً من بنى أمية ينزون^(٤) على منبره نزوة القردة .
ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحكم بن أبي العاص لحا كاته إياه في

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٢) الطبري : « يسوق به » .

(٣) بعدها في الطبري : فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ .

(٤) ينزون : يتبون ويعدون .

مِشِيته ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فراه يتخلّج يحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقى على ذلك سائر عمره .

هذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أوّل فتنة كانت في الإسلام ، واحتقابه^(١) كلّ حرام سَفِكَ فيها أو أريق بعدها .

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهر ! قالوا : ملك بنى أُمّية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقى لا يشبع وهو يقول : والله ما أترك الطعام شبعاً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفجّ رجل من أمتي يُحشّر على غير ملتي » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » . ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « إنّ معاوية في تابوت من نار ، في أسفل دَرَك من جهنّم ، ينادي : يا حنّان يا مَنّان . فيقال له : ﴿ آلاَن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٢) .

ومنها أفتراؤه بالحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مَسْكَنَا ، وأقدّمهم إليه سَبَقًا ، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْراً ، على بن أبي طالب ، ينازعه حقّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه ، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله ، وجحود دينه

(١) يقال : احتقب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) ؛ ويستهوئ أهل الجهالة ، ويموء لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر عنهما ، فقال لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » ؛ تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار ، مؤثرا للعاجلة ، كافرا بالآجلة ؛ خارجا من ربة^(٢) الإسلام ، مستحلا للدم الحرام ؛ حتى سفك في فتنه ، وعلى سبيل غوايته وضلالته مالا يحصى عدده من أخيار المسلمين ، الذابين عن دين الله والناصرين لحقه ، مجاهدا في عداوة الله ، مجتهدا في أن يعصى الله فلا يطاع ، وتبطل أحكامه فلا تقام ، ويخالف دينه . فلا بد وأن تملأ كلمة الصلال وترفع دعوة الباطل ، وكلمة الله هي العليا ، ودينه المنصور ، وحكمه النافذ ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحاده المغلوب الداحض ؛ حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها ، وتطوق تلك الدماء وما سفك بعدها ، وسن سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها ، وأباح المحارم لمن ارتكبها ، ومنع الحقوق أهلها ، وغرته الآمال ، واستدّرجه الإمهال . وكان مما أوجب الله عليه به اللعنة قتله من قتل صبرا^(٣) من خيار الصحابة والتابعين ، وأهل الفضل والدين ، مثل عمرو بن الحقيق الخزاعي وحجر بن عدي الكندي ، فيمن قتل من أمثالهم ، على أن تكون له العزة والمالك والغلبة ، ثم ادعاه زياد ابن سمية أخا ، ونسبته إياه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٤) ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعون من ادعى إلى غير أبيه ، أو انتفى إلى غير مواليه » . وقال : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً ، وجعل الولد لغير الفراش والحجر لغير العاهر ، فأحل بهذه الدعوة من محارم الله ورسوله في أم حبيبة أم المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٣) صبرا ، أى حبساً .

(٢) الرقة : الواحدة من العرى التي في الحب .

(٤) سورة الأحزاب ٥ .

حرّمها الله وأثبت بها من قُرْبَى قد أبعدّها الله ، ما لم يدخل الدّين خللٌ مثله ، ولم ينل الإسلامَ تبديلٌ يشبهه .

ومن ذلك إيثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السّكّير المحيّر صاحب الدّبكة والفهود والقردة ، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسّطوة والتوعّد والإخافة ، والتهديد والرّهبة ، وهو يعلم ستّفه ، ويطلع على رّهقه وخبيثه ؛ ويُعين سكراته وفعلاته ، وجوره وكفره . فلمّا تمكّن - قاتله الله - فيما تمكّن منه ، طلب بشارات المشركين وطوائلهم عند المساءين ، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة الوقعة الّتي لم يكن في الإسلام أشنعُ منها ولا أخشُ ، فشتمى عند نفسه غليله ؛ وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ الثّار لأعداء الله ؛ فقال مجاهرا بكفره ، ومظهوراً لشرّه :
 لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْذِرُ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ^(١)

قول^(٢) من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه ، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده .

ثم أغلظ ما اتهمك ، وأعظم ما اجترم ، سفكه دمّ الحسين بن عليّ عليه السلام ، مع موّفته من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومكانه ومنزله من الدّين والفضل والشهادة له . ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة ؛ اجتراء على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوة لرسوله ، ومجاهرة لعترته ، واستهانة لحرمته ، كأنما يقتلُ منه ومن أهل بيته قومًا من كفرة التّرك .

(١) لعبد الله بن الزبير ؛ من كلته يوم أحد ؛ سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده في الطبري :

قَدْ قَتَلْنَا الْقَوْمَ مِنْ سَادَاتِكُمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَذْرٍ فَأَعْتَدَلُ
 فَأَهْلُوا وَاسْتَهْلُوا فَرْحًا ثُمَّ قَالُوا يَا زَيْدُ لَا تَسَلْ
 لَسْتُ مِنْ خِدْفٍ إِنْ لَمْ أَنْتَقِمِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مَا كَانَ فَعَلْ
 لَعَنَتْ هَاشِمٌ بِالْمَلِكِ فَلَا خَبَرَ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

(٢) الطبري : هذا هو المروق من الدّين وقول من لا يرجع . . . « .

والديلم ، ولا يخاف من الله نعمة ، ولا يُراقب منه سَطْوَة ، فتَبَرَّ اللهُ عمرَه ، أخْبَثَ أصله وفرعَه ، وسلبَه ماتحتَ يَدِه ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبته ، ما استحقَّه من الله بمعصيته . هذا إلى ما كان من بني مروان من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ، واتخاذ مال الله بينهم دُولًا ، وهدم بيت الله ، واستحلالهم حرَمه ، ونصبهم المجانيقَ عليه ، ورَمِيهم بالتيرانِ إِيَّاه ، لا يألون له إحرافًا وإخرا بًا ، ولِمَا حرَّم الله منه استباحة وانتهكا ، ولين لجأ إليه قَتْلًا وتَنكِيلًا ، ولين أَمَنَه اللهُ به إخفاقًا وتَشريدًا ؛ حتَّى إذا حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب ، واستَحَقَّوا من الله الأنتقام ، وملثوا الأرض بالجور والعُدوان ، وعَمَّوا عباد الله بالظُلْم والافتسار ، وحلَّتْ عليهم السَّخْطَة ، ونزلت بهم من الله السَّطْوَة ، أتاح الله لهم من عِتْرَةِ نبيِّه وأهلِ وراثته ، ومن استخلصه منهم خلافتَه ، مِثْلَ ما أتاح من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين ، لأوائلهم الكافرين ، فسَفَكَ اللهُ به دماءهم ودماء آبائهم مرتدِّين ، كما سَفَكَ بآبائهم مُشركين ، وقطع الله دابرَ الذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين .

أيُّها الناس ، إن الله إنما أمر ليطاع ، ومثَّل ليُتَمَثَّل ، وحَكَم ليُفَعَّل ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

فالعنوا أيُّها الناس مَنْ لعنه الله ورسوله ، وفارقوا من لا تتألون القربة من الله إلَّا بمفارقته ؛ اللهم العنْ أبا سُفْيَانَ بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وولده وولدولده ! اللهم العنْ أئمة الكفر ، وقادة الضلال ، وأعداء الدين ، وُجَّاهِدِي الرِّسُول ، ومعطِّي الأحكام ، ومبدِّلِي الكتاب ، ومنتهكي الدِّمِ الحرام ! اللهم إنا نبرأ إليك من مُوالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك ،

كما قلت : ﴿ لَا نَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝ ﴾^(١).

أيها الناس، اعرفوا الحقَّ تعرفوا أهله، وتأملوا سُبُل الضلالة تعرفوا سَابِغَهَا، فقفوا عندما وَقَفَكم الله عليه، وأنفذوا كما أَمَرَكم الله به، وأمير المؤمنين يستعصم بالله لكم، ويسأله توفيقكم، ويرغب إليه في هدايتكم. والله حسبُه، وعليه توكلُه، ولا قوة إلا بالله العليَّ العظيم^(٢).

قلت : هكذا ذكر الطبري الكتاب، وعندى أنه الخطبة، لأن كلَّ ما يُخطَب به فهو خطبة، وليس بكتاب، والكتاب ما يُكتب إلى عامل أو أمير ونحوها، وقد يقرأ الكتابُ على المنبر فيكون كالخطبة، ولكن ليس بخطبة، ولكنه كتابٌ قرئ على الناس. ولعلَّ هذا الكلام كان قد أنشئ ليكون كتاباً، ويُكتب به إلى الآفاق، ويؤمروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد. والذي يؤكِّد كونه كتاباً، وينصر ماقاله الطبري، أن في آخره : « كَتَبَ عُبيدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ »، وهذا لا يكون في الخطب، بل في الكتب، ولكن الطبري لم يذكر أنه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال : وقع العزم على ذلك، ولم يذكر إلا وقوع العزم على أن يقرأ في الجوامع ببغداد.

(١) سورة المجادلة ٢٢.

(٢) الطبري حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار.

(٣٨)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواً ، وهو من محاسن الكتب :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ فِيهِ أَصْطِفَاءِ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا ؛
إِذْ طَمَعْتَ مُخْبِرُنَا بِبِلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ
كَغَاوِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النَّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنْ تَمَّ
أَعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ تَلَمُّهُ . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلُ وَالْمَفْضُولُ ، وَالسَّائِسُ
وَالْمَسُوسُ ! وَمَا لِلطَّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطَّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبِ
دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ
فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا !

أَلَا نَرُبُّعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظُلْمِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذُرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ
أَخْرَكَ الْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَمَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ؛ فَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التَّيِّهِ ،
رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ .

أَلَا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ؛ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ - أَنَّ قَوْمًا اسْتَشْهِدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْهِدَ شَهِيدُنَا
قِيلَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَحَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ
صَلَاتِهِ عَلَيْهِ !

أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلِّ فَضْلٍ ، حَتَّى إِذَا فَعَلَ
بِوَاحِدِنَا مَا فَعَلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجُنَّاحَيْنِ !
وَلَوْلَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَذَكَرَ ذَاكَ فَضَائِلَ جَمَّةً ،
تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجِّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَفَعَ عَنْكَ مَنْ مَالَتَ بِهِ الرِّمِيَّةُ ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبَّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا ،
لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزَّنَا ، وَلَا عَادِي طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَنَكْحُنَا
وَأُنْكِحُنَا ؛ فِعْلُ الْأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ
وَمِنْكُمْ الْمَكْذِبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ
الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَبِيَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْخَطْبِ ؛ فِي
كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سَمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَمَّا ،
وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) ، فَتَجَنُّ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ .

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
فَلَجُّوا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ
فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ .

وَرَعَمْتُ أَنْتَى لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ
كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ .

(١) سورة الأنفال ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ٦٨ .

* وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرِهِ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتُ : إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أَبَايَعَ ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ
أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَأَفْتَضَحْتَ ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاظَةٍ فِي
أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي دِينِهِ ، وَلَا مُرْتَابًا بِبِقِينِهِ !

وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ فَصَدُّهَا ، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَحَ
مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ ، فَلَمْ أَنْ تَجَابَ عَنْ هَذِهِ
لِرَجْحِكَ مِنْهُ ؛ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نُصْرَتُهُ
فَاسْتَفْعَدَهُ وَاسْتَكْفَاهُ ، أَمِنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاحَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُؤْمِنَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى
قَدْرُهُ عَلَيْهِ ! كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ
إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) .

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أُنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحَدَانَا ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ
إِزْشَادِي وَهَذَا يَتِي لَهُ ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الطَّنَّةُ الْمُتَنَصِّحُ *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا صَحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَصْحَكْتَ بَعْدَ
اسْتِعْبَارٍ ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مُحَوِّفِينَ ، فـ

* لَبَثَ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيَّجَا حَمَلٌ *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ
قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَائِلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ الْإِلْقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، وَقَدْ صَحِبْتَهُمْ
ذُرِّيَّةً بَلَدِيَّةً ، وَسُيُوفَ هَاشِمِيَّةٍ ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدَّكَ
وَأَهْلِكَ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

الشرح :

[كتاب معاوية إلى علي]

سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد ؛ فقلت : أرى هذا الجوابَ مُنطبقاً على
كتاب معاوية الذي بعثه مع أبي مُسلم الخولانيّ إلى عليّ عليه السلام ؛ فإن كان هذا هو
الجواب فالجواب الذي ذكره أرباب السيرة وأوردّه نصر بن مُزاحم في كتاب صيفين إذن
غير صحيح ، وإن كان ذلك الجواب ، فهذا الجواب إذن غير صحيح ولا ثابت ، فقال لي :
بل كلاهما ثابت مروى ، وكلاهما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظه ، ثم أمرني أن
أكتب ما عليه عليّ عليه السلام ، فكتبته ، قال رحمه الله :

كان معاوية يُتسقط (٢) عليّاً وينعى عليه ما عساه يذكّره من حال أبي بكر وعمر ،
وأنهما غصّباه حقّه ، ولا يزال يكيده بالكتاب يكتبه ، والرسالة يبعثها يطلب غرته ؛
لَيَنْفُثَ بما في صدره من حال أبي بكر وعمر ، إمّا مكاتبةً أو مُراسلةً ، فيجعل ذلك حجةً

(٢) يتسقطه : يتنقصه .

(١) سورة هود ٨٣ .

عليه عند أهل الشام ، ويضيقه إلى ماقرره في أنفسهم من دُنوبه كازعم ، فقد كان غمسه^(١) عندهم بأنّه قتل عثمان ومالاً على قتله ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وأسر عائشة ، وأراق دماء أهل البصرة . وبقيت خصلة واحدة ، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرأ من أبي بكر وعمر ، وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة ، وأنهما ونبا عليهما غلبة ، وغصبا إياها ؛ فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه ، بل وأهل العراق الذين هم جنده ويطائنه وأنصاره ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشّيعين ؛ إلا القليل الشاذ من خواص الشيعة ، فلما كتب ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويخرجّه ويخوّجه إذا قرأ ذكر أبي بكر ، وأنه أفضل المسلمين ، إلى أن يخلط خطه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر ، فكان الجواب مجمّماً^(٢) غير بين ، ليس فيه تصريح بالتظلم لهما ، ولا التصريح ببراءتهما ، وتارة يترحم عليهما ، وتارة يقول : أخذاً حقّ وقد تركه لهما ، فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً نائياً مناسياً للكتاب الأول ليستفزا فيه علياً عليه السلام ويستخفاه ، ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في نقبيح حاله وتهجين مذهبه . وقال له عمرو : إنّ علياً عليه السلام رجل نزيه نبيّاه ، وما استطعت منه الكلام بمثل نقيض أبي بكر وعمر ، فاكتب . فكتب كتاباً نفذه إليه مع أبي أمامة الباهلي ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدرداء . ونسخة الكتاب : من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب .

أما بعد ، فإنّ الله تعالى جدّه أصطفى محمداً عليه السلام لرسالته ، واختصّه بوحىه وتأييده شريعته ، فأنقذه من العماية ، وهدى به من الغواية ، ثم فصّله إليه رشيداً حميداً ، قد بلغ الشّرع ، وتحقّق الشّرك ، وأخذ نار الإلّفك ، فأحسن الله جزاءه ، وضاعف عليه نعمه وآلائه . ثم إنّ الله سبحانه اختصّ محمداً عليه السلام بأصحابٍ أبدوه وآزروه ونصروه

(١) غمسه : اتهمه .

(٢) مجمّماً : غير واضح .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾^(١)؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلامهم عند الله والمسلمين منزلة ؛ الخليفة الأول ، الذي جمع الكلمة ، ولم الدعوة ، وقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ ، ثم الخليفة الثاني الذي فَتَحَ الفُتُوحَ ، وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ وَأَذَلَّ رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ . ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نَشَرَ الْمِلَّةَ ، وَطَبَّقَ الْأَفَاقَ بِالكَلِمَةِ الْحَنِيفِيَّةِ .

فلما أَسْتَوْتِقَ الْإِسْلَامَ وَضُرِبَ بِحِرِّ انْعِدَوَاتِهِ عَلَيْهِ فَبَغَيْتُهُ الْغَوَائِلَ ، وَنَصَبْتَ لَهُ الْمَكَائِدَ ، وَضَرَبْتَ لَهُ بَطْنَ الْأَمْرِ وَظَهْرَهُ ، وَدَسَّسْتَ عَلَيْهِ ، وَأَغْرَيْتَ بِهِ ، وَقَعَدْتَ حَيْثُ اسْتَبْصَرَ عَنْ نَصْرِهِ ، وَسَأَلْتَ أَنْ تُدْرِكَهُ قَبْلَ أَنْ يَمِزَّقَ فَمَا أَدْرَكَتَهُ ، وَمَا يَوْمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ بِوَاحِدٍ !

لقد حَسَدْتَ أَبَا بَكْرٍ وَالتَّوَيْتَ عَلَيْهِ ، وَرُمْتَ إِفْسَادَ أَمْرِهِ ، وَقَعَدْتَ فِي بَيْتِكَ ، وَاسْتَعْوَيْتَ عِصَابَةً مِنَ النَّاسِ حَتَّى تَأْخَرُوا عَنْ بَيْعَتِهِ ، ثُمَّ كَرِهْتَ خِلَافَةَ عُمَرَ وَحَسَدْتَهُ وَاسْتَطَلْتَ مُبْتَدَأَهُ ، وَسُرَرْتَ بِقَتْلِهِ ، وَأَظْهَرْتَ الشَّمَاتَةَ بِمُصَابِهِ ؛ حَتَّى إِنَّكَ حَاوَلْتَ قَتْلَ وَلَدِهِ لِأَنَّهُ قَتَلَ قَاتِلَ أَبِيهِ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ أَشَدَّ مِنْكَ حَسَدًا لِابْنِ عَمِّكَ عُثْمَانَ ؛ نَشَرْتَ مَقَابِحَهُ ، وَطَوَيْتَ مَحَاسِنَهُ ، وَطَعَنْتَ فِي فِقْهِهِ ، ثُمَّ فِي دِينِهِ ، ثُمَّ فِي سِيرَتِهِ ، ثُمَّ فِي عَقْلِهِ ؛ وَأَغْرَيْتَ بِهِ السُّفَهَاءَ مِنْ أَصْحَابِكَ وَشِيعَتِكَ ، حَتَّى قَتَلُوهُ بِمَحْضَرِّكَ مِنْكَ ، لِاتِدْفَعُ عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ ؛ وَمَا مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ بَغَيْتَ عَلَيْهِ ، وَتَلَكَاتٍ فِي بَيْعَتِهِ ؛ حَتَّى تُحْمِلَ إِلَيْهِ قَهْرًا ، تُسَاقُ بِخِزَانِمِ الْأَقْنَسَارِ كَمَا يُسَاقُ الْفِعْلُ الْخُشُوشُ ، ثُمَّ نَهَضْتَ الْآنَ تَطْلُبُ الْخِلَافَةَ ، وَقَتْلَ عُثْمَانَ خَاصًا وَكَ وَسْجَرَاؤِكَ وَالْحَدِيقُونَ بِكَ ، وَتِلْكَ مِنْ أُمَانِي النَّفُوسِ ، وَضَلَالَاتِ الْأَهْوَاءِ .

فَدَعِ الْجَبَّاحَ وَالْعَبْثَ جَانِبًا ، وَادْفَعْ إِلَيْنَا قَتْلَ عُثْمَانَ ، وَأَعِدْ الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَتَّفِقُوا عَلَى مَنْ هُوَ لِلَّهِ رِضًا . فَلَا بَيْعَةَ لَكَ فِي أَعْنَاقِنَا ، وَلَا طَاعَةَ لَكَ عَلَيْنَا ، وَلَا عَتَبَتِي لَكَ

عندنا ، وليس لك ولا أصحابك عندى إلا السيف. والذي لا إله إلا هو لأطلبن قتلة عثمان أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتى أقتلهم أو تلتحق رُوحى بالله .

فأما مالا تزال تمنّ به من سابقتيك وجهادك فإنى وجدتُ الله سبحانه يقول : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْمُوْا قُلَّ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١). ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشدّ الأنفس امتنانا على الله بعملها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطل أجر الصدقة ، فالامتنان على الله يُبطل أجر الجهاد ، ويجعله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢).

قال النقيب أبو جعفر : فلما وصل هذا الكتابُ إلى علىّ عليه السلام مع أبي أمانة الباهليّ ، كَلَّمَ أبا أمانة بنحوٍ مما كَلَّمَ به أبا مُسلم الخولانيّ ، وكتب معه هذا الجواب .
قال النقيب : وفي كتاب معاوية هذا ذكرُ لفظ الجمل الخشوش أو الفحل الخشوش ، لاقى الكتاب الواصل مع أبي مسلم ، وليس في ذلك هذه اللفظة ، وإنما فيه : « حسدت الخلفاء ونفيت عليهم ، عرفنا ذلك من نظرك الشرّ^(٣) ، وقولك الهجر^(٤) وتنفّسك الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء » .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لا يعرفون الكتابين ؛ والمشهور عندهم كتابُ أبي مسلم فيجمعون هذه اللفظة فيه ، والصحيح أنّها في كتاب أبي أمانة ، ألا تراها عادت

(١) سورة الحجرات ١٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٣) يقال : شرّره وإليه : نظر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو نظر فيه لإعراض .

(٤) الهجر (بضم فسكون) : القبح من الكلام .

في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادت في جوابه !
انتهى كلام التقيب أبي جعفر .

ونحن الآن مبتدئون في شرح ألفاظ الجواب المذكور .
قوله : « فلقد خبنا لنا الدهر منك محبنا » ، موضع التعجب أن معاوية يحذر علياً عليه السلام باصطفاء الله تعالى محمداً وتشريفه له ، وتأنيده له ؛ وهذا ظريف لأنه يجري كإخبار زيد عمرا عن حال عمرو ، إذ كان النبي صلى الله عليه وآله وعليه السلام كالشيء الواحد . وخبأهموز ، والمصدر الخبء ، ومنه الخباية ، وهي الخبء إلا أنهم تركوا همزها ، واخلبء أيضاً واخلبء على « فَعِيل » ماخبي .
وبلاء الله تعالى : إنعامه وإحسانه .

وقوله عليه السلام : « كنا قُلُوبُ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ » ، مثلٌ قديم . وهَجَرَ : اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتأنيث . وقيل : هو اسم مذكّر مصروف ، وأصل المثل « كَسْتَبْضِعُ تَمْرًا إِلَى هَجَرَ ^(١) » ، والنسبة إليه هاجري على غير قياس ، وهي بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر في هذا المعنى :

أَهْدَى لَهُ طَرْفَ الْكَلَامِ كَمَا يُهْدَى لَوَالِي الْبَصْرَةِ التَّمْرُ
قوله : « وداعى مسدده إلى النضال » ، أى معلّم الرّمي ، وهذا إشارة إلى قول
القاتل الأول :

(١) يجمع الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثال المبثثة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبضع إليه غطى ؛ ويقال أيضاً : كستبضع التمر إلى خير ؛ قال النابغة الجعدي :
وإنّ امرأ أهدى إليك قصيدةً كستبضع تمرًا إلى أرضٍ خيبراً

أَعْلَمَهُ الرِّمَایَةَ كُلَّ یَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رِمَانِي^(١)
هكذا الرواية الصحيحة بالسین المهملة ، أى استقام ساعده على الرمی ، وسدَّتْ
فلانا : علمته النضال ، وسهم سدید : مُصِيب ، ورمح سدید ، أى قلَّ أن تخطئ
طعنته ، وقد ظرف القاضی الأرجانی فی قوله لسدید الدولة محمد بن عبد الكريم
الأنباریّ كاتب الإنشاء :

إلى الذى نَصَبَ المكارمَ للورى عَرَضًا يُلوح من المدى المتباعدِ
نَثَلَ الأمانِلَ مِنْ كِنَانَتِهِ فَا وَجَدْتُ يَدَاهُ سَوَى سَدِيدٍ وَاحِدِ
ومن الأمثال فى هذا المعنى : « سَمْنٌ كَلْبِكَ يَا كُلك »^(٢) ، ومنها : « أَحشك
وَتَرَوْنِي ! »^(٣) .

قوله عليه السلام : « وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان » ، أى
أبو بكر وعمر .

قوله عليه السلام : « فذكرت أمرا إن تَمَّ اعْتَزَلَكَ كله ، وإن نَقَصَ لم يَلْحَقْكَ
تَلَمَّه » ، من هذا المعنى قولُ الفرزدق لجريز ، وقد كان جريز فى مهاجته إِيَّاهُ يَفْخَرُ عليه
بتيس عيلان ، فقد كانت لجريز فى قيس خُوْولة ، يعيِّره بأيامهم على بنى تميم ، فلما قُتِلَ
بنو تميم قُتِيْبَةُ بنِ مسلم الباهليّ بخراسان قال الفرزدق يفتخر :

أَنَا نِى وَأَهْلِي بِالْمَدِينَةِ وَقَعَةٌ لَّالِ تَمِيمٍ أَقْعَدْتُ كُلَّ قَائِمٍ^(٤)

(١) استدَّ : استقام ؛ والبيت ينسب إلى معن بن أوس ، أو مالك بن فهم الأزدي ، أو عقيل بن
علفة ؛ وبعده :

فَلَا ظَفِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِي وَشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةُ الْبَنَانِ

وانظر اللسان ٤ : ١٩١ .

(٢) جمع الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حازم بن المنذر .

(٣) جمع الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت على .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كأنّ رموس الناس إذ سمعوا بها مشدّة هاماتهم بالأمانم
وما بين من لم يؤت سمعاً وطاعةً وبين تميم غير جزّ الحلاقم
ثم خرج إلى خطاب جرير بعد أبيات تركها ذكرها ، فقال :
أنفضبُ إن أذنا قتيبة جزّنا جهاراً ولم تغضب لقتل ابن حازم !
وما منها إلا نقلنا دماغه إلى الشام فوق الشاحجات الرّواسم
تذبذب في الخلالة تحت بطونها محذّفة الأذنان جُلج المقادِم
وما أنت من قيس فتنبّح دونها ولا من تميم في الرّموس الأعظم
تخوّفتنا أيام قيس ولم تدع لعميلان أنفاً مستقيم الخياشم
لقد شهدت قيس فما كان نصرها قتيبة إلا عضها بالأباهم

فقوله :

* وما أنت من قيس فتنبّح دونها *

هو معنى قول عليّ عليه السلام لمعاوية : « فذكرت أمراً إن تمّ اعتزلت كلّهُ » ،
وابن حازم المذكور في الشعر هو عبد الله بن حازم ، من بني سليم ، وسليم من قيس
عيلان ، وقتلته تميم أيضاً ، وكان والي خراسان .

قوله عليه السلام : « وما أنت والفاضل والمفضول » ، الرواية المشهورة بالرفع ،
« قد رواها قوم بالنصب ، فمن رفع احتجّ بقوله : وما أنت وبنت أبيك والفخر .

وبقوله :

* فما القيسى بعدك والفخار *

ومن نصب فعلى تأويل « مالك والفاضل » ، وفي ذلك معنى الفعل ، أى ماتنصع ، لأن

هذا الباب لا بدّ أن يتصمّن الكلام فيه فعلاً ، أو معنى فعلٍ ، وأنشدوا :
* فما أنتَ والسَّيرَ في مَتَلَفٍ ^(١) .

والرفع عند النحويين أولى .

ثم قال : « وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز » التّصّبُ هاهنا لا غير ، لأجل اللام في الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلامُ ينفُضُ ما يقول من يطعن في السلف ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلّا المفاضلة بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأولين ومن ذوى الدّرجات والطّبقات التي اشتبه الحالُ بينهما وبينه عليه السلام في أيّ الرجال منهم أفضل ، وأنّ قدرَ معاوية يصغر أن يدخل نفسه في مثل ذلك شهادةٌ قاطعةٌ على علوّ شأنهما ، وعظم منزلتهما .

قوله عليه السلام : « هيهات ، لقد حنّ قدحٌ ليس منها » هذا مثَلٌ يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم ؛ وأصله القداح من عودٍ واحدٍ يجعل فيها قدح من غير ذلك الخشب ، فيصوّت بينها إذا أرادها المفيض ، فذلك الصوت هو حنينه . ٥

قوله « وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها » ، أي وطفق يحكم في هذه القصة

(١) لأسامة بن الحارث الهذلي ؛ وبقية :

* يُعبّر بالذِّكْرِ الضابطِ *

وانظر ديوان الهذليين ٢ : ١٩٥ .

أوفي هذه القضية مَنْ يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها ؛ ويموز أن يكون الضمير يرجع إلى الطبقات .

ثم قال : « ألا ترَبَع أيها الإنسان على ظلمك ! » أى ألا نَرُفُق بنفسك وتَكُفُ ، ولا تحمِل عايبها مالا تطيقه ، والظَلْع : مَصْدَرُ ظَلَعَ البعيرُ يظَلَع أى غمر فى مشيه . قوله : « وتعرف قصور ذرعك » ، أصل الذرع بَسْط اليد ؛ يقال : ضِقتُ به ذرعاً : أى ضاق ذرعى به . فنَقَلوا الاسم من الفاعلية فجعلوه منصوباً على التمييز ؛ كقولهم : طببت به نفساً .

قوله : « وتتناخر حيث أخرك القدر » ، مثل قولك : ضع نفسك حيث وضعها الله ؛ يقال ذلك لمن يرفع نفسه فوق استحقاقه .

ثم قال : « فما عليك غلبة المغلوب ، ولا عليك ظفرُ الظافر » ، يقول : وما الذى أدخلك بينى وبين أبى بكر وعمر ، وأنت من بنى أمية ، لست هاشمياً ولا تيمياً ولا عدوياً هذا فيما يرجع إلى أنسابنا ، ولست مهاجراً ولا ذا قَدَم فى الإسلام فتزاحم المهاجرين وأرباب السوابق بأعمالك واجتهادك ، فإذا لا يضررك غلبة الغالب مدّاً ولا يسرك ظفر الظافر . ويروى أن مروان بن الحكم كان يُنشد يوم مَرَج راحطاً والراءوس تُندَر عن كواهلها بينه وبين الضحاك بن قيس الفهري :

وما ضرهم غبيرُ حَيْنِ النفو س أى غلامى قريشٍ غلبُ

قوله عليه السلام : « وإنك لذهاب فى التيه ، رواغ عن القصد » ، يحتمل قوله عليه السلام فى التيه معنيين : أحدهما بمعنى الكبر ، والآخر التيه من قولك : تاه فلان فى الببغاء ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً تتيهون فى الأرض ﴾ ^(١) ؛ وهذا الثانى أحسنُ

يقول : إنَّكَ شديد الإيغال في الضلال . و « ذهاب » فعَّال ؛ للتكثير ، ويقال : أرض متيِّهة ، مثْلُ معيشةٍ ، أى يتأه فيها .

قال عليه السلام : « رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ » ، أى تترك ما يلزمك فعله وتعديل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة ، وما جرى بعد موت النبي صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوج إلى الكلام في البيعة وحَقْن الدِّماء والدخول تحت طاعة الإمام .

ثم قال : « أَلَا تَرَى غَيْرَ مَخِيرٍ لَكَ ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَهْدَيْتَ » ، أى لست عندى أهلاً لأن أخبرك بذلك أيضاً ، فإنَّكَ تعلمه ، ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يُخَبَّر به ؛ ولكنْ أذكرُ ذلك لأنَّه تحدَّثَ بنعمةِ الله علينا ، وقد أمرنا بأنْ نحدِّثَ بنعمته سبحانه .

قوله عليه السلام : « إِنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، المراد هاهنا ، سيِّد الشهداء حمزة رضى الله عنه ، وينبغى أن يُحْمَلَ قولُ النبي صلى الله عليه وآله فيه إنَّه سيِّد الشهداء على أنَّه سيِّد الشهداء في حياة النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنَّ عليّاً عليه السلام مات شهيداً ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيِّده ، بل هو سيِّد المسلمين كلِّهم ، ولا خلاف بين أصحابنا رحمهم الله أنَّه أفضل من حمزة وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدَّم ذكر التَّكْبِير الذى كَبَّرَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله على حمزة في قصَّة أحد .

قوله عليه السلام : « وَلِكُلِّ فَضْلٍ » ، أى ولكل واحد من هؤلاء فضل لا يُجْحَد . قوله : « أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدَّم ذلك في قصَّة مؤتة .

قوله : « وَلَوْلَا مَانِهِيَ اللَّهُ عَنْهُ » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : « ولا تَمَجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ » أى لا تَقْدِرُهَا ، يقال : مَجَّ الرَّجُلُ مِنْ فِيهِ ، أى قَذَفَهُ .
قوله عليه السلام « فَدَعَ عَنْكَ مِنْ مَالِكَ بِهِ الرِّمِيَّةُ » ، يقال للصَّيْدِ : يَرْمِي هَذِهِ الرِّمِيَّةَ ،
وهى « فَمِيلة » بمعنى مَفْعُولَةٌ ، وَالْأَصْلُ فِي مِثْلِهَا أَلَّا تَلْحَقَهَا الْمَاءُ ، نَحْوُ كَفَّ خَضِيبٌ ، وَعَيْنُ
كَحِيلٍ ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَجْرَوْهَا مَجْرَى الْأَسْمَاءِ لَا التَّعَوُّتِ ، كَالْقَصِيدَةِ وَالْقَطِيعَةِ .

والمعنى : دَعَّ ذَكَرَ مِنْ مَالٍ إِلَى الدُّنْيَا وَمَالَتْ بِهِ ، أى أَمَالَتْهُ إِلَيْهَا .
فإن قلت : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمر ؟ قلت : ينبغي أن يَنْزَهُ أُمَيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنْ تُصَرَّفَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَى عُثْمَانَ ، لِأَنَّ مَعَاوِيَةَ ذَكَرَهُ فِي
كِتَابِهِ وَقَدْ أَوْرَدَنَاهُ ، وَإِذَا أَنْصَفَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ عِلِمٌ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهَا
بِمَا يَذْكُرُ بِهِ عُثْمَانُ ، فَإِنَّ الْحَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُثْمَانَ كَانَتْ مُضْطَرِبةً جَدًّا .

قال عليه السلام : « فَإِنْ صَنَّاغِعُ رَبَّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا » ، هَذَا كَلَامٌ عَظِيمٌ ، عَالٍ
عَلَى الْكَلَامِ ، وَمَعْنَاهُ عَالٍ عَلَى الْمَعَانِي ، وَصَنِيعَةُ الْمَلِكِ مِنْ يَصْطَنِعُهُ الْمَلِكُ وَيَرْفَعُ قَدْرَهُ .
يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا
وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ؛ فنحن الواسطة بينهم وبين الله تعالى ،
وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيدُ الله ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ عَبِيدُهُمْ .
ثم قال : « لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمٌ عَزًّا ، وَعَادَى طَوْلُنَا » ؛ الطول : الفضل . وعادى أى قديم ،
بِئْرٌ عَادِيَّةٌ .

قوله : « عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاهُمْ بِأَنْفُسِنَا فَتَكَلَّحْنَا وَأَنْكَحْنَا فَعَلَ الْكَفَاءُ ، وَلَسْتُمْ
هَنَّاكُ » ؛ يقول : تَزَوَّجْنَا فِيكُمْ وَتَزَوَّجْتُمْ فِيْنَا كَمَا يَفْعَلُ الْكَفَاءُ ، وَلَسْتُمْ أَكْفَاءَنَا . وينبغي
أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ : « قَدِيمٌ وَعَادَى » عَلَى تَجَاوُزِهِ لَاعِلَى حَقِيقَتِهِ ، لِأَنَّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمَيَّةٍ لَمْ
يَفْتَرِقَا فِي الشَّرَفِ إِلَّا مَذْنُ شَأْ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَعُرفَ بِأَفْعَالِهِ وَمَكَارِمِهِ ، وَنَشَأُ حِينَئِذٍ
أَخُوهُ عَبْدُ شَمْسٍ وَعُرفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَصَارَ لِهَذَا بَنُونَ وَلِهَذَا بَنُونَ ، وَادَّعى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

أنه أشرف بالفعّال من الآخر ، ثم لم تكن المدة بين نشء هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وآله الدعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه المدة القصيرة لا يقال فيها : « قديمٌ عَزْنَا وعادِيٌّ طَوَّلْنَا » ، فيجب أن يُحمَل اللفظُ على مجازِهِ ، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديةً بطُول المدة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدة قصيرةً . ولفظة قديم تَرِد ولا يُراد بها قِدَم الزّمان ، بل من قولهم : لفلانٍ قَدَمٌ صدقٌ وقديمٌ أثرٌ ، أى سابقة حسنة .

[مناكحات بنى هاشم وبنى عبد شمس]

وينبغي أن نذكر هاهنا مناكحات بنى هاشم وبنى عبد شمس . تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله ابنتيه رُقَيَّةَ وأمّ كلثوم من عثمان بن عفّان بن أبي العاص ، وزوّج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس في الجاهلية ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطلب أمّ جميل بنت حرب بن أمية في الجاهلية ، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وتزوّج عبدُ الله بن عمرو بن عثمان فاطمة بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وروى شيخنا أبو عثمان عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس قال : قلتُ للنصور أبي جعفر : مَنْ أَكْفَاؤُنَا ؟ فقال : أعداؤُنَا ، فقلت : مَنْ هُمْ ؟ فقال : بنو أمية .

وقال إسحاق بن سليمان بن عليّ : قلتُ للعبّاس بن محمد : إذا اتّسعنا من البنات ، وضيقنا من البنين ، وخفنا بوار الأيامي فإلى مَنْ نُخْرِجُهُنَّ من قبائل قريش ؟ فأنشدني :
عبدُ شمسٍ كان يَتَلَوُ هاشمًا وهما بعدُ لأئمٍّ ولأبٍ

فعرفتُ ما أراد وسكتُ .

وَرَوَى أَيُّوبُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ سُلَيْمَانَ ، قَالَ : سَأَلْتُ الرَّشِيدَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَنَى عَبْدَ شَمْسٍ فَأَحْمَدَ صِهْرَهُمْ ، وَقَالَ : « مَا ذَمَّمْنَا مِنْ صِهْرِنَا فَإِنَّا لَا نَذَمُّ صِهْرَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ » .

قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ : وَلَمَّا مَاتَ الْإِبْنَتَانِ تَحْتَ عُثْمَانَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَصْحَابِهِ : « مَا نَنْتَظِرُونَ بِعُثْمَانَ ، أَلَا أَبُو أَيُّمٍ ، أَلَا أَخُو أَيُّمٍ ؛ زَوْجَتُهُ ابْنَتَيْنِ ، وَلَوْ أَنَّ عِنْدِي ثَلَاثَةٌ لَفَعَلْتُ » . قَالَ : وَلِذَلِكَ سَمِيَ ذَا الثُّورَيْنِ .

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ ! » ، أَيْ كَيْفَ يَكُونُ شَرْفُكُمْ كَشْرَفِنَا ، وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمَكْذِبُ - يَعْنِي أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ، كَانَ عَدُوَّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمَكْذِبَ لَهُ وَالْمُجْلَبَ عَلَيْهِ - وَهُؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ : يَا زَاءُ أَبَى سُفْيَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَمَعَاوِيَةُ يَا زَاءُ عَلَىَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَزِيدُ يَا زَاءُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِدَاوَةِ مَا لَا تَبْرَكَ عَلَيْهِ إِلَّا بَل .

قَالَ : « وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ » ، يَعْنِي حَمْزَةً ، « وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ » ، يَعْنِي عُثْبَةَ ابْنَ رَبِيعَةَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَدْر .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : الْمَكْذِبُ مَنْ كَانَ يَكْذِبُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنَادًا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَسَدُ الْأَحْلَافِ : أَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، قَالَ : لِأَنَّ بَنِي أَسَدَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى كَانُوا أَحَدَ الْبَطُونِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا فِي حِلْفِ الْمُطَيِّبِينَ ، وَهُمْ بَنُو أَسَدَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، وَبَنُو تَمِيمَ بْنِ مَرْثَةَ ، وَبَنُو زَهْرَةَ ، وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ . وَهَذَا كَلَامُ طَرِيفٍ جَدًّا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَلْحِظْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ يَا زَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكْذِبًا

من بنى عبد شمس، فقال: المكذّب من كذّب النّبىّ صلى الله عليه وآله من قریش
عناداً، وليس كلّ من كذّب به عليه السلام من قریش يُعَيّر معاوية به. ثم قال: أسد
الأحلاف أسد بن عبد العزى؛ وأى عار يلزم معاوية من ذلك، ثم إن بنى عبد مناف
كانوا فى هذا الحلف وعلى معاوية من بنى عبد مناف، ولكن الراوندىّ يظلم نفسه
بتعرّضه لما لا يعلمه.

قوله: «ومنا سيّد شباب أهل الجنّة»، يعنى حسننا وحسيننا عليهما السلام، «ومينكم
صبية النار»، هى الكلمة التى قالها النّبى صلى الله عليه وآله لعقبة بن أبى مُعَيْط حين قتله
صَبْرًا يوم بدر، وقد قال كالمستعطف له عليه السلام: مَنْ للصّبية بالحمْد؟ قال: النار.
وعقبة بن أبى مُعَيْط من بنى عبد شمس. ولم يعلم الراوندىّ ما المراد بهذه الكلمة، فقال:
صبيةُ النَّارِ أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ، ولما أخبر
النّبى صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صِبيّة، ثم ترعرعوا واختاروا الكفر،
ولا شبهة أن الراوندىّ قد كان يفسّر من خاطره ما خطر له.

قال: قوله عليه السلام: «ومنا خير نساء العالمين»، يعنى فاطمة عليها السلام، نصّ
رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك؛ لا خلاف فيه.

«ومنكم حمالة الحطب»، هى أم جميل بنت حرب بن أمّية، امرأة أبى لهب الذى
ورد نصّ القرآن فيها بما ورد.

قوله: «فى كثير مما لنا وعليكم»، أى أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئاً كثيراً،
ولكننى أكتفى بما ذكرت.

فإن قلت: فماذا يتعلّق «فى» فى قوله «فى كثير»؟ قلت: بمحذوف تقديره:
هذا الكلام داخل فى جملة كلام كثير تتضمّن ما لنا وعليكم.

قوله عليه السلام: «فإسلامنا ما قد سُمِع، وجاهليتنا لا تُدفع»، كلام قد تعلّق به

بعض من يتعصب الأموية . وقال : لو كانت جاهلية بنى هاشم في الشرف كالإسلام
لعد من جاهليتهم حسب ماعد من فضيلتهم في الإسلام .

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبى أن نذكر في هذا الموضع فضل هاشم على عبد شمس في الجاهلية ، وقد يميز ج
بذلك بعض ما يمتازون به في الإسلام أيضا ، فإن استقصاءه في الإسلام كثير ، لأنه لا يمكن
جسد ذلك ، وكيف والإسلام كله عبارة عن محمد صلى الله عليه وآله ، وهو هاشمي !
ويدخل في ضمن ذلك ما يحتاج به الأموية أيضا ، فنقول : إن شيخنا أبا عثمان قال : إن
أشرف خصال قريش في الجاهلية اللواء ، والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، وزمزم ، والحجابه
وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبنى هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بنى عبد شمس .
قال : على أن معظم ذلك صار شرفه في الإسلام إلى بنى هاشم ، لأن النبي صلى الله عليه
وآله لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة ، فالشرف راجع
إلى من ملك المفتاح ، لا إلى من دفع إليه ، وكذلك دفع صلى الله عليه وآله اللواء إلى
مصعب بن عمير فالذي دفع اللواء إليه وأخذه مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى بمجده
وشرفه راجع إلى رهطه من بنى هاشم .

قال : وكان محمد بن عيسى الخزومي أميرا على اليمن ، فجهاه أبي بن مديج فقال :

قل لابن عيسى المستغيث من الشهولة بالوعورة
الناطقي العوراء في جل الأمور بلا بصيرة
ولد المغيرة تسعة كانوا صناديد العشيرة^(١)

(١) الصناديد : الشجعان .

وأبوكَ عاشرهم كما نبتت مع النخل الشعيرة
إن النبوة والخلافة والسقاية والمشورة
في غيركم فاكفؤا إليه لك يداً مجذمة قصيرة

قال : فأنبأ له شاعر من ولد كرز بن حبيب بن عبد شمس ، كان مع محمد بن عيسى باليمن يهجو عنه ابن مدلج في كلمة له طويلة ، قال فيها :

لا لواء يُعلمُ يا ابنَ كَرَزٍ لا ولا رِفْدٍ بيتُه ذى السناء
لا حجابٍ وليس فيكم سوى الكبر وبُغضِ النبي والشهداء
بين حاكٍ ونُحاجٍ وطريدٍ وقتيلٍ يلعبه أهلُ السماء
ولهم زمرٌ كذاك وجبريلٌ ونجدُ السقاية الغراء

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء على حمزة ، وجعفر ، والحاكي والحاج هو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالتفت يوما فرآه ، فدعا عليه ، فلم يزل يخلج المشية عقوبة من الله تعالى^(١) . والطريدان : الحكم بن أبي العاص ، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وهما جدّا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه .

وكان النبي صلى الله عليه وآله طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثا فحيره الله ، ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره عليا عليه السلام وعمارا فقتلاه . فأما القتلى فكثير ، نحو سبينة وعقبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وحظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط ، والعاص بن سعيد بن أمية ، ومعاوية بن المغيرة ، وغيرهم .

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عمرا ، وهاشم لقب ، وكان أيضا يقال له القمر ، وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

(١) كذا في الأصول ، وفي نهاية ابن الأثير : « كان يجلس خلف النبي عليه السلام ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يخلج حتى مات . أي يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبي عليه السلام » .

إلى القمر السارى المنير دعوته ومطعمهم فى الأزل من قمع الجزر^(١)
قال : ذلك فى نبيء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى
هاشم ، وقال ابن الزبعرى :

كانت قريش بيضة فتفلقت فالتخ خالصه لعبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للأضياف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف^(٢)

فعم كما ترى أهل مكة بالأزل والعجف ، وجعله الذى هشم لهم الخبز ثريداً ،
فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به ، وليس لعبد شمس لقب كريم ،
ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه ،
ويرفع من قدره ، ويزيد فى ذكره ، ولهاشم عبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ،
أجمل الناس جحالا ، وأظهرهم جودا ، وأكملهم كالا ، وهو صاحب الفيل ، والظير
الأبايل ، وصاحب زمزم ، وساق الحبيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس وأميه
فى نفسه ليس هناك ، وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له ، ولعبد المطلب لقب شبيب واسم
شريف : شيبه الحمد ، قال مطرود الخزاعى فى مدحه :

يا شيبه الحمد الذى تثنى له أياؤه من خير دُخِرَ الذاهر
المجد ما حجت قريش يتيه ودعا هذيل فوق غصن ناصر
والله لا أنساكم وفعالكم حتى أغيب فى سفاة القابر

وقال حذافة بن غانم المدوى وهو يمدح أبا لهب ، ويوصى ابنه خارجة بن حذافة
بالانتماء إلى بنى هاشم :

أخرج إماما أهليكن فلا تزل لهم شاكرا حتى تغيب فى القبر

(١) القمع بالتحريك : جمع قعة ، وهى أعلى السنام والجزر (بضمتين) وسكن هنا للشعر : جم
جزور ، وهى الناقة .
(٢) فى البيت لقواء .

بنى شئبة الحمد الكريم فعاله يضىء ظلام الليل كالقمر البدر
 لساق الحجيح ثم للشيخ هاشم وعبد مناف ذلك السيد الغمر
 أبو عتبة الملقى إلى جواره أغر هجان اللون من نفر غر
 أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر
 فأبو عتبة هو أبو لهب ، عبد العري بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبنائه
 عتبة وعُتَيْبَة .

وقال العبدى حين احتفل فى الجاهلية فلم يترك :
 لآترى فى الناس حيا مثلنا ما خلا أولاد عبد المطلب
 وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي وبني أبنه أمية بن عبد شمس ،
 وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف ، وبأبنه عبد المطلب ، والأمر فى هذا بين ، وهو
 كما أوضحه الشاعر فى قوله :

إنما عبد مناف جوهر زين الجوهر عبد المطلب
 قال أبو عثمان : ولنا نقول : إن عبد شمس لم يكن شريفا فى نفسه ، ولكن الشرف
 يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب فى زمانه ، وأبترى على يديه ، وأظهر من كرامته
 ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن فى كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعده إياه برّب
 الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيده بحبس الفيل ، وقتل أصحابه بالطير الأبايل
 وحجارة السجيل حتى تروا كالعصف المأكول - لأعجب البرهانات ، وأسنى الكرامات ،
 وإنما كان ذلك إرهابا للنبوّة النبى صلى الله عليه وآله ، وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة ،
 وليجعل ذلك البهاء متقدما له ، ومردودا عاياه ، وليكون أشهر فى الآفاق ، وأجل فى
 صدور الفرائنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يقهر المعانيد ، ويكشف غباوة
 الجاهل . وبعد ، فمن يناهض ويُناضِل رجالا ولدوا محمدا صلى الله عليه وآله ، ولو عزلنا

مَا كَرَّمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ حَتَّى نَقْتَصِرَ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَمَذَاهِبِهِ وَشَيْعِهِ لِمَا وَفَى بِهِ بَشَرٌ ،
وَلَا عَدْلَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نَذْكُرَ مَا أَعْطَى اللَّهُ بِهِ عَبْدَ الْمَطْلَبِ مِنْ تَفَجَّرَ الْعَيُونُ وَيَنَابِيعُ
الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ كُلِّ شَيْءٍ بِعِيْرِهِ وَأَخْفَافِهِ بِالْأَرْضِ الْقَيْسِيَّةِ^(١) ، وَبِمَا أَعْطَى مِنَ الْمُسَاهِمَةِ وَعِنْدَ الْمُقَارَعَةِ
مِنْ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ ، وَالْخِصَالِ الْبَائِتَةِ ، لَقُلْنَا ، وَلَكِنَّا أَحْبَبْنَا أَلَّا نَحْتَجَّ عَلَيْكُمْ إِلَّا
بِالْمَوْجُودِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، وَالْمَشْهُورِ فِي الشَّعْرِ الْقَدِيمِ ، الظَّاهِرِ عَلَى السَّنَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
وَرُؤَاةِ الْأَخْبَارِ وَتَحَالِ الْأَنْبَارِ .

قال : ومما هو مذكورٌ في القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ
قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد اجتمعت الرواة على أنَّ أوَّلَ مَنْ أَخَذَ الْإِيلَافَ لِقُرَيْشٍ هَاشِمُ بْنُ
عَبْدِ مَنْفٍ ، فَلَمَّا مَاتَ قَامَ أَخُوهُ الْمَطْلَبُ مَقَامَهُ ، فَلَمَّا مَاتَ قَامَ عَبْدُ شَمْسٍ مَقَامَهُ ، فَلَمَّا مَاتَ
قَامَ نُوفَلُ مَقَامَهُ — وَكَانَ أَصْغَرَهُمْ . وَالْإِيلَافُ ، هُوَ أَنْ هَاشِمًا كَانَ رَجُلًا كَثِيرَ السَّفَرِ وَالتَّجَارَةِ ،
فَكَانَ يَسَافِرُ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ ، وَشَرَكَ فِي تِجَارَةِ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ
مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَالشَّامِ ، نَحْوَ الْعَبَاهِلَةِ بِالْيَمَنِ ، وَالْيَكْسُومِ مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ،
وَنَحْوَ مُلُوكِ الرُّومِ بِالشَّامِ ، فَيُفْعَلُ لَهُمْ مَعَهُ رِبْحًا فِيمَا يَرِجُ ، وَسَاقَ لَهُمْ إِبْلًا مَعَ إِبِلِهِ ، فَكَفَاهُمْ
مَوْتُونَ الْأَسْفَارِ ، عَلَى أَنْ يَكْفُوهُ مَوْتُونَ الْأَعْدَاءِ فِي طَرِيقِهِ وَمُنْصَرَفِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ
عَامٌّ لِلْفَرِيقَيْنِ ، وَكَانَ الْقِيمُ رَاجِحًا ، وَالْمَسَافِرُ مُحْفُوظًا ؛ فَأَخْصَبَتْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ ، وَحَمَلَتْ مَعَهُ
أَمْوَالَهَا ، وَأَتَاهَا الْخَيْرُ مِنَ الْبِلَادِ السَّافِلَةِ وَالْعَالِيَةِ ، وَحَسُنَتْ حَالُهَا ، وَطَابَ عَيْشُهَا . قَالَ :
وَقَدْ ذَكَرَ حَدِيثَ الْإِيلَافِ الْحَارِثُ بْنُ الْحَنْشِ السُّلَمِيُّ ، وَهُوَ خَالُ هَاشِمٍ وَالْمَطْلَبِ
وَعَبْدِ شَمْسٍ ، فَقَالَ :

إِنَّ أَخِيَّ هَاشِمًا لَيْسَ أَخًا وَاحِدًا

الْآخِذِ الْإِيلَافَ وَالْقَائِمِ لِلْقَاعِ

قال أبو عثمان : وقيل : إِنَّ تَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هُوَ

خَوْفٌ مِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةَ يَمْرُونَ بِهِ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْأَعْدَاءِ وَهُمْ مُغْتَرِبُونَ وَمَعَهُمْ

(١) الْأَرْضُ الْقَيْسِيَّةُ : الَّتِي لَا تَذْبِتُ نَبَاتًا .

الأموال ؛ وهذا مفسرنا به الإيلاف آنفا ؛ وقد فسرته قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إنَّ هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدونها إليه ليحِمِّيَ بها أهلَ مكة ، فإنَّ ذُؤبانَ العرب وصعاليكَ الأحياء وأصحاب الغارات وطُلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سِيَّما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدرا ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلجارت بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإنَّ هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته .

قال أبو عثمان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرفُ حلف كان في العرب كلِّها ، وأكرمُ عقدٍ عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب . قال النبي صلى الله عليه وآله - وهو يذكر حلف الفضول - : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبت » . ويكفي في جلالته وشرفه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله شهده وهو غلام ، وكان عتبة بن ربيعة يقول : لو أنَّ رجلا خرج ممَّا عليه فوممه لداخلتُ في حلف الفضول ، لما أرى من كماله وشرفه ، ولما أعلم من قدره وفضيلته .

قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمَّى حلف الفضول ، وسميت تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بني هاتم ، وبني المطلب ، وبني أسد بن عبد العزى وبني زُهرة ، وبني تميم بن مرة ، تعافدوا في دار ابن جدعان في شهر حرام قِياما يتباسحون بأَكفهم صُعداً ليكوننَّ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقه ما بَلََّ بحرُ صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال . وكانت النباهة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان ، أما ابن جدعان فلا أنَّ الحلف عقد في داره ؛ وأمَّا الزبير فلا أنه هو الذي نهض فيه ، ودعا إليه ، وحثَّ عليه ، وهو الذي سمَّاه حلف الفضول ، وذلك لأنه لما سمع الزبير يبدى المظلوم

ثَمَّنَ سِلْعَتَهُ قَدْ أَوْفَى عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ وَقُرَيْشَ فِي
أُنْدِيَتِهَا قَائِلًا :

يَا لِرَّجَالٍ لَمْظُلُومٍ بَضَاعَتُهُ بَيِّطُنْ مَكَّةَ نَائِي الْحَيِّ وَالنَّفَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ تَمَّتْ حَرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لَثَوْبِي لِأَبِي الْعَمْرِ
حَيٍّ وَحَلْفٍ لِيَعْقِدَنَّ حِلْفًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَطُونٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَمْنَعُونَ الْقَوَى مِنْ ظُلْمِ
الضَّعِيفِ ، وَالْقَاطِنِ مِنْ عَنَفِ الْغَرِيبِ ، ثُمَّ قَالَ :

حَلَفْتُ لَنُعَقِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَعِزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوْلَى الْبَيْتِ أَنَّآ أَبَاةُ الضَّيْمِ نَهَجْرُ كُلِّ عَارِ
فَبَنُو هَاشِمٍ هُمُ الَّذِينَ سَمَّوْا ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ ، وَهُمْ كَانُوا سَبِيهِ ، وَالْقَائِمِينَ بِهِ
دُونَ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الْعَاقِدَةِ لَهُ ، وَالشَّاهِدَةَ لِأَمْرِهِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ شَهِدَهُ وَلَمْ يَقُمْ بِأَمْرِهِ !
قَالَ أَبُو عَثْمَانَ : وَكَانَ الزَّيْزِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ شَجَاعًا أَيْبًا ، وَجَمِيلًا بَهِيًّا ، وَكَانَ خَطِيبًا
شَاعِرًا ، وَسَيِّدًا جَوَادًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَوْلَا الْحَسُّ لَمْ يَلْبَسْ رَجَالٌ ثِيَابَ أَعْزَةٍ حَتَّى يَمُوتُوا
ثِيَابَهُمْ شِمَالٌ أَوْ عِبَاءٌ بِهَا دَنْسٌ كَادَنْسُ الْحِمَى^(١)
وَلَكِنَّا خَلَقْنَا إِذَا خَلَقْنَا لَنَا الْحَبْرَاتِ وَالْمِسْكَ الْفَتِيَّتِ^(٢)
وَكَأْسٌ لَوْ تُبَيِّنُ لَهُمْ كَلَامَا لَقَالَتْ إِنَّمَا لَهُمْ سُبُيَّتِ^(٣)
تُبَيِّنُ لَنَا الْقَذَى إِنْ كَانَ فِيهَا رَضِينَ الْحَلْمِ يَشْرِبُهَا هَبِيتِ^(٤)

(١) الحِمَى ، كَأَمِيرٍ : الزُّقُ الصَّغِيرُ يَتَخَذُ لِلسَّمَنِ .

(٢) الْحَبْرَاتِ ، بِكَسْرِ فَتْحٍ : ضَرْبٌ مِنْ بَرُودِ الْيَمِّ . وَالْفَتِيَّتِ وَالْمِفْتُوتِ بِمَعْنَى .

(٣) سُبُيَّتِ : جَلَبَتِ . (٤) الْهَبِيتِ : الْجَبَانُ الْذَاهِلُ .

ويقطع نخوة الختال عتاً رقيق الخدّ ضربته صموت
بكفّ مجرب لا عيب فيه إذا لقي الكريمة يستमित

قال : والزبير هو الذي يقول :

وأسجم من راح العراق مملاً محيط عليه الجيش جلد مرأثره
صبحت به طلقاً يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم يختصره معاقره
ضعيف بجنب الكأس قبض بنانه كليل على جلد النديم أظافره

قال : وبنو هاشم هم الذين ردّوا على الزبيدي ثمن بضاعته ، وكانت عند العاص
بن وائل ، وأخذوا للبارقي ثمن سلعته من أبي بن خلف الجحى ، وفي ذلك
يقول البارقي :

ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي بني جمح والحق يؤخذ بالغصب
وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتل الحساء بنت التاجر الخثعمي ، وكان كاهره
عليها حين رأى جمالها ، وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج :

وخشيت الفضول حين أتوني قد أراني ولا أخاف الفضولاً
إني والذي يحجّ له شئ ط إياي وهللوا تهليلاً
لبرأ مني قتيلة ياللد اس هل يتبعون إلا القتولا
وفيها أيضاً يقول :

لولا الفضول وأنه لا آمن من عروائها^(١)
لدنوت من أبياتها ولطفت حول خيائها^(٢)

(١) المروراء ، كالفلواء : قرة الحمى ومسها في أول رعدتها .

(٢) الحباء ككساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

في كلمته التي يقول فيها :

حَيَّ النَّخِيلَةَ إِذْ نَأَتْ مِنَّا عَلَى عُذَوَائِهَا
لَا بِالْفِرَاقِ تُنِيلُنَا شَيْئًا وَلَا بِلِقَائِهَا
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً فِي مَشْيِهَا وَوُطْأِهَا

في رجالٍ كثيرٍ انتزعوا منهم الظلامات ، ولم يكن يظلم بمكة إلا الرجالُ أقوياء ، ولم
العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يعدُّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتي بما يتعلق بها ، وذلك
أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين ، فكان حربُ بن أمية
على بني عبد شمس ، وكان الزبيرُ بن عبد المطلب على بني هاشم ، وكان عبدُ الله بن
جُدعان على بني تيم ، وكان هشامُ بن المغيرة على بني مخزوم ، وكان على كل قبيلة رئيس
منها ، فهم متكاثرون في التساند ، ولم يحقق واحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم آب
هاشمُ بما لا تبلغهُ يدُ متناول ، ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله
قال : شهدت الفجار وأنا غلام ، فكنت أنبل فيه على عمومتي ، فنفي مُقامه عليه السلام
أن تكون قريش هي التي فجرت ، فسُميت تلك الحربُ حرب الفجار ، وثبت أن الفجور
إنما كان ممن حاربهم ، وصاروا يمينه وبركته ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه
الغالبين العالمين ، ولم يكن الله ليُشهده فجرة ولا غدرة ، فصار مشهده نصرًا ،
وموضعه فيهم حجةً ودليلاً .

قال أبو عثمان : وشرفُ هاشمٍ متصل ، من حيث عددت كان الشرفُ معك كابرًا
عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحكم بن أبي العاص كان عاديًا
في الأعلام ، ولم يكن له سناء في الجاهلية .

وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوظا ، وكان صاحب عَهَار^(١) يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عدى جدِّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بن أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرَ عبدُ المطلب وتعجَّب من إقدام حربٍ عليه وقال له :

أَبُوكَ مُعَاهِرٌ وَأَبُوهَ عَفٌّ وَذَاذَ الْفِيلِ عَنْ بَلَدٍ حَرَامٍ^(٢)

وذلك أن أمية كان تعرّض لامرأة من بنى زهرة ، فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدى السهمي - وكانوا أخواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حميَّ الأنس ، أبيض النفس - فقام دونهم وصاح : « أصبح ليلٌ » ، فذهبت مثلا ، ونادى : الآن الطاعنُ مقيم . وفي هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة جدُّ رسول الله صلى الله عليه وآله :

مَهْلًا أُمَيَّ فَإِنَّ الْبَنِيَّ مَهْلَكَةٌ لَا يَكْسِبَنَّكَ يَوْمَ شَرِّهِ ذَكَرٌ
تَبْدُو كَوَاكِبَهُ وَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ يُصَبُّ فِي الْكَأْسِ مِنْهُ الصَّبْرُ وَالْمَقَرُّ^(٣)

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا معيط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتون في الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبنى عليها وهو يراه ؛ فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقرَّ معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيُّهُمَا كان أسود في الجاهلية ؟ أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسودَ منا واحدا ، وكنا

(١) العهار : الترق والحفة والطيش .

(٢) ذاذ الفيل : منعه .

(٣) المقر ، ككتف : الصبر أو شبيهه به .

أَكْثَرَ مِنْهُمْ سَيِّداً ؛ فَأَقْرَبَ وَادَّعَى ، فَهُوَ فِي إِقْرَارِهِ بِالنَّقْصِ مَخْصُومٌ ، وَفِي ادِّعَائِهِ الْفَضْلُ خَصِيمٌ .

وَقَالَ جَجَشُ بْنُ رِثَابِ الْأَسَدِيِّ حِينَ نَزَلَ مَكَّةَ بَعْدَ مَوْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : وَاللَّهِ لَا تُزَوِّجَنَّ ابْنَةَ أَكْرَمِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي ، وَلَا حَالْفَنَ أَعَزَّهُمْ ، فَتُزَوِّجَ أَمِيمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَحَالِفَ أَبَا سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ . وَقَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَعَزَّهُمْ لَيْسَ بِأَكْرَمِهِمْ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمُهُمْ لَيْسَ بِأَكْرَمِهِمْ ؛ وَقَدْ أَقْرَبَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى نَفْسِهِ وَرَهْطُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ حِينَ قَالَ : تَحَارَبْنَا نَحْنُ وَهُمْ ، حَتَّى إِذَا صَرَّنا كَهَاتَيْنِ قَالُوا : مَنَا نَبِيٌّ . فَأَقْرَبَ بِالتَّقْصِيرِ ، ثُمَّ ادَّعَى الْمَسَاوَاةَ ؛ أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ أَقْرَبَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ شَأَوْهُمْ^(١) ثُمَّ ادَّعَى أَنَّهُ لِحَقِّهِمْ ! فَهُوَ مَخْصُومٌ فِي إِقْرَارِهِ ، خَصِيمٌ فِي دَعْوَاهُ ، وَقَدْ حَكَّمَ لَهَا شِمَّ دَغْفَلَ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابَةِ حِينَ سَأَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَنْ بَنِي هَاشِمٍ : فَقَالَ : هُمْ أَطْعَمُ لِلطَّعَامِ ، وَأَضْرَبُ لِلْهَامِ^(٢) ، وَهَاتَانِ خَصْمَتَانِ يَجْمَعَانِ أَكْثَرَ الشَّرَفِ .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَالْعَجَبُ مِنْ مُنَافَرَةِ حَرْبِ بْنِ أُمِّيَّةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَقَدْ لَطَمَ حَرْبٌ جَاراً خَلْفَ بَنِ أَسْعَدٍ جَدَّ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ ، فُجَاءَ جَارُهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَهَشَى خَلْفَهُ إِلَى حَرْبٍ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْحِجْرِ ، فَلَطَمَ وَجْهَهُ عُنُوةً مِنْ غَيْرِ تَحَاكُمٍ وَلَا تَرَاضٍ ، فَمَا انْتَطَحَ فِيهِ عُنْزَانُ^(٣) . ثُمَّ قَامَ أَبُو سُفْيَانُ بْنُ حَرْبٍ مَقَامَ أَبِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَخَالَفَهُ أَبُو الْأَزْهَرِ الدَّوْسِيُّ ، وَكَانَ عَظِيمُ الشَّأْنِ فِي الْأَزْدِ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي الْوَلِيدِ مِنَ الْمَغِيرَةِ مُحَاكِمَةٌ فِي مَصَاهِرَةٍ كَانَتْ بَيْنَ الْوَلِيدِ وَبَيْنَهُ ، فُجَاءَهُ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو الْأَزْهَرِ قَاعِدٌ فِي مَقْعَدِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحِجَازِ ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَلَمْ يَدْرِكْ بِهِ أَبُو سُفْيَانُ عَقْلًا وَلَا قُوْدًا فِي بَنِي الْمَغِيرَةِ . وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَذْكُرُ ذَلِكَ :

(١) الشَّأُو : النِّايَةُ .

(٢) الْهَام : الرَّمُوسُ .

(٣) هَذَا مِثْلُ يَضْرِبُ لِلْأَمْرِ يَقَعُ وَلَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ .

غدا أهل حصني ذى الجارِ بسُخْرَةٍ وجارُ ابنِ حَرْبٍ لا يروُحُ ولا يَعدُو
كسالكِ هشامُ بنُ الوليدِ ثِيابه فابلٍ وأخلقُ مثلها جُدَدًا بَعْدُ

فهذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب "أنساب قريش" للزبير بن بكار ما يتضمن شرحا لما أجمله شيخنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلام أبي عثمان لحمة وإشارة ، وليس بالشروح .
قال الزبير : حدثني عمر بن أبي بكر العدوي من بني عدى بن كعب قال : حدثني يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحت قريش على أن ولي هاشم بعد موت أبيه عبد مناف السقاية والرفادة ، وذلك أن عبد شمس كان يسافر ، قل أن يقيم بمكة ، وكان رجلا معيلا^(١) ؛ وكان له ولد كثير ، وكان هاشم رجلا موسرا ، فكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم لذلك ضيف الله ، وأحق ضيف بالكرامة ضيف الله ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ؛ فأكرموا ضيفه وزواره ؛ فإنهم يأتون شعنا غبرا من كل بلد ضوامير كالقداح ، وقد أرجفوا وتفلوا وقلوا^(٢) وأرملوا ، فأقروهم وأعينهم . قال : فكانت قريش تترافد على ذلك ، حتى إن كل أهل بيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدر حالهم ، وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا ، وكان قوم من قريش يترافدون ؛ وكانوا أهل يسار ، فكان كل إنسان ربما أرسل بمائة مثقال ذهب هرقلية^(٣)

(١) يقال : أعال الرجل يعيل ؛ إذا كثر عياله .

(٢) أرجفوا : أكثروا من ذكر الأخبار السيئة ، وقلوا : كثر فيهم القيل . وأرملوا : نفد زادهم .

(٣) هرقلية : نسبة إلى هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من صرب الدنانير .

وكان هاشم يأمر بحياضٍ من آدمٍ يُجْعَلُ في مَوَاضِعَ زَمَزَمَ من قبل أن تُخْفَرَ ؛ يُسْتَقَى فيها من البئر التي بِمَكَّةَ ، فيشرب الحاجُّ ، وكان يطعمهم أول ما يُطْعَم قبل يومِ التَّروِيَةِ يومَ بِمَكَّةَ وبِمَنَى وَبُجْمَعٍ وَعَرَفَةَ ، وكان يَثْرِدُ لَهُمُ الخُبْزُ واللَّحْمُ والسَّمْنُ والسَّوِيقُ والتَّمْرُ ، ويحمل لهم الماءَ فيسْقَوْنَ بِمَنَى ، والماءُ يومئذٍ قليلٌ ، إلى أن يَصْدُرَ الحاجُّ مِنْ مَنَى ، ثم تنقطع الضِّيَافَةُ ، وتنفَرِّقُ النَّاسُ إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سَمِيَ هاشمًا لَهَشَمَهُ التَّريْدُ ، وكان اسمه غَمْرًا ، ثم قالوا : « غَمَرُوا الْعَلَا » لمعاليه . وكان أول من سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ : رحلةً إلى الحبشة ، ورحلةً إلى الشام ، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ غَزَّةَ ، فَمَرِضَ بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورجعوا بتركته إلى ولده . ويقال : إن الذي رجع بتركته إلى ولده أبو رُفْهَمَ عبد العزَّى بن أبي قيس العامريّ . من بني عامر بن لؤي .

قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : البَذْران ، ولعبد شمس ونوفل الأبهران . قال الزبير : وقد اختلف في أيّ ولد عبد مناف أسنَّ ، والتَّيْبَتُ عندنا أن أسنَّهم هاشم . وقال آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عمر بن عبد العزيز بن مروان :

يا أَمِينَ اللَّهِ إني قائلٌ قول ذِي دِينَ وبِرٍّ وَحَسَبٍ
عبدُ شَمْسٍ لا تُهَنِّئُهَا إِنَّمَا عبدُ شَمْسٍ عَمُّ عبدِ المَطْلَبِ
عبدُ شَمْسٍ كان يَتَلَوُهاشِمًا وهما بعدُ لَأُمٍّ ولَأَبٍ

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله بن عباس : والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العيرَات^(١) لهاشم ، والله ما شدت قريش رحالًا ولا حَبْلًا بِسَفَرٍ ، ولا أناختُ بعيرًا لحَضَرٍ

(١) العيرَات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه لإلا كانت أو حميرا أو بغالا ، واحده عير .

إلا بهاشم ، والله إنه أول من سقى بمكة ماء عذبا ، وجعل باب الكعبة ذهابا لعبد المطلب . قال الزبير : وكانت قريش تحاراً لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حولهم من العرب ، حتى رحل هاشم ابن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصر ، فكلن يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشم من أحسن الناس خلقا وتامما ، فذكر لقيصر ، وقيل له : هاهنا شاب من قريش يهشم الخبز ، ثم يصب عليه المرق ، ويفرغ عليه اللحم ، ويدعو الناس . قال : وإنما كانت الأعاجم والروم تصنع المرق في الصحاف ، ثم تأتد عليه بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلّمه أعجب به ، وجعل يرسل إليه فيدخل عليه ، فلما رأى مكانه سأل أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر ، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ، ففعل . فبذلك أرتفع هاشم من قريش . قال الزبير : وكان هاشم يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيحطب قريشا فيقول : يامعشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما . يامعشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعنا غبرا من كل بلد . فو رب هذه البنية ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه ، ألا وإني أخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومؤونتهم إلا طيبا لم يؤخذ ظما ، ولم تقطع فيه رحم ولم يفتصب . قال : فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ماتحمله أحوالها ، وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج .

قال الزبير : ومما رَأَى به مطرود الخزاعي هاشماً قوله :

ماتَ النَّدى بالشَّامَ لَمَّا أَن تَوَى أَوْدَى بَفَزَةٍ هَانَمٌ لَا يَبْعِدُ
فَجِغَانُهُ رُذُمٌ لَمَن يَنْتَابُهُ وَالنَّصْرَ أَدْنَى بِاللَّسَانِ وَبِالْيَدِ^(١)

ومن مرثيته له :

يَاعِينْ جُودِي وَأُذِرِي الدَّمْعَ وَأَحْتَفِلِي وَأُبْكِي عَلَى كُلِّ فَيَاضٍ أَخِي حَسْبِي
مَاضِي الصَّرِيمةَ عَلَى الهمِّ ذِي شَرَفٍ صَعْبَ الْمُقَادَةِ لَا نِكْسٌ وَلَا وَكَلٌ
تَحْضُ تَوْسَطَ مَنْ كَعَبَ إِذَا نُسِبُوا فَأُبْكِي عَلَى هَاشِمٍ فِي وَسْطِ بَلَقَمَةٍ
يَاعِينْ بَكِيَّ أَبَا الشُّعْثِ الشَّجِيَّاتِ يَبْكِينَ عَمْرُو الْعُلَا إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ
يَبْكِيَنَّ مَعُولَاتٍ فِي مَعَاوِزِهَا حَزَمَاتٍ عَلَى أَوْسَاطِهَا
أَبَيْتُ أَرعى نَجْمَ اللَّيْلِ مِنْ أَلَمٍ أَبْكِي وَتَبْكِي مَعِي شَجْواً بُنْيَاتِي

قال الزبير : وحدثني إبراهيم بن المنذر ، عن الواقدي ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أوَّل من سَنَّ دِيَةَ النَّفْسِ مائةً من الإبل عبدُ المطلب ، فحَرَّت في قريش والعَرَب سنتُهُ ، وأقرَّها رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وأمُّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد ، من بني النَجَّار من الأنصار ، وكان سبب

(١) في ب « ردم » ، بالدال صوابه من ا ؛ والردم ككتب : القصاص المثلثة تصب جوانبها .

تزوج هاشم بها أنه قدِم في تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته سلمى بطعام فأعجبت هاشما ، فخطبها إلى أبيها ، فأنكحها إياها ، وشرط عليه أن تلد عند أهلها ، فبقي عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، فحملت وأنزلت ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عند أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بغزة من وجهه ذلك ، وولدت عبد المطلب ، فسمته شيبه الحمد لشعرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد ؛ فكث بالمدينة ست سنين أو ثمانيا . ثم إن رجلا من تهامة مرَّ بالمدينة ، فإذا غلمان ينتضلون ، وعلام منهم يقول كلما أصاب : أنا ابن هاشم بن عبد مناف ، سيّد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن هاشم بن عبد مناف . قال : ما اسمك ؟ قال : شيبه الحمد ، فانصرف الرجل حتى قدِم مكة ، فيجد المطلب بن عبد مناف جالسا في الحجر ، فقال : قم إلى يا أبا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أتى جئت الآن من يثرب فوجدتُ بها غلمانا ينتضلون ... وفصّ عليه ما رأى من عبد المطلب ، وقال : إنه أضربُ غلام رأيتُه قطّ ، فقال له المطلب : أغفلته والله ! أما إنى لا أرجع إلى أهلى ومالى حتى آتية ، فخرج المطلب حتى أتى المدينة ، فأناها عشاء ، ثم خرج براجلته حتى أتى بنى عدى بن النجار فإذا الغلمان بين ظهري المجلس ، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هذا ابن هاشم ؟ قالوا : نعم ، وعرفه القوم فقالوا : هذا ابن أخيك ، فإن كنت تريد أخذه فالساعة ؛ لأنعم أمه ، فإنها إن علمت حُلنا بينك وبينه . فأناخ راحلته ، ثم دعاه فقال : يا بن أخى ، أنا عمك ، وقد أردتُ الذهاب بك إلى قومك ، فأركب ، قال : فوالله ما كذب أن جالس على تجر الراحلة ، وجلس المطلب على الراحلة ثم بعثها فانطلقت ، فلما علمت أمه قامت تدعو حزنها على أُنباها ، فأخبرت أنه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فانطلق به المطلب فدخل به مكة ضحوة ، مُردفه خلفه ، والناس في أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون به ويقولون : من هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبد لى أبتعتُه بيثرب ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الحزورة فأبتاع له حلة ، ثم أدخله على أمراءته خديجة بنت سعد بن سهم ، فرجلت شعره ، ثم ألبسته الحلة عشيّة ، فجاء به فأجلسه في مجلس بنى عبد مناف ، وأخبرهم خبره ، فكان الناس بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سبيل مكة وهو أحسن الناس يقولون : هذا عبد المطلب - لقول المطلب : هذا عبيد - فلجّ به الاسم ، وترك به شعبة .

وروى الزبير رواية أخرى أن سمى أم عبد المطلب حالت بين المطاب وبين أبنها شعبة ، وكان بينها وبينه في أمره محاورة ، ثم غلبها عليه ؛ وقال :

عرفتُ شعبةَ والنَّجَّارُ قَدْ حَلَفْتُ أبناؤُها حوله بالنَّبلِ نَتَنَضِّلُ
فأما الشعر الذي لحذافة العذرى والذي ذكره شيخنا أبو عثمان فقد ذكره الزبير بن بكّار في كتاب النسب ، وزاد فيه :

كُنْسلُ الملوك ، لا يَبْور ولا يَجْرى	كُهلُهم خيرُ الكُهولِ ونَسْلُهم
تَفَلَّقُ عنهم بَيْضَةُ الطائرِ الصَّقْرِ	مُلُوكٌ وأبناءُ الملوكِ وَسَادَةٌ
تَجْدُهُ عَلَى أَجْراءِ والدِهِ يَجْرى	مَتَى تَلَقَّ منهم طَائِحاً فِي عِنايِهِ
وهم نَكَلُوا عنها غَوَاةَ بَنِي بَكْرِ	هم مَلِكُوا البَطْحَاءَ مَجْداً وَسُودُداً
وهم تَرَكُوا رَأْيَ السَّفَاهَةِ والهَجْرِ	وهم يَغْفِرُونَ الذَّنْبَ يُنْقِمُ مثْلُهُ
لهم شَأْ كَرَأ حَتَّى تُغَيَّبَ فِي القَبْرِ	أَخَارَجُ إِمَّا أَهْلِكَ نَّ فَلَ تَزَلْ

قال الزبير : وحدّثنى عن سبب هذا الشعر محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن ركبنا من جذام خرجوا صادّرين عن الحج من مكة ، فتلّقوا رجلاً منهم عالية بيوت مكة ، فليقون حذافة العذرى ، فربطوه وأنطلقوا به ؛ فتلّقاهم عبد المطلب مقبلاً من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به ؛ وعبد المطلب حينئذ قد ذهب بصرة ، فلما نظر إليه حذافة بن غانم هتف به ؛ فقال عبد المطلب لابنه :

وَيَلِّكَ ! مَنْ هَذَا ؟ قال : هذا حذافة بنُ غانمٍ مربوطاً مع ركب . قال : فألحقهم فسلهم
« ما شأنهم وشأنه ، فلحقهم أبو لهب فأخبروه الخبر ، فرجع إلى أبيه ، فأخبره ، فقال : وَيَحْك !
ما معك ؟ قال : لا والله ما معي شيء ؛ قال : فألحقهم لا أم لك ! فأعطهم بيديك ، وأطلق
الرجل ، فلحقهم أبو لهب ، فقال : قد عرفتم تجارتى ومالى ، وأنا أحلف لكم لأعطينكم
عشرين أوقية ذهباً ، وعشراً من الإبل وفرساً ، وهذا ردائى رهن . فقبلوا ذلك منه ،
وأطلقوا حذافة ، فلما أقبل به وقرّباً من عبد المطالب ، سمع عبدُ المطالب صوتَ أبي لهب ،
ولم يسمع صوت حذافة ، فصاح به : وأبى إنك لعاصي ! ارجع لا أم لك ! قال : يا أبتا
هذا الرجل معي ؛ فناداه عبدُ المطالب : يا حذافة ؛ أسمعنى صوتك . قال : هأنذا
بأبى أنت وأمى ياساقى الحبيج أردفنى ؛ فأردفته حتى دخل مكة ؛ فقال حذافة
هذا الشعر .

قال الزبير : وحدثني عبدُ الله بن مُعَاذ ، عن مَعْمَر ، عن أبْنِ شِهَاب ، قال : أوَّلُ
ما ذكر من عبد المطالب أن قريشاً خرجتْ فارتةً من الحرم خوفاً من أصحاب الفيل ،
وعبدُ المطالب يومئذ غلامٌ شابٌّ ، فقال : والله لا أخرج من حرم الله أبني العِرْ في غيره !
فجلس في البيت وأجبات^(١) قريش عنه ، فقال عبدُ المطالب :

لا همَّ إن المرءَ يَمَّ نَعُ رَحْلُهُ فامْنَعْ حَلَالَكْ
لا يَفَايَنَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبْدًا مِحَالَكْ^(٢)

فلم يزل ثابتاً في الحرم حتى أهلك الله الفيل وأصحابه ، فرجعت قريش وقد عظم فيهم
بصبره^(٣) وتعظيمه محارم الله عزَّ وجلَّ ؛ فبينما هو على ذلك - وكان أكبر ولديه وهو الحارث
ابن عبد المطالب قد بلغ الحلم - أرى عبدُ المطالب في المنام ، فقيل له : احفر زمزم ، حبيثة
الشيخ الأعظم . فاستيقظ فقال : اللهم بين لي الشيخ ، فأرى في المنام مرةً أخرى :

(٢) الحال : القدرة .

(١) أجلت : نفرقت .

(٣) ب « بصيرته » تحريف ، صوابه في ! .

إخْفِرْتُكُمْ^(١) بين القَرْتِ والدِّم ، في مَبْحَثِ الغراب ، في قَرْيَةِ النمل ، مستقبلة الأنصاب
 الحُر . فقام عبد المطلب فشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما مُمَيَّ له من الآيات ،
 فَنَحَرَ بَقْرَةً في الحزورة ، فأفلتت من جازريها بِحُشاشَةٍ نَفْسِهَا حتى غَلَبَ عليها الموتُ في
 المسجد في موضع زَمَزَم ، فاحتمل لحماً من مكانها ، وأقبل غراب يهوى حتى وقع في
 القَرْتِ فَبَحَثَ عن قَرْيَةِ النمل ، فقام عبد المطلب يحفرها ، فجاءته قريش فقالت له : ما هذا
 الصنع ، إن لم تكن نراك بالجهل ؛ لِمَ تحفر في مسجدنا ؟ فقال عبد المطلب : إني لحافر
 هذا البئر ، ومجاهدٌ من صدقي عنها ، فطفق يحفر هو وابنه الحارث ، وليس له يومئذ
 ولد غيره ، فيسفه عليهما الناس من قريش فينازعونهما ويقاتلونهما . وتناهى عنه ناس من
 قريش لِمَا يعمون من زعيق نسبه وصدقه ، واجتهاده في دينهم يومئذ ، حتى إذا أتعبه
 الحفر ، واشتدَّ عليه الأذى نذر إن وفي له عشرة من الولدان ينحدر أحدهم ، ثم حفر فأدرك
 سيوفاً دفنت في زمزم حين دفنت ، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت :
 يا عبد المطلب ، أخذنا^(٢) مما وجدت . فقال عبد المطلب : بل هذه السيوف لبيت الله ، ثم
 حفر حتى أنبط الماء ، فحفرها في القرار ، ثم بجرها حتى لا تنزف ، ثم بنى عليها حوضاً
 وطفق هو وابنه ينزعان فيملاآن ذلك الحوض ، فيشرب منه الحاج ، ويكسره قوم حسدة
 له من قريش بالليل ، فيصلحه عبد المطلب حين يصبح ، فلما أكثروا فساده دعا عبد المطلب
 ربه ، فأرَى ، فقليل له : قل : اللهم إني لأحلمها لغتسل ، وهي لشارب حلّ وبلّ ، ثم
 كفيتهم ، فقام عبد المطلب حين اختلّف قريش في المسجد ، فنادى بالذي أرى ، ثم انصرف
 فلم يكن يُفْسِد حوضه عليه أحدٌ من قريش إلا رُمي في جسده بداء ، حتى تركوا حوضه
 ذلك وسقايته . ثم تزوج عبد المطلب النساء ، فولد له عشرة رَهْط ، فقال : اللهم إني

(١) تكلم ، بضم فكون : اسم بئر زمزم .

(٢) أخذنا : أعطنا .

كنتُ نذرتُ لك نَحْرَ أَحَدِهِمْ ، وإني أُقْرِع بينهم ، فأصيب بذلك من شئت ، فأقْرِعَ بينهم ، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولده إليه ، فقال عبد المطلب : اللهم هو أحبُّ إليك أم مائة من الإبل ! فَنَحَرَهَا عبدُ المطلب مَكَانَ عبد الله ، وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئِيَ في قریش قط .

وَرَوَى الزبير أيضا قال : حدثني إبراهيم بن المنذر ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سلمان قال : سمعتُ أبي يقول : لما حُفرت زمزم ، وأدرك منها عبد المطلب ما أدرك ، وَجَدْتُ قُرَيْشٌ في أنفُسها مِمَّا أُعْطِيَ عبدُ المطلب ، فلقية خُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ فقال : يا ابن سامي ، لقد سقيت ماء رَغْدَا ، وثملت عادية حسدا ، فقال : يا ابن أَسَد ، أما إنك تَشْرِكُ في فضلها ، والله لا يساعدنِي أحدٌ عليها بِرٍّ ، ولا يقوم معي بارِزًا إلا بذلتُ له خيرَ الصَّهر ، فقال خُوَيْلِدُ بْنُ أَسَد :

أَقُولُ وما قولي عليهم بِسُبةٍ إليك ابن سامي أنت حافرُ زَمَزَمِ

حَفِيرَةُ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ ابنِ هَاجِرٍ وَرَكْضَةُ جَبْرِيلَ عَلَى عَهْدِ آدَمِ

فقال عبد المطلب : ما وجدتُ أحدا وَرِثَ الْعِلْمَ إلا قدمَ غَيْرَ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَد .

قال الزبير : فَأَمَّا رَكْضَةُ جَبْرِيلَ فَإِنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ قال : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدِمَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ مَكَّةَ ، فقال لهما : كَلَّا من الشجر ، واشربا من الشَّعَابِ . وفارقهما ، فلما ضاقت الأرضُ تَقَطَّعَتِ الْمِيَاهُ ، فَعَطِشْنَا ، فقالت له أمُّه : اصعد وانصب في هذا الوادي فلا أرى موبك ولا ترى موتى ، ففعل ، فأنزل الله تعالى ملكا من السماء على أمِّ إِسْمَاعِيلَ ، فأمرها فصَرَحتُ به ، فاستجاب لها ، وطار الملك فصرَبَ بِجَنَاحِيهِ مَكَانَ زَمَزَمِ ، فقال : اشربا ، فكان سَيِّحًا يَسِيحُ ، ولو تَرَكَاهُ ما زال كذلك أبدا ، لَكُنْهَا فَرَّقَتْ ^(١) عليه من العطش ، فقرت ^(٢) له في السَّقاء ، وحفرت في البَطْحاء ، فلما نَضَبَ الْمَاءُ طَوِيَاهُ ؛ ثُمَّ

(١) فرقت : خافت .

(٢) كذا في الأصول .

هلك الناس ، ودَفَنَتْهُ السُّيُول . ثم أرى عبدُ المطلب في المنام أن أحفر زمزم لا تُثَرَّب^(١) ولا تَدَم ، تُروى الحبيج الأعظم . ثم أرى مرة أخرى أن أحفر الزواء ، أعطيتها على رَغَم الأعداء . ثم أرى مرة أخرى ، أن أحفر تُكْتَم ، بين الأنصاب الحمر ، في قرية النمل . فأصبح يحفر حيث أرى . فطفقت قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطي وَجَدَ فيها غزالا من ذهب ، وحلية سيف ، فضرَبَ عليها بالسَّهْم ؛ فخرج سهم البيت ؛ فكان أول حُلِيٍّ حَلَّى به الكعبة .

قال الزبير : وكان حربُ بنُ أمية بن عبد شمس نديم عبد المطلب ، وكان عبيدُ بن الأبرص تزوجه ، وبلغ عبيد مائة وعشرين سنة ، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العلم : توفَّى عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف في عبد المطلب نور النبوة ، وهيبةُ الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إِنِّي وَاللَّاتِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَزَّ بِالْهَبْرِزِ عَبْدُ الْمَطْلَبِ^(٢)

قال الزبير : حدثني عمي مصعب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسنَّ وذهب بصره ، إذ زححه رجل ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقيل : رجل من بني بكر . قال : فما منعه أن يُنْكَبَ عَنِّي وقد رَأَى لا أَسْتَطِيعُ لأنْ أُنْكَبَ عنه ؟ فلما رأى بنيه قد توالوا عَشْرَةَ قال : لا بدَّ لي من العصا ؛ فَإِنْ اتَّخَذْتُهَا طَوِيلَةً شَقَّتْ عَلَيَّ ؛ وَإِنْ اتَّخَذْتُهَا قَصِيرَةً قَوِيْتُ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ يَنْحَدِبُ لَهَا ظَهْرِي ؛ وَالْحَدِيدَةُ ذَلَّ ، فَقَالَ بَنُوهُ : أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ؟ يُوَافِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَنَّا رَجُلٌ تَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ فَتَطُوفُ فِي حَوَائِجِكَ . قال : ولذلك قال الزبير : ومكَّارِمْ عبد المطلب أكثر من أن يُحَاطَ بِهَا ؛ كَانَ سَيِّدَ قَرِيشٍ غَيْرَ مُدَافِعٍ نَفْسًا وَأَبَاً وَبَيْتًا وَجَمَالًا وَبِهَاءً وَكَلَالًا وَفَعَالًا ؛ قَالَ أَحَدُ بَنِي كِنَانَةَ يَمْدَحُهُ :

(٢) الهبرز : الأسد .

(١) لا تُثَرَّب عليه : لا تُنمعه .

إني وما سترت فريش^(١) والذي تعزو لآل كلهن^(٢) ظباه^(٣)
وَوَحَقَّ مَنْ رَفَعَ الْجِبَالَ مُنِيفَةً^(٤) والأرضَ مَدًّا فَوْقَهُنَّ سَمَاءَ^(٥)
مُنٍّ وَمَهْدٍ لِابْنِ سَهْمٍ مِدْحَةً^(٦) فيها أداه ذِمَامِهِ وَوَفَاهُ

قال الزبير : فأما أبو طالب بن عبد المطلب - واسمه عند مناف ، وهو كافل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصره ، والرفيق به ، الشفيق عليه ، ووصي عبد المطلب فيه - فكان سيد بني هاشم في زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسود في الجاهلية بمال إلا أبو طالب وعُتْبة بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سنَّ القسامة^(٧) في الجاهلية في دم عمرو بن علقمة ، ثم أثبتتها السنة في الإسلام ، وكانت السقاية في الجاهلية بيد أبي طالب ، ثم ساءها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً مجيداً ، وكان نديماً في الجاهلية مسافراً بن عمرو ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حُبِنَ^(٨) فخرج ليتداوى بالحيرة ، فمات بهبالة^(٩) ، فقال أبو طالب يرثيه :

ليت شعري مسافرُ ابنُ أبي عمٍّ رٍو وليثُ يقولها الحزونُ
كيف كانت مذاقةُ الموتِ إِذْ مُتَّ وماذا بعدَ المماتِ يكونُ !
رَحَلَ الرَّكْبُ قَافِلِينَ إِلَيْنَا وَخَالِيَ فِي مَرْمَسٍ مَدْفُونُ
بُورِكَ الْمَيْتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُو رَكَ نَضْرُ الرِّيحَانِ وَالزَّيْتُونُ

(١) تعزو : نسب ؛ و ب : « كلهن » تعريب .

(٢) المنيفة : العالية .

(٣) القسامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم .

(٤) الحن بالتحريك : الاستسقاء .

(٥) هبالة : موضع .

رُزِي مَيِّتٍ عَلَى هُبَالَةٍ قَدْ حَا لَتْ قَيَافٍ مِنْ دُونِهِ وَحُزُونُ
مِدْرَةٍ يَدْفَعُ الْخُصُومَ بِأَيْدٍ وَبَوَاجِهِ يَزِينُهُ الْعَرَنِينَ^(١)
كَمْ خَلِيلٍ وَصَاحِبٍ وَابْنِ عَمٍّ وَحَمِيمٍ قَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَنُونُ!
فَتَعَزَّيْتُ بِالْجَلَادَةِ وَالصَّبْرِ رِيَّ وَإِنِّي بِصَاحِبِي لَضَنِينُ

قال الزبير : فلما هلك مسافرنا نادم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، ولذلك قال عمرو لعلي عليه السلام يوم الخندق حين بارزه : إن أبالك كان لي صديقا .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خربوذ ، قال : كان أبو طالب يحضر أيام الفجار ، ويحضر معه النبي صلى الله عليه وآله وهو غلام ، فإذا جاء أبو طالب هُزِمَتْ قيس ، وإذا لم يحمي هُزِمَتْ كنانة ، فقالوا لأبي طالب : لا أبالك ! لا تغب عنا ، ففعل .

قال الزبير : فأما الزبير بن عبد المطلب فكان من أشراف قريش ووجوهها ، وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزبير بن قصي بن قصي فأرسلت بنو قصي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم ، فقال لهم : إن قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم ، فأرسلوني إليكم في هذا السفينة الذي هجاكم في غير ذنب اجتمروا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأي رأيكم ، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسدوه إليهم ، فقال بعض بني سهم : إن شئتم فعلنا ؛ على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا . فقال عتبة : ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف ،

(١) الأيد : الشدة . والعرين : الأنف .

وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أجعل الزبير خطرا لابن الزبعرى ، فقال قائل منهم : أيها القوم ، ادفعوه إليهم ، فلعمري إن لكم مثل الذى عليكم ، فكثرت فى ذلك الكلام واللغط ، فلما رأى العاص بن وائل ذلك دعا بريمة ، فأوثق بها عبد الله ابن الزبعرى ، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة ، فأقبل به مربوطا حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه ، فأغرى ابن الزبعرى أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أهجهم كما أسلموك ، فقال :

لعمري ما جاءت بنكري عشيرتي	وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جنة الشر أن سيوفنا	بأيماننا مسلولة لا نسيمها
فيقطع ذو الصهر القريب ويتركوا	غماغم منها إذ أجدت يريمها ^(١)
فإن قصيا أهل مجد وثرو	وأهل فعال لا يرام قديمها
هم منعوا يومى عكاظ نساءنا	كما منع الشول الهجان قرومها ^(٢)
وإن كان هيج قدّموا فتقدّموا	وهل يمنع الحزاة إلا حميمها !
محاشيد للمقرى سراع إلى الندى	مرازية غلب رزان حلومها ^(٣)

قال : فقدّم الزبير بن عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التى يقول فيها :

فلولا الحس لم يابس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا^(٤)

وقد ذكرنا قطعة منها فيما تقدّم .

قال الزبير : وقال الزبير بن عبد المطلب أيضا فى هذا المعنى :

(١) بريمها : يطلبها .

(٢) الشائلة من الإبل : التى أتى عليها من حملها سعة أشهر نغف لبنها . وجمعه شول ، وهجان الإبل : كرامها .

(٣) المرربان : العارس الشجاع المتدّم على القوم دون الملك ، معرب ؛ والأصل فيه أحد مرازية الفرس ، وغاب : جمع أغاب ، وهو فى الأصل الغايظ الرقبة ، يصفون أبدأ السادة بغلظ الرقبة وطولها .

(٤) الحس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حسا لأنهم نحسوا فى دينهم ؛ أى تشددوا .

قومي بنو عبيد منافٍ إذا أظلم من حولي بالجندل
لا أسدّ لن يسلموني ولا تيمّ ولا زهرة للنيطل^(١)
ولا بنو الحارث إن مرّ بي يوم من الأيام لا ينجلي
بأيها الشاتم قومي ولا حقّ له عندهم أقبل
إني لهم جارٌّ لئن أنت لم تُقصر عن الباطل أو تعدل

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

يأليت شعري إذا ما تحمّتي وقعت ماذا تقول ابنتي في النوح تنعاني !
تنعى أباً كان معروف الدّفاع عن الـ مولى المضاف فكأ كاً عن العاني^(٢)
ونعم صاحب عانٍ كان رافده إذا تضجّع عنه العاجز الواني^(٣)

قال الزبير : وكان الزبير بن عبد المطلب ذا فطر وفكر ، أتى فقيل له : مات فلانٌ - لرجل من قريش كان ظالماً - فقال : بأيّ عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتف أنفه أفعال : لئن كان ما قلتموه حقاً لئن للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير يكنى بأبي الطاهر ، وكانت صفية بنت عبد المطلب كنت ابنها الزبير بن العوام أباً الطاهر دهنًا بكنية أخيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له الطاهر ، كان من أطرف فتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمى رسول الله صلى الله عليه وآله ابنه الطاهر ، وباسم الزبير سمّت أخته صفية ابنها الزبير ، وقالت صفية ترى أخاها الزبير بن عبد المطلب :

بكي زبيرٍ الخبير إذ مات إن كنتِ على ذى گرم باكية

(٢) العاني : الأسير .

(١) النيطل : الموت الوحى .

(٣) التضجّع في الأمر : التصبر فيه .

لو لَفَظْتُهُ الْأَرْضُ مَالَتْهَا أو أصبحت خاشعة عارِية
 قد كان في نفسى أن أتْرُكُ الْمَوْتى ولا أُتْبِعُهُمْ قَافِيَةً
 فلم أطق صَبْرًا على رُؤيته وجدته أقرب إخوانِيهِ
 لو لم أقل مِنْ فَيَّ قولاً له لَقَضَّت الْعَبْرَةُ أَضْلَاعِيهِ
 فهو الشَّامِى واليَاسِى إذا ماخَضَرُوا ، ذو الشَّفَرَةِ الدَّامِيهِ
 وقال ضِرَار بن الْخَطَّابِ يَبْكِيه :

بَكَى ضُبَاعُ عَلَى أَبِيهِ لكِ بكاء محزونٍ أليمٍ
 قد كنتُ أنشدُهُ فلا رَثَّ السَّالِحَ ولا سَلِيمٍ
 كالْكَوْكَبِ الدَّرَى يَمُ لو ضوءه ضوء النُّجُومِ
 زخرتْ به أَعْرَاقُهُ ونَمَاهُ والدُّهُ الْكَرِيمِ
 بين الْأَغْرِّ وهَانِمٍ فَرَعَيْنِ قد فَرَعَا الْقُرُومِ

فَأَمَّا الْقَتُولُ الْخُثُمِيَّةُ الَّتِي اغْتَصَبَهَا نَبِيهِ بْنُ الْحِجَّاجِ السَّهْمِيُّ مِنْ أَبِيهَا ، فَقَدْ ذَكَرَ
 الزَّيْبِرُ بْنُ بَكَّارٍ قِصَّتَهَا فِي كِتَابِ " أَنْسَابِ قُرَيْشٍ " .

قال الزبير : إن رجلاً من خُثَمِمْ قَدِمَ مَكَّةَ تاجراً ومعه ابنة يقال لها الْقَتُولُ ، أَوْضاً
 نساء العالمين ، فَعَمِقَهَا نَبِيهِ بْنُ الْحِجَّاجِ السَّهْمِيُّ ، فلم يَبْرَحْ حَتَّى غَابَ أَبَاهَا عَلَيْهَا ، وَنَقَّاهَا
 إِلَيْهِ ، فَقِيلَ لِأَبِيهَا : عَلَيْكَ مَخْلُفُ الْفُضُولِ ، فَأَتَاهُمْ فَشَكَا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ، فَأَتَوْا نَبِيهِ بْنَ
 الْحِجَّاجِ فَقَالُوا لَهُ : أَخْرِجِ ابْنَةَ هَذَا الرَّجُلِ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ مُنْتَبِذٌ ^(١) بِنَاحِيَةِ مَكَّةَ ، وَهِيَ مَعَهُ -
 وَإِلَّا فَإِنَّا مَنْ قَدْ عَرَفْتَ ، فَقَالَ : يَافُومَ ، مَتَّعُونِي بِهَا اللَّيْلَةَ ، فَقَالُوا : قَبْحَكَ اللَّهُ !

(١) مُنْتَبِذٌ ، أى مُنْتَجِعٌ نَاحِيَةِ مَكَّةَ .

ما أجْهَلَكَ ، لا والله ولا شَخْبَ لَقَحَّة ، فأخرجَهَا إليهم فأعطوها أباهَا ، فقال نبيسه بن
الحجَّاج في ذلك قصيدةً أولها :

راح صَحْنِي ولمْ أَحْيِ الْقَتُولَا لمْ أودَّعْهُمْ ودَاعَا جَمِيلَا ^(١)
إِذَا جَدَّ الْفُضُولُ أَنْ يَمْنَعُوهَا قَدْ أَرَانِي وَلَا أَخَافُ الْفُضُولَا
في أبيات طويلة .

وأما قصة البارقي فقد ذكرها الزبير أيضا .
قال : قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ ثُمَالَةَ مِنَ الْأَزْدِ مَكَّةَ ، فَبَاعَ سُلْعَةً مِنْ أَبِي بْنِ خَلْفِ الْجُمَحِيِّ
فَطَلَّهَ بِالْثَمَنِ ؛ وَكَانَ سَيِّئُ الْخَالِطَةِ ، فَأَتَى الثَّمَالِيَّ أَهْلَ حَلْفِ الْفُضُولِ فَأَخْبَرَهُمْ ، فَقَالُوا : اذْهَبْ
فَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَنَا ، فَإِنْ أَعْطَاكَ حَقَّكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ إِلَيْنَا ، فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ أَهْلُ حَلْفِ
الْفُضُولِ ؛ فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ حَقَّهُ فَأَعْطَاهُ ، فَقَالَ الثَّمَالِيُّ :

أَيَفْجُرُ بِي بَبْطُنِ مَكَّةَ ظَالِمًا أَتَيْتُ وَلَا قَوْمِي لَدَيَّ وَلَا صَحْنِي
وَنَادَيْتُ قَوْمِي بَارِقًا لَتُجِيبَنِي وَكَمْ دُونَ قَوْمِي مِنْ فَيَافٍ وَمِنْ سُهْبٍ ^(٢)
وَيَأْتِي لَكُمْ حَلْفُ الْفُضُولِ ظَلَامَتِي بَنِي مُجَحِّهِ وَالْحَقُّ يُؤْخِذُ بِالْقَصْبِ

وأما قصة حلف الفضول وشرفه فقد ذكرها الزبير في كتابه أيضا ، قال : كان بنو سهم
وبنو مجح أهل بغي وعدوان ؛ فأكثرُوا من ذلك ، فأجمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد
وبنو زهرة وبنو تيم على أن تحالفوا وتعاقدوا على ردِّ الظلم بمكة ، وألا يُظلم أحدٌ

(١) ب : « صبحي » تحريف ، صوابه في أ .

(٢) الفيف : المفازة التي لا ماء فيها ؛ ولذا أثبت فهي الفيفاء وجمعها الفيافي ، والسهب بفتح السين :
الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضم السين) وسكنت الهاء للشعر .

إِلَّا مَنَعُوهُ ، وَأَخَذُوا لَهُ بِحَقِّهِ ، وَكَانَ حِلْفُهُمْ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبَّ أَنْ لِي بِهِ خَيْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ الْيَوْمَ لَأَجَبْتُ ، لَا يَزِيدُهُ إِلَّا شِدَّةً » .

قال الزبير : كان رجلاً من بني أسد قد قدم مكة معتمراً ببضاعة ، فاشترأها منه العاص بن وائل السهمي ، فأواها إلى بيته ، ثم تغيب ، فابتغى الأسدى^(١) متاعه فلم يقدر عليه ، فجاأ إلى بني سهم يستعديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل له إلى ماله ، وطوّف في قبائل قريش يستنفر بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك أشرف على أبي قيس حين أخذت قريش مجالسها ، ونادى بأعلى صوته :

يَا لَرَجَالٍ مِظْلُومٍ بِبُضَاعَتِهِ بَبْطُنِ مَكَّةَ نَائِي الْأَهْلِ وَالنَّفَرِ
وَمُحَرِّمٍ أَشْعَثَ لَمْ يَقْصِ عُمْرَتَهُ يَا آلَ فِهْرٍ وَبَيْنَ الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ^(٢)
هَلْ مُنْصِفٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ فَرْتَجِعُ مَاغِيْبُوا أَمْ حَلَالٌ مَالٍ مَعْتَمِرٍ^(٣)!

فأعظمت ذلك قريش ، وتكلموا فيه ؛ فقال المطيّبون : والله إن قمنا في هذا ليفضبنّ الأحلاف ؛ وقالت الأحلاف : والله إن قمنا في هذا ليفضبنّ المطيّبون ؛ فقالت قبائل من قريش : هاتوا فلنحتلف حلفاً جديداً ؛ لننصرنّ المظلوم على الظالم ما بلّ بحرّ صوفة . فاجتمعت هاشم والمطلب وأسد وتيم وزهرة في دار عبد الله بن جدعان ورسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ معهم وهو شاب ابن خمس وعشرين سنة لم يوح إليه بعد ، فتحالفوا ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويردّوا إليه مظالمه من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، ففسلوا به أركانهم ، ثم جمعوه وأتوهم به فشرّ به ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

(٢) ب : « يا أهل » .

(١) في أ ، وب : « الزبيدي » ، تصحيف .

(٣) أ ، ب : « ضلال » تحريف .

فقالوا له : أدِّ إلى هذا حقّه ، فأدَّ إليه حقّه ، فكثروا كذلك دهرًا لا يُطْلَم أحد بمكة إلا أخذوا له حقّه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل في حِلْف الفضول .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أنَّ الحلف كان على ألاَّ يدعوا بمكة كلمًا ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلاَّ أنجدوه حتى يردوا عليه ماله ومظلمته ، أو يُبلوا في ذلك عُذْرًا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى التآسي في المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه إنما سمَّى حِلْف الفضول لأن رجلا كانوا في وجوههم تحالفوا على ردِّ المظالم ، يقال لهم فضيل وفضال وفضل ومفضل ، فسَمَّى هذا الحلف حِلْف الفضول ؛ لأنه أحيات تلك السنّة التي كانت ماتت .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان — وكان من علماء قريش — فقال له : يا أبا سعيد ، ألم نكن — يعني بني عبد شمس — ، وأنتم في حلف الفضول ؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتخبرني بالحق ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلاَّ جميعا في الجاهلية والإسلام .

قال الزبير : وحدثني محمد بنُ حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن الهادي الليثي ، أنَّ محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن عليّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما بذى الرّوة ، والوليد يومئذ أميرُ المدينة في أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيسطيل الوليد على بسلطانه !

أقسم بالله لينصفني من حقى أو لأخذن سيفي ثم أقوم فى مسجد الله فأدعو بحلف الفضول! فبلغت كلفه عبد الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لئن دعا به لأخذن سيفي ، ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً . فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى ، فقال مثلاً ذلك ، فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد بن عتبة ، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضى .

قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصة مثل هذه ، كان بينهما كلامٌ فى أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : اختر منى ثلاث خصال ؛ إما أن تشتري منى حقى ، وإما أن تردّه علىّ ، أو تجعل بينى وبينك ابن عمراً وابن الزبير حكماً ؛ وإلا فالرابعة ، وهى الصّيلم . قال معاوية : وماهى ؟ قال : أهتف بحلف الفضول ، ثم قام نفرج وهو مغضب ، فرّ بعبد الله بن الزبير فأخبره ، فقال : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدنّ ، أو قاعد لأقومنّ ، أو فائم لأمشينّ ، أو ماس لأسعينّ ، ثم لتنفذنّ روحى مع روحك ، أو لينصفنك . فبلغت معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصّيلم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك ؛ فقد اتبعناه^(١) منك .

قال الزبير : وحدثنى بهذه القصة على بن صالح عن جدّى عبد الله بن مّصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسين عليه السلام من عند معاوية وهو مغضب ، فلقى عبد الله بن الزبير ، فحدثه بما دار بينهما ، وقال : لأخيرنّه فى خصال ، فقال له ابن الزبير ما قال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقينى الحسين نخيرنّى فى ثلاث خصال ، والرابعة الصّيلم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصّيلم ، أظنك لقيته مغضباً ! فهات الثلاث ، قال : أن تجعلانى

(١) ب : « واتبعناه » .

أو ابن عمر بينك وبينه . قال : قد جعلتك بيني وبينه ، أو جعلت ابن عمر أو جعلتك جميعا . قال أو تُقرّ له بحقه ثم تسأله إياه . قال : قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إياه ، قال : أو تشره منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصيلم ؟ قال : يهتف بحلف الفضول ، وأنا أول من يجيبه . قال : فلا حاجة لنا في ذلك .

وبلغ الكلام عبد الله بن أبي بكر والمُسور بن مخزومة ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابن الزبير .

فأما تفجر الماء من تحت أخفاف بعير عبد المطلب في الأرض الجرز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة ، قال : لما أنبط^(١) عبد المطلب الماء في زمزم حسدته قريش ، فقالت له : يا عبد المطلب ، إنها بُرّ أئينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقّا فاشركنا معك . قال : ما أنا بفاعل ، إنّ هذا الأمر أمرٌ خصصتُ به دونكم وأعطيتُهُ من بينكم ، قالوا له : فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم حَكما أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هُذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب في نفرٍ من بنى عبد مناف ، وخرج من كلّ قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مفاوز^(٢) ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام نفد ما كان مع عبد المطلب وبنى أبيه من الماء فعطشوا عطشا شديدا ، فاستسقوا قومهم ، فأبوا أن يسقوهم ، وقالوا : نحن بمفازة ونخشى على أنفسنا مثل الذي أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وخاف على نفسه وأصحابه الهلاك ، قال لأصحابه : ماترون ؟ قالوا : مارأينا إلّا تبع لرأيك ، فمرنا بما أحببت ، قال : فإنّي أرى أن يحفر كلّ رجل منا حفرة لنفسه بمامعه الآن من القوّة ؛ فكلّمّا مات رجل دفنّه أصحابه في حفرة ؛ حتى يكون رجل واحد ، فضيعة

(١) أنبط الماء : استخرجه وطلبه .

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهي البرية القفر ، أو القلا ماء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من حرح منها وتبعد عنها فاز وغم .

رجل واحد أيسر من ضيعة ركب ، قالوا : نِعَم ما أشرت ! فقام كل رجل منهم فحفروا حفرة لنفسه ، وقعدوا ينتظرون الموت . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب في الأرض فنطلب الماء لعجز ؛ قوموا فعمسى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأرض ، ارتحلوا . فارتحلوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم صانعون ، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجر من تحت خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلموا إلى الماء ، فقد أسقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فاشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضى الله لك علينا ، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقائك راشداً . فرجع ورجعوا معه ، لم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم^(١) .

وروى صاحب كتاب الواقدي أن عبد الله بن جعفر فاخر يزيد بن معاوية بين يدي معاوية ؛ فقال له : بأي آباءك تفاخرني ؟ أبحرب الذي أجرناه ، أم بأمية الذي ملكناه ، أم بعبد شمس الذي كفلناه ! فقال معاوية : لحرب بن أمية يقال هذا ! ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب يزعم أنه أشرف من حرب ! فقال عبد الله : بلى أشرف منه من كفأ عليه إناؤه وجلله^(٢) بردائه ! فقال معاوية ليزيد : رويدا يا بُني ، إن عبد الله يفخر عليك بك لأنك منه وهو منك . فاستحيا عبد الله وقال : يا أمير المؤمنين يدان انتسبنا^(٣) وأخوان اصطربا . فلما قام عبد الله ، قال معاوية ليزيد : يا بُني إياك ومنازعة

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) جلله بردائه ؛ وفي حديث علي : « اللهم جلل تلة عثمان خزياً » ، أى غطهم به وألبسهم إياه .

(٣) انتسبنا ، على البناء للمجهول ؛ انترعنا واختلسنا .

بنى هاشم فإنهم لا يجملون ماعلوا، ولا يجدُ مُبغضهم لهم سباً، قال: «أما قوله: أبجر الذي أجرناه»، فإن قريشا كانت إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحد حتى تجوز قريش، فخرج حرب ليلة فلما صار على العقبة لقيه رجل من بني حابس بن زرارة تميمي فتنحى حرب بن أمية وقال: أنا حرب بن أمية، فتنحى التيمي وقال: أنا ابن حابس ابن زرارة، ثم بدر فجاز العقبة، فقال حرب: لاها الله لا تدخل بعدها مكة وأنا حي! فلكك التيمي حيناً لا يدخل، وكان متجراً بمكة، فاستشار بها بمن يستجير من حرب، فأشير عليه بعبد المطلب أو بابنه الزبير بن عبد المطلب. فركب ناقته وصار إلى مكة كيلاً، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب، فرغت^(١) الناقة؛ فخرج إليه الزبير فقال: أمستجير فتجار، أم طالب قرى فقرى! فقال:

لاقيت حرباً بالثنية مقبلاً	والليل أبلغ نوره للساري
فعلًا بصوتٍ واكتنى لبروغي	ودعا بدعوة معلنٍ وشعار
فتركته خلفي وجزت أمامه	وكذاك كنت أكون في الأسفار
فضى يهددني ويمنع مكة	ألا أحل بها بدار قرار
فتركته كالكلب ينبح وحده	وأنت قرم مكارم ونجار ^(٢)
كيتاً هزبراً يستجار بقربه	رحب المباءة مكرماً للجار ^(٣)
وحلفت بالبهيت العتيق وحجبه	وبزمزم والحجر والأستار
إن الزبير لم أنمى بمهند	صافي الحديد صارم بتار

فقال الزبير: اذهب إلى المنزل فقد أجرتك. فلما أصبح نادى الزبير أخاه العيذاق،

(١) يقال: رغت الناقة ترغو رغاء: صوتت وصحت. وفي المثل: «كنى برغائها منادياً»، أي أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء في التعرض للضيافة والقرى.

(٢) القرم من الرجال: السيد المعظم.

(٣) الهزبر: الأسد، والمباءة: المراح الذي تبيت فيه الإبل.

نفجرا متقلدين سيفيهما ، وخرج التميمي معهم ، فقال له : إِنَّا إِذَا أَجَرْنَا رَجُلًا لَمْ نَمْسِ
أَمَامَهُ ، فامش أَمَامَنَا تَرْمُقُ أَبْصَارُنَا كِي لَا تُخْتَلَسَ مِن خَلْفِنَا . فجعل التميمي يشق مكة
حتى دخل المسجد ، فلما بَصُرَ به حرب قال : وَإِنَّكَ لَهَاهِنَا ! وسبق إليه فلطمه ، وصاح
الزبير : تَكَلَّتْكَ أُمَّكَ ! أَتَلِطُّمُهُ وَقَدْ أَجَرْتُهُ ! فثنى عليه حَرْبٌ فَلَطَمَهُ ثَانِيَةً ، فانتضى
الزبير سيفه ، فحمل على حَرْبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وسعى الزبير خلفه فلم يرجع عنه حتى هَجَمَ
حَرْبٌ عَلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ دَارَهُ ، فقال : مَا شَأْنُكَ ؟ قال : الزبير ، قال : اجلس ، وكفأ
عليه إِنْاءً كَانَ هَاشِمٌ يَهْشَمُ فِيهِ الثَّرِيدَ ، واجتمع الناس ، وانضمَّ بنو عبد المطلب إلى الزبير ،
ووقفوا على باب أبيهم بأيديهم سُيُوفُهُمْ ، فَأَزَّرَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ حَرْبًا يَزَارُكَانَ لَهُ ، وَرَدَّاهُ
بِرَدِّهِ لَهُ طَرَفَانِ ، وَأَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، فَعَلَمُوا أَنَّ آبَاهُمْ قَدْ أَجَارَهُ .

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ : « أُمُّ بَأْمِيَّةٍ الَّذِي مَلَكَهَا ! » ، فَإِنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ رَاهَنَ أُمِّيَّةَ بَنِ
عَبْدِ شَمْسٍ عَلَى فَرَسَيْنِ ، وَجَعَلَ الْخَطَرَ مِّنْ سَبَقَتْ فَرَسُهُ مَائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَعَشْرَةَ أَعْبُدَ
وَعَشْرَ إِمَاءٍ وَاسْتَعْبَادَ سَنَةً ، وَجَزَّ النَّاصِيَةَ . فَسَبَقَ فَرَسُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَأَخَذَ الْخَطَرَ فَقَسَمَهُ
فِي قَرِيشٍ ، وَأَرَادَ جَزَّ نَاصِيَتِهِ ، فَقَالَ : أَوْ أَفْتَدِي مِنْكَ بِاسْتِعْبَادِ عَشْرِ سَنِينَ ! ففعل ،
فَكَانَ أُمِّيَّةً بَعْدُ فِي حَشَمِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَعَضَارِيْطِهِ ^(١) عَشْرَ سَنِينَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « أُمُّ بَعْدِ شَمْسٍ الَّذِي كَفَلْنَاهُ ! » فَإِنَّ عَبْدَ شَمْسٍ كَانَ مُمْلَقًا لَا مَالَ لَهُ ،
فَكَانَ أَخُوهُ هَاشِمٌ يَكْفُلُهُ وَيَمُونُهُ إِلَى أَنْ مَاتَ هَاشِمٌ .

وَفِي كِتَابِ ” الْأَغَانِي “ ، لِأَبِي الْفَرَجِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ لِدَغْفَلِ ^(٢) النَّسَابَةَ : أَرَأَيْتَ
عَبْدَ الْمَطْلَبِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : كَيْفَ رَأَيْتَهُ ؟ قَالَ : رَأَيْتُهُ رَجُلًا نَدِيلاً جَمِيلاً وَضِيئاً ، كَأَنَّ عَلَى

(١) العضاريط : جمع عضرط ، وهو الرجل الذي يخدم بطعام بطنه .

(٢) في الأصول : « دغبل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغاني .

وجهه نور النبوة^(١). قال : أفرأيت أمية بن عبد شمس^(٢) ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيته ؟ قال : رأيته رجلاً ضئيلاً^(٣) منحنياً أعمى يقوده عبده ذكوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أنتم تقولون ذلك ، فأمّا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده^(٤) .

ونقلت من كتاب "هاشم وعبد شمس" لابن أبي ربيعة الدباس .
قال : روى هشام بن الكلبي عن أبيه ، أن نوفل بن عبد مناف ظلم عبد المطلب ابن هاشم أركاحاً له بمكة - وهي الساحات - وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبد المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبد المطلب قوماً من قومه فقصرُوا عن ذلك ، فاستنجد أخواله من بني النجار بيثرب ، فأقبل معه سبعون راكباً ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عدى ، ما رأينا بهذا الغائط ناشئاً أحسن وجهاً ، ولا أمدّ جسماً ، ولا أعفّ نفساً ، ولا أبعده من كل سوء من هذا الفتى - يعنون عبد المطلب - وقد عرفت قرابته منا ، وقد منعتنا ساحات له ، ونحن نحب أن تردّ عليه حقه ، فردّه عليه ، فقال عبد المطلب :

تأبى مازن وبنو عديّ وذبيان بن تيم اللات ضيمى
وزادت مالك حتى تناهت ونكّب بعد نوفل عن حرى

قال : ويقال إن ذلك كان سبب مخالفة خزاعة عبد المطلب .

قال : وروى أبو اليقظان سحيم بن حفص : أن عبد المطلب جمع بنيّه عند وفاته - وهم عشرة يومئذ - فأمرهم ونهاهم وأوصاهم وقال : إياكم والبغى ، فوالله ما خلق الله شيئاً

(١) الأغاني : « من رأيت من عبيسة قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطاب بن هاشم وأميه بن عبد شمس ، فقال : صفهما لى ، فقال : كان عبد المطاب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، فى جبينه نور النوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيّه كأنهم أسد عاب » .

(٢) الأغاني : « قال : صف لى أميه » . (٣) الأغاني : « نحيف الجسم ضريراً » .

(٤) الأغاني ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أعجل عقوبة من البغي ، وما رأيت أحداً بقي على البغي إلا إخوانكم من بني عبد شمس .
وروى الوليد بن هشام بن قحزم ، قال : قال عثمان يوما : ودئت أني رأيت رجلا
قد أدرك الملوك يحدثني عما مضى ؛ فذكر له رجل بخضر موت ، فبعث إليه فحدثه حديثنا
طويلا تركنا ذكره - إلى أن قال : أرأيت عبد المطلب بن هاشم ؟ قال : نعم ، رأيت رجلا
قعدا ^(١) أبيض طويلا مقرون الحاجبين ، بين عينيه عرة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه
بركة ، قال : أفرأيت أمية بن عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيت رجلا آدم دميما قصيرا
أعمى يقال : إنه نكد ، وإن فيه نكد ، فقال عثمان : « يكفيك من شر سماءه ^(٢) »
وأمر بإخراج الرجل .

وروى هشام بن الكلبي أن أمية بن عبد شمس لما كان غلاما ، كان يسرق الحاج
فسمى حارسا .

وروى ابن أبي روبة في هذا الكتاب أن أول قتيل قتله بنو هاشم من
بني عبد شمس عفيف بن أبي العاص بن أمية ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ولم أف على
هذا الخبر إلا من كتاب ابن أبي روبة .

قال : ومما يصدق قول من روى أن أمية بن عبد شمس استعبده عبد المطلب شعر
أبي طالب بن عبد المطلب حين تظاهرت عبد شمس ونوفل عليه وعلى رسول الله صلى
الله عليه وآله وحصروها في الشعب ، فقال أبو طالب :

توالى علينا موليانا كلالها إذا سئلا قالوا إلى غيرنا الأمر
بلى لها أمر ولكن تراجما كما أرتجمت من رأس ذى القلع الصخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا ها تبدانا مثل ما تبدت الخمر
ها أغمضا للقوم في أخويهما فقد أصبحت أيديهما وها صفر

(١) القعد : الحسن الهيئة .

(٢) مثل ، ولفظه في جمع الأمثال ١ : ١٩٤ : « حسبك من شر سماءه » ، وأول من قاله أم الربيع
ابن زياد العبسي .

قَدِيمًا أَبُوهُمْ كَانَ عَبْدًا لَجَدْنَا بَنَى أَمَّةً شَهْلَاءَ جَاشَ بِهَا الْبَحْرُ
لَقَدْ سَفَّهُوا أَحْلَامَهُمْ فِي مُحَمَّدٍ فَكَانُوا أَكْجَعْرِيَّ بئْسَ مَا ضَعَفَتْ جُعْرُ^(١)

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبي عثمان ، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أول غير ناظرٍ تعاطى
الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أربعة خلفاء في نسق ،
قلنا لهم : ولبنى هاشم : هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن
عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجّاد ، كان يصلي كل يوم ليلة ألف ركعة ،
فكان يقال له السجّاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قريش على وجه الأرض وأوسمها ،
وُلِدَ لَيْلَةً قَتَلَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسُمِّيَ بِاسْمِهِ ، وَكُنِيَ بِكُنْيَتِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :
لَا وَاللَّهِ لَا أَحْتَمِلُ لَكَ الْأَسْمَ وَلَا الْكُنْيَةَ ، فَغَيَّرَ أَحَدُهُمَا ، فَغَيَّرَ الْكُنْيَةَ فَصَيَّرَهَا أَبَا مُحَمَّدٍ بَنَ
عَبْدَ اللَّهِ ، وَهُوَ الْبَحْرُ ، وَهُوَ حَبْرُ قُرَيْشٍ ، وَهُوَ الْمُفَقَّهُ فِي الدِّينِ الْمُعَلِّمُ التَّأْوِيلِ ، ابْنُ الْعَبَّاسِ
ذِي الرَّأْيِ ، وَحَلِيمُ قُرَيْشٍ ، بَنُ شَيْبَةَ الْحَدِّ ، وَهُوَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ سَيِّدُ الْوَادِي بْنِ عَمْرٍو ، وَهُوَ
هَاشِمُ ، هَاشِمُ الثَّرِيدِ ، وَهُوَ الْقَمَرُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمَالِهِ ، وَلَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَدُونَ وَيَهْتَدُونَ بِرَأْيِهِ ،
أَبْنُ الْغَيَرَةِ وَهُوَ عَبْدُ مَنْفٍ ، بَنُ زَيْدٍ ، وَهُوَ قُصَيٌّ وَهُوَ مُجَمِّعٌ ، فَمَوْلَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ سَيِّدًا
لَمْ يُجَرِّمْ مِنْهُمْ وَاحِدٌ ، وَلَا قَصَّرَ عَنِ الْغَايَةِ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ مُلَقَّبٌ بِلَقَبٍ اشْتَقَّ
لَهُ مِنْ فِعْلِهِ الْكَرِيمِ ، وَمَنْ خَلَقَهُ الْجَلِيلُ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا خَلِيفَةٌ ، أَوْ مَوْضِعٌ لِلْخَلِيفَةِ أَوْ سَيِّدٌ
فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ مَنِيْعٌ ، أَوْ نَاسِكٌ مُقَدِّمٌ ، أَوْ فَاقِيهِ بَارِعٌ ، أَوْ حَلِيمٌ ظَاهِرُ الرَّكَاةِ^(٢) ؛ وَلَيْسَ
هَذَا لِأَحَدٍ سِوَاهُمْ ، وَمِنْهُمْ خَمْسَةُ خُلَفَاءَ فِي نَسَقٍ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا عَدَّتْهُ الْأُمُويَّةُ ، وَلَمْ يَكُنْ

(١) ضفطت : أهدت ، والجعر : جمع جعراء ، وهي الاست .

(٢) الركاة : الوقار والهيبة .

مروانُ كالمَنصور لأنَّ المنصور مَلَكَ البلاد ودَوَّخَ الأقطار ، وضَبَطَ الأطراف اثنتين وعشرين سنةً ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كُلِّه ، وإِنَّمَا بَقِيَ في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من بَعْلِها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مَرَّوان مستوجبا لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلديان فضلا عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان مَلَكَ الأرض إلا بعضَ الأزدنَّ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولاده لما اتَّصل بسُلطان مَرَّوان اتَّصل عند القوم ما أنقطع منه وأخفى مَوْضع الوَهْن عند من لا عِلْمَ له ، وسِنُو المَهْدَى كانت سِنِي سلامة ، وما زال عبدُ الملك في انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون ، ولا مُلك الوليدِ كملك المَعْتَصِم .

قلت : رَحِمَ اللهُ أبا عثمان ! لو كان اليومَ لَعَدَّ من خلفاء بني هاشم تسعةً في نَسَق : المستَعصِم بن المستنصر بن الطاهر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتضى بن المستظهر بن المقتدر . والطالبيون بِعَصْرِ يَعُدُّونَ عشرةً في نَسَق : الأَمير بن المستعلى بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعتز بن المنصور بن القائم بن المهدي .

قال أبو عثمان : وتَفَخَّرَ عليهم بنو هاشم بأن سِنِي مُلْكهم أَكْثَر ، ومدته أطول ، فإنه قد بلغتْ مدَّة مُلْكهم إلى اليوم أربعة وتسعين سنة . وَيَفْخَرُونَ أَيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحقِّ العصبة والعومة ، وأن مُلْكهم في مَغْرَس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان ، بل ليس لبني مَرَّوان فيها سبب ، ولا بينهم وبينها نَسَب ، إلا أن يقولوا : إِنَّا من قريش فَيُسَاوُوا في هذا الاسم قريش الظواهر ، لأن رواية الراوى : « الأئمة من قريش » واقعة على كلِّ قرشيٍّ ، وأسباب الخلافة معروفة ، وما يدَّعيه كلُّ جيل معلوم ؛ وإلى كلِّ ذلك قد ذهبَ الناس ، فمنهم من ادَّعاه لعلِّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصية ؛ فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبي سفيان وآل مروان فيها دعوى ، وإن كانت

إنما تُنال بالورائة ، وتُستحقّ بالعمومة ، وتُستوجب بحقّ العصبه ، فليس لهم أيضا فيها دعوى . وإن كانت لا تُنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قدّم مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم ما يستحقّون به الخلافة ، ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشدّ المنع ، لكان أهون ، وكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سُفيان في عداوة النبيّ صلى الله عليه وآله وفي محاربتة له ، وإجلاله عليه وغزوّه إياه ، وعرفنا إسلامه حيث أسلم ، وإخلاصه كيف أخلص ، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامه يومَ حنين ، وقوله يومَ صَعِدَ بلالٌ على الكعبة ، فأذن . على أنّه إنما أسلم على يدى العباس رحمة الله ، والعباس هو الذى منع الناسَ مِنْ قتلِهِ ، وجاء به رَدِيفًا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرّمه وينوّه به ، وتلك يدٌ بيضاء ، ونعمة غرّاء ، ومقامٌ مشهود ، ويومٌ حُنين غيرُ مجحود ، فكان جزاءه بنى هاشم من بنيهِ أن حاربوا عليًا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وسمّوا النساء على الأفتاب حواسر^(١) ، وكشفوا عن عورة عليّ بن الحسين حين أشكل عليهم بُلُوغُهُ كما يُصنّع بذراريّ المشركين إذا دخلت دُورُهُم عَنوة ، وبعث معاوية بُسرَ بنَ أرطاة إلى الين ؛ فقتل أُنثى عبید الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحُلُم ، وقتلَ عُبيدُ الله بنُ زياد يومَ الطّف تسعةً من صُلُب عليّ عليه السلام ، وسبعةً من صُلُب عَقيل ، ولذلك قال ناعيمهم :

عَيْنُ جَوْدِي بِمَنْبَرَةٍ وَعَوِيلٍ وَأُنْدَبِيْ إِنْ نَدَبَتْ آلَ الرَّسُولِ
تَسْعَةَ كُلِّهِمْ لَصُلْبِ عَلِيٍّ قَدْ أَصِيبُوا وَسَبْعَةَ لَعَقِيلِ

ثم إن أُمّية تزعم أنّ عَقِيلًا أعان معاوية على عليّ عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ! وإن كانوا صادقين فما جازوا عَقِيلًا بما صنع ! وضرب عُنُق مسلم

(١) حواسر : كراشف .

ابن عقيل صبرا وغدرا بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ،
ولذلك قال الشاعر :

فإن كنت لا تدبرين ما الموتُ فأُنظري إلى هاني في السوق وابن عقيل^(١)
تركي بطلا قد هشم السيف وجهه^(٢) وآخر يهوي من طمار قتييل
وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم
من نقر بين ثنيتي الحسين عليه السلام بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرة عون بن
عبد الله بن جعفر ، ويوم الطف أبا بكر بن عبد الله بن جعفر . وقتل يوم الحرة أيضاً
من بني هاشم الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعباس بن
عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد المطلب .

قلت : إن أبا عثمان قيس بين مدتي ملكهما وهو حينئذ في أيام الوراق ، ففضل
هؤلاء عليهم ، لأن ملكهم أطول من ملكهم بعشر سنين ، فكيف به لو كان اليوم
حيّاً ، وقد امتد ملكهم خمسمائة وست عشرة سنة ! وهذا أكثر من ملك البيت
الثالث من ملوك الفرس بنحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن الفخر بطول مدة الملك
فبنو هاشم قد كان لهم أيضاً ملك بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما ملكوه بالمغرب
قبل أن ينتقلوا إلى مصر .

(١) البيتان في اللسان ٦ : ١٧٤ ؛ ونسبها إلى سليم بن سلام الحنفي .
(٢) اللسان : قد عقر السيف . وطمار : المكان العالي ؛ قال صاحب اللسان : « وينشد من طمار
بفتح الراء وكسرهما ، محرى وغير محرى » قال : « وروى : قد قرح السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشمٌ لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد ، لا لذنوب أتيناه إليكم ، ضربتم علي بن عبد الله بن عباس بالسيّاط مرتين ، علي أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك ، وعلي أن تحكمتموه قتل سليط ، وسمّتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، ونبشتم زيدا وصلبتموه ، وألقيتم رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الدجاج ، حتى قال القائل :

اطرُد الديك عن ذؤابة زيدٍ طالما كان لا تطأه الدجاجُ
وقال شاعركم أيضا :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديّا على الجذع يُصلبُ
وقسمتم بعثمان عليا سفاهة وعثمان خير من علي وأطيبُ

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت عليهم السلام قال : اللهم إن كان كاذبا فسلط عليه كلبا من كلابك ، نخرج يوما بسفر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفرا الصادق عليه السلام ، وقتلتم يحيى بن زيد ، وسمّتم قاتله : ثائر مروان ، وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام ، أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات ، فإن أنشدتم :

أفاض المدايع قتلى كدى وقتلى بكثوة لم ترمس
وبالزّابين نفوس توت وأخرى بئر أبي فطرس
أنشدنا نحن :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلاً بجانب المهراس

والقتيل الذي بنجران أُمسى ثاوياً بين غربةٍ وتَناسٍ
وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلاً لافقهُ له ، ولا يعرف بالزهد ولا
الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعدهمة ، وإنما ولى رستاقاً من رَساتيق
دار مجرد لابن عامر ، ثم ولى البحرين لمعاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليباع ابن
الزبير حتى رَدّه عبيد الله بن زياد ، وقال يومَ مرج راهط ، والرءوس تندّر^(١) عن كواهلها
في طاعته :

وما ضرهم غير حين النفوس وأى غلامى قريش غلب
هذا قول من لا يستحق أن يلى ربعا من الأرباع ، ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد
من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ولعينه والمتخلى
في مشيته ، الحاكي لرسولِ الله صلى الله عليه وآله ، والمستمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريداً
لأبي بكر وعمر ، امتنعاً عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبل شفاعَةَ عثمان ، فلما وُلّي أدخله ،
فكان أعظم الناس شؤماً عليه ، ومن أكبر الحُجج في قتله وخلعه من الخلافة ، فعبد
الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرقُ الناس في الكفر لأن أحدَ
أبويهِ الحكم هذا ، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ؛ كان النبي صلى
الله عليه وآله طرده من المدينة ، وأجلّه ثلاثاً ، فخيرَ الله تعالى حين خرج ، وبقي متردداً
متلداً حولها لا يهتدى لسبيله ، حتى أرسل في أثره عليّاً عليه السلام وعماراً ، فقتلاه ، فأنتم
أعرقُ الناس في الكُفر ، ونحن أعرقُ الناس في الإيمان ؛ ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا
أولاهم بالإيمان ، وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ
ملكوا ، قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأسماء بعمال الخراج

(١) تندّر ؛ أى تسقط فلا يحتسب بها .

بالتعليق والزَّهْق والتجريد والتسمير والمسالد والنورة والجورتين والمذراء والجامعة
والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا ، وفي الطاعون يقول العُمَافِيّ الراجز
يذكر دَوْلَتنا :

قد رفعَ اللهُ رِمَاحَ الجنِّ وأذهبَ التعذيبَ والتَّجَنِّيَّ
والعرب تسمي الطواعين رِمَاحَ الجنِّ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما خَشِيتُ على أبيِّ رِمَاحَ بنى مقيدة الحمارِ
ولكني خَشِيتُ على أبيِّ رِمَاحَ الجنِّ أو إِيَّاكَ حارِ
يقول بعضُ بنى أسد للحارث النَسائيَّ الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشمٌ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبةَ ، ولم يُحوِّلوا القبلةَ ، ولم
يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يخنموا في أعناق الصحابةَ ، ولم يغيِّروا أوقات الصلوات ، ولم
ينقشوا أكفَّ المسلمين ، ولم يأكلوا الطعامَ وَيَشْرَبُوا على منبر رسول الله صلى الله عليه
 وآله ، ولم ينهبوا الحرم ، ولم يطنثوا المسلمات دار في الإسلام بالسُّبَاء .

قلت : نقلت من كتاب ” افتراق هاشم وعبد شمس “ لأبي الحسين محمد بن علي بن
نصر المعروف بابن أبي رُوثة الدباس قال : كان بنو أمية في ملكهم يؤدُّون و يقيمون
في العيد ويخطبون بعد الصلاة ، وكانوا في سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير في الركوع
والسجود ، وكان لهشام بن عبد الملك خصيٌّ إذا سجد هشام وهو يصلي في المقصورة قال :
لا إله إلا الله ؛ فيسمع الناس فيسجدون ، وكانوا يقعدون في إحدى خُطبتي العيد والجمعة
ويقومون في الأخرى ، قال : ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يخطب قاعدا ، والله تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾^(١).

قال : وأول من قعد في الخطب معاوية ، وأول من أذن وأقام في صلاة العيد بسر ابن مروان ، وكان عمال بني أمية يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، ويقولون : هؤلاء فرّوا من الجزية ، يأخذون الصدقة من الخيل ، وربما دخلوا دار الرجل قد نفق^(٢) فرسه أو باعه ، فإذا أبصروا الآخية ، قالوا : قد كان هاهنا فرس ، فهات صدقتها ، وكانوا يؤخرون صلاة الجمعة تشاغلا عنها بالخطبة ، ويطيّلون فيها ، إلى أن تتجاوز وقت العصر ، وتسكاد الشمس تصفرّ ؛ فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ويزيد أخوه والحجاج عاملهم ، ووكل بهم الحجاج المسالخ معه والسيوف على رؤوسهم ، فلا يستطيعون أن يصلوا الجمعة في وقتها .

وقال الحسن البصري : وأعجبنا من أخيفش^(٣) أعيمس ! جاءنا ففتننا عن ديننا ، وصعد على منبرنا ، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس فيقول : ما بالكم تلتفتون إلى الشمس ! إنّا والله ما نصلى للشمس ، إنما نصلى لربّ الشمس ! أفلا نقولون : ياعدو الله ، إن الله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم عِلج^(٤) قائم بالسيف !

قال : وكانوا يسبون ذراري الخوارج من العرب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزخاف الخارجيان ، سب زياد ذراريهما ، فأعطى شقيق بن ثور السدوسي إحدى نياتهما ، وأعطى عباد بن حصين الأخرى . وسببت بنت لُعبيدة بن هلال الشكري ، وبنّت لقطريّ ابن الفجاءة المازني ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، واسمها أم سلامة ؛

(١) سورة الصف ١١ . (٢) نفق فرسه ؛ أى مات .
(٣) الخفش بالتحريك : ضيق في البصر وضعف في العين . (٤) العِلج : الرجل القوى النجم .
(١٦ - نهج - ١٥)

فوطئها بملك اليمن على رأيهم ، فَوَلَدَتْ لَهُ الْمُؤَمِّلُ ، وَمُحَمَّدًا ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَأَحْمَدَ ، وَحَصِينًا ؛
 بنى عباس بن الوليد بن عبد الملك . وَسُيِّىَ وَاصِلُ بن عمرو القنا واستُرِقَّ ، وَسُيِّىَ سَعِيدُ
 الصغير الحُرُورِيِّ واستُرِقَّ ، وأم يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ ، وكانت من سَبَى عُثْمَانَ الَّذِينَ
 سَبَاهُمْ مَجَاعَةً ، وكانت بنو أُمَيَّةَ تَبِيعُ الرَّجُلَ فِي الدِّينِ يَلْزَمُهُ وَتَرَى أَنَّهُ يَصِيرُ بِذَلِكَ رَقِيقًا .
 كَانَ مَعْنُ أَبُو عَمِيرَ بن مَعْنُ السَّكَاتِبِ حَرًّا مَوْلَى لَبْنَى الْعَنْبَرِ ، فَبِيعَ فِي دَيْنٍ عَلَيْهِ ،
 فَاشْتَرَاهُ أَبُو سَعِيدَ بن زِيَادَ بن عمرو الْعَتَكِيُّ ، وَبَاعَ الْحَجَّاجُ عَلَى بن بشير بن الماحوز لكونه
 قَتَلَ رَسُولَ الْمُهَلَّبِ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ .

فَأَمَّا الْكَعْبَةُ فَإِنَّ الْحَجَّاجَ فِي أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ هَدَمَهَا ، وَكَانَ الْوَلِيدُ بنُ يَزِيدَ يَصَلِّي
 إِذَا صَلَّى أَوْفَاتَ إِفَاقَتِهِ مِنَ السَّكْرِ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ ، فَقِيلَ لَهُ ، قُمْرًا : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَسَمَّ
 وَجْهَهُ اللَّهُ ﴾ ^(١) .

وخطب الحجَّاجُ بالكوفة فذكر الذين يزُورون قبرَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
 بِالْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : تَبَّاهُمْ ! إِنَّمَا يَطُوفُونَ بِأَعْوَادٍ وَرِمَةٍ بَالِيَةٍ إِهْلًا طَافُوا بِقَصْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ ! أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ رَسُولِهِ !

قَالَ : وَكَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ تَخْتِمُ فِي أَعْنَاقِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا تُوسِّمُ الْخَيْلُ عِلَامَةً لِاسْتِعْبَادِهِمْ
 وَبَايَعُ مُسْلِمٌ بَنُ عَقْبَةَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَفَّةً ، وَفِيهَا بَقَايَا الصُّحَابَةِ وَأَوْلَادُهَا وَصُلَحَاءُ النَّبَاةِ
 عَلَى أَنْ كَلَّ مِنْهُمْ عَبْدُ قُنَّ ^(٢) لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ . بن معاوية ، إِلَّا عَلَى بن الحسين
 عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّهُ بَايَعَهُ عَلَى أَنَّهُ أَخُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ .

قَالَ : وَنَقَشُوا أَكْفَ الْمُسْلِمِينَ عِلَامَةً لِاسْتِرْقَاقِهِمْ ، كَمَا يُصْنَعُ بِالْعُلُوجِ مِنَ الرُّومِ
 وَالْحَبَشَةِ . وَكَانَتْ خُطْبَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ عَلَى اللَّذْبِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِإِطْلَاقِهِمْ

(١) سورة البقرة ١٦٥ .

(٢) العبد القن : الذى ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك .

في الخطبة ، وكان المسلمون تحت منبر الخطبة يأكلون ويشربون .

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد شمس ؛ بأن الملك كان في أيديهم فانتزعه منهم ، وغلبهم عليه بالبطش الشديد ، وبالحيلة اللطيفة ، ثم لم ينزعه إلا من يد أشجعهم شجاعة ، وأشدهم تدبيرا ؛ وأبعدهم غورا ، ومن نشأ في الحروب ورُبِّي في الثغور ، ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده ، فلم يغدر منهم غادر ، ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة ، وعامر بن صبرة ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، ولا أحد من سائر قواده حتى من أحبابه وكتابه كعبد الحميد الكاتب ، ثم لم يلقه ، ولا لقي تلك الحروب في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وقد لقيهم المنصور نفسه .

قال : وتفخر هاشم أيضا عليهم يقول النبي صلى الله عليه وآله - وهو الصادق المصدق : « نُقِلْتُ من الأصلاب الزاكية ، إلى الأرحام الطاهرة ، وما أفرقت فرقتان إلا كنت في خيرها » . وقال أيضا : « بعثت من خيرة قريش » .

ومعلوم أن بني عبد مناف افرقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يدا . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس ، وكذلك ولد الحسين بن علي عليه السلام ، هذا مع قرب ميلادهما ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : شوهاه ولود خير من حسناء عقيم . وقال : « أنا مكاثر بكم الأمم » .

وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وآله قدِم من سفر ،

فأراد الرجال أن يطرُقوا النساء ليلاً ، فقال : « امهلوا حتى تمتشط^(١) الشعثة ، وتستجد^(٢) المنيبة ، فإذا قدتم فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طاب الولد ، وكانت العرب تفخر بكثرة الولد ، ومدح الفحل القميس^(٣) ، وتذم العاقر والعقيم .
وقال عامر بن الطفيل يعنى نفسه :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً جباناً فما عُدري لدى كل محضرٍ !
وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر : آمنت وكفرت ، ووفيت وعَدَر ،
وولدت وعقر .

وقال الزبرقان :

فأسأل بنى سَمْدٍ وَغَيْرَهُمْ يومَ الفَخَارِ فعندهم خُبْرِي
أى اسرى أنا حين يحضرنى رَفْدُ العَطَاءِ وطالبُ النَّصْرِ
وإذا هلكت تركتُ وَسْطَهُمْ ولدى الكرامِ ونابه الذُّكْرُ^(٤)
وقال طرفة بن العبد :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالدٍ ولو شاء ربى كنت عمرو بن مَرْثَدٍ^(٥)
فأصبحت ذا مالٍ كثيرٍ وعادنى بنوت كرام سادةً مسودٍ
ومدح النَّابغةِ الذُّبيانيِّ ناساً فقال :
لم يحرموا طيبَ النساءِ وأمهم

طفحت عليك بناتقٍ مذكراً^(٦)

(١) تمتشط : ترجل شعرها وتصففه ، والشعثة : المتلبدة الشعر .

(٢) المنيبة : التي غاب عنها زوجها . والاستجداد حلق العانة (٣) القميس كأمير : الفحل السربع الإلحاق .

(٤) يقال : نبه فلان ؛ أى شرف فهو نابه ونبيه .

(٥) ديوانه ٥٨ .

(٦) ديوانه ٣٧ ، وروايته : « لم يحرموا حسن العذاء » . وطفحت : اتسعت وغلبت . والناثق ، مأخوذ من نثق السقاء ، يقال : انتق سقاءك ، أى انفض ما فيه ، ولما يريد أنها تنفض ما في رحبها .
والمذكور : التى تلد الذكور .

وقال نهشل بن حرّى :

على بنى يشدّ الله عظمهم والذئب يُذيت قُضباناً فيكتهل
ومكث الفرزدق زماناً لا يُولد له فعيّزته أُمراءه ، فقال :

قالت أراه واحداً لا أخاله يؤمّله في الوارثين الأبعد^(١)

لعلك يوماً أن ترىني كأنما بنى حوالى الليث الحوارد^(٢)

فإن تمّا قبل أن يلد الحصا أقام زماناً وهو فى الناس واحد

وقال الآخر ، وقد مات إخوته ، وملاً حوضه ليسقى ، فجاء رجل صاحب عشيرة
وعترة ، فأخذ بضبعه فنتّاه ، ثم قال لراعيه : اسقِ إبلك :

لو كان حوض حمارٍ ما شربت به إلّا بإذن حمارٍ آخر الأبد

لكنه حوض من أودى بإخوته ريب المنون فأمسى بيضة البلد

لو كان يشكى إلى الأموات مالتى أحياء بعدهم من قلة العدد

ثم أشتكيت لأشكاني وأنجدنى قبر بسنجار أو قبر على فخذ^(٣)

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

واست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكارى

قال : وقد ولد رجال من العرب كلٌّ منهم يلد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا
بذلك مفخراً ، منهم عبد الله بن عمير الليثى ، وأنس بن مالك الأنصارى ، وخليفة بن
بر السعدى ، أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله
ابن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن
مات من ولده فى حياته ! وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع ، وفيها أعم

(١) ديوانه ١٧٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الحوارد : المعتزلون ؛ ورواية الديوان :

فإن عسى أن تبصرني كأنما بنى حوالى الأسود اللوابد

(٣) سنجار : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ ، وأمرُ جعفر بنِ سليمانَ قد عاينه عالمٌ من الناس ، وعامتهم أحياء ، وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس .

قال الهيثم بنُ عديٍّ : أفضى الملكُ إلى وَلَدِ العباسِ ، وجميع وَلَدِ العباسِ يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بنُ سليمانَ وحده عن مثل ذلك العدد من الرجال . ومن قُرْبِ ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعائرا أبو بكر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمطلب بنُ أبي صُفْرَةَ ، ومُسلم بنُ عمرو الباهليّ ، وزِياد ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالك بنُ مِسمع . وولدُ جعفر بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عددًا من أهل هذه القبائل . وأربعةٌ من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين مذكورين مبروفين وهم : عبدُ المطلب بنُ هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمّية بنُ عبد شمس ، والمغيرة بنُ المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وليس على ظهر الأرض هاشميٌّ إلا من وَلَدِ عبد المطلب ، ولا يشكُّ أحدٌ أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع ، فهذا ما في الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ الله أبا عثمان ! لو كان حيًّا اليومَ لرأى وَلَدَ الحسن والحسين - عليهما السلام - أكثر من جميع العرب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي صلى الله عليه وآله المسلمين منهم والكافرين ، لأنهم لو أحصوا لما نقص ديوانهم عن مائتي ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر بنبل الرأي ، وصواب القول ، فمن مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بنِ العباس ! وإن كان في الحكم والسُّودد وأصالة الرأي والغناء العظيم فمن مثل عبد المطلب ! وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل ومعرفة التأويل وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ، فمن مثلُ علي بن أبي طالب عليه السلام وعبد الله بن عباس !

قالوا : خطبنا عبد الله بن عباس خطبة بمكة أيام حصار عثمان لو شهدنا الترك والديلم لأساموا .

وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ يملته طيات لا ترى بينهما فضلاً
شفي وكفى مافي النفوس فلم يدع لذي إزيرة في القول جدّاً ولا هزلاً

وهو البحر ، وهو الخبر ؛ وكان عمر يقول له في حديثه عند إجمالة الرأي : غصن ياغواص^(١) ؛ وكان يقدمه على جلة السلف .

قلت : أبى أبو عثمان إلا إعراضاً عن على عليه السلام ، هلاً قال فيه كما قال في عبد الله ! فلمعمرى لو أراد لو جد مجالا ، ولألفى فولاً وسيعا ؛ وهل تعلم الناس الخطب والعهود والفصاحة إلا من كلام على عليه السلام ! وهل أخذ عبد الله رحمه الله العقه وتفسير القرآن إلا عنه ! فرحم الله أبا عثمان ، لقد غلبت البصرة وطينتها على إصابته رأيه ! قال أبو عثمان : وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان ، فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال : أ كيس ، وكان لا يرضى أن يقول : شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات ، فتقول : شجاع ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بطل ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بهمة ، فإذا كان فوق ذلك قالت : أ كيس . وقال العجاج :

* أ كيس عن حو بائه سخي *

وهل أكثر ما بعد الناس من جرّحاهما وصرّعاها إلا سادنكم وأعلامكم ! فقتل حمزة وعلى عليه السلام عتبة والوليد ، وقتلاً شبة أيضاً ، شرّكا عبدة بن الحارث فيه ؛ وقتل على عليه السلام حنظلة بن أبي سفيان . فأما آباء ملوككم من بنى مروان فإنهم كما قال

(١) يريد أنه درب بالأمور ، عارف بدقيقها وجليلها .

عبدُ الله بن الزبير لما أتاه خبر المصعب : إنا والله ما نموت حَبَجًا^(١) كما يموت آلُ أبي العاص ، والله ما قُتِلَ منهم قَتِيلٌ في جاهليَّة ولا إسلام ، وما نموت إلا قَتْلًا ؛ قَعَصًا^(٢) بالرماح ، ومَوْتًا تحتَ ظلالِ السيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يعد قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قَتْلًا ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفان ؛ إذ كان إنما قتل محاصرًا ، ولا قتل مروان ابن الحكم ؛ لأنه قتل خَنْقًا ، خَنْقَتُهُ النِّسَاء . قال : وإنما فخر عبدُ الله بنُ الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القَتْلِ ، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مَقْتُولِينَ ، ألا تَرَى أنك لا تصيب كثرة القَتْلِ إلا في القوم المعروفين بالبأس والنَّجْدَة وبكثرة اللقاء والمُحَارَبَة ، كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب !

قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم ، قُتِلَ عمارَةُ وحمزةُ أبنا عبدِ الله بن الزبير يومَ قُدَيْد في المعركة ، قتلهما الإباضيَّة ، وقُتِلَ عبدُ الله بن الزبير في مُحارَبَة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْرِ الجاتليق^(٣) في المعركة أكرمَ قَتْل ، وبإزائه عبدُ الملك بنُ مروان ، وقُتِلَ الزبير بوادي السَّبَاع مُنْصَرَفَهُ عن وقعة الجبل ، وقُتِلَ العوامُ بنُ خُوَيْلِد في حربِ الفجار ، وقُتِلَ خُوَيْلِد بنُ أسد بن عبد العزى في حرب خُزاعة ، فهُؤْلَاء سَبْعَةٌ في نَسَقٍ .

قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قَتْلَى كثيرون غيرُ هؤْلَاء ، قُتِلَ المنذر بنُ الزبير بمَكَّة ، قَتَلَهُ أَهْلُ السَّام في حرب الحِجَّاج ، وهو على بَغْل وَرَدَ كان نَفَرَ به فأصْعَدَ به في الجبل .

(١) في الأصول : « حَجَا » تحريف ؛ وفي اللسان : « الحَجَجُ بفتح الجيم » ، من أَكَل البعير لحاء العرْفَج ويسمى عليه ورعًا يشم منه فقتله ، يعرض ببني مروان كثرة أسلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا وأنهم يوتون بالنخمة . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القعص : الموت الوحى ، يقال : مات قعصًا ؛ إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٣) الجاتليق : رئيس النصارى في بلاد الإسلام .

وإيَّاهُ يعنى يزيد بن مفرغ الحميرى وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره بفراره يوم البصرة :

لأبن الزبير غداة تدمر منذراً أولى بكلّ حفيظةٍ ودفاع
وقُتِلَ عمرو بنُ الزبير، قتله أخوه عبدُ الله بنُ الزبير، وكان في جوار أخيه عبيدة بن
الزبير فلم يُغن عنه ، فقال الشاعر يجرّض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ، ويعيره
بإخفاره جوار عمرو أخيهما :

أعبيد لو كان الجير لَوَلَّتْ بعد الهدوء برنة أسماء
أعبيد إنك قد أجرت وجاركم تحت الصفيح تنوبه الأصداء^(١)
أضرب بسيفك ضربةً مذكورة فيها أداه أمانة وفاه
وقُتِلَ بجيز بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الدؤسى جدُّ
أبى هريرة من قبل أمّه ، قتله بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرم وبمك أخويه ابني العوام
ابن خويلد ، وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وآله قوم مشهورون ، منهم
زمنة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، كان شريفاً ، قتل يوم بدر ،
وأبوه الأسود ، كان المثل يضرب بمزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو
يذكر عاقر الناقة : « كان عزيزاً منيعاً كأبى زمنة » ، ويكنى زمنة بن الأسود بأحكيمة ، وقتل
الحارث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ؛ وقتل عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث
ابن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضاً ، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضاً ؛
قتله على بن أبى طالب عليه السلام ، وقتل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن زمنة بن
الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً^(٢) قال له : بايع لأمر المؤمنين يزيد

(١) الصفيح : الحجارة الرقاق ، والأصداء : جمع صدى ، وهو ما يرد على الصوت .

(٢) صبرا ، أى حبسا .

ابن معاوية على أنك عبدٌ قنَّ له ، قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمِّه ، ففُضِرَبَ
عُنُقُهُ . وقُتِلَ إسماعيل بنُ هَبَّار بنِ الأسود ليلاً ؛ وكانَ ادَّعى حيلةً فخرج مُصرخاً
لمن استصرَّخه ؛ ففُتِلَ ؛ فاتَّهم به مُصَعَّب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلفه معاوية
خمسین يمينا ، وخَلَّى سبيله ، فقال الشاعر :

ولا أجيب بليلٍ داعياً أبداً أخشى الغرور كما غرَّ ابنُ هَبَّارٍ
باتوا يجرّونه في الحشّ مُنْعِراً بئس الهدية لابنِ العمِّ والجارِ

وقُتِلَ عبدُ الرحمن بنُ العوّام بنِ خُوَيْلِدٍ في خلافة عمر بن الخطّاب في بعض المغازي ،
وقُتِلَ أبْنُهُ عبدُ الرَّحْمَنِ يومَ الدار مع عثمان ، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوّام بن
خُوَيْلِدٍ قَتِيلُ ابنِ قَتِيلِ ابنِ قَتِيلِ أربسة . ومن قَتْلَاهُم عيسى بنُ مُصَعَّب
ابن الزبير ، قُتِلَ بين يدي أبيه بِمَسْكِن^(١) في حَرْبِ عبد الملك ، وكان مُصَعَّب
[يُكنى أبا عيسى وأبا عبد الله وفيه يقول الشاعر] :

لَتَبِكَ أبا عيسى ، وعيسى كلاهما موالي قَزَيْشٍ كَهْلُها وصَمِيمُها
ومِنْهُمْ مُصَعَّب بنُ عُسْكَاشَةَ بنِ مُصَعَّب بنِ الزُّبَيْرِ ، قُتِلَ يومَ قُدَيْدٍ في حَرْبِ الخوارج ،
وقد ذكره الشاعر فقال :

قُمْ فاندُبْ رِجَالاً قُدُّوا بِقُدَيْدٍ وَلِنُقْصَانِ الْعَدَدِ
ثم لا تعدلنَ فيها مُصَعَّباً حين يُبَكِّي من قَتِيلٍ بِأَحَدِ
إنَّه قد كانَ فيها بَاسِلاً صارِماً يقدِّمُ إقدامَ الأسدِ

ومِنْهُمْ خالد بنُ عثمان بنِ خالد بنِ الزبير ، خرج مع مُحَمَّد بن عبد الله بن حسن
ابن حسن ، فقتله أبو جعفر وصَلَّبه . ومِنْهُمْ عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزُّبَيْر ، قُتِلَ
بِقُدَيْدٍ أيضاً ، وسُمِّيَ عتيقاً باسم جدِّه أبي بكر الصّدِّيق .

(١) مسكن ، كسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامل أبي عثمان ، هَلَّا ذَكَرَ قَتْلِي الطِّفْلَ وَهُمْ عَشْرُونَ سَيِّدًا مِنْ بَيْتٍ وَاحِدٍ قُتِلُوا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ! وَهَذَا مَا لَمْ يَقَعْ مِثْلُهُ فِي الدُّنْيَا لَا فِي الْعَرَبِ وَلَا فِي الْعَجَمِ . وَلَمَّا قُتِلَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرٍ يَوْمَ الْهَبَاءِ ^(١) وَقُتِلَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ضَرَبَتْ الْعَرَبُ بِذَلِكَ الْأَمْثَالَ وَاسْتَعْظَمُوهُ ، لِحُجَاءِ يَوْمِ الطِّفْلِ ، « جَرَى الْوَادِي فَعَلِمَ عَلَى الْقَرَى » ^(٢) »

وَهَلَّا عَدَدَ الْقَتْلَى مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ فَإِنَّهُمْ إِذَا عُدُّوا إِلَى أَبَائِهِمْ أَوْ أَبَائِهِمْ كَانُوا عَدَدًا كَثِيرًا أَضْعَافَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَتْلِي الْأَسَدِيِّينَ !
قَالُوا أَبُو-عُثْمَانَ : وَإِنْ كَانَ الْفَخْرُ وَالْفَضْلُ فِي الْجُودِ وَالسَّمَّاحِ فَمِنْ مِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ! وَمَنْ مِثْلُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِّبِ !
وَقَدْ اعْتَرَضَتْ الْأُمُويَّةُ هَذَا الْمَوْضِعَ فَقَالَتْ : إِنَّمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ يَهَبُ مَا كَانَ مَعَاوِيَةُ وَيَزِيدُ يَهَبَانِ لَهُ ، فَمِنْ فَضْلِ جُودِنَا جَاد .

قَالُوا : وَمَعَاوِيَةُ أَوَّلُ رَجُلٍ فِي الْأَرْضِ وَهَبَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَبْنُهُ أَوَّلُ مَنْ ضَاعَفَ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْيِزُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَيْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كُلِّ عَامٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَحْيِزُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، فَلَمَّا مَاتَ وَقَامَ يَزِيدُ وَفَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةُ كَانَ يَصِلُ رَحِمِي فِي كُلِّ سَنَةٍ بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قَالَ : فَلَكَ أَلْفَا أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! أَمَا إِنِّي مَا قُلْتُهَا لِابْنِ أَتَيْتِي قَبْلَكَ ، قَالَ : فَلَكَ أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَهَذَا الْإِعْتِرَاضُ سَاقِطٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنْ صَحَّ لَمْ يُعَدَّ جُودًا وَلَا جَائِزَةً وَلَا هِلَّةَ رَحِمٍ ، هُوَ الْإِلَاءُ

(١) يَوْمَ الْهَبَاءِ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ .

(٢) قَالَ صَاحِبُ بَعْجِ الْأَمْثَالِ ١ : ١٥٨ « أَيْ حَرَى سَيْلِ الْوَادِي . فُطِمَ ، أَيْ دُفِنَ ، يُقَالُ : فُطِمَ السَّيْلُ الرِّكْبَةُ ، أَيْ دُفِنَتْ . وَالْقَرَى : مَجْرَى الْمَاءِ فِي الرُّوْضَةِ وَالْمَجْعِ أَقْرِيَّةً ، وَقَرِيَانُ . . . أَيْ أَتَى عَلَى عَلَى الْقَرَى ، يَعْنِي أَهْلَكَ بِأَنْ دُفِنَ .

قومٌ كان يخافهم على مُلكِهِ ، ويعرف حقهم فيه ، وموقعهم من قلوب الأُمّة ، فكان يدبّر في ذلك تدبيراً ، ويرعى^(١) أمورا ، ويُصانع عن دولته وملّكه ، ونحن لم نعدّ قطّ ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتّابهم وبنى عمّهم جُوداً ، فقد وهَب المأمونُ للحسن ابنِ سَهْل غلّة عشرة آلاف ألفٍ فما عدّ ذلك منه مَكْرَمة ، وكذلك كلُّ ما يكون داخلا في باب الدّجارة وأَسْئَلَة القلوب ، وتديير الدّولة ، وإِنّما يكون الجُود ما يدفعه الملوك في الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمّار ونحوهم ؛ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وَفّى الجند أعطياتهم احتسب ذلك في جُوده ؛ فالعالماتُ شىءٌ ، والإعطاء على دَفْع المَكروه شىءٌ ، والتفضّل والجُود شىءٌ . ثمّ إنّ الذين أعطاهم معاويةُ ويزيدُ هو بعضُ حقهم ، والذي فصلَ عليهما أكثرُ ممّا خرج منهما .

وان أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أميّة في العطاء افتضح بنو أميّة وناصرُهم فضيحة ظاهرة ، فإنّ نساء خلفاء بني عبّاس أكثرُ معروفا من رجال بني أميّة ، ولو ذكرتُ معروف أمّ جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيزران وسلسبيل لمِلّت الطّوامير الكثيرة به ، وما نظنّ خالصة مولاتهم إلّا فوق أجواد أجوادهم ، وإن شئت أن تذكرُ مواليهم وكتّابهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه عليّاً ، وخالد بن برمك وابنه يحيى ، وابنه جعفرًا والمفضل وكتّابهم منصور بن زياد ومحمّد بن منصور وفتى العسكر ، فإنّك تجد لكلّ واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأمّا ملوك الأمويّة فليس منهم إلّا من كان يُبَخّل على الطعام ، وكان جعفر بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك ؛ وكان معاوية يُبغض الرّجل النّهم على مائدته ، وكان

(١) يربيع : يزيد .

المنصورُ إذا ذكركم يقول: كان عبدُ الملك جباراً لا يُبالى ما صنع ، وكان الوليدُ مجنوناً ، وكان سليمان همُّهُ بطنهُ وفرُّهُ ، وكان عمرُ أعور بين عَمِيانَ ، وكان هشامُ رجلَ القومِ ، وكان لا يذُكر ابنُ عاتكة . ولقد كان هشامُ مع ما استثناه به يقول : هو الأحوالُ السَّرَّاقُ ، ما زال يُدخل إعطاء الجُندِ شَهراً في شهرٍ وشهراً في شهرٍ ؛ حتى أخذ لنفسه مقدارَ رِزْقِ سنةٍ ، وأنشده أبو النّجم العِجْلَى أَرْجوزُهُ الَّتِي أَوْهَى :

* الحمد لله الوَهوبِ الجزلِ *

فما زال يُصَفِّقُ يَدَيْهِ أَسْتَحْسَاناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس ، فقال :

* والشمسُ في الأفقِ كَعَيْنِ الأَحْوَلِ *

فأمر بوجء^(١) عنقه وإخراجه ، وهذا ضَعْفٌ شديد ، وجَهْلٌ عظيم .

وقال خاله إبراهيم بنُ هشام الخزومي : ما رأيتُ من هشام خطأ قط إلا مرتين : حدّاً به الحادي مرّة فقال :

إِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبُخْتِيُّ أَكْرَمَ مَنْ تَمْشِي بِهِ الْمَطِيُّ

فقال : صدقت . وقال مرّة : والله لأشكونَّ سليمانَ يومَ القامةِ إلى أمير المؤمنين عبدِ الملك . وهذا ضَعْفٌ شديد ، وجَهْلٌ مُفْرِط .

وقال أبو عثمان : وكان هشامٌ يقول : واللهِ إني لأستحي أن أُعْطِيَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم ، ثم أُعْطِيَ عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها في جوده وتوسّعها ، وإنما اشترى بها ملكه ، وحَصَّنَ بها عن نفسه وما في يَدَيْهِ . قال له أخوه مسلة : أظنم أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان ! فقال : ولكني حليمٌ عفيف ، فاعترف بالجنِّ والبُخل ؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم ، والتفكير الشديد . ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب .

(١) الوجء : الضرب .

ولقد قدّم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله : أعور بين عُمان ؛ وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة ، وصَبَّ على رأسه جرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُرَّ^(١) فمات ، فما أقرّ بدمه ، ولا خرج إلى وليّه من حقّه ، ولا أعطى عقلاً ولا قوّة ؛ ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه ؛ فيقال : كان مطيعاً بإقامتها ، وأنه أزهق الحدّ نفسه ! واحتسبوا الضرب كان أدباً وتّعزيراً ، فما عذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر جلد شديد ! ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصى ، فجنّاء حتى جالس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله مالى عليه من طاقة ! فقال له رجاء : قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج يا أباحفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منّا أهل البيت ! وقال في خلافته : لولا بيعته في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجمعت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص وإسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحسن قرّيش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والخرج ، وما كان عليه من الوكف^(٢) والنقص أن لو قال : بين عليّ بن العباس وعليّ بن الحسين بن عليّ ! وعلى أنه لم يرد التيمى ولا العدوى ، وإنما دبر الأمر للأُموي ، ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى ، ثم دبر الأمر لليبائع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسم . وقدّم عليه عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبهم وركبه

(١) كُرَّ ، أى أصابه كزاز ؛ كثراب. ورنات ؛ وهو داء يبيء من شدة البرد .

(٢) الوكف ، محرّكة : الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنك لم تفهم شيئاً هو أنفس منك ولا أردّ عليهم من حياتك . أخاف عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشهى وتحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعله يبذر في قلوبهم بذراً ، ويفرس في صدورهم غرساً ، وكان أعظم خلق قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ، ويربى على كل ذى غاية ، صاحب شناعة ، وكان يصنع ذلك الكتب ، مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوذب الخارجى : لم لا تلن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ! قال : مالى به عهد . قال : أفيسمك أن تمسك عن لعن فرعون ، ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي ! فرأى أنه قد خصمه (١) وقطع حجته ، وكذلك يظنه كل من قصر عن مقدار العالم ، وجاوز مقدار الجاهل ، وأى شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ! هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة ، وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم ، وفرعون على خلاف ذلك ، وضده لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في أمره شبهة . ثم إن عمر ظنين (٢) في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم ، وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون ، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج ، فكيف استويا عنده !

وشكا إليه رجل من رهطه دينا فادجاً ، وعيالا كثيراً ؛ فاعتل عليه ، فقال له : فهلاً اعتلت على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك في أمري ! قال : أو مشيراً

(٢) الظنين : المتهم .

(١) خصمه : غلبه .

ترانى ! قال : أو هل أعطيته إلا بعض حقه ! قال : ولم قصرت عن كله ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروما منه .

وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذي حسن أمره ، وشبهه على الأغنياء حاله ، أنه قام بعقوب قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسُنن النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالإسلام في أمر صغر في جنبه عاينوا منه ، وألفوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور القطيعة في عداد الأئمة الراشدين ، وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليا عليه السلام على منابهم ، فلما نهى عمرُ عن ذلك عدّ محسنا ، ويشهد لذلك قولُ كثيرٍ فيه :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخَفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَهَ مُجْرِمٍ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي عليه السلام قد كان لهم عادة ، حتى مدح من كف عنه ؛ ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة - وكان إذا خطب بها لعن عليا والحسن والحسين عليهم السلام - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَحُسَيْنًا مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامٍ
أَيَسَّبُ الْمُطَهَّرُونَ جُدُودًا وَالْكَرَامُ الْآبَاءُ وَالْأَعْمَامُ
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحَامُ وَلَا يَأْمَنُ آلُ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ !
طَبَتْ يَتَا وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ !
رَحِمَهُ اللَّهُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كَلِمًا قَامَ قَائِمٌ بِسَلَامِ !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن يناله بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة - فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يومٌ كانت

الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تراب^(١) ، فقال هشام : ليس لهذا جئنا ، ألا ترى أنّ ذلك يدلّ على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليّاً عليه السلام ويقول : قتل جدّي جميعاً ؛ الزبير وعثمان .

وقال المنيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن ضوحان : قمّ فالعن عليّاً ، فقام فقال : إنّ أميركم هذا أمرني أن ألعن عليّاً ، فالعنوه لعنه الله ! وهو يُضمر المغيرة . وأما عبدُ الملك فحسبك من جهله تبدّله شرائع الدين والإسلام ، وهو يريد أن يُلّيّ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منابرهِ ، ويرمى بالفجور في مجالسه ، وهذا قُرّة عين عدوّهِ وعيّر وليّه ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون^(٢) . وهؤلاء سلفه وأُمتّه ، وبشفعتهم قامَ ذلك المقام ، وبتقدّمهم ونأسيهم نالَ تلك الرياسة ، ولولا العادة المتقدّمة ، والأجناد المجنّدة ، والصنائع القائمة ، لكان أبعدَ خلق الله من ذلك المقام ، وأقربهم إلى المهلكة إن رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يريد بن معاوية ؛ وهذا الكلامُ نقضُ لسلطانهِ ، وعداوةُ لأهلِهِ ، وإفسادُ لقلوب شيعتِهِ ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلّا أنه لم يقدر على إظهار قوّته ، إلّا بأن يظهر عجز أُمّته لكفّاك ذلك منه . فهذا ما ذكرته هاشم لأُفسيها .

[مفاخر بني أميّة]

قالت أميّة : لنا من نواير الرجال في العقل والدّهاء والأدب والمكر ما ليس لأحد ،

(١) أبو تراب ؛ من كنى أمير المؤمنين على بن أبي طالب .

(٢) المأفون : الضعيف .

ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد ، زعم الناس أن الدهاة أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، فمنّا رجلاً ، ومن سائر الناس رجلاً . ولنا في الأجواد سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ؛ لم يوجد لهما نظير في الساعة . وأما نوادر الرجال في الرأي والتدبير فأبو سفيان بن حرب ، وعبد الملك ابن مروان ، ومسامة بن عبد الملك ، وعلى أنهم يعدّون في العلماء والرؤساء ، فأهل الحجاز يصريون المثل في الحلم بمعاوية ، كما يضرب أهل العراق المثل فيه بالأحنف .

فأما الفتوح والتدبير في الحرب فمعاوية غير مدافع ؛ وكان خطيباً مصقفاً ، ومجرباً مظفراً ، وكان يحيد قول الشعر إذا آثر أن يقوله ، وكان عبد الملك خطيباً حازماً مجرباً مظفراً ، وكان مسامة شجاعاً مدبراً وسائساً مقدماً ، وكثير الفتوح كثير الأدب . وكان يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وكان الوليد بن يزيد خطيباً شاعراً ، وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين ، وكان بشر بن مروان شاعراً ناسباً ، وأديباً عالمياً ؛ وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، جيّد الرأي ، أديباً كثير الأدب ، حكيماً ؛ وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد ، وأبوه محمد بن مروان بن الحكم ، وهو صاحب مصعب ، وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تُجهل ، وآثار بأرمينية لا تُنكر ، ولهم يوم العقر ؛ شهده مسامة والعبّاس ابن الوليد .

قالوا : ولنا الفتوح العظام ، ولنا فارس ، وخراسان ، وأرمينية ، وسجستان ، وإفريقية ، وجميع فتوح عُمان ؛ فأما فتوح بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن

تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفٍّ وحافر أن يبلغه؛ حتَّى لم يَخْتِزْ منهم إِلَّا بَحْرُ أَوْ خَلِيجُ بَحْرٍ أَوْ غِيَاضُ أَوْ عَقَابُ أَوْ حِصُونُ وَصَيَاصِي ثَلَاثَةِ رِجَالٍ : قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بَحْرَاسَانُ ، وَمُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ بِإِفْرِيقِيَّةَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ الثَّقَفِيُّ بِالسَّنْدِ وَالْهِنْدِ ؛ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ عَمَلْنَا وَصَنَاعُنَا . وَيُقَالُ : إِنْ الْبَصْرَةُ كَانَتْ صَنَائِعُ ثَلَاثَةِ رِجَالٍ : عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ ، وَرِيَادُ ، وَالْحَجَّاجُ ، فَرَجُلَانِ مِنْ أَنْفُسِنَا وَالثَّالِثُ صَنِيْعُنَا .

قالوا : ولنا في الأجواد وأهل الأقدار بنو عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفي خالدٍ يقول الشاعر :

إِلَى خَالِدٍ حَتَّى أَتَخَنَّا بِخَالِدٍ فَنِعَمَ الْفَتَى يُرَجَى وَنِعَمَ الْمُؤْمَلُ !
ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقِيدُ النَّدَى ، كَانَ يَسْتَبْتُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَوَيْفِيقُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَيُرَى كَحِيلًا مِنْ غَيْرِ اكْتِحَالٍ ، وَدَهِينًا مِنْ غَيْرِ تَدَهِينٍ ؛ وَلَهُ يَقُولُ مُوسَى شَهَوَاتُ :

أَبَا خَالِدٍ أَعْنَى سَعِيدَ بْنَ خَالِدٍ أَخَا الْعُرْفِ لِأَعْنَى ابْنِ بَنْتِ سَعِيدٍ (١)
وَلَكِنِّي أَعْنَى ابْنَ عَائِشَةَ الَّذِي أَبُو أَبَوَيْهِ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ
عَقِيدُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى فَإِنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِعَقِيدٍ (٢)
قالوا : وَإِنَّمَا تَمَسَّكْنَا فِيْنَا الشَّعْرَ وَجَادَ ، لَيْسَ مِنْ قَبْلِ أَنْ الَّذِينَ مَدَحُونَا مَا كَانُوا غَيْرَ مِنْ مَدَحِ النَّاسِ ، وَلَكِنْ لَمَّا وَجَدُوا فِيْنَا مِمَّا يَتَّسِعُ لِأَجَلِهِ الْقَوْلُ ، وَيَصْدُقُ فِيهِ الْقَائِلُ .
قَدْ مَدَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيْيَاتِ مِنَ النَّاسِ : آلَ الزَّيْبِرِ عَبْدُ اللَّهِ وَمُصْعَبَا وَغَيْرُهُمَا ، فَكَانَ يَقُولُ كَمَا يَقُولُ غَيْرُهُ ، فَلَمَّا صَارَ إِلَيْنَا قَالَ :

مَا تَقْمُوا مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْمَلُونَ إِنْ غَضِبُوا (٣)

(١) الأغانى ٣ : ٣٥٢ (طبعة دار الكتب) .

(٢) ديوانه ٤ .

(٣) عقيد الندى : الكريم بطبعه .

وَأَنَّهُمْ مَعْدَنُ الْمُلُوكِ فَمَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
وَقَالَ نُصَيْبٌ :

مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الَّذِينَ إِذَا أُتَجَّوْا أَقَرَّتْ لَنَجْوَاهُمْ لَوْىُ بْنُ غَالِبٍ^(١)
يُحْيُونَ بَسَامِينَ طَوْرًا وَتَارَةً يُحْيُونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الْحَوَاجِبِ^(٢)
وَقَالَ الْأَخْطَلُ :

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَّرُوا^(٣)
قَالُوا : وَفِينَا يَقُولُ شَاعِرُكُمْ وَالمُتَشَبِّعُ لَكُمْ ، الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ :
فَالآنَ صِرْتَ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ^(٤)

وَفِي مَعَاوِيَةَ يَقُولُ أَبُو الْجَهْمِ الْعَدَوِيُّ :
نُقَلِّبُهُ لَنَخْبَرُ حَالَتِيهِ فَنَخْبُرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلِينًا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا إِذَا مِلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْنَا
وَفِيهِ يَقُولُ :

تَرِيْعٌ إِلَيْهِ هَوَادِي الْكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ الْمِهْدَرُ^(٥)

قَالُوا : وَإِذَا نَظَرْتُمْ فِي امْتِدَاحِ الشُّعْرَاءِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ عَرَقْتُمْ صَدْقَ مَا نَقُولُهُ .
قَالُوا : وَفِي إِرْسَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ عُثْمَانَ ، وَاسْتَعْلَاهُ عَلَيْهَا
عُتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً دَلِيلٌ عَلَى مَوْضِعِ الْمَنَعَةِ أَنَّ تَهَابَ الْعَرَبُ
وَتَعَزَّزَ قَرِيشٌ ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْفَتْحِ : « فَتَيَانُ أَضْنَ بِهِمَا عَلَى النَّارِ :
عُتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ » فَوَلَّى عُتَّابًا ، وَتَرَكَ سُجْبِيرَ بْنَ مُطْعِمٍ .

(١) الشُّمُّ : جَمْعُ أَشْمٍ ، وَهُوَ كُنَايَةُ عَنِ الرِّفْعَةِ وَالْعُلُوِّ وَشَرَفِ النَّفْسِ .
(٢) شُوسٌ : جَمْعُ أَشُوشٍ ؛ وَالشُّوشُ بِالتَّحْرِيكِ : النُّظَرُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ كِبَرًا وَغِيظًا .
(٣) دِيَوَانُهُ ١٤ ، وَشَمْسٌ : جَمْعُ شَمْسٍ ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الْعَسِيرُ فِي عِدَاوَتِهِ ؛ الشَّدِيدُ الْخِلَافِ عَلَى
مَنْ عَانَدَهُ .
(٤) الْأَغَانِيُّ ١٥ : ١١١ ، وَرَوَايَتُهُ : « وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ » .
(٥) الْمِهْدَرُ : الْكَثِيرُ الْمَخْطَأُ فِي الْكَلَامِ .

وقال السَّعْبِيُّ : لو وُلِدَ لى مائةُ ابنٍ لسمَّيتُهم كلَّهم عبدَ الرحمن ؛ لِذِى رَأَيْتُ فى قُرَيْشٍ من أصحابِ هذا الاسمِ ، ثمَّ عَدَّ عبدَ الرحمن بنَ عَتَّاب بنَ أُسَيْد ، وعبدَ الرحمن بنَ الحارث ابنَ هشام ، وعبدَ الرحمن بنَ الحَكَم بنَ أبى العاص ؛ فأما عبدُ الرحمن بنُ عَتَّاب فإنه صاحبُ الخَيْلِ يومَ الجملِ ، وهو صاحبُ الكَفِّ والخاتَمِ ، وهو الَّذى مرَّ به علىُّ وهو قَتِيلٌ فَقَالَ : لَهْفَى عَلَيْكَ يَعْسوبُ قُرَيْشٍ ، هَذَا الْبَابُ الْمَحْضُ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ! فَقَالَ لَهُ فَائِلٌ : لَشَدَّ مَا أَتَيْتَهُ الْيَوْمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ : إِنَّهُ فام عَنى وعنه نسوه لم يَقُمْ عَنْكَ .

فَالُوا : وَلنا منَ الْخُطَبَاءِ معاويةُ بنُ أبى سفيان ، أَخْطَبُ النَّاسِ فَأَمَّا وَاعدا ، وعلى منبرٍ ، وفى خُطْبَةٍ نَكَاحٍ . وَقَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ : مَا يَتَصَعَّدُنِ سُبْحًا مِنْ الْكَلَامِ كَمَا يَتَصَعَّدُنِ خُطْبَةُ النَّكَاحِ ، وَقَدْ يَكُونُ خُطْبِيًّا مَنْ لَيْسَ عَنْدهُ فى حَدِيثِهِ وَوَصِيهِ لِلشَّيْءِ أَحْتِجَاجُهُ فى الْأَمْرِ لِسَانُ بَارِعٍ . وَكَانَ معاويةُ يُجْرِي معَ ذَلِكَ كُلَّهُ .

فَالُوا : وَمِنْ خُطَبَائِنَا يَزِيدُ بنُ معاوية ، كَانَ أَعْرَابِيَّ اللِّسَانِ ، بَدَوَى اللَّهْجَةِ . قَالَ معاوية : وَخُطِبَ عَنْدهُ خُطْبِيًّا فَأَجَادَ : لِأَرْمِينَةَ بِالْخُطْبِيَّةِ الْأَشْدَقِ يَرِيدُ يَزِيدُ بنَ معاوية ، وَمِنْ خُطَبَائِنَا سَعِيدُ بنُ العاصِ ، لَمْ يَوْجَدْ كِتْحَبِيرَهُ تَحْبِيرَ ، وَلَا كَارْتِجَالَهُ ارْتِجَالًا . وَمِنْهُمْ عُمَرُو بنُ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ ، لَقَّبَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَيْثُ دَخَلَ عَلَى معاويةَ وَهُوَ غُلَامٌ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ ، فَسَمِعَ كَلَامَهُ ، فَقَالَ : إِنْ ابْنُ سَعِيدٍ هَذَا الْأَشْدَقُ .

وَقَالَ لَهُ معاوية : إِلَى مَنْ أَوْصَى بِكَ أَنْوَكُ ؟ قَالَ : إِنْ أَبَى أَوْصَى إِلَى وَلَمْ يَوْصِ بِى ، قَالَ : فَبِمِ أَوْصَى إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَلَّا يَفْقِدَ إِخْوَانَهُ مِنْهُ إِلَّا وَجْهَهُ .

فَالُوا : وَمِنْهُمْ سَعِيدُ بنُ عُمَرُو بنِ سَعِيدٍ ، خُطْبِيٌّ ابْنُ خُطْبِيٍّ ابْنِ خُطْبِيٍّ ، نَكَمَ النَّاسُ عِنْدَ عَمَلِ الْمَلِكِ قِيَامًا وَنَكَمَ فَاعِدًا . قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : فَتَكَلَّمْ وَأَنَا وَاللَّهِ أَحَبُّ عَشْرَتِهِ وَإِسْكَاتِهِ ، فَأَحْسَنَ حَتَّى اسْتَنْطَقَهُ وَاسْتَزَدَّتْهُ ؛ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ خُطْبِيًّا ، خُطِبَ

الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة . قالوا : ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غنيين في صحة المعاني ، وجودة اللفظ ، ولهما كلام كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا ونسّاكيننا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاصر : قلت لعمر بن عبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح^(١) ، ثم صرّف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل ، وعمل بالعدل ، وبذل نفسه وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان نكالا لأهله ، ونقص من أعطياتهم مازادته الجبابة ، وأظهر البراءة من آباءه ، وجعل في عهده شرطا ولم يجعله جزما ؛ لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن البصري - قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرئ في الكتب القديمة : يامبذر الكنوز ، ياساجدا بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة بهم ، وحجة عليهم . قالوا : هو يزيد بن الوليد .

ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص عمرو بن خولة ، كان ناسبا فصيحا خطيبا . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيبا قط إلا ولجلج هيبة له ومعرفة بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس ، وأبين الناس ، كان مسامة بن عبد الملك يقول : إني لأنحى كور عمامتي على أذني لأسمع كلام عبد الأعلى .

(١) كلح ، كنع : كثر في عبوس .

وكانوا يقولون : أشبه قریش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمر بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى كان يقال له فحل بنى مروان ، كان يركب معه ستون رجلاً لصلبه .

ومن ذوى آدابنا وعلماؤنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بشر بن مروان أمير العراق .

قالوا : ونحن أكثرُ نساءً منكم ، منّا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذى قيل له فى مَرَضِهِ الذى مات فيه : لو أقمت للناس ولىَّ عهد ؟ قال : ومن جعل لى هذا العهد فى أعناق الناس ؟ والله لولا خوفى الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين ، والله لا أذهب بمرارتها ، وتذهبون بحلاوتها ؛ فقالت له أمه : لوددتُ أنك حَيضة ، قال : أنا والله وددت ذلك . قالوا : ومنّا سليمان بن عبد الملك الذى هَدَمَ الديماس ^(١) وردَّ المسيرين ، وأخرج المسجونين ، وترك القريب . واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحبٍّ للعافية وقرب من الناس ، حتى سُميَ المهديّ ، وقيلت الأشعار فى ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شبه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر ، وباسمه سُميَ ؛ وهو أشجع قریش المذكور فى الآثار المنقولة فى الكتب ، العدل فى أشدِّ الزمان ، وظلَّف ^(٢) نفسه بعد اعتياد النعم ، حتى صار مثلاً ومفخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزمان إلا شدةً ، والناس إلا شحاً ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله

(١) الديماس : سجن كان للحجاج .

(٢) ظلَّف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لا بدّ للناس من متنفس . وكان مذكورا مع الخطباء ، ومع النّسك ، ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيا طاهرا ، وكان من أنقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيرا ما يعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعوص ، إسماعيل بن أمية ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلى من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بنى أمية الصغرى ، قتله داود بن عليّ ، ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب^(١) ثوبا ولا يصبغه ، ولا يتخلّق بخلوق^(٢) ، ولا اختار طعاما على طعام ، ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف ، وينهى عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله وليّ عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما فيهما جميعا .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفّان ، كان يصليّ كلّ يوم ألف ركعة ، وكان كثير الصدقة ، وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهمّ إنّ هذا لوجهك ، فحفف عني الموت . فانطلق حاجّا ، ثمّ تصبّح بالفوم فذهبوا يُنبّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتا ، فأقاموا عليه المأتمّ بالمدينة ، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتمّ وعلى رأسه كبة من طين ، فالتّم^(٣) مع النّساء ، وكان إليه محسنا .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

(١) يهدب : يقطع .

(٢) الخلق : الطيب .

(٣) التّم مع النّساء : ضرب صدره معهن في النياحة .

قالوا : فنحن نعدّ من الصالح والفصل ما سمعناه ، وما لم نذكره أكثر ، وأنتم تقولون : أميّة هي الشجرة الملعونة في القرآن ، وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب ، كما أن الطيب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فعثمان بن عفان ثمره خبيث . وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفع ابنه إلى خبيث ، وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مة أمية أبي بكر الصديق على جيوش الشام ، وينبغي لأبي العاص بن الربيع زوج رينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغي لمحمد بن عبد الله المدبج أن يكون كذلك ، وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ، وكذلك عبد الله بن عثمان بن عفان سيّط رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذي مات بعد أن شدّ (١) ونقر الديك عينه فمات ، لأنه من بني أمية ، وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية وإن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولّاه مكة أم القرى وقبلة الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فتان أصن مهما عن النار : عتاب ابن أسيد ، وجبير بن مطعم » . وكذلك ينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب كذلك ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؛ وينبغي ألا يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدّ عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؛ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر (٢) والحميس في سبيل الله ، وإلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على اليمن ، وإلى أبي بكر على جميع أجناد الشام ، ورابع أربعة في الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحبشة كذلك . وكذلك أبان ابن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة ، والقديم في الإسلام ، والحميس على الجهاد ، ويجب أن يكون ملعونا حيثما ، وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وهو بدرى من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ، وأمها زينب بنت

(١) شدن : قوى ونزع ع ؛ وأصله في الأطباء .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَكَذَلِكَ أُمُّ كَلثُومَ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُخْرِجُهَا مِنَ الْمَغَازِي ، وَيَضْرِبُ لَهَا بِسَهِمٍ ، وَيُصَافِحُهَا ، وَكَذَلِكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَهِيَ مِنْ مِهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ .

قَالُوا : وَمِمَّا نَفَخَ بِهِ وَلَيْسَ لِبْنِي هَاشِمٍ مِثْلُهُ ؛ أَنَّ مَنَارَ جَلَّاءَ وَلَّى أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْهَا عَشْرُونَ سَنَةً خَلِيفَةً ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ . وَلَنَا أَرْبَعَةٌ أَخَوَةٌ خُلَفَاءَ : الْوَلِيدُ ، وَسُلَيْمَانُ ، وَهَشَامُ ، بَنُو عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَيَزِيدُ ، إِلَّا ثَلَاثَةٌ لِأَخَوَةِ : مُحَمَّدٌ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَأَبِي إِسْحَاقَ أَوْلَادُ هَارُونَ .

قَالُوا : وَمِمَّا رَجُلٌ وَلَدَ سَبْعَةً مِنَ الْخُلَفَاءِ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْزَانَ ، أَبُوهُ يُزِيدُ بْنُ عَاتِكَةَ ، خَلِيفَةً ، وَجَدَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ خَلِيفَةً ، وَأَبُو جَدِّهِ مَرْوَانَ الْحَكَمَ خَلِيفَةً ، وَجَدَّهُ مِنْ قَبْلِ عَاتِكَةَ ابْنَةَ يُزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَبُوهَا يُزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ خَلِيفَةً ، وَمُعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَهُوَ خَلِيفَةً ، فَهَؤُلَاءِ خَمْسَةٌ ، وَأُمُّ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ فَهَذَانِ خَلِيفَتَانِ ، فَهَذِهِ سَبْعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَلَدُوا هَذَا الرَّجُلَ .

قَالُوا : وَمِمَّا امْرَأَةٌ أَبُوهَا خَلِيفَةً ، وَجَدَّهَا خَلِيفَةً ، وَابْنُهَا خَلِيفَةً ، وَأَخُوهَا خَلِيفَةً ، وَبَعْلُهَا خَلِيفَةً ، فَهَؤُلَاءِ خَمْسَةٌ ، وَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ يُزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، أَبُوهَا يُزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ خَلِيفَةً ، وَجَدَّهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ خَلِيفَةً ، وَابْنُهَا يُزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ خَلِيفَةً ، وَأَخُوهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ يُزِيدَ خَلِيفَةً ، وَبَعْلُهَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ خَلِيفَةً . قَالُوا : وَمَنْ وَلَدَ لِلدَّبَّاجِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْغَرِ امْرَأَةً وَلَدَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُو عَثْمَانَ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ، وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ ابْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَأُمُّهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ عَثْمَانَ بْنِ عَمْرُوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأُمُّ عَمْرُوَةَ أَسْمَاءُ ذَاتُ النَّطَّاقِينَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأُمُّ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَثْمَانَ - وَهُوَ

المدبج - فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام ، وأم الحسين بن علي عليه السلام
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأم فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام
أم إسحاق بنت طلحة بن عبد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ابنة
عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قالوا : ولنا في الجلال والحسن ما ليس لكم ، منا المدبج ، والدباج ، قيل ذلك لجماله .
ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي
المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نما الفاروق إنك وابن أروى أبوك فانت منصدع النهار

والمدبج هو الدباج ، كان أطول الناس قيما في الصلاة ، وهلك في
سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دعى بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس
ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارث أبني العباس بن الوليد من الفجاءة
بنت قطري بن الفجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سبيت فوقعت إليه ، فلما قام عمر بن
عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاسب بن ذبيان المازني الشاعر ،
فقال حاسب :

أتيداك زوارا وفداً إلى التي أضأت فلا يخفى على الناس نورها

أبوها عيذ الحى جمعا وأمها من الخنظليات الكرام حبورها

فإن تك صارت حين صارت فإنها إلى نسب زالك كرام نفيها

فبعث عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد إما أن تردّها إلى أهلها ، وإما أن
نزوجها ، فقال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ، قال : ويلك من الرابع !

قال : قَطَرَى ، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان ، وأما قَطَرَى فَبُؤيع بالخلافة ،
وفيه يقول الشاعر :

* وأبو نعامَةَ سَيِّدَ الْكُفَّارِ *

فالوا : ومن أين صار محمد بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس أحقّ بالدعوة والخلافة
من سائر إخوته ! ومن أين كان له أن يَصْعَها في بيته دون إخوته ! وكيف صار بنو الأخ
أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُسَنِّحُ بالميراث ، فالأقرب إلى العباس أحقّ ،
وإن كان بالسنن والتجربة فالعمومة بذلك أولى .

فالوا : فقد ذكرنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام ، وأما الجاهلية فلنا الأعياص
والعنابس^(١) .

ولنا ذو العصابة أبو أُحِيْحَة سعيدُ بنُ العاص كان إذا اتمّ لم يعتم^(٢) بمكة أحد ،
ولنا حرب بن أمية رئيسُ يوم الفِجَار ، ولنا أبو سُفْيَان بنُ حَرْب رئيسُ أحد والخنْدَق ،
وسَيِّد قريش كلّها في زمانه .

وقال أبو الجهم بنُ حُذيفة العدويّ للعمرَ حين رأى العباس وأبا سُفْيَان على فراشه
دون الناس : ما نرانا نستريح من بنى عبد مناف على حال ! قال عمر : بئس أخو العسيرة
أنت ! هذا عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) في الأغاني ١ : ١٤ (طبعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن بكار شيوخه : « الأعياص :
العاص وأبو العاص والعيس وأبو العيس والعويس ؛ ومنهم العنابس ؛ وهم : حرب وأبو حرب وسفیان
وأبو سفیان وعمرو وأبو عمرو ؛ ولما سما العنابس ؛ لأنهم ثبتوا مع أخيهام حرب بن أمية بعكاظ ،
وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فشهروا بالأسد ، والأسد يقال لها : العنابس ، واحدها عنيسة » .
(٢) اعتم : أرخى عمامته .

قالوا : ولنا عُنْبَةٌ بَنُ رَبِيعَةٍ ، ساد مَمْلَقًا ، ولا يكون السَّيِّدُ إِلَّا مُتَرَفًا ، لولا مارأوا عُنْدَهُ من البراعة والثَّبل والكمال . وهو الذى لَمَّا تَحَاكَمَتْ بِجَمِيلَةٍ وَكَلْبٌ فى مُنَافَرَةٍ جَرِيرٍ والفرافصة ، وَتَرَاهُنَّوَا بِسُوقِ عُسْكَاطٍ ، وَصَنَعُوا الرِّهْنَ عَلَى يَدِهِ دُونَ جَمِيعِ مَنْ شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ المَشْهَدِ ، وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ونَظَرَ إِلَى قَرِيشٍ مُقْبِلَةً يَوْمَ بَدْرٍ : « إِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ عِنْدَ أَحَدٍ خَيْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ » ، وما ظَنُّكَ بِشَيْخٍ طَلَبُوا لَهُ مِنْ جَمِيعِ الْعَسْكَرِ عِنْدَ الْمُبَارَزَةِ بَيْضَةً فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى بَيْضَةٍ يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِيهَا ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

* وَإِنَّا أَنَاسٌ يَمْلَأُ الْبَيْضَ هَامُنًا *

قالوا : وَأُمِّيَّةُ الْأَكْبَرِ صَنْفَانِ : الْأَعْيَاصُ وَالْعَنَابِسُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغْرَ كَغَرَّةِ الْفَرَسِ الْجَوَادِ^(١)

سُمُّوا بِذَلِكَ فى حَرْبِ الْفَجَارِ حِينَ حَفَرُوا لِأَرْجُلِهِمُ الْخَفَائِرَ وَثَبَتُوا فِيهَا ، وَقَالُوا : نَمُوتُ جَمِيعًا أَوْ نَنْظُرُ . وَإِنَّمَا سُمُّوا بِالْعَنَابِسِ لِأَنَّهَا أَسْمَاءُ الْأَسُودِ ، وَإِنَّمَا سُمُّوا الْأَعْيَاصَ لِأَنَّهَا أَسْمَاءُ الْأَصُولِ ، فَالْعَنَابِسُ : حَرْبُ وَسُفْيَانٍ وَأَبُوسُفْيَانَ وَعَمْرُو ، وَالْأَعْيَاصُ : الْعَيْصُ ، وَأَبُو الْعَيْصِ ، وَالْعَاصُ ، وَأَبُو الْعَاصِ وَأَبُو عَمْرٍو ، وَلَمْ يَعْقِبْ مِنَ الْعَنَابِسِ إِلَّا حَرْبٌ ، وَمَا عَقَّبَ الْأَعْيَاصُ إِلَّا الْعَيْصُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَعَاوِيَةُ يُشْكُو الْقَلَّةَ .

قالوا : وَلَيْسَ لِبْنِ هَاشِمٍ وَالْمَطْلَبِ مِثْلُ هَذِهِ الْقِسْمَةِ ، وَلَا مِثْلُ هَذَا اللَّقَبِ الْمَشْهُورِ . وَهَذَا مَا قَالَتْهُ أُمِّيَّةٌ عَنْ نَفْسِهَا .

(١) من أبيات في الأغاني ١ : ١٤ - ١٦ ؛ ونسبها إلى عبد الله بن فضالة الأسدي .

[ذكر الجواب عما فخرت به بنو أمية]

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيف إليه من قبلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أما ذكرتم من الدَّهَاءِ والمَكْرِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاءِ فَجَّارِ الْعُقَلَاءِ ، وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار ، وقد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأي ، والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال : كانا داهيين ، ولا كانا مكييرين . وما عامل معاوية وعمرُو ابنُ العاص علياً عليه السلام قطّ بمعاملةٍ إلا وكان على عليه السلام أعلمُ بها منهما ، ولكنَّ الرجل الذي يُحَارِبُ ولا يَسْتَعْمِلُ مِثْلَ ما يحلُّ له أَقَلُّ مذاهب في وجوه الخيل والتدبير من الرجل الذي يَسْتَعْمِلُ ما يحلُّ وما لا يحلُّ ، وكذلك من حَدَّثَ وأخبر ، ألا تَرَى أَنَّ الكَذَّابَ ليس لكِذبه غاية ، ولا لما يُؤلَّدُ ويَصْنَعُ نهاية ، والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ، ومعنى محدود ! ويدلُّ على ما قلنا أنكم عددتم أربعة في الدَّهَاءِ ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين في طريق المتقين ، ولو كان الدَّهَاءُ مرتبةً والمَكْرُ منزلةً لكان تقدُّمُ هؤلاء الجميع السابقين الأولين عينا شديدا في السابقين الأولين ، ولو أن إنسانا أراد أن يمدح أبا بكر وعمرَ وعلياً ثم قال : الدَّهَاءُ أربعة ، وعدَّهم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ، لأنَّ الدَّهَاءَ والمَكْرَ ليس من صفات الصالحين ؛ وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميعُ العقلاء ، ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أكرمَ الناس ، وأحلمَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولا يجوز أن يقال : كان أمكرَ الناس ، وأدهى الناس ، وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مَكْرٍ وخديعة ، وبكل أدبٍ ومَكيدة !

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من عبد الله ابن جعفر ، وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن علي ! وأين أنتم من جود خلفاء بني

العبّاس ، كمحمّد المهديّ ، وهارون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبدالله المأمون ، وجعفر المقتدر ! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كبنى برّمك وبنى الفرات ، أعظم من جود الرّجّلين اللّذين ذكّرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

وأما ما ذكّرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نجعل جميع ساداننا حُلماء لسكانوا مُحتملين لذلك ، ولكنّ الوجه في هذا ألا يُشتَقّ للرجل اسمٌ إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يتبين بذلك عند أصحابه حتّى يصير بذلك اسماً يسمّى به ، وبصير معروفاه ، كما عُرِف الأحنفُ بالحلم ، وكما عُرِف حاتمُ بالجود ، وكذلك هَرِم ، قالوا : هَرِم الجواد ، ولو قلتم : كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس ، لقُلنا : ولعله يكون قد كان حلماً ، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبه به مذكوراً ، ومن إشكاله بائنا .

وإنكم لتظنون خصومكم في تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ، لأنّ العرب تقول : أحلم الحلمين ألا يتعرّض ثم يحلم ، ولم يكن في الأرض رجلاً أكثر تعرّضاً من معاوية ، والتعرّض هو السّمّه ، فإن ادّعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرّضه كلّها باطلة ، فإنّ لقائل أن يقول ، وكلّ خبرٍ رُوِيَتموه في حلمه باطل ، ولقد شهِر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلم بكلامٍ كثيرٍ يجرّح في الحلم ويثلم في العرض^(١) ، ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العبّاس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ، ولا كلمة ساقطة ، ولا حرفاً واحداً مما يُحكى عن الأحنف ومعاوية .

وكان المأمونُ أحلم الناس ، وكان عبدُالله السّفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصفَ هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتّى يسمّيه بذلك ، ويخصّ به دون كلّ شيءٍ فيه من الفضل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلّهم في النّاية ! ولو أنّ رجلاً كان أظهرَ الناس زُهداً ، وأصدقهم للعدوّ إلقاءً ، وأصدق الناس لساناً ؛

(١) يثلم في العرض ؛ أي يبال منه ويقع فيه .

وأجود الناس كفاً ، وأفصحهم منطقاً ، وكان بكل ذلك مشهوراً ، لمنع بعض ذلك من بعض ، ولمّا كان له اسمُ السيّد المقدّم ، والكمال المعظم ، ولم يكن الجوادُ أغلب على اسمه ، ولا البيان ولا النجدة .

وأما ما ذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هاشم في أجلة أرقّ السّنة من بني أمّية ، كان أبوطالب والزّبير شاعرَيْن ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً ، ولم يكن من أولاد أمّية بن عبد شمس لصّله شاعر ، ولم يكن في أولاد أمّية إلا أن تعدّوا في الإسلام العرجي من ولد عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن الحَكَم ، فنعدّ نحن الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من المتأخّرين محمد بن الحسين بن موسى المعروف بالرضي ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحمّاني ، وعلى بن محمد صاحب الزّنج ، وكان إبراهيم ابن الحسن صاحب باخري^(١) أديبا شاعراً فاضلاً ؛ ولنا محمد بن عليّ بن صالح الذي خرج في أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان من فتيان آل أبي طالب وفتّاكهم وشجعانهم وظرّافهم وشعرائهم ، وإن عدّتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدّوا كعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ولا كعبد الله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن عليّ بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن معاوية بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن عليّ بن الحسين في الوصيّة ،

(١) باخري : بلدة قرب الكوفة بها قبر إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ .

وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي وإلى مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أبين منه قاعداً ، وأخطب منه فأثما . وكان داود إذا خطب استحسنه ^(١) فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليغاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاصران - فقال له : كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : مسافى ريح ، ومنات شبح . قال : فأرض كذا ، قال : هصبات ^(٢) حجر ، وربوات ^(٣) عُفر ، حتى أتى على جميع مأسأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدثون من الكلام .

قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ؛ فلنا علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبزُهده وبدينه يضرب المثل ، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بني العباس ، وهو الملقب بالمهتدي ، كان يقول : إني لآنفُ لبني العباسِ إلّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز ، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبد الله بن القادر ، كانوا على قديم عزيمة من الزهد والدين والنسك ، وإن عدّتهم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ! وأين أنتم عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي كان يقال له : عليّ الخير ، وعليّ الأغر ، وعليّ العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلّا وأبرّ قسمة ! وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ! وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لا بس الصوف طول عمره ، مع سعة أمواله ، وكثرة ضياعه وغلاته !

(١) استحسنه الرجل في منطقة : مضى فيه .

(٢) الهضبات : جمع هضبة ؛ وهي الجبل الطويل المنح ، ولا يكون ذلك إلّا في حمر الجبال .

(٣) الربوات ، جمع ربوة ، وهي أعلى الجبل .

وأما ما ذكرتم من الفتوح، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبان، وضربت بها الأمثال، ولنا فتوح الرشيد، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعد فتوح الطالبين بإفريقية ومصر وما ملكوه من مدن الروم والفرنج والجلالة^(١) في سني ملكهم، عددت الكثير الجم الذي يخرج عن الحصر، ويحتاج إلى تاريخ مفرد يشتمل على جلود كثيرة.

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله بن العباس، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وأبي علي بن الحسين بن علي، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلاميذه، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدى المذهب، وكذلك أبو حنيفة.

ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين! وقال الشافعي في الرسالة في إثبات حبر الواحد: وجدت علي بن الحسين وهو أفة أهل المدينة يؤمل على أخبار الأحاد.

ومن مثل محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرّر علوم التوحيد والعدل! وقالت المعتزلة: غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول، وأبي هاشم الثاني!

وإن ذكرتم التجارة والبسالة والشجاعة فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر!

ومن مثل حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله! ومن مثل الحسين بن علي عليهما السلام! قالوا يوم الطف: مارأينا مكشورا^(٢) قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كاللث المخرّب، يحطم الفرسان خطما. وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطى

(١) الخلافة: أهل جلق، وهى دمشق.

(٢) المكشور: الغلوب في الكتلة.

بِيَدِهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَإِخْوَانُهُ وَبَنُو عَمِّهِ بَعْدَ بَذْلِ الْأَمَانِ لَهُمْ ، وَالتَّوَثُّقَةُ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ ، وَهُوَ الَّذِي سَنَّ لِلْعَرَبِ الْإِبَاءَ . وَاقْتَدَى بَعْدَهُ أَبْنَاءُ الزُّبَيْرِ وَبَنُو الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ .

وَمِنْ لَكُمْ مِثْلُ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ! وَمِنْ لَكُمْ كَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَهَا حَيْثُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ هِشَامٍ : مَا أَحَبَّ الْحَيَاةَ إِلَّا مَنْ ذَلَّ ؛ فَلَمَّا بَاغَتْ هِشَامًا قَالَ : خَارِجُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ! فَخَرَجَ بِالسَّيْفِ ، وَنَهَى عَنِ الْمُسْكَرِ ، وَدَعَا إِلَى إِقَامَةِ شَعَائِرِ اللَّهِ حَتَّى قُتِلَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا .

وَقَدْ بَلَغْتُمْ شَجَاعَةَ أَبِي إِسْحَاقَ الْمُعْتَصِمِ ، وَوَقُوفُهُ فِي مَشَاهِدِ الْحَرْبِ نَفْسِهِ حَتَّى فَتَحَ الْفَتْوحَ الْجَلِيلَةَ . وَبَلَغْتُمْ شَجَاعَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ؛ وَهُوَ الَّذِي أزال مُلُوكَ بَنِي مَرْوَانَ ، وَشَهِدَ الْحُرُوبَ بِنَفْسِهِ ، وَكَذَلِكَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَهُوَ الَّذِي اتَّبَعَ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ إِلَى مِصْرَ حَتَّى قَتَلَهُ .

قَالُوا : وَإِنْ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَخْرُ فِي تَوَاضُعِ الشَّرِيفِ ، وَإِنْ صَافَ السَّيِّدُ ، وَسَجَّاحَةُ^(١) الْخُلُقِ وَلَيْنَ الْجَانِبِ لِلْعَشِيرَةِ وَالْمَوَالِي ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لِبَنِي الْعَبَّاسِ ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا طَارِقَ بْنَ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ مَوْلَى لَبْنَى أُمِّيَّةَ ، وَصَنِيعَةُ مِنْ صَنَائِعِهِمْ - فَقُلْنَا : أَيُّ الْقَبِيلَتَيْنِ أَشَدُّ نَحْوَةً وَأَعْظَمَ كِبَرِيَاءً وَجَبَرِيَّةً ؛ أَبْنُو مَرْوَانَ ؟ أَمْ بَنُو الْعَبَّاسِ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَبَنُو مَرْوَانَ فِي غَيْرِ دَوْلَتِهِمْ أَعْظَمَ كِبَرِيَاءً مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ الدَّوْلَتَيْنِ ، وَلِلَّذَلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ :

إِذَا نَابَهُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ رَأْيَتُهُ يَدِيهِ فَرَشَّحَهُ لِكُلِّ عَظِيمٍ

(١) سَجَّاحَةُ الْخُلُقِ : سَهَوَاتُهُ وَلِينُهُ .

وإن تآه نيّاه سواهمُ فإنما يتيه لنوك أو يتيه للوم^(١)

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تياها فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبيرُ مَفْخَرًا يمدح به الرجال ويُعدّ من خِصال الشرف والفضل ، فولانا عمارة بنُ حمزة أعظمُ كبراً من كلِّ أمويّ كان ويكون في الدنيا ، وأخباره في كبره ورتبه مشهورة مُتعلّمة .

قالوا : وإن كان الشرف والفخرُ في الجمال وفي السكّال وفي البسطة في الجسم وتما القوام ، فمن كان كالعبّاس بن عبد المطلب !

قالوا : رأينا العبّاس يطوف بالبيت وكأنه فُسطاط^(٢) أبيض .

ومن مثل علي بن عبد الله بن العبّاس وولّده ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أُذنه ، وكانوا من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم .

ثم الذي رواه أصحاب الأخبار ومُحال الآثار في عبد المطلب من التّمام والقوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقمر لجماله ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناس أن عبد المطلب ولّد عشرةً كان الرجلُ منهم يأكل في المجلس الجذعة^(٣) ويشرب الفرق^(٤) ، وترد آنفهم قبل شِفاههم ، وإن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمالُ جُون^(٥) قال : بهؤلاء تُمنع مكّة ؛ وتشرف مكّة !

وقد سمعتم ما ذكّره الناس من جمال السّفّاح وحُسنه ، وكذلك المهديّ وابنه هارون الرشيد ، وابنه محمد بن زبيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر والزّبير المعتز .

(١) ب : « لول » تصحيف ؛ وصوابه في أ . والنوك : الحمق ، واللوم أصله « اللؤم » : بالهمزة ، وخفف للشعر .

(٢) الفسطاط : الخيمة . (٣) الجذعة من الشّأن : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكّيال بالمدينة ، يسع ثلاثة أصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجون من الإبل والخيل : جمع جون ، بفتح فسكون ، وهو الأدهم .

قالوا : مارئي في العرب ولا في العجم أحسن صورة منه ؛ وكان المكتفى على بن المعتضد بارع الجمال ، ولذلك قال الشاعر يضرب المثل به :
والله لا كلمته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفى ،
فجعله ثالث القمرين . وكان الحسن بن علي عليه السلام أصبح الناس وجها ،
كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك عبد الله بن الحسن المخص .

قالوا : ولنا ثلاثة في عصر بنو عم ، كلهم يسمى عليا ، وكلهم كان يصلح للخلافة
بالفقه والنسك والمركب ، والرأي ، والتجربة ، والحال الرفيعة بين الناس : علي بن
الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، كل
هؤلاء كان تلامذا كاملا بارعا جامعا . وكانت لبابة بنت عبد الله بن العباس عند علي بن
عبد الله بن جعفر ، قالت : مارأيت ضاحكا قط ولا قاطبا ، ولا قال شيئا أحْتَاجُ إلى أن يعتذر
منه ، ولا ضرب عبدا قط ، ولا ملكه أكثر من سنة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى محمدا ، كما أن
كل واحد من أولئك يسمى عليا ، وكلهم يصلح للخلافة ، بكرم النسب وشراف الخصال :
محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ومحمد بن علي
ابن عبد الله بن جعفر .

قالوا : كان محمد بن علي بن الحسين لا يُسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهي الجارية
والغلام أن يقولوا المسكين : ياسائل ؛ وهو سيد فقهاء الحجاز ؛ ومنه ومن أبنه جعفر
تعلم الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ؛ لقبه به رسول الله صلى الله عليه وآله
ولم يخلق بعد ، وبشر به ، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته ، وقال : ستراه طفلا ، فإذا
رأيت فابْلِغْهُ عني السلام ، فعاش جابر حتى رآه ، وقال له : ما وصى به .

وتوعد خالد بن عبدالله القسريّ هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه ، وقال : والله
إني لأعرف رجلاً حجازيّ الأصل ، شاميّ الدار ، عراقيّ الهوى ، يريد محمد بن
عليّ بن عبد الله ابن العباس .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإننا نذكر فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وهي سيّدة نساء العالمين ، وأمّها خديجة سيّدة نساء العالمين ،
وبعلها عليّ بن أبي طالب سيّد المسلمين كافة ، وابن حمها جعفر ذو الجناحين ، وذو
الهجرتين ، وابناها الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، وجدّها أبو طالب بن
عبد المطلب أشدّ الناس عارضةً وشكّيمة ، وأجودهم رأياً ، وأشهمهم نفساً ، وأمنعهم لما
وراء ظهره ، منع النبيّ صلى الله عليه وآله من جميع قريش ، ثم بنى هاشم وبني المطلب ،
ثم منع بني إخوانه من بنى أخواته من بنى نخزوم الذين أساموا ، وهو أحد الذين سادوا
مع الإقلال ، وهو مع هذا شاعر خطيب . ومن يطبق أن يفاخر بني أبي طالب ، وأمهم
فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وهي التي ربّى رسول الله
في حجرها ، وكان يدعوها أمّي ، ونزل في قبرها ، وكان يُوجب حقّها كما يُوجب حقّ
الأمّ ! من يستطيع أن يُسامي رجلاً ولدهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم .
قالوا : ومن العجائب أنّها ولدت أربعة كلٌّ منهم أسنّ من الآخر بعشر سنين : طالب ،
وعقيل ، وجعفر ، وعليّ .

ومن الذي يعدّ من قريش أو من غيرهم ما يعدّه الطالبيون عشيرة في نسق ؛ كل واحد
منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاكّ ، فمنهم خلفاء ، ومنهم مُرشّعون :
ابن ابن ابن ، هكذا إلى عشيرة ، وهم الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن
جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام ؛ وهذا لم يتفق لبيت من بيوت
العرب ولا من بيوت العجم .

قالوا : فَإِنْ فَخَّرْتُمْ بِأَنْ مِنْكُمْ أَنْثَيْنِ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ : أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ ، فَزَيْنَبُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ ، أَدْعَيْتُمُوهَا بِالْحِلْفِ (١) لَابِالْوِلَادَةِ ، وَفِينَا رَجُلٌ وَلَدَتْهُ أَمَانٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْمُخَضِّ ، وَلَدَتْهُ خَدِيجَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأُمُّ سَامَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَدَتْهُ مَعَ ذَلِكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَفَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بِنْتِ هَاشِمٍ ؛ وَكَانَ يُقَالُ : خَيْرُ النِّسَاءِ الْفَوَاطِئُ وَالْعَوَاتِكُ وَهُنَّ أُمَّهَاتُهُ .

قالوا : وَنَحْنُ إِذَا ذَكَرْنَا إِنْشَاءَنَا فَقَبِلَ أَنْ نَعُدَّ مِنْ وَلَدِهِ نَأْتِي بِهِ شَرِيفًا فِي نَفْسِهِ ، مَذْكُورًا بِمَا فِيهِ دُونَ مَا فِي غَيْرِهِ ، قَلِمٌ لَنَا : عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدٍ ، وَعَانِكَةُ فِي نَفْسِهَا كَامِرَةٌ مِنْ عَرَضِ قَرِيشٍ ، لَيْسَ فِيهَا فِي نَفْسِهَا خَاصَةٌ أَمْرٌ تَسْتَوْجِبُ بِهِ الْمَفَاخِرَةَ . وَنَحْنُ نَقُولُ : مِنْهَا فَاطِمَةُ ، وَفَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَكَذَلِكَ أُمُّهَا خَدِيجَةُ الْكُبْرَى ، وَإِنَّمَا تُذَكِّرَانِ مَعَ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَأَسْمِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمِ اللَّتَيْنِ ذَكَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَذَكَرَ إِحْدَاهُمَا الْقُرْآنَ ، وَهُنَّ الْمَذْكُورَاتُ مِنْ جَمِيعِ نِسَاءِ الْعَالَمِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .

وَقَلِمٌ لَنَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَلَدَهُ سَبْعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ ؛ وَعَبْدُ اللَّهِ هَذَا فِي نَفْسِهِ لَيْسَ هُنَاكَ ، وَنَحْنُ نَقُولُ : مِنْهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ بْنِ هَاشِمٍ ، كُلُّهُمْ سَيِّدٌ ، وَأُمُّهُ الْعَالِيَةُ نَسَبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَإِخْوَتُهُ دَاوُدُ وَصَالِحٌ وَسُلَيْمَانُ وَعَبْدُ اللَّهِ رَجَالُ كُلِّهُمْ أَغْرُثُ مُحَمَّدٌ ، ثُمَّ وَلَدَتْ الرُّؤَسَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ وَأَخَوَيْهِ أَبَا الْعَبَّاسِ وَأَبَا جَعْفَرَ ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمَا مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

وَقَلِمٌ : مِنْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدٍ ، وَقُلْنَا : مِنْهَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ،

(١) الحلف ، بكسر الحاء وسكون اللام : العهد بين القوم .

وأولى الناس بكلِّ مكرُمة ، وأطهرهم طهارةً ، مع النجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنف^(١) ، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس درجّة ، وأشبههم برسول الله خاتماً وخاتماً ، وأبوها عليّ بن أبي طالب .

قال شيخنا أبو عثمان : وهو الذي ترك وصفه أبلغ في وصفه ، إذ كان هذا الكتاب يعجز عنه ، ويحتاج إلى كتابٍ يفرد له ، وعمّهما ذو الجناحين ، وأمّهما ، فاطمة وجدّتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأمّ كلثوم ، وجدّتاها آمنَةُ بنت وَهَب والدَةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وحدّتها رسولُ الله صلى الله عليه وآله المخرس لكلِّ فاجر ، والغالب لكلِّ مُنافر ، قل ماشيت ؛ واذكر أيّ باب شئت من الفضل ، فإنّك تجدهم قد حوَّوه .

وقالت أمّية : نحن لا نُنكر فخرَ بنى هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية ، إذ كان الناس في ذلك الدّهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمّية ، بل يقولون : كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميّزهم في أسر عليّ وعثمان في السّورى ، ثم ما كان في أيام تحزّبهم وحربهم مع عليّ ومعاوية .

ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقاً بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجّةً شديدةً ، وأصواها مرفعةً ، وهو يومئذٍ شيخ كبيرٌ مكفوف ، فقال : ما هذا ؛ قالوا : فيض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما صنعتُ قریش ؟ قالوا : ولّوا الأمر ابنك ؛ قال : ورضيت بذلك بنو عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : ورضى بذلك بنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى

(١) الأنف بفتحين ؛ مثل الأنفة ؛ ومعناها الشم والإباء .

لما منع ! ولم يقل : أرَضِيَ بذلك بنو عبد شمس ؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال .

وهكذا قال أبو سُفيان بن حَرْب لعلّى عليه السلام ، وقد سَخِطَ إمارة أبي بكر : أرضيتُم يا بني عبد مناف أن تَلِيََ عليكم تيم ؟ ولم يقل : أرضيتُم يا بني هاشم ؟ وكذلك قال خالد بن سعيد بن العاص حين قَدِمَ من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتُم معشر بني عبد مناف أن نلِيََ عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يُفَرِّقون بين هاشم وعبد شمس ، وهما أخوان لأب وأم ! ويدلّ على أن أمرهما كان واحدا ، وأن اسمهم كان جامعا ، قولُ النبي صلى الله عليه وآله وصنيعه حين قال : « منّا خيرُ فارسٍ في العرب ، عكاشة بن محصن » وكان أسدياً ، وكان حليفاً لبني عبد شمس ، وكل من شهد بدراً من بني كبير بن داود كانوا حلفاء بني عبد شمس ، فقال ضرارُ بن الأزور الأسدي : ذاك مما يارسول الله ، فقال عليه السلام : « بل هو منّا بالحلف » ، فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم ، وهذا بين لا يحتاجُ صاحبُ هذه الصفة إلى أكثر منه .

قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أ كفاء ، وأمراً واحداً ! وقد سمعتم إسحاق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عذّب بن أسيد : لولا حتى أكرمهم الله بالرسالة ، لزعمت أنك أشرف الناس ؛ أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة !

قالت هاشم : قلتم : لولا أنا كنّا أ كفاءكم لما أنكحتمونا ساءكم ، فقد يجد القوم يستوون في حسب الأب ، ويفترقون في حسب الأنفس ، وربما استووا في حسب أبي

القبيلة، كاستواء قريش في النضر بن كنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤي، وعامر ابن لؤي، وكاختلاف ابن قصي وعبد مناف وعبد الدار وعبد العزى، والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً في وجوه، ويفارقونهم في وجوه، ويستجيزون بذلك القدر منا كحتمهم، وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم، وقديزج السيد ابن أخيه وهو حارص ابن حارص^(١) على وجه صيلة الرّحم، فيكون ذلك جائزاً عندهم، ولو جوه في هذا الباب كثيرة، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفأونا من كل وجه، وإن كنّا قد زوجناكم وسأويناكم في بعض الآباء والأجداد. وبعد، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب، أفترعمون أنهم أكفأؤكم عينا بعين أو أما قولكم: إن الحيين كان يقال لها عبد مناف فقد كان يقال لها أيضا مع غيرها من قريش وبنينا: بنو النضر. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)، فلم يدع النبي صلى الله عليه وآله أحداً من بنى عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بنى هاشم وبنى المطلب، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف وفوق ذلك قصي، ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله لما أتى بعبد الله بن عامر بن كرز بن حبيب بن عبد شمس - وأمّ عامر ابن كرز أمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم - قال عليه السلام: هذا أشبه بنا منه بكم، ثم ثقل في فيه فازدردّه، فقال: أرجو أن تكون مشفياً، فكان كما قال. ففي قوله: «هو أشبه بنا منه بكم» خصلتان: إحداهما أن عبد شمس وهاشما لو كانا شيئاً واحداً كما أن عبد المطلب شيء واحد لما قال: «هو بنا أشبه به منكم»، والأخرى أن في هذا القول تفصيلاً لبني هاشم على بنى عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خطيباً جواداً نبيلاً وسيّداً مشفياً، له مصانع وآثار كريمة، لأنه قال: «وهو بنا أشبه به منكم» وأتى عبد المطلب

(١) الحارص: الرجل الرذل الفاسد. (٢) سورة الشعراء ٢١٤.

بعاصر بن كُرَيْز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فنامته ، وقال : وعظامِ هاشم ما ولدنا ولدا أحرَض منه ، فكان كما قال عبدُ الله يُحَمِّق ، ولم يقل « وعظام عبد مناف » لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُرَكَاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

فأمّا ما ذكرتم من قول أبي سُفيان وخالد بن سعيد : أرضيتُم معسرَ بنى عبد مناف أن تلىَ عليكم تيم ! فإن هذه الكلمة كلمةٌ تحريض وتهيج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب ، وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين ، وهذا المذهب سديد ، وهذا التدبير صحيح .

قال معاوية بن صَمْعَصَةَ للأشهب بن رُمَيْلة ، وهو نَهْشَلِيٌّ وَلَفَرَزْدَقِ بن غالب ، وهو بُجَاشِيٌّ ولمسكن بن أنيف وهو عَبْدُ لِيٍّ : أَرْضَيْتُم معسرَ بنى دارمٍ أن يَسُبَّ آبَاءكم ويشتم أعراضكم كلب بنى كَلَيْب ! وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المُسْتَمِل على آباء قبائلهم ليستوثوا في الحِمِيَّة ويتفقوا على الأنف ، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدلّ على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين ؛ قال حَسَّان بن ثَابِت لأبي سُفيان الحارث بن عبدِ المطلب :

وأنتَ منوطٌ نَيْطٌ^(١) في آلِ هاشمٍ كما نَيْطَ خَلْفِ الرَّاكِبِ الْقَدَحَ الْفَرْدُ
لم يقل : « نَيْطٌ في آلِ عبدِ مناف » .

وقال آخر :

ما أنتَ من هاشمٍ في بيتِ مَكْرُمَةٍ ولا بنى جُحَجٍ الْخَضِرِ الْجَلَاعِيدِ^(٢)

(١) ب : « ينط » - ريف . (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنت من آل عبد مناف » ، وكيف يقول هذا ، وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكانت مما بطأ ببني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حث بني المطلب على الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم ؛ لأن أمر النبي صلى الله عليه وآله كان بيننا ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة ، فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وآله من بني نوفل أحد فضلاً أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعلى بن منبه وعنبة بن غزوان وغيرهما ، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدرى : عبيد ، وطفيل ، وحصين ؛ ومن بني المطلب مسطح بن أثمة بدرى .

وكيف يكون الأمر كما قاتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي صلى الله عليه وآله ، لما تملأت قريش عليه :

جَزَى اللَّهُ عَنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا جزاء مَسِيءٍ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
أَمْطَعِمَ إِمَّا سَامِيَ الْقَوْمِ خُطَّةً فَأَتَى مَتَى أَوْكَلَ فَلَسْتَ بِأَكِلٍ
أَمْطَعِمَ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمِ شِدَّةٍ وَلَا مُشْهَدٍ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلَائِلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وآله قسمة فجعلها في بني هاشم وبني المطلب ، فأناه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجُبَيْر بن مطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا رسول الله ، إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحدة ، فكيف أعطيتم دوننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبني المطلب كهاتين » ، وشبك بين أصابعه ، فكيف يقولون : كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذي يجمعنا واحداً !

ثم نرجع إلى أفنخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأيد^(١) والقوة ، واهتصار^(٢) الأقران ومُياطشة الرجال ، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفية ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة ، فحذَّبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتم أيضا حديث الأيد^(٣) القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمدا قعد له ليقيمه فلم يستطع ، فكأنما يُحرَّك جبلا ، وأن الرومي قعد ليقيمه محمد فرفعه إلى فوق رأسه ، ثم جلَّده به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفق في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن العيوب ، حتى ادَّعى له أنه المهدي ، وقد سمعتم أحاديث أبي إسحاق المعتصم ، وأن أحمد بن أبي دؤاد عَضَّ ساعده بأسنانه أشدَّ العَضِّ فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظنُّ الأسننة ولا السَّهَامُ يُؤثِّرُ في جَسَدِهِ ، وسمعتم ما قيل في عبد الكريم المطيع ، وأنه جذَّب ذَنَبَ ثورٍ فاستلَّه من بين ورَّكيه .

وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وقد بَاغَ من سجاجة خُلُقِهِ وطلاقة وَجْهِهِ أَنْ عَيَّبَ بالدُّعَابَةِ ! وَمَنْ الذي يسوِّي بين عبد تَمَسَّ وبين هاشم في ذلك ! كان الوليدُ جَبَّارًا ، وكان هشامُ شَرِسَ الأخلاق ، وكان مَرْوَانُ بنُ محمد لا يزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوليد الناقص ، وكان المهدي المنصورُ أَمْرَى خلق الله وألطفهم خُلُقًا ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المؤمنون ، وكان السفاح يُضْرَبُ به المثل في السَّوِّ وسجاجة الخُلُقِ .

قالوا : ونحن نعدُّ من رَهْطِنا رجالا لا تُعَدُّون أمثالهم أبداً ، فنمَّا الأسماء بالدِّمِ الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطروش بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن عمر الأشرف

(١) الأيد : (فتح مسكون) : القوة . (٢) اهتصر القرن : جذبه بشدة .

(٣) الأيد : الشجاعة الشديد .

ابن زيد العابدين، وهو الذى اسلمت الديلم على يده، والناصر الأصغر وهو أحمد بن يحيى ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، وأخوه محمد بن يحيى، وهو الملقب بالمرّضى، وأبوه يحيى بن الحسن وهو الملقب بالهادى. ومن ولد الناصر الكبير الناصر، وهو جعفر ابن محمد بن الحسن الناصر الكبير، وهم الأمراء بطبرستان وجيلان وجرجان ومازندران وسائر ممالك الديلم؛ ملكوا تلك الأصقاع مائة وثلاثين سنة، وضربوا الدنانير والدراهم بأسمائهم، وخطب لهم على المنابر، وحاربوا الملوك السامانية، وكسروا جيوشهم، وقتلوا أمراءهم، فهؤلاء واحدٌهم أعظمُ كثيراً من ملوك بنى أمية، وأطول مدة وأعدل وأنصف وأكثر نسكاً وأشدّ حياءً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يجرى مجراهم الداعي الأكبر والداعي الأصغر ملكاً الديلم، قاداً الجيوش واصطناً الصنائع.

قالوا: ولنا ملوك مصر وإفريقية، ملكوا مائتين وسبعين سنة، فتحتوا الفتوح واستردّوا ما تغلب عليه الروم من مملكة الإسلام، واصطنعوا الصنائع الجليلة.

ولهم الكتاب والشعراء والأمراء والقواد، فأولهم المهدي عبيد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وآخرهم العاصد، وهو عبد الله بن الأمير أبي القاسم بن الحافظ أبي الميمون بن المستعلى بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المصور بن القائم ابن المهدي؛ فإن افتخرت الأموية بملوكها فى الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك، واتصال ملكهم وجعلهم بإراء ملوكنا بمصر وإفريقية، قلنا لهم: ألا إننا نحن أزلنا ملككم بالأندلس، كما أزلنا ملككم بالشام والمشرق كله، لأنه لما ملك قرطبة

الظافرُ من بنى أمية وهو سليمان بنُ الحُكم بن سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالناصر ، خرج عليه عليّ بن حميد بن ميمون بن أحمد بن عليّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقتله ، وأزال مُلكه . وملك قُرْطُبة دارَ ملك بنى أمية ، ويلقب بالناصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بن حمود ، ويلقب بالمعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلنا مُلككم في المشرق والمغرب ، ونحن لكم على الرصد^(١) حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشرّدناكم كلَّ مشرّد ، والفخرُ للعالم على المغلوب ، بهذا قضت الأم فاطمة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، منا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كان شجاعاً جريئاً^(٢) وهو الذي وَلِيَ الموصِلَ لأخيه السفاح فاستعرض أهلها ، حتى ساخت^(٣) الأقدام في الدّم .

ومنا يعقوب بن إبراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط ، ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن عليّ ، كانا أعظم من ملوك بنى أمية ، وأجلّ قَدراً وأكثرَ أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يدِ كلِّ واحدةٍ منهن جام^(٤) من ذهب وزنه ألفُ مثقال ، مملوء مسكاً ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السّودان خاصّة ، فكم يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رُئي جعفر بن سليمان راكباً قطّ إلا ظنّ أنه الخليفة .

ومن رجالنا محمد بن السّمّاح ، كان جواداً أيّداً شديد البطش ، قالوا مارئى أخوان

(١) على الرصد : مترصدون لكم . (٢) في ب : « حرباً » تصحيف . (٣) ساخت : حانت . (٤) الجام : إماء من الذهب أو الفضة .

أشدّ قوّة من محمد ورَبيطة. أخنه ولدَى أبى العباس السّفاح ، كان محمد يأخذ الحديّد فيلويه فتأخذه هي فتزده .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيم طباطبنا صاحب أبى السّرايا ، كان ناسكا عابدا فقيها عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو الذى شيّد ملك المنصور وحارب أبى عبد الله بن حسن ، وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أدبياً شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حجّ بالناس وولى السّام ، وكان فصيحاً خطيباً .

ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادى ، كان أكرم الناس وجواداً ممدوحاً أدبياً شاعراً ، وأخوه عيسى بن موسى الهادى ، كان أكرم الناس ، وأجود الناس ، كان يابس الثياب ، وقد حدّد ظفره فيخزقها بظفره لثلاث أعاد إليه . وعبد الله بن أحمد ابن عبد الله بن موسى الهادى ، وكان أدبياً ظريفاً .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أوحداً الدّنيا فى السّعر والأدب والأمثال الحكمة والسؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لما قُتل :

للهِ دَرْكٌ مِنْ مَيِّتٍ بِمَضِيعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْأَشْعَارِ وَالْخُطْبِ (١)
مَا فِيهِ لَوْ لَا تَوَلَّى فَتَنْقُصَهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكْتُهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحسين بن موسى شيخ نى هاشم الطالبين والعباسيين فى عصره ، ومن أطاعه الخلفاء والملوك فى أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وابناه على ومحمد وهما المرتضى والرضى ، وهما فريدا العصر فى الأدب والشّعر والفقه والكلام ، وكان الرضى شجاعاً أدبياً شديد الأنف .

(١) لعل بن بسم ، ابن خلکان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالنا القاسمُ بن عبدِ الرحيم بن عيسى بن موسى الهادي ، كان شاعراً ظريفاً .
ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنّفات والورع والدّعاء إلى الله وإلى
التوحيد والعَدْل ومناذرة الظالمين ، ومن أولاده أمراء المؤمنين .

ومن رجالنا محمدُ الفأفأ بن إبراهيم الإمام ، كان سيّدا مُقدّما ، ولي الموسمَ وحجَّ
بالناس ، وكان الرشيد يُسايّره ، وهو مَنع بطيئَ لسانه .

ومن رجالنا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب أبي السرايا ، سادَ
حدّنا ، وكان شاعرا أديبا فقيها ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولما أُسِرَ وحِلَّ إلى
المأمون أكرّمه وأفضّل عليه ، ورعى له فضله ونسبه .

ومن رجالنا موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كنيته
أبو عيسى ، وهو أجلُّ ولدِ عيسى وأنبههم ، ولي الكوفة وسوّادها زمانا طويلا للهديّ ،
ثم الهادي ، وولي المدينة وإفريقية ومصرَ للرّشيد ، قال له ابن السّماك لما رأى تواضعه :
إنّ تواضعك في شرفك لأحبُّ إلى من شرفك ؛ فقال موسى : إنّ قومنا - يعني بني هاشم -
يقولون : إنّ التواضع أحدُ مصائد الشرف .

ومن رجالنا موسى بن محمد أخو السّفّاح والمنصور ، كان نبيلاً عندهم ، هو وإبراهيمُ
الإمام لأُمٍّ واحدة ، رأى في منامه قبل أن يصير من أمرهم ماصار أنّه دخل بُسْتَنًا فلم
يأخذ إلّا عنقوداً واحداً عليه من الحبِّ المتراصّ ماربك به عليم ، فلم يؤلّد له إلا عيسى ، ثم
وُلد لعيسى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكراً وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو
عبدُ الله المحض ، وأبوه الحسن بن الحسن ، وأمّه فاطمة بنتُ الحسين ، وكان إذا قيل : مَنْ

أَجَلُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَإِذَا قِيلَ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ الْحُسَيْنِ، فَإِذَا قَالُوا: مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ.

وَمِنْ رَجَالِنَا أَخُوهُ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَعَمُّهُ زَيْدُ بْنُ الْحُسَيْنِ وَبَنُوهُ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ
وَمُوسَى وَيَحْيَى؛ أَمَّا مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ فَأَمْرُهُمَا شَهُورٌ، وَفَضْلُهُمَا غَيْرُ نَجْحُودٍ، فِي الْفَقْهِ وَالْأَدَبِ
وَالنُّسْكِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسُّؤْدُودِ. وَأَمَّا يَحْيَى صَاحِبُ الدَّيْلَمِ فَكَانَ حَسَنَ الْمَذْهَبِ وَالْهَدْيِ، مَقْدَمًا
فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، بَعِيدًا مِمَّا يُعَابُ عَلَى مِثْلِهِ، وَقَدْ رَوَى الْحَدِيثَ وَأَكْثَرَ الرِّوَايَةِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ
مُحَمَّدٍ، وَرَوَى عَنْ أَكْبَرِ الْحَدِيثَيْنِ، وَأَوْصَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ إِلَيْهِ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَإِلَى
وَلَدِهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ. وَأَمَّا مُوسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ؛ فَكَانَ شَابًا نَجِيًّا صَبُورًا شَجَاعًا
سَخِيًّا شَاعِرًا.

وَمِنْ رَجَالِنَا الْحُسَيْنُ الْمَثَلِيُّ، وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، كَانَ مُتَأَلِّهًا^(١) فَاضِلًا وَرِعًا، يَذْهَبُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَذْهَبَ
أَهْلِهِ. وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ مَقْدَمًا فِي
أَهْلِهِ، يُقَالُ: إِنَّهُ أَشْبَهُ أَهْلَ زَمَانِهِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وَمِنْ رَجَالِنَا عِيسَى بْنُ زَيْدٍ، وَيَحْيَى بْنُ زَيْدٍ أَخُوهُ، وَكَانَا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمَا شَجَاعَةً
وَزُهْدًا وَفَقْهًا وَنُسْكًَا.

وَمِنْ رَجَالِنَا يَحْيَى بْنُ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ. كَانَ فَقِيهًا
فَاضِلًا شَجَاعًا فَضِيحًا شَاعِرًا، وَيُقَالُ: إِنَّ النَّاسَ مَا أَحْبَبُوا طَالِبِيًّا قَطَّ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ حَبَّهِمْ
يَحْيَى، وَلَا رَأَى أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمِثْلِ مَارِئِيٍّ بِهِ.

(١) مُتَأَلِّهًا: مُتَعَبِّدًا.

قال أبو الفَرَج الأصفهاني : كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البدن ، مجتَمِع القلب ، بعيداً عن زهو الشباب وما يُعَابُ به مثله ، كان له عمودٌ حديدٌ ثَقِيلٌ يَصْحَبُه في منزله ، فإذا سَخِطَ على عبدٍ أو أمة من حَشَمه لَوَاه في عُنقه فلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أن يَحِلَّه عنه حتى يَحِلَّه هو ^(١) .
ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن عليّ بن عمر بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام صاحب الطالِقَانِ ؛ لُقِبَ بالصوفيّ لأنّه لم يسكن يلبس إلا الصوف الأبيض ، وكان عالماً فقيهاً ، ديناً زاهداً ، حسنَ المذهب ، يقول بالعدل والتوحيد .

ومن رجالنا محمد بنُ عليّ بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام . كان من فتيان آل أبي طالب وُقِفَتْ كُفَّهم وشُجَمَانُهم وظُرْفَانُهم وشُعْرَانُهم ، وله شعرٌ لطيفٌ محفوظ .
ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد ، كان فاضلاً عالماً مقدّماً في عَشِيرَتِهِ ، معروفاً بالفضل ؛ وقد رَوَى الحديث ورَوَى عنه .

ومن رجالنا موسى بن جعفر بن محمد - وهو العبد الصالح - جَمَعَ من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر . وابنه عليّ بن موسى المرشح للخلافة ، والمخطوب له بالعهد ، كان أعلم الناس ، وأسَخَى الناس ، وأَكْرَمَ الناس أخلاقاً .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أمر الشَّجَرَةِ الملعونة ، فإنّ المُفسِّرين كلّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخباراً كثيرةً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ولستم قادرين على جَعْدِ ذلك ، وقد عَرَفْتُمْ تأخّرَكم عن الإسلام وشِدَّةَ عداوتكم للرّسول الدّاعي إليه ، ومحاربتكم في بَدْرٍ وأُحُدٍ والخندق ، وصَدَّكم الهدى عن البيت ، وليس ذلك مما يوجب أن يعمّكم اللّعن حتى

(١) مقاتل الطالبين ٦٤٠ .

لا يغادر واحداً ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدَّى . وأما اختصاصُ محمد بن عليٍّ بالوصية والخلافة دون إخوته ؛ فقد علمتم أن وراثته السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثته الأموال ؛ ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب ! وسواء في الأموال ، كان الابن حارِضاً^(١) بائراً ، أو بارعاً جامعاً .

وقيل : وراثته المقام سبيلُ وراثته اللواء ، دفع رسول الله صلى الله عليه وآله لواء بني عبد الدار إلى مُصعب بن عمير ، ودفع عمر بن الخطاب لواء بني تميم إلى وكيع بن بشر ، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد في بني زُرارة مَنْ يستحق وراثته اللواء ؛ فإن كان الأمر بالسُّنِّ فإنما كان بين محمد بن عليٍّ وأبيه عليٍّ بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان عليٌّ يَحْضِبُ بالسَّوَاد ، ومحمد يَحْضِبُ بِالْحُمْرَةِ ، فكان القادم يقدِّم عليهما ، والزائر يأتيهما ، فيظُنُّ أكثرهم أنَّ محمداً هو عليٌّ ، وأن علياً هو محمد ، حتى ربما قيل لعليٍّ : كيف أصبح الشيخُ من عِلَّتِهِ ؟ ومتى رَجَعَ الشيخُ إلى منزله ؟ وأخرى أنَّ أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ، فقد ولده العباس مرتين ، وولده جوادُ بن العباس ؛ وكلا والده خيرٌهم وحَبْرُهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان بعضُ ولدِ محمد أَسَنَّ من عامة ولدِ عليٍّ ، وولِدَ محمدُ المهدي بن عبد الله المنصور والعباس بن محمد بن عليٍّ في عام واحد ، وكذلك محمد بن سليمان بن عليٍّ ، ولم يكن لأحد من ولدِ عليٍّ بن عبد الله بن العباس — وإن كانوا فضلاءً نجباءً كُرماءً نبلاءً — مثل عقله ولا كجماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناسُ على أبواب دُورهم والنساء على سطوحهنَّ للنظرِ إليه ، والتعجُّب من كماله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه في دفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبرين ؛ على أنَّ محمداً إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسَّس ، وقاعدةٍ مقرَّرة ، ووصيةٍ انتقلت إليه من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد ، وأخذها محمد عن عليٍّ بن أبي طالب أبيه .

(١) الحارِض : الفاسد .

قالوا : لما سمّت بنو أمية أبا هاشمٍ مَرَضَ فخرج من الشام وقَيْذا^(١) يَوْمَ المدينة ، فمَرَّ بالحمية^(٢) وقد أَشْفَى ، فاستدعى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فدفع الوصية إليه ، وعرفه ما يصنع ، وأخبره بما سيكون من الأمر ، وقال له : إني لم أدفعها إليك من تلقاء نفسي ، ولكن أبي أخبرني عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام بذلك ، وأمرني به ، وأعلمني بلباقى إيتاك في هذا المكان ، ثم مات فتولى محمد بن علي تجهيزه ودفنه وبث الدعاة حينئذ في طلب الأمر ، وهو الذي قال لرجال الدعوة ، والقائمين بأمر للدولة ، حين اختارهم للتوجه ، وانتخبهم للدعاء ، وحين قال بعضهم : ندعو بالكوفة ، وقال بعضهم : بالبصرة . وقال بعضهم : بالجزيرة . وقال بعضهم بالشام . وقال بعضهم : بمكة وقال بعضهم : بالمدينة . واحتج كلُّ إنسان لرأيه ، واعتلّ لقوله - فقال محمد : أمّا الكوفة وسوادها فشيعةٌ عليٌّ وولده ، وأمّا البصرة فعثمانيةٌ تدّين بالكف ، وقبيلُ عبد الله المقتول يدّينون بجميع الفرق ، ولا يُعينون أحد ، وأمّا الجزيرة فحروريةٌ مارقة ، والخارجية فيهم فاشية ، وأعراب كأعلاج^(٣) ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأمّا الشام فلا يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ، عداوة راسخة ، وجهلاً متراكماً ؛ وأمّا مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، وليس يتحرّك معناني أمرنا هذا منهم أحد ، ولا يقوم بنصرنا إلا شيعتنا أهل البيت ، ولكن عليكم بخراسان ، فإنّ هناك العدَدَ الكثير ، والجلد الظاهر ، وصُدوراً سليمة ، وقلوباً مجتمعة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنوزّعها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولا هدم فيها فساد ، وليس لهم اليوم همم^(٤) العرب ، ولا فيهم تجارب كتجارب الأنبا مع السادات ، ولا تحالفٌ كتتحالف القبائل ، ولا عصبيةٌ كعصبية العشائر ، وما زالوا يُنَالون ويمتهنون ، ويُظلمون فيكْظُمون ، ويذتظرون الفرج ، ويؤمّلون

(١) الوقيد : المرض المشرف على الهلاك .

(٢) الحمية ، كجهينة بلده بالبقاء . (٣) الأعلاج : جمع عالج ؛ الرجل من كفار العجم :

(٤) ١ : هم .

دَوَلَةٌ ، وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولكى ، وشواربُ وأصوات هائلة ، ولغات نغمة ، تخرج من أجواف مُنْكَرَةٍ .

وبعد ، فكأنى أفعالُ جانبِ المشرقِ فإنَّ مطلعَ الشمسِ سراجُ الدنيا ، ومصباحُ هذا الخلقِ . فجاء الأمرُ كما دبر ، وكما قدر ، فإن كان الرأى الذى رأى صواباً فقد وافق الرشاد ؛ وطبّقَ الفصل ، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة ، فلم يتلقَ تلك الرواية إلا عن نبوة .

قالوا : وأما قولكم : إنَّ منا رجلاً مكَّتْ وأربعين سنة أميراً وخليفة ، فإنَّ الإمارة لا تعدّ نغرام الخلافة ، ولا تُضمُّ إليها ، ونحن نقول : إنَّ منا رجلاً مكَّتْ سبعاً وأربعين سنة خليفة ، وهو أحمد الناصر بن الحسن المستضى ؛ ومِنَّا رجلٌ مكَّتْ خمساً وأربعين سنة خليفة ، وهو عبد الله القائم ومكَّتْ أبوه أحمد القادر ثلاثاً وأربعين سنة خليفة ، فلكهما أكثر من مُلكِ بنى أمية كلِّهم ، وهم أربع عشرة خليفة . ويقول الطالبيون : مِنَّا رجلٌ مكَّتْ ستين سنة خليفة ، وهو معدّ بن الطاهر صاحب مصر ، وهذه مدّة لم يبلُغها خليفة ولا ملك من ملوك العرب في قديم الدهر ولا في حديثه .

وقلّم لنا : عائكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء ، ونحن نقول : لنا رُبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء ، جدّها المنصور خليفة ، وعمُّ أبيها السفاح خليفة وعمُّها المهدي خليفة ، وابن عمّها الهادي خليفة ، وبعلمها الرشيد خليفة ، وابنُها الأمين خليفة ، وابنُها المأمون والمعتصمُ خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتموه من الأعياص والعنابس فلَسْنَا نصدِّقكم فيما زعمتموه أصلاً بهذه التسمية ، وإنما سُموا الأعياص لِمكانِ العيص وأبى العيص والعاص وأبى العاص ، وهذه أسماءهم ، الأعلام ليست مشتقة من أفعالٍ لهم كريمة ولا خبيسة . وأما العنابس ،

— ٢٩٥ —

فإِذَا سَمَّوْا بِذَلِكَ لَأَنَّ حَرْبَ بْنَ أُمَيَّةَ كَانَ اسْمُهُ عَنَنْبَسَةَ ؛ وَأَمَّا حَرْبُ فَلَقَّبَهُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ
النَّسَابُونَ ، وَلَمَّا كَانَ حَرْبُ أَمْثَلَهُمْ سَمَّوْا جَمَاعَتَهُمْ بِاسْمِهِ ، فَقِيلَ : الْعَنَابَسُ ، كَمَا يُقَالُ :
الْمَهَالِبَةُ وَالْمَنَازِرَةُ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى مُنَى أَبُو سَفْيَانَ بْنَ حَرْبِ بْنِ عَنَنْبَسَةَ ، وَنُحْيِي سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ
ابْنَ عَنَنْبَسَةَ .

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وإليه
الجزء السادس عشر

فهرس الخطب*

- ٧٩ - ٨٠ من كتاب له عليه السلام إلى معلوية
- ٨٩ - ١١ من وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدو
- ١٢ - من وصية له عليه السلام أوصى بها معقل بن قيس الرياحي
- ٩٢ حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف
- ٩٨ - ١٣ من كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أسراء جيشه
- ١٠٤ - ١٤ من وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدو
- ١١٢ - ١٥ من كلام كان يقوله عليه السلام إذا لقي عدوًا محاربًا:
- ١١٤ - ١٦ من كلام كان يقول: لأصحابه عند الحرب
- ١١٧ - ١٧ من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابًا عن كتاب منه إليه
- ١٨ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله
- ١٢٥ على البصرة.
- ١٣٧ - ١٩ من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله
- ١٣٨ - ٢٠ من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه
- ١٣٩ - ٢١ من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه أيضا
- ١٤٠ - ٢٢ من كتاب له عليه السلام إلى ابن عباس
- ٢٣ - من كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما
- ١٤٣ ضربه عبد الرحمن بن ملجم

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

- ٢٤ - من وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد
منصرفه بن صفين . ١٤٦ - ١٤٨
- ٢٥ - من وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ١٥١ - ١٥٢
- ٢٦ - من عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة ١٥٨
- ٢٧ - من عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر ١٦٣ - ١٧٠
- ٢٨ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا وهو من محاسن الكتب ١٨١ - ١٨٢

فهرس الموضوعات*

صفحة	
	القول فى أسماء الذفن تعالقدوا من قرش على قتل رسول الله صلى الله
٩-٣	عليه وسلم
١١-١٠	القول فى الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا
١٩-١١	القول فى مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه
٢٥-١٩	القول فىمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد
٤٣-٢٥	القول فىما جرى للمسلمفن بعد إصعادهم فى الجبل
٤٥-٤٤	القول فىما جرى للمشركفن بعد انصرافهم إلى مكة
٤٨-٤٥	القول فى مقتل أبى عزة الجحى ومعاذ بن المفيرة
٥١-٤٨	القول فى مقتل المجذر بن زفاد البلوى الحارث بن فزفد بن الصامت
٥٢-٥١	القول فىمن مات من المسلمفن بأحد جملة
٥٤-٥٢	القول فىمن قتل من المشركفن بأحد
	القول فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من أحد إلى
٦٠-٥٥	المشركفن لىوقع بهم على ماهو به من الوهن
٧٢-٦١	الفصل الخامس فى شرح غزاة مؤتة
٧٨-٧٢	فصل فى ذكر بعض مناقب جعفر بن أبى طالب
٩٧-٩٥	نهد من الأقوال الحكفمة فى الحروب

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

صفحة	
١٠٢-٩٨	فصل في نسب الأشر و ذكر بعض فضائله
١٠٣-١٠٢	نبذ من الأقوال الحكيمة
١٠٦-١٠٥	نبذ من الأقوال الحكيمة
١١١-١٠٧	قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة
١١٦-١١٥	نبذ من الأقوال المتشابهة في الحرب
١٢٤-١٢٠	ذكر بعض ما كان بين علي ومعاوية يوم صفين
١٣٦-١٣٦	فصل في بني تميم و ذكر بعض فضائلهم
١٨٠-١٧١	كتاب المعتضد بالله
١٨٧-١٨٤	كتاب لمعاوية إلى علي
١٩٨-١٩٥	منا كحات بني هاشم وبني عبد شمس
٢٥٧-١٩٨	فضل بني هاشم على بني شمس
٢٨٤-٢٥٧	مفاخر بني أمية
٢٨٤-٢٧٠	ذكر الجواب عما نفرت به بنو أمية
٢٩٥-٢٨٥	افتخار بني هاشم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد السادس عشر

دار الجليل

بيروت

محقق الطبع محفوظ للنشر
طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ ، فَعَفَوْتُ عَنْ
مُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدِيرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ ، فَإِنْ خَطَبَ بِكُمْ
الْأُمُورُ الرُّدِيَّةُ ، وَسَفَهُ الْأَرَاءِ الْجَائِرَةِ ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي ، فَهَأَنْذَا قَدْ قَرَّبْتُ
جِيَادِي ، وَرَحَلْتُ رِكَابِي .

وَلَيْتَ الْجَائِئِمُونَ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَا وَقِعَنَّ بِكُمْ وَقَعَةٌ لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ
إِلَيْهَا إِلَّا كَلْعَقَةٍ لَا عِقْرَ ؛ مَعَ أُنَى عَارِفٍ لِدَى الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلُهُ ، وَلِدَى النَّصِيحَةِ
حَقُّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَهَمًا إِلَى بَرِيٍّ ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ .

البنوع :

ما لم تغبوا عنه ، أى لم تسهوا عنه ولم تغفلوا ، يقال: غبيتُ عن الشيء أغبي غباوة ؛ إذا
لم يفتن ، وغبي الشيء على كذا إذا لم تعرفه ، وفلان غبي على « فعمل » ، أى قليل
الفتنة ، وقد تغابى ؛ أى تنافل ؛ يقول لهم : قد كان من خروجكم يوم الجمل عن الطاعة ،

ونشركم حبل الجماعة ، وشقاقكم لي ما لستم أغبياء عنه ، فغفرت ورفعت السيف ، وقبلت التوبة والإجابة .

والمديرها هنا : الهارب ، والمقبل : الذي لم يفرّ؛ لكن جاءنا فاعتذر وتصل .

ثم قال : فإن خطت بكم الأمور ، خطا فلان خطوة بخطو ، وهو مقدار ما بين القدمين ، فهذا لازم ، فإن عدتيه ، قلت : أخطيت بفلان ، وخطوت به ، وها هنا قد عدّاه بالبلاء .

والمردية : المهلكة ، والجائرة : العادلة عن الصواب . والمنابذة ، مفاعلة ، من نبذت إليه عهده أى ألقيته وعدلت عن السلم إلى الحرب ، أو من نبذت زيدا ، أى أطرحته ولم أحفل به .

قوله : « قربت جياذى » ، أى أمرت بتقريب خيلي إلى لأركب وأسير إليكم .

ورحلت ركابي ، الركاب الإبل ، ورحلتها : شدت على ظهورها الرجل ، قال : رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ ثَمَا يَقُولُ بَدَّالَهَا^(١)

كلمة لاقى ، مثل يضرب للشئ الحقيق التافه ، ويروى بضم اللام ، وهى ما تأخذه الملمقة .

ثم عاد فقال مازجا الخشونة باللين : مع أنى عارف فضل ذى الطاعة منكم ، وحق ذى النصيحة ، ولو عاقبت لما عاقبت البرىء بالسقيم ، ولا أخذت الوفاء بالنكاث .

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغراء المشهورة ، وقال فيها : والله لأخذن البرىء بالسقيم ، والبرىء بالثيم ، والوالد بالولد ، والجار بالجار ، أو تستقيم إلى قناتكم . فقام أبو بلال مرداس

— ٥ —

ابن أديّة يهمس ، وهو حينئذ شيخ كبير ، فقال : أيها الأمير ، أبأنا الله بخلاف ما قلت ، وحكم بغير ما حكمت ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ^(١) ، فقال زياد : يا أبا بلال ، إني لم أجهل ما علمت ؛ ولكننا لا نخلص إلى الحقّ منكم حتى نخوض إليه الباطل خوفاً .

وفى رواية الرياشي : «لأخذن الوليّ بالوليّ» ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلتقى الرجل منكم أخاه فيقول : انبجُ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم .

(١) سورة الأنعام ١٦٤ .

(٣٠)

الأضل:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَأَرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعَذِّرُ
بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاضِحَةً ، وَسُبُلًا نِيرَةً ، وَحُجَّةً مَهْجَةً ، وَغَايَةً مُطْلَبَةً ،
يَرُدُّهَا إِلَّا كَيْاسُ ، وَيُخَالِفُهَا إِلَّا نَكَاسُ ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ ، وَخَبَطَ
فِي النَّيِّهِ ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ .

فَنَفْسُكَ نَفْسُكَ ! فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ ،
فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ ، وَحَمَلَةَ كُفْرٍ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا ،
وَأَقْحَمَّتْكَ غِيًّا ، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَسَالِكَ ، وَأَوَعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ .

الْبُخ:

قوله : « غَايَةُ مُطْلَبَةٌ » ؛ أى مساعفة لطالبيها بما يطلبه ، تقول: طلب فلان مِثْنِي كَذَا
فَأُطْلِبْتُهُ : أى أَسَمَفْتُ بِهِ . قال الراوندى : مُطْلَبَةٌ بِمَعْنَى مُتَطَلَّبَةٍ ، يقال: طَلَبْتُ كَذَا وَتَطَلَّبْتُهُ ؛
وهذا ليس بشئ ، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى .

والأَكْيَاسُ : العقلاء ، والأَنْكَاسُ : جمع نِكْسٍ ؛ وهو الدنئ من الرجال ،
ونكَبَ عنها : عَدَلَ .

قوله : « وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ » ، الأولى ألا يكون هذا معطوفا ولا متصلا

بقوله ، ففسد بين الله لك سبيلك ، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف : حيث أنت ، أى فِىْ حيث أنت ؛ فلا يذكرون الفعل ؛ ومثله قولهم : مكانك ، أى قف مكانك .
قوله : « فقد أجريت » ، يقال : فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا ، أى الفاية التى يقصدها هى كذا ، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة ، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا ، أى انتهى به إلى كذا . ويروى : « قد أوحلتك شرًّا » أو أورطتك فى الوحل ، والنهى ضدُّ الرشاد .

وأقحمتك غيًّا : جعلتك مقتحما له .
وأوعرت عليك المسالك : جعلتها وعرة .

وأول هذا الكتاب :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر مشاغبتى ، ونستقبح موازرتى ، وتزعمنى متحيرا وعن الحق مقصرا ، فسبحان الله ، كيف تستجيز الغيبة ، وتستحسن العضية ! إني لم أشاغب إلا فى أمر معروف ، أو نهى عن منكر ، ولم أتجبر^(١) إلا على باغ مارق ، أو ملحد منافق ، ولم آخذ فى ذلك إلا بقول الله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾^(٢) ، وأما التقصير فى حق الله تعالى فعاذ الله ! وإنما المقصر فى حق الله جل ثناؤه من عطل الحقوق المؤكدة ، وركن إلى الأهواء المبتدعة ، وأخلد إلى الضلالة المحيرة ؛ ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان ، وتخالف البرهان ، وتنكث الوثائق التى هى لله عز وجل طلبية ، وعلى عباده حجة ، مع نبذ الإسلام ، وتضييع الأحكام ، وطمس الأعلام ،

(١) ١ ، ب . « ولم أضجر » وما أثبتته عن « د » .

(٢) سورة المجادلة ٢٢

والجبرى فى الهوى ، والتهوس^(١) فى الردى ، فاتق الله فيما لديك ، وانظر فى حقه عليك ...
الفصل المذكور فى الكتاب .

وفى الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضى رحمه الله ، منها :
وإن للناس جماعة يد الله عليها ، وغضب الله على من خالفها ، فنفسك نفسك قبل
حلول رسك ، فإنك إلى الله راجع ، وإلى حشره مهطع^(٢) وسيهطك كربه ، ويحل بك
نمته ، فى يوم لا يغنى النادم ندمه ، ولا يقبل من المعتذر عذره ، ﴿ يوم لا يغنى مولى
عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴾^(٣) .

(٢) المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع .

(١) التهوس فى الردى : الوقوع فيه

(٣) سورة الدخان ٤١ .

(٣١)

الأصل:

ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند
انصرافه من صفين :

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ ، الْمُعْذِرِ الْأَمْرِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ، الدَّامِّ
لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتِ ، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا .
إِلَى الْمُؤَلَّوِدِ الْمُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ؛ غَرَضِ
الْأَسْقَامِ ، وَرَهْمَةِ الْأَيَّامِ ، وَرَمِيَةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَآجِرِ الْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ
الْمَنَآيَا ، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ ، وَخَلِيفِ الْمُؤْمَرِ ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ ، وَنُصْبِ الْأَفَاتِ ،
وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ .

الشرح :

[ترجمة الحسن بن علي وذكر بعض أخباره]

قال الزبير بن بكار في كتاب "أنساب قريش" : ولد الحسن بن علي عليه السلام
لنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله
حسناً ، وتوفّي ليالي خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين .
قال : والمروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمى حسناً وحسيناً رضي الله عنهما
يوم سابهما ، واشتق اسم حسين من اسم حسن .

قال : وروى جعفر بن محمد عليه السلام أن فاطمة عليها السلام خلقت حسنا وحُسِينا يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدّقت بوزنه فضة .

قال الزُّبَيْر : وروى زينب بنت أبي رافع ، قالت : أتت فاطمة عليها السلام بابيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكْوِه^(١) الذي توفّي فيه ، فقالت : يا رسول الله ، هذان ابناك ، فورّثهما شيئاً ؟ فقال : أمّا حسن فإن له هيبتي وسوددي ، وأمّا حسين فإن له جراتي وجودى .

وروى محمد بن حبيب في أماليه أن الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجة ماشياً تُقَادُ الجُنَائِبُ معه ، وخرج من ماله مرتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات ماله ؛ حتى أنه كان يعطى نعلًا ويمسك نعلًا ، ويعطى خُفًّا ، ويمسك خُفًّا .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضا أن الحسن عليه السلام أعطى شاعرا ، فقال له رجل من جلسائه : سبحان الله ! أتعطى شاعراً يعصى الرحمن ، ويقول البهتان ! فقال : يا عبد الله ، إن خير ما بذلت من مالك ما وقّيت به عرضك ؛ وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

وروى أبو جعفر ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : أوّل دُلٍّ دخل على العرب موتُ الحسن عليه السلام .

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : سقي الحسن عليه السلام السمّ أربع مرات ، فقال : لقد سقيته مرارا فما شقّ علىّ مثل مشقته هذه المرّة . فقال له الحسين عليه السلام : أخبرني مَنْ سقاك ؟ قال : لتقتله ؟ قال : نعم ؛ قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبي الذي أظنّ فالله أشدّ نعمة ، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بي برىء .

(١) الشكو : المرض .

وروى أبو الحسن ، قال : قال معاوية لابن عباس ، ولقيه بمكة : يا عجباً من وفاة الحسن ! شرب علّة بماء رومة^(١) ، ففضى نحبّه ، فوجم ابن عباس ، فقال معاوية : لا يحزنك الله ولا يسوءك ، فقال : لا يسوءني ما أبالك الله ! فأمر له بمائة ألف درهم .

وروى أبو الحسن قال : أوّل من نعى الحسن عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سلمة ، نساء يزيد ، فخرج الحكم بن أبي العاص الثقفي ، فنعاه ، فسكى الناس - وأبو بكر يومئذ مريض ، فسمع الضجّة ، فقال : ما هذا ؟ فقال امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة : مات الحسن بن عليّ ، فالحمد لله الذي أراح الناس منه ! فقال : أسكتي ويحك ! فقد أراحه الله من شرّ كثير ، وفقد الناس بموته خيراً كثيراً ، يرحم الله حسناً !

قال أبو الحسن المدائنيّ : وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين ، وكان مرضه أربعين يوماً ، وكانت سنّه سبعمائة وأربعين سنة ، دسّ إليه معاوية سماً على يد جمعة بنت الأسث ابن قيس زوجة الحسن ، وقال لها : إن قتلتيه^(٢) بالسّم فلك مائة ألف ، وأزوّجك يزيد ابني . فلما مات وقي لها بالمال ، ولم يزوّجها من يزيد . قال : أخشى أن تصنع بابني كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نجبة ، قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام ، يقول : أنا أحدثكم عنّي وعن أهل بيتي ؛ أمّا عبد الله ابن أخي فصاحب لهو وسباح ، وأمّا الحسنُ فصاحب جفنة وخوان ، فتّى من فتیان قريش ؛ ولو قد التقت حلقتا البطان^(٣) لم يُغن عنكم شيئاً في الحرب ، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا .

(١) د : « بماء رومة » . (٢) د : « قتلتيه » .

(٣) مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد .

قال أبو جعفر : وروى ابن عباس ، قال : دخل الحسن بن عليّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مجلس ضيق ، فجلس عند رجله ، فتحدثت معاوية بما شاء أن يتحدث ، ثم قال : عجباً لمائشة ! تزعم أنّي في غير ما أنا أهله . وأنّ الذي أصبحت فيه ليس لي بحقّ ، مالها ولهذا ! يغفر الله لها ، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به ؛ فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية ! قال : إي والله ، قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجلحك ؟ فضحك معاوية ، وقال : يا ابن أخي ، بلغني أنّ عليك ديناً ، قال : إن لمليّ ديناً ، قال : كم هو ؟ قال : مائة ألف ، فقال : قد أمرنا لك بثلاثمائة ألف ؛ مائة منها لديّك ، ومائة تقسمها في أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ؛ فقم مكرّماً ، واقبض صلاتك . فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية لأبيه : تالله ما رأيت رجلاً استقبلك بما استقبلك به ؛ ثم أمرت له بثلاثمائة ألف ! قال : يا بنيّ ، إن الحقّ حقهم ، فن أذاك منهم فاحثُ له .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : قال عليّ عليه السلام : لقد تزوّج الحسن وطلق حتى خفت أن يشير عداوة ، قال أبو جعفر : وكان الحسن إذا أراد أن يطلق امرأة جلس إليها ، فقال : أيسرّك أن أهبّ لك كذا وكذا ؟ فتقول له ماشئت ، أو نعم ؟ فيقول : هو لك ؛ فإذا قام أرسل إليها بالطلاق ؛ ويعا سَمي لها .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : تزوّج الحسن بن عليّ عليه السلام هنداً بنت سهيل ابن عمرو . وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، فطلقها - فكتب معاوية إلى أبي هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقية الحسن عليه السلام ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخطب هنداً بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية « قال الحسن عليه السلام :

فأذكرني لها ، فأتاها أبو هريرة ، فأخبرها الخبر ، فقالت : اختر لي ، فقال : أختار لك الحسن . فتزوجته ، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن : إن لي عند هند وديعةً ، فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جاست بين يدي عبد الله بن عامر ، فرق لها رقة عظيمة^(١) ، فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ؟ فلا أراك تجدد محلاً خيراً لكما مني إقال : لا ، ثم قال لها : وديعتي ، فأخرجت سقطين فيهما جوهراً ؛ ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر^(٢) عليها ؛ وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ؛ فكانت تقول : سيدهم جميعا الحسن ، وأسحاهم ابن عامر ، وأحبهم إلى عبد الرحمن بن عتاب .

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : تزوج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلقها ، فخطبها المنذر ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شهر بي ! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها ، فأبلغه المنذر عنها شيئاً فطلقها ؛ فخطبها المنذر ، فقبل لها : تزوجيه ، فقالت : لا والله ما أفعل ؛ وقد فعل بي ما قد فعل مرتين ؛ لا والله لا يراني في منزله أبداً .

وروى المدائني ، عن جويرة بن أسماء ، قال : لما مات الحسن عليه السلام ، أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه النغيظ ؟ قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وروى المدائني عن يحيى بن زكريا ، عن هشام بن عروة ، قال : قال الحسن عند وفاته : ادفنوني عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شرٌّ ، فلما أرادوا دفنه ، قال مروان بن الحكم : لا يدفن عثمان في حشّ كوكب^(٣) ، ويدفن الحسن هاهنا ،

(١) د : « شديدة » . (٢) د : « الباقي » .

(٣) حش كوكب ، بفتح أوله وتشديد ثانيه : موضع عند بقيع النرند ، اشتراه عثمان رضي الله عنه ، وزاده في البقيع ، ولما قتل ألقى معه .

فاجتمع بنو هاشم وبنو أمية، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم، وجاءوا بالسلاح، فقال أبو هريرة لمروان: أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»! قال مروان: دعنا منك، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبي سعيد الخدري! وإنما أسلمت أيام خيبر، قال أبو هريرة؛ صدقت، أسلمت أيام خيبر، ولكنني لزمّت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم أكن أفارقه؛ وكنت أسأله، وغُنِيت بذلك حتى علمت من أحبّ ومن أبغض، ومن قرّب ومن أبعد، ومن أقرّ ومن نفى، ومن لمن ومن دعا له؛ فلما رأت عائشة السلاح والرجال، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم، وتسفك الدماء، قالت: البيت بيتي، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلا مع جدّه؛ فقال له محمد بن الحنفية: يا أخى، إنه لو أوصى أن ندفنه لدفّناه أو نموت قبل ذلك، ولكنه قد استثنى، وقال: «إلا أن تخافوا الشرّ»، فأى شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه! فدفنوه^(١) في البقيع.

قال أبو الحسن المدائني: وصل نعي الحسن عليه السلام إلى البصرة في يومين وليلتين، فقال الجارود: بن أبي سبرة^(٢):

إذا كان شرٌّ سارَ يوماً وليلةً وإن كان خيرٌ آخرَ السّيرِ أربعاً
إذا ما برّيد انشُرَّ أقبل نحو نأ بإحدى الدّواهي الرُّبْد سار وأسرّعا

وروى أبو الحسن المدائني، قال: خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بمسد دخوله الكوفة وصلّح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج، فقال الحسن: سبحان الله! تركت قتالك وهو لي حلال لصالح الأمة وألفتهم، أفرأني أقاتل معك! نخطب معاوية أهل الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة،

(١) د: «دفن». (٢) د: «هيرة».

أترؤنى قاتلتكم على المَلَّة والزَّكَاة والحجَّ ، وقد علمتُ أنكم تصلُّون وتركَّون وتحجُّون ؛ ولكنتى قاتلتكم لأنأمركم عليكم وعلى رفايكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ؛ ألا إنَّ كلَّ مالٍ أو دمٍ أصيب في هذه الفتنة فطلُّولٌ ، وكلَّ شرط شرطته فتحت قدميَّ هاتين ؛ ولا يُصلِّح النَّاسَ إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال الجنود لوقتها ، وغزو العدوِّ في داره ، فإنهم إن لم تغزوهم غزوكم . ثم نزل .

قال المدائني : فقال المسيَّب بن نَجَبَة للحسن عليه السلام : ما ينقضى عجبى منك ! يايمت معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقةً وعقدا ظاهرا ، أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها (١) غيرك ، قال . فما ترى ؟ قال : أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يا مسيَّب ، إنى لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبرَ عند اللقاء ، ولا أثبتَ عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكفَّ بعضكم عن بعض ؛ فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح برٌّ ، أو يُستراح من فاجر .

قال المدائنيّ ودخل عُبيدة بن عمرو الكِنْدِيّ على الحسن عليه السلام - وكان ضُرب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة - فقال : ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : أصابنى مع قيس . فالتفت حُجْر بن عدىّ إلى الحسن ، فقال : لوددت أنك كنت ميتَّ قبل هذا اليوم ، ولم يكن ما كان ، إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبوا . فتغيَّر وجهُ الحسن ، وغمز الحسين عليه السلام حُجْرا ، فسكت ، فقال الحسن عليه السلام : يا حُجْرُ ، ليس كلَّ الناس يحبُّ ما تحبُّ ولا رأيه كراييك ، وما فعلت إلا إبقاء عليك ، والله كلَّ يوم في شأن .

(١) عبارة د : « ما أراد بما قال غيرك » .

قال المدائني : ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي ، فقال له : السلام عليك يا مزيل المؤمنين ! فقال الحسن : اجلس يرحمك الله ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله رفع له ملك بنى أمية ، ففطر إليهم يعلمون منبره واحدا فواحدا ، فشق ذلك عليه ، فأمر الله تعالى في ذلك قرآنا قال له : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ (١). وسمعت علياً أبي رحمه الله يقول : سيلي أمر هذه الأمة رجل واسع البصيرة ، كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية . وقال لي : إن القرآن قد نطق بملك بنى أمية ومدتهم ، قال تعالى : ﴿ كَلِيلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (٢) ، قال أبي : هذه ملك بنى أمية .

قال المدائني : فلما كان عام الصلح ، أقام الحسن عليه السلام بالكوفة أياً ما ، ثم تجهز للشخص إلى المدينة ، فدخل عليه المسيب بن نجبة الفزاري وظبيان بن عمار التيمي ليودعاه ، فقال الحسن : الحمد لله الغالب على أمره ؛ لو أجمع الخلق جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا . فقال أخوه الحسين عليه السلام : لقد كنت كارها لما كان طيب النفس على سبيل أبي حتى عزم على أخى ، فأطعته ، وكأنا يجذ أنى بالمواشى ، فقال المسيب : إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن نضاموا وتلتصوا ، فأما نحن ، فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه ، فقال الحسين : يا مسيب ، نحن نعلم أنك تحبنا ، فقال الحسن عليه السلام : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أحب قوماً كان معهم » ، فمرض له المسيب وظبيان بالرجوع ، فقال : ليس [لي] (٣) إلى ذلك سبيل ، فلما كان من غدٍ خرج ، فلما صار بديرٍ هندی نظر إلى الكوفة ، وقال :
وَلَا عَنْ قَلْبِي فَارَقْتُ دَارَ مَعَاشِرِي هُمُ الْمَانِعُونَ حَوَازِي وَذِمَارِي

(١) سورة الإسراء : ٦٠ . (٢) سورة القدر ٣ .

(٣) من « د » .

ثم سار إلى المدينة .

قال المدائني : فقال معاوية يومئذ للوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط بعد شخوص الحسن

عليه السلام : يا أبا وهب ، هل رمت ؟ قال : نعم ، وسموت .

قال المدائني : أراد معاوية قولَ الوليد بن عُقبة يحرضه على الطلب بدم عثمان :

أَلَا أَبْلُغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثَقَّةٌ مُلِيمٌ^(١)

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسَّدِّ الْمَعْنَى تَهْدَرُ فِي دِمَشْقٍ وَلَا تَرِيمُ^(٢)

فَلَوْ كُنْتَ الْقَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا لَشَرَّ لَا أَلْفُ وَلَا سَعْمٌ

وَإِنَّكَ وَالْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ كِدَابِفَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ^(٣)

وروى المدائني ، عن إبراهيم بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، قال : دخل رجل على الحسن

عليه السلام بالمدينة ، وفي يده صحيفة ، فقال له الرجل : ما هذه ؟ قال : هذا كتاب معاوية ،

يتوعدّ فيه على أمر كذا ، فقال الرجل : لقد كنت على النصف ، فما فعلت ؟ فقال له الحسن

عليه السلام : أجل ، ولكنني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا ،

تشخب أوداجهم دما ، كلهم يستعدي الله فيم هُريق دمه !

قال أبو الحسن : وكان الحصين^(٤) بن المنذر الرقاشي يقول : والله ما وفي معاوية

لإحسان بشيء مما أعطاه ؛ قتل حُجْرًا وأصحاب حُجْر^(٥) ، وبايع لابنه يزيد ، وسمّ الحسن .

(١) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

(٢) في اللسان : « السدم : الذي يرغب عن غلته فيجال بينه وبين ألافه ويقيد إذا هاج فيرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فله ، ومنه قول الوليد بن عُقبة . . . واستشهد بالبيت .

(٣) الحلم ، بالتحريك : فساد الجسد ؛ قال صاحب اللسان في شرح البيت : « يقول أنت تسمى في في إصلاح أمر قد تم فساد ؛ كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحامة فنقبت وأفسدته فلا ينتفع به » .

(٤) د : « الحصين » ، (٥) حجر بن عدى .

قال المدائني : وروى أبو الطفيل ، فل : قال الحسن عليه السلام لمولّى له : أنعرف معاوية بن خديج ؟ قال : نعم ، قال : إذا رأيته فأعلمني ؛ فراه خارجاً من دار عمرو ابن حريث ، فقال : هو هذا ! فدعاه ، فقال له : أنت الشاتم عليّاً عند ابن آكلة الأكباد ! أما والله لأن وردت الحوض ولم ترده لثريته مشمرا عن ساقيه ، حاسرا عن ذراعيه ، يذود عنه المنافقين .

قال أبو الحسن : وروى هذا الخبر أيضا قيس بن الربيع ، عن بدر^(١) بن الخليل ، عن مولى الحسن عليه السلام .

قال أبو الحسن : وحدّثنا سليمان بن أيّوب ، عن الأسود^(٢) بن قيس العبديّ ، أنّ الحسن عليه السلام لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له : يا حبيب ، ربّ مسيرٍ لك في غير طاعة الله ! فقال : أمّا مسيرى إلى أبيك فليس من ذلك ، قال : بلى والله ؛ ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت شرّاً قلت خيراً ، كان ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٣) ، ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤) .

قال أبو الحسن : طاب زياد رجلاً من أصحاب الحسن ، ممن كان في كتاب الأمان ، فكتب إليه الحسن :

من الحسن بن عليّ إلى زياد ؛ أمّا بعد ؛ فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لي فلان أنك تعرّضت له ، فأحبّ ألا نعرض له إلّا بخير . والسلام .

(١) في د : « زيد » . (٢) د : « أبي الأسود » .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ . (٤) سورة المطففين ١٤ .

فلما أتاه الكتاب ، وذلك بعد ادعاء معاوية إياه غضب حيث لم يسبه إلى أبي سفيان ، فكتب إليه :

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن ؛ أما بعد ، فإنه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيمة أبيك ، وإيم الله لأطلبه بين جلدك ولحمك ، وإن أحب الناس إلى لحا أن آكله للحم أنت منه [والسلام] ^(١) .

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب ، بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب :

من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد . أما بعد ، فإن لك رأيين : رأيا من أبي سفيان ورأيا من سمية ، فأما رأيك من أبي سفيان فلم وحزم ، وأما رأيك من سمية فما يكون من مثلها . إن الحسن بن علي عليه السلام كتب إلي بأنك عرضت لصاحبه ، فلا تعرض له ، فإنني لم أجعل [لك] ^(٢) عليه سبيلا ؛ وإن الحسن ليس ممن يرمى به الرجوان ^(٣) ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمه ، فالآن حين احترت له ، والسلام .

* * *

قلت : جرى في مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول في أن عليا عليه السلام شرف بفاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضر المجلس : بل فاطمة عليها السلام شرفت به وخاض الحاضرون في ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة ، وسألني صاحب المجلس أن أذكر ما عندي في المعنى وأن أوضح : أيما أفضل : علي أم فاطمة ؟ فقلت : أما أيهما أفضل ؟ فإن أريد بالأفضل الأجمع للمناقب التي تتفاضل بها الناس ، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك ، فعلي أفضل ، وإن أريد بالأفضل الأرفع منزلة عند الله ، فالذي

(١) عن « د » .

(٢) الرجوان : تنية رجا ، والرجا مقصور : ناحية كل شيء . ويقال : رمى به الرجوان : إذا استهان به ، فكأنه رمى به هناك ، أراد أنه طرح في المهالك .

استقرّ عليه رأى المتأخرين من أصحابنا، أن عليّاً أرفع المسلمين كافة عند الله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث ؛ وفاطمة امرأة من المسلمين ، وإن كانت سيّدة نساء العالمين ؛ ويدلّ على ذلك أنّه قد ثبت أنّه أحبّ الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر ، وفاطمة من الخلق ، وأحبّ الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثواباً يوم القيامة ، على ما فسره المحققون من أهل الكلام ، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسباً ، وفاطمة أفضل لأنّ أباهما سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين ، فليس في آباء عليّ عليه السلام مثله ولا مقارنه ، وإن أريد بالأفضل مَنْ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنوّاً وأمسّ به رحماً ، وفاطمة أفضل ، لأنّها ابنته ؛ وكان شديد الحبّ لها والحنوّ عليها جداً ، وهى أقرب إليه نسباً من ابن العمّ ، لا شبهة في ذلك .

فأمّا القول في أنّ علياً شَرُفَ بها أو شَرُفَ به ، فإنّ علياً عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة ، فمنها ما هو متعلّقٌ بفاطمة عليها السلام ، ومنها ما هو متعلّقٌ بأبيها صلوات الله عليه ، ومنها ما هو مستقلٌّ بنفسه .

فأمّا الذى هو مستقلٌّ بنفسه ، فنحو شجاعته وعفّته وحمّاه وقناعته وسجّاحه أخلاقه وسماحة نفسه . وأمّا الذى هو متعلّقٌ برسول الله صلى الله عليه وآله فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته ، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب .

وأما الذى يتعلّق بفاطمة عليها السلام فنكاحه لها ؛ حتى صار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله الصّهر المضاف إلى النسب والسبب ؛ وحتى إنّ ذريّته منها صارت ذريّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وأجزاء من ذاته عليه السلام ؛ وذلك لأنّ الولد إنما يكون من مَنِىِّ الرجل ودم المرأة ، وهما جزآن من ذاتي الأب والأمّ ، ثم هكذا أبداً في ولد الولد ومنّ بعده من البطون دائماً . فهذا هو القول في شرف عليّ عليه السلام بفاطمة .

فأما شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العالمين ، إلا أن كونها زوجة على أفادها نوعاً من شرف آخر زائداً على ذلك الشرف الأول ؛ ألا ترى أن أباهاً لو زوّحها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالها في العظمة والجلالة كحالها الآن ، وكذلك لو كان بنوها وذريتها من أبي هريرة وأنس بن مالك لم يكن حالهم في أنفسهم كحالهم الآن .

قال أبو الحسن المدائني : وكان الحسن كثير التزوّج ، تزوج حوّلة بنت منظور بن زبان الفزارية ، وأمّها مليكة بنت خارجة بن سنان ، فولدت له الحسن بن الحسن . وتزوّج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابناً سمّاه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاري - واسم أبي مسعود عقبة بن عمر - فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوّج جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وهي التي سقته السم ، وتزوّج هند ابنة [سهيل بن عمرو ، وحفصة ابنة]^(١) عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتزوّج امرأة من كلب ، وتزوّج امرأة من بنات عمرو بن أتهم المنقرى ، وامرأة من ثقيف ، فولدت له عمرًا ، وتزوّج امرأة من بنات علقمة ابن زرارة ، وامرأة من بني شيبان من آل هاشم بن مرّة ، فقيل له : إنها ترى رأى الخوارج ، فطلقها ، وقال : إنّي أكره أن أضمّ إلى نحري حجّرة من حجّر جهنم .

وقال المدائني : وخطب إلى رجل فزوّجه ، وقال له : إنّي منرّوجك ، وأعلم أنك مابق طلق غليق^(٢) ؛ ولكنك خير الناس نسباً ، وأرفعهم جداً وأباً . قلت : أما قوله ملق طلق ؛ فقد صدق ؛ وأما قوله غليق فلا ؛ فإن الغليق الكثير الصبر ، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدراً وأسجدهم خلقاً .

(١) من « د » .

(٢) الملحق : الفقير .

قال المدائني : أحصيت زوجات الحسن بن علي فكنّ سبعين امرأة .

قال المدائني : ولما توفّي علي عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام توفّي ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى الناس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، نخرج الحسن عليه السلام ، نخطبهم فقال : أيها الناس ؛ اتقوا الله ، فإنّا أمراءكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ^(١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له في اثني عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بساباط وانتهب متاعه ؛ ودخل المدائن ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبي حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتموني على أن تسالموا من سألني ، وتحاربوا من حاربني ؛ وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبي منكم ، لا تفروني من ديني ونفسي .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب - إلى معاوية يسأله المسألة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضى ،
وقدم معاوية إلى الكوفة .

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس
إلى الحسن :

أما بعد فإن المسلمين ولّوك أمرهم^(١) بعد علىّ عليه السلام ، فشمرّ للحرب ، واجاهد
عدوك ، وقارب أصحابك ، واشتر^(٢) من الظنّين^(٣) دينه بما لا يثلم^(٤) لك ديناً^(٥) ،
ووال أهل^(٦) البيوتات والشرف ، تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ؛
فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتمد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ،
وعزّ الدين - خير من كثير مما يُحبّه الدّس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور
وذللّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح
الكذب إلّا في حرب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك في ذلك سعة
إذا كنت محارباً ، ما لم تبطل حقاً .

واعلم أنّ عليّاً أبأك إنّما رغّب الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أساء بينهم في النّية ،
وسوّى بينهم في العطاء ، فثقل عليهم ؛ واعلم أنّك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء
الإسلام ؛ حتى ظهر أمر الله ، فلمّا وحدّ الرب ، ومحى الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا
الإيمان وقرأوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

(١) في د : « أمورهم » . (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنّين : « المنهم » . (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقد ١ : ٣٠ ، وعبون الأخبار ١ : ١٤ « يفك » . (٦) العقد وعبون الأخبار : « وول »

وهم لها كارهون ؛ فلما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الأتقياء الأبرار ، توسموا بسيا الصالحين ، ليظنّ المسلمون بهم خيرا ، فزالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم ، وقالوا : حسابههم على الله ؛ فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ؛ وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ؛ والله ما زادهم طول العمر إلا غيّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتا ؛ فجاهدوهم ولا ترض دنيّة ، ولا تقبل خسفاً^(١) ؛ فإنّ عليا لم يُسحب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب ؛ وإنهم يملكون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى ، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجن من حقّ أنت أولى به ، حتى يحول الموت دون ذلك . والسلام .

قال المدائنيّ : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد فإنّ الله بمث محمدًا صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقمع به الشرّك ، وأعزّ به العرب عامّة ، وشرفّ به قريشا خاصّة ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوَمِكَ ﴾^(٢) ؛ فلما توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه ، فلا تنازعونا سلطانه ، فعمرت العرب لقريش ذلك ؛ وجاهدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوى فضيلة في الدّين ، وسابقة في الإسلام ؛ ولا غرو^(٣) إلا منازعته إيتانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله ألا يؤتينا في هذه الدنيا شيئا ينقصنا عنده في الآخرة . إنّ عليا لما توفاه الله ولّاني المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ؛ وانظر لأمة محمد

(١) خسفا ، أى ذلا . (٢) سورة الزخرف ٤٤ .

(٣) لا غرو ؛ أى لا عجب .

صلى الله عليه وآله ، ما تحقنُ به دماءها ، وتصلح به أمرها . والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيمي ، تيمم الرباب ، وجندب الأزدي ،
فقدما على معاوية فدعوا إلى بيعة الحسن عليه السلام فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

أما بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحقُّ الأولين والآخرين بالفضل
كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحتَ بتهمة أبي بكر الصديق وعمر
وأبي عبيدة الأثمين ، وصالحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ؛ إنَّ الأُمَّة لما تنازعت
الأمر بينها رأت قريشا أخلفها به^(١) ؛ فرأت قريش والأَنْصار وذوو الفضل والدين من المسلمين
أنَّ يولُّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ؛ وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر
ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويدبّ عن حرم الإسلام ذبّه
ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنّك
أضبط لأمر الرعيّة ، وأحوطُ على هذه الأُمَّة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدوّ ، وأقوى
على جمع النّبيّ ، لسلمتُ لك الأمر بعد أبيك ؛ فإنَّ أباك سعى على عثمان حتى قُتل مظلوما ،
فطالب الله بدمه ؛ ومن يطلبه الله فلن يفوته . ثم ابتزَّ الأُمَّة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه
نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادّعى أنّهم نكثوا ببيته ، فقاتلهم
فسفكت الدماء ؛ واستحلّت الحرم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعي علينا بيعة ؛ ولكنه يريد أن
يملكنا اغترارا ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ،
ليحكمنا بما تصلح عليه الأُمَّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه
مثله وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكم عليه الحكم بما علمت ، وخلصناه ،
فوالله ما رضى بالحكم ، ولا صبر لأمر الله ؛ فكيف تدعونى إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك ،
وقد خرج منه ! فانظر لنفسك ولدينك . والسلام .

(١) في د « أحقها » .

قال : ثم قال للحارث وجندب : ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف ؛ فرجعا وأقبل إلى العراق في ستين ألفا ؛ واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهريّ والحسن مقيم بالكوفة ، لم يشخص حتى بلغه أنّ معاوية قد عبر جسر مَـثـبـيـج ، فوجّه حجر بن عدى يأمر العمال بالاحتراس ، ويذبّ الناس ، فسارعوا . فمقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر ألفا ، فنزل دير عبد الرحمن ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطّاب ، وأمر قيس بن سعد بالمسير ، وودّعه وأوصاه ، فأخذ على الفرات وقرى الفلوجة ، ثم إلى مَسْكِن . وارتحل الحسن عليه السلام متوجّها نحو المدائن ، فأتى ساباط فأقام بها أيّاما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنكم بايعتموني على أن تسالموا من سالت وتحاربوا من حاربت ، وإنّي والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة في شرق ولا غرب ، ولما تكرهون في الجماعة والألفة والأمن ، وصلاح ذات البين خير مما تحبون في الفرقة ، والخوف والتباغض والعداوة ، وإنّ عليا أبي كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ؛ فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تُندَر^(١) عن كواهلها كالحنظل . ثم نزل .

فقال الناس : ما قال هذا القول إلّا وهو خالغ نفسه ومسلم الأمر لمعاوية ، فثاروا به فقطعوا كلامه ، واتهبوا متاعه ، وانتزعوا مطرَفًا كان عليه ، وأخذوا جارية كانت معه ، واختلف الناس فصارت طائفة معه ؛ وأكثرهم عليه ، فقال : اللهم أنت المستعان ، وأمر بالرحيل ، فارتحل الناس ، وأتاه رجل بفرس ، فركبه وأطاف به ببعض أصحابه ، فندعوا الناس عنه وساروا ، فقدمه سنان بن الجراح الأسديّ إلى مظلم ساباط ، فأقام به ؛ فلما دنا منه تقدّم إليه يكلمه ، وطعنه في نغذه بالمعول^(٢) طعنة كادت تصل إلى العظم ، فغشي عليه وابتدره أصحابه ، فسبق إليه عُبيد الله الطائيّ ، فصرع سنانا وأخذ ظبيان بن عُمارة المعول

(١) تندر : تقطع . (٢) المعول : حديدة ينقر بها الصخر .

من يده ، فضربه به فقطع أنفه ، ثم ضربه بصخره على رأسه فقتله ؛ وأفاق الحسن عليه السلام من غشيته ، فعصبوا جرحه وقد نرف وضعف ، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود ، عم المختار بن أبي عبيد ، وأقام بالمدائن حتى برئ من جرحه .

قال المدائني ؛ وكان الحسن عليه السلام أكبر ولد علي ، وكان سيّداً سخياً حليماً خطيباً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبه ؛ سابق يوماً بين الحسين وبينه فسبق الحسن ، فأجلسه دلي نخذه اليمى ، ثم أجلس الحسين على الفخذ اليسرى ، فقيل له : يا رسول الله أيهما أحب إليك ؟ فقال : أقول كما قال إبراهيم أبونا ، وقيل له : أى ابنك أحب إليك ؟ قال : أكبرهما وهو الذى يلد ابني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وروى المدائني عن زيد بن أرقم ، قال : خرج الحسن عليه السلام وهو صغير ، وعليه برّده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب ، فمتر فسقط ، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة ، ونزل مسرعاً إليه ، وقد حملة الناس ، فتسلّمه وأخذه على كتفه ، وقال : إن الولد لفتنة ، لقد نزلت إليه وما أدري ! ثم صعد فآتم الخطبة .

وروى المدائني ، قال : لقي عمرو بن العاص الحسن عليه السلام فى الطواف ، فقال له : يا حسن ، زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه معاوية ، فجعله راسياً بعد مثيله ، وبيّنا بعد خفائه ، أفرضى الله بقتل عثمان ؛ أو من الحق أن نطوف بالبيت كما يدور الجبل بالطّحين ، عليك ثياب كغرقى^(١) البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألمّ للشعث ، وأسهل للوعث ، أن يوردك معاوية حياض أبيك ؛ فقال الحسن عليه السلام : إنّ لأهل النار علاماتٍ يُعرفون بها ، إلحاداً لأولياء الله ؛ وموالاة لأعداء الله ، والله إنك

(١) الفرق : القشرة الملتفة بدياس البيض .

لتعلم أن عليا لم يرتب في الدين ، ولا يشك في الله ساعة ولا طرفة عين قط ، وإيم الله لنتهين
يا بن أم عمرو أو لأنفذن حِصْنَيْكَ بنوافذ أشد من القَعْصِيَّةِ^(١) : فَإِيَّاكَ وَالتَّهْجَمَ عَلَى ، فَإِنِّي
مَنْ قَدْ عَرَفْتُ ؛ لست بضعيف العَمْرَةِ ، ولا هَشَّ المِشَاشَةِ^(٢) ؛ ولا مَرِيءَ المَأْكَلَةِ ، وإِنِّي من
قريش كواسطة القلادة ، يُعْرَفُ حَسْبِي ، ولا أُدْعَى لغير أبي ، وأنت مَنْ تَعْلَمُ وَيَعْلَمُ النَّاسُ ،
تَحَاكَمْتُ فِيكَ رِجَالُ قَرِيشٍ ، فغلب عليك جَزَارُوهَا ، الْأَمْهَمُ حَسْبَا ، وَأَعْظَمُهُمْ لَوْ مَا ،
فِيَاكَ عَنِّي ، فَإِنَّكَ رَجَسٌ ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الطَّهَارَةِ ، أَذْهَبَ اللَّهُ عَنَّا الرَّجْسَ وَطَهَّرَنَا
تَطْهِيرًا . فَأَفْجِمْ عَمْرُوً وَانصرف كَثِيلًا .

وروى أبو الحسن المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن عليّ بعد الصلح أن يخطب
الناس ، فامتنع ، فناشدَه أن يفعل ، فوضع له كرسيّ ، فجلس عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي
تَوَحَّدَ فِي مُلْكِهِ ، وَتَفَرَّدَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَكْرَمَ بَنَاءَ مُؤْمِنِكُمْ ، وَأَخْرَجَ مِنَ الشَّرْكِ أَوْلَكُمْ ، وَحَقَّنَ دَمَاءَ آخِرِكُمْ ، فَبَلَاؤُنَا عِنْدَكُمْ
قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَحْسَنَ الْبَلَاءِ ، إِنْ شَكَّرْتُمْ أَوْ كَفَرْتُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ رَبَّ عَلَى كَانَ
أَعْلَمُ بِعَلِيٍّ حِينَ قَبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَلَقَدْ اخْتَصَّه بِفَضْلٍ لَمْ نَعْتَادُوا مِثْلَهُ ، وَلَمْ تَجِدُوا مِثْلَ سَابِقَتِهِ ،
فَهِيَ هِيَ هِيَاهُ ! طَالَمَا قَلْبُكُمْ لَهُ الْأُمُورُ حَتَّى أَعْلَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَهُوَ صَاحِبُكُمْ ، وَعَدُوُّكُمْ فِي بَدْرِ
وَأَخْوَاتِمَا ، جَرَّعَكُمْ رَنْقًا ، وَسَقَاكُمْ عَلَقًا ، وَأَذَلَّ رِقَابَكُمْ ، وَأَشْرَقَكُمْ بِرَيْقِكُمْ ، فَلَسْتُمْ بَعْلُومِينَ
عَلَى بَغْضِهِ . وَإِيمَ اللَّهِ لَا تَرَى أُمَّةً مُحَمَّدٌ خَفَضَهَا كَانَتْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ فِي بَنِي أُمِيَّةَ ، وَلَقَدْ
وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ فِتْنَةً لَنْ تَصْدُرُوا عَنْهَا حَتَّى تَهْلِكُوا ؛ لَطَاعَتُكُمْ طَوَاغِيَتَكُمْ ، وَانْضَوَائُكُمْ
إِلَى شَيَاطِينِكُمْ ، فَعِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسَبَ مَا مَضَى وَمَا يَنْتَظَرُ مِنْ سُوءِ دَعْوَتِكُمْ ، وَحَافٍ
حَكْمَكُمْ . ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ لَقَدْ فَارَقَكُمْ بِالْأَمْسِ سَهْمٌ مِنْ مَرَايِ اللَّهِ ، صَائِبٌ

(١) القَعْصِيَّةُ : الْأَسْتَةُ ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى قَعْصِبِ اسْمِ رَجُلٍ كَانَ يَعْمَلُ الْأَسْنَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

(٢) المِشَاشُ فِي الْأَصْلِ : رَمُوسُ الْعِظَامِ .

على أعداء الله ، نكّال على فجّار قريس ، لم يزل آخذاً بمحنجرها ، جاثماً على أنفاسها ؛
ليس باللمومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة في حرب أعداء الله ، أعطى
الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتّبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصلوات
الله عليه ورحمته . ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ بحمل أو كاد ؛ وأصاب مثبت (أو كاد ، ماذا أردت من
خطبة الحسن !

فأمّا أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، فإنّه قال : كان في لسان أبي محمد الحسن
عليه السلام ثقل كالفأفة ؛ حدثني بذلك محمد بن الحسين الأشثاني ، قال : حدثني محمد بن
إسماعيل الأحمسي ، عن مفضل بن صالح ، عن جابر . قال : كان في لسان الحسن عليه
السلام رثة^(١) ، فكان سلمان الفارسي رحمه الله يقول : أنته من قبل عمّه موسى بن
عمران عليه السلام^(٢) .

قال أبو الفرج : ومات شهيداً مسموماً ، دسّ معاوية إليه وإلى سعد بن أبي وقاص
حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سماً ، فأتاه منه في أيّام متقاربة ؛ وكان الذي
تولّى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية .
ويقال : إنّ اسمها سُكينة ، ويقال عائشة ويقال : شعناء^(٣) ، والصحيح أنّ اسمها جعدة .
قال أبو الفرج : فروى عمرو بن ثابت ؛ قال : كنتُ أختلف إلى أبي إسحاق

(١) ١ ، ب : « رثة » ، تصحيف ، والصواب ما أثبتته من د ومقاتل الطالبيين ، والرتة : بحلة
الكلام مع قلة المبالاة .

(٢) مقاتل الطالبيين ٥٠ . (٣) ب : « شيئا » .

السَّيِّعِيَّ [سنة] ^(١) ، أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن عليٍّ عليه السلام عقيب وفاة أبيه ؛ ولا ^(٢) يحدّثني بها ؛ فدخلت إليه في يوم شاتٍ وهو في الشمس ، وعليه برنسه ، فكأنه غول ، فقال لي : مَنْ أَنْتَ ؟ فأخبرته ، فبكي ، وقال : كيف أبوك ، وكيف أهلك ؟ قالت : صالحون ، قال : في أيّ شيء تتردد منذ سنة ؟ قلت : في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه ^(٣) .

حدّثني هُبَيْرَةُ بن مَرِيَم ^(٤) ، قال : خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون [بعمل] ^(٥) . لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه ؛ ولقد كان يوجهه برايته ، فيكفّه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ؛ ولقد توفّي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم ؛ والتي توفّي فيها يوشع بن نوح ، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتتاع بها خادما لأهله .

ثم خففته العبرة فبكي وبكى الناس معه ثم قال : أيّها الناس ، مَنْ عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الدّاعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه ، إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ ^(٦) ، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت .

قال أبو الفرج : فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبد الله بن العباس بين

(١) من د ومقاتل الطالبيين . (٢) د : « فلا » .

(٣) مقاتل الطالبيين ٥١ . (٤) كذا في مقاتل الطالبيين .

(٥) من مقاتل الطالبيين . (٦) سورة الشورى ٢٣ .

يديه ؛ فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا : ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ، ثم نزل من المنبر^(١) .

قال أبو الفرج : ودس معاوية رجلاً من رجب إلى الكوفة ، ورجلاً من بني القين إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار ، فدلّ على الحميري^(٢) وعلى القيني^(٣) ، فأخذوا وقتلوا^(٤) . وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

أما بعد ؛ فإنك دسست إلى الرجال ، كأنك تحبّ اللقاء ؛ لا أشك في ذلك فتوقّعه إن شاء الله . وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذو الحجي ؛ وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فإنّا ومن قد مات منا لكالدّي روح فيمسي في البيت ليغدي^(٥)
فقلّ للدّي يعني خلاف الدّي مضى تجهز لأخرى مثلها فكأنّ قد
فأجابه معاوية :

أما بعد ؛ فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ؛ ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آس ، وإن عليّاً أباك لكما قال أعشى بني قيس ابن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الدّي إذا ما القلوب ملأن الصدور^(٥)
جدير بطمنّة يوم اللقا يضرب منها النساء النحور
وما مزيد من خليج البحر ر يعلو الإكلام ويعلو الجسور
بأجود منه بما عنده فيعطى الألف ويعطى الهدور^(٦)

(٢) مقاتل الطالبين : « فدل على الحميري عند الحام » .

(٤) في مقاتل الطالبين ، البيت الثاني قبل الأول .

(١) مقاتل الطالبين ٥٢ .

(٣) مقاتل الطالبين ٥٢ .

(٥) ديوانه ٧٢ .

(٦) مقاتل الطالبين ٥٣ .

قال أبو الفرج : وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية :
أما بعد ، فإنك ودستك أخوا بني القين إلى البصرة ، تلتمس من غفلات قريش بمثل
ما ظفرت به من يمانيتك ، لكما قال أمية بن أبي الأسكر^(١) :
لعمرك إنني والخزاعي طارقاً كنمجة عادي حننهما تتحفر
أثارت عليها شفرة بكرعها فظلت بها من آخر الليل تنحر
شمت بقوم من صديقك أهلكوا أصابهم يوم من الدهر أصفر^(٢)
فأجابه معاوية :

أما بعد ، فإن الحسن بن علي ، قد كتب إلى بنحو مما كتبت به ، وأنبأني بما لم يحق
سوء ظني^(٣) ورأى في ، وإنك لم تصب مثلي ومثلكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعي
يجيب أمية عن هذا الشعر :

فوالله ما أدري وإنني لصديق إلى أي من يظنني أتعد
أعنف إن كانت زينة أهلك ونال بني لحيان شرراً فأنفروا^(٤)

(١) كذا في الأغاني ومقاتل الطالبين وهو الصواب ، وفي ب : « أمية بن أبي الصلت » .

(٢) في الأغاني : « أعسر » .

(٣) مقاتل الطالبين : « بما لم يحق سوء ظن ورأى في » .

(٤) أنفروا : شردوا ، وفي الأغاني : « ونفروا » ، والخزاعي الأغاني ٢٨ : ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ومقاتل الطالبين

٥٣ ، ٥٤ ، وفي الأغاني عن أبي عمرو الشيباني : « أصيب قوم من بني جندع بن ليث بن بكر بن هوازن
رهط أمية بن الأسكر ، يقال لهم : بنو زينة ، أصابهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع في
غزوة بني المصطلق ، وكانوا جيرانه يومئذ ، ومعهم ناس من بني لحيان بن هذيل ، ومع بني جندع رجل من
خزاعة يقال له طارق ، فاتهم بنو ليث بهم ، وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى
النبي صلى الله عليه وسلم على قريش ؛ فقال أمية بن الأسكر لطارق الخزاعي :

* لعمرك إنني والخزاعي طارقاً *

وأورد أبيات أمية ورد طارق ؛ ثم قال : « وهذه الأبيات الابتداء والانهاء تمثل بابتدائها ابن عباس
في رسالة له إلى معاوية ، وتمثل بجوابها معاوية في رسالة أجابه بها » .

قال أبو الفرج : وكان أول شيء أحدثه الحسن عليه السلام أنه زاد المقاتلة مائة مائة ، قد كان على عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل ، وفعله الحسن حال الاستخلاف ، فنبهه الخلفاء بن بعده في ذلك^(١) .

قال : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدي^(٢) .
من الحسن^(٣) بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، سلام عليك ، فإني أحمده ليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنته المؤمنين ، وكافة للناس أجمعين ، ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾^(٤) ، يبلغ رسالات الله ، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقتصر ولا وان ، وبعد أن أظهر لله به الحق ، وحق به الشرك ، وخص به قريشاً خاصة فقال له : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ رِقَومِك ﴾^(٥) . فلما توفى تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت العرب أن القول لمقاتل قريش ، وأن الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد ، فأنتعت^(٦) لهم ، وسلمت إليهم . ثم حاجبنا نحن قريشاً بمثل ما حاجبت به العرب ، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب يالانتصاف والاحتجاج ، فلمّا صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى حاجبتهم ، وطلب النصف^(٧) منهم باعدونا واستولوا بالإجماع على ظلمنا ومرأغمتنا^(٨) والعنت^(٩) منهم لنا ، فالوعد الله ، وهو الولي النصير ؟

(١) مقاتل الطالبين ٥٥ .

(٢) مقاتل الطالبين : « مع جندب بن عبد الله الأزدي » .

(٣) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسن . . . » .

(٤) سورة يس ٧ . (٥) سورة الزخرف ٤٤ .

(٦) أنتعت لهم ؛ أي قالت لهم : « نعم » . (٧) النصف : الإنصاف .

(٨) راغمتهم : نابذهم وعادهم . (٩) العنت : المشقة وفي د « والعنت » .

ولقد كنّا تمجّبنا لتوثّب المتوثّبين علينا في حقنا وسلطان نبينا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة في الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب^(١) في ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمرٍ لست من أهله ، لا بمضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حسيبك ، فستردّ فتعلم لمن عقي الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربّك ، ثم ليجزينك بما قدّمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إنّ علياً لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قبض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبعث حيّاً - ولأني المسلمون الأمر بعمده ، فأسأل الله ألا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنّما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ في أمرك ، ولك في ذلك إن فعلته الخطّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التماذّي في الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من يبعثي ، فإنك تعلم أنّي أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتق الله ودع البغي ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير في أن تلقى الله من دماهم بأكثر مما أنت لاقية به ، وادخل في السّلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحقّ به منك ، ليظني الله النائرة^(٢) بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التماذّي في غيئك سرت^(٣) إليك بالمسلمين فحاكمتك ، حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فكتب معاوية إليه^(٤) :

(١) الأحزاب : هم الذين تحزّبوا وتظاهروا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغلطفان وبنو مرة وبنو أشجع وبنو سليم وبنو أسد في غزوة الخندق .

(٢) النائرة : العدو والشعنا . (٣) مقاتل الطالبين : « نهدت » .

(٤) في مقاتل الطالبين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن عليّ ، سلام الله عليك ، فإنّي أحمد إليك
له الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله
ن الفضل ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كلّهُ قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ،
قد والله بلغ وأدّى ، ونصح وهدى ؛ حتى أنقذ الله به من الهلكة ، وأُناز به من العمى ،
بهدى به من الجهالة والضلالة ، فجراه الله أفضل ما جرى نبيا عن أمته ؛ وصلوات الله
عليه يوم ولد ، ويوم بُعث ، ويوم قبض ، ويوم يُبعث حيّا !

وذكرت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده ، ونفّسهم على
بيك ، فصرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواريّ^(١)
رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصُلحاء المهاجرين والأنصار ، فكرهت ذلك لك ؛ إنك
امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنّين^(٢) ولا المسيء ، ولا اللثيم ، وأنا أحبّ لك القول
السديد ، والذكر الجليل .

إنّ هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيّها لم تجهل فضلكم ولا سابقتمكم ، ولا قرابتكم من
نبيّكم ، ولا مكانكم في الإسلام وأهله ، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش
لما كان من نبيّها ، ورأى صُلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس
وعوامّهم أن يولّوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها
على أمر الله ، فاختروا أبا بكر ، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل ، والناظرين للأمة ،
فأوقع ذلك في صدوركم لهم التّهمة ، ولم يكونوا متّهمين ، ولا فيما أتوا بالخطئين ، ولو رأى
المسلمون أنّ فيكم من يغني غناءه ، ويقوم مقامه ، ويذبّ عن حريم الإسلام ذبّه ،

(١) هو الزبير بن العوام .

(٢) ب : « ظنين » .

ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله ،
والله يحزيهم عن الإسلام وأهله خيراً .

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال
التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، فلو علمت أنك أضبط
مسي للزعامة ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ،
وأكيد للعدو ، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ، ورأيتك لذلك أهلاً ، ولكن قد علمت
أنني أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة ، وأكبر منك سنًا ، فأت أحق أن
تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما في
بيت مال العراق من مالٍ بالغ ما يبلغ ، تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أي كور
العراق شئت ؛ معونة لك على نفقتك يجيها أمينك ويحملها إليك في كل سنة ؛ ولك
ألا نستولى عليك بالإساءة ، ولا نقضي دونك الأمور ، ولا نعصى في أمر أردت به طاعة
الله . أعاننا الله وأياك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء . والسلام .

قال جندب : فلما أتيت الحسن بكتاب معاوية ، قات له : إن الرجل سائر إليك ،
فابدأه بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله ، فإما أن تُقدّر أنه ينفاد ^(١) لك ؛
فلا والله حتى يرى منا أعظم من يوم صفين . فقال : أفعل ، ثم قعد عن مشورتى
وتناسى قولى ^(٢) .

قالوا : وكتب معاوية إلى الحسن :

(١) د ومقاتل الطالبين : « تيمناً لك » .

(٢) مقاتل الطالبين ٥٥ - ٥٩ .

أما بعد^(١) ، فإنَّ الله يفعل ما يشاء ، لا معقَّب لحكمه وهو سريع الحساب ،
فاحذر أن تكون منيتك على أيدي راعٍ من الناس ، وإيَّس^(٢) من أن تحذَ فينا^(٣)
غميزة^(٤) ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك
ما شرطت ، وأكون في ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن نعلبة :

وإنَّ أحدَ أسدى إليك أمانةً فأوفِ بها تُدعى إذا ميتٌ وإفياً
ولا تحسُدِ المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفُه إن كان في المال فانيا
ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها . والسلام .

فأجابه الحسن :

أما بعد^(٥) فقد وصل إليَّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، فتركت جوابك خشية
البنى [مَنى]^(٦) عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحقَّ تعلم أنى من أهله ، وعلى إثمَّ
أن أقول فأكذب . والسلام .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثم كتب إلى عماله على النواحي بنسخة
واحدة :

من^(٧) عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان^(٨) ومن قبله من المسلمين . سلام
عليكم ، فإننى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنة عدوكم
وقتل خليفتكم ، إن الله بلطفه ، وحسن صنعه ، أتاح لعلی بن أبى طالب رجلاً من عباده ،

(١) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد » .

(٢) ب ، أيس ، وأثبت ما فى ا ، د ومقاتل الطالبيين .

(٣) ا ، د ومقاتل الطالبيين . (٤) الغمزة : المطعس .

(٥) فى مقاتل الطالبيين : بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد . . . » .

(٦) من د .

(٧-٧) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » .

فاغتاله فقتله ، فترك أصحابه متفرقين مختلفين ؛ وقد جاءتنا كتب أشرفهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ؛ فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغي والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١) .

قال : فاجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً إلى العراق . وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه ؛ وأنه قد بلغ جسر مذيّج ، فتحرّك عند ذلك ، وبعث حُجْرَ بن عديّ فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ! فأقبل الناس يشوبون ويحتممون . وقال الحسن : إذا رضيت جماعة الناس فأعلمني ؛ وجاءه سميد بن قيس الحمدانيّ ، فقال له : اخرج ، نخرج الحسن عليه السلام ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ؛ فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرهاً (٢) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا إنّ الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون .

بلغني أنّ معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه ؛ فتحرّك لذلك ، اخرجوا راحمكم الله إلى معسكركم بالثخيلة حتى ننظر وتنظروا ، وزرّى وتروا .

قال : وإنّ الله في كلامه ليتخوّف خذلان الناس له ، قال : فسكتوا فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف .

فلما رأى ذلك عدّيّ بن حاتم قام فقال : أنا ابنُ حاتم ! سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرّ [أيّ المسلمون ؟ أين

(١) مقاتل الطالبين ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) هو من قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ .

الخواضون من أهل مصر^(١) الذين ألسنتهم كالمخاريق^(٢) في الدعة ، فإذا حَدَّ الجَدَّ فرواغون كالثعالب ، أما تحافون مقت الله ولا عيبها وعارها .

ثم استقبل الحسن بوجهه ، فقال : أصاب الله بك المرشد ، وجنبك المكاره ، ووفقك لما يُحمد ورده وصدده^(٣) . قد سمعنا مقاتلتك ، واتبيننا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطمعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكرك ، فمن أحب أن يوافقني فليوافق .

ثم مضى لوجهه ، نخرج من المسجد ودابته بالباب ، فركبها ومضى إلى النخيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه . وكان عدى بن حاتم أول الناس عسكر^(٤) .

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وممقل بن قيس الرياحي وزباد بن صمصمة^(٥) التميمي ، فأنبوا الناس ولا موهم وحرّضوهم ، وكلموا الحسن عليه السلام بمثل كلام عدى ابن حاتم في الإجابة والقبول ، فقال لهم الحسن عليه السلام : صدقتم رحمكم الله ! ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا ثم نزل .

وخرج الناس فمسكروا ، ونشطوا للخروج ، وخرج الحسن إلى العسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّاب ، وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه ، فجعل يستحثهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر .

وسار^(٦) الحسن عليه السلام في عسكر عظيم وعدة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن ،

(١) من مقاتل الطالبيين .

(٢) المخاريق : جمع مخراق ؛ وهو المدبيل أو نحوه يلوى فيضرب به .

(٣) كذا في مقاتل الطالبيين ، د .

(٤) ١ : « عسكرا » .

(٥) ١ و ١ ، د « حفصة » .

(٦) مقاتل الطالبيين : « ثم إن الحسن . . . » .

فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فقال له : يا بن عمّ ، إني باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مصر ، الرجل منهم يزيد^(١) الكتبية ، فسرّ بهم ، وألنّ لهم جانبك ، وابسّط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأذنهم من مجلسك ، فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين ، وسرّ بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات ، ثمّ تصير إلى مسكن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسّه حتى آتيك ، فإنّي على أثرك وشيكاً ، وليكن خبرك عندي كلّ يوم ، وشاور هذين - يعني قيس ابن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس^(٢) .

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور^(٣) ، حتى خرج إلى شامى^(٤) ، ثم لزم الفرات والفلوجة^(٥) ؛ حتى أتى مسكن^(٦) ، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى دير كعب ، ثم بكر فنزل ساباط دون القنطرة ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلّاة جامعة ! فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : الحمد لله كما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأثمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله . أما بعد ، فوالله إنّّي لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلقه خلقة ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مرید له بسوء ولا غائلة . ألا وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ؛ ألا وإنّي ناظر لكم خيراً

(١) ١ : « يزّن » . (٢) بعدما في مقاتل الطالبين : « ثم أمره بما أراد » .

(٣) شينور : صنع بالعراق ، وفي ب « سينور » تحريف .

(٤) شامى : موضع قرب القادسية .

(٥) ياقوت : « فلالج السواد : قراها ، واحدها الفلوجة ، والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى :

قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر » .

(٦) مسكن : موضع على نهر دجيل .

من نظر كم لأنفسكم ، فلا تحالفوا أمري ، ولا تردوا علي رأيي . غفر الله لي ولكم ، وأرشدني . وإيّاكم لما فيه محبته^(١) ورضاه ، إن شاء الله ! ثم نزل .

قال : فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنّه يريد أن يصالح معاوية ، ويكل الأمر إليه ، كفرَ والله الرجل ! ثم شدّوا على فسطاطه . فانهبوه حتى أخذوا مصلاّ من تحته ؛ ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزديّ ، فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحرق به طوائف من خاصّته وشيعته ، ومنعوا منه من أراداه ، ولاموه وضعّفوه لما تكلم به ؛ فقال : ادعوا إلى ربيعةَ وهمدان ، فدعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شوب^(٢) من غيرهم ، فلما مرّ في مظلم ساباط^(٣) ، قام إليه رجل من بني أسد ، ثم من بني كَصْر بن قُعين يقال له جراح بن سنان ، ويده مِعُول ، فأخذ بلبّجام فرسه^(٤) ، وقال : الله أكبر ! يا حسن^(٥) أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت^(٥) . وطعنه بالمِعُول ، فوقع في فخذه ، فشقّته حتى بلغت أُرْبَيْتَه^(٦) ، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه ، فخرّا جميعا إلى الأرض ؛ فوثب عبد الله بن الأخطل^(٧) الطائيّ ، ونزع المِعُول من يد جراح بن سنان ، فخصّضه^(٨) به ، وأكبّ ظبيان بن عُمارة عليه ، ففقطع أنفه ، ثم أخذاه لآجر فشدّخا رأسه ، ووجهه حتى قتلاه .

(١) مقاتل الطالبين : « ما فيه المحبة والرضا » .

(٢) الشوب : الأخلاط من الناس .

(٣) مظلم ساباط : مضاف إلى ساباط التي قرب المدائن : موضع هناك ، قال ياقوت : « ولا أدري

لم سمي بذلك » .

(٤) مقاتل الطالبين : « فرسه » .

(٥) مقاتل الطالبين : « يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل » .

(٦) الأريية : أصل الفخذ . (٧) مقاتل الطالبين : « الخطل » .

(٨) ١ : « فخصّصه » .

وَحُمِلَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سُرِيرٍ إِلَى الْمَدَائِنِ ، وَبِهَا سَعِيدٌ^(١) بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَالْيَأْ عَلَيْهِمَا مِنْ قَبْلِهِ ، وَقَدْ كَانَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَاهُ الْمَدَائِنِ فَأَقْرَهُ الْحَسَنُ عَالِيَهُ السَّلَامَ عَالِيَهَا ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ يَمَاجُجَ نَفْسِهِ . فَأَمَّا مَعَاوِيَةُ فَإِنَّهُ وَافَى حَتَّى نَزَلَ قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا الْحُلُوبِيَّةُ^(٢) بِمَسْكِنٍ ، وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ حَتَّى نَزَلَ بِإِزَائِهِ ؛ فَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدٍ وَجَّهَ مَعَاوِيَةُ بِخَيْلِهِ إِلَيْهِ فَنَجَرَاجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فِيمَنْ مَعَهُ فَضَرَبَهُمْ حَتَّى رَدَّهُمْ إِلَى مَعْسُكِهِمْ ؛ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَرْسَلَ مَعَاوِيَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْحَسَنَ قَدْ رَاسَلَنِي فِي الصَّلَاحِ ؛ وَهُوَ مُسْلِمُ الْأَمْرِ إِلَيَّ ، فَإِنْ دَخَلْتَ فِي طَاعَتِي الْآنَ كُنْتَ مَتَّبِعًا ، وَإِلَّا دَخَلْتَ وَأَنْتَ تَابِعٌ ، وَلَكَ إِنْ أَجَبْتَنِي الْآنَ أَنْ أُعْطِيكَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، أَعْجَلْ لَكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ نَصْفَهَا ؛ وَإِذَا دَخَلْتَ الْكَوْفَةَ النَّصْفُ الْآخَرُ ؛ فَانْسَلَّ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِ لَيْلًا ، فَدَخَلَ عَسْكَرَ مَعَاوِيَةَ ، فَوَقَّاهُ بِمَا وَعَدَهُ ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يُخْرِجَ فَيُصَلِّيَ بِهِمْ ؛ فَلَمْ يُخْرِجْ حَتَّى أَصْبَحُوا ، فَطَلَبُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَصَلَّى بِهِمْ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ عَبَادَةَ ، ثُمَّ خَطَبَهُمْ فَثَبَّتَهُمْ^(٣) ، وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ فَنَالَ مِنْهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالتَّهَوُّضِ إِلَى الْعَدُوِّ ، فَأَجَابُوهُ بِالطَّاعَةِ وَقَالُوا لَهُ : انْهَضْ بِنَا إِلَى عَدُوِّنَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، فَنَزَلَ فَنَهَضَ بِهِمْ .

وَخَرَجَ إِلَيْهِ بُسْرُ بْنُ أَرْطَاةٍ فَصَاحَ إِلَى أَهْلِ الْمَرَاقِ : وَيَحْكُمُ ! هَذَا أَمِيرُكُمْ عِنْدَنَا قَدْ بَايَعَ وَإِمَامُكُمْ الْحَسَنَ قَدْ صَالَحَ ، فَعَلَامَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ !

(١) مقاتل الطالبين : « سعد » .

(٢) ب : « الحبوضة » .

(٣) في مقاتل الطالبين : « أيها الناس ، لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع » أي الجبان . إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ؛ إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتل بيدر ، فأسرته أبو الميسر كعب بن عمرو الأنصاري ، فأثنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاء على أمير المؤمنين على البصرة ، فسرق مال الله ومال المسلمين ، فاشترى به الجوارى ؛ وزعم أن ذلك له حلال ؛ وأن هذا ولاء على الين . فهرب من بسر ابن أرتاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذي صنع . قال : فتنادى الناس : الحمد لله الذي أخرجه من بيننا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فانهض بهم » .

فقال لهم قيس بن سمد : اختاروا إحدى اثنتين ؛ إمّا القتال مع غبر إمام ، وإمّا أن
يعموا بيمة ضلال ، فقالوا : بل نقاتل بلا إمام ، نخرجوا فضرّبوا أهل الشام حتى ردّوهم
، مصافهم .

فكتب معاوية إلى قيس بن سمد يدعوه ويثنيه ، فكتب إليه قيس : لا والله لا تلقاني
دأ إلا بيني وبينك الرّمح . فكتب إليه معاوية حينئذ لما يؤس منه :

أما بعد ؛ فإنّك يهودى ابن يهودى ، تُشقى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ؛ فإن ظهر
حبّ الفريقين إليك بذلك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك ؛ وقد كان
بوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ؛ فأكثر الحزّ وأخطأ المفصل ، نخذه قومه ،
أدركه يومه ، فأت بحوران طريدا غريبا . والسلام .

فكتب إليه قيس بن سمد :

أما بعد ؛ فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرها ، وأقت فيه فرقا ،
خرجت منه طوعا ؛ ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث تفاؤك ؛
ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزبا من أحزاب المشركين ، وعدوا لله ولنبيه وللمؤمنين
من عباده - وذكرت أبى ، فلمعمرى ما أوتر إلا قوسه ، ولا رى إلا غرضه ، فتغيب عليه
من لا يُشقّ غباره ، ولا يُبلغ كعبه ؛ وزعت أنى يهودى ابن يهودى ، وقد علمت
وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ،
وصرت إليه . والسلام .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه ، وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مهلا ، فإنك إن كاتبته
أجابك بأشدّ من هذا ؛ وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس . فأمسك عنه .

قال : وبمث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح ، فدعواه

إليه ، فزهداه في الأمر ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وألا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة عليٍّ بمكروه ، ولا يذكر عليٌّ إلا بخبر ، وأشياء شَرَطَهَا الحسن . فأجاب إلى ذلك ، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة ، وانصرف الحسن أيضا إليها ، وأقبل معاوية قاصدا نحو الكوفة ، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوه الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه ، ويسكون إليه جزءا مما فعله^(١) .

قال أبو الفرج : فحدثني محمد بن أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا الفضل بن الحسن البصري قال : حدثنا ابن عمرو ، قال : حدثنا مكِّي بن إبراهيم ، قال : حدثنا السريُّ ابن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن سفيان بن أبي ليلى . قال أبو الفرج : وحدثني به أيضا محمد بن الحسين الأشناداني ، وعليٌّ بن العباس المقاتمي^(٢) ، عن عباد بن يعقوب ، عن عمرو بن ثابت ، عن الحسن بن الحكم ، عن عدى بن ثابت ، عن سفيان بن أبي ليلى ، قال : أتيتُ الحسن بن عليٍّ حين بايع معاوية ، فوجدته بفناء داره ، وعنده رهط ، فقلت : السلام عليك يا مدلل المؤمنين ؛ قال : وعليك السلام يا سفيان ، ونزلت فمقلت راحلتى ، ثم أتيت فجلست إليه ، فقال : كيف قلت يا سفيان ؟ قلت : السلام عليك يا مدلل المؤمنين ! فقال : لم جرى هذا منك إلينا ؟ قلت : أنت والله بأبي وأمي أذلت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس . فقال : يا سفيان ، إنا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإنى سمعتُ عليا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا تنهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمة على رجل واسع السَّرم^(٣) ،

(١) مقاتل الطالبين ٦٤-٦٧ .

(٢) ب : « المقاتمي » تعريف .

(٣) في ب « السر » .

نسخم الملعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء
 نادر ، ولا في الأرض ناصر » ، وإنه لمعاوية ، وإنى عرفت أن الله بالغ أمره .
 ثم أذن المؤذن ، فقمنا على حالب نحلب ناقته ، فتناول الإناء ، فشرب قائماً ، ثم
 سقاني ، وخرجنا نمشي إلى المسجد ، فقال لي : ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت : حبكم
 والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق ! قال : فأبشر يا سفيان ، فإنى سمعتُ علياً يقول ؟
 سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يرد على الخوض أهل بيتي ومن أحبهم
 من أمتي كهاتين - يعنى السبائتين ، أو كهاتين يعنى السبابة والوسطى - إحداها تفضل
 على الأخرى ، أبشر يا سفيان ؛ فإن الدنيا تسع البر والفاجر ؛ حتى يبعث الله إمام الحق
 من آل محمد صلى الله عليه وآله^(١) .

قلت : قوله : « ولا في الأرض ناصر » ، أى ناصر ديني ؛ أى لا يمكن أحداً أن ينتصر
 له بتأويل ديني يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة .
 فإن قلت : قوله : « وإنه لمعاوية » من الحديث المرفوع ، أو من كلام عليّ عليه السلام ،
 أو من كلام الحسن عليه السلام ؟ قلت : الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام ، فإنه
 قد غلب على ظنّه أن معاوية صاحب هذه الصفات ، وإن كان القسم الأولان
 غير ممتنعين .

فإن قلت : فمن هو إمام الحق من آل محمد ؟ قلت : أمّا الإمامية فتزعم أنه صاحبهم
 الذى يعتقدون أنه الآن حيّ في الأرض ؛ وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطمى يخلقه الله
 في آخر الزمان .

قال أبو الفرج : وسار معاوية حتى نزل النُّخَيْلَة ، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة ، وجاءت منقطعة في الحديث ، وسنذكر ما انتهى إلينا منها^(١) .

فأما الشعبيّ فإنه روى أنه قال في الخطبة : ما اختلف^(٢) أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ثم انتبه فندم فقال : إلا هذه الأمة فإنها وإنها . . . وأما أبو إسحاق السبّعيّ فقال : إن معاوية قال في خطبته بالنُّخَيْلَة : ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به .

قال أبو إسحاق : وكان والله غدارا .

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة ؛ عن سعيد بن سويد ، قال : صلّى بنا معاوية بالنُّخَيْلَة الجمعة ، ثم خطبنا ، فقال : والله إني ما قاتلتكم لتصلّوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحجّجوا ولا تتركّوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأنأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون .

قال : وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك ، يقول : هذا والله هو التّهتّك .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أبو عبيد محمد بن أحمد ، قال : حدّثنى الفضل بن الحسن البصريّ ، قال : حدّثنى يحيى بن معين قال : حدّثنى أبو حفص اللّبان^(٣) ، عن عبد الرحمن ابن شريك ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : خطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر ، فذكر عليا عليه

(١) مقاتل الطالبين : « من ذلك » . (٢) مقاتل الطالبين : « ما اختلفت أمه » .

(٣) في د « الأبار » .

السلام فقال منه ، ثم نال من الحسن ، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : أيّها الذاكر عليّاً ؛ أنا الحسن ، وأبي عليّ ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأميّ فاطمة وأمّك هند ، وجدّي رسول الله وجدّك عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيبة ، فلعن الله أحمّلنا ذكراً ، ولألمنا حسبا ، وشرّنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً ! فقال طوائف من أهل المسجد : آمين .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : وأنا أقول : آمين .

قال أبو الفرج : قال أبو عبيد : قال الفضل : وأنا أقول : « آمين » ، ويقول عليّ بن الحسين الأصفهاني (١) : آمين .

قلت : ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب : آمين .

قال أبو الفرج : ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنخيلة بين يديه خالد ابن عرفة ، ومعه حبيب بن حماد يحمل رايته . فلما صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل ، واجتمع الناس إليه .

قال أبو الفرج : فحدثني أبو عبيد الصيرفيّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن محمد بن عليّ بن خلف ، عن محمد بن عمرو الرازيّ ، عن مالك بن سعيد ، عن محمد بن عبد الله الليثي ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : بينما عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منبر الكوفة ، إذ دخل رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مات خالد بن عرفة ، فقال : لا والله [ما] (٢) مات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد ، وأشار إلى باب الفيل ، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد .

قال : فوثب رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا حبيب بن حماد ، وأنا لك شيعة ، فقال :

(١) مقاتل الطالبين ٧٠ . (٢) تكملة من « د » .

فإنه كما أقول : فوالله لقد قدم خالد بن عرفة على مقدمة معاوية يحمل رايته حبيب ابن حماد (١) .

قال أبو الفرج : وقال مالك بن سعيد ، وحدثني الأعمش بهذا الحديث ، قال : حدثني صاحب هذه الدار - وأشار إلى دار السائب أبي عطاء - أنه سمع عليا عليه السلام يقول هذا (٢) .

قال أبو الفرج : فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوهُ إلى البيعة ، فجاءه - وكان رجلاً طويلاً يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطآن في الأرض ، وما في وجهه طاقة شعر ، وكان يسمى خصي الأنصار . فلما أرادوا إدخاله إليه قال : إني حلفت ألا ألقاه إلا وبينى وبينه الرمح أو السيف ، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه (٣) .

قال أبو الفرج : وقد روي أنّ الحسن لما صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس فأبى (٤) أن يبايع ، فلما بايع الحسن أدخل قيس ليبايع ، فأقبل على الحسن ، فقال : أفي حلّ أنا من بيعتك ؟ فقال : نعم ، فألقى له كرسي ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه ، فقال له معاوية : أتبايع يا قيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده على فخذه ، ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره (٥) ، وأكبّ على قيس حتى مسح يده ، على يده وما رفع إليه قيس يده (٦) .

(١) مقاتل الطالبين : « حبيب بن عمار » .

(٢) مقاتل الطالبين ٧٠ ، ٧١ ، وهناك : « يقول هذه المقالة » .

(٣) ابن أبي الحديد ٧١ ، ٧٢ . (٤) د : « وأبى » .

(٤) في « د » : « فجاء معاوية على سريره » ، وكذا في مقاتل الطالبين .

(٦) مقاتل الطالبين ٧٢ .

قال أبو الفرج : ثم إن معاوية أمر الحسن أن يخطب ، فظن أنه سيحصر ، فقام فخطب ، فقال في خطبته^(١) : إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه ؛ وليس الخليفة من سار بالجور ؛ ذاك رجل ملك ملوكاً تمتع به قليلاً ؛ ثم تنحّمه ، تنقطع لذّته ، وتبقى تبعته ﴿ وَإِنْ أَدْرَى كَمَلَهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(٢) . قال : وانصرف الحسن إلى المدينة ، فأقام بها ، وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد ؛ فلم يكن عليه شيء أثقل من أمر الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص ، فهدس إليهما سماً فأتا منه .

قال أبو الفرج : فحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار ، عن عيسى بن مهران ، عن عبيد بن الصباح الخزاز ، عن جرير ، عن مغيرة ، قال : أرسل معاوية إلى بنت الأشعث ابن قيس - وهي تحت الحسن - فقال لها : إني مزوّجك يزيد ابني عليّ أن تسمي الحسن^(٣) ، وبعث إليها بمائة ألف درهم . ففعلت ، وسمت الحسن ، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه ، فخلّف عليها رجل من آل طلحة ، فأولدها ؛ فكان إذا وقع بينهم وبين بطنون قرش كلام غيرهم ، وقالوا : يا بني مُسمّة الأزواج^(٤) .

قال : حدثني أحمد ، قال : حدثني يحيى بن بكير ، عن شعبة ، عن أبي بكر بن حفص ، قال : توفّي الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص في أيام متقاربة ؛ وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين ؛ وكانوا يروون أنه سقاها السم^(٥) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عوف ، عن عمران بن إسحاق ، قال : كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام في الدار ، فدخل الحسن المخرج ، ثم خرج ، فقال : لقد سقيت السم مرارا ، ما سقيت مثل هذه المرّة ؛ لقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت

(١) ب : « الخطبة » ، وأثبت ما في ١ ، د . (٢) سورة الأنبياء ١١١ .

(٣) مقاتل الطالبين « ابن علي » . (٤) مقاتل الطالبين ٧٣ .

(٥) مقاتل الطالبين ٧٣ : « سقاها سماً » .

أَقْلَبَهَا بِمَوْدٍ مَعِي . فَقَالَ الْحُسَيْنُ : وَمَنْ سَقَاكَ ؟ قَالَ : وَمَا تَرِيدُ مِنْهُ ؟ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَهُ !
إِنْ يَكُنْ هُوَ هُوَ ، فَاللَّهُ أَشَدَّ نِقْمَةً مِنْكَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ فَمَا أَحَبُّ أَنْ يُؤْخَذَ
بِي بِرِي^(١) .

قال أبو الفرج : دفن الحسن عليه السلام في قبرِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله
وآله في البقيع ، وقد كان أوصى أن يُدفن مع النبي صلى الله عليه وآله ، فنع مروان بن
الحكم من ذلك ، وركبت بنو أمية في السلاح ، وجعل مروان يقول :
* ياربِّ هَيِّجَا هِي خَيْرٌ مِنْ دَعَا^(٢) *

يدفن عثمان في البقيع ، ويدفن الحسن في بيت النبي صلى الله عليه وسلم !
والله لا يكون ذلك أبدا وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة تقع ، وأبى الحسين
عليه السلام أن يدفنه إلا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال له عبد الله بن جعفر :
عزمت عليك يا أبا عبد الله بحقِّ ألا تكلم بكلمة ا فضوا به إلى البقيع ، وانصرف
مروان^(٣) .

قال أبو الفرج : وقد روى الزبير بن بكار أنَّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة
أَنْ تَأْذَنَ لَهُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فقالت : نعم ، فلما سمعت بنو أمية
بذلك استلأموا في السلاح ، وتنادوا هم وبنو هاشم في القتال ؛ فبلغ ذلك الحسن ، فأرسل
إلى بني هاشم : أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه ؛ ادفنوني إلى جنب أُمِّي ، فدفن إلى جنب
فاطمة عليها السلام^(٤) .

قال أبو الفرج : فأما يحيى بن الحسن صاحب كتاب "النسب" ، فإنه روى أن عائشة

(٢) مطلع أرجوزة ابيد ، الأغاني ١٦ : ٢٢ - ساسي .

(٤) مقال الطالبيين ٧٥ .

(١) مقال الطالبيين ٧٤

(٣) مقال الطالبيين ٧٤ .

ركبت ذلك اليوم بغلاً واستنفرت بنو أمية مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمتهم وهو قول القائل :

* فيوماً على بغلٍ ويوماً على جمل^(١) *

قلت : وليس في رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة ، لأنه لم يرو أنها استنفرت الناس لما ركبت البغل ، وإنما المستنفرون هم بنو أمية ؛ ويجوز أن تكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة ، لا سيما وقد روى عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت : نعم ، فهذه الحال والقصة منقبة من مناقب عائشة .

قال أبو الفرج : وقال جويرية بن أسماء : لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحتها فحمل سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : أتحمل اليوم سريره وبالأمس كنت تجرّعه الغيظ ! قال مروان : كنت أفعل ذلك بمن يوازن^(٢) حلمه الجبال^(٣) .

قال : وقدم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيد بن العاص ، وهو يومئذ أمير المدينة ، وقال : تقدم فلولا أنها سدة لما قدمتك^(٤) .

قال : قيل لأبي إسحاق السبّعي : متى ذلّ الناس ؟ فقال : حين مات الحسن ؛ وادّعى زياد ، وقتل حُجْر بن عدى^(٥) .

قال : اختلف الناس في سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاته ، فقيل : ابن ثمان وأربعين - وهو المرويّ عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية هشام بن سالم - وقيل : ابن ست وأربعين ، وهو المرويّ أيضاً عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية أبي بصير .

(٢) د : « يوازي » ؛ وهو وجه أيضاً .

(١) مقاتل الطالبين ٧٤ .

(٣) مقاتل الطالبين ٧٦ .

قال : وفي الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتة يرثيه ، وكان محباً له :
يا كذّاب الله مَنْ نَعَى حَسَنًا ليس لتكذيبِ نَعْيِهِ ^(١)
كنتَ خليلي وكنتَ خالصتي لكلِّ حَيٍّ مِنْ أَهْلِهِ سَكَنُ
أَجُولُ فِي الدَّارِ لَا أَرَاكَ وَفِي الدَّارِ أَنْاسُ جَوَارِهِمْ غَبَنُ
بُدِّلَتْهُمْ مِنْكَ لَيْتَ أَنَّهُمْ أَضْحَوْا وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عَدَنُ

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل .

أما قوله : « كتبها إليه بحاضرين » ؛ فالذي كُنّا نقرؤه قديماً ؛ « كتبها إليه بالحاضرين »
على صيغة التثنية ؛ يعنى حاضر حلب وحاضر قنّسرين ، وهى الأرباض والضواحي المحيطة
بهذه البلاد ؛ ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ؛ ولم يفسروه ؛ ومنهم
من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول بخصاصرين ، يظنونه تثنية
خناصرة أو جمعها ، وقد طلبتُ هذه الكلمة في الكتب المصنفة ، سيما في البلاد
[والأرضين ^(٢)] فلم أجدها ، ولعلّي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضع .

قوله : « من الوالد الفان » ، حذف الياء هاهنا للازدواج بين « الفان » و « الزمان » ،
ولأنه وقف ، وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها ، والإثبات هو
الوجه ، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه .

قوله : « المقرّ للزمان » أى المقرّ له بالغلبة ، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان
بالقهر .

قوله : « المدير العمر » ، لأنه كان قد جاوز الستين ، ولم يبق بعد مجاوزة الستين
إلا إدبار العمر ، لأنها نصف العمر الطبيعي الذي قلّ أن يبلغه أحدٌ ، فعلى تقدير أنه

(١) مقاتل الطالبين ٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٤٤ . (٢) من ١ .

يبلغه ، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى ، فلا جرم يكون العمر قد أدبر .
قوله : « المستسلم للدهر » ؛ هذا أكد من قوله : « المقرّ للزمان » لأنه قد يقرّ الإنسان
لخصمه ولا يستسلم .

قوله : « الزام الدّنيا » هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر ، بل لم يزل عليه ، ولكن
يجوز أن يزيد ذمّه لها ، لأنّ الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعا ،
ولا يزال يتأفّف من الدنيا .

قوله : « الساكن مساكن الموتى » ، إشعار بأنّه سيموت ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ
فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (١) .

قوله : « الظاعن عنها غداً » ، لا يريد الغدَ بعينه ، بل يريد قُرْبَ الرّحيل والظّعن .
وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام من قد أيقن بالفراق ، ولا ريب
في ظهور الاستكانة والخضوع عليه ، ويدلّ أيضا على كرب وضيق عطنٍ ، لكونه
لم يبلغ أربه من حرب أهل الشام ، وانعكس ما قدره بتخاذل أصحابه عنه ، ونفوذ حكم
عمرو بن العاص فيه لحق أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضا .

قوله : « إلى المولود » هذه اللفظة بإزاء « الوالد » .
قوله : « المؤمل ما لا يدرك » ، لو قال قائل : إنه كفى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد
موتى وإن كان مؤمّلا لها لم يُبعد ، ويكون ذلك إخبارا عن عيب ، ولكن الأظهر أنّه لم
يرد ذلك ، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن ، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي
هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه ، بل هي وإن كانت لمعنى الظاهر بل هي للناس
كلّهم في الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله بعدها : « السالك سبيل من قد هلك » ، فإن كل
واحد من الناس يؤمّل أمورا لا يدركها ، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله

(١) سورة ابراهيم : ٤٥ .

قوله عليه السلام : « عرض الأسقام » لأنّ الإنسان كالهـدف لآفات الدنيا وأعراضها .
قوله عليه السلام : « ورهينة الأيام » الرهينة هاهنا : المهزول يقال : إنه رهـن وإنه
لرهينة ؛ إذا كان مهزولاً بالياء قال الراجز :

إِمَّا تَرَىٰ جِسْمِي خَلَاءَ قَدْ رَهَنُ هَزَلًا وَمَا مَجْدُ الرَّجَالِ فِي السَّعْنِ^(١)
ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن ؛ يقال للأسير أو للزمن أو للعاجز عند الرحيل :
إنه لرهينة ؛ وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها .
قوله : « ورمية المصائب » ، الرمية ما رمى .

قوله : « وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا » ؛ لأنّ الإنسان طوع شهواته ، فهو
عبد الدنيا ، وحركاته فيها مبنية على غرور لا أصل له ، فهو تاجر الغرور لا محالة ؛ ولما كانت
المنايا نطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريماً له يقتضيه ما لا بدّ له من أدائه .

قوله : « وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وسريع
الشهوات » ، لما كان الإنسان مع الموت ، كما قال طرفة :

لَمَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لِكَالطَّوْلِ الْمُرْخَى وَثْنِيَاءُ بِالْيَدِ^(٢)

كان أسيراً له لا محالة ؛ ولما كان لا بدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم ؛
وكذلك لا يخلو ولا ينفك من الحزن ، فكان قريناً له ، ولما كان معرضاً للآفات كان نصبا
لها ، ولما كان إنما يملك بشهواته كان سريعاً لها .

قوله : « وخليفة الأموات » قد أخذه من قال : إنّ امرأ ليس بينه وبين آدم إلا أب
ميت ، لمعرق في الموت .

واعلم أنه عدّ من صفات نفسه سبعاً ، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة ، فجعل

(١) الصحاح ٢١٢٨ من غير نسبة .

(٢) من المعقّة بشرح التبريزي ٨٦ . الطول : الحبـل ، وثنياء : مائى منه .

(٣) ١ : « سريعاً » .

بإزاء كلِّ واحدة مما له اثنتين ، فيلحم ذلك.

[بعض ما قيل من الشعر في الدهر وفعله بالإنسان]

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه ، ووصف ما نقص الدهر من قواه ، قول عوف بن محمّ
الشيبيّ في عبد الله بن طاهر أمير خراسان :

يَابُنَّ الَّذِي دَانَ لَهُ الْمَشْرُقَانُ وَأُلْبَسَ الْأَمَنَ بِهِ الْمَغْرِبَانُ^(١)
إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّتْهُمَا قَدْ أَحْوَجْتُ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ
وَبَدَّلْتَنِي بِالشَّطَاطِ أَنْحِنَا وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السَّنَانِ^(٢)
وَقَارَبْتُ مِنِّي خُطَاً لَمْ تَكُنْ مَقَارِبَاتٍ وَثَنَتْ مِنْ عَمَانٍ
وَعَوَضْتَنِي مِنْ زَمَاعِ الْفَتَى وَهَمَّ هَمَّ الْجَبَانِ الْهِدَانِ^(٣)
وَأَنْشَأْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَرَى عَنَانَةً مِنْ غَيْرِ نَسْجِ الْعَنَانِ^(٤)
وَلَمْ تَدْعُ فِي لِسْتِمْتِعٍ إِلَّا لِسَانِي وَكَفَانِي لِسَانُ^(٥)
أَدْعُو بِهِ اللَّهُ وَأُثْنِي بِهِ عَلَى الْأَمِيرِ الْمَصْعَبِيِّ الْهَيْجَانِ^(٦)

(١) أُمَالِي الْقَالِي ١ : ٥٠ ، وروايته :

* طَرَأَ وَقَدْ دَانَ لَهُ الْمَغْرِبَانُ *

(٢) الشَّطَاطُ : حسن القوام والاعتدال . والصَّعْدَةُ : الفئاة المستوية تَدَسُّ كذلك لا تحتاج إلى تشقيف .

(٣) الزَّمَاعُ : المضاء في الأمر والعزم عليه . والهِدَانُ : الأحنى الجاني .

(٤) الْعَنَانُ هُنَا : السحاب ؛ يشير بهذا إلى ضعف بصره . وأنه لا يرى الورى إلا من وراء سحابة .

(٥) الْأُمَالِي : « وَيَحْسِبِي لِسَانٌ » .

(٦) الْهَيْجَانُ . الكريم ؛ وبعده في الْأُمَالِي :

فَقَرَّبَانِي بِأُنِي أَنْتَمَا مِنْ وَطَنِي قَبْلَ اصْفَرَارِ الْبَنَانِ
وَقَبْلَ مَنَعَايَ إِلَى نَسْوَةٍ أَوْطَانَهَا حَرَّانُ وَالرَّهَّاقَانُ

ومن الشعر القديم الجيد في هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبي :

لا يبعدنَّ عَصْرُ الشباب ولا لذاته ونباته النضر
والشرفات من الحُدُور كأيّ ماض الغمام يجُودُ بالقطر
وطراد خيل مثلها التقتا الحفيظة ومقاعد الحر
لولا أولئك ما حلفت متى عوليت في خرج إلى قبرى
هربت زبيبة أن رأيت ثرى^(١) وأن أنحى لتقدم ظهري
من بعد ما عهدت فأدلفني يوم يمرّ ليلة تسرى
حتى كأنى خائل قنصاً^(٢) والمرء بعد تمامه يجرى
لا تهزنى منى زيب فما في ذاك من عجّب ولا سخر
أو لم ترى لقمان أهلكه ما اقتات من سنة ومن شهر
وبقاء نسر كلما انقرضت أيامه عادت إلى نسر
ما طال من أمدٍ على لبدي رجعت محارته إلى قصر
ولقد حلبت الدهر أشطره وعلت ما آتني من الأمر

أنا أستفصح قوله : « ما اقتات من سنة ومن شهر » جعل الزمان كالقوت له ، ومن اقتات الشيء فقد أكله ، والأكل سبب المرض ، والمرض سبب الهلاك .

(١) الثرم : انكسار السن .

(٢) الحائلة : مشى الصياد قليلا قليلا في خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

(٣) في اللسان : « تزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقى لها ؛ ولما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر ، من أطب عفر ، في جبل وعمر ، لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختر النسر ، فكان آخر نسوره يسمى ابدا ؛ وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أضحتُ خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبدي

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنَتْ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالَ
الْآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي ، غَيْرَ أَلَدٍّ
حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي - فَصَدَّقَنِي رَأْيِي ، وَصَرَفَنِي عَنْ
هَوَايَ ، وَصَرَاحَ لِي بِحُضْرِ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدِّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَيْبٌ ،
وَصِدْقٌ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ - وَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ
شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَمَعَانِي مِنْ أَمْرِكَ
مَا يَمِينُنِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيتُ لَكَ
أَوْ فَنِيتُ .

الشرح :

يزعني : يكفني ويصدني ، وزعتُ فلانًا ، ولابد للناس من وزعة .
وسوى ، لفظة تُقصر إذا كسرت سينها ، وتمدد إذا فتحتها ؛ وهي هاهنا بمعنى غير ،
وَمَنْ قَبْلَهَا بمعنى شيء منكّر ، كقوله :
* رَبِّ مَنْ أَنْصَجْتُ غَيْظًا قَلْبُهُ (١) *

والتقدير : غير ذكر إنسان سواي ، ويجوز أن تكون « مَنْ » موصولة ، وقد حذف
أحد جزأي الصلة ، والتقدير عن ذكر الذي هو غيري ، كما قالوا في : ﴿ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ ، أي هو أشد . يقول عليه السلام : إن فيما قد بان لي من تنكّر الوقت
وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلًا لي عن الاهتمام بأحد غيري ، والاهتمام والفكر
في أمر الولد وغيره من أخلفه ورأى .

(١) بقيته : * تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ *

واليت لسويد بن أبي كاهل البشكري . الفضليات ١٩٨ .

ثم عاد فقال : إَلا أن همتى بنفسى يقتضى اهتماى بك ، لأَبَك بعضى بل كلّى ، فإن كان اهتماى بنفسى يصرفنى عن غيرى لم تكن أنت داخلا فى جملة مَنْ يصرفنى همتى بنفسى عنهم ؛ لأنك لست غيرى .

فإن قلت : أفهذا الهمّ حدّث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن ، أو من قبل لم يكن علما بأن الدنيا مدبرة ، والآخرة مقبلة ؟

قلت : كَلّا بل لم يزل عالما عارفا بذلك ، ولكنه الآن تأكد وقوى ، بطريق علوّ السنّ وضعف القوى ، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب ، لا بدّ من حصوله لكلّ أحد ، وإن كان عالما بالحال من قبل ؛ ولكن ليس العيان كالخبر .

ومن مستحسن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى إسحاق الصائى :

أُفِيكَ الرَّدَى إِنِّى تَنَبَّهْتُ مِنْ كَرِّى وَسَهْوٍ عَلَى طُولِ الْمَدَى أُعْتَرِيَانِ
فَأُثْبِتُ شَخْصًا دَانِيًا كَلَفَ خَافِيًا عَلَى الْبَمَدِ حَتَّى صَارَ نُصْبَ عِيَانِ
هُوَ الْأَجَلُ الْمُحْتَمُومُ لِي جَدِّ جَدِّهِ وَكَأَنِّي بِرَبْنِي غَفْلَةُ التَّوَانِ
لَهُ نَذْرٌ قَدْ آذَنْتَنِي بِهَجْمَةٍ لَهُ لَسْتُ مِنْهَا آخِذًا بِأَمَانِ
وَلَا بَدَّ مِنْهُ مَهْلًا أَوْ مَعَاجِلًا سِيَأْنِي فَلَا يَنْتِيهِ عَنِّي ثَانِ

وأول هذه القصيدة وهو داخل له فى هذا المعنى أيضا :

إِذَا مَا تَمَدَّتْ بِي وَسَارَتْ مَحَنَةٌ لَهَا أَرْجَلٌ يَسْمَى بِهَا رَجَلَانِ
وَمَا كُنْتُ مِنْ فِرْسَانِهَا غَيْرَ أَنَّهَا وَفَتْ لِي لَمَّا خَانَتْ الْقَدَمَانِ
نَزَلْتُ إِلَيْهَا عَنْ سِرَاةِ حَصَانِي بِحَكْمِ مَشِيبٍ أَوْ فِرَاشِ حَصَانِ (١)
فَقَدْ حَمَلَتْ مِنِّي ابْنَ سَبْعِينَ سَالِكًا سَبِيلًا عَلَيْهَا يَسْلُكُ الثَّقَلَانِ

(١) د : « بحلم » .

كما حل المهْدَ الصبيُّ وقبلَها ذعرت أسودُ النِيلِ بالزَّوَانِ (١)
 ولى بعدها أخرى تسمى جِنَازَةً (٢) جنيسة يوم للمنيّة دانِ
 تسير على أقدام أربعة إلى ديار البلى معدودهنّ ثمانِ
 وإني على عَيْثِ الرّدى في جوارحي وما كفّ من خطوى وبطس بناني
 وإن لم يدعُ إلّا فؤادا مَرَوَّعاً به غَيْرُهُ باقٍ من الحدّثانِ (٣)
 تلوم تحت الحجب ينفث حُكْمَه إلى أذنٍ تُصنّى لنطقِ لسانِ (٤)
 لأعلمُ أنّي ميت عاقٍ دفنه ذمّا قليل في غدٍ هو فانِ
 وإنّ فمّاً للأرض غرثان حامعاً يراصد من أكلّى حضور أوانِ
 به شرّة عمّ الورى بفجائعٍ تركن فلاناً ثاكلاً لفلانِ
 غداً فاعراً يشكو الطوى وهو رائع فما تلتقى يوماً له الشفتانِ
 إذا عاضنا باللسل ممنّ نسوّه تلا أولاً منه بمهلك ثانِ
 إلى ذات يومٍ لا ترى الأرض وارثاً سوى اللّهُ من إنس تراه وجانِ

قوله : « تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسى » أى دون الهموم التى قد كانت تعتربنى لأجل أحوال الناس .

فصدّقنى رأيي ؛ يقال : صدقته كذا أى عن كذا ، وفى المثل : « صدقنى سنّ بكره »
 لأنه لما نفرّ قال له : هدّع (٥) ، وهى كلمة تسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت ؛ والمعنى أن هذا
 الهمّ صدقنى عن الصفة التى يجب أن يكون رأيى عليها وتلك الصفة هى ألا يفكر فى

(١) النيل : الشجر الكثير المتلف . (٢) الحازة بالكسر : ما يحمل عليه الميت .

(٣) الحدّثان : غبر الدهر ونوائبه . (٤) تلوم : أى انتظر .

(٥) فى اللسان : « هدّع هدع ، كسر الفاء وفتح الدال وتسكّن العين : كلمة يسكن بها صغار الإبل . عند الفار ؛ ولا يقال ذلك لحلتها ولا مسانها ؛ وزعموا أن رجلاً أتى السوق ببكر له يبيعه ، فسأموه رجل . فقال : بكم البكر ؟ فقال : إنه جل ؛ فقال : هو بكر ؛ فبينما هو يعاربه إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : هدّع هدع ، ليسكن نفاره ، فقال المشتري : صدقنى سنّ بكره ؛ وإنما يقال : هدع للبكر ليسكن . »

أمر شيء من الموجودات أصلاً إلا الله تعالى ونفسه ؛ وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى جداً وهي ألا تفكر في شيء قط إلا في الله وحده ، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير ، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ ، وقد ذكرها هو فيما سبق ، وهو ألا يفكر في شيء أصلاً ، لا في المخلوق ولا في الخالق ؛ لأنه قد قارب أن يتحد بالخالق ، ويستغنى عن الفكر فيه .

قوله : « وصرّفتني عن هواي » أي عن هواي وفكرى في تدبير الخلافة وسياسة الرعية والقيام بما يقوم به الأئمة .

قوله عليه السلام : « وصرّحت لي محض أمرى » يروى بنصب محض « ورفعته » ؛ فمن نصب فتقديره : عن محض أمرى ؛ فلمّا حذف الجار نصب ، ومن رفع جملة فاعلاً . وصرّحت : كشف أو انكشف .

قوله : « فأفضى بي إلى كذا » ، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب ؛ بل المعنى أن همومه الأولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يزح ولا يقول إلا حقاً ، فالآن قد حدث عنده هم لا يمكن أن يتخلّل من ذلك شيء أصلاً ، ومدار الفرق بين الحالتين - أعنى الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله : « أفضى لك بي هذا المهم » إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب ؛ ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكاناً محضاً على أن اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلاً ، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن دعب لعب » ، وكذلك القول في قوله : « وصدق لا يشوبه كذب » أي لا يمكن أن يشوبه كذب ؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين ؛ بل هو من قولهم : صدّقونا اللقاء ، ومن قولهم : حمل عليهم فما كذب ! قال زهير :

ليثٌ بعثَ يصطاد اللبث إذا ما كذب اللبث عن أقرانه صدقا^(١)؛
 أى أفضى بى هذا الهم إلى أن صدقتنى الدنيا حربها ، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا ،
 أى صدقتنى الدنيا حربها ولم تكذب ، أى لم تبجن ولم تخن .
 أخبر عن شدة اتحاد ولده به ، فقال وجدتك بعضى ، قال الشاعر :
 وإنما أولادنا بيننا أبادنا تمشى على الأرض
 لو هبت الريح على بعضهم لامتنت عيني من الغمض
 وغضب معاوية على ابنه يزيد ، فهجره ، فاستعطفه له الأحنف ، قال له : يا أمير المؤمنين ،
 أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، فإن غضبوا
 فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، فلا تكن عليهم قنلا فيملأوا حياتك ، ويتمنوا موتك .
 وقيل لابنة الحسن^(٢) : أى ولديك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض
 حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

غضب الطرماح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام ، وهو غلام لم يبلغ عشرة ،
 فقال الطرماح :

أصمصام إن تشفع لأباك تلحقها لها شافع في الصدر لم يترجح^(٣)
 هل الحب إلا أنها لو تعرضت لذبحك يا صمصام قلت لها : اذبحي
 أحاذر يا صمصام إن مت أن يلى ترائي وإياك امرؤ غير مصلح
 إذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهى : ملكك فأسجج
 وفى الحديث المرفوع : « إن ربح الولد من ربح الجنة » .

(١) ديوانه ٥٤ : وكذب ، أى لم يصدق الحملة . وعثر : قبل تبالة .

(٢) ب : « الحسن » ، تحريف ، صوابه من ا ، د .

(٣) ديوانه ١٣٦ ، وفيه : « لم يترجح » .

وفي الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام : « إنكم لتجبتون ، وإنكم لتبختلون ، وإنكم لمن ربحان الله » .

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها :

ياحبذا ربحُ الولدِ ربحُ الخزاعي في البلدِ
أهكذا كلَّ ولدٍ أم لم يلد قُبلي أحد !

وفي الحديث المرفوع : « من كان له صبيّ فليستصب له » .

وأنشد الرياشي :

من سرّه الدهر أن يرى الكبدا يشي على الأرض فليسير الولدا

الأصل :

فإني أوصيك بتقوى الله - أي بُني - ولزوم أمره ؛ وعمارة قلبك بذكره ،
والاعتصام بحبِّه ، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله ؛ إن أنت
أخذت به !

أخى قلبك بالموعظة ، وأمنه بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ،
وذلك بذكر الموت ؛ وقرره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ؛ وحذره صولة الدهر
وفحش تقلب الآلي والأيام ؛ وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصابه
من كان قبلك من الأولين .

وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعمّا انتقلوا ، وأين حلّوا ونزلوا !
فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلّوا دار الغربة ؛ وكأنك عن قليل قد
صرت كأحدِهِمْ .

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ
وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَاثِفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ
عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ

الْمُبْرِخُ :

قوله عليه السلام : « وَأَيَّ سَبَبٍ أَوْثَقَ » ؛ إشارة إلى القرآن لأنه هو المبرر عنه بقوله
تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) .

ثم أتى بالمفطين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : « أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ،
وَأَمْتَهُ بِالزَّهَادَةِ » ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه .

قوله عليه السلام : « واعرض عايه أخبار الماضين » معنى قد تداوله الناس ،
فالشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت عنهم الأجداث والثرثُرُ
أَيَّ دار لبلى نزلوا وسيل للردى سلكوا

قوله عليه السلام : « ودع القول فيما لا تعرف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله
لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ،
مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا ! » - وسبك بين أصابعه - ؛ قال عبد الله :
فقلت : مُرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال : « خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخويصة
نفسك » .

قوله : « والخطاب فيما لم تكلف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقال معاوية في عهد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام : إن لهذا الغلام الهمة ، وإنه مع ذلك تارك ثلاث آخذ بثلاث : تارك مسلاة الصديق جدًا وهزلًا ، تارك ما لا يعنيه ، تارك ما لا يعتذر منه ، آخذ بأحسن الحديث إذا حدث ، وأحسن الاستماع إذا حدث ، وبأهون الأميين إذا خولف .

قوله عليه السلام : « وأمسك عن طريق إذا خفت ضالته » ، مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وفي خبر آخر : « إذا رابك أمر فدعه » .

الأفضل :

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ النُّكْرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَارِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا يُجِبُ .
وَحُضِ النُّعْمَاتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ؛ وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ !
وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيظٍ ، وَمَنْعٍ عَزِيزٍ .

وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ؛ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْمَطَاءَ وَالْجِرْمَانَ ، وَأَكْثَرَ الْأَسْتِخَارَةِ ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحَقُّ تَعَلُّمُهُ .

الشَّيْخُ :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما واجبان عندنا ، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين .

ومعنى قوله : « تكن من أهله » : لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون ، ويجب إنكار المنكر باللسان ، فإن لم ينبج فباليد ، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتيبي الكلامية .

قوله : « وخُصَّ الغمرات إلى الحق » ، لا شبهة أن الحسن عليه السلام لو تمسك لخاضها إلا أن مَنْ فقد الأنصار لا حيلة له .

* وهل ينهض البازي بغير جناح *

والذي خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام ، ولهذا عظم عند الناس قدره ، فقدّمه قوم كثير على الحسن عليه السلام .

فإن قلت : فاقول أصحابكم في ذلك ؟

قلت : هما عندنا في الفضيلة سيان ، أما الحسن فلو قوفه مع قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ ، وأما الحسين فلا عازال الدين .

قوله : « فزعم التصبر » قد تقدّم منّا كلام شافٍ في الصبر .

وقوله : « وأكثر الاستخارة » : ليس يعنى بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطَر رِثاق وجعلها في بنادق ، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيرة من الله فيما يأتي ويذر .

قوله : « لا خير في علم لا ينفع » قول حق ، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً .

قوله : « ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه » ، أى لا يجب ولا يندب إليه ؛ وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة ، فما لم يكن من العلوم مرغبا فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به فى الآخرة ، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقى ونحوهما .

الأضل :

أَيُّ بُمَيٍّ ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًا ، وَرَأَيْتُنِي أَرْدَادُ وَهْنًا ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أَفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، أَوْ أَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .
وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَّثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقَى فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبْلَتُهُ ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْضُو قَلْبُكَ ، وَيَسْتَقْبَلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبَلَ بِحَدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجَرِبَتُهُ ، فَتَكُونُ قَدْ كُفِيتَ مَثُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجَرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

الشَّرْحُ :

هذه الوصية كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين ، وروى أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستين والسبعين ، فقال : « معترك المنايا » .
قوله عليه السلام : « أَوْ أَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي » هذا يدلّ على بطلان قول من قال :
إنّه لا يجوز أن ينقص فى رأيه ، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك ، وكذلك قوله

للحسن : « أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا » يدلّ على أنّ الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ؛ ولا عن فتن الدنيا .

قوله : « فتكون كالصَّعب النَّفَّور » ؛ أى كالبعير الصعب الذى لا يُمكن ركبها ، وهو مع ذلك نفور عن الأنس .

ثم ذكر أنّ التعلّم إنما هو فى الصِّبَا ، وفى المثل : « النِّلام كالطَّين يقبل الختم ما دام رطباً » .

وقال الشاعر :

اختم وطينك رطباً إن قدرت فكتم قد أمكن الختم أقواماً فاختموا
ومثل هو عليه السلام قلب الحدث بالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شيء قبلته ،
وكان يقال : التعلّم ^(١) فى الصغر كالنقش فى الحجر ، والتعلّم ^(٢) فى الكبر كالخط على الماء .
قوله : « فأناك من ذلك ما كنّا نأنيه » أى الذى كنّا نحن نتجشم المشقة فى اكتسابه ، وتكلف طلبه ؛ يأتيك أنت الآن صفواً عفواً .

الأصل :

أَيُّ بَنَى ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِرْتُ عُمرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي ، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ ،
وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا
أَنْتَهَيْ إِلَى مِنْ أُمُورِهِمْ ؛ قَدْ عَمِرْتُ مَعَ ^(٢) أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ؛ فَمَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ
كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ؛ فَاسْتَخَاصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ

(١) د : « العلم » . (٢) د « من » .

جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدْرَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أُبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أَجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، مِثْلَ الَّذِي اَلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَيَّ أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ^(١) الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوقِّعَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقَصْدِكَ، فَعَسَيْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ .

الشرح :

هذا الفصل وما بعده يشعر بالانتهى عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه ، ألا تراه قال له : كنت عازماً على أن أعلمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة ، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم خفت أن تدخل عليك شبهة في أصول الدين فيلتبس عليك في عقيدتك الأصلية ما التبس على غيرك من الناس ، فعدلت عن العزم الأول إلى أن أوصيك بوصايا تتعلق بأصول الدين .

ومعنى قوله عليه السلام : « وكان^(٢) إحكام ذلك » إلى قوله : « لا آمن عليك به الهلكة »، أي فكان إحكامي الأمور الأصلية عندك وتقرير الوصية التي أوصيك بها في ذهنك فيما رجع إلى النظر في العلوم^(٣) الإلهية ؛ وإن كنت كارها للخوض [معك]^(٤)

(١) د « فيه من » (٢) ١ : « فكان » .

(٣) د « الأمور » . (٤) من ١ .

فيه وتنبهك عليه أحبّ إلى من أن أتركك سدّي مهملًا ، تتلاعب بك السّسه ، وتمتورك الشكوك في أصول دينك ، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلكة .

فإن قلت : فلماذا كان كارها تنبيه ولده على ذلك ، وأنتم تقولون إن معرفة الله واجبة على المكلفين ؛ وليس يليق بأمر المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى !

قلت : لعلّه علم إمام من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفًا لولده ومعرفته ، بما يكون مفسدة له ، لكثرة التجربة له ، وطول المارسة لأخلاقه وطباعه أن الأصلح له ألا يخوض في علم الكلام الخوض الكليّ وأن يقتنع بالمبادئ والجلس ، فصالح البشر تختلف ؛ فربّ إنسان مصلحته في أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره ، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلا الأمور المجمّلة ، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة ، فلا تجب إلا عند ورود الشبهة ، فإذا لم تقع الشبهة في نفس المكلف لم يجب عليه الخوض في التفصيلات .

قوله عليه السلام : « قد عمّرتُ مع أولهم إلى آخرهم » الذين مفتوحة والميم مكسورة مخففة ، تقول : عمر الرجل يعمر عمرًا وعمرًا على غير قياس ؛ لأن قياس مصدره التحريك أى عاش زمانًا طويلًا ، واستعمل في القسم أحدهما فقط ، وهو المفتوح .

قوله عليه السلام : « حيث عناني من أمرك » أى أهمني ، قال :

﴿ عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَّا ﴾

قوله : « وأجمعت عليه » أى عزّمت .

ومقتبل الدهر ، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتبل بالفتح وهو من الشواذ ، ومثله أحسن الرجل إذا تزوج فهو مُحصّن ، وإذا عفّ فمحصّن أيضا ، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهب ، وألج إذا افتقر فهو ملفّج ؛ وينبغى أن يكون له من قوله : « تنبيهك له » بمعنى

« عليه » ، أو تكون على أصلها ، أى ما كرهت تنبيهك لأجله .

فإن قلت : إلى الآن ما فُسِّرَتْ ، لما ذكره تنبيهه على هذا الفن ؟

قلت : بلى قد أُشِرَتْ إليه ؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض في الأمور الأصولية فنَبَّهه على أمور يجرّهُ النظر وتأمل الأدلّة والشُّبُهَات إليها دقيقة يُخَافُ على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته ، إلا أنه لم يجد به بداً من تنبيهه على أصول الديانة ، وإن كان كارها لتعريضه لخطر الشبهة ، فنَبَّهه على أمور جلية غير مفصلة ، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزَه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه ، وسيأتى ذكر ذلك .

الأصل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ أَخِذُ بِهِ إِلَىَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْكَ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ ، وَفَكَرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا ، وَالْإِمْسَاكَ عَمَّا لَمْ يُكَلِّفُوا ، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا ؛ فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ يَتَفَقَّهُمْ وَتَعْلَمُ ، لَا يَتَوَرَّطُ الشُّبُهَاتِ ، وَعُلُقِ الْخُصُومَاتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِمَانَةِ بِالْهَيْكِ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوَفِيقِكَ ، وَتَرَكَ كُلَّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبُهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ ، فَإِنْ أَيْفَنْتَ أَنْ قَدْ صَمَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا ، فَاَنْظُرْ فِيهَا فَسَّرْتَ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وَفَرَاغَ نَظَرِكَ وَفِكَرِكَ ،

فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخَيِّطُ الْمَسْوَءَ ، وَتَتَوَرَّطُ الظُّلْمَاءَ ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ حَبِطَ أَوْ
خَلَطَ ، وَالْإِمْسَالُ عَنْ ذَلِكَ أَمْتَلُ .

* * *

البِنْجُ

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض ، وأن يأخذ بسنة السلف الصالح من آبائه وأهل
بيته ؛ فإنهم لم يقتصروا على التقليد ؛ بل نظروا لأنفسهم ، وتأملوا الأدلة ، ثم رجعوا آخر
الأمر إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمسالا عما لم يكلفوا .

فإن قلت : من سلفه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت : المهاجرون الأولون من بنى هاشم وبنى المطلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة
ابن الحارث ، وكأبي طالب في قول الشيعة وكثير من أصحابنا ، وكعبد المطلب في قول
الشيعة خاصة .

فإن قلت : فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودا من جملة هؤلاء !

قلت : لا ، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجلل المقتصر بهم في تكليفهم العقليات على
أوائل الأدلة ، بل كان سيّد أهل النظر كافة وإمامهم .

فإن قلت : ما معنى قوله : لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت : لأنهم إذا تأملوا الأدلة وفكروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان
لنفسه ليخلصها من مضرة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها ؛ وهذا هو
الوجه في وجوب النظر في طريق معرفة الله ، والخوف من إهمال النظر .

فإن قلت : ما معنى قوله : « إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمسالك عما لم يكلفوا » ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلة^(١) حدوث الأجسام وتوحيد الباري وعنده، والإمساك عما لم يكلفوا، مثل النظر في إثبات الجزء الذي لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام في الخلا والملا؛ والكلام في أن هل بين كل حركتين مستقيمتين سكون أم لا؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لا يلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا في ذلك؛ لأنهم لم يكلفوا الخوض فيه؛ وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله عليه السلام: «فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا»، هذا الموضع فيه نظر؛ لأننا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها؟ ويقول: «أن تعلم كما علموا» وينبغي أن يقال إن الكاف وما عملت فيه في موضع نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف؛ وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علما كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة؛ وجاز انتصاب «علما» والعامل فيه «تقبل» لأن القبول من جنس العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد؛ وليس لقائل أن يقول: فإذا كان قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيرا، قال الشاعر:

جَزَى اللهُ كَفًّا مِلْثُهَا مِنْ سَعَادَةٍ سَرَتْ فِي هَلَاكِ الْمَالِ وَالْمَالُ نَائِمٌ

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم؛ فإنهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتهه علمه على الناس في الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أن الذي يدعو إلى تكلف هذه التأويلات أن ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وآله والأخذ بما في القرآن وترك النظر العقلي؛ هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل

(١): ١: «الأدلة» تحريف.

بيتك وسلفك ؟ فإنهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات ، وتركوا العقليات ؛ لأنهم أفضت بهم إلى ما لا يعرفونه ؛ ولا هو من تسكينهم .
ثم قال له : فإن كرهت التقليد المحض ، وأحببت أن تسلك مسلكهم في النظر ، وإن أفضى بك الأمر بآخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيات وما ورد به الكتاب والسنة ، فينبغي أن تنظر وأنت مجتمع لهم خالٍ من الشبهة ، وتكون طالبا للحق ، غير قاصد إلى الجدل والمراء ؛ فلما وجدنا ظاهر اللفظ يقتضي هذه المعاني ، ولم يجوز عندنا أن يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده^(١) مع حكمته وأهليته ولده بالتقليد وترك النظر ، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عاينه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لثله أن يأمر به .

واعلم أنه قد أوصاه إذا هم بالشروع في النظر بمحض ما ذكره المتكلمون ، وذلك أمور :

منها أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده .

ومنها أن يطلب المطلوب النظري بتفهّم وتعلم ؛ لا بجدال ومغالبة ومراء ومخاصمة .

ومنها أطراح المصيبة لمذهب بعينه ، والتورط في الشبهات التي يحاول بها نصرة ذلك المذهب .

ومنها ترك الإلّف والعادة ، ونصرة أمر يطلب به الرئاسة ؛ وهو المعنى بالشوائب التي توجب في الضلال .

ومنها أن يكون صافي القلب ، مجتمع الفكر ، غير مشغول السرّ بأمر من جوع

[أو شيع] ^(١) أو شبق أو غضب ؛ ولا يكون ذا هموم كثيرة ، وأفكار موزعة مقسمة ؛ بل يكون فكره وهمه هما واحداً .

قال : فإذا اجتمع لك كل ذلك فانظر ، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالناقة العشواء الخابطة لا تهتدى ، وكمن يتورط في الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه ! وليس طالب الدين من كان خابطاً أو خالطاً ، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل .

الأصل :

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِي هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِيَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ وَالْإِبْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْعَمَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عَلِمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَصِلُ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

الشرح :

قد تعلق بهذه اللفظة وهو قوله : « أو ماشاء مما لا تعلم » ، قوم من التناسخية ؛ وقالوا : المعنى بها الجزء في الهياكل التي تنتقل النفوس إليها . وليس ما قالوه بظاهر ، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازي المذنب في الدنيا بنوع من العقوبة ، كالأسقام والفقر وغيرهما ، والعقاب وإن كان [مفعولاً] ^(٢) على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو الباري

(١) من د د . (٢) من د .

أن يقتصر منه على الإيلام فقط ، لأنّ الجميع حقّه ، فله أن يستوفى البعض ويسقط البعض ، وقد روى « أو بما شاء » بالباء الزائدة ، « وروى بما لا يعلم » . وأما^(١) الثواب فلا يجوز أن يجازى به المحسن في الدنيا ، لأنه على صفة لا يمكن أن تجتمع^(٢) التكليف ، فيحمل لفظ الجزء على جزاء العقاب خاصة .

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى ، فقال : وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقدر ، وهو كون الكافر مخصوصا بالنعماء والمؤمن مخصوصا بضرب من الابتلاء ، وكون الجزء قد يكون في المعاد ، وقد يكون في غير المعاد ، فلا تقدح جهالتك به في سكون قلبك إلى ما عرفتك جلته ، وهو أنّ الله تعالى هو الحي المميت ، المغي المعيد ، البتلي المعافي ، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام ، وأنهما لمصالح وأمر يستأثر الله تعالى بهما ، وأنه يجازى عباده إما في الآخرة أو غير الآخرة ، على حسب ما يريد ويختاره . ثم قال له : إنّما خلقت في مبدأ خلقتك جاهلا ، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها ، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة ، ومتاعب شديد ، فمن خلق جاهلا حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحابا للأصل .

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيجاشه ، فقال له : وعساك إذا جهلت شيئا من ذلك أن تعلمه فيما بعد ، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحير فيه ، ثم تبصره وتعرفه ! وهذا من الطب^(٣) اللطيف ، والرقي الناجعة ، والسحر الحلال .

(٢) ب : « يجتمع » ، وما أثبتته من أ .

(١) أ : « فأما » .

(٣) الطب : المعالجة .

الأصل :

فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغَبَتُكَ ، وَمِنْهُ شُفَعَتُكَ .

وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَأَرْضَ بِهِ رَأْيِدًا ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّي لَمْ آلِكَ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ، وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ .

الشرح :

عاد إلى أمره باتباع الرسول صلى الله عليه وآله ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب ، وقال له : إنَّ أحدًا لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله ؛ وصدق عليه السلام ! فإنَّ التوراة والإنجيل وغيرها من كتب أنبياء بني إسرائيل لم تتضمن من الأمور الإلهية ما تضمنه القرآن ، وخصوصا في أمر المعاد ؛ فإنه في أحد الكتابين مسكوت عنه ، وفي الآخر مذکور ذكرًا مضطربا ، والذي كشف هذا القناع في هذا المعنى ، وصرح بالأمر هو القرآن . ثم ذكر له أنه أنصح له من كل أحد ؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد في النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له ، لشدة حبه له وإيثاره مصلحته . وقوله : « لم آلك نصحا » لم أقصر في نصحك ، إلى الرجل في كذائالو ، أى قصر فهو آل والفعل لازم ، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه ، وكان أصله : لا آلو لك نصحا ونصحا ، منصوب على التمييز ، وليس كما قاله الراوندى إن انتصابه على أنه مفعول ثان ، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدى ، فكيف إلى اثنين !

ويقول هذه امرأة آتية أى مقصرة وجمعها أول ، وفي المثل : « إلا حظية فلا آتية » ،
أصله فى المرأة تصانف عند بعلمها ، فتوصى حيث فاتمها الخطوة ألا تألوه فى التودد إليه
والتعجب إلى قابله .

قوله : « ومنه شفقتك » ، أى خوفك .

ورائد : أصله الرجل يتقدم القوم فيرتاد بهم الرعى .

الأصل :

واعلم يا بنى أنه لو كان ربك شريكاً لأنتك رسله ، ولرايت آثار ملكه
وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده
فى ملكه أحد ، ولا يزول أبدا ولم يزل ، أول قبل الأشياء بلا أولية ، وآخر
بعد الأشياء بلا نهاية ، عظم أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصير .
فإذا عرفت ذلك فافهم كما ينبغي لمثلك أن يفعله فى صغير خطره ، وقلة
مقدريته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته إلى ربه ، فى طلب طاعته ، والهيبة
من عقوبته ، والخشية من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فإنه لم يأمرك
إلا بحسن ، ولم ينهك إلا عن قبيح .

الشرح :

يمكن أن يستدل بهذا الكلام على نى الثانى من وجهين :
أحدهما أنه لو كان فى الوجود ثان للبارئ تعالى لما كان القول بالوحدانية حقاً ،
بل كان الحق هو القول بالثنائية ، ومحال ألا يكون ذلك الثانى حكماً ، ولو كان الحق هو

إثبات ثانٍ حَكِيم لوجب أن يبعث رسولا يدعُو المكلفين إلى التثنية ، لأنّ الأنبياء كلهم دعوا إلى التوحيد ، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ ، فيجب على الثانى الحكيم أن يبعث من يذّبه المكلفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثانى ، وإلا كان منسوباً إلى إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلفين ، وذلك لا يجوز ؛ ولكننا ما أتاننا رسول يدعُو إلى إثبات ثانٍ فى الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً ، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقاً ؛ فنتقيضه وهو القول بإثبات الثانى باطل .

الوجه الثانى : أنه لو كان فى الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته ، إمّا من مجرد أفعاله ، أو من صفات أفعاله ، أو من صفات نفسه ، أولاً من هذا ولا من هذا ، فمن التوقيف .

وهذه هى الأقسام التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام ؛ لأنّ قوله : « أتتكَ رسله » هو التوقيف ، وقوله : « ولأيت آثار ملكه وسلطانه » ، هى صفات أفعاله ، وقوله : « ولعرفت أفعاله وصفاته » هما القسمان الآخران .

أما إثبات الثانى من مجرد الفعل فباطل ؛ لأنّ الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات أفعاله وهى كون أفعاله محكمة متقنة ، فإنّ الإحكام الذى نشاهده إنّما يدلّ على عالم ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات ذات البارىّ فالعلم بها فرع على العلم بذاته ، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور .

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثانى ؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها ، وقد ثبت أن مالا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثانى .

ثم قال : « لا يضافه فى مُلكه أحد » ليس يريد بالصدّ ما يريده المتكلمون من نفي ذات هى معاكسة لذات البارىّ تعالى فى صفاتها ، كمضادّة السواد للبياض ، بل مراده نفي الثانى لا غير ، فإنّ نفي الصدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام .

ثم ذكر له أنّ البارئ تعالى قديم سابق للأشياء ، لا سبقاً له حدّ محدود ، وأول معين ، بل لا أول له مطلقاً .

ثم قال : وهو مع هذا آخر الأشياء ، آخريّة مطلقة ليس تنتهي إلى غاية معينة .
ثم ذكر أنّ له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول .
وقد سبق ممّا خوض في هذا المعنى ، ودكرنا من نظمنا في هذا النمط أشياء لطيفة ،
ونحن نذكرها هنا من نظمنا أيضاً في هذا المعنى ، وفي فننا الذي اشتهرنا به ، وهو المناجاة
والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك ، فمن ذاك قولي :

فَلَا وَاللَّهِ مَا وَصَلَ ابْنُ سَبْنَا	وَلَا أَغْنَىٰ ذَكَاهُ أَبِي الْحُسَيْنِ
وَلَا رَجَعَا بِشَيْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ	وَتَدَقَّقِ سَوَىٰ خُفَىٰ حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلَابَكُمْ وَلَكِنْ	يَحُولُ الْوَقْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي
فَهَلْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ أَحْطَىٰ	بِوَصْلِكُمْ غَدًا وَتَقَرَّ عَيْنِي !
مَتَىٰ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا وَكَانَتْ	نُسُوفُنَا بِصَدَقٍ أَوْ بَمِنْ
فَإِنْ أَكْثَدْتُ فِذَاكَ ضِيَاعُ دِينِي	وَإِنْ أَجَدْتُ فِذَاكَ حُلُولُ دِينِي (١)

ومنها :

أَمْوَالِي قَدْ أَحْرَقَتْ قُلُوبِي فَلَا تَسْكُنُ	غَدًا مَحْرُفًا بِالنَّارِ مَنْ كَانَ يَهْوَاكَ
أَتَجْمَعُ لِي نَارَيْنِ : نَارَ مَحَبَّةٍ	وَنَارَ عَذَابٍ أَنْتَ أَرْحَمُ مِنْ ذَاكَ !

ومنها :

قَوْمَ مُوسَىٰ تَاهُوا سَنِينَ كَمَا قَدْ	حَاءَ فِي النَّصِّ قَدْرَهَا أَرْبَعُونَ (٢)
وَلِيَ الْيَوْمَ تَائِهًا فِي جَوَىٰ مِنْ	لَا أَسْمَىٰ وَجِبُّهُ خَمْسُونَ
قُلْ لِأَحْبَابِنَا إِلَّا مَ نَزُومُ أَلْ	وَصَلَ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونَا

(١) : « أجذب » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » (الأعراف : ١٤٢)

كم نناجيكمُ فلا ترشدونا ونناديكمُ فلا تسمعونا !
 حسبنا علمكم بأننا مواليكمُ وإن كنتم لنا كارهينا
 فعسى تدرك السعادة أرباب الدعا فيصبحوا فائزين !
 ومنها :

والله ما آسى من الدنيا على
 بل في صميم القلب منى حسرة
 إني أراك بباطني لا ظاهري
 يا من سهرت مفكراً في أمره
 فرجعت أحق من نعمة بيهيس
 مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانٍ
 تبقى معنى وتلف في أكتافى
 فالحسن مشكاة عن العرفان
 خمسين حولاً دائماً الجولان
 وأضل سعيًا من أبى غبشان
 ومنها :

وحقك إن أدخلتني النار قلتُ لله — ذين بها قد كنت ممن أحبه
 وأفنيت عمري في علومٍ دقيقة وما بقيت إلا رضاه وقربه
 هبوني مسيئاً أو تسخ الخلم جهله وأوبقه بين البرية ذنبه^(١)
 أما يقتضى شرع التكرم عتقه أيحسن أن ينسى هواه وحبّه !
 أما كان ينوى الحق فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبه !
 أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكه وإلخاده إذ جلّ في الدين خطبه !
 أما قلتم من كان فينا مجاهدا سيكرم مثواه ويغذب شربه !
 ونهديه سبلاً من هدايا جهاده ويدخله خير المداخل كسبه !
 فأى اجتهاد فوق ما كان صانعاً وقد أحرقت زرق الشياطين شهبه !
 وما نال قلب الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبه !

(١) كذا في أ، ب، وفي د: « أرتع » .

فإن تصنعوا ينعم وإن تتجرّموا فتعذّبوا
فإن تصنعوا ينعم وإن تتجرّموا فتعذّبوا
آية صدق العتب أن يعذب الأذى إذ كان من يهوى عليه يصبّه

ومنها :

إذا فكرت فيك يحار عقلي وألحق بالمجانين الكبار
وأصحو تارة فيشوب ذهني ويقح خاطري كسواظ نار
فيا من تاهت العقلاء فيه فأمسوا كلهم صرعى عقار
ويا من كالت الأفكار عنه فآبت بالمتاعب والخسار
ويا من ليس يعلمه نبي ولا ملك ولا يدره دار
ويا من ليس قدّاماً وخلفاً ولا جهة اليمين ولا اليسار
ولا فوق السماء ولا تدلى من الأرضين في لجج البحار
ويا من أمره من ذاك أجلي من ابن ذكاء أو صبح النهار
سألتك باسمك المكتوم إلا فككت النفس من رق الإسار
وجدت لها بما تهوى فأت العليم بياطن الغز الضمار

ومنها :

يارب إنك عالم بحبتي لك واجتهادي
وتجرّدي للذنب عنك على مُراغمة الأعداي
بالمعدل والتوحيد أصدع معلناً في كل ناري
وكشفت زيف ابن الخطيب ولبسه بين العباد
ونقضت سائر ما بنا ه من الضلالة والفساد

وأبنت عن إغوائه في دين أحمد ذى الرشد
وجعلت أوجه ناصريه محمات بالسواد
وكففت من غلوائهم بعد الترد والعدا
فكأننا نخل الرما د عليهم بعد الرما
وقصدت وجهك أبتنى حسن الثوبة في الماد
فأفض على العبد الفقير إليكم نور السداد
وارزقه قبل الموت معرفة المصائر والمبادئ
وافلك أسير الحرص بالأصناف من أسر الصماد
واغسل بصفو القرب من أبوابكم كدر البعاد
وأعضه من حر الغليل بوصلكم برّد الفؤاد
وارحم عيوننا فيك ها مية وقلبا فيك صاد
ياساطح الأرض لها د وممسك السبع الشداد

الأصل :

يَا بَنِيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ
الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَتَعَبَّرَ بِهَا، وَتَتَّخِذَ عَلَيْهَا.
إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا نَبَأَ بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيدٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا
خَصِييًا، وَجَنَابًا مَرِيًا، فَاحْتَمَلُوا وَعَثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفَرَّاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ،
وَجُشُونَةَ الطَّعْمِ؛ لِيَأْتُوا سَمَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لَشَيْءٍ مِنْ
ذَلِكَ أَلَمًا، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا. وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ

وَأَذْنَاهُمْ إِلَىٰ مَحَلَّتِهِمْ .

وَمَثَلُ مَنْ أَغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا يَنْزِلُ خَصِيبٍ ، فَنَبَأَ بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ ،
فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْظَعُ عِنْدَهُمْ ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ ؛ إِلَىٰ مَا
يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ .

الشَّيْخُ :

حذا عليه يحذو ، واحتذى مثاله ، يحتذى ، أى اقتدى به . وقوم سَفَر ، بالتسكين ،
أى مسافرون .

وأَمْثُوا : قصدوا . والمنزل الجديد : ضدّ المنزل الخصب .

والجَنَاب المَرِيع بفتح الميم : ذو الكلاء والعشب ، وقد مرّع الوادى ، بالضم .

والجَنَاب : الفناء . ووَعَثَاء الطريق : مشقتها .

وجُشُوبَةُ المَطْعَم : غِلْظُهُ ، طعام جَشِيبٍ وَجَشُوبٍ ، ويقال إنه الذى لا أَدَمَ^(١) معه .

يقول : مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة ، كمن سافر من منزل جذب إلى منزل
خصيب ، فلقى فى طريقه مشقة ؛ فإنه لا يكثر بذلك فى جنب ما يطلب ؛ وبالعكس من
عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة ، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضنك ويهجر منزلا
رحيبا طيبا ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجْنُ المؤمن
وجنة الكافر » .

(١) الأدم : ما يؤتمد به .

الأخلاق :

يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِنَفْسِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ،
وَاصْرَفْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ
يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا
تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ
يُقَالَ لَكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ؛ فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ
خَازِنًا لِنَفْسِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدَيْتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ .

الشيخ :

جاء في الحديث المرفوع : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ،
وَيَكْرَهُ لِأَخِيهِ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ » . وقال بعض الأسارى لبعض الملوك : افعل معي ما تحبُّ أن
يفعل الله معك ؛ فأطلقه ؛ وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ
أَنْ تُظْلَمَ » .

وقوله : « وَأَحْسِنْ » من قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .
وقوله : « وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ » ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقال : أَنْ تَسْتَقْبِحَ مِنْ
نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ . وروى : « وَارْضَ مِنَ النَّاسِ لَكَ » وهي أحسن .
وأما المُعْجَبُ وما ورد في ذمه فقد قدمنا فيه قولاً مقنعاً .

قوله عليه السلام : « واسع في كدحك » أى أذهب ما اكتسبت بالإتفاق ؛ والكدح هاهنا : هو المال الذى كدح فى حصوله ، والسعى فيه إتفاقه ؛ ، وهذه كلمة فصيحة ، وقد تقدم نظائر قوله : « ولا تكن خازنا لغربك » .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هداه لرشده ، وذلك لأنّ هدايته إياه إلى
 رشده نعمة عظيمة منه ، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

الأصل :

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بِسَيِّدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَنْتَهُ لَا غِنَى بكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ ، وَقَدَّرَ بِلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَائِفَتِكَ ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُؤَا فَيْكَ بِهِ عَدًّا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاعْتَنِمَهُ وَحَمَلْنَهُ إِيَّاهُ ، وَأَكْثَرَ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا تَطَلَّبَهُ فَلَا تَحِدُهُ .

وَاعْتَمِدْتُمْ مَن اسْتَقَرَّ رُكْنُكَ فِي حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْمَلَ قَضَاءُكَ فِي يَوْمٍ عُسْرَتِكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمْلَكَ عَقَبَةَ كَمْوَدًا، أُمِخِفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنْ الْمُتَقِلِّ، وَالْمُبْطِئِ
عَلَيْهَا أَفْجَحُ أَمْرًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهِيضَهَا بِكَ لَا مَحَالَةَ؛ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى
نَارٍ، فَارْتَدَّ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوُطِّئَ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ
مُسْتَعْتَبٌ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

* * *

البُخ :

أمره في هذا الفصل بإتفاق المال والصدقة والمعروف . ففتان ؛ إن بين يديك طريقا بعيد المسافة ، شديد المشقة ، ومن سلك طريقا فلا غنى له عن أن يرتاد لنفسه، ويتزود من الزاد قدر ما يبلغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك ؛ فإياك أن تحمل من المال ما يثقلك ؛ ويكون وبالا عليك ؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين من يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمّله إياه ، فلكمك تطلب مالك فلا تجده . جاء في الحديث المرفوع : « خمس من أتى الله بهنّ أو بواحدة منهنّ أوجب له الجنة : من سقى هامةً صاديةً ، أو أطعم كبدًا هافيةً ، أو كسا جلدة عاريةً ، أو حمل قدما حافيةً ، أو أعتق رقبة عانية » .

قيل لحاتم الأصمّ : لو قرأت لنا شيئا من القرآن ! قال : نعم ؛ فاندفع فقرا : ﴿ أَلَمْ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ يَكُونُونَ ^(١) ، فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أنزل ! قال : صدقتم ؛ ولكن هكذا أنتم !

الأفضل :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أُذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ ، وَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ ، وَتَسْتَرحَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مِنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُجِثْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ،

(١) سورة البقرة ١ - ٣ ، والقراءة : « وما رزقناهم ينفقون » .

وَلَمْ يَمْنَعَكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُمَاجِلِكَ بِالنَّقْمَةِ ، وَلَمْ يَنْصَحَكَ حَيْثُ
تَمَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشَكَ بِالْجَرِيَمَةِ ،
وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَمَلَ نَزْوَعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ
وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا . وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الْإِسْتِمْتَابِ ؛
فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِمَحَاجَّتِكَ ،
وَأَبْشَرْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَّوْتَ إِلَيْهِ هُومَكَ ، وَاسْتَكْسَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَمَنَنْتَهُ
عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ ، مِنْ زِيَادَةِ
الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ .

ثُمَّ جَمَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ؛ فَمَتَّى
شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِاللُّدْعَاءِ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَاسْتَمَطَرْتَ شَايِبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقْنِطُكَ
إِطْأَهُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ
ذَلِكَ أَكْثَرَ لَأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعِطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُعْطَاهُ ،
وَأُوْتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ
قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينُكَ لَوْ أُوْتِيتَهُ ، فَلَتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَهْلًا ،
وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

البُخ :

قد تقدم القول في الدعاء .

قوله : « بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة » ، هذا متفق عليه بين أصحابنا ، وهو

أن تارك القبيح لأنه قبيح يستحق الثواب .

قوله : « حسب سيئتك واحدة وحسب حسناتك عشرة » ؛ هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَآهْ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (١) .

قوله : « وأثبتته ذات نفسك » ، أى حاجتك .

ثم ذكر له وجوها فى سبب إبطاء الإجابة :

منها أن ذلك أمر عائد إلى النية ، فلعلها لم تكن خالصة .

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل ؛ لأن الثواب على قدر المشقة .

ومنها أنه ربما أخرت ليعطى السائل خيراً مما سأل ، إما عاجلاً أو آجلاً ؛

أو فى الحالين .

ومنها أنه ربما صرف ذلك عن السائل ، لأن فى إعطائه إيّاه مفسدة فى الدين .

قوله : « فلما لا يبق لك ولا تبقى له » ، لفظ شريف فصيح ، ومعنى صادق محقق

فيه عظة بالغة ؛ وقال أبو الطيب :

أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأَكْسَرَةُ الْأُلَى كُنُوزُ الْكُنُوزِ فَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا (٢)

ويروى : « من يحجبه عنك » .

وروى : « حيث الفضيحة » أى حيث الفضيحة موجودة منك .

واعلم أن فى قوله : « قد أذن لك فى الدعاء » ، وتكفل لك بالإجابة » إشارة إلى قوله

تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْكُمْ ﴾ (٣) .

وفى قوله : « وأمر أن تسأله ليعطيك » إشارة إلى قوله : ﴿ واسألوا الله مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤)

(١) سورة الأنعام ١٦٠ . (٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ .

(٣) سورة غافر ٦٠ . (٤) سورة النساء ٣٢ .

وفي قوله : « وتسترحه ليرحمك » إشارة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

وفي قوله : « ولم يمنحك إن أسأت من التوبة » إشارة إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢) .

الأفضل :

وَاعْلَمُوا يَا بَنِي آدَمَ أَنَّكُمْ إِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ؛ وَأَنَّكُمْ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْعَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَأَنَّكُمْ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ، وَلَا يَقْوَاهُ طَائِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بَنِي آدَمَ ، أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا سَهَجُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بِعَدَمِ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ نَعْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُفِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَأَكَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَلَعَنَّكَ لَكَ نَفْسُهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاحٌ ضَارِيَةٌ ، يَهْرُ بِمَعْضَاهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَيَأْكُلُ عَزِيرُهَا دَلِيلَهَا ، وَيَقْمَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا .

نَعَمْ مُعْقَلَةٌ ، وَآخَرَى مُهَمَّاتٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ بَجْهُولَهَا .
 سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعَثٍ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ
 بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْمَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ،
 وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَمَبِتْ بِهِمْ وَلَبَّاهُا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .
 رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَانَ قَدْ وَرَدَتْ الْأَطْعَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ
 أَنْ يَلْحَقَ !

الشَّرْحُ :

يقول : هذا منزل قُلْمَةٌ ؛ بضم القاف وسكون اللام ؛ أى ليس بمستوطن ؛ ويقال :
 هذا مجلس قُلْمَةٌ ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . ويقال أيضا :
 هم على قُلْمَةٍ ، أى على رِخْلَةٍ ، والقُلْمَةُ أيضا : هو المال العارية ، وفي الحديث : « بُئسَ المالُ
 القُلْمَةُ » ؛ وكلُّه يرجع إلى معنى واحد .
 قوله : « ودار بلغم » ، والبلغم : ما يتبلغم به من العيش .
 قوله : « سروح عاهة » ، والسروح : جمع سَرَح ؛ وهو المال السارح . والعاهة :
 الآفة ؛ أعاد القومُ أصابت ماشيتهم العاهة :
 ووادٍ وَعَثٌ : لا يثبت الحافرُ وأُخْفَتْ فيه ؛ بل يغيب فيه ، ويشقّ على مَنْ
 يمشى فيه .

وأوعث القوم : وقعوا في الوعث .

ومسيم يُسِيمُهَا : راعٍ يرعاها .

قوله : « رويدا يسفر الظلام . . . » إلى آخر الفصل ، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده

استعداد . واستقرّ أني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حدثت هذه الوصية فقرأتها عليه من حفظي ، فلما وصلتُ إلى هذا الموضع صاح صيحة شديده ، وسقط - وكان جبّاراً قاسى القلب .

* * *

[أقوال حكيمة في وصف الدنيا وفناء الخلق]

واعلم أنا قدّمنا في وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء ، ونذكر الآن أشياء أخر .

فن كلام الحسن البصريّ : يا بن آدم ، إنّما أنت أيام مجموعة ، فإذا مضى يوم مضى بمضك .

عن بعض الحكماء : رحم الله أمراً لا يفرّه ما يرى من كثرة الناس ، فإنه يموت وحده ، ويقرّب وحده ، ويحاسب وحده .

وقال بعضهم : لا وجه لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشيء من متاعها ، ولا التخلّي منها ، أمّا ترك الاهتمام لها ، فمن جهة أنّه لا سبيل إلى دفع الكائن من مقدورها ؛ وأمّا ترك الاعتداد بها ؛ فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها ، وأمّا ترك التخلّي عنها فإنّ الآخرة لا تدرك إلّا بها .

ومن كلام بعض الحكماء : أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة ، وأعرض به عن الدنيا ؛ وقد تقدّمت الحجة وأدّنا بالرحيل ، ولنا من الدنيا على الدّنيا دليل ؛ وإنّما أحدنا في مدّة بقاءه صريع لمرض ، أو مكتئب بهنّ ، أو مطروق بمصيبة ، أو مترقب لخوف ، لا يأمن المرء أصناف لذّة من الطعام والمشروب أن يكون موته فيه ، ولا يأمن مملوكه

وجاريتنه أن يقتلاه بحديد أو سمّ ؛ وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال ،
وسمعه من صمّم ، وبصره من عمى ، ولسانه من خرّس ، وسائر جوارحه من زمانة ، ونفسه
من تكلف ، وماله من بوارٍ ، وحبيبه من فراق ؛ وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعية أنه فقير
إلى ربّه ، ذليل في قبضته ، محتاج إليه . لا يزال المرء بجحر ما حاسب نفسه ، وعمر آخرته
بتخريب دنياه ؛ وإذا اعترضته بحار المسكاره ، جعل معارها الصبر والتأسي ، ولم يفتّر بتتابع
التعم ، وإبطاء حلول النقم ، وأدام صحبة التقي ؛ وفطم النفس عن الهوى ؛ فإنما حياته كبضاعة
ينفق من رأس المال منها ؛ ولا يمكنه أن يزيد فيها ؛ ومثّل ذلك يوشك فناؤه
وسرعة زواله .

وقال أبو العتاهية في ذكر الموت :

ستبأشر التّرباء خدّك	وسيضحك الباكون بعدك ^(١)
وليزلنّ بك البلى	وليخلفنّ الموت عهدك
وليفنينك مثل ما ^(٢)	أفنى أباك بلى وجدك ^(٣)
لو قد رحلت عن القُصو	روطيهها وسكنت لحّدك ^(٤)
لم تنتفع إلّا بفع	ل صالح قد كان عندك

(١) ديوانه ٨٦ ، ٨٧ ، والترباء : التراب ، ورواية الديوان :

* لتبأشرُ الأجداثُ وحّدك *

(٢) الديوان : « بالدى » .

(٣) الديوان : « به وجدك » .

(٤) الديوان :

لو قد طمّنت عن البيو ت ودوحيها وسكنت لحّدك

وترى الذين قسمت ما لك بينهم حصصا وكذك^(١)
يتلذذون بما جمعتم لهم ولا يجدون فقدك

الأصل :

وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، فَإِنَّهُ يُسَارِبُهُ وَإِنْ كَانَ
وَاقِعًا ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَإِدْعَا .
وَأَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلٍ مَنْ كَانَ
قَبْلَكَ .

فَخَفِضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُسْتَسْبِ ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ؛
وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ .

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَرَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاظَ
بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عَوَظًا . وَلَا تَكُنْ عَبْدًا غَيْرَكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ
خَيْرٍ لَا يُنَالُ^(٢) إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُرْجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَاكَةِ . وَإِنْ اسْتَطَعْتَ
أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَاغْمِضْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قَسَمِكَ ، وَآخِذُ سَهْمِكَ ،
وَإِنَّ الْيُسْرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ
كُلُّ مَنْهُ .

(١) الديوان د

وكان جمعك قد غدا ما بينهم حصصاً وكذك

(٢) د : لا يوجد .

الشَّنْخ :

مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء - وقد نسب أيضا إلى أمير المؤمنين عليه السلام:
أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام .

قوله : « نَفَضْنِي فِي الطَّلَب » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّ رُوحَ
الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُؤُوسِنَا أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » .
وقال الشاعر :

ما اعتاضَ بأذُنٍ وجهه بِسؤاله عَوَضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسؤالِ
وَإِذَا النَّوَالُ إِلَى السُّؤالِ قَرْنَتْهُ ^(١) رَجَعَ السُّؤالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ

وقال آخر :

رَدَدْتُ رَوْنِقَ وَجْهِي عَنْ صَحِيفَتِهِ رَدَّ الصَّقَالُ بِهَاءِ الصَّارِمِ الْخُذْمِ ^(٢)
وَمَا أَبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ حَقَّتْ لِي مَاءُ وَجْهِي أَمْ حَقَّتْ دُمِي

وقال آخر :

وَإِنِّي لِأَخْتَارَ الزَّهِيدِ عَلَى الْغِنَى وَأَجْزَأُ بِالْمَالِ الْقَرَّاحِ عَنْ الْحُضْرِ
وَأَدْرِيعُ الْإِمْلَاقَ طَبْرًا وَقَدْ أَرَى مَكَانَ الْغِنَى كَيْ لَا أَهِينَ لَهُ عِرْضِي
وقال أبو محمد الزيدى في المأمون :

أَبْقَى لَنَا اللَّهُ الْإِمَامَ وَزَادَهُ شَرَفًا إِلَى الشَّرَفِ الَّذِي أُعْطَاهُ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِأَنَا مَعِشَرِ عُتَقَاءَ مَنْ رَعِمَ الْعِبَادَ سِوَاهُ

وقال آخر .

كَيْفَ النُّهْوضُ بَمَا أُؤَلِّيتَ مِنْ حَسَنِ أَمْ كَيْفَ أَشْكُرُ مَا طَوَّقْتَ مِنْ رَعْمِ !

(١) د : « وزنته » . (٢) الخدم : الغاطم .

ملكتني ماء وجهه كاد يسكبُه ذلّ السؤال ولم تفجع به همي
وقال آخر :

لا تحرصنّ على الحطام فإئما يأتيك رزقك حين يؤذنّ فيه
سبّق القضاء بقدره وزمانه وبأنّه يأتيك أو يأتيه
وكان يقال : ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه .

وقال رجل في مجلس فيه قوم من أهل العلم : لا أدري ما يحمل من يوقن بالقدر على
الحرص على طلب الرزق ! فقال له أحد الحاضرين : يحمله القدر ، فسكت .
أقول : لو كنت حاضرا لقلت : لو حمله القدر لما نهى العقلاء عن الحرص ، ولما مدحوه
على العفة والقناعة فإن عاد وقال : وأولئك ألجأهم القدر إلى المدح والذم والأمر والذهي ؟
فقد جعل نفسه وغيره من الناس ؛ بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التي يحرّكها
غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم
وقال الشاعر :

أراك تزيدك الأيام حرصاً على الدنيا كأنك لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً إليها قلت حسبي قد رضيتُ !
أبو العتاهية :

أىّ عيش يكون أطيبَ من عيٍّ يش كفافٍ قوت بقدر البلاغ^(١)
قررتني الأيام عقلى ومالى وشبابي وصحّتي وفراغى^(٢)
وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه :

(١) ديوانه ١٦٤ ، والأغاني ٤ : ٤٠ والبلاغ : الكفاية .

(٢) الديوان والأغاني : « غبنتي الأيام » .

كُنْ حَسَنَ الظَّنِّ بِرَبِّ خَلَقَكَ بَنَى وَاحِدُهُ عَلَى مَا رَزَقَكَ
واعلم بأنَّ الحرص يطغى رونقك فجانِبِ الحرص وحسن خلقك
واصدق وصادق أبداً مَنْ صدقك دارِ مُعاديكَ ومُقْ مِنْ وَمَقِّكَ
واجمل لأعدائك حزماً مَلَقَكَ وجَنِّبْ حَشْوَ الكلام منطقتك
هذى وصاة والد قد عَشَقَكَ وصاة مَنْ يَقلقه ما أَقلَقَكَ
* أرشدك الله لها ووفقك *

أبو المتاهية :

أَجَلُ الْغنى مِمَّا يُؤَمِّلُ أَسْرَعُ وأراك تَجْمَعُ دَائِماً لَا تَشْبَعُ^(١)
قل لى لمن أصبحتَ تَجْمَعُ دَائِباً^(٢) أَلَيْسَ عِرْسِيكَ لَا أَبَاكَ تَجْمَعُ !
وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته ، فقال : لا تَدْنَسَنَّ عِرْضَكَ ، ولا تَبْذُلَنَّ وَجْهَكَ ،
ولا تَخْلُقَنَّ جَدَّتَكَ بِالطَّلَبِ إِلَى مَنْ إِنْ رَدَّكَ كَانَ رَدُّهُ عَلَيْكَ عَيْباً ، وإن قَضَى حاجتك
جعلها عليك مَنّاً ، واحْتَمِلِ الْفقر بِالتَّزَنُّهِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ^(٣) ، والزَّمِ الْقنَاعَةَ بِمَا قُسِمَ لَكَ ،
فإن سوء عمل الْفَقير يضع الشَّرِيفَ ، ويخْملُ الدُّكْرَ ، ويوجبُ الْحَرَمَانَ .

الأضل :

وَتَلَايِكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكَكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ،
وَحَفِظْتُ مَا فِي الْوَعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحَفِظْتُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيَّ
غَيْرِكَ ، وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْجِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ
الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ ، وَرُبَّ سَاعِرٍ فِيمَا يَضُرُّهُ !

(١) ديوانه ١٤٤ . (٢) الديوان : « تجمَعُ ما » .

(٣) د « عما في يدي غيك » .

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ .
 قَارِنُ أَهْلِ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وَبَارِنُ أَهْلِ الشَّرِّ تَبْنِ عَنْهُمْ .
 يَبْسُ الطَّعَامُ الْحَرَامُ ! وَظُلُمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ !
 إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ خُرْقًا ، كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا .
 رَبُّمَا كَانَ السِّدَّوَاهِ دَاءٌ ، وَالذَّاءُ دَوَاءٌ . وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ ،
 وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ .
 وَإِيَّاكَ وَالْإِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى . وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ ،
 وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ . بِادِرِ الْفُرْصَةَ ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ
 يُصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَثُوبُ ، وَمِنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ . وَلِكُلِّ
 أَمْرٍ عَاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ .
 النَّجَارُ مُخَاطِرٌ ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أُنْمَى مِنْ كَثِيرٍ !

الْبَرْخُ:

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكمية .
 أولها قوله : « تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقتك » ،
 وهذا مثل قولهم : أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ، ولست بتقادر على أن تجعل كلامك
 صمتاً ؛ وهذا حق ؛ لأن الكلام يُسمع وينقل ؛ فلا يستطيع إعادته صمتاً ، والصمت عدم
 الكلام ، فالتقادر على الكلام قادر على أن يبدله بالكلام ، وليس الصمت بمنقول
 ولا مسموع فيتمدّر استدراكه .

وثانيها قوله : « حفظ مافي يدَيْكَ أحبّ إلىّ من طلب مافي أيدي غيرك » ، هذا
مثل قولهم في المثل : البخل خير من سؤال البخيل ، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام
وصايته بالإسكاف والبخل ، بل نهيه عن التفريط والتبذير ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾^(١) ؛ وأحقّ الناس مَنْ أضاع ماله اتسكالا على مال
الناس ، وذاً أنّه يقدر على الاستخلاف ، قال الشاعر :

إذا حَدَّثْتُكَ النفسُ أَنَّكَ قادرٌ على ما حوت أيدي الرجال فكذب

وثالثها قوله : « مرارة اليأس خير من الطلأ إلى الناس » ، من هذا أخذ الشاعر
قوله :

وإن كان طعم اليأس مُرّاً فَإِنَّهُ أَلَذُّ وَأَخْلَى من سؤال الأراذل
وقال البُحتري :

واليأس إحدى راحتين ولنْ تَرَى تَعَباً كظنِّ الخائب المفرور^(٢)

ورابعها قوله : « الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور » ، والحرفة بالكسر مثل
الحرف بالضم ، وهو نقصان الحظ وعدم المال . ومنه قوله « رجل محارَف » ، بفتح الراء ،
يقول : لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرج واليد ، خير من الغنى مع الفجور ؛
وذلك لأن ألم الحرفة مع العفة ومشقتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر ، ولذة الغنى
إذا كان مع الفجور ، ففي مثل تلك الأيام يكون ؛ ولكن يستعقب عذابا طويلا ، فالحال
الأولى خيرٌ لا محالة . وأيضا ففي الدنيا خير أيضا للذكر الجليل فيها ، والذكر القبيح في
الثانية ، وللمحافظة على المروءة في الأولى وسقوط المروءة في الثانية .

وخامسها قوله : « المرء أحفظ لسرّه » أى الأولى ألا تبوح بسرّك إلى أحد ، فأت أحفظ له من غيرك ؛ فإن أذعته فانتشر فلا تلمّ إلا نفسك ، لأنك كنت عاجزا عن حفظ سرّ نفسك ، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبي أعجز ، قال الشاعر :

إذا ضاق صدْرُ المرء عن حفظ سرِّه فصدْرُ الذى يُستودع السرَّ أضيقُ

وسادسها قوله : « ربّ ساع فيما يضرّه » ، قال عبد الحميد الكاتب فى كتابه إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالئمة صلاحًا ، لما أنبت لها جناحا .

وسابعها قوله : « من أكثر أجهر » يقال : أجهر الرجل ؛ إذا أخس فى النطق السوء والخبث ، قال الشماخ :

كجاجة الأعراق قال ابن ضرة عليها كلاما جار فيه وأهجر^(١)

وهذا مثل قولهم : من أكثر كلامه كثر سقطه . وقالوا أيضا : فلما سلّم مكثار ، أو أمن من عثار .

وثامنها قوله : « من تفكّر أبصر » ؛ قالت الحكماء : الفكر تحديق العقل نحو المعقول ، كما أن النظر البصرى تحديق البصر نحو المحسوس ، وكما أن من حدّق نحو البصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لابد أن يبصره ؛ كذلك من نظر بعين عقله ، وأفكر ففكرا صحيحا ، لابد أن يدرك الأمر الذى فكّر فيه ويناله .

وتاسمها قوله : « قارن أهل الخير تكن معهم ، وبإين أهل الشرّ تبين عنهم » ، كان يقال : حاجبك وجهك ، وكاتبك لسانك ، وجليستك كلّك . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن مُقتد

(١) ديوانه ٢٨ ، وروايته : « مجدة الأعراق . وابن ضرتها : ابن زوجها .

وعاشرها قوله : « بئس الطعام الحرام » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١) .

وحادي عشرها قوله : « ظلم الضعيف أخس الظلم » . رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً ، فقال : يا بني ، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك ! وأمر المأمون بإشخاص الخطابي القاص^(٢) من البصرة ، فلمّا مثل بين يديه ، قال له : يا سليمان ، أنت القائل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، ومسجدى عين الربد ، وأنا عين مسجدى ، وأنت أعور ، فإن عين الدنيا عوراء ! قال : يا أمير المؤمنين ، لم أقل ذلك ، ولا أظن أمير المؤمنين أحضرني لذلك ، قال : بلغني أنك أصبحت فوجدت على سارية من سوارى مسجدك :

رحم الله علياً * إنه كان تقياً

فأمرت بمحوه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، كان « ولقد كان نبيا » فأمرت بإزالته ، فقال : كذبت كانت القاف أصح من عينك الصحيحة ، ثم قال : والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقاً لأحسنت تأديبك * قال : يا أمير المؤمنين ، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزمانة والهرم وقلة البصر ؛ فإن عاقبتني مظلوما فاذكر قول ابن عمك على عليه السلام : « ظلم الضعيف أخس الظلم » ، وإن عاقبتني بحق ، فاذكر أيضا قوله : « لكل شيء رأس ، والحلم رأس السؤدد » . فنهض المأمون من مجلسه وأمر برده إلى البصرة ، ولم يصله بشيء ، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلا وصله عدا الخطابي ؛ وليس هذا هو المحدث الحافظ المشهور ؛ ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستي ، كان في أيام الطيع والطائع ، وهذا قاص بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصري .

وثاني عشرها قوله : « إذا كان الرفق خرقا ، كان الخرق رفقا » ، يقول : إذا كان استئمال

(١) سورة النساء ١٠ . (٢) كذا في ١ ، وفي ب : « القاضي » .

الرفق مفسدة وزيادة في الشر فلا تستعمله ؛ فإنه حينئذ لس برقى بل هو حرف ، ولكن
استعمل الحرق ؛ فإنه يكون رفقا والحالة هذه ؛ لأن الشر لا يلتقي إلا بشر مثله ، فالعمرو
ابن كثوم :

ألا لا يَجْهَنَ أَحَدُ عَلَيْنَا فنجعلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا^(١)
وفي المثل : إن الحديد بالحديد يُفْلَح .

وقال زهير :

وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يُطْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ^(٢)
وقال أبو الطيّب :

ووضعُ النّدى في موضعِ السيفِ بالعلّا مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النّدى^(٣)
وثالث عشرها قوله : « وربما كان الدواء داء ، والداء دواء » ؛ هذا مثل قول
أبي الطيّب :

* رَبِّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ^(٤) *

ومثله قول أبي نواس :

* وَدَاوَنِي بِالنَّاتِي كَأَنْتَ هِيَ الدَّاءُ^(٥) *

ومثل قول الشاعر :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِأَيْلَى فَلَمْ يَكُنْ دَوَاءً وَلَكِنْ كَانَ سُقْمًا مُخَالَفًا
ورابع عشرها قوله : « ربما نصح غير الناصح ، وغش المستنصَح » . كان المغيرة بن
شعبة ييمض عليا عليه السلام منذ أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتأكّدت

(١) من المعلقة — بشرح التبريزي ٢٣٨ . (٢) ديوانه ٣٠ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٨٨ . (٤) ديوانه ٣ : ٨٦ ، صدره :

* كَعَلَّ عَتَبَكَ سَحْمُودٌ عَوَاظُهُ *

(٥) ديوانه ٢٣٤ ، صدره :

* دَعَّ عَنْكَ لَوْنِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ *

بِنُصْته إلى أيام أبي بكر وعثمان وعمر ، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ مساوية على الشام مدة يسيرة ، فإذا خُطِبَ له بالشام وتوطأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما ، وصرفه فلم يقبل ؛ وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح .

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزبير وهما بمكة في الخروج عنها ، وقصد العراق ظاناً أنه ينصحه فغشه ، وقال له : لا تقم بمكة ، فليس بها من يباليك ؛ ولكن دونك العراق ، فإنهم متى رأوك لم يمدُّوا بك أحداً ، فخرج إلى العراق ؛ حتى كان من أمره ما كان .

وخامس عشرها قوله : « إياك والاتكال على المني ، فإنها بضائع التوكل » ، جمع أنوك وهو الأحمق ، من هذا أخذ أبو تمام قوله :

مَنْ كَانَ مَرَعَى عَزْمِهِ وَهَمُّومِهِ رَوْضُ الْأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولاً^(١)

ومن كلامهم : ثلاثة تُخْلِقُ العقل ، وهو أوضح دليل على الضعف : طول التمني ، وسرعة الجواب ، والاستغراب^(٢) في الضحك . وكان يقال : التمني والحلم سيّان . وقال آخر : شرف الفتى ترك المني .

وسادس عشرها قوله : « العقل حفظ التجارب » من هذا أخذ المتكلمون قولهم : العقل نومان : غريزي ، ومكتسب ، فالغريزي العلوم البديهية ، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس .

وسابع عشرها قوله : « خير ما جرّبت ما وعظك » ، مثل هذا قول أفلاطون : إذا تعظك التجربة فلم تجرّب ، بل أنت ساذج كما كنت .

وثامن عشرها قوله : : بادر الفرصة ، قبل أن تكون غصة » ، حضر عُبيد الله بن زياد عند هانيء بن عروة عائداً ، وقد كمن له مسلم بن عَقِيل ، وأمره أن يقتله إذا جلس

(١) ديوانه . (٢) الاستغراب في الضحك : المبالغة فيه .

واستقرّ ، فلما جلس حمل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على التوب به فلم يطعمه ، وجعل هاني^١ ينشد كأنه يترنم بالشعر :

* ما ألا تتظار بسلامي لا تحييها *

ويكرر ذلك ، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض ، فعاد إلى قصر الإمارة ، وفات مسلما منه ما كان يؤمله بإضاعة الفرصة ، حتى صار أمره إلى ما صار .
وتاسع عشرها قوله : « ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يشوب » ، الأولى كقول القائل :

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرءُ ما طلباً ولا يسوّغه المقدار ما وهباً
والثانية كقول عبيد :

وكلّ ذي غيبةٍ يشوبُ وغائب المرت لا يشوبُ^(١)

العشرون قوله : « من الفساد ، إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد » ، ولا ريب أن من كان في سفر وأضاع زاده ، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أجق ، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته .

الحادي والعشرون قوله : ولكل أمر عاقبة « هذا مثل المثل المشهور « لكل سائله قرار » .
الثاني والعشرون قوله : « سوف يأتيك ما قدر لك » ، هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « وإنّ يقدر لأحدكم رزق في قبة جبل أو حضيضٍ بقاع^(٢) يأتيه » .

الثالث والعشرون قوله : « التاجر مخاطر » هذا حق ، لأنه يتمجّل بإخراج الثمن ولا يعلم : هل يعود أم لا ! وهذا الكلام ليس على ظاهره ، بل له باطن ، وهو أن من مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، مثل قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٣)

(٢) ب : « بقاء » تصحف ، صوابه من ا .

(١) ديوان ١٣٤ .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ .

فإنه مخاطر لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيئات تحبب أعماله الصالحة ، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفر تلك السيئات ، والمراد أنه لا يجوز للمكلف أن يفعل إلا الطاعة أو المباح .

الرابع والعشرون قوله : « ربّ يسير ، أُنمّي من كثير » ، قد جاء في الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير ، ويجعل من الكثير البركة . وقال الفرزدق :

فإنّ تميماً قبل أن يلدَ الحصاً أقامَ زماناً وهو في النَّاسِ واحدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ : رأينا بالبصرة أخوين ، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر ، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله - وكان أكثر من مائتي ألف درهم - ولم يعطِ الآخر شيئاً ، وكان يتّجر في الزيت ، ويكتسب منه ما يصرفه في نفقة عياله ، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موت الأخوين من عائلة ولد الأخ العسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم .

الأنزل :

لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مُهِينٍ ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ .
سَاهِلِ الدَّهْرِ مَا ذَلَّ لَكَ قَمُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرُ بِشَيْءٍ رَجَاءُ أَكْثَرِ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ
تَجْمَعَ بِكَ مَطِئَةُ الْجَاوِرِ .

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ عَلَى الصَّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ ؛
وَعِنْدَ مُجُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَعِنْدَ
جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ .

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَانْحَصْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ؛
حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحَلَّى مِنْهَا عَاقِبَةً ؛
وَلَا أُلَذَّ مَعَبَةً . وَلَئِنْ لِمَنْ غَالَطَكَ فَإِنَّهُ يُوسِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ
بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّالِمِينَ ، وَإِنْ أَرَدْتَ قُطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بِقِيَّةٍ
يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَبْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ ، وَلَا تُضَيِّمَنَّ
حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ .
وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرَعِبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ
أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قُطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ
عَلَى الْإِحْسَانِ . وَلَا يَكْهَرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ ، فَإِنَّهُ يَسْمَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ،
وَلَيْسَ جَزَاءَهُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوَّهُ .

الشَّيْخُ :

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية .

فأولها قوله : « لا خير في معين مهين ، ولا في صديق ظنين » ، مثل الكلمة الأولى

قولهم :

إِذَا تَكَفَّيْتَ بِنِيرِ كَافٍ وَجَدْتَهُ لِلْهَمِّ غَيْرَ شَافٍ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله :

فَإِنَّ مِنَ الْإِخْوَانِ مَنْ شَحَطَ النَّوَى بِهِ وَهُوَ رَاعٍ لِلْوَسَالِ أَمِينُ

ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه فحُلُوٌّ وَأَمَّا غِيْبُهُ فَظُنِينُ

وثانيها قوله : « ساهل الدهر ما ذلّ لك قعوده » ؛ هذا استعارة ، والقعود البكر
حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثني ، ومثل هذا المعنى قولهم في الثل : مَنْ ناطح
الدهر أصبح أجيم .
ومثله :

* ودُرْ مع الدهر كيفها دارا *

ومثله :

وَمَنْ قَامَ الْإِيَّامَ عَنْ ثَمَرَاتِهَا فَأَخْرَبَهَا أَنْ تَنْجَلِي وَلَهَا الْقَمَرُ^(١)

ومثله :

إذا الدهر أعطاك العنان فمِرْ بِهِ رُويْدًا وَلَا تَعْنُفْ فيصْبِحْ شَامِسًا
وثالثها قوله : « لا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه » ، هذا مثل قولهم : مَنْ طلب
الفضل ، حُرِمَ الأصل .

ورابعها قوله : « إياك وأن تجمع بك مطية الجاج » ، هذا استعارة ، وفي المثل :
أَلَجَّ مِنْ خَنْفَسَاءٍ ، وَأَلَجَّ مِنْ زُبُورٍ . وكان يقال : اللّجاج من القحّة ، والقحّة من قلة الحياء ،
وقلة الحياء من قلة المروءة ، وفي المثل : لَجَّ صَاحِبُكَ فَحُجِّجْ .

وخامسها قوله : « احمل نفسك من أخيك » ، إلى قوله : « أو تفعله بنفير أهله »
اللطّف ، بفتح اللام والطاء ، الاسم من أطفه بكذا أى برّه به ، وجاءتنا لطفة من فلان
أى هديّة ، والملاطفة المبارّة . وروى « عن اللّطف » وهو الرفق للأمر ؛ والمعنى أنّه أوصاه
إذا قطعه أخوه أن يصله ، وإذا جفاه أن يبرّه ، وإذا بخل عليه أن يوجد عليه ، إلى آخر
الوصاة .

ثم قال له : « لا تفعل ذلك مع غير أهله » ، قال الشاعر :

(١) القمر : الغلبة في القمار .

وإنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي أَبِي وَبَيْنَ ابْنِي أَبِي لَخُتْلَفٌ حَدًّا^(١)
 فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومِهِمْ وَإِنْ هَدَمُوا بَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ سَحَدًا
 وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمَرُّ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمَرُّ بِهِمْ سَعْدًا
 وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَيْسَ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا
 وقال الشاعر:

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّي كَاشِحًا لِمَقَافٍ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ^(٢)
 وَمَفِيدُهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ امْرَأً مَتَزَحِّجًا فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
 وَأَكُونُ وَالِيَّ سِرِّهِ وَأَصُونُهُ حَتَّى يَحْسُقَ عَلَيَّ وَقَتَ أَذَائِهِ
 وَإِذَا الْحَوَادِثُ أَجْحَفَتْ بِسَوَامِهِ قَرَنْتُ صَاحِبَتَنَا إِلَى جَرَبَائِهِ
 وَإِذَا دَعَا بِاسْمِي لِيَرْكَبَ مَرْكَبًا صَعْبًا قَعَدْتُ لَهُ عَلَى سَيْسَائِهِ^(٣)
 وَإِذَا أَجَنَّ فَلَيْقَةً فِي خِذْرِهِ لَمْ أَطْلُعْ مِمَّا وَرَاءَ خِبَائِهِ^(٤)
 وَإِذَا ارْتَدَى ثَوْبًا جَمِيلًا لَمْ أَقْلُ يَالْتَ أَنْ عَلَيَّ فَضْلَ رَدَائِهِ !

وسادسها قوله : « لَا تَتَّخِذْ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتَعَادِيَ صَدِيقَكَ » ، قد قال الناس

في هذا المعنى فأكثرُوا ، قال بعضهم :

إِذَا صَافَى صَدِيقُكَ مَنْ تَعَادَى فَقَدْ عَادَاكَ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ
 وقال آخر :

صَدِيقُ صَدِيقِي دَاخِلٌ فِي صَدَاقَتِي وَخَصْمُ صَدِيقِي لَيْسَ لِي بِصَدِيقٍ
 وقال آخر :

تَوَدَّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزَعَّمِ أَنْبِي صَدِيقُكَ إِنَّ الرُّأْيَ عَنْكَ لِعَازِبُ

(١) للمقنع الكندي ، ديوان الحماسة - بشرح الرزوقي ٣ : ١١٧٩ .

(٢) امروبة المدني ، الأعاني ٢٠ - ١٦٨ ، وطبقات الزبيدي ٥٧ .

(٣) السيساء في الأصل : منتظم فقار الطهر .

(٤) الفليقة : القليل : من الشعر . والخدر : السر .

وسابحها قوله : « واحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » ؛ ليس يعنى عليه السلام بقبيحة هاهنا القبيح الذى يستحق به الذم والعقاب ؛ وإنما يريد نافعة له فى العاجل كانت أو ضارة له فى الآجل ، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (١) .

وقد فسره قوم فقالوا : أراد : كانت نافعة لك أو ضارة لك . ويحتمل تفسير آخر وهو وصيته إياه أن يحض أخاه النصيحة سواء كانت مما لا يستحيا من ذكرها وشياعها ، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس ، كمن ينصح صديقه فى أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطلع عليه منهم ؛ فإن الناس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحا .
وثابنها قوله : « تجرّع الفيظ فإنى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألد مغبة » هذا مثل قولهم : الحلم مرارة ساعة ، وحلاوة الدهر كله . وكان يقال : التذلل للناس مصايد الشرف .

قال المبرّد فى "الكامل" : أوصى على بن الحسين ابنه محمد بن على عليهم السلام ، فقال : يا بنى ، عليك بتجرّع الفيظ من الرجال ؛ فإن أباك لا يسره بنصيبه من تجرّع الفيظ من الرجال ثمحّر النعم ؛ والحلم أعزّ ناصراً ، وأكثر عدداً (٢) .

وتاسعها قوله : « لئن لم نل غاظك ، فإنه يوشك أن يلين لك » ، هذا مثل الثلث المشهور : « إذا عزّ أخوك فهنّ » ، والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وعاشرها قوله : « خذ على عدوك بالفضل فإنه أحد الظفرين » هذا معنى مليح ، ومنه قول ابن هانى فى المعز (٤) :

(١) سورة الروم ٣٦ .
(٢) الكامل .
(٣) سورة فصلت ٣٤ .
(٤) ب : « المعز » ، تصحف ، صوابه فى ١ .

ضَرَابُ هَامِ الرُّومِ مَنْتَقِمًا وَفِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُودِهِ أَعْبَاءُ
لَوْلَا انْبِعَاثُ السَّيْفِ وَهُوَ مَسَاطُ فِي قَتْلِهِمْ قَتَلْتَهُمُ النِّعْمَاءُ
وَكُنْتُ كَاتِبًا بِدِيَوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَالْوَزِيرِ حَيْثُ نَصِرَ الدِّينَ أَبُو الْأَزْهَرِ أَحْمَدُ بْنُ الْبَاقِدِ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَوَصَلَ إِلَى حَضْرَةِ الدِّيَوَانِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَمَاءُهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَمِيرُ
الْبَحْرِينَ عَلَى الْبَرِّ ، ثُمَّ وَصَلَ بَعْدَهُ الْهَرَمْزِيُّ صَاحِبُ هَرَمَزٍ فِي دُخْلِهِ بِالْمَرَاكِبِ الْبَحْرِيَّةِ -
وَهَرَمَزُ هَذِهِ فُرْصَةٌ فِي الْبَحْرِ نَحْوُ ثَمَانٍ - وَامْتَلَأَتْ بَغْدَادُ مِنْ عَرَبِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِ
الْهَرَمْزِيِّ - وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامًا غَرَّاءَ زَاهِرَةً لِمَا أَفْضَلَ الْمُسْتَنْصِرُ عَلَى النَّاسِ مِنْ عَطَايَاهُ ،
وَالْوَفُودُ تَزْدَحِمُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى أَبْوَابِ دِيْوَانِهِ - فَكَتَبْتُ يَوْمَ دُخُولِ الْهَرَمْزِيِّ إِلَى
الْوَزِيرِ أَيْبَاتًا سَنَحْتُ عَلَى الْبَدِيهِةِ ، وَأَنَا مُتَشَاغِلٌ بِمَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ مِهَامِ الْخِدْمَةِ ، وَكَانَ رَحِمَهُ
اللَّهُ لَا يَزَالُ يَذْكُرُهَا وَيُنْشِدُهَا وَيَسْتَحْسِنُهَا :

يَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي	عَلِقْتُ يَدَاهُ بِأَنْفَسِ الْأَعْلَاقِ
مَا أَمَلْتُ بَغْدَادُ قَبْلَكَ أَنْ تَرَى	أَبْدًا مَلُوكَ الْبَحْرِ فِي الْأَسْوَاقِ
وَلَهُوَ عَلَيْهَا غَيْرَةٌ وَتَنَافَسُوا	شَغَفًا بِهَا كَتَنَافُسِ الْعُتَاقِ
وَعَدْتُ صِلَاتِكَ فِي رِقَابِ سَرَائِهِمْ	وَنَدَاكَ كَالْأَطْوَاقِ فِي الْأَعْنَاقِ
بَسْدِيدِ رَأْيِكَ أَصْلَحَتْ جَجَحَاتُهُمْ	وَتَأَلَّفُوا مِنْ بَعْدِ طُولِ سِقَاقِ
لِلَّهِ هِمَّةٌ مَاجِدٌ لَمْ تَعْتَلِقْ	بَسَحِيلِ آرَاءٍ وَلَا أَحْذَاقِ (٢)
جَلَبَ السَّلَاحُ مِنْ أَرَاكَ وَبِمِدْهَا	جَلَبَ الْمَرَائِكِبَ مِنْ جَرِيرِهِ وَاقِ
هَذَا الْعَدَاءُ هُوَ الْعَدَاءُ فَعَدَّ عَنْهُ	قَوْلَ ابْنِ حُجْرٍ فِي لَأَى وَعْنَاقِ
وَأَظْنُهُ وَالظَّنُّ عِلْمُهُ أَنَّهُ	سَيَجِيئُنَا بِمَمَالِكِ الْآفَاقِ
إِمْدًا أَسِيرُ صَنِيعَةٍ فِي رَجِيدِهِ	بِالْجُودِ غُلٌّ أَوْ أَسِيرُ وَثَاقِ

(١) دِيْوَانُهُ (المطبعة الأميرية) (١٢٧٤) .

(٢) السَّحِيلُ وَالْأَحْذَاقُ : الْحَبَالُ الضَّعِيفَةُ .

لا زال في ظلّ الخليفة ماله فانٍ وسودّده المعظم باقٍ

وحادى عشرها قوله : « إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا ذلك له يوما » ، هذا مثل قولهم : « أحب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما » ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » ، وما كان يقال : إذا هويت فلا تكن غاليا ، وإذا تركت فلا تكن قاليا .

وثاني عشرها قوله : « من ظنّ خيرا فصدق ظنه » كثير من أرباب المهمل يفعلون هذا ، يقال لمن قد شدا طرفاً من العلم : هذا عالم ، هذا فاضل ، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه ، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة ، وكذلك يقول الناس : هذا كثير العبادة ، هذا كثير الزهد ؛ لمن قد شرع في شيء من ذلك ، فتحملة أقوال الناس على الالتزام بالزهد والعبادة .

وثالث عشرها قوله : « ولا تضمينّ حقّ أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقّه » ، من هذا النحو قول الشاعر :

إذا خنتم بالغيّب عهدى فما لكم تدلّون إدلال المقيم على العهد
صلّوا وافعلوا فعل المدلّ بورصيله وإلا فصدّوا وافعلوا فعل ذى الصدى

وكان يقال : إضاعة الحقوق ، داعية العقوق .

ورابع عشرها قوله : « لا ترغبنّ فيمن زهد فيك » الرغبة في الزاهد هي الداء العياء ؛ قال العباس بن الأحنف :

ما زلت أزهّد في مودّة راضٍ حتى أبليت برغبه في زاهدٍ
هذا هو الداء الذي ضاقت به حيل الطيب وطال يأس المائد

وقد قال الشعراء المتقدمون والمتأخرون فأكثرُوا ، نحو قولهم :

وَفِي النَّاسِ إِنْ رَتَّ حَبَالُكَ وَاصِلٌ وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلَى مُتَحَوِّلٌ^(١)
وقول تَابَّطْشرا^(٢) :

إِنِّي إِذَا خُلَّةٌ ضَنْتُ بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكَتُ بِضَعِيفِ الْجَبَلِ أَحْذَاقِي^(٣)
نُجُوتٌ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةٍ إِذْ أَلْقَيْتُ لَيْلَهُ خَبَّتِ الرَّهْطُ أُرَاقِي^(٤)

وخامس عشرها قوله : لا يكوننَّ أحوك أقوى على قطيعتك منك على صلتك ، ولا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان . هذا أمر له بأن يصل من قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه .

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الكرخ وغيرهم من أعمال أصفهان يدعوم فيها إلى نفسه ، فأحضرها بين يديه ، ودفعها إليه ، وقال له : أتعرف هذه ؟ فأطرق خجلاً ، فقال له : أنت آمن ، وقد وهبت هذا الذنب لعلِّي وفاطمة عليهما السلام ، فقم إلى منزلك ، وتخير ما شئت من الذنوب ، فإننا نتخير لك مثل ذلك من العفو .

وسادس عشرها قوله : « لا يكبرنَّ عليك ظلم من ظلمك ، فإنه يسمى في مضرتك ونفعك وليس جزاء من سرك أن تسوءه » ، جاء في الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله سمع عائشة تدعو على من سرق عقدا لها ، فقال لها : « لا تمسحى عنه بدعائك ، أى لا تخففى عذابه » . وقوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرك أن تسوءه » ، يقول : لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك ، وليس جزاء من ينفع إنساناً أن يسيء إليه . وهذا مقام جليل

(١) لمن بن أوس ، ديوانه ٥٩ . (٢) الفضليات ٨ .

(٣) الحلة : الصداقة ، وتقال للصديق ، وتطلق على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ؛ وأنت الضائر من أجل اللفظ .. والأحذاق : القطع من الجبال .

(٤) الخبت : اللين من الأرض . الرهط : موضع . القبت أرواق : استمرغت جهدى وعدوت عدو أشد ببدأ

لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار . وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين ، فحبسهم وقيدهم ، فلمّا طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة ، ودعا على ذلك الجبار ، فقال له بعض أولاده - وكان أفضل أهل زمانه في العبادة . وكان مستجاب الدعوة : لا تدعُ عليه فتخفف من عذابه ، قالوا : يا فلان ، ألا ترى ما بنا وبك ! لا يأنف ربك لنا ! قال : إن لفان مهبطاً في النار لم يكن ليلنّه إلا بما ترون ، وإن لكم لمصعداً في الجنة لم تكونوا لتبلغوه إلا بما ترون . قالوا : فقد نال منا العذاب والحديد ، فادع الله لنا أن يخلصنا وينقذنا ممّا نحن فيه ، قال : إني لأظنّ أني لو فعلت لفعل ، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا ، فألقى الله فأقول له : أي ربّ سلّ فلانا لِمَ فعلَ بي هذا ؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، كلمة مفردة مستقلة بنفسها ، ليست من تمام الكلام الأول ، والصحيح ما ذكرناه .

وسابع عشرها - ومن حقه أن يقدم ذكره قوله : « ولا يكن أهلك أشق الخلق بك » ، هذا كما يقال في المثل : من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها ، والمراد من هذه الكلمة النهي عن قطيعة الرّحم وإقصاء الأهل وحرمانهم ، وفي الخبر المرفوع : « صلوا أرحامكم ولو بالسلام » .

الأفضل :

وَاعْلَمْ يَا بَنِيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ .

مَا أَفْجَحَ الْخُصُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى !
إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَشْوَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَارِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ .

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ
لَا تَذْفُمُهُ الْعِظَةُ إِذَا بَالَغَتْ فِي إِيْلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَعَطَّى بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ
لَا تَتَمَيَّزُ إِلَّا بِالضَّرْبِ .

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ .
مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ . وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مِنْ صَدَقَ عَيْبُهُ ، وَالْهَوَى
شَرِيكُ الْأَعْمَى ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٌ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ .

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ،
وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذَتْ بِهِ سَبَبُ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ
فَهُوَ عَدُوُّكَ .

قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكًا ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا .
لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَافُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ،
وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ .

أَخْرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَمَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ .
مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ .
لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ .
إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ .

سَلِّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .

الشَّيْخُ :

في بعض الروايات: « أطرح عنك واردات المموم بحسن الصبر وكرم الغزاء » ، قد مضى لنا كلام شافٍ في الرزق .

وروى أبو حيان ، قال : رفع الواقديّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدّين عليه ، وكثرة العيال ، وقلة الصبر ، فوقع المأمون عليها : أنت رجل فيك خلّتان ؛ السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك ، وأما الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ؛ فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك ، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك ؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهريّ ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير : « يا زبير ، إنّ مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ؛ فمن كثّر كثر له ، ومن قلّ قلّ له » .

قال الواقديّ : وكنت أنسيتُ هذا الحديث ، وكانت مذاكرته إيّاي به أحبّ من صلته .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية :
منها قوله « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » ، وهذا حق ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكاف ، فتارة يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلف حركة ، ولا تجشّم سعى ، وتارة يكون الأمر بالعكس .
دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها ، وهو فقير

لا مال له ، فساخت إحدى قوائم فرسه في الصَّخْرَاءِ في الأرض ، فنزل عنها وابتدورها غلماناًه
نخلصوها ، فظهر لهم في ذلك الموضع نَقَبٌ وسيع ، فأمرهم بحفره ، فوجدوا^(١) فيه أموالاً
عظيمة ، وذخائر لابن ياقوت ، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن
ياقوت يسكنها ، فرأى حَيَّةً في السقف ، فأمر غلماناًه بالصعود إليها وقتلها ، فهربت منهم ،
ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقطع الخشب وتستخرج وتقتل ؛ فلما قلعوا الخشب
وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت .

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله فقيل : هاهنا خيَّاط حاذق كان يخيط لابن
ياقوت ، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير ، إلا أنه أصم لا يسمع شيئاً أصلاً ، فأمر
بإحضاره ، فأحضروه وعنده رغب وهلع ، فلما أدخله إليه كلمه ؛ وقال : أريد أن تخيط لنا كذا
وكذا قطعة من الثياب ، فارتعد الخيَّاط واضطرب كلامه ، وقال : والله يا مولانا ماله عندي
إلا أربعة صناديق ليس غيرها ، فلا تسمع قول الأعداء في . فتمجَّب عماد الدولة وأمر بإحضار
الصناديق ، فوجدوها كلها ذهباً وحلياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت .

وأما الرِّزْق الذي يطلبه الإنسان ويسمى إليه فهو كثير جداً لا يحصى .

ومنها قوله : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ! » هذا من قول الله
تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَينَ بِهِمْ رِييحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا
رِييحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ
إِذَا هُمْ يَبْغُونِ فِي الْأَرْضِ بِمَيْرِ الْحَقِّ ﴾^(٢) .

ومن الشعر الحكمي في هذا الباب قول الشاعر :

خُلُقَانٍ لَا أَرْضَاهُمَا لِفَتَى : تِيهُ الْغِنَى وَمَذَلَّةُ الْفَقْرِ

فإذا غنيت فلا تكن بطراً وإذا افتقرت فتبه على الدهر
ومنها قوله : « إنما لك من دنياك ، ما أصاحت به مشواك » ، هذا من كلام رسول الله
صلى الله عليه وآله : « يا بن آدم ، ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبست
فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » .

وقال أبو العتاهية :

ليس للمتعب المكادح من دد ياهُ إلا الرغيف والطمران^(١)
ومنها قوله : « وإن كنت جازعا على ما تفلت من يديك ، فاجزع على كل ما لم يصل
إليك » ، يقول : لا ينبغي أن تجزع على ما ذهب من مالك ، كما لا ينبغي أن تجزع
على ما فاتك من المنافع والمكاسب ؛ فإنه لا فرق بينهما ، إلا أن هذا حصل ، وذاك
لم يحصل بعد ؛ وهذا فرق غير مؤثر ، لأن الذي تظن أنه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة ،
وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته ، وأما القنيات والدخرات فلعلها ليست لك ،
كما قال الشاعر :

وذى إبله يسقى ويحسبها له أخى تعبٍ في رعيها ودءوبٍ
غدت وغدا ربٌّ سواه يسوقها وبُدِّلَ أحجارا وجالَ قليبٍ
ومنها قوله : « استدلل على ما لم يكن بما كان ، فإن للأمور أشباها » يقال : إذا شئت
أن تنظر للعالم بعدك فانظرها بعد غيرك .

وقال أبو الطيب في سيف الدولة :

ذكى تظنيهِ ، طليعة عيْنِهِ يرى قلبُهُ في يومه ما يرى غدا^(٢)
ومنها قوله : « ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة ... » إلى قوله : « إلا بالضرب » ،
هو قول الشاعر :

(١) الطمران : ثنية طمر ، وهو الثوب الخلق البالى .
(٢) ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظنى : التظنن ، والطيعة : الذي يطلع القوم على العدو .

العبد يُقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامة^(١)

وكان يقال : اللّيم كالعبد ، والعبد كالبيمة عتّبها ضربها .

ومنها قوله : « أطرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم الغزاء »^(٢) . هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة ، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال في خطبته لما ورد عليه الخبر بقتل مُصعب أخيه : « لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزننا وسرّنا ، جاءنا خبرٌ قتل مُصعب ؛ فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا إن شاء الله خيرة ؛ وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحليم عند فراق حميمه ، ثم يعوى بعدها ذو الرأى إلى حسن الصبر وكرم الغزاء » .

ومنها قوله : « مَنْ ترك القصد جار » القصد الطريق المعتدل ، يعنى أنّ خير الأمور أوسطها ، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه سيرا وقع في هذه .
ومنها قوله : « صاحب مناسب » ، كان يقال : الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب البدن ، قال أبو الطيّب :

ما اخلّ إلّا مَنْ أودّ بقلبه وأرى بطرفٍ لا يرى بسوائه^(٣)

ومنها قوله : « الصديق مَنْ صدق غيبه » ، من هاهنا أخذ أبو نواس قوله في المتهوكة^(٤) :

هل لك وأهلّ خبره فيمن إذا غبتَ حضر

أو مالك اليوم أثّر فإن رأى خيرا شكر

* أو كان تقصير عذر *

ومنها قوله : « الهوى شريك العمى » ، هذا مثل قولهم : « حبّك الشئ يُعمى ويُصم »

قال الشاعر :

(١) لابن مفرغ ، الشعر والشعراء ٣١٥ . (٢) بلفظ الرواية الثانية . (٣) ديوانه ١ : ٤ .

(٤) المتهوك من الرجز والمنسرح : مذهب ثلثاه وبقي ثلثه ، كقوله في الرجز :

* ياليتني فيها جذع * وقوله في المنسرح : * ويل أم سعد سعدا * .

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَالَيْلَةٍ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَاً^(١)
ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد» ، هذا معنى مطروق ،
قال الشاعر :

لعمرك ما يضرُّ البُعدُ يوماً إذا دَنَّتِ القلوبُ من القلوبِ

وقال الأحمص :

إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسماً إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لَأَمِيلُ^(٢)

وقال البحتري :

ونازحةً والدَّارُ مِنْهَا قَرِيبَةٌ وما قرب ثاوي في التَّرابِ مَغِيبٌ !
ومنها قوله « والغريب من لم يكن له حبيب » يريد بالحبيب ها هنا الحب لا المحبوب ،
قال الشاعر :

أُسْرَةُ الْمَرْءِ وَالِدَاهُ وَفِيَا بَيْنَ جَنْبَيْهِمَا الْحَيَاءُ تَطِيبُ
وَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرْءِ يَوْمًا فَهُوَ فِي النَّاسِ أَجْنَبِيٌّ غَرِيبُ

ومنها قوله : « مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ بِمَذْهَبِهِ » ، يريد بمذهبه ها هنا طريقته ، وهذه
استعارة ، ومعناه أن طريق الحق لا مشقة فيها لسالكها ، وطرق الباطل فيها المشاق والمضار ،
وكان سالكها سالك طريقة ضيقة يتمتر فيها ، ويتخبط في سلوكها .

ومنها قوله : « مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ » ، هذا مثل قوله : « رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً
عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ » وقال : مَنْ جَهِلَ قَدْرَهُ قَتَلَ نَفْسَهُ . وقال أبو الطيّب :
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

(١) لعبد الله بن معاوية ، الأغاني ١٢ : ٢١٤ . (٢) الأغاني .

ومنها قوله : « أوثق سبب أخذت به ، سبب بينك وبين الله سبحانه ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ (١) .

ومنها قوله : « فن لم يبال لك فهو عدوك » ، أى لم يكثر بك ، وهذه الوصاة خاصة بالحسن عليه السلام. وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا ، وليست عامّة للشوكة من أفناء الناس ، وذلك لأنّ الوالى إذا أنس من بعض رعيتته أنه لا يباليه ولا يكثر به ، فقد أبدى صفحته ، ومن أبدى لك صفحته فهو عدوك ، وأما غير الوالى من أفناء الناس ، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدو له .

ومنها قوله : « قد يكون اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا » ؛ هذا مثل قول القائل :

مَنْ عَاشَ لَاقَى مَا يَسُو مِنْ الْأُمُورِ وَمَا يُسْرُ
وَلَرُبَّ حَتْفٍ فَوْقَهُ ذَهَبٌ وَيَاقُوتٌ وَدُرٌّ

والمعنى : ربّما كان بلوغ الأمل فى الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها ؛ وإذا كان كذلك ، كان الحرمان خيرا من الظفر .

ومنها قوله : « ليس كلّ عورة تظهر ، ولا كلّ فرصة تصاب » يقول : قد تكون عورة العدو مستترّة عنك فلا تظهر ، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها . وقال بعض الحكماء : الفرصة نوعان : فرصة من عدوك ، وفرصة فى غير عدوك ، فالفرصة من عدوك ما إذا بلغت نفعتك ، وإن فاتتكَ ضررتك ، وفى غير عدوك ما إذا أخطأك نفعه لم يصل إليك ضرره .

ومنها قوله : « فربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده » من هذا النحو قولهم في المثل : « مع الخواطيء سهم صائب » ، وقولهم : « رمية من غير رام » . وقالوا في مثل اللفظة الأولى : « الجواد يكبر ، والحسام قد ينبو » . وقالوا : « قديمفو الحليم ، ويجهل العليم » . ومنها قوله : « آخر الشر فإنك إذا شئت تعجلته » مثل هذا : قولهم في الأمثال الطفيلية : « كل إذا وجدت ، فإنك على الجوع قادر » . ومن الأمثال الحكمية : « ابدأ بالحسنة قبل السيئة ، فليست بمستطيع للحسنة في كل وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر » .

ومنها قوله : « قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل » ؛ هذا حق ، لأن الجاهل إذا قطعك انتفعت بيمده عنك ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك ؛ وهذا كما يقول المتكلمون : عدم الضرر كوجود المنفعة ، ويكاد أن يبتنى على هذا قولهم : كما أن فعل المفسدة قبيح من البارئ ، فالإخلال باللفظ منه أيضا يجب أن يكون قبيحا .

ومنها قوله : « من أمن الزمان خان ، ومن أعظمه أهانه » ، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر :

وَمَنْ يَأْمَنُ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ فَايِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الْأَنَامِلِ

وقالوا : احذر الدنيا ما استقامت لك . ومن الأمثال الحكيمة : « من أمن الزمان ضيع ثغرا مخوفا » . ومثل الكلمة الثانية قولهم : « الدنيا كالأمة اللثيمة المعشوقة ، كلما ازدادت لها عشقا وعليها تهالك ازدادت لك إذلالا ، وعليك شطاطا » . وقال أبو الطيب :

وَهِيَ مَعشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَحْفَظُ عَهْدًا وَلَا تَتِمُّمُ وَصْلًا

شِيمُ الغانيات فيها فلا أدري لذا أنت اسمها الناس أم لا^(١) ! .

ومنها قوله : « ليس كل من رمى أصاب » هذا معنى مشهور ، قال أبو الطيب :

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ، ولا كل الرجال فحولاً

ومنها قوله : « إذا تغير السلطان ، تغير الزمان » . في كتب الفرس أن أنوشروان جمع عمال السواد ويده دُرّة يقلبها ، فقال : أي شيء أضرّ بارتفاع السواد وأدعى إلى محقه ؟ أيكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدُرّة في فيه ؟ فقال بعضهم : انقطاع الشرب ، وقال بعضهم : احتباس المطر ، وقال بعضهم : استيلاء الجنوب وعدم الشمال ، فقال لوزيريه : قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يبادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها ، قال : تنبّئ رأي السلطان في رعيّته ، وإضمّار الخيف لهم ، والجور عليهم ، فقال : لله أبوك ! بهذا العقل أهلك آباءى وأجدادى لما أهلوك له . ودفع إليه الدُرّة فجعلها في فيه .

ومنها قوله : « سل عن الرفيق ، قبل الطريق ؛ وعن الجار ، قبل الدار » وقد روى هذا الكلام مرفوعاً ، وفي المثل : « جار السوء كلب هارش ، وأفعى ناهش » .
وفي المثل : الرفيق إمّا رحيق أو حريق .

الأصل :

إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْجِكًا ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ .

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ ، وَعَزَمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ، وَاسْتَكْمَفَ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَّا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَأَفْضَلُ .

وَلَا تُمْلِكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرٍ مَانَةٍ . وَلَا تَعُدِّي بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرِهَا .

وَإِيَّاكَ وَالتَّنَائُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ ، وَالْبَرِيثَةَ إِلَى الرَّيْبِ .

وَاجْعَلِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أُخْرَى إِلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ .

وَأَكْرَمِ عَشِيرَتَكَ ، فَأَتَاهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُوكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَاللَّهُ نِيَا وَالْآخِرَةَ . والسلام .

الشرح :

نهائ أن يذكر من الكلام ما كان مضحكا ، لأن ذلك من شغل أرباب الهزل والبطالة ، وقل أن يخلو ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؛ وذلك كلام فصيح ، ألا ترى أنه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها . وقال عمر لما نهاه

رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلف بالله : فما حلفت به ذا كرا ، ولا آثرا ، ولا حاكيا .
"وكان يقال : مَنْ مازح استخفَّ به ، ومن كثر ضحكك قلت هيبتك .

فأما مشاورة النساء فإنه من فعل تجزئة الرجال ، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين
الأمين والمأمون في كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز : ينام نوم الظربان ، وينتبه
انتباهة الذئب ، هممه بطنه ، ولذته فرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء
رأى ولا مكيدة ، قد شمر له عبد الله عن ساقه ، وفوق له أشد سهامه ، يرميه على بعد
الدار بالحنف النافذ ، والموت القاصد ؛ قد عبى له المنايا على متون الخيل ، وناط له
البلايا بأسنة الرماح ، وشفار السيوف ، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به
نفسه وأخاه :

يُقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنَ خَاقَانَ لَيْلَهُ	إِلَى أَنْ يَرَى الْإِصْبَاحَ لَا يَتَأَمُّهُ
فَيَصْبَحُ مِنْ طَوْلِ الطَّرَادِ وَجَسْمُهُ	نَحْمِيلٌ ، وَأُضْحَى فِي النَّعِيمِ أَصَمُّ
وَهَمَّى كَأْسٍ مِنْ عُقَارٍ وَقَيْنَةٍ	وَهَمَّتْهُ دَرَعٌ وَرُمَحٌ وَخُذْمٌ
فَشَتَّانَ مَايِنِي وَيِنَ ابْنَ خَالِدٍ	أُمِّيَّةٌ فِي الرِّزْقِ الَّذِي اللَّهُ يَقْسِمُ

ونحن معه نجري إلى غاية إن قصرنا عنها دُمننا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ،
وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن ضعف ضعفنا ؛ إن هذا الرجل قد ألقى
بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويمتزم على الرؤيا ، قد أمكن أهل الخسارة واللَّهو
من سمعه ، فهم يمتنون به الظفر ، ويمدونه عُقَبَ الأيام ، والهلاكُ أسرع إليه من السَّيل
إلى قيعان الرمل .

قوله عليه السلام : « فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ » الأفن بالسكون : النقص ، والمتأفن :

المتنقّص ، يقال : فلان يتأنّف فلانا، أى يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه « إلى أفنٍ » بالتحريك فهو ضعف الرأى ، أفن الرجل يأفّن أفنّا أى ضعف رأيه ؛ وفى المثل : « إنّ الرّقين تُغطّى أفن الأفين »^(١) والوهن : الضعف .

قوله : « واكفّف عليهنّ من أبصارهنّ » من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبى الحسن الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه ، فيعنى به : فاكفّف عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهاه أن يُدخِل عليهنّ من لا يؤثّق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهون من ذلك ، وذلك لأنّ من تلك صمته يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه من يراهنّ فى الطرقات .

ثم قال : « إن استطمت ألا يعرفنّ غيرك فافعل » . كان لبعضهم بنت حسناء ، فحجّ بها ، وكان يعصبُ عينيها ، ويكشف للناس وجهها ، فقليل له فى ذلك ، فقال : إنّما الحذر من رؤيتها الناس ، لا من رؤية الناس لها .

قال : « ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها » ؛ أى لا تدخلها معك فى تدبير ولا مشورة ، ولا تعتمدينّ حال نفسها وما يصلح شأنها .

فإن المرأة ربحانةٌ ، وليست بقهرمانة ؛ أى إنّما تصلح للمتعة واللذّة ، وليست وكيلا فى مال ، ولا وزيرا فى رأى .

ثم أكّد الوصيّة الأولى ، فقال : لا تعدّ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : « ولا تملّكها من أمرها ما جاوز نفسها » .

ثم نهاه أن يطعمها فى الشفاعات .

(١) اللسان (أفن ، رفن) والرقين : الدرهم ؛ سُمى بذلك للترقن الذى فيه ؛ يعنون الخط .

وروى الزبير بن بكار، قال : كانت الخيزران كثيراً ما تكلم موسى أُنْبَهَا - لَمَّا استخلف - في الحوائج ؛ وكان يجيبها إلى كلِّ ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً ، واحتجَّ عليها بحجَّة فقالت : لا بدَّ من إجابتي ، فقال : لا أفعل ، . قالت : إني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ولا له ! قالت : والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : إذن والله لا أبالي ؛ فقامت مغضبة ، فقال : مكانك تستوعبي كلامي ؛ وأنا والله برىء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لئن بلغني أنه وقف أحد من قوادي وخاصتي وخدمي وكتابي على بابك لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ؛ ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم ! أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ! إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لميٍّ أو ذمي . فانصرفت وماتعل ما تطأ عليه ، ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها حتى هلك .

وأخذ هذه اللفظة منه وهي قوله : « إن المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة » الحجاج فقالها للوليد بن عبد الملك ؛ روى ابن قتيبة في كتاب « عيون الأخبار » قال : دخل الحجاج على الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة ؛ وذلك في أوّل قَدَمَة قدمها عليه من العراق ؛ فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه : مَنْ هذا الأعرابي المستلثم في السلاح عندك وأنت في غلالة ! فأرسل إليها : هذا الحجاج ؛ فأعادت إليه الرسول : [فقال : تقول لك :] والله لأن يخلو بك ملك الموت في اليوم أحياناً أحبُّ

إلى من أن يخلو بك الحجاج : فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ دع عنك مفاكحة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهومانة ، فلا نطلعها على سرّك ومكايدة عدوك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتي أن تأمره غداً أن يأتيني مسلماً ؛ ففعل ذلك ، فأناها الحجاج فحجبتة ، فلم يزل قائماً ، ثم أذنت له ، فقالت : يا حجاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأسعث ! أما والله لولا أن الله علم أنك شرّ خلقه ما ابتلاك برى الكعبة الحرام ولا يقتل ابن ذات النطاقين ، أول مولود في دار هجرة الإسلام ! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكحة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره ، فإن كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك ! وإن كنّ ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك ؛ أما والله لقد نقص نساء أمير المؤمنين الطيب من غداً رهن فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيّق من قرن ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم ؛ فأبجارك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه ، قاتل الله القاتل حين ينظر إليك ؛ وسنن غزاة بين كتيفك :

أسدُّ على وفي الحروب نعامه ربداء تنفر من صفيير الصافر (١)
هلاً برزت إلى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
قم فاخرج ، فقام فخرج (٢) .

(١) ذكر صاحب الأغاني أن غزاة الحروية لما دخلت على الحجاج هي وشبيب بالكوفة تحصن منها ، وأغلق عليه قصره ؛ فكتب إليه عمران بن حطان - وقد كان الحجاج لج في طلبه :
أسدُّ على وفي الحروب نعامه ربداء تجفّل من صفيير الصافر
هلاً برزت إلى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزاة قلبه بقوارس تركت مدابه كأمس الدابر
(٢) عيون الأخبار ١ : ١٧٠ ، ١٧١ .

[بعض ما قيل في الغيرة من الشعر]

فأما قوله عليه السلام : « إياك والتفاير في غير موضع غيرة » فقد قيل هذا المعنى ،
قال بعض المحدثين :

يَا أَيُّهَا الْغَائِرُ مَهْ لَا تَغُرْ إِلَّا لِمَا تُذَكِّرُهُ بِالْبَصَرِ
مَا أَنْتَ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمَنْ بَيَّنَّته الدَّبَّ لِرُحَى الْحَجَرِ
وكان مسكين الدارمي أحد مَنْ يستهجن الغيرة ، ويستقبح وقوعها في غير محلها ،
فمن شعره في هذا المعنى :

ما أحسن الغيرة في حينها وأقبح الغيرة في غير حين^(١)
مَنْ لَمْ يَزَلْ مَتَّهَمًا عِرْسَهُ مناصباً فيها لرجم الظنون^(٢)
يوشك أن يفريها بالذي يخاف ، أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها منك إلى خيم كريم ودين
لا تظهَرَنَّ يوما على عورة فيتبع المقرون حبل القرين^(٣)
وقال أيضاً :

ألا أيها الغائر المستشيطُ علام تغارُ إذ لم تُغرْ^(٤)
فا خيرُ عرسٍ إذا خِفَتْها وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرَّ
تغارُ من الناس أن ينظروا وهل يفتنُ الصالحات النظرُ !
فإني سأخلى لها بيتها فتحفظ لي نفسها أو تذر

(١) أمالي المرتضى ١ : ٤٧٦ . (٢) الأمالي : « لرجم الظنون » .

(٣) أي إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ، فإنها أيضاً تزني ، أو تفعل كما فعلت .

(٤) أمالي المرتضى ١ : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

إذا الله لم يعطه وُدَّها فلن يعطى الوُدَّ سوطُ مُمرِّه
وَمَنْ ذا يُراعى له عِرْسُهُ إذا ضَمَّه وإلركاب السَّقَرِ! (١)
وقال أيضا :

ولستُ أُمراً لا أبرحُ الدَّهرَ قاعداً إلى جنب عِرْسِي لا أفارقها شَبْرا (٢)
ولا مقسماً لا أبرحُ الدَّهرَ بيتها لأجعله قبل المات لها قَبْرا
ولا حاملاً ظننى ولا قولَ قائلٍ على غَيْرَةٍ حتى أحيط به حُبْرا
وهبني أُمراً راعيتُ مادمتُ شاهداً فكيف إذا ماسرتُ من بيتها شهرا
إذا هي لم تُحصِنْ لها فى فنائها فليس بمنجياً بنائى لها قصرا
فأما قوله : « واجعل لكلِّ إنسان من خَدَمِكَ عملاً تأخذه به » ، فقد قالت الحكماء
هذا المعنى ، قال أبرويز فى وصيته لولده شيرويه : وانظر إلى كتابك ، فَمَنْ كان منهم
ذا ضياع قد أحسن عمارتها فوَلَّه الخراج ، وَمَنْ كان منهم ذا عبيد قد أحسن سياستهم
وتثقيفهم فوَلَّه الجند ، ومن كان منهم ذا سراى وضرائر قد أحسن القيام عليهم ، فوَلَّه
النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع فى خَدَمِ دارك ، ولا تجعل أَمْرَكَ فوضى بين خَدَمِكَ
فيفسد عليك ملكك .
وأما قوله : « فأكرم عشيرتك فإنهم جناحك » فقد تقدّم منا كلام فى وجوب
الاعتضاد بالعشائر .

[اعتزاز الفرزدق بقومه]

روى أبو عبيدة قال : كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلا قاعداً ،

(١) الأمالى : « المطى » .

(٢) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ ، وروايته : « ولانى امرؤ » .

فدخل على سليمان بن عبد الملك يوما ، فأنشده شعرا فخر فيه بآبائه ، وقال من جلته :
 تالله ما سحلت من ناقة رجلا مثل إذا الريح لفتني على الكور^(١)
 فقال سليمان : هذا المدح لي أم لك ! قال : لي ولك يا أمير المؤمنين ، فغضب سليمان
 وقال : قم فأتهم ، ولا تنشده بعده إلا قائما ، فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض
 أكثرى شعرا . فقال سليمان : ويلي على الأحمق ابن الفاعلة ! لا يكتفى ، وارتفع صوته ،
 فسمع الضوضاء بالباب ، فقال سليمان : ما هذا ؟ قيل : بنو تميم على الباب ، قالوا : لا ينشد
 الفرزدق قائما وأيدينا في مقابض سيوفنا ، قال : فلينشده قاعدا .

[وفود الوليد بن جابر على معاوية]

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المزياني ، قال : كان الوليد بن جابر بن ظالم
 الطائي ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم صحب عليا عليه السلام ،
 وشهد معه صفين ، وكان من رجاله المشهورين ، ثم وفد على معاوية في الاستقامة^(٢) ، وكان
 معاوية لا يثبته^(٣) ؛ معرفة بمينه ؛ فدخل عليه في جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه ،
 فانتسبه له ، فقال : أنت صاحب ليلة الهير ؟ قال : نعم ، قال : والله ما تخلو مسامعي من رجرك
 تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

شدوا فداء لكم أمي وأب فإنا الأمر غدا لمن غلب
 هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنمى للعبياء سادات العرب
 ليس بموصوم إذا نص النسب أول من صلى وصام واقترب

قال : نعم ، أنا قائلها . قال : فلماذا قتلتها ؟ قال : لأننا كنا مع رجل لا نعلم خصلة

(١) من قصيدة في ديوانه ١ : ٢٦٢ - ٢٦٧ ؛ وذكر فيه أنه مدح بها يزيد بن عبد الملك .

(٢) كذا في الأصول .

(٣) كذا في اوهو الصواب ، وفي ب : « لا ينسبه » .

توجب الخلافة ، ولا فضيلة تصير إلى التقدم ، إلا وهي مجموعة له ؛ كان أول الناس سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأرجحهم حلماً ، فات الجياد فلا يشق غباره ، يستولى على الأمد فلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره ، فلمّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحول الأمر إلى من يشاء من عباده ، دخلنا في جملة المسلمين فلم نزع يدًا عن طاعة ، ولم نصدع صفاة جماعة ؛ على أن لك منّا مظهر ، وقلوبنا بيد الله ، وهو أملك بها منك ، فاقبل صفونا ، وأعرض عن كدرنا ، ولا تُثرِ كوامن الأحقاد ؛ فإنّ النار تقدح بالزناد . قال معاوية : وإنّك تهبدني يا أخا طيّبٍ بأوباش العراق أهل النفاق ، ومعدن الشقاق ! فقال : يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوك في المضيق ، وذادوك عن سَنّ الطريق ؛ حتى لذت منهم بالمصاحف ؛ ودعوت إليها من صدّق بها وكذبت ، وآمن بمنزلها وكفرت ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فنضب معاوية وأدار طرفه فيمنّ حوله فإذا جلّسهم من مُضروئهم قليل من اليمن ، فقال : أيها الشقي الخائن ؛ إني لإخال أن هذا آخر كلام تفوّ به - وكان عُفَيْر^(١) بن سيف بن ذى يزن يباب معاوية حينئذ - فعرف موقف الطائي ومراد معاوية ، نغافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على البياينة ، فقال : شامت الوجوه ذلاًّ وقلاًّ ، وجَدَعاً وقلاًّ ، كَشَمَ الله هذه الأنف كَشَمًا^(٢) مرعباً . ثم التفت إلى معاوية ، فقال : إني والله يا معاوية ما أقول قولي هذا حبّاً لأهل العراق ، ولا جنوحاً إليهم ؛ ولكن الحفيظة تذهب الغضب ، لقد رأيتك بالأمس ، خاطبت أخاريمة - يعني صمصمة بن صُوحان . وهو أعظم جُرمًا عندك من هذا ، وأنكأ^(٣) لقلبك ، وأقدح في صفاتك ، وأجدّ في عداوتك ، وأشدّ انتصاراً في حريك ، ثم أثبتته وسرّحته ؛ وأنت الآن جمع على قتل هذا - زعمت - استصناراً لجماعتنا ! فإنّا لا نمرّ ولا نُحلي ؛ ولعمري لو وكلّناك أبناء قحطان إلى قومك لكان جدّك العائر ، وذكرك الدائر ،

(١) : ١ « عفيرة » . (٢) ب : « كتم » تعريف صوابه من ا ، وكشم الأنف : استأصله قطعاً .

(٣) كذا في ا . وفي ب : « وإذكاء » .

وحدّك المفلول ، وعرشك المثلول ، فاربع على ظلمك^(١) ، واطونا على بلالتنا^(٢) ،
 ليسهل لك حزننا ، ويتطامن لك شاردنا ، فإنّا لا نرأى بوقع الضيم ، ولا تتلمظ
 جُرع الخسف ، ولا نغمز بغماز الفتن ، ولا نذر على الغضب . فقال معاوية : الغضب
 شيطان ، فاربّع نفسك أيّها الإنسان ، فإنّا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم نرتكب
 منه مفضها ، ولم ننتهك منه محرّما ، فدونسكه فإنّه لم يضقّ عنه حلمنا ويسع غيره . فأخذ
 عُقَيْر بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتؤوينّ بأكثر ممّا آب به معدى
 من معاوية . وجمع من بدمشق من اليمانية ، وفرض على كلّ رجل دينارين في عطائه ،
 فبلنت أربعين ألفا ، فتعجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

(١) اربع على ظلمك ، أى توقف .

(٢) اطونا على بلالتنا .

(٣٢)

الافضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

وَأُرْدِيتَ جَيْلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا ؛ خَدَعْتَهُمْ بِنَيْيِكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ،
نَفَسَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَيَجَارُوا عَنْ وَجْهَتِهِمْ ، وَنَكَّصُوا عَلَى
أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ
الْبَصَائِرِ ، فَأَلْبَسَهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَارَثِكَ ،
إِذْ حَمَلَتْهُمْ عَلَى الصَّمْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .
فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ . فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ
عَنْكَ ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، وَالسَّلَامُ .

الشيوخ :

أُرْدِيتَهُمْ : أَهْلَكْتَهُمْ . وجيلا من الناس ، أى صِنْفًا من الناس . والفى : الضلال .
وجاروا : عدلوا عن القصد . ووجهتهم ؛ بكسر الواو ، يقال : هذا وجه الرأى ،
أى هو الرأى بنفسه ، والاسم الوجه بالكسر ويجوز بالضم .
قوله : « وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ » ؛ أى لم يعتمدوا على الدين ؛ وإنما أُرْدِيتَهُمُ الحية
ونخوة الجاهلية ، فأخذوا إليها وتركوا الدين ، والإشارة إلى بنى أمية وخلفائهم الذين اتهموه
عليه السلام بدم عثمان ، فحاموا عن الحسب ، ولم يأخذوا بموجب الشرع فى تلك الواقعة

ثم استثنى قوما فاءوا، أى رجعوا عن نصرة معاوية؛ وقد ذكرنا فى أخبار صفين من فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله: « حملتهم على الصعب » أى على الأمر الشاق؛ والأصل فى ذلك البعير المستصعب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه.

[ذكر بعض ما دار بين عليّ ومعاوية من الكتب]

وأول هذا الكتاب :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد ، فإنّ الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خسرها الآخرة ؛ فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومن رأى الدنيا بعينها ، وقدرها بقدرها ؛ وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مردّ له دون نفاذه ؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا النوىّ والرشيد ، فاتق الله؛ ولا تكن ممن لا يرجو الله وقارا ، ومن حقّت عليه كلمة العذاب ؛ فإنّ الله بالمرصاد . وإنّ دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرةً عليك ؛ فأقلع عما أنت عليه من النوىّ والضلال ، على كبر سنّك ، وفناء عمرك ؛ فإنّ حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلّا فسد من آخر ، وقد أردبت حيلًا من الناس كثيرا ، خدعتهم بغيّك . . . إلى آخر الكتاب .

قال أبو الحسن على بن محمد المدائنيّ : فنكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبي سفيان إلى علىّ بن أبي طالب ، أما بعد ؛ فقد وقفتُ على كتابك ، وقد أبيت على الفتن إلّا تماديا ، وإني لعالم أنّ الذي يدعوك إلى ذلك مصرعك الذي

لا بدّ لك منه ؛ وإن كنت مواثلاً ، فازدد غيًّا إلى غيِّك ، فطالما خفّ عقلك ، وميّت نفسك ما ليس لك ، والتويت على مَنْ هو خير منك ؛ ثم كانت العاقبة لغيرك ، واحتملت الوزر بما أحاط بك من خطيئتك . والسلام .

فكتب على عليه السلام إليه :

أما بعد ، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس بيميد السَّبه مما أتى به أهلُك وقومك الذين حملهم الكفرُ وتمنّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسلم حتى صرّعوا مصارعهم حيث علمت ؛ لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيماً ، وأنا صاحبهم في تلك المواطن ، الصالى بحرّهم ، والقالّ لحدّهم ، والقاتل لرؤوسهم ورؤوس الضلالة ، والمُشْرِع إن شاء الله خلفهم بسلفهم ؛ فبئس الخلف خلف أتبع سلفاً محله ومحطه النار . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فقد طال في النيّ ما استمرت أدرجك ، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصك وإبطاؤك ، فتوعد وعيد الأسد ، وترؤغ ورؤغان الثعلب ، فحتم تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعي القاتلة ، ولا تستبعدنها ، فكلّ ما هو آت قريب إن شاء الله . والسلام .

قال : فكتب إليه على عليه السلام :

أما بعد ، فما أعجب ما يأتي منك ، وما أعلمني بما أنت إليه صائر ! وليس إبطائي عنك إلّا ترقباً لما أنت له مكذّب ؛ وأنا به مصدّق ! وكأني بك غداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيجَ الجمال من الأتقال ، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتكم ، وتجحدونه بقلوبكم . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ، فدعني من أساطيرك ، واكفُ عني من أحاديثك ، واقصر عن تقوُّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغرور من معك والخذاع لهم ؛ فقد استغفوتهم ، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل . والسلام .

قال : فكتب إليه على عليه السلام :

أما بعد ؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق^(١) أساطير الأولين ، ونبتلتموه وراء ظهوركم ، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهمكم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . ولعمري ليتمنّ النور على كرهك ، ولينفذ العلم بصغارك ، ولتجازين بمملك ، نعمت في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ؛ فكأنك يباطلك وقد انقضى ، وبمملك وقد هوى ؛ ثم تصير إلى لظى ؛ لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربك بظلام للعبيد !

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فما أعظم الرّين على قلبك ، والنفاء على بصرك ! الشرّ من شيمتك ، والحسد من خيلقتك ، فشمّر للحرب ، واصبر للضرب ، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ماعلت ، والمعاينة للمعتين . هيهات هيهات ! أخطأك ماتمني ، وهوى قلبك مع من هوى ؛ فاربع على ظلمك ، وقس شبرك بفتريك ؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه ، ويفصل بين أهل الشك علمه . والسلام .

قال : فكتب إليه على عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ مسائرك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك ، وأن يرعوى قلبك ، يا بن الصّخر اللعين ! زعمت أن يزن الجبال حلمك ، ويفصل بين أهل الشك علمك ، وأنت الجلف المنافق ، الأغلف القلب ، القليل العقل ، الجبان الرّذل ، فإن كنت صادقاً فيما تسطر ، ويمينك عليه أخو بني سهم ، فدع الناس جانباً ، وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب ، والصبر على

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « للحق » .

الضرب ، واعفُ الفريقين من القتال ، ليعلم أينما المرين على قلبه ، المغطى على بصره ، فأنما أبو الحسن ، قاتل جدك وأخيك وخالك ، وما أنت منهم ببعيد ؛ والسلام !

قالت : وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر - وإن كانت عجائبه وبدائمه جمّة - أن يُفضى أمر عليّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية ندّاً له ونظيراً مماثلاً ، يتعارضان الكتاب والجواب ، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه ، ولا يقول له عليّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها ، وأخشن مسّاً منها ، فليت محمداً صلى الله عليه وآله كان شاهداً ذلك ؛ ليرى عياناً لا خبراً أن الدعوة التي قام بها ، وقاسى أعظم المشاق في تحمّلها ، وكابد الأهوال في الذبّ عنها ، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها ؛ وشيّد أركانها ، وملأ الآفاق بها ، خلّصت صفواً عموماً لأعدائه الذين كذبوه ؛ لما دعا إليها ، وأخرجوه عن أوطانهم لما حضّ عليها ، وأدموا وجهه ، وقتلوا عمّه وأهله ، فكأنه كان يسعى لهم ، ويدأب لراحتهم ؛ كما قال أبو سفيان في أيام عثمان ، وقد مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال ؛ يا أبا عُمارة ! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به ! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية عليّاً ، كما يتفاخر الأكفاء والنظرء ...

وقرّع قسّاً بالفهامة باقل	إذا عير الطائي بالبخل مادي
وقال الدجى : يا صبح لو نك حائل	وقال السها للشمس : أنت خفية
وكاثرت الشهب الحصا والجنادل	وفلّخت الأرض السماء سفاهة
ويانفس جدى إن دهرك هازل !	قياموت زُر إن الحياة ذميمة

ثم أقول ثانياً لأمير المؤمنين عليه السلام : ليت شعري ؛ لماذا فتح باب الكتاب

والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد فادت إلى ذلك، فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لابدّ منهما فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سبّاب هذا السفیه الأحمق، هذا مع أنه القائل: مَنْ وَاجَهَ النَّاسَ نِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ! أَى اقْتَرَوْا عَلَيْهِ وَقَالُوا فِيهِ الْبَاطِلُ.

أَيُّهَا الشَّامِيُّ لِتَحَسَّبَ مِثْلِي إِنَّمَا أَنْتَ فِي الضَّلَالِ تَهِيمٌ^(٢)
لَا تَسَبَّحْنِي فَلَسْتُ بِسَبِّحِي إِنْ سَبَّحِي مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ^(٣)

وهكذا جرى في القنوت واللمن، قنّت بالكوفة على معاوية، ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمى وجيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقتت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي؛ ولعلّه عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنا الآن، ولله أمر هو باله!

(١) سورة الأنعام ١٠٨ . (٢) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو مسكيناً الدارمي .

(٣) السب : بالكسر : الذي يسابك .

(٣٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى ثُم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَى الْمُؤَسِّمِ أَنْاسُ
مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمَى الْقُلُوبِ ، الصَّمَّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمَه الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَبِحَتِّهِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا
بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجَلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ،
وَلَا يُجْزَى جَزَاءُ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ .

فَأُفِّمَ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّيِّبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّيِّبِ ، التَّابِعِ
لِسُلْطَانِهِ ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ .
وَلِيَاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النِّعَمَاءِ بَطْرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبُئْسَاءِ فَتِلًّا .
والسلام .

الشرح :

كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة في السرّ يدعون إلى طاعته ، ويثبتون العرب عن
نصرة أمير المؤمنين ، ويوقعون في أنفسهم أنه إمّا قاتل لعثمان أو خاذل ، وإنّ الخلافة

لا تصلح فيمن قتل أو خذل ، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته ، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ، يذّبه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة ، ولم يصرح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم .

قوله : « عيني بالغرب » ، أى أصحاب أخباره عند معاوية ، وسمى الشام مغرباً لأنه من الأقاليم المغربية .

والموسم : الأيام التي يقام فيها الحج .

وقوله : « ويحتلبون الدنيا دَرَّها بالدين » دلالة على ما قلنا : إنهم كانوا دُعاة يظهرُونَ سَمْتَ الدين ، وناموس العبادة ؛ وفيه إبطال قول مَنْ ظنَّ أنَّ المراد بذلك السرايا التي كان معاوية يبعثها ، فتُغيَّرُ على أعمال على عليه السلام . ودَرَّها منصوب بالبدل « من الدنيا » وروى : « الذين يلتمسون الحق بالباطل » أى يطلبونه ؛ أى يتبعون معاوية وهو على الباطل التماساً وطلباً للحق ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا .

قوله : « وإياك وما يمتدّر منه » من الكلمات الشريفة الجليلة الموقّعة ، وقد رويت مرفوعة ، وكان يقال : ما شئ أشدّ على الإنسان من حُلّ الروءة ، والروءة ألا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يمتدّر منه عند حضوره .

قوله : « ولا تكن عند النعماء بطرا ، ولا عند البأساء فشلا » معنًى مستعمل ،

قال الشاعر :

فلستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرّني ولا جازعٌ من صرْفه المتقلبِ
ولا أتمنى الشرَّ والشرَّ تاركى ولكن مَتًى أُحمَل على الشرِّ أركب

[قُثَم بن عباس وبعض أخباره]

فَأَمَّا قُثَم بن العباس ، فَأُمُّهُ أُمُّ إِخْوَتِهِ ، وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ "الاستيعاب" ،
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن جَعْفَرٍ ، قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَعَبِيدُ اللَّهِ وَقُثَمُ ابْنَا الْعَبَّاسِ نَلْعَبُ ، فَرَبَّنَا رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاكِبًا ، فَقَالَ : « ارفَعُوا إِلَيَّ هَذَا الْفَتَى » يَعْنِي قُثَمَ - فَرَفَعَهُ إِلَيْهِ ! فَأَرَدَفَهُ
خَلْفَهُ ، ثُمَّ جَعَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَدَعَا لَنَا ، فَاسْتَشْهَدَ قُثَمَ بِسَمْرِ قُنْدٍ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ ، قَالَ : كَانَ قُثَمُ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا
بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّ آخِرٍ مِنْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ . قَالَ : وَكَانَ الْمَغِيرَةُ
ابْنُ شُعْبَةَ يَدْعِي ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، فَأَنْكَرَ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : بَلْ آخِرُ
مَنْ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ قُثَمُ بنُ الْعَبَّاسِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَكَانَ قُثَمُ وَالِيًا لَعَلَّيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَكَّةَ ، عَزَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
خَالِدُ بنُ الْعَاصِ بنُ هِشَامِ بنِ الْمَغِيرَةِ الْخَزَوِيِّ - وَكَانَ وَالِيَهَا لِعُمَّانَ - وَوَلَّاهَا أَبَا قَتَادَةَ
الْأَنْصَارِيَّ ، ثُمَّ عَزَلَهُ عَنْهَا وَوَلَّى مَكَانَهُ قُثَمُ بنُ الْعَبَّاسِ ، فَلَمْ يَزَلْ وَالِيَهُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلَ عَلَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ : هَذَا قَوْلُ خَلِيفَةِ (٢) ، وَقَالَ الزَّيْبِيُّ بنُ بَكَّارٍ : اسْتَعْمَلَ عَلَى عَالِيهِ السَّلَامُ قُثَمَ
ابْنَ الْعَبَّاسِ عَلَى الْمَدِينَةِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَاسْتَشْهَدَ قُثَمَ بِسَمْرِ قُنْدٍ ، كَانَ خَرَجَ إِلَيْهَا مَعَ سَعِيدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ
زَمَنَ مَعَاوِيَةَ فَقَتَلَ هُنَاكَ (١)

قَالَ : وَكَانَ قُثَمُ يُشَبِّهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ دَاوُدُ بنُ مُسْلِمٍ (٣) :

(١) الاستيعاب ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٢) هو خَلِيفَةُ بنُ خِيَاطِ الشَّيْبَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِشَبَابٍ ، عُدَّتْ نَسَابَةُ . وَانْظُرْ طَبَقَاتُ الْحِفَاظِ ٢ : ٢١ .

(٣) فِي الْاِسْتِيعَابِ : « سَلِيم » .

عُتِّقْتُ مِنْ حِلٍّ وَمِنْ رَحْلَةٍ	يَا نَاقُ إِن أُدْنِيْتِنِي مِنْ قَتْمٍ
إِنَّكَ إِن أُدْنِيْتِ مِنْهُ غَدًا	حَالَفَنِي الْيُسْرَ وَمَاتِ الْعَدَمُ
وَيُكْفُهُ بِحِمْرٍ وَيُوجِّهُهُ	بَدْرٌ وَفِي الْعَرْنَيْنِ مِنْهُ شَمَمٌ
أَصَمَّ عَنْ أَقِيلِ الْخُلَا سَمْعَهُ	وَمَا عَلَى الْخَبَرِ بِهِ مِنْ صَمَمٍ
لَمْ يَدْرِ مَا «لَا» وَبِـ «إِلَّا» قَد دَرَى	فَعَا فَهَا وَاعْتَا ضَ مِنْهَا نَعَمٌ

(٣٤)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام :

إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ ، وَلَا أَزْدِيَادًا لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْنَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلَايَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيِّتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا ، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ ! فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَاقَى حِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ !

فَأُصْحِرْ لِمَدُوكَ ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبٍ مِنْ حَارَبِكَ ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشرح :

[محمد بن أبي بكر وبعض أخباره]

أم محمد رحمه الله أسماء بنت عُميس الخثعمية : وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله

عليه وآله ، وأخت لبابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب ؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ؛ وهى إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلما قتل جعفر يوم مؤتة تزوجها أبو بكر ، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا ، ثم مات عنها فتزوجها عليّ عليه السلام ، وولدت له يحيى بن عليّ ، لا خلاف فى ذلك .

وقال ابن عبد البر فى " الاستيعاب " : ذكر ابن الكلبيّ أنّ عون بن عليّ اسم أمّه أسماء بنت عميس ، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره .

وقد روى أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له بنتا تسمى أمة الله - وقيل أمانة - ومحمد بن أبي بكر ممن ولد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال ابن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : ولد عام حجة الوداع فى عقب ذى القعدة بذي الحليفة ، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ ، فسمّته عائشة محمدا ، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم ؛ ولم تسكن الصحابة ترى بذلك بأسا ؛ ثم كان فى حجر عليّ عليه السلام ، وقتل بمصر ، وكان عليّ عليه السلام يُبنى عليه ويقرّظه ويفضّله ؛ وكان لحمد رحمه الله عبادة واجتهاد ؛ وكان ممن حضر عثمان ودخل عليه ، فقال له : لو رأيك أبوك لم يسره هذا المقام منك ! فخرج وتركه ، ودخل عليه بعده من قتله . ويقال : إنه أشار إلى من كان معه فقتلوه^(١) .

قوله : « وبلغنى موجدتك » ، أى غضبك ، وجدت على فلان مؤجدة ، ووجدانا لغة قليلة ؛ وأنشدوا :

كَلَانَا رَدَّ صَاحِبَهُ بَغِيْظٍ عَلَى حَنْقٍ وَوَجْدَانٍ شَدِيدٍ^(٢)

(١) الاستيعاب ٢٤٢ .

(٢) لصخر النمر ؛ اللسان ، الصحاح (وجد) .

فأما في الحزن فلا يقال إلا وَجَدْتُ أَنَا بِالْفَتْحِ لا غَيْرَ .
والجهد : الطاقة ، أى لم استبطئك في هذا طاعتك ووسعك ، ومن رواها الجهد بالفتح
فهو من قولهم : اجهد جهدك في كذا ، أى ابلغ الغاية ، ولا يقال هذا الحرف هاهنا
إلا مفتوحا .

ثم طيب عليه السلام نفسه بأن قال له : لو تمَّ الأمر الذي شرعت فيه من ولاية الأشر
مصر لمؤضتكم بما هو أخفَّ عليكم مثونة وثقلا ، وأقلَّ نصبا من ولاية مصر ، لأنه كان
في مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه .

ثم أكد عليه السلام ترغيبه بقوله : « وأعجب إليك ولاية » .
فإن قلت : ما الذي بيده مما هو أخفَّ على محمد مثونة وأعجب إليه من ولاية مصر ؟
قلت : ملك الإسلام كله كان بيد علي عليه السلام إلا الشام ، فيجوز أن يكون قد كان ،
في عزمه أن يوليّه اليمن أو خراسان أو أرمينية أو فارس .
ثم أخذ في الثناء على الأشر وكان علي عليه السلام شديد الاعتضاد به ، كما كان هو
شديد التحقق بولايته وطاعته .

وناقما ، من نقت على فلان كذا ، إذا أنكرته عليه وكرهته منه .
ثم دعا له بالرضوان ؛ ولست أشك بأن الأشر بهذه الدعوة يفر الله له ويكفر ذنوبه ،
ويدخله الجنة ، ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وياطوبى
لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا !
قوله : « وأصحّر لعدوك » أى أبرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التي أنت فيها ، أصحّر
الأسد من خيسه ، إذا خرج إلى الصحراء .
وشمر فلان للحرب ، إذا أخذ لها أهبتها .

(٣٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدْ افْتُتِحَتْ ، وَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ اسْتُشْهِدَ ،
فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَادِحًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَرُكْنًا دَافِعًا .
وَقَدْ كُنْتُ حَثْتُ النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ
سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدْعًا ، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا ، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا ، وَمِنْهُمْ
الْقَاعِدُ خَاذِلًا .

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي
هَدَوًى فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوَطُّيْنِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ، لَأَجَبْتُ إِلَّا أَبْقَى مَعَ هَوْلَاءِ
يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقَى بِهِمْ أَبَدًا .

الشرح :

انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرجل قيادها ، وتملكه زمامها ؛ واعجب لهذه
الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوله؛ سلسلة سهلة، تندفق من غير تعسف
ولا تكلف ؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال : « يوما واحدا ، ولا ألتقي بهم أبدا » ،
وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل

تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قَسَرَهَا بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بَيّن ، وعلامة واضحة ، وهذا الصّنف من البيان أحد أنواع الإيجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال : انظرُ إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تتمزجا ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما .

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية . ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ؛ كيف قال : « ولدا ناصحا » ، « وعاملا كادحا » ، و « سيفا قاطعا » ، و « ركبا دافعا » ، لو قال : « ولدا كادحا » و « عاملا ناصحا » ، وكذلك ما بعده لما كان صوابا ، ولا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل هذه الزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو ! ولم يماثر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ؛ لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربّ بين الشجعان ، لأن أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ، ولم يكونوا ذوي حرب ؛ وخرج أشجع من كلّ بشرٍ مشى على الأرض ؛ قيل لخلف الأحمر : أيما أشجع عنبسة وبسطام أم عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ، فتقيل له : فعلى كلّ حال . قال : والله لو صاح في وجوههما لما تا قبل أن يحمل عليهما . وخرج أفصح من سحبان وقُسّ ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ، كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا : أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة . وخرج أزهّد الناس في الدنيا ، وأعفّهم ؛ مع أن قريشا ذوو حرص وعجبة الدنيا ، ولا غرور فيمن كان

محمد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرجه ، والعناية الإلهية تمدّه وترفّده أن يكون منه ما كان !

يقال : احتسب ولده ، إذا مات كبيرا ، واغتبط ولده ، إذا مات صغيرا .
 قوله : « فمنهم الآتى ... » ، قسم جنده أقساما ، فمنهم من أجابه وخرج كارها للخروج ، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾^(١) ، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا بَيُّوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾^(٢) ، ومنهم من تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٣) . والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبي صلى الله عليه وآله ، ومنّ تذكّر أحوالهما وسيرتهما ، وما جرى لهما إلى أن قبضا ، علم تحقيق ذلك .
 ثمّ أقسم أنه لولا طمعه في الشهادة لمّا أقام مع أهل العراق ولا صحبهم .
 فإن قلت : فهلا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة ؟
 قلت : ذلك لا يجوز ، لأنّه إلقاء النفس إلى التهلكة ، ولشهادة شروط متى فقدت ؛ فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى .

(٢) سورة الأحزاب ١٣ .

(١) سورة الأنفال ٦ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٣٦)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في ذكر جيش
أنفذه إلى بعض الأعداء ، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا ،
وَنَكَّصَ نَادِمًا ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئًا
كَلَاوِلًا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْفٍ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا ، بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَقِ ،
وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ؛ فَلَا يَأِيَّ بِلَايٍ مَا نَجَا .

فَدَعُ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجَوَّأَهُمْ فِي الشَّقَاكِ ، وَجَاحَهُمْ
فِي النَّيِّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كِإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزْتَ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَجِيئِي ؛ وَسَلَبُوا
سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّى .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ ؛
لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّهُمُ عَنِّي وَخْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أُمِّكَ
- وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا ، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ وَاهِنًا ، وَلَا سَلِسَ الزَّمَامِ .

لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّائِكِ الْمُقْتَمِدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ :
فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَبِّبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعَزُّ عَلَى أَنْ تُرَى بِي كَاثِبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشَّيْخُ :

قد تقدم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بُسر بن أرطاة وغارته على الين
في أول الكتاب .

ويقال: طَفَّات الشمس - بالتشديد - إذا مالت للغروب ، وطفَّل الليل ، بشدِّداً أيضاً ،
إذا أقبل ظلامه ، والطفَّل ، بالتحريك : بعد العصر حين يطفُل الشمس للغروب ؛ ويقال :
أُتِيَتْه طَفْلَى ؛ أى في ذلك الوقت .

وقوله عليه السلام : « للإياب » أى للرجوع ، أى ما كانت عليه في الليلة التي قبلها ،
يعنى غيبوبتها تحت الأرض . وهذا الخطاب إنما هو على قدر أفهام العرب ؛ كانوا يعمِّقون
أنَّ الشمس منزلها ومقرّها تحت الأرض ، وأنها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم ، ثم تعود
إلى منزلها ، فتأوى إليه كما يأوى الناس ليلاً إلى منازلهم .

وفال راوندى : « عند الإياب » عند الزوال : وهذا غير صحيح ، لأن ذلك الوقت
لا يسمّى طفلاً ، ليقال : إنَّ الشمس قد طفَّلت فيه .

قوله عليه السلام : « فاقتتلوا شيئاً كلا ولا » ، أى شيئاً قليلاً ، وموضع « كلا ولا »
نصب ، لأنه صفة « شيئاً » وهى كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً ؛ والمعروف عند أهل اللغة :
« كلاوذا » ، قال ابن هانئ المغربي :

وأُسْرِعُ في العين من لحظةٍ وأقصرُ في السمع من لا ، وذا

وفي شعر الكميّ « كلا وكذا تغميضة » (١) .

وقد رويت في « نهج البلاغة » ، كذلك ، إلّا أن في أكثر النسخ : « كلا ولا » ،
ومنَّ الناس من يرويها : « كلا ولات » ، وهى حرف أجريّ مجرى « ليس » ؛ ولا تجبى

(١) البيت بتمامه :

كَلَّا وَكَذَا تَغْمِيضَةٌ ثُمَّ هِجَّتُمْ لَدَى حِينَ أَنْ كَانُوا إِلَى النَّوْمِ أَفْقَرَا

« حين » إلا أن تحذف في شعر ، ومن الرواة من يرويها : « كلا ولاى » ، ولاى فعل ، معناه أبطأ .

قوله عليه السلام : « نجبا جريضا » ، أى قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب ، يقال : جَرَضَ بريقه يجرض بالكسر ، مثال كسر يكسر ، ورجل جريض مثل قَدَرٍ يقدر فهو قدير ، ويجوز أن يريد بقوله : « فنجا جريضا » ، أى ذا جريض ، والجريض : النصة نفسها ، وفي المثل : « حال الجريض دون القريض » قال الشاعر :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَفْنَ فِي النَّاسِ لَيْلَةً إِذَا اخْتَلَفَ اللَّحْيَانِ عِنْدَ الْجَرِيضِ^(١)
قال الأصمى : ويقال : هو يجرض بنفسه ، أى يكاد يموت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وَأَفْلَتَنَ عِلْبَا جَرِيضًا وَلَوْ أَدْرَكْنَاهُ صَفِيرَ الْوِطَابِ^(٢)
وأجرضه الله بريقه : أغصه .

قوله عليه السلام : « بعد ما أخذ منه بالحق » ، هو موضع الخلق من الحيوان ، وكذلك الخناق ، بالضم ؛ يقال أخذ بخنقه ، فأما الخناق بالكسر ؛ فالجبل تخنق به الشاة . والرمق : بقية الروح .

قوله عليه السلام : « فلأيا بلأى مانجا » ، أى بعد بقاء وشدة ، وما زائدة أو مصدرية ، وانتصب « لأيا » على المصدر القائم مقام الحال ، أى نجا مبطلا ، والعامل في المصدر محذوف أى أبطأ بطلا ؛ والفائدة في تكرير اللفظة المبالغة في وصف البطء الذى نجا موصوفه به ، أى لأيا مقروناً بلأى .

(١) لامرئ القيس ، ديوانه ٧٧ . (٢) ديوانه ١٣٨ .

وقال الراوندى : هذه القصة وهذا الهارب جريضا وبعد لأى ما نجا ، هو معاوية ، قال :
وقد قيل : إن معاوية بعث أمويًا فهرب على هذه الحال ؛ والأول أصح ، وهذا عجيب
مضحك وددت له ألا يكون شرح هذا الكتاب !

قوله : « فدع عنك قريشاً » إلى قوله : « على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله » ،
هذا الكلام حق ، فإن قريشا اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بنصاً له وحسداً وحقدًا
عليه ، فأصفتوا كلهم يداً واحدة على شقاقه وحربه ، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع
رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم تحرم حاله من حاله أبداً إلا أن ذاك عصمه الله من القتل ،
فمات موتاً طبيعياً ، وهذا اغتاله إنسان فقتله .

قوله : « فجرت قريشا عنى الجوازي ، فقد قطعوا رحى ، وسلبوني سلطان ابن أمي » ،
هذه كلمة تجرى مجرى المثل ، تقول ابن يسىء إليك وتدعو عليه : جزتك عنى الجوازي !
يقال جزاه الله بما صنع ، وجزاه الله بما صنع ! ومصدر الأول جزاء ، والثاني مجازاة ، وأصل
الكلمة أن الجوازي جمع جازية كالجوازي جمع جارية ، فكأنه يقول : جَزَتْ قريشا عَنى بما
صنعت لى كل خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة ، أى جعل الله هذه الدواهي
كلها جزاء قريش بما صنعت. وسلطان ابن أمي ، يعنى به الخلافة ، وابن أمه هو رسول الله
صلى الله عليه وآله ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم ، أم عبد الله
وأبى طالب ، ولم يقل سلطان ابن أبى ؛ لأن غير أبى طالب من الأعمام يشرّكه في النسب
إلى عبد المطلب .

قال الراوندى : الجوازي : جمع جازية ، وهى النفس التى تجزى ، أى جزاهم وفعل بهم
ما يستحقون عساكر لأجل وفى نيابتي ، وكأفأهم سرّية تنهض إليهم ؛ وهذا إشارة إلى بنى
أمية يهلكون من بعده . وهذا تفسير غريب طريف .

وقال أيضا : قوله : « سلطان ابن أمي » يعني نفسه ، أى سلطانه ، لأنه ابن أم نفسه ، قال : وهذا من أحسن الكلام . ولا شبهة أنه على تفسير الراوندى لوقال : وسلبوني سلطان ابن أخت خالتي ، أو ابن أخت عمي ، لكان أحسن وأحسن ، وهذا الرجل قد كان يجب أن يُمحجر عليه ، ولا يمكن من تفسير هذا الكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألا يتمرّض له

قوله : « فإن رأيت قتال المحلّين » ، أى الخارجين من الميثاق والبيعة ، يعنى البغاة ومخالفي الإمام ، ويقال : لكلّ من خرج من إسلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحرم : مُحلّ ، وعلى هذا فسر قول زهير :

* وكم بالقنان من مُحلٍّ ومُحرمٍ ^(١) *

أى من لا ذمة له ومن له ذمة ، وكذلك قول خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رَملة بنت الزبير بن العوام :

ألا من قلب معنى غزلٍ يحبّ المحلّة أخت المحلّ
أى ناقضة العهد أخت المحارب فى الحرم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية .
وروى « متخضعا متضرعا » بالضاد .

ومقرّا للضم وبالضم ، أى هو راض به ، صابر عليه . وواهنّا ، أى ضعيفا .
السلس : السهل : ومقتد البعير : راحته .

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مرداس السكّميّ ، ولم أجده فى ديوانه ، ومعناه ظاهر ،
وفى الأمثال الحكيمية : لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك ، فإنه إن كان صديقا أحزنته ،
وإن كان عدواً أشمتّه ، ولا خير فى واحد من الأمرين .

(١) ديوانه ١١ وصدره :

* جَمَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَةٍ *

(٢٧)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَبْرَةِ الْمُتَّسَعَةِ ، مَعَ
تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ نِعَالِي طَلَسَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ
حُجَّةٌ .

فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ
كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ . والسلام .

الشَّيْخُ :

أول هذا الكتاب قوله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَصِيرَةٌ ذَاتُ زِينَةٍ وَبَهْجَةٍ ، لَمْ يَصْبُ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا وَشَغَلَتْهُ
بِزِينَتِهَا عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنْهَا ، وَبِالْآخِرَةِ أَمْرُنَا ، وَعَلَيْهَا حُثُنَا ، فَدَعُ يَا مُعَاوِيَةُ مَا يَفْنَى ،
وَأَعْمَلْ لِمَا يَبْقَى ، وَاحْذَرِ الْمَوْتَ الَّذِي إِلَيْهِ مُصِيرُكَ ، وَالْحِسَابَ الَّذِي إِلَيْهِ عَاقِبَتُكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَكْرَهُ ، وَوَفَّقَهُ لِمَا يَنْفَعُهُ ، وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ سُوءًا أَعْرَاهُ بِالدُّنْيَا ، وَأَنْسَاهُ الْآخِرَةَ ، وَبَسَطَ لَهُ أَمَلَهُ ، وَعَاقَهُ عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهُ ،
وَقَدْ وَصَلَنِي كِتَابُكَ فَوَجَدْتُكَ تَرْمِي غَيْرَ غَرَضِكَ ، وَتَنْتَسُدُّ غَيْرَ ضَالَتِكَ ، وَتَحْبِطُ فِي عَمَايَةِ .

وَتَنِيَه فِي ضَلَالَةٍ ، وَتَمْتَصِم بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، وَتَلُوذ بِأَضْعَفِ شُبْهَةٍ .
فَأَمَّا سَوَالُكَ الْمَتَارَكَةَ وَالْإِفْرَارَ لَكَ عَلَى الشَّامِ ، فَلَوْ كُنْتُ فَاعِلًا ذَلِكَ الْيَوْمَ لَفَعَلْتُهُ أَمْسَ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنْ تُعْمَرُ وَلَا كَهْ فَقَدْ عَزَلَ مَنْ كَانَ وَلَّاهُ صَاحِبَهُ ، وَعَزَلَ عُثْمَانُ مَنْ كَانَ عَمْرُ
وَلَّاهُ وَلَمْ يَنْصَبْ لِلنَّاسِ إِمَامًا إِلَّا لِيَرَى مِنْ صِلَاحِ الْأُمَّةِ إِمَامًا قَدْ كَانَ ظَهَرَ لِمَنْ قَبْلَهُ ، أَوْ أَخْفَى عَنْهُمْ
عَيْبُهُ ، وَالْأَمْرُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ الْأَمْرُ ، وَلِكُلِّ وَالٍ رَأْيٌ وَاجْتِهَادٌ . فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَشَدَّ
لِرُؤُوسِكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمَتَّبَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمَتَّبَعَةِ . . . إِلَى آخِرِ الْفَصْلِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ . . . » إِلَى آخِرِهِ ،
فَقَدْ رَوَى الْبَلَاذُرِيُّ قَالَ : لَمَّا أُرْسِلَ عُثْمَانُ إِلَى مَعَاوِيَةَ يَسْتَمِدُّهُ ، بَعَثَ يُزِيدُ بْنُ أَسَدِ الْقَسْرِيِّ
جَدَّ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُزَيْدٍ أَمِيرَ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ : إِذَا أَتَيْتَ ذَا خُشْبٍ فَأَقِمْ بِهَا ،
وَلَا تَتَجَاوَزْهَا ، وَلَا تَقُلْ : الشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ ؛ فَإِنِّي أَنَا الشَّاهِدُ ،
وَأَنْتَ الْغَائِبُ .

قَالَ : فَأَقَامَ بِذِي خُشْبٍ حَتَّى قَتَلَ عُثْمَانَ ، فَأَسْتَقْدَمَهُ حِينَئِذٍ مَعَاوِيَةَ ، فَعَادَ إِلَى الشَّامِ
بِالْجَيْشِ الَّذِي كَانَ أُرْسِلَ مَعَهُ ، وَإِنَّمَا صَنَعَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ لِيَقْتُلَ عُثْمَانَ فَيَدْعُوَ
إِلَى نَفْسِهِ .

وَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عِنْدَ صَلَاحِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى
بَيْعَتِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ فِيهِ :

وَلَعُمْرِي لَوْ قَتَلْتُكَ بِعُثْمَانَ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا ، وَأَنْ يَكُونَ رَأْيَا صَوَابًا ،
فَإِنَّكَ مِنَ السَّاعِينَ عَلَيْهِ ، وَالْخَازِلِينَ لَهُ ، وَالسَّافِكِينَ دَمَهُ ، وَمَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَلَاحٌ
فِيْمَنْعُكَ مِنِّي ، وَلَا بَيِّدُكَ أَمَانًا .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ جَوَابًا طَوِيلًا يَقُولُ فِيهِ : وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي مِنَ السَّاعِينَ عَلَى
عُثْمَانَ ، وَالْخَازِلِينَ لَهُ ، وَالسَّافِكِينَ دَمَهُ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَلَاحٌ فَيَمْنَعُكَ مِنِّي .

فَأَقْسِمَ بِاللّٰهِ لَآ أَنتَ الْمُرَبِّصُ بِقَتْلِهِ ، وَالْمَحْبَبُّ لِهَلَاكِهِ ، وَالْحَاسِبُ النَّاسَ قَبْلَكَ عَنْهُ عَلَى بَصِيرَةٍ
 مِنْ أَمْرِهِ ؛ وَلَقَدْ أَتَاكَ كِتَابُهُ وَصَرِيحُهُ يَسْتَنْبِثُ بِكَ وَيَسْتَصْرِخُ ، فَا حَفَلَتْ بِهِ ، حَتَّى
 بَعَثَ إِلَيْهِ مَعْذِرًا بِأَجْرَةٍ ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوهُ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَقُتِلَ كَمَا كُنْتَ أَرَدْتَ ،
 ثُمَّ عَلِمْتَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَنْ يَمْدِلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، فَطُفِقْتَ نَعْمَى عَمَّا وَتُلْزِمُنَا دَمَهُ ،
 وَتَقُولُ : قُتِلَ مَظْلُومًا ، فَإِنْ يَكُ قُتِلَ مَظْلُومًا فَأَنْتَ أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَصُوبًا وَمُصَعَّدًا ،
 وَجَائِمًا وَرَابِضًا ، تَسْتَغْوِي الْجَهْلَ ، وَتَنَازَعُنَا حَقًّا بِالسُّفْهَاءِ ، حَتَّى أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ ،
 ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ^(١) .

(٣٨)

الأُسل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولى عليهم الأُشتر :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ
فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضْرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ
وَالظَّالِمِينَ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ،
وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ؛ أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ
مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ ،
فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ ، لَا كَلِيلُ الظُّلْمَةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيَّةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ
أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُخَجِّمُ ،
وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ؛ وَقَدْ آتَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِتَصِيحَتِهِ لَكُمْ ،
وَسِدَّةِ سَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

الشَّرْح :

هذا الفصل يُشكل على تأويله ، لأنَّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان ، وإذا شهد
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ في الأرض ، فهذه شهادة قاطعة
على عثمان بالعصيان ، وإتيان المنكر ، ويمكن أن يقال وإن كان متعسفًا : إنَّ الله تعالى

عُصِيَ فِي الْأَرْضِ لَا مِنْ عُمَانَ ؛ بَلْ مِنْ وَلَاتِهِ وَأَمْرَائِهِ وَأَهْلِهِ ، وَذَهَبَ بَيْنَهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ ،
وَضَرَبَ الْجَوْرُ سُورِدِقَهُ بَوْلَايَتِهِمْ ، وَأَمَرَهُمْ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمَقِيمِ وَالظَّالِمِ ، فَشَاعَ الْمُنْكَرُ ،
وَقُدِّمَ الْمَعْرُوفُ . يَبْقَى ^(١) أَنْ يَقَالَ : هَبْ أَنْ الْأَمْرَ كَمَا تَأَوَّلْتَ ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَضِبُوا اللَّهَ إِلَى
مَاذَا آلَ أَمْرُهُمْ ؟ أَلَيْسَ الْأَمْرُ آلَ ^(٢) إِلَى أَنْهُمْ قَطَعُوا الْمَسَافَةَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَتَلُوا عُمَانَ !
فَلَا تَعْدُو حَالَهُمْ أَمْرَيْنِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا أَطَاعُوا اللَّهَ بِقَتْلِهِ فَيَكُونَ عُمَانُ عَاصِيًا مُسْتَحَقًّا لِلْقَتْلِ ،
أَوْ يَكُونُوا أَسْخَطُوا اللَّهَ تَعَالَى بِقَتْلِهِ فَعُمَانُ إِذَا عَلَى حَقٍّ ، وَهُمْ الْفَسَاقُ الْعَصَاةُ ، فَكَيْفَ
يَجُوزُ أَنْ يَجْلِبَهُمْ أَوْ يَخَاطِبَهُمْ خُطَابُ الصَّالِحِينَ ! وَيُمْكِنُ أَنْ يَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ غَضِبُوا
لِلَّهِ ، وَجَاءُوا مِنْ مِصْرَ ، وَأَنْكَرُوا عَلَى عُمَانَ تَأْمِيرَهُ الْأُمَرَاءَ الْفَسَاقَ ، وَحَصَرُوهُ فِي
دَارِهِ طَلِبًا أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمْ مَرْوَانَ لِيَحْبِسُوهُ ، أَوْ يُؤَدِّبُوهُ عَلَى مَا كَتَبَهُ فِي أَمْرِهِمْ ، فَلَمَّا حُصِرَ
طَمَعَ فِيهِ مُبْغِضُوهُ وَأَعْدَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا ، وَصَارَ مَعْظَمُ النَّاسِ إِبْرَاءَ عَلَيْهِ ، وَقَلَّ
عَدَدُ الْمَصْرِيِّينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا اجْتَمَعَ مِنَ النَّاسِ عَلَى حَصْرِهِ وَمُطَالَبَتِهِ بِخَلْعِ نَفْسِهِ ، وَتَسْلِيمِ
مَرْوَانَ وَغَيْرِهِ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ إِلَيْهِمْ ، وَعَزَلَ عَمَّالَهُ ، وَالْأَسْتَبْدَالَ بِهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا خَائِفِينَ
يَطْلُبُونَ نَفْسَهُ ، وَلَكِنْ قَوْمًا مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ تَسَوَّرُوا دَارَهُ ، فَرَمَاهُمْ بَعْضُ عَبِيدِهِ بِالسَّهَامِ
فَجُرِحَ بَعْضُهُمْ ، فَفَادَتْ الزُّرُورَةُ إِلَى النُّزُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ ، وَتَسَرَّعَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
فَقَتَلَهُ . ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْقَاتِلَ قُتِلَ فِي الْوَقْتِ ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَشَرَحْنَاهُ ، فَلَا يُلْزَمُ
مِنْ فِسْقِ ذَلِكَ الْقَاتِلِ وَعَصْيَانِهِ أَنْ يَفْسُقَ الْبَاقُونَ ، لِأَنَّهُمْ مَا أَنْكَرُوا إِلَّا الْمُنْكَرَ ؛ وَأَمَّا
الْقَتْلُ فَلَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ ، وَلَا رَامُوهُ وَلَا أَرَادُوهُ ، فَجَازَ أَنْ يَقَالَ : إِنَّهُمْ غَضِبُوا اللَّهَ ، وَأَنْ يُثْنَى
عَلَيْهِمْ وَيُعَدَّحَمَ .

ثُمَّ وَصَفَ الْأَشْرَ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ ، وَبِمِثْلِ قَوْلِهِ : « لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ » قَوْلُهُمْ :
« لَا يَنَامُ لَيْلَةَ يَخَافُ ، وَلَا يَشْتَعِ لَيْلَةَ يُضَافُ » ، وَقَالَ :

(١) كَذَا فِي ١ ، وَفِي ب : « يَنْبَغِي » . (٢) سَاقِطَةٌ مِنْ ب .

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مَبْطُنًا مُسْهِدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوَجْلِ^(١)

ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به مما يطابق الحق ، وهذا من شدة دينه وصلابته عليه السلام ، لم يسامح نفسه في حق أحب الخلق إليه أن يهمل هذا القيد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » :

وقال أبو حنيفة : قال لي الربيع في دهليز المنصور : إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء بعد الشيء من أمور ملكه ، فأنتدّه وأنا خائف على ديني ، فما تقول في ذلك ؟ قال - ولم يقل لي ذلك إلا في ملأ الناس : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ، قلت : فلا بأس عليك أن تفعل بالحق ؟ قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادني فاصطدته .

والذي صدع بالحق في هذا المقام الحسن البصري ، قال له عمر بن هبيرة أمير العراق في خلافة يزيد بن عبد الملك في ملأ من الناس ، منهم الشعبي وابن سيرين : يا أبا سعيد ، إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء أعلم أن في تنفيذه الهلكة في الدين ، فما تقول في ذلك ؟ قال الحسن : ماذا أقول ! إن الله مانعك من يزيد ، ولن يمنحك يزيد من الله ، يا عمر خف الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخض ليلته عن القيامة ، إنه سينزل عليك ملك من السماء فيحطّك عن سريرك إلى قصرِكَ ، ويضطرّك من قصرِكَ إلى لزوم فراشِكَ ، ثم ينقلّك عن فراشِكَ إلى قبرِكَ ، ثم لا يُعْنِي عَنْكَ إِلَّا عَمَلُكَ ؛ فقام عمر بن هبيرة باكياً يصطك لسانه .

قوله : « فإنه سيفٌ من سيوف الله » ، هذا لقبُ خالد بن الوليد ، واختلف فيمن

(١) لأبي كبير الهذلي ، ديوان الحماسة - ، بشرح التبريزي - ٨٦ . الهوجل : الثقل الكسلان .

لقبه به ، فقيل : لقبه به رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله ، والصحيح أنَّه لقبه به أبو بكر ، لقتاله أهل الردة ، وقتله مُسيلمة .

والظُّبَّة ، بالتخفيف : حدُّ السيف . والناي من السيوف : الذى لا يَقْطَع ؛ وأصله نبا ، أى ارتفع ؛ فلمَّا لم يَقْطَع كان مرتقما ، فسَمَّى نايًا ؛ وفى الكلام حذفٌ تقديره : ولا نابٍ ضارب الضريبة ، وضارب الضريبة هو حدُّ السيف ، فأما الضريبة نفسها فهو الشيء المضروب بالسيف ، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى « مفعول » لأنَّه صار فى عداد الأسماء ، كالنطيحة والأَكيلة .

ثم أمرهم بأن يطيعوه فى جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام ، وقال : إنه لا يقدم ولا يؤخر إلَّا عن أمرى ، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَنَحَ له أن يعمل برأيه فى أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدًّا ؛ لأنَّه يكون قد أقامه مقام نفسه . وجاز أن يقول : إنه لا يفعل شيئًا إلَّا عن أمرى ، وإن كان لا يُراجعه فى الجزئيات على عادة العرب فى مثل ذلك ؛ لأنَّهم يقولون فيمن يثقون به نحو ذلك ، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليين إلى أن الله تعالى قال لمحمد صَلَّى الله عليه وآله : احكم بما شئت فى الشريعة ، فإنك لا تحكم إلَّا بالحق ، وإنه كان يحكم من غير مراجعته لجهنم ، وإنَّ الله تعالى قد قال فى حقِّه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١) ، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأُشتر ، لأنَّه قد قرَّر معه بينه وبينه ألاَّ يعمل شيئًا قليلًا ولا كثيرًا إلَّا بعد مراجعته ، فيجوز ، ولكنَّ هذا بعيد ، لأنَّ المسافة طويلة بين العراق ومصر ، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد .

ثم ذكر أنَّه أثرهم به على نفسه ، وهكذا قال عمر لما أنفذ عبدَ الله بن مسعود إلى الكوفة فى كتابه إليهم : قد آثرُكم به على نفسى ؛ وذلك أن عمر كان يستفتيه فى الأحكام ، وعلىَّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأُشتر ، ويقوى أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم ، فلمَّا بعثه إلى مصرَ كان مؤثرًا لأهل مصرَ به على نفسه .

(٣٩)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

فإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِلدُّنْيَا أَمْرِي ظَاهِرٌ غَيْبُهُ ، مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ ، يَتَتَبِعُ
الْكُرْجِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسْفَهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ الْآثَرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ؛ اتَّبَاعَ
الْكَلْبِ الضَّرْعَامِ يَلْوُذُ بِمَخَالِيهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُدْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيَسَتِهِ .
فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَذْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ .
فَإِنْ يُعْكَنَ اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْرُكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا
وَتَهْفِيَا ، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا . وَالسَّلَامُ .

الْبَيْزُج :

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه ، لم يحمله بغضه لهما ، وغيظه منهما ، إلى أن
بالغ في ذمهما به ، كما يبلغ الفصحاء عند سورة الغضب ، وتدفع الألفاظ على الألسنة ،
ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوى الإنصاف أن عمرا جعل دينه تبعا لدنيا معاوية ،
وأنه ما بايعه وتابعه إلا على جمالة جعلها له ، وضمان تكفل له بإيصاله ، وهى ولاية مصر
مؤجلة ، وقطعة وافية من المال معجلة ، ولولديّه وغلاميه ما ملأ أعينهم .
فأما قوله عليه السلام فى معاوية : « ظاهري غيبي » ، فلا ريب فى ظهور ضلاله وبغيه ؛
وكلُّ باغٍ غاوٍ .

أما مهتوك ستره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جُلَسَاء وسَّار ، ومعاوية لم يتوقَّر ، ولم يلزم قانون الرياسة إلَّا منذ خرج على أمير المؤمنين ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلَّا فقد كان في أيام عثمان شديد التَّهَتُّك ، موسوما بكلِّ قبيح ، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلا خوفا منه ، إلَّا أنه كان يلبس الحرير والدِّيَّاج ، ويشرب في آنية الذهب والفضَّة ، ويركب البَغَلات ذواتِ السَّروج المحلَّاة بها ، وعليها جلال الدِّيَّاج والوشى ؛ وكان حينئذ شابًّا ، وعنده نزق الصَّبَا ، وأثر الشَّيبَةِ ، وسكر السلطان والإمْرَة ؛ ونقل الناسُ عنه في كتب السيرة أنَّه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام ، وأما بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيسه ، فقيل : أنه شرب الخمر في ستر ، وقيل : إنه لم يشربه . ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب عليه ، وأعطى ووصل عليه أيضًا . وروى أبو الفرج الأصبهانيّ قال : قال عمرو بن العاص لمعاوية في قدِّمة قدِّمها إلى المدينة أيام خلافته : قم بنا إلى هذا الذي قد هدَّم شرفه ؛ وهتَكَ ستره ، عبد الله ابن جعفر ، نفق على بابه ، فنَسَمِعَ غناء جواريه ، فقاما ليلا ومعهما وَرْدَانُ غلامُ عمرو ، ووفقًا يباب عبد الله بن جعفر ، فاستمعَا الغناء وأحسَّ عبدُ الله بوقوفهما ، ففتح الباب ، وعَزَمَ على معاوية أن يدخل ، فدخل ، فجلس على سرير عبد الله ، فدعا عبد الله له وقدَّم إليه يسيرا من طعام ، فأكل ، فلمَّا أُنِسَ قال : يا أمير المؤمنين ، ألا تأذن لجواريك أن يتمنَّ أصواتهنَّ ، فإنَّك قطعتهما عليهنَّ ؟ قال : فليقلن ، فرفعن أصواتهنَّ ، وجعل معاوية يتحرَّك قليلا قليلا حتَّى ضرب برجله السرير ضربا شديدا ، فقال عمرو : قم أيُّها الرجل ، فإنَّ الرجل الذي جئت لتلجأه أو لتعجب من أمره أحسنُ حالا منك . فقال : مهْلا ، فإنَّ الكريم طروب !

أما قوله: « يشين الكريم بمجلسه ، ويسفه الحليم بخلطته » : فالأمر كذلك ، فإنه لم يكن في مجلسه إلا شتم بنى هاشم وقد فهم ، والتعرض بذكر الإسلام ؛ والظمن عليه ، وإن أظهر الانتماء إليه . وأما طلب عمرو فضله واتباعه أثره اتباع الكلب للأسد فظاهر ، ولم يقل : الثعلب ، غصاً من قدر عمرو ، وتشبيها له بما هو أبلغ في الإهانة والاستخفاف .

ثم قال : « ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت » ، أى لو قعدت عن نصره ولم تشخص إليه مماثلاً به على الحق لوصل إليك من بيت المال قدر كفايتك .

ولقائل أن يقول : إن عمراً ما كان يطلب قدر الكفاية وعلى عليه السلام ما كان يعطيه إلا حقه فقط ، ولا يعطيه بلداً ولا طرفاً من الأطراف ، والذي كان يطلب ملك مصر ، لأنه فتحها أيام عمر ووليتها برهة ، وكانت حسرة في قلبه ، وحزاة في صدره ، فباع آخرته بها ، فالأولى أن يقال : معناه لو أخذت بالحق أدركت ما طلبت من الآخرة .

فإن قلت : إن عمراً لم يكن على عليه السلام يمتد أنه من أهل الآخرة ، فكيف يقول له هذا الكلام ؟

قلت : لا خلل ولا زلل في كلامه عليه السلام ، لأنه لو أخذ بالحق لكان معتقداً كونه على عليه السلام على الحق باعتقاده صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصحة التوحيد ، فيصير تقدير الكلام : لو بايعتني معتقداً للزوم بيعتي لك لكنت في ضمن ذلك طالبا الثواب ، فكنت تدركه في الآخرة .

ثم قال مهتداً لهما ، ومتوعداً إياهما : « فإن يُمكن الله منك ومن ابن أبي سفيان » ، وأقول : لو ظفر بهما لما كان في غالب ظني يقتلهما ، فإنه كان حليماً كريماً ، ولكن كان يحبسهما ليحسبهما مائة فسادهما .

ثم قال : « وإن تمجّزا وتبقيا » ، أى وإن لم أستطع أخذكما أو أمت قبل ذلك وبقيتما بعدى ، فما أمانكما شرّ لكما من عقوبة الدنيا ؛ لأن عذاب الدنيا منقطع ، وعذاب الآخرة غير منقطع .

وذكر نصر بن مزاحم فى كتاب « صيفين » هذا الكتاب زيادة لم يذكرها الرضى . قال نصر : وكتب على عليه السلام إلى عمرو بن العاص :
 من عبد الله على أمير المؤمنين إلى الأبر ابن الأبر عمرو بن العاص بن وائل ، شافى
 محمد وآل محمد فى الجاهلية والإسلام ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنك تركت
 مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره ، يشين الكريم بمجلسه ، ويسفّه الحليم بخلطته ،
 فصار قلبك لقلبه تبعاً ، كما قيل : « وافق شئ طبقة » فسلبك دينك وأمانتك ودنياك
 وآخرتك ، وكان علم الله بالنافيك ، فصرت كالذئب يتبع الضّرغام إذا ما الليل دجى ، أو
 أتى الصبح يلتبس فاضل سوره ، وحوايا فريسته ، ولكن لا نجاة من القدر ، ولو بالحق
 أخذت لأدركت ما رجوت ، وقد رُشد من كان الحق قائده ، فإن يُمكن الله منك ومن
 ابن آكلة الأكباد ، ألحقكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، وإن تمجّزا وتبقيا بعد ؛ فالله حسبكما ، وكفى بانتقامه انتقاماً ، وبعقابه
 عقاباً ! والسلام .

(٤٠)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ ، وَعَصَيْتَ
إِمَامَكَ ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ،
وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، وَارْفَعَ إِلَى حِسَابِكَ ، وَأَعْلَمَ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ
حِسَابِ النَّاسِ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشرح :

أَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ : أَذَلَّتْهَا وَأَهْنَيْتَهَا ، وَجَرَدْتَ الْأَرْضَ : قَشَرْتَهَا ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ نَسَبَهُ
إِلَى الْخِيَانَةِ فِي الْمَالِ ، وَإِلَى إِخْرَابِ الصَّبِيَّاعِ ، وَفِي حِكْمَةِ أَبْرُويزَ أَنَّهُ قَالَ لِنَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ :
إِنِّي لَا أَحْتَمِلُكَ عَلَى خِيَانَةِ دِرْهَمٍ ، وَلَا أَحْمَدُكَ عَلَى حِفْظِ عَشْرَةِ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، لِأَنَّكَ إِنَّمَا
تَحْقِنُ بِذَلِكَ دَمَكَ ، وَتَعْمُرُ بِهِ أَمَانَتَكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ خُنْتَ قَلِيلًا خُنْتَ كَثِيرًا ، فَأَحْتَرَسُ مِنْ
خَصْلَتَيْنِ : مِنَ النِّقْصَانِ فِيمَا تَأْخُذُ ، وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِيمَا تُعْطِي ؛ وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجْعَلْكَ عَلَى ذَخَائِرِ
الْمَلِكِ ، وَعِمَارَةِ الْمَمْلَكَةِ ، وَالْعِدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ ، إِلَّا وَأَنْتَ أَمِينٌ عِنْدِي مِنَ الْمَوْضِعِ
الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَمِنْ خَوَاتِمِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا ، فَحَقَّقْ ظَنِّي فِي اخْتِيَارِي إِيَّاكَ أَحَقِّقْ ظَنِّكَ
فِي رَجَائِكَ لِي ، وَلَا تَتَعَوَّضْ بِخَيْرٍ شَرًّا ، وَلَا بِرَفْعَةٍ ضَعْفًا ، وَلَا بِسَلَامَةٍ نَدَامَةٍ ، وَلَا
بَأَمَانَةٍ خِيَانَةٍ .

وفي الحديث الرفوع : « من وَلِيَ لنا عَمَلًا فليَتَزَوَّجْ ، وليَتَّخِذْ مَسْكَنًا وَمَرْكَبًا وخادما ، فمن اتَّخَذَ سِوَى ذلك جاء يوم القيامة عَادِلًا غَالًا سَارِقًا » .

وقال عمر في وصيته لابن مسعود : إِيَّاكَ والِهْدِيَّةَ ، وليست بحرام ، ولكني أخافُ عليك الدَّالَّةَ .

وأهدى رجلٌ لعمراً نَعْدَ حَزُورِ فَقِيرِهِ ، ثم ارتفع إليه بعد أَيَّامٍ مع خصمٍ له ، فجعل في أثناء الكلام يقول : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَفَصِلَ القضاءَ بَيْنِي وبينه كَمَا يُفَصِّلُ فُخْدُ الْجَزُورِ . فَنَقَضَى عَمْرُ عَلَيْهِ ، ثم قام فخطب الناسَ ، وحرَّم الهدايا على الوُلاةِ والقُضاةِ .

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سِرَاجًا من شَبَهٍ ، وأهدى آخر إليه بُنْمَلًا ، ثم اتَّفقتَ لهما خصومةٌ في أمرٍ فترافعا إليه ، فجعل صاحبُ السراج يقول : إِنَّ أَمْرِي أضْوَأُ مِنَ السَّرَاحِ ؛ فَلَمَّا أَكْثَرَ قال المغيرة : وَيَتَحَكَّ ، إِنَّ الْبَغْلَ يَرْمَحُ السَّرَاجَ فَيَكْسِرُهُ .

ومرَّ عَمْرُ بِنِجْنٍ يُدْعَى بَأَجْرٍ وَرَجَصٍ لِبَعْضِ عَمَّالِهِ فقال : أَبْتَ الدَّرَاهِمَ إِلَّا أَنْ تُخْرَجَ أَعْنَاقُهَا . وَرَوَى هَذَا الْكَلَامُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَكَانَ عَمْرُ يَقُولُ : عَلَى كُلِّ عَامِلٍ أُمَيْنَانِ : الْمَاءُ وَالطَّيْنُ .

ولَمَّا قَدِمَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ لَهُ عَمْرُ : يَاعَدُو اللَّهَ وَعَدُوَّ كِتَابِهِ ، أُسْرِقَتْ مَالَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : لَسْتُ بِعَدُوِّ اللَّهِ وَلَا عَدُوَّ كِتَابِهِ ، وَلَكِنِّي عَدُوٌّ مَنْ عَادَاهَا ، وَلَمْ أُسْرِقْ مَالَ اللَّهِ . فَضْرَبَهُ بِجَرِيدَةٍ عَلَى رَأْسِهِ ، ثُمَّ ثَنَاهُ بِالذَّرَّةِ ، وَأَغْرَمَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ أَحْضَرَهُ ، فَنَالَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَنْ أَيْنَ لَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : خَيْلِي تَنَاسَلَتْ ، وَعَطَائِي تَلَاخَقُ ، وَسَهَائِي تَتَابَعَتْ ، قَالَ عَمْرُ : كَلَّا وَاللَّهِ . ثُمَّ تَرَكَ أَيَّامًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَلَا تَعْمَلُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : قَدْ عَمِلَ مَنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : يُوسُفُ الصَّدِّيقُ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ يَوْسُفَ عَمِلَ لِمَنْ لَمْ يَضْرِبْ رَأْسَهُ

وظهره ، ولا شتم عِرضه ، ولا نزع ماله ، لا والله لا أعمل لك أبدا .
 وكان زياد إذا ولي رجلا قال له : خذ عهدك ، وسم إلى عملي ، وأعلم أنك محاسب
 رأس سننك ، وأنت ستصير إلى أربع خصال ، فاختر لنفسك : إنا إن وجدناك أمينا
 ضعيفا استبدلنا بك لضعفك ، وسلمت من معرفتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائنا قويا
 استعنا بقوتك ، وأحسننا أدبك على خيانتك ، وأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرمك : وإن
 جمعت عينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أمينا قويا زدنا رزقك ،
 ورفعنا ذكرك ، وكثرنا مالك ، وأوطأنا الرجال عقبك .

ووصف أعرابي عاملا خائنا فقال : الناس يأكلون أماناتهم لئما ، وهو يحسوها
 حسوا .

قال أنس بن أبي إياس الدؤلي^(١) لحارثة بن بدر الددائي - وقد ولي بصرى - ويقال
 إنسها لأبي الأسود^(٢) :

أحار بن بدر قد وليت ولاية	فكن جرداً فيها تخون وتسرق
ولا تحقرن يا حار شيئا أصبته	فخطك من ملك العرايين سرق ^(٣)
وباه تميماً بالغنى إن للغنى	لسانا به المرء الهيوبة ينطق ^(٤)
فإن جميع الناس إما مكذب	يقول بما تهوى وإما مصدق
يقولون أقوالا ولا يتبعونها	وإن قيل : هاتوا حقا لم يحققوا

فيقال : إنسها بلغت حارثة بن بدر فقال : أصاب الله به الرشاد ، فلم يمد بإشارته
 ما في نفسي !

(١) في الكامل : « أنس بن أبي أنيس » .

(٢) ممن نسبها إلى أبي الأسود ياقوت في معجم البلدان ٥ : ٧٣ .

(٣) سرق : إحدى كور الأهواز . (٤) الهيوبة : الجبان .

(٤١)

الأبطل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكَكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي ، لِمُؤَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَابَ ، وَالْمَدُوَّ قَدْ حَرَبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَرَّتْ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ فُتِكَتْ وَشَفَرَتْ ، قَدِمْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجَنِّ ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ .

وَكَاأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنُوءِي غِرَّتَهُمْ عَنْ قِيَمِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْسَكَتْكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ وَاخْتِطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْمَصُونَةِ لِأَرْبَابِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ الذَّنْبِ الْأَزَلِّ دَائِمَةِ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةِ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحِمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَثِّرٍ مِنْ أَخْذِهِ ، كَأَنَّكَ - لَا أَبَا لَيْلَى - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَيْيِكَ وَأُمِّكَ .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! أَمَّا تَوْمَنُ بِالْمَعَادِ ! أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ! أَيُّهَا الْمَدْمُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أُولَى الْأَلْبَابِ ، كَيْفَ نُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا ، وَتَشْرَبُ حَرَامًا ، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَخْرَزَ بِهِمْ
هَذِهِ الْبِلَادَ !

فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْجِعْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ نُمِ أَمْكِنِي اللَّهُ
مِنْكَ ، لَا عُذْرَنِّي إِلَى اللَّهِ فِيكَ ، وَلَا ضَرْبَنَّاكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا
إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَمَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي
هَوَادَّةٌ ، وَلَا ظَفِيرًا مِنِّْي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ
مَظْلَمَتِهِمَا .

وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالًا لِي ،
أَتُرْكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحَّ رَوَيْدًا ، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى ، وَدَفِنْتَ تَحْتَ
الثَّرَى ، وَعَرِضْتَ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّلَامُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ ،
وَيَتَمَنَّى الْمُضِيِّعَ فِيهِ الرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ !

الشَّرْحُ :

أشركتكَ في أمانتي : جعلتك شريكا فيما قُتُ فيه من الأمر ، واثبتني الله عليه
من سياسة الأمة ، وسمي الخلافة أمانة كما سمي الله تعالى التكليف أمانة في قوله :
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ (١) . فأما قوله : وأداء الأمانة إلى فأمره آخر ، ومراده بالأمانة الثانية
ما يتعارفه الناس من قولهم : فلان ذو أمانة ، أى لا يخون فيما أسند إليه .
وكليب الزمان : اشتد ؛ وكذلك : كليب البرد .

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

وحرب العدو : استأسد . وخزيت أمانة الناس : ذلت وهانت .
 وشغرت الأمة : خلت من الخير ، وشغرت البلد : خلا من الناس .
 وقلبت له ظهر الحمن : إذا كنت معه فصرت عليه ؛ وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا
 العدو وكانت ظهور مجانهم إلى وجه العدو ، وبطنون بجانهم إلى وجه عسكرهم ، فإذا
 فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدو كان وضع مجانهم بدلا من الوضع الذي كان من قبل ،
 وذلك أن ظهور الترس لا يمكن أن تكون إلا في وجوه الأعداء ، لأنها تمرى سهامهم .
 وأمكنتك الشدة ، أى الحملة .

قوله : « أسرعت الكرّة » ، لا يجوز أن يقال : الكرّة إلا بعد فرّة ، فكأنه
 لما كان مقلما في ابتداء الحال عن التمرض بالموالهم ، كان كالفار عنها ، فلذلك قال :
 أسرعت الكرّة .

والذئب الأزل : الخفيف الوركين ، وذلك أشدّ لعدوه ، وأسرع لوثبته ، وإن اتفق
 أن تكون شاة من المعزى كثيرة ودامية أيضا ، كان الذئب على اختطافها أقدر .
 ونقاش الحساب : مناقشته .

قوله : « فضحّ رؤيدا » ، كلة يقال لمن يؤمر بالتشؤدة والأناة والسكون ، وأصلها
 الرجل يطعم إبله ضحّى ، ويسيرها مسرعا ليسير ، فلا يشبعها ، فيقال له : ضحّ رؤيدا .

اختلاف الرأى فيمن كتب له هذا الكتاب

وقد اختلف الناس في المكتوب إليه هذا الكتاب ، فقال الأكثرون : إنه عبد الله
 ابن العباس رحمه الله ، ورووا في ذلك روايات ، واستدلوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب

كقوله : « أشركتك في أمانتي ، وجعلتك بطانتي وشعاري ، وأنه لم يكن في أهلي رجل أو ثقت منك » ، وقوله : « على ابن عمك قد كلب » ، ثم قال ثانيا : « قلبت لابن عمك ظهر الميكن » ثم قال ثالثا : « ولابن عمك آسيت » ؛ وقوله : « لا أبا لغيرك » ، وهذه كلمة لا تقال إلا للثله ، فأما غيره من أفناء الناس ، فإن علياً عليه السلام كان يقول : لا أبا لك .

وقوله : « أيها الممدود كان عندنا من أولى الألباب » . وقوله : « لو أن الحسن والحسين عليهما السلام » ، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجري مجراها عنده .

وقد روى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى علي عليه السلام جوابا من هذا الكتاب ، قالوا : وكان جوابه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظم علي ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمري إن حقي في بيت المال أكثر مما أخذت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه علي عليه السلام :

أما بعد ، فإن من الدجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل ، وادعائك ما لا يكون ينجيك من المأثم ، ويحل لك المحرم ، إنك لأنت المتمدى السعيد إذا ! وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهن على عينك ، وتمطى فيهن مال غيرك ، فارجع هداك الله إلى رشدك ، وتب إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فمعا قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت ، وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خلفت ، فقيرا إلى ما قدمت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه ابن عباس :

أمّا بعد ، فإنك قد أكثرت علىّ ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها ، وذهبها وعقيلانها وجليينها ، أحبّ إليّ من أن ألقاه بدم امرئٍ سلم . والسلام .

وفال آخرون وهم الأفلون : هذا لم يكن ، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليّا عليه السلام ، ولا بابنه ولا خاله ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل علىّ عليه السلام .

قالوا : ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصمّانيّ من كتابه الذي كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل علىّ عليه السلام ، وقد ذكرناه من قبل ، قالوا : وكيف يكون ذلك ولم يخذعه معاوية ، ويجرّه إلى جهته ، فقد علمتم كيف اختدع كثيرا من عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستألمهم إليه بالأموال ، فالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فما بأله وقد علم التّبوة التي حدثت بينهما ، لم يستعمل ابن عباس ، ولا اجتذبه إلى نفسه ؛ وكلّ من قرأ السّير وعرف التّواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة علىّ عليه السلام ، وما كان يلقاه به من قوارع الكلام ، وشديد الخصام ، وما كان يثني به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله ، ويصدع به من مناقبه ومآثره ، فلو كان بينهما غبار أو كدر لما كان الأمر كذلك ، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما اشتهر من أمرها .

وهذا عندي هو الأمثل والأصوب .

وقد قال الراونديّ : المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس ، لا عبد الله ؛

وليس ذلك بصحيح، فإنَّ عبید الله كان عامل علیّ علیه السلام علی الیمین، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فیما تقدّم، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا، ولا فارق طاعة.

وقد أشكل علیّ أمرُ هذا الكتاب، فإنَّ أنا كذّبت الثقل وقلتُ: هذا كلام موضوع علی أمير المؤمنين علیه السلام، خالفتُ الرواة، فإنَّهم قد أطبقوا علی رواية هذا الكلام عنه، وقد ذکر فی أكثر كتب السیر. وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّنی عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين علیه السلام فی حياته وبعد وفاته.

وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرّفه من أهل أمير المؤمنين علیه السلام؛ والكلامُ يشعر بأنَّ الرجل المخاطب من أهله وبني عمه، فأنا فی هذا الموضع من المتوقّفين!

(٤٢)

الأجمل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي ، وكان عامله على البحرين ، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزرقي مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِمَا ذَمَّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْنُومٍ ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةٍ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأُحْبِبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ ، فَإِنَّكَ يَمُنُّ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشرح :

[عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره]

أَمَّا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فَهُوَ رَبِيبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبُوهُ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ بْنِ هَلَالِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَفْظَةَ ، يَكْنَى أَبَا حَفْصٍ ، وُلِدَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَوْمَ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ابْنَ تِسْعِ سِنِينَ ، وَتَوَفَّى فِي الْمَدِينَةِ فِي خِلَافَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ ، وَقَدْ حَفِظَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْحَدِيثَ ، وَرَوَى عَنْهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَغَيْرُهُ ، ذَكَرَ

ذلك كله ابن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " .

[النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره]

وأما النعمان بن عجلان الزُرْقِيُّ فمن الأنصار ، ثم من بني زُرَيْق ، وهو الذي خَلَفَ على خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله ، قال [ابن] عبد البر في كتاب " الاستيعاب " : كان النعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تردريه العين ، إلا أنه كان سيّداً ، وهو القائل يومَ السَّقِينَةِ :

وقلتم حراماً نصب سميّاً ونصبكم
وأهل أبو بكر لها خيرٌ قائم
وإنّ عليّاً كان أخلقَ بالأمرِ
وإنّ هوانا في عليٍّ وإنه
عثيق بن عثمان حلالٌ أبا بكرٍ
لأهلها من حيث يدرى ولا يدرى

قوله : « ولا تثريب عليك » ، فالتثريب الاستقصاء في اللوم ؛ ويقال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحت عليه فعله .

والظنّين : المتّهم ؛ والظنّة التهمة ، والجمع الظنن ؛ يقول : قد اظنّ زيد عمراً ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضاً ، وجاء بالطاء المهملة أيضاً ، أى اتّهمه . وفي حديث ابن سيرين : لم يكن عليّ عليه السلام يظنّ في قتل عثمان ، الحرفان مشدّدان وهو يَفْتَعِلُ من « يَظُنُّ » وأدغم ، قال الشاعر :

وما كلُّ مَنْ يَظُنُّنِي أَنَا مُعْتَبٍ
وما كلُّ ما يُروى عليّ أقولُ^(١)

(١) الصحاح ٢١٦١ من غير نسبة .

(٤٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عامله على أردشير خرّة :

بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ؛
إِنَّكَ تَقْسِمُ فِي الْمُسْلِمِينَ - الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ -
فِيْمَنْ اعْتَمَاكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ؛ لَئِنْ كَانَ
ذَلِكَ حَقًّا . لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا ، وَلَتَخِفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا ، فَلَا تَسْتَهِنَ بِحَقِّ رَبِّكَ ،
وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .
أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَالًا ؛
يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُّونَ عَنْهُ .

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب مصقلة بن هبيرة . وأردشير خرّة : كُودَة من كُودِ فارس .
واعتمادك : اختارك من بين الناس ، أصله من العيمة بالكسر ، وهي خيارُ المال ،
اعتماد المصدّق إذا أخذ العيمة ، وقد رُوِيَ : « فيمن اعتماك »^(١) بالقلب ، والصحيح

(١) ب : « اعتمادك » ؛ والصواب ما أنبته من أ .

المشهور الأول ، وروى : « ولتجدنَّ بك عندى هوانا » بالباء ، ومعناها اللام ؛
ولتجدنَّ بسبب فعلك هوانك عندى ، والباء ترد للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ فَمِظْلُمٌ
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (١) .
والمحق الإهلاك .

والمعنى أنه نهى مصقلة عن أن يقسم النفي على أعراب قومه الذين اتَّخذوه سيِّدا
ورئيسا ، ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم ؛ وهذا هو الأمر الذى كان
يُسكِّره على عثمان ، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفئء ؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك
مستوفى .

(٤٤)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه
يريد خديمته باستحقاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَأَخَذَرُهُ
فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ،
يَلْقِيَتِهِمْ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبُ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُوَيْبَانَ فِي ذِمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ،
وَنَزَغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِدْرُثٌ ،
وَالْمُتَمَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ ، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدَ بِهَا وَرَبُّ الْكُفَّةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ
حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْوَاغِلُ » ، هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ عَلَى الشَّرْبِ لِيَشْرَبَ مَعَهُمْ وَلَيْسَ
مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ مُدْفَعًا مُحَاجَرًا . وَالنَّوْطُ الْمُدْبَذُ : هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّكْبِ مِنْ
قَمِيٍّ أَوْ قَدَحٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَهُوَ أَبَدًا يَتَقَلَّقُ إِذَا حَثَّ ظَهْرُهُ ، وَاسْتَعْجَلَ سِيرُهُ .

الشَّيْخُ :

يَسْتَزِلُّ لَبَّكَ ، يَطْلُبُ زَلَّهُ وَخَطَاةَ ، أَى يَحَاوِلُ أَنْ تَزَلَ . وَاللَّبَّ : الْعَقْلُ . وَيَسْتَفْلُ غُرْبُكَ : يَحَاوِلُ أَنْ يَفْلُ حَدَّكَ ، أَى عِزْمَكَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْحِجَازِ . ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَحْذَرَهُ ، وَقَالَ : إِنَّهُ - يَعْنِي مَعَاوِيَةَ - كَالشَّيْطَانِ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ كَذَا وَمِنْ كَذَا ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا تَلْتَمِئُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١) ؛ قَالُوا فِي تَفْسِيرِهِ : مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ : يُطْعِمُهُمْ فِي الْمَوْتِ وَيُغْرِيمُهُمُ بِالْعَصْيَانِ (٢) ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ : يَذْكُرُهُمْ خَلْفِيهِمْ ، وَيُحَسِّنُ لَهُمْ جَمْعَ الْمَالِ وَتَرْكَهُ لَهُمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ : يُحِبُّ إِلَيْهِمُ الرِّيَاسَةَ وَالثَّنَاءَ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ : يُحِبُّ إِلَيْهِمُ اللَّهُمَّ وَالذَّاتِ .

وَقَالَ شَقِيقُ الْبَلْخِيِّ : مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا قَعَدَ إِلَى الشَّيْطَانِ عَلَى أَرْبَعَةِ مَرَاصِدَ : مِنْ بَيْنِ يَدَيْ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، أَمَّا مِنْ بَيْنِ يَدَيْ فَيَقُولُ : لَا نُخَفُ فَإِنَّ اللَّهَ غُضُورٌ رَحِيمٌ ، فَأَقْرَأُ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٣) ، وَأَمَّا مِنْ خَلْفِي فَيَخُوفُنِي الضَّيْعَةُ عَلَى خَلْفِي ، فَأَقْرَأُ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٤) ؛ وَأَمَّا مِنْ قَبْلِ يَمِينِي فَيَأْتِينِي مِنْ جِهَةِ الثَّنَاءِ ، فَأَقْرَأُ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) ، وَأَمَّا مِنْ قَبْلِ شِمَالِي فَيَأْتِينِي مِنْ قَبْلِ الشَّهَوَاتِ ، فَأَقْرَأُ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٦) .

فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ لَمْ يَقُلْ : « وَمِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِهِمْ » ؟

-
- | | |
|-----------------------|--|
| (١) سورة الأعراف ١٧ . | (٢) كَذَا فِي ١ ، وَفِي ب « فِي الْعَصْيَانِ » . |
| (٣) سورة طه ٨٢ . | (٤) سورة هود ٦ . |
| (٥) سورة القصص ٨٣ . | (٦) سورة سبأ ٥٤ . |

قلت : لأن جهة « فوق » جهةُ نزول الرحمة ، ومستقرّ الملائكة ، ومكان العرش ، والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها ؛ وأما من جهة « تحت » فلأنّ الإتيانَ منها يُوحِش ، وينفّر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وسأوسه وأضاليله .

وقد فسّر قوم المعنى الأوّل فقالوا : « من بين أيديهم » ، من جهة الدنيا ، و « من خلفهم » . من جهة الآخرة ؛ و « عن أيّمانهم » ، الحسنات ؛ و « عن شمائلهم » ، أى يحثّهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويذبّطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات .

قوله : « ليقتم غفلته » أى ليلجّ ويهجم عليه وهو غافل ؛ جمل اقتحامه إياه اقتحاماً للفرّة نفسها لما كانت غالباً عليه .

ويستلب غرته ، ليس المعنى باستلابه الفرّة أن يرفمها ويأخذها ، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغترّ فاقداً للغفلة والفرّة ، وكان لبيا فطنا ، فلا يبق له سبيل عليه ، وإنما المعنى بقوله : « ويستلب غرته » ما يعنيه الناس بقولهم : أخذ فلان غفلتى وفعل كذا . ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتى .

وفلته : أمره وقع من غير تثبت ولا روية .

ونزغة : كلة فاسدة ، من نزغات الشيطان ، أى من حركاته القبيحة التى يستفسد بها مكلفين ، ولا يثبتُ بها نسب ، ولا يستحقّ بها إرث ، لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ، ولا يرثه المولود ، لقوله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

[نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكتبه وخطبه]

فأما زياد ، فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول : عبيد بن فلان ، وينسبه إلى

ثَقِيف ، والأكثرُونَ يقولون : إنَّ عبيدا كان عبداً ، وإنَّه بقيَ إلى أيام زياد ، فابتاعه وأعتقه ؛ وسنذكر ما ورد في ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه ، والدعوة التي استلحق بها ؛ فقليل تارة : زياد بن سمية ، وهي أمه ، وكانت أمةً للحارث بن كدَّة بن عمرو بن علاج الثقفي ، طبيب العرب ، وكانت تحت عبيد .

وقيل تارة زياد بن أبيه ، وقيل تارة : زياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، لأنَّ الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرِّهبة والرَّغبة ، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع الملوك إلا كالقطرة في البحر المحيط ، فأما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد ، ولا يشك في ذلك أحد .

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أنَّ عمر بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مثلها - وأبوسفيان حاضر وعلى عليه السلام وعمرو بن العاص - فقال عمرو بن العاص : لله أبو هذا الغلام ! لو كان قرشياً لساق العرب بمصاه ؛ فقال أبوسفيان : إنه لقرشي ، وإنِّي لأعرف الذي وضعه في رحم أمته ؛ فقال على عليه السلام : ومن هو ؟ قال : أنا ؛ فقال : مهلاً يا أباسفيان ، فقال أبوسفيان :

أما والله لولا خوفُ شخصٍ يراني يا عليُّ من الأعداءِ
لأظهر أمره صخر بن حربٍ ولم يخفِ المقالة في زيادٍ
وقد طالتُ جأمتي ثقيفاً وتركى فيهم ثمر الفؤادِ

عنى بقوله : « لولا خوف شخص » : عمر بن الخطاب (١) .

(١) الاستيعاب ٣٠١ وما بعدها .

ورَوَى أحمد بن يحيى البَلَادُرِيُّ قَالَ : تَكَلَّمَ زِيَادٌ - وَهُوَ غُلَامٌ حَدَّثَ - بِمَحْضَرَةِ عُمَرَ
كَلَامًا أَتَجَبَ الْحَاضِرِينَ ، فَقَالَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ : اللَّهُ أَبُوهُ ! لَوْ كَانَ قَرَشِيًّا لَسَاقَ الْعَرَبِ
بِمَصَاهِ ؛ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَقُرْشِيٌّ ، وَلَوْ عَرَفْتَهُ لَعَرَفْتَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَهْلِكَ ؛
فَقَالَ : وَمَنْ أَبُوهُ ؟ قَالَ : أَنَا وَاللَّهُ وَضَعْتُهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ ، فَقَالَ : فَهَلَّا تَسْتَلْحِقُهُ ؟ قَالَ : أَخَافُ
هَذَا الْعَيْرَ الْجَالِسَ أَنْ يَخْرِقَ عَلَيَّ إِهَابِي .

ورَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْوَاقِدِيُّ ، قَالَ قَالَ : أَبُو سُفْيَانَ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ عُمَرَ وَعَلَى هُنَاكَ ،
وَقَدْ تَكَلَّمَ زِيَادٌ فَأَحْسَنَ : أَبَتِ الْمَنَاقِبُ إِلَّا أَنْ تَظْهَرَ فِي شِمَائِلِ زِيَادٍ ؛ فَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ : مَنْ أَيْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ هُوَ ؟ قَالَ : ابْنِي ؛ قَالَ : كَيْفَ ؟ قَالَ : أَتَيْتُ أُمَّهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
سِفَاحًا ! فَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَهْ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! فَإِنَّ عُمَرَ إِلَى الْمَسَاءَةِ سَرِيعٌ ؛ قَالَ : فَعَرَفَ
زِيَادٌ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا ، فَكَانَتْ فِي نَفْسِهِ .

ورَوَى عَلَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَدَائِنِيُّ قَالَ : لَمَّا كَانَ زَمَنٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَّى زِيَادًا فَارِسَ
أَوْ بَعْضَ أَعْمَالِ فَارِسَ ، فَضَبَطَهَا ضَبْطًا صَالِحًا ، وَجَعَلِي خَرَجَهَا وَحَمَاهَا ، وَعَرَفَ ذَلِكَ
مَعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ غَرَّتْكَ قِلَاعُ تَأْوَى إِلَيْهَا لَيْلًا ، كَمَا تَأْوَى الطَّيْرُ إِلَى
وَكْرَهَا ، وَأَيُّمَ اللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ ظَارَى بِكَ مَا اللَّهُ أَعْلَمَ بِهِ لَكَ مَنَى مَا قَالَهُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ :
﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .
وَكَتَبَ فِي أَسْفَلِ الْكِتَابِ شِعْرًا مِنْ جِلَّتِهِ :

تَنَسَّى أَبَاكَ وَقَدْ شَأَلْتُ نِعَامَتَهُ إِذْ يَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي لَهُمْ عُمَرُ

فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ عَلَى زِيَادٍ قَامَ نَخْطُبُ النَّاسَ ، وَقَالَ : الْعَجَبُ مِنْ ابْنِ آكَلَةِ
الْأَكْبَادِ ، وَرَأْسِ النِّفَاقِ ! يَهْدِدُنِي وَيُبْنِي وَيُبْنِي ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَزَوْجِ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَأَبُو السَّبْطَيْنِ ، وَصَاحِبِ الْوَلَايَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْإِخَاءِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ

من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ! أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلى
لوجدنى أحمر مخشاً^(١) ضراً بالسيف ، ثم كتب إلى علي عليه السلام ، وبعث بكتاب
معاوية في كتابه .

فكتب إليه علي عليه السلام ، وبعث بكتابيه :

أما بعد ، فإنى قد وليتكَ ما وليتكَ وأنا أراك لذلك أهلاً ، وإنه قد كانت من أبى
سُفْيَان فَلْتَةٌ فِي أَيَّامِ عَمْرِ مِنْ أَمَانِي التَّيْهَةِ وَكَذِبِ النَّفْسِ ، لَمْ تَسْتَوْجِبْ بِهَا مِيرَاثًا ، وَلَمْ
تَسْتَحَقَّ بِهَا نَسَبًا ، وَإِنَّ مَعَاوِيَةَ كَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ
يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، فَاحْذَرِهِ ، ثُمَّ احْذَرِهِ ، ثُمَّ احْذَرِهِ ، وَالسَّلَامُ .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال : كان علي عليه السلام قد ولى زياداً قِطْعَةً مِنْ
أَعْمَالِ فَارَسَ ، وَاصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ ، فَلَمَّا قُتِلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَقِيَ زِيَادٌ فِي عَمَلِهِ ، وَخَافَ
مَعَاوِيَةَ جَانِبَهُ ، وَعَلِمَ صَعُوبَةَ نَاحِيَتِهِ ، وَأَشْفَقَ مِنْ مُمَالَاتِهِ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
فكتب إليه :

من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سُفْيَانِ إِلَى زِيَادِ بْنِ عُبَيْدٍ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ عَبْدٌ قَدْ
كَفَرْتَ النِّعْمَةَ ، وَاسْتَدْعَيْتَ النِّقْمَةَ ، وَلَقَدْ كَانَ الشُّكْرُ أَوَّلَى بِكَ مِنَ الْكُفْرِ ، وَإِنَّ
الشَّجَرَةَ لَتَضْرِبُ بِمِرْقِهَا ، وَتَتَفَرَّعُ مِنْ أَصْلِهَا ، إِنَّكَ - لَا أُمُّ لَكَ بَلْ لَا أَبَ لَكَ - قَدْ هَلَكْتَ
وَأَهْلَكْتَ ، وَظَنَنْتَ أَنَّكَ تَخْرُجُ مِنْ قَبْضَتِي ، وَلَا يَنَالُكَ سُلْطَانِي ، هَيْهَاتَ ! مَا كُلُّ
ذِي لُبٍّ يَصِيبُ رَأْيَهُ ، وَلَا كُلُّ ذِي رَأْيٍ يَنْصَحُ فِي مَشُورَتِهِ . أَمْسِرْ عَبْدٌ وَالْيَوْمَ أَمِيرٌ !
خَطَّةٌ مَا ارْتَقَاهَا مِثْلُكَ يَا بَنَ سَمِيَّةَ ، وَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَخُذِ النَّاسَ بِالطَّاعَةِ وَالْبَيْعَةِ ،
وَأَسْرِعِ الْإِجَابَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفَعَّلَ فَدَمَكَ حَقَنْتَ ، وَتَفَسَّكَ تَدَارَكْتَ ، وَإِلَّا اخْتَطَفْتُكَ

(١) الخش : الماضي الجريء ، وى ب : « مخبا » ، والصواب ما أثبتته من أ .

بأضعف ريش^(١) ، ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمارة^(٢) ،
تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشام حتى أقيمك في السوق ، وأبيمك عبداً ، وأردك إلى
حيث كنت فيه وخرجت منه . والسلام .

فلما ورد الكتاب على زياء غضب غضباً شديداً ؛ وجمع الناس وصعد المنبر . فحمد الله
ثم قال : ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومسير النفاق ، ورئيس
الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرعد ويبرق عن سحابة جفل
لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيرها الرياح قرعاً ، والأذى يدلى على ضعفه تهده قبل القدرة ؛
أفنى إشفاق على تنذير وتذير أكلاً ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وقمقع لمن ربّي^(٣)
بين صواعق تهامة ، كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بقر رسول الله صلى الله عليه وآله وابن
أبن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار ، والله لو أذن لي فيه ، أو ندبني إليه ، لأريته
الكواكب نهارة ؛ ولأسعطته ماء الخردل . دونه الكلام اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة
بعد ذلك إن شاء الله . ثم نزل .

وكتب إلى معاوية :

أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يا معاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك
كالفرق يغطي الموج فيتشّث بالطحّاب ، ويتعاق بأرجل الضفادع ، طمعا في الحياة .
إنما يكفر النعم ، ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا .
فأما سبّك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أدعى سفيها ، لأثرت لك نخازي لا
يفسلها الماء . وأما تميرك لي بسُميّة ، فإن كنت ابن سُميّة فأت ابن جماعة ، وأما زعمك
أنك تختطفني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سعى ، فهل رأيت بازياً يُفزع صغيرُ

(١) بأضعف ريش ؛ يريد بأضعف قوة ؛ وكانوا يلزقون الريش على السهم ليتموه ويستردوه .

(٢) أى في جماعة زمارة ترمز حولك بالزامير لتشهيرك والتشجيع عليك .

(٣) كذا في ١ ، وفي ب : « ربي » .

القنابر ، أم هل سمعت بذنب أكاه خروف ! فامض الآن لطيتك ، واجتهد جهداك ،
فلست أنزل إلا بحيث تسكره ، ولا اجتهد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ،
الطالع إليه . والسلام .

فلما ورد كتاب زياد على معاوية نحمه وأحزنه ، وبعث إلى المغيرة بن شعبه ، فغلا به
وقال : يا مغيرة ، إني أريد مشاورتك في أمرٍ أهمني ، فأنصحنى فيه ، وأشر على برأى
الجهنم ، وكن لي أكن لك ، فقد خصصت بك بسرري ، وآثرتك على ولدي . قال المغيرة : فما
ذاك ؟ والله لتجدني في طاعتك أمضي من الماء إلى الحدور ، ومن ذى الرنونق في كف البطل
الشجاع . قال : يا مغيرة ، إن زيادا قد أقام بفارس يكش لنا كشيخ الأفاعي ، وهو رجل
ثاقب الرأي ، ماضى العزيمة ، جوال الفكر ، مصيب إذا رمى ؛ وقد خفت منه الآن ما كنت
آمنه إذ كان صاحبه حيا ، وأخشى ممالاته حسنا ، فكيف السيل إليه ، وما الحيلة في
إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أمت ؛ إن زيادا رجل يحب الشرف والذكر وصعود
المنابر ، فلو لاففته المسألة ، وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل ، وبك أوثق ، فأكتب
إليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية إليه :

من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإن المرء
ربما طرّحه الهوى في مطارح المطب ، وإنك لمرء المضروب به المثل ، قاطع الرحم ، وواصل
العدو . وسمك سوء ظنك بي ، وبغضك لي ، على أن عقت قرابتي ، وقطعت راحتي ،
وبنت^(١) نسي وحرمتي ؛ حتى كدأنتك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ،
وشتان ما بيني وبينك ، أطاب بدم ابن أبي العاص^(٢) وأنت تقاربتني ! ولكن أدر كك
عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت :

(١) بنت : قطعت .

(٢) أى عثمان ؛ وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية .

كْتَارِكَةٍ بَيَّضَهَا بِالْمَرَاءِ وَمُلْحَفَةٍ بَيَّضَ أُخْرَى جَنَاحَا
وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك ، ولا أؤاخذُك بسوءِ سميك ، وأن أصِلَ رَحْمَكَ ،
وأبتنى الثوابَ في أمرك ، فاعلمُ أبا المغيرة ، أنك لو خضتَ البحرَ في طاعةِ القومِ فتضربَ
بالسيفِ حتّى انقطعَ متنه لما ازددتَ منهم إلا بُدَا ؛ فإن بنى عبدُ شمسٍ أبغضُ إلى بنى هاشمٍ
من الشفرةِ إلى الثورِ الصّريعِ وقد أوثقَ للذبحِ ؛ فارجع - رَحِمَكَ اللهُ - إلى أصلِكَ ، واتّصل
بقومِكَ ، ولا تكن كالْمُوصُولِ بِرَيْشٍ^(١) غَيْرِهِ ، فقد أصبحتَ ضالًّا انفس . ولعمري
ما فَعَلَ بك ذلك إلا اللّجاجُ ، فدعه عنك ، فقد أصبحتَ على يَدِّهِ من أمرك ، ووضوحِ
من حَبَّتْكَ ، فإن أحببتَ جانبي ، ووثقتَ بي ، فإمرأةٌ بإمرّةٍ ، وإن كرهتَ جانبي ، ولم
تثقْ بقولي ، ففعلَ جميلٌ لا على ولا لي . والسلام .

فرحل المغيرةُ بالكتابِ حتّى قدم فارسَ ، فلمّا رآه زيادُ قرّبه وأدناه ولطفَ به
فدفعَ إليه الكتابَ ، فجعلَ يتأمّله ويضحك ، فلمّا فرغَ من قراءته وضعه تحتَ قدميه ثم
قال : حَسْبُكَ يا مغيرة ! فَإِنِّي أَطَّلَعُ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِكَ ، وقد قدمت من سفرةٍ بعيدةٍ ، فقم
وأرِخْ رِكَابَكَ . قال : أجل ، فدع عنك اللّجاجَ يرحمك اللهُ ، وارجعْ إلى قومِكَ ،
وصل أخاك ، وانظر لنفسك ، ولا تقطعَ رَحِمَكَ ! قال زياد : إِنِّي رَجُلٌ صَاحِبُ أَنَاةٍ ، ولي
في أمري رَوِيَّةٌ ، فلا تعجلْ علىّ ، ولا تبدأني بشيءٍ حتّى أبدأكَ . ثمّ جمعَ الناسَ بعد
يومين أو ثلاثة ، فصعدَ المنبرَ حميدُ الله وأثنى عليه ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ : ادفَعُوا البلاءَ
ما اندفعَ عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوامِ العافيةِ لكم ، فقد نظرتُ في أمورِ الناسِ منذ
قتل عثمانُ ؛ وفكّرتُ فيهم فوجدتهم كالْأَضَاحِيِّ ، في كلّ عِيدٍ يُذْبَحُونَ ، ولقد أفضى
هذان اليومان - يومَ الجملِ وصِفِّينَ - ما يُنِيفُ على مائَةِ ألفٍ ؛ كلّهم يزعمُ أنّه طالبُ حقٍّ ،
وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمرِهِ ، فإن كان الأمرُ هكذا فالقاتلُ والمقتولُ في الجَنَّةِ ، كلّا

(١) ب : « كالْمُوصُولِ يطير بِرَيْشٍ غَيْرِهِ » .

ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئ بسلامة دينه ! وقد نظرتُ في أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتين العافية ، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومَعْبِئته ، فقد حدثت طاعتكم إن شاء الله ثم نزل .

وكتب جوابَ الكتاب :

أما بعد ، فقد وصل كتابك يا معاوية مع الفيرة بن شُعْبة وفهمتُ ما فيه ، فالحمد لله الذي عرفك الحق ، وردك إلى الصلة ، ولست ممن يجهل معروفًا ، ولا ينفل حسبًا ، ولو أردتُ أن أجيئك بما أوجبته الحجة ، واحتمله الجواب ، لطال الكتاب ، وكثر الخطاب ، ولكنك إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برًا ، فستزح في قلبي مودة وقبولًا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاما يعبأ به الخطيب المدرة ، فتركت من حضر ، لا أهل ورد ولا صدر ، كالتحيرين بهمهم ضل بهم الدليل ، وإنما على أمثال ذلك قدير ، وكتب في أسفل الكتاب :

إذا معشري لم يَصِفُونِي وجدُّتني أدافع عني الضيم ما دمت باقياً
وكم معشر أعيت قناتي عليهم فلاموا وألفوني لدى العزم ماضياً
وهم به ضاقت صدور فرجته وكنت بطبي للرجال مداوياً
أدافع بالحلم الجهل مكيدة وأخفى له تحت الحياء الدواهيا
فإن تدن مني أدن منك وإن تبني تجدني إذا لم تدن مني نائياً

فأعطاه معاوية جميع ما سألته ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقرَّبه وأدناه ، وأقرَّه على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الدَّائِنِيُّ ، قَالَ : لَمَّا أَرَادَ مَعَاوِيَةُ اسْتِلْحَاقَ زِيَادٍ وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ الشَّامَ جَمَعَ النَّاسَ وَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَأَصْعَدَ زِيَادًا مَعَهُ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الْمِرْقَاةِ الَّتِي تَحْتَ مِرْقَاتِهِ ، وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ كَسْبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ؛ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا . فَقَامَ نَاسٌ فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ ؛ وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، فَقَامَ أَبُو مَرْيَمَ السَّلُولِيُّ - وَكَانَ خَمَّارًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَقَالَ : أَشْهَدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدِمَ عَلَيْنَا بِالطَّائِفِ ، فَأَتَانِي فَأَشْرَيْتُ لَهُ لَحْمًا وَخَمْرًا وَطَعَامًا ، فَلَمَّا أَكَلَ قَالَ : يَا أَبَا مَرْيَمَ ، أَصِيبْ لِي بَغِيًّا ، فَخَرَجْتُ فَأَتَيْتُ بِسَمِيَّةَ ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ مِمَّنْ قَدْ عَرَفَتْ شَرَفَهُ وَحُودَهُ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُصِيبَ لَهُ بَغِيًّا ، فَهَلْ لَكَ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، يَجِبُ الْآنَ عَبْدٌ بِنَعْمَةٍ - وَكَانَ رَاعِيًا - فَإِذَا تَعَشَّى ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ أُتِيَتْهُ . فَخَرَجْتُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ فَأَعْلَمْتُهُ ، فَلَمْ نَابِثُ أَنْ جَاءَتْ تَجَرُّ ذَيْلَهَا ، فَدَخَلَتْ مَعَهُ ، فَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ حَتَّى أَصْبَحْتُ ؛ فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا انْصَرَفْتُ : كَيْفَ رَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ ؟ قَالَ : خَيْرَ صَاحِبَةٍ ، لَوْلَا ذَفَرٌ فِي إِبْطِهَا .

فَقَالَ زِيَادٌ مِنْ فَوْقِ الْمَنْبَرِ : يَا أَبَا مَرْيَمَ ، لَا تَشْتَمِ أُمَهَاتِ الرِّجَالِ ، فَتَشْتَمِ أُمَّكَ . فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَمُنَاسَدَتُهُ قَامَ زِيَادٌ ، وَأَنْصَتَ النَّاسُ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ مَعَاوِيَةَ وَالشُّهُودَ قَدْ قَالُوا مَا سَمِعْتُمْ ، وَلَسْتُ أَدْرِي حَقَّ هَذَا مِنْ بَاطِلِهِ ! وَهُوَ وَالشُّهُودُ أَعْلَمُ بِمَا قَالُوا ، وَإِنَّمَا عَبْدٌ مُبْرُورٌ ، وَوَالٍ مُشْكُورٌ . ثُمَّ نَزَلَ .

وَرَوَى شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ أَنَّ زِيَادًا مَرَّ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ بِأَبِي الْعُرْيَانِ الْمَدَوِيِّ - وَكَانَ شَيْخًا مَكْفُوفًا ، ذَا لِسَنِ وَعَارِضَةً شَدِيدَةً - فَقَالَ أَبُو الْعُرْيَانِ : مَا هَذِهِ الْجَلْبَابَةُ ؟ قَالُوا : زِيَادُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا تَرَكَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَّا زَيْدًا وَمَعَاوِيَةَ وَعُتْبَةَ وَعَنْبَسَةَ وَحَنْظَلَةَ وَمُحَمَّدًا ، فَمَنْ أَيْنَ جَاءَ زِيَادٌ ؟ فَبَلَغَ الْكَلَامُ زِيَادًا ، وَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : لَوْ سَدَدْتَ

عنك فَمَ هذا الكلب ! فأرسل إليه بمائتي دينار ، فقال له رسول زياد : إِنَّ ابْنَ عَمِّكَ
زيادا الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتُنْفِقَها ، فقال : وصلته رَحِم ! إِي وَاللَّهِ ابْنُ عَمِّي
حقاً . ثم مرَّ به زياد من الغد في موكبه ، فوقف عليه فسلم ، وبكى أبو العُريَّان ، فقيل له :
ما يكيك ؟ قال : عرفتُ صوتَ أبي سُفْيَان في صوت زياد . فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى
أبي العُريَّان :

مَا أَبْشَرْتُكَ الدَّنَانِيرُ الَّتِي بُمِيتُ
أَنْ لَوْنَتَكَ أبا العُريَّانِ أَلْوَانَا
أَمْسَى إِلَيْكَ زِيَادٌ فِي أُرُومَتِهِ
نُكْرًا فَأُصْبِحَ مَا أَنْكَرْتَ عِرْفَانَا
لِلَّهِ دَرُّ زِيَادٍ لَوْ تَعَجَّلَهَا
كَانَتْ لَهُ دُونَ مَا يَخْشَاهُ قُرْبَانَا !

فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابُ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَبِي العُريَّانِ قَالَ : اكْتُبْ جَوَابَهُ يَا غَلَامَ :
أَحْدِثْ لَنَا صِلَةً تَحْيَا النُّفُوسُ بِهَا
قَدْ كَدَّتْ يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ تَنْسَانَا
أَمَّا زِيَادٌ فَقَدْ صَحَّتْ مَنَاسِبُهُ
عِنْدِي فَلَا أَبْتَنِي فِي الْحَقِّ بُهْتَانَا
مَنْ يُسَدِّ خَيْرًا يُصْبِهِ حِينَ يَفْعَلُهُ
أَوْ يُسَدِّ شَرًّا يُصْبِهِ حَيْثَمَا كَانَ

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه في الحج ، فكتب
إليه ؛ إني قد أذنتُ لك واستعملتُك على الموسم ، وأجزتُك بألف ألف درهم . فبينما هو
بتجهُّزٍ إذ بلغ ذلك أبا بَكْرَةَ أخاه - وكان مُصَارِمًا له منذ لَجَلَجٍ في الشهادة على المغيرة بن
شعبة أيام عمر لا يكلمه قد لزمته أيمانٌ عظيمةٌ ألا يكلمه أبدا - فأقبل أبو بَكْرَةَ يدخلُ
القصر يريد زيادا ، فبصر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلا : أيها الأمير ، هذا أخوك
أبو بَكْرَةَ قد دخل القصر ؛ قال : ويحك ، أنت رأيته ! قال هاهو ذا قد طلع ، وفي حِجْر
زيادٍ بُنَى يلاعبه ، وجاء أبو بَكْرَةَ حتَّى وقف عليه ، فقال للغلام : كيف أنت يا غلام ؟
إِنَّ أَبَاكَ رَكِبَ فِي الإِسْلَامِ عَظِيمًا ! زَنَى أُمُّهُ ، وانتفى من أبيه ، ولا والله ما علمت سَمِيَّةَ رَأَتْ

أبا سُفْيَانَ قَطَّ ، ثُمَّ أَبُوكَ يَرِيدُ أَنْ يَرْكَبَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، يُوَافِي الْمَوْسِمَ غَدَاً ، وَيُوَافِي
أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَهِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ ^(١) عَلَيْهَا فَأُذِنَتْ لَهُ ؛
فَأَعْظَمَ بِهَا فِرْدِيَّةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَصِيبَةً ! وَإِنْ هِيَ مَنْعَتْهُ فَأَعْظَمَ بِهَا عَلَى
أَبِيكَ فَضِيحَةً ! ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَقَالَ : جِزَاكَ اللَّهُ يَا أَخِي عَنِ النَّصِيحَةِ خَيْرًا ؛ سَاخِطًا كُنْتُ
أَوْ رَاضِيًا . ثُمَّ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ : إِنِّي قَدْ أَعْتَلَلْتُ عَنِ الْمَوْسِمِ فَلْيُوجِّهْ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَحَبِّ ، فُوجَّهَ عَثْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ .

فَإِذَا أَبُو عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ «الاسْتِيعَابِ» ، فَإِنَّهُ قَالَ : لَمَّا ادَّعَى مُعَاوِيَةُ زِيَادَافِي
سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَلْحَقَهُ بِهِ أَخًا زَوْجَ ابْنَتِهِ مِنْ ابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ لِيُؤَكِّدَ بِذَلِكَ صَحَّةَ
الاسْتِيعَابِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرَةَ أَخًا زِيَادٍ لَأُمِّهِ ، أُمُّهُمَا جَمِيعًا سُمِّيَتْ ، خَلْفَ الْأَبِّ يَكْلَمُ زِيَادًا أَبَدًا
وَقَالَ : هَذَا زَنَى أُمُّهُ ، وَأَتَتْهُ مِنْ أَبِيهِ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ سُمِّيَتْ رَأَتْ أَبَا سُفْيَانَ قَبْلَ ^(٢) ،
وَيَا هَؤُلَاءِ مَا يَصْنَعُ بَأَمِّ حَبِيبَةٍ ! أَرِيدُ أَنْ يَرَاهَا ؟ فَإِنْ حَبَّبَتْهُ فَضَحَتْهُ ؛ وَإِنْ رَأَاهَا فَيَا لَهَا مَصِيبَةً !
يَهْتِكُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرَمَةً عَظِيمَةً !

وَحِجَّ زِيَادَ مَعَ مُعَاوِيَةَ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَأَرَادَ الدَّخُولَ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ أَبِي
بَكْرَةَ ، فَانْصَرَفَ عَنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ حَبَّبَتْهُ وَلَمْ تَأْذِنْ لَهُ فِي الدَّخُولِ عَلَيْهَا ،
وَقِيلَ : إِنَّهُ حِجَّ وَلَمْ يَرِدْ ^(٣) الْمَدِينَةَ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ أَبِي بَكْرَةَ ، وَإِنَّهُ قَالَ : جِزَى اللَّهُ أَبَا بَكْرَةَ
خَيْرًا فَمَا يَدَّعِ النَّصِيحَةَ فِي حَالٍ .

وَرَوَى أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي هَذَا الْكِتَابِ قَالَ : دَخَلَ بَنُو أُمِّيَّةٍ وَفِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
ابْنُ الْحَكَمِ عَلَى مُعَاوِيَةَ أَيَّامَ مَا اسْتَحَقَّ زِيَادًا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : يَا مُعَاوِيَةُ ، لَوْلَمْ تَجِدْ
إِلَّا الزَّيْجَ لَأَسْتَكْرَثَ بِهِمْ عَلَيْنَا قَلَّةً وَذَلَّةً - يَعْنِي عَلَى بَنِي أَبِي الْعَاصِ . فَأَقْبَلَ مُعَاوِيَةُ

(١) ب : « أَنْ يَسْتَأْذِنَ » . (٢) ١ والاسْتِيعَابُ : « قَطَّ » . (٣) ١ : « يَزُرُ » .

على مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليع ، فقال مروان : إى والله أنه لخليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلت أنه يطاق ، ألم يبلغنى شعره فى وفى زياد ! ثم قال مروان : أسمعنيه ، فأنشد :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ لقد ضاقت بما يأتى اليَدانِ
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زان !
فأشهد أن رَحْمَك من زيادٍ كَرَحْمِ الْفِيلِ من وَلَدِ الْأَتَانِ
وأشهد أنها حِلَّتْ زيادا وصخرت من سُمِّيَةِ غيرُ دَانِ^(١)

ثم قال^(٢) : والله لا أرضى عنه حتى يأتى زيادا فيترضاه ويمتدز إليه ، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذرا يستأذن عليه ، فلم يأذن له ، فأقبلت قريش إلى زياد تكلمه فى أمر عبد الرحمن ، فلما دخل سلم ، فتشاور له زياد بعينه - وكان يكسر عينه - فقال له زياد : أنت القائل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ؛ قال : أصلح الله الأمير ! إنه لا ذنب لمن أعتب ، وإنما الصفح عمن أذنب ، فأسمع منى ما أقول ، قال : هات ، فأنشده :

إليك أبا المغيرة تبتُ ممّا جرّى بالشام من خطّ اللسانِ^(٣)
وأغضبتُ الخليفة فيك حتى دعاه فرط غيظٍ أن هجاني
وقلتُ لمن لحاني فى اعتذارى^(٤) إليك أذهب فشأنك غير شانى

(١) بعدها فى الاستيعاب : « وهذه الأبيات تروى ليزيد بن زبيدة بن مفرغ الحميرى الشاعر ؛ ومن رواها له جعل أولها :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ مغلغلة من الرّجل اليماني
وذكر الأبيات كما ذكرناها سواء . »

(٢) فى الاستيعاب : « وروينا أن معاوية قال حين أنشده مروان شعر أخيه عبد الرحمن : والله لا أرضى . . . »

(٣) الاستيعاب : « من جور اللسان » .
(٤) الاستيعاب : « لمن يلغى » .

عرفت الحق بعد ضلال رأيي وبعد النى من زيف الجنان
 زياد من أبي سفيان غصن تهادى ناضرا بين الجنان
 أراك أخا وعمّا وابن عمّ فما أدري بميّب ما ترانى
 وإن زياداً فى آل حرب أحبّ إلى من وسطى بنانى
 ألا أبلغ معاوية بن حرب فقد ظفرت بما تأتى اليسان

فقال زياد : أراك أحمق صرّفاً شاعرا ضيع اللسان، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطا،
 ولكننا قد سمعنا شعرك ، وقبلنا عذرَكَ ؛ فهات حاجتك ؟ ^(١) قال : تكتب إلى أمير المؤمنين
 بالرضا عني ، قال : نعم ، ثمّ دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه ^(٢) ، فأخذ كتابه ومضى
 حتى دخل على معاوية ، فلمّا قرأه قال : لحا الله زيادا ، لم يتنبّه لقوله :
 * وإن زياداً فى آل حرب *

ثم رضى عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته .

وأما أشعار يزيد بن مفرّغ الحميرى وهجاءه عبّداً لله وعبّادا ؛ ابني زياد بالدعوة
 فكثيرة مشهورة ، ونحو قوله :

أعبّادُ ما للوهم عنك تحوّل ^(٣) ولا لك أمّ من قريش ولا أبُ
 وقل لعبيد الله مالك والدّه بحقّ ولا يدرى امرؤ كيف تنسبُ
 ونحو قوله :

شهدت بأنّ أمك لم تُبَاشِرْ أبَا سُفْيَانَ واضعة القناع

(١ - ١) الاستيعاب : « قال : كُتِبَ إلى أمير المؤمنين بالرضا عني ، قال : نعم ، ثمّ دعا كاتبه فقال :
 اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان ؛ فإنّي أحمد إليك الله
 الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنه . . . وذكر الخبر . »
 (٢) ١ : « محول » .
 (٣) ٢ : « محول » .

ولكن كان أمره فيه لبسٌ على حذرٍ شديدٍ وارتجاعٍ
إذا أودى معاوية بنُ حرب فبشرُ شعبٍ قعبك بانصداعٍ
ونحو قوله :

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بَكْرَةَ عندي من أعجب العَجَبِ
هم رجالٌ ثلاثةٌ خُلِقُوا في رَحْمٍ أنثى وكلُّهم لأبٍ
ذا قرشيٌّ كما تقول وذا مولى وهذا بزعمه عَرَبِيٌّ^(١)
كان عبيد الله بن زياد يقول : ما شجيتُ بشيءٍ أشدَّ على من قول ابن مفرغ :
فكركُ في ذاك إن فكرتَ معتبرٌ هل نلتَ مكرمةً إلا بتأميرٍ !
عاشت سميةٌ ما عاشت وما علمتُ أنَّ ابنها من قريشٍ في الجماهير
ويقال : إنَّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمِّ الحكم ليزيد بن مفرغ
وأن أولها :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ مغلفةً من الرِّجلِ اليماني
ونحو قوله ، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبَّاد بن زياد بسجستان :
يا بُرْدُ ما مسنا دهرٌ أضرَّ بنا من قبل هذا ولا بعنا له ولداً
لامتنى النفسُ في بُرْدٍ فقلتُ لها لا تهلكي إثر بُرْدٍ هكذا كمدنا
لولا الدعيُّ ولولا ما تعرضَ بي من الحوادث ما فارقتَه أبداً
ونحو قوله :

أبلغ لديك بنى قحطان مأكمةً عصت بأثر أبيها سادةُ اليمين
أضحى دعيُّ زياد فقعَ قرقريةً يا للعجائب يلهو ابن ذى يزن !

(١) كذا في الاستيعاب ، وفي ب : « وهذا ابن عمه » .

وَرَوَى ابْنُ السَّكَّاجِيِّ أَنَّ عَبَّادَ اسْتَلْحَقَهُ زِيَادٌ كَمَا اسْتَلْحَقَ مَعَاوِيَةَ زِيَادًا ؛ كَلَاهُمَا لِدَعْوَةٍ .
 قَالَ : لَمَّا أُذِنَ لَزِيَادَ فِي الْحُجِّ تَجَهَّزَ ، فَبَيْنَا هُوَ يَتَجَهَّزُ وَأَصْحَابُ الْقَرَبِ يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ قِرْبَهُمْ ،
 إِذْ تَقَدَّمَ عَبَّادٌ - وَكَانَ خَرَّازًا - فَصَارَ يَعْزِضُ عَلَيْهِ وَيَحَاوِرُهُ وَيُجِيبُهُ ، فَقَالَ زِيَادٌ : وَيَحْكُ ،
 مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا ابْنُكَ ؛ قَالَ : وَيَحْكُ ، وَأَنْتَى بَنَى ؟ قَالَ : قَدْ وَقَعْتَ عَلَى أُمِّي فَلَانَةٌ ،
 وَكَانَتْ مِنْ بَنَى كَذَا ، فَوُلِدَتْنِي ، وَكُنْتُ فِي بَنَى قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ لَهُمْ ، فَقَالَ :
 صَدَقْتَ وَاللَّهِ ؛ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَا تَقُولُ . فَبِعْتُ فَأَشْتَرَاهُ ، وَادَّعَاهُ وَأَلْحَقَهُ ؛ وَكَانَ يَتَعَهَّدُ بَنَى قَيْسِ
 ابْنِ ثَعْلَبَةَ بِسَبِيهِ وَيُصَلِّهِمْ . وَعَظَّمَ أَمْرُ عَبَّادٍ حَتَّى وُلَّاهُ مَعَاوِيَةَ سِجِسْتَانَ بَعْدَ مَوْتِ زِيَادٍ ،
 وَوَلَّى أَخَاهُ عُبَيْدَ اللَّهِ الْبَصْرَةَ ، فَتَزَوَّجَ عَبَّادُ السَّيْرَةَ ^(١) ابْنَةَ أُنَيْفِ بْنِ زِيَادِ الْكَلْبِيِّ ، فَقَالَ
 الشَّاعِرُ يَخَاطِبُ أَنْيَفَا - وَكَانَ سَيِّدَ كَابٍ فِي زَمَانِهِ :

أَبْلَغُ لَدَيْكَ أَبَا تَرٍّ كَانَ مَالِكَةً ^(٢)	أَنَا نَمَا كُنْتُ أُمُّ بِالسَّمْعِ مِنْ صَمٍّ !
أُنَكَّحْتَ عَبْدَ بَنَى قَيْسٍ مَهْدَبَةً	أَبَاؤُهَا مِنْ عُكَيْمٍ مَعْدِنِ الْكَرَمِ
أَكُنْتُ تَجْهَلُ عَبَّادًا وَمَحْتَدَةً	لَا دَرٌّ دَرُّكَ أُمُّ أُنَكَّحْتَ مِنْ عَدَمٍ
أَبْعَدَ آلَ أَبِي سُفْيَانَ تَجْعَلُهُ	صِهْرًا وَبَعْدَ بَنَى مِرْوَانَ وَالْحَكَمِ !
أَعْظَمَ عَلَيْكَ بَذَا عَارًا وَمَنْقَصَةً	مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي الرَّحَمِ

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ثَلَاثُ كُنَّ فِي مَعَاوِيَةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ
 لَمَكَانَتْ مَوْبِقَةً : انْتِزَاؤُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالسَّفَهَاءِ حَتَّى ابْتَرَّهَا أَمْرُهَا ، وَاسْتَلْحَاقَهُ زِيَادُ
 مُرَأَتِهِ لَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ : « الْوَالِدُ لِلْفَرَّاشِ ، وَاللَّعَاهِرُ لِلْحَجَرِ » ، وَقَتْلُهُ حُجْرَ بْنِ عَدَى ؛ فَيَا وَيْلَهُ
 مِنْ حُجْرٍ وَأَصْحَابِ حُجْرٍ !

(١) كَذَا فِي ب : « الشَّتْرَةُ » . (٢) ب : « بَرَكَانٌ » .

وروى الشَّرْقِيُّ بن القطاميّ ، قال : كان سعيد بن سَرْح مولى حبيب بن عبد شمس شيمّة
لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : فلما قدم زياد الكوفة طابه وأخافه ، فأتى الحسن بن عليّ
عليه السلام مستنجراً به ، فوثب زياد على أخيه وولده وأمرأته فحبسهم ، وأخذ ماله ،
ونقض داره . فكتب الحسن بن عليّ عليه السّلام إلى زياد :

أما بعد ، فإنك سمّدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت
داره ، وأخذت ما له ، وحبست أهله وعياله ؛ فإن أذاك كتابي هذا فأبني له داره ، وأرُد
عليه عياله وماله ، وشفّعي فيه ، فقد أجرته . والسلام .

فكتب إليه زياد :

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، أما بعد ، فقد أتانى كتابك تبدأ
فيه بنفسك قبلي ، وأنت طالب حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقَة ، وتأمرني فيه بأمر المطاع
المسلّط على رعيتيه . كتبت إلى في فاسق آويته ، إقامة منك على سوء الرأي ، ورضاً منك
بذلك ، وإيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بمعضك غير رفيق بك
ولا مرعٍ عليك ، فإن أحبّ لحم عليّ أن آكله لَلَّحِم الَّذِي أَنْت منه ، فسلمه بحريته إلى
من هو أولى به منك ، فإن عفوت عنه لم أكن شفّمتك فيه ، وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه
أباك الفاسق ؛ والسلام .

فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسّم ، وكتب بذلك إلى معاوية ،
وجعل كتاب زياد عطفه ، وبعث به إلى الشام ، وكتب جواب كتابه كلتين لا ثلاثة لهما :
من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمّية ، أما بعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله
قال : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » ؛ والسلام .

فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :
أما بعد ، فإن الحسن بن عليّ بعث إلى بكتابك إليه جواباً عن كتاب كتبه

إليك في ابن سرح؛ فأكثر العجب منك، وعلمت أن لك رأيين: أحدهما من أبي سفيان، والآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما الذي من سمية، فما يكون من رأي مثلها! من ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق، ولعمري إنك الأولى بالفسق من أبيه. فأما أن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت، وأما تسلطه عليك بالأمر فحق لئيل الحسن أن يتسلط، وأما تركك تشفيمه فيما شفع فيه إليك، فخطأ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابي نخل ما في يديك لسعيد بن أبي سرح، وابن له داره، واردد عليه ماله، ولا تعرض له، فقد كتبت إلى الحسن أن يختاره، إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن باسمه واسم أمه، ولا تنسبه إلى أبيه، فإن الحسن ويحك! من لا يرمى به الرجوان^(١)، وإلى أي أم وكلمته لا أم لك! أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذاك أخفر له لو كنت تعلمه^(٢) وتعلمه! وكتب في أسفل الكتاب شعراً من جلته:

أما حسن فابن الذي كان قبله
إذا سار سار الموت حيث يسير
وهل يلد الرئبال إلا نظيره
وذا حسن شبه له ونظيره
ولكنه لو يوزن الحلم والحجبا
بأمر لقالوا يذبل وثبير

(١) الرجا: ناحية كل شيء، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتها؛ ويقال: رمى به الرجوان: استهين به، فكأنه رمى به هناك؛ أرادوا أنه طرح في المهالك؛ قال:
لقد هزئت متى بنجران أن رأيت مقامي في الكبلين أم أبان
كان لم ترى قبلي أميراً مكبلاً ولا رجلاً يرمى به الرجوان
أي لا يستطيع أن يستمسك. (٢) ساقطة من ب.

وروى الزبير بن بكار في « الموفقيات » أن عبد الملك أجرى خيلاً، فسبقه عبّاد بن زياد ، فأنشد عبد الملك :

سبق عبّاد وصلت لحيته وكان خرازاً تجود قربته

فشكى عبّاد قول عبد الملك إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له : أما والله لأنصفنك منه بحيث يكره . فزوجه أخته ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، إن منّا كح آل أبي سفيان قد ضاعت . فأخبر عبد الملك خالد بما كتب به الحجاج ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أعلم امرأة منّا ضاعت ونزلت إلّا عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنّها عندك ، ولم يَمِر الحجاج غيرك . قال عبد الملك : بل عني الدعي ابن الدعي عبّادا ، قال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أنصفتني ، أدعى رجلا ثم لا أزوجه ! إنما كنت ملوما لو زوجت دعيك ، فأما دعي فلم لا أزوجه !

فأما أول ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عباس له على البصرة في خلافة عليّ عليه السلام ، وبلغت عليّا عنه هَنَات ، فكتب إليه يلومه ويؤنبه ، فنها الكتاب الذي ذكر الرضى رحمه الله بعضه ، وقد شرحنا فيما تقدّم ما ذكر الرضى منه ، وكان عليّ عليه السلام أخرج إليه سُمداً مولاه يحثّه على حَمَل مال البصرة إلى الكوفة ، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة ، وعاد سعد وشكاه إلى عليّ عليه السلام وعابه ، فكتب عليّ عليه السلام إليه :

أما بعد ، فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلماً ، وهدّده وجبّهته تجبراً وتكبّراً ، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الكبر رداء الله ، فمن نازع الله رداءه قصمه » ، وقد أخبرني أنك تُكثّر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد ،

وَتَدَّهِنَ كُلَّ يَوْمٍ ، فَمَا عَلَيْكَ لَوْ صُمْتَ لِلَّهِ أَيَّامًا ، وَنَصَدَقْتَ بِيَعُضِ مَا عِنْدَكَ مِنْ نِسْبَا ، وَأَكَلْتَ طَعَامَكَ مَرَارًا قَفَّارًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ شِعَارُ الصَّالِحِينَ ! أَفَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مَتَمَرِّغُ فِي النِّعَمِ ، تَسْتَأْثِرُ بِهِ عَلَى الْجَارِ وَالْمَسْكِينِ وَالضَّمِيفِ وَالْفَقِيرِ وَالْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ ، أَنْ يُحْسَبَ لَكَ أَجْرُ الْمُتَصَدِّقِينَ ! وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ ، وَتَعْمَلُ عَمَلَ الْخَاطِئِينَ ، فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فَنَفْسُكَ ظَلَمْتَ ، وَعَمَلُكَ أَجْبَطُ ، فَتَبَّ إِلَى رَبِّكَ يُصْلِحْ لَكَ كَمَلَّكَ ، وَاقْتَصِدْ فِي أَمْرِكَ ، وَقَدِّمْ إِلَى رَبِّكَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، وَادَّهِنْ غَبَا ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « اَدَّهِنُوا غَبَا وَلَا تَدَّهِنُوا رِفْهًا ^(١) » .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ زِيَادُ : أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ سَعِدَا قَدِيمٌ عَلَى فُأْسَاءِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، فَاتَّهَرَّتُهُ وَزَجَرْتُهُ ، وَكَانَ أَهْلًا لِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْإِسْرَافِ وَاتِّخَاذِ الْأَلْوَانِ مِنَ الطَّعَامِ وَالنِّعَمِ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَأَثَابَهُ اللَّهُ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فُوقَاهُ اللَّهُ أَشَدَّ عِقَابِ الْكَاذِبِينَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : « إِنِّي أَصِفُ الْعَدْلَ وَأُخَالِفُهُ إِلَى غَيْرِهِ » ، فَإِنِّي إِذَنْ مِنَ الْأَخْسَرِينَ . نَفِذْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقَالِ قَلْتِهِ فِي مَقَامِ رَفْتِهِ ؛ الدَّعْوَى بِلَا بِنَّةٍ ؛ كَالسَّهْمِ بِلَا نَصْلِ ؛ فَإِنْ أَتَاكَ بِشَاهِدَاتٍ عَدْلٍ ؛ وَإِلَّا تَبَيَّنَ لَكَ كَذِبُهُ وَظُلْمُهُ .

وَمِنْ كَلَامِ زِيَادٍ : تَأْخِيرُ جَزَاءِ الْمَحْسَنِ لَوْمْ ، وَتَعْجِيلُ عِقَابِ الْمُسِيءِ طِيْشُ . وَكُتِبَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ : أَمَّا بَعْدُ ، فَاعْزِلْ حُرَيْثَ بْنَ جَابِرٍ عَنِ الْعَمَلِ ، فَإِنِّي لَا أَذْكُرُ مَقَامَاتِهِ بِصِفِّينَ إِلَّا كَانَتْ حَزَازَةً فِي صَدْرِي ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ زِيَادُ : أَمَّا بَعْدُ ، نَحْفِضُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ حُرَيْثًا قَدْ سَبَقَ شَرَفًا لَا يَرْفَعُهُ مَعَهُ عَمَلٌ ، وَلَا يَضَعُهُ مَعَهُ عَزْلٌ .

(١) الرِّفْهَ وَالْإِرْدَاهُ : كِبَرَهُ التَّدَهْنُ وَالنِّعَمُ .

وقال لابنه عبيد الله : عليك بالحجاب ، وإنما اجترأتِ الرُّعاة على السَّبَّاع بكثرة نظريها إليها .

ومن كلامه : أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنكم لا تزالون سماناً ما سمعوا .
قدّم رجلٌ خصماً له إلى زياد في حقٍّ له عليه وقال : أيها الأمير ، إن هذا يُدِلُّ
بخاصة ذكر أسما له منك . قال زياد : صدق ، وسأخبرك بما ينفعه عندي من خاصّته
ومودّته ، إن يكن له الحقّ عليك أخذك به أخذاً عنيفاً ، وإن يكن الحقّ لك قضيتُ عليه ،
ثم قضيت عنه .

وقال : ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه ، لكنّ العاقل من يحتال للأمر
ألا يقع فيه .

وقال في خطبة له : ألا ربّ مسرورٍ بقدومنا لا نسرّه ، وخائفٌ ضرّاً لا نضرّه !
كان مكتوباً في الحيطان الأربعة في قصر زياد كتابة بالحصّ ، أربعة أسطر ؛ أولها :
الشدة في غير عُنف ، واللين في غير ضَعْف . والثاني : المحسن مجازي بإحسانه ، والمسيء
يكافأ بإساءته . والثالث : العطيات والأرزاق في إبتائها وأوقاتها . والرابع : لا احتجاب
عن صاحب ثغرٍ ، ولا عن طارق ليل .

وقال يوم أعلّى المنبر : إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يَشْفِي بها غيظه لا يقطع بها ذنب
عزٍّ فتضرّه ، لو بلغتنا عنه لسفكنا دمه .

وقال : ما قرأتُ كتابَ رجل قطّ إلّا عرفتُ عقله منه .

وقال في خطبة : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ ؛ فوالله
لا يأتيني وضيعٌ بشريف يستخفّ به إلّا انتقمْتُ منه ، أو شابٌ بشيخ يستخفّ به .
إلا أوجعته ضرباً ، ولا جاهلٌ بعالم يستخفّ به إلّا نكّلت به .

وقيل لزياد : ما الحظ ؟ قال : أن يطولَ عمرُك ، وتَرَى في عدوك ما يسرُّك .

قيل : كان زياد يقول : هما طريقان للعامة : الطاعة والسيف .

وكان المغيرة يقول : لا والله حتى يحملوا على سبعين طريقا غير السيف .

وقال الحسن البصريّ لرجل : ألا تحدّثني بخطبتيّ زياد والحجاج حين دخلا العراق !
قال : بلى ، أمّا زياد فلما قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ معاوية غيرُ
مخوف على قومه ، ولم يكن ليُلحق بنسبه من ليس منه ، وقد شهدتِ الشهودُ بما قد بلغكم ،
والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ ، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم ، وقد رحلتُ عنكم وأنا
أعرف صدّيق من عدويّ ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقا مناصحا ، والصديق
عدوا مكاشحا ، فليشتغل كلّ امرئٍ على ما في صدره ، ولا يكوننّ لسانه شفرةً تجري
على أوداجه ، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّي قد حملتُ سيفي بيدي ، فإنّ أشهره
لم أغمده ، وإن أغمده لم أشهره . ثم نزل . وأمّا الحجاج فإنه قال : من أغيّاه داؤه ،
فعمليّ دواؤه ؛ ومن أستبطأ أجله ؛ فعليّ أن أعجله ؛ ألا إنّ الحزم والعزم استلبا مني
سوطي ، وجعلا سوطي سيفي ، فنجّاه في عنقي ، وقائم بيدي ، وذُبابه قلادة
لمن اغترّ بي :

فقال الحسن : البؤس لهما ، ما أغرّهما برّيهما ! اللهمّ أجعلنا ممن يمتبر بهما .

وقال بعضهم : ما رأيت زيادا كاسراّ إحدى عينيه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى
يخاطب رجلا إلّا رحمتُ المخاطب .

ومن كلامه : نعم الشيء الإمارة ؛ لولا قفقة لجام البريد ، وتسئم ذروة المنبر .

قال لحاجبه : يا عَجْلان ، إنّني قد وليتكَ هذا الباب وعزّلتكَ عن أربعة : المنادى إذا
جاء يؤذّن بالصلاة ، فإنّها كانت كتابا موقوتا ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إنّ أبطأ

ساعةً فسد تديرُ سنةً ، وطارق الليل فشرُّ ما جاء به ، والطبخ إذا فرغ من الطعام ، فإنه متى أعيد عليه النَّسخين فسد .

وكان حارثة بن بدر الغدائي قد غلب على زياد ، وكان حارثة مشتهراً بالشراب ، فقبل لزياد في ذلك ، فقال : كيف بطراح رجل هو يسايرني منذ قدمت العراق فلا يصلُ ركاؤه ركابي ، ولا تقدمني قطّ فنظرتُ إلى قفاه ، ولا تأخر عني فلويت عني إليه ، ولا أخذ عليّ الشمس في شتاء قطّ ، ولا الروح في صيف قطّ ، ولا سألته عن علم إلا ظننته لا يحسن غيره .

ومن كلامه : كني بالبخل عارا أن أسمه لم يقع في حمد قطّ ، وكفى بالجوّد نفرا أن أسمه لم يقع في ذم قطّ .

وقال : مِلاك السلطان الشدة على المريب ، واللين للمحسن ، وصديق الحديث ، والوفاء بالعهد .

وقال : ما أتيتُ مجلساً قطّ إلا تركتُ منه ما لو أخذته لكان لي ، وترك ما لي أحبُّ إلى من أخذ ما ليس لي .

وقال : ما قرأتُ مثل كتب الربيع بن زياد الحارثي ، ما كتب إلى كتاباً قطّ إلا في اجترار مننعة ، أو دفع مضرّة ، ولا شاورته يوماً قطّ في أمرٍ مبهم إلا وسّقتُ إلى الرأي .

وقال : يُجبني من الرجل إذا أتى مجلساً أن يعلم أين مكانه منه ، فلا يتعداه إلى غيره ، وإذا سيم خطّة خُسف أن يقول : « لا » بمل فيه .

فأما خطبة زياد المعروفة بالبراء - وإنما سميت بذلك لأنه لم يحمّد الله فيها ، ولا صلى على رسول - فقد ذكرها عليّ بن محمّد المدائني قال : قدّم زياد البصرة أميراً عليها أيام معاوية والفسق فيها فاش جداً ، وأموال الناس منتهبة ، والسياسة ضعيفة ، فصعد المنبر فقال :

أما بعد، فإن الجاهلية الجاهلاء^(١)، والضلالة العمياء، والنقى الموفد لأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حُلَاؤكم؛ من الأمور العظام، ينبت فيها الصنبر، ولا يتحاشى منها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تستمعوا ما أعد من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن التمرمد الذي لا يزول.

أتكونون ممن طرفت عينه^(٢) الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية ! لا تذكر^(٣) أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به؛ من تركم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله^(٤)، والضعيفة المسلوية في النهار المبصر، هذا والعدو غير قليل !

ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج الليل^(٥) وغارة النهار ! قربتم القرابة، وباعدتم الذين يعتذرون بنسب المذر، ويُعطون^(٦) على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سيفه، صنيع^(٧) من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. ما أنتم بالخلفاء، وقد أتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرمة^(٨) الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكائس الرّيب. حرم على الطعام والشراب حتى أسوّاها بالأرض هدا وإجراقا ! إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ! لين في غير ضعيف، وشدة في غير عنف. وأنا أقسم بالله لأحدن الولي بالولي، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه

(١) الجاهلية الجاهلاء؛ وصف على المباعدة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم، وهمج هامح.

(٢) طرفت عينه الدنيا؛ أى صرفته عن الحق. (٣) ١: «أتذكرون».

(٤) بعدها في البيان: «وهذه المواخر النصوبة».

(٥) الدج: السير من أول الليل؛ وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادلجوا، بالتشديد.

(٦) ١ والبيان: «ويفضون على المختلس».

(٧) ١ والطوى: «صنع».

(٨) البيان: «حرم الإسلام».

فيقول : أنجُ سَعْدَ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ^(١) ، أو تستقيم لي قناتكم .
 إن كَذِبَ المنبر تُنْفِي^(٢) مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حات لكم معصيتي !
 من نُقِبَ عليه منكم فأنا ضامن لما ذهب منه . فإيتاكم ودَجِ الليل ، فإني لا أوتى بمُدِجٍ
 إلا سَفَكْتُ دمه . وقد أَجَلْتُكم بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم .
 إيتاكم ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجِدُ أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم
 أحداثا ، وقد أحدثنا لكلِّ ذنب عقوبة ، فمن غرَّق بيوت قوم غرقناه ، ومن حرَّق
 على قوم حرَّقناه ، ومن نَقَبَ على أحدٍ بيتا نَقَبْنَا على قلبه ، ومن نَبَشَ قبرا دفنناه
 فيه حيا .

كَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنَّتَكُمْ ، أَكْفَ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي . ولا يظهرنَّ من أحدٍكم
 خلافا ، عليه عامتكم فأضرب عنقه . وقد كانت يدي وبين أقوامٍ إحنٌ فقد جعلت ذلك
 وراء أذني ، وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان مسيئا فليزدد
 عن إساءته ؛ إني لو علمت أن أحدكم قد قتل السَّلال^(٣) من بُغضِي لم أَكْشِفْ عنه قناعا ،
 ولم أَهْتِكْ له سِترا حتى يُبْدَى لي صَفَحَتَهُ ، فإذا فعل لم أنظره . فاستأنفوا أموركم ،
 وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرورٍ بقدومنا سيأس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادة ، نسوسُكم بسلطان الله الذي
 أعطانا ، ونذودُ عنكم بقرعة الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ،
 ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيتنا بما صحتكم لنا ، واعلموا
 أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ،

(١) سعد وسعيد ، هما ابنا ضبة بن أد ، خرعا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدهما سعد فردَّهما ، وقتل
 سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد !
 (٢) ١ : « بقي » ، وفي البيان : « بقاء مشهورة » .
 (٣) البيان : « السل » .

ولا حابسا عطاء ، ولا محجرا^(١) ، فادعوا الله بالصالح لأتتمكم فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ؛ ومتى يصلحوا تصاحوا ، فلا تُشربوا قلوبكم بغضهم ، فيستند لذلك غيظكم ، ويطول لذلك حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لأحد منكم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يمين كُلا على كُلي . وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر ، فأنفذوه على أدلاله^(٢) . وأيم الله إن لي فيكم لصراحي كثيرة ، فليحذر كل أمرئ منكم أن يكون من صرعى .

فقام عبد الله بن الأَهم قال : أشهد أيتها الأمير ؛ لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فقال : كذبت ، ذاك نبي الله داود .

فقام الأحنف فقال : إنما الثناء بمد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإننا لا نثني حتى نبُتلي ، ولا نحمد حتى نعطى .

فقال زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن أدية يمس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت ، [فقال] : ﴿ وَإِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آلَ تَارُوتَ إِذْ قَالُوا لَا تَنْزِلْ فِيهِمْ وَلَئِنْ نَزَلُوا فِيهِمْ لَيَبْغَيْنَكَ وَأَنْتَ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَلَّا يَفْعَلُوا إِلَّا إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾^(٤) ، فسمعها زياد فقال : يا أبا بلال ، إننا لا نبلغ ما نريد بأصحابك حتى نخوض إليهم الباطل خوضا^(٥) .

وروى الشعبي ، قال : قدم زياد الكوفة لما جعت له مع البصرة ، فذنوت من المنبر لأسمع كلامه ، فلم أر أحدا يتكلم فيُحسن إلا تمتب أن يسكت مخافة أن يسيء ، إلا زيادا فإنه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا ، فكنت أتمنى إلا يسكت .

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم في أرض العدو ويحبسهم عن العود إلى أهلهم .

(٢) على أدلاله ؛ على طرقه ووجوهه ؛ واحده ذل ؛ وهو ما ذل ومهد من الطريق .

(٣) من البيان .

(٤) بعدها في البيان : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرى بالسقيم ، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدر » .

(٥) الخطبة رواها الجاحظ في البيان والبيان ٢ : ٦١ ؛ وهي أيضا في عيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ،

ونوادر القال ١ : ١٨٥ ، والطبرى (حوادث ٤٥)

وَرَوَى السَّعْبِيُّ أَيْضًا ، قَالَ : لَمَّا خَظَبَ زِيَادُ خُطْبَتَهُ الْبَتْرَاءَ بِالْبَصْرَةِ وَزُلَّ سَمْعُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَصْوَاتُ النَّاسِ يَتَحَارَّسُونَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَالَوْا : إِنَّ الْبَلَدَ مَفْتُونَةٌ ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ أَهْلِ الْمَصْرِ لَتَأْخُذُهَا الْفَتْنَانِ الْفَسَّاقُ فَيَقَالُ لَهَا : نَادِي ثَلَاثَ أَصْوَاتٍ ، فَإِنَّ أَجَابَكَ أَحَدٌ وَإِلَّا فَلَا لَوْمَ عَلَيْهَا فِيمَا نَصْنَعُ . فَغَضِبَ فَقَالَ : فَفِيمَ أَنَا ، وَفِيمَ قَدَمْتُ ! فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمْرُ فَنُودِي فِي النَّاسِ ، فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ نَبَّئْتُ بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ وَسَمِعْتُ ذَرَوًا^(١) مِنْهُ ، وَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ وَأَجَلَّتْكُمْ شَهْرًا مَسِيرَ الرَّجُلِ إِلَى الشَّامِ ، وَمَسِيرَهُ إِلَى خِرَاسَانَ ، وَمَسِيرَهُ إِلَى الْحِجَازِ ، فَمَنْ وَجَدَنَاهُ بَعْدَ شَهْرٍ خَارِجًا مِنْ مَنْزِلِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فِدْمُهُ هَدَرٌ . فَانْصَرَفَ النَّاسُ يَقُولُونَ : هَذَا الْقَوْلُ كَقَوْلِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرَاءِ ، فَلَمَّا كَمَلَ الشَّهْرُ دَعَا صَاحِبَ شَرْطَتِهِ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ حُصَيْنِ الْيَرِيوَعِيِّ — وَكَلَّاتِ رِجَالِ الشَّرْطَةِ مَعَهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ — فَقَالَ لَهُ : هَيَّيْ خَيْلَكَ وَرَجُلَكَ ، فَإِذَا صَلَّيْتَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ، وَقَرَأَ الْقَارِئُ مَقْدَارَ سُبْعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَرَفَعَ الطَّنُّ الْقَصْبَ مِنَ الْقَصْرِ ، فَيَسِرُّ وَلَا تَلْقَيْنَ أَحَدًا ؛ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فَمِنْ دُونِهِ ، إِلَّا جِئْتَنِي بِرَأْسِهِ ، وَإِنْ رَاجَعْتَنِي فِي أَحَدٍ ضَرَبْتُ عُنُقَكَ .

قَالَ : فَصَبَّحَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعِمِائَةَ رَأْسٍ ، ثُمَّ خَرَجَ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ فُجَاءَ بِخُمْسِينَ رَأْسًا ، ثُمَّ خَرَجَ اللَّيْلَةَ الثَّلَاثَةَ فُجَاءَ بِرَأْسٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ لَمْ يَجِئْ بِعِدْهَا بِشَيْءٍ ، وَكَانَ النَّاسُ إِذَا صَلُّوا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ أَحْضَرُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ شِدًّا حَثِيثًا ، وَقَدْ يَتْرَكُ بَعْضُهُمْ نِعَالَهُ .

كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى زِيَادٍ كِتَابًا ، فَلَمْ تَدْرِ مَا تَكْتُبُ عَنَوَالَهُ ! إِنْ كَتَبْتُ زِيَادَ بْنَ عُبَيْدٍ أَوْ ابْنَ أَبِيهِ أَغْضَبْتُهُ ، وَإِنْ كَتَبْتُ زِيَادَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ آثَمْتُ ، فَكَتَبْتُ : مِنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ابْنِهَا زِيَادٍ . فَلَمَّا قَرَأَهُ ضَحِكَ ، وَقَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الْعِنَوَانِ نَصَبًا !

(١) ذَرَوًا : أَيُّ طَرَفًا .

(٤٥)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ - وكان عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعى إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها - قوله :

أَمَّا بَعْدُ يَا بْنَ حُنَيْفٍ ، فَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا ، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ . وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ بِجُفُوٍّ ، وَغَنِيَّتُهُمْ مَدْعُوٌّ . فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْصِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْصَمِ ، فَمَا اسْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَقْبَنَتْ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلِّ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيٍّ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيٍّ . أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ أَعْيُنُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِزَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللَّهِ (١) مَا كُنْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا ، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي تَوْبَى طِمْرًا ، وَلَا خُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَةٍ ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى مِنْ عَفْصَةٍ مَقْرَةٍ .

الشرح :

[عثمان بن حنيف ونسبه]

هو عثمان بن حنيف - بضم الحاء - بن واهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ

(١) ب : « اللهم » .

ثم الأوسى أخو سهل بن جُنَيْف ، يكنى أبا عمرو - وقيل : أبا عبد الله - عمل لعمر ثم لعلى عليه السلام ، وولاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق ، وضرب الخراج والجزية على أهلها ، وولاه على عليه السلام على البصرة ، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها ، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة على عليه السلام ، ومات بها في زمن معاوية .

فوله : « من فتية البصرة » ، أى من فتيانها ، أى من شبابها أو من أسخياها ؛ يقال للسخى : هذا فتى ، والجمع فتية وفتيان وفتو ؛ ويروى : « أن رجلا من قُطَّان البصرة » ، أى سكانها .

والمأذبة ، بضم الدال : الطعام يدعى إليه القوم ، وقد جاءت بفتح الدال أيضا ، ويقال : أدب فلان القوم يأديبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب : الداعى إليه ، قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدبَ فينا يندقر^(١)

ويقال أيضا : آدبهم إلى طعامه يؤدبهم إيدابا ؛ ويروى : « وكثرت عليك الجفان فكَرَعْتَ وأَكَلْتَ ذئبَ نَهم ، أو ضُبُعَ قَرم » .
وروى : « وما حَسِبْتُكَ تَأْكُلُ طَعَامَ قَوْمٍ » .

ثم ذم أهل البصرة فقال : « عاثلهم محفو ، وغنيهم مدعو » ، والمائل : الفقير ، وهذا كقول الشاعر :

فإن تُمَلِّقْ فَأَنْتَ لَنَا عَدُوٌّ فَإِنْ تَرَّ فَأَنْتَ لَنَا صَدِيقُ

(١) ديوانه ٧٩ . المشتاة : زمن الشتاء . والجفلى : أن يعم المرء بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحدا دون الآخر . والانتقار : أن يدعو القرى ؛ وهى أن يخص بدعوته ولا يعمها .

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهة فيه ، وسمي ذلك قضا ومقصا وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له ، وازدراءه إياه ، وأنه عنده ليس مما يستحق أن يسمى بأسماء المرغوب فيه ، التنافس عليه ، وذلك لأن القضم يطلق على معنيين : أحدها على أكل الشيء اليابس ، والثاني على ما يؤكل بيمض الفم ؛ وكلاهما يدلان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه ، لا فيه .

ثم ذكر عليه السلام حال نفسه فقال : « إن إمامكم قد قنع من الدنيا بطمريه » ، والطمر : الثوب الخلق البالي ، وإنما جعلهما اثنين لأنهما إزار ورداء لا بدّ منهما ، أى للجسد والرأس .

قال : « ومن طعمه بقرضيه » ، أى قرصان يفطر عليهما لاثالث لهما . وروى : « قد اكتفى من الدنيا بطمريه ، وسدّ فورة جوعه بقرضيه ، لا يطعم الفلذة في حويله إلا في يوم أضحية » .

ثم قال : إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه ، ولكنى أسألكم أن تعينوني بالورع والاجتهاد .

ثم أقسم أنه ما كنز ذهباً ، ولا ادّخر مالا ، ولا أعدّ ثوبا باليا سملا لبالي ثوبيه ، فضلا عن أن يعدّ ثوبا قشيباً كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عوض الأسماط التي ينزعونها ، ولا حاز من أرضها شبرا ، والضمير في « أرضها » يرجع إلى « دنياكم » ، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبرة ، وهى التى عقر ظهرها فقلّ أكلها .

ثم قال : « ولهى فى عيني أهون من عَفْصَة مَقَرَة » ، أى مُرّة ، مقر الشيء بالكسر أى صار مرّا ، وأمقره بالهمز أيضا ، قال لبيد :

مُمَقَّرٌ مُرٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الْأَدْبَانِ حُلُوٌّ كَالْعَسَلِ (١)

الأفضل :

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكَ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ ، فَسَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ،
وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكَ وَغَيْرِ فَدَكَ ،
وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظِلْمَتِهِ أَنْارُهَا وَتَغْيِبُ أَخْبَارُهَا ، وَخُفْرَةٌ
لَوْ زِيدَ فِي فَسَحَتِهَا ، وَأُوسِعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ ، وَسَدَّ فُرْجَهَا
الْتِّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ،
وَتَنْبُتُ عَلَى جَوَانِبِ الْمَرْزَقِ .

الشَّيْخ :

الْجَدَثُ : القبر ، وَأَضْغَطَ الْحَجَرُ : جملها ضاغطة ، والهمزة للتعمدية ، ويروى :
« وَضْغَطَهَا » .

وقوله : « مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ » ، المَظَانُّ : جمع مَظْنَةٍ ، وهو موضع الشيء ومأمله
الذي يكون فيه ، قال :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنْ مَظْنَةُ الْجَهْلِ الشَّبَابُ^(١)

يقول : لا مال لي ، ولا اقتنيتُ فيما مضى مَالًا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكَ فَسَحَّتْ
عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، أَيْ بَخَلَتْ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، أَيْ سَاحَتْ وَأَغْضَتْ .
وليس يعنى ها هنا بالسَّخَاءِ إِلَّا هَذَا ، لا السَّخَاءُ الْحَقِيقُ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلُهُ
لَمْ يَسْمَحُوا بِفَدَكَ إِلَّا عَصَبًا وَقَسْرًا ؛ وَقَدْ قَالَ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ ،
وهو يعنى الخِلافةَ بعد وفاة رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

(١) للناطقة الديباني ، ديوانه ١٤ .

ثم قال : « ونعم الحَكَمُ الله » ، الحَكَم : الحاكم ، وهذا الكلام كلامُ شاكٍّ متظلمٍ ،
ثم ذكر مالَ الإنسان وأنه لا ينبغي أن يكثرث بالقيّنات والأموال ، فإنه يصير عن قريب
إلى دار البلى ومنازل الموتى .

ثم ذكر أن الحفرة ضيقة ، وأنه لو وسّعها الحافر لأجأها الحجر المتداعى والمدّر
المتهافت ، إلى أن تضغط الميت وترجمه . وهذا كلام محمول على ظاهره ، لأنه خطاب للعامة ،
وإلا فأى فرق بين سعة الحفرة وضيقها على الميت ! اللهم إلا أن يقول قائل : إن الميت
يحسّ في قبره ، فإذا قيل ذلك فالجاءل له حساساً بعد عدم الحسّ هو الذى يوسّع الحفرة ،
وإن كان الحافر قد جعلها ضيقة ؛ فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العرب خاصّة ،
ومن يحمل الأمور على ظواهرها .

ثم قال : « وإنما هي نفسى أروضها بالتقوى » ، يقول : تقلّى واقتصرارى من المطعم
والملبس على الجشِب والجشِب رياضةٌ لنفسى ، لأنّ ذلك إنّما عمله خوفاً من الله أن أنعمس
فى الدنيا ، فالرياضة بذلك هي رياضةٌ فى الحقيقة بالتقوى ، لا بنفس التقلّل والتقصّف ،
لمتأثى نفسى آمنة يوم الفزع الأكبر ، وثبتت فى مداحض الزلّقى .

[ذكر ما ورد من السّير والأخبار فى أمر فدك]

واعلم أنّا نتكلّم فى شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول :
الفصل الأوّل فيما ورد فى الحديث والسّير من أمر فدك ، والفصل الثانى فى هل النبىّ
صلّى الله عليه وآله يورث أم لا ؟ ، والفصل الثالث فى أن فدك ؛ هل صحّ كونها نخلّة
مِن رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة أم لا ؟

الفصل الأول : فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم ، لا من كتب الشيعة ورجالهم ، لأننا مشترطون على أنفسنا ألا نحتفل بذلك ، وجميع ما نوردته في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في السقيفة وفدك وما وقع من الاختلاف والاضطراب عقب وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؛ وأبو بكر الجوهري هذا عالم محدث كثير الأدب ، ثقة ورع ، أثنى عليه المحدثون ورووا عنه مصنفاته .

قال أبو بكر : حدثني أبو زيد عمر بن شبة قال : حدثنا حيّان بن بشر ، قال : حدثنا يحيى بن آدم ، قال : أخبرنا ابن أبي زائدة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري قال : بقيت بقيّة من أهل خير تحصّنوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحقن دماءهم ويُسبّرهم ، ففعل ، فسمع ذلك أهل فدك^(١) فنزلوا^(٢) على مثل ذلك ، وكانت للنبي صلى الله عليه وآله خاصّة ، لأنّه لم يؤجف عليها بخيل ولا ركب .

قال أبو بكر : ورَوَى محمد بن إسحاق أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فرغ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النصف من فدك ، فقَدِمَتْ عليه رسُلهم بخير أو بالطريق ، أو بعد ما أقام بالمدينة ، فقبل ذلك منهم ، وكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وآله خالصة له ، لأنّه لم يؤجف عليها بخيل ولا ركب .

قال : وقد روى أنّه صالحهم عليها كلّها ، الله أعلم أيّ الأمرين كان .

قال : وكان مالك بن أنس يحدث عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أنّه صالحهم على النصف فلم يزل الأمر كذلك حتّى أخرجهم عمر بن الخطّاب وأجلاهم بعد أن عوضهم عن النصف الذي كان لهم عوضاً من إبل وغيرها .

(١) فدك : قرية بالمجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٢) في ١ « وكانوا » .

وقال غير مالك بن أنس : لما أجلاهم عمرُ بعث إليهم من يقوم الأموال ، بعث أبا الهيثم بن التَّيَّهَان ، وفَرْوَةَ بن عمرو ، وحُبَاب بن صَخْر ، وزيد بن ثابت ، فقوّموا أرضَ فَدَك ونَحْلَهَا ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمةَ النصف الذي لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألفَ درهم ، أعطاهم إياها من مالٍ أتاه من العراق ، وأجلاهم إلى الشام .

قال أبو بكر : فحدثني محمد بن زكريا قال : حدثني جعفر بن محمد بن عُمارة الكندي قال : حدثني أبي ، عن الحسين بن صالح بن حيّ ، قال : حدثني رحلان من بني هاشم ، عن زَيْبَ بنت عليّ بن أبي طالب عليه السلام . قال : وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين عن أبيه . قال أبو بكر : وحدثني عثمان بن عمران العجينيّ ، عن نائل بن نَجِيح بن صير بن كَثِير ، عن جابر الجعفيّ ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام . قال أبو بكر : وحدثني أحمد بن محمد بن يزيد ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن حسن بن الحسن . قالوا جميعا : لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماعُ أبي بكر على منعها فَدَك ، لانتِ غَمَارَهَا ، وأقبلت في لُئمةٍ من حَفَدَتِهَا ونساء قومها ، نطأ في ذبولها ، ما تخرم مِشْيَتَهَا مِشْيَةَ رسولِ الله صَلَّى الله عليه وآله ، حتّى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار ، فضرب بينها وبينهم رِيطَةً بيضاء - وقال بعضهم : قُبْطِيَّة ، وقالوا : قُبْطِيَّة بالكسر والضم - ثمّ أنت أنّةً أجهش لها القوم بالبكاء ، ثمّ أمهلت طويلا حتى سكنوا من فوّرتهم ، ثمّ قالت : أبتدئُ بحمْد مَنْ هو أولى بالحمد والطّول والمجد ، الحمد لله على ما أنتم وله الشكر بما ألهم . وذكر خطبةً طويلةً جيّدة قالت في آخرها : « فاتّقوا الله حقّ تَقَاتِهِ ، وأطيعوه فيما أمرَكم به ، فإنّما يخشى الله من عباده العلماء ، واحمدوا الله الذي لمظمته ونوره يبتغى من في السموات والأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلُته في خلقه ، ونحن خاصّته ، ومحلّ قدسه ، ونحن حجّته في غيبه ، ونحن ورثة

أنبيائه، ثم قالت : أنا فاطمة ابنة محمد ، أقول عوداً على بدء ، وما أقول ذلك سرّاً ولا شططاً ، فاسمعوا بأسماع واعية ، وقلوب راعية ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) فإن تعزّوه تجدوه أبى دون آبائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم ، ثم ذكرت كلاماً طويلاً سنذكره فيما بعد في الفصل الثاني ، تقول في آخره : ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لى ؛ ﴿ أَفَحُكُّمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) إياهم معاشر المسلمين ، ابتز إرث أبى ! أبى الله أن تَرِث يابن أبى قحافة أباك ولا أَرِث أبى ، لقد جئت شيئاً فَرِيّاً ! فدونها مخطومة مَرَحُولَةً تلقاك يوم حشرِك ، فنعّم الحُكَم الله ، والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يَخْسِرُ المَبْطُلون ، ولكلّ بنا مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم ! ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثلت بقول هندی بليت أمانة :

قد كان بعدك أنباء وهينةٌ لو كنت شاهدَها لم تكثرِ الخطبُ (٣)
أبدت رجالٌ لنا نجوى صدورهم لما قضيت وحالت دونك الكتبُ
تجهمتنا رجالٌ وأستخف بنا إذا غبت عنا فنحن اليوم نُفتصبُ
قال : ولم ير الناسُ أكثرَ باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذ . ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت : يامعشر البقية ، وأعضاء الملة ، وحضنة الإسلام ، ما هذه الفترة ، عن نُصرتى ، والوئبة عن معونتي ، والغمزة في حقى ، والسنة عن ظلامتى ! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « المرء يُحفظ في ولده » ! سرعاناً ما أحدثتم ، وعجلان ما أتيتهم . لأنّ مات رسول الله صلى الله عليه وآله أمتمّ دينه ! ها إنّ موته لعمري خطبٌ تجليل أستوسع وهنه ،

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ . (٢) سورة المائدة ٥٠ .

(٣) الهينة : الصوت الخفى ، وانظر اللسان .

واستبهم فتقّه ، وفُتِدَ راتقّه ، وأظلمت الأرض له ، وخسعت الجبال ، وأكّدت الآمال .
أُضِيعَ بعده الحريم ، وهُتِكت الحرمه ، وأذيلت المصونة ، وتلك نازلة أعلن بها كتاب
الله قبل موته ، وأنباكم بها قبل وفاته ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(١) إياها بنى قبيلة ! اهتضم ثراث أبي ، وأنتم بمراى
ومسمع ، تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت ، وفيكم العدة والعدد ، ولكم الدار والجَنّ
وأنتم نخبة الله التي انتخب ، وخيرته التي اختار ! باديت العرب ، وبادهت الأمور ، وكافتم
الجهنم حتى دارت بكم رحى الإسلام ، ودرّ حلبه ، وخبت نيران الحرب ، وسكنت قوّة
الشرك ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوثق نظام الدين ، أفنأخرتم بعد الإقدام ، ونكصتم
بعد الشدة ، وجبنتم بعد الشجاعة ، عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في
دينكم ! فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا وقد أرى أن قد أحلّتم
إلى الخلف ، وركنتم إلى الدعة ، فجحدتم الذي وعيتم ، وسُغِمَ الذي سوغتم ، وإن
تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ، ألا وقد قلت لكم ما قلت على
معرفة منى بالخذلة التي خامرتكم ، وخور القناة ، وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووها
مدبرة الظاهر ، ناقبة الخلف ، باقية العار ، موسومة الشعار ، موصولة بنار الله الموقدة ، التي
تطلع على الأفئدة ، فبين الله ما تعملون ﴿ وسيعلم الذي ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .

قال : وحديثي محمد بن زكريا قال : حدثنا محمد بن الضحّاك قال : حدثنا هشام بن
محمد ، عن عوانة بن الحكم قال : لما كلمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلمته به حمّد
أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا خيرة النساء ، وابنة خير الآباء ، والله
ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما عملت إلا بأمره ، وإن الرائد

لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وقد قلتِ فأبْلَغْتِ ، وأغْلَظْتِ فَأَهْجَرْتِ ، فغَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَكَ . أمّا بعد ، فقد دَفَعَتْ آلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ودَابَّتَهُ وحِذَاءَهُ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأمّا ما سَوَى ذَلِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا أَرْضًا وَلَا عَقَارًا وَلَا دَارًا ، وَلَكِنَّا نُورِثُ الْإِيمَانَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ وَالسَّيِّئَةُ » ، فقد عَمِلْتُ بِمَا أُمِرْتُ ، وَنَصَحْتُ لَهُ ، وَمَا تَوَفَّقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

قال أبو بكر : وروى هشام بن محمد ، عن أبيه قال : قالت فاطمة لأبي بكر : إِنَّ أُمَّ أَيْمَنَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَعْطَانِي فَذَكَ ، فقال لها : يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيْبِكُ ، وَلَوْ دِدْتُ أَنَّ السَّمَاءَ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ يَوْمَ مَاتَ أَبُوكَ ، وَاللَّهِ لَأَنْ تَفْتَقِرَ عَائِشَةُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَفْتَقِرَ ، أَتَرَانِي أَعْطَى الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ حَقَّهُ وَأُظْلِمَكَ حَقَّكَ ، وَأَنْتِ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَالًا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ يَحْمِلُ النَّبِيُّ بِهِ الرِّجَالَ ، وَيَنْفَقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَمَّا تَوَفَّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْتَهُ كَمَا كَانَ يَلِيهِ . قالت : وَاللَّهِ لَا كَلِمَتِكَ أَبَدًا ! قال : وَاللَّهِ لَا هِجْرَتِكَ أَبَدًا ؛ قالت : وَاللَّهِ لَأَدْعُونَ اللَّهَ عَلَيْكَ ؛ قال : وَاللَّهِ لَأَدْعُونَ اللَّهَ لَكَ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ أَوْصَتْ أَلَّا يَصَلِّيَ عَلَيْهَا ، فَدَفَنْتُ لَيْلًا ، وَصَلَّى عَلَيْهَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَكَانَ بَيْنَ وَفَاتِهَا وَوَفَاةِ أَبِيهَا اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ لَيْلَةً .

قال أبو بكر : وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَاءَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عِمْرَانَ بِالْإِسْتِثْنَاءِ الْأَوَّلِ قَالَ : فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ خُطْبَتَهَا شَقَّ عَلَيْهِ مَقَالَتُهَا فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا هَذِهِ الرَّعَّةُ إِلَى كُلِّ قَالَةٍ ! أَيْنَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمَانِيُّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ألا مَنْ سَمِعَ فليقل ، ومن شهد فليتكلم ، إنما هو ثعالة شهيد ذنبه ، مُرِبٌّ لكلِّ فتنة ، هو الذى يقول : كرّوها جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمّ طِحَالٍ أحبّ أهلها إليّ البغى . ألا إني لو أشاء أن أقول لقلتُ ولوقلتُ لبحتُ ، إني ساكت ماتركت . ثم التفت إلى الأنصار فقال : قد بلغني يامعشر الأنصار مقالة سفهاؤكم ، وأحق من أزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم . فقد جاءكم فأوتيتهم ونصرتهم ، ألا إني لستُ بأسطائداً ولا لساناً على مَنْ لم يستحقّ ذلك ممنا .

ثم نزل ؛ فانصرفت فاطمة عليها السلام إلى منزلها .

قلت : قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصرى وقلت له : بمن يمرّض ؟ فقال : بل يصرّح . قلتُ : لو صرّح لم أسألك . فضحك وقال : بعلى بن أبي طالب عليه السلام ، قلت : هذا الكلام كله لعلىّ يقوله ! قال : نعم ، إنه الملك يا بنى ، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال : هتفوا بذكر علىّ نخاف من اضطراب الأمر عليهم ، فنهاهم . فسألته عن غريبه ، فقال : أما الرّعة بالتخفيف ، أى الاستماع والإصغاء ؛ والقالة : القول ، وثُعالة : اسم الثعلب علم غير مصروف ، ومِثْل ذُوالة للذئب ، وشهيد ذنبه ، أى لا شاهد له على ما يدعى إلا بعضه وجزء منه ، وأصله مثل ، قالوا : إن الثعلب أراد أن يمرى الأسد بالذئب ، فقال : إنه قد أكل الشاة التى كنت قد أعددتها لنفسك ، وكنت حاضراً ، قال : فن يشهد لك بذلك ؟ فرفع ذنبه وعليه دم ، وكان الأسد قد افتقد الشاة . فقبل شهادته ، وقتل الذئب ، ومُرِبٌّ : ملازم ، أُرِبَّ بالمكان . وكرّوها جَذعة : أعيدوها إلى الحال الأولى ، يعنى الفتنة والهرج . وأمّ طِحَال : امرأة بُنى في الجاهلية ، ويضرب بها المثل فيقال : أزنى من أمّ طِحَال .

قال أبو بكر : وحدّثني محمد بن زكريّا قال : حدّثني أن عائشة ، قال : حدّثني أبي ، عن عمّه قال : لمّا كملت فاطمة أبا بكر بكى ، ثم قال : يا بنت رسول الله ، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما ، وإنّه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إنّ فذكّ وهبها لى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فشهد ، وجاءت أمّ أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقسمها ، قال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وصدق على ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ من فذكّ قوتكم ، ويقسم الباقي ، ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ؛ قال : فلك على الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ! قال : الله لأفعلن ، قالت : اللهم أشهد ؛ وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك ؛ فلما ولى الأمر معاوية بن أبى سفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وأقطع عمرو بن عثمان بن عفان ثلثها ، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها ، وذلك بعد موت الحسن بن على عليه السلام ؛ فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلّها لمروان بن الحكم أيام خلافته ، فوهبها لعبد العزيز أبنه ، فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز ، فلما ولى عمر بن العزيز الخلافة ، كانت أوّل ظلامة ردّها ، دعا حسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب عليه السلام - وقيل : بل دعا على بن الحسين عليه السلام - فردّها عليه ، وكانت بيد أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز ، فلما ولى يزيد بن عاتكة قبضها منهم ، فصارت فى أيدي بني مروان كما كانت يتداولونها ، حتى انتقلت الخلافة عنهم ، فلما ولى أبو العباس السفاح ردّها على عبد الله

ابن الحسن بن الحسن ، ثم قبضها أبو جعفر لما حدث من بنى حسن ما حدث ، ثم ردّها المهديّ ابنه على ولد فاطمة عليها السلام ، ثم قبضها موسى بن المهديّ وهارون أخوه ، فلم تزل في أيديهم حتّى ولي المأمون ، فردّها على الفاطميّين .

قال أبو بكر : حدثني محمّد بن زكريا قال : حدثني مهديّ بن سابق ، قال : جلس المأمون للمظالم ، فأول رُقعة وقعت في يده نظر فيها وبكى ، وقال للذي على رأسه : نادِ أين وكيلُ فاطمة ؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة و عمامة وخُفّ تعزّيّ ، فتقدّم فجعل ينظره في فذلك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون ، ثم أمر أن يسجّل لهم بها ، فكتب السجّل وقرئ عليه ، فأنفذه ، فقام دُعبل إلى المأمون فأنشده الأبيات التي أوّلها :

أصبحَ وجهُ الزّمان قد ضحِكَ بردَ مأمونٍ هائمٍ فدكا^(١)

فلم تزل في أيديهم حتّى كان في أيّام المتوكّل ، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار ، وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيده ، فكان بنتو فاطمة يأخذون ثمرها ، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر فيصاوتهم ، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل ، فصرم^(٢) عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر ، ووجه رجلا يقال له بشران بن أبي أميّة الثقفي إلى المدينة فصرّمه ، ثم عاد إلى البصرة ففُلج .

قال أبو بكر : أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالوا : حدثنا الوليد بن محمّد ، عن الزّهرى ، عن عروة ، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهي حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة وفدك ، وما بقي من خمس خيبر ، فقال أبو بكر :

(١) ديوانه ١١٩ ، معجم البلدان (فدك) . (٢) صرم النخل : جذه وقطعه .

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَمَلٍ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَوَجِدَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهْجَرَتَهُ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ حَتَّى تُوَفِّيَتْ ، وَعَاشَتْ بَعْدَ أَبِيهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، فَلَمَّا تُوَفِّيَتْ دَفَنَهَا عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلًا ، وَلَمْ يُؤْزِنْ بِهَا أَبُو بَكْرٍ .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا إسحاق بن إدریس ، قال : حدثنا محمد بن أحمد ، عن معمر ، عن الزَّهْرِيِّ ، عن عروة ، عن عائشة ، أَنَّ فَاطِمَةَ وَالْعَبَّاسَ أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَما حَيْثُ يَطْلُبَانِ أَرْضَهُ بِمَدَنِكَ وَسَهْمِهِ بِخَيْرٍ ، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَصْنَعُهُ إِلَّا صَنَعْتُهُ . قال : فَهَجَرَتْهُ فَاطِمَةُ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ حَتَّى مَاتَتْ .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عمر بن عاصم . وموسى بن إسماعيل قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن أمِّ هانئ ، أَنَّ فَاطِمَةَ قَالَتْ لِأَبِي بَكْرٍ : مَنْ يَرِثُكَ إِذَا مِتَّ ؟ قال : وَلَدِي وَأَهْلِي ؛ قَالَتْ : فَمَا لَكَ تَرِثُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دُونَنَا ؟ قال : يَا ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، مَا وَرَثَ أَبُوكَ دَارًا وَلَا مَالًا وَلَا ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ، قَالَتْ : بَلَى سَهْمُ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ لَنَا ، وَصَارَ فَيْئُنَا الَّذِي بِيَدِكَ ، فَقَالَ لَهَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَئَاهَا اللَّهُ ، إِذَا مِتَّ كَانَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » . قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ قال : حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ ، عن الوليد بن جميع ، عن أَبِي الطَّفِيلِ قال : أُرْسِلْتُ فَاطِمَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ :

أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهله؛ قالت: فما بال سهم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله أطعم نبيه طعمة»، ثم قبضه، وجعله للذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده، على أن أردّه على المسلمين، قالت: أنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهله؛ وهذا تصريح بأنه صلى الله عليه وآله موروث يرثه أهله، وهو خلاف قوله: «لا نورث». وأيضا فإنه يدل على أن أبا بكر استنبط من قول رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله أطعم نبيه طعمة أن يُجرى رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النبي صلى الله عليه وآله، أو يكون قد فهم أنه عني بذلك النبي المنكر لفظا نفسه، كما فهم من قوله في خطبته، إن عبدا خيرّه الله بين الدنيا وما عند ربّه، فاختار ما عند ربّه، فقال أبو بكر: بل فديك بأنفسنا.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: أخبرنا القعنيّ قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، أن فاطمة طلبت فذك من أبي بكر، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن النبي لا يُورث»، من كان النبي يموه فأنأ أعوله، ومن كان النبي صلى الله عليه وسلم يُنفق عليه فأنأ أنفق عليه. فقالت: يا أبا بكر؛ أيرثك بناتك ولا يرث رسول الله صلى الله عليه وآله بناته؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثنا فضيل بن مرزوق قال: حدثنا البحتريّ بن حسان قال: قلت لزيد بن عليّ عليه السلام وأنا أريد أن أهجن أمرأ أبي بكر، إن أبا بكر انتزع فذك من فاطمة عليها السلام، فقال، إن أبا بكر كان رجلا

رحيا ، وكان يكره أن يغيّر شيئا فَمَا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتته فاطمة فقالت :
 إن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فِدْكَ ، فقال لها : هل لك على هذا بِنْتُهُ ؟ فجاءت
 بعلي عليه السلام ، فشهد لها ، ثم جاءت أمّ أيمن فقالت : ألسنا تشهدان أنّي من أهل الجنة !
 قالا : بلى . قال أبو زيد يمى أنّها قالت لأبي بكر وعمر - قالت : فأنا أشهد أن رسول
 الله صلى الله عليه وآله أعطاه فِدْكَ ، فقال أبو بكر : فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحق
 بها القضية . ثم قال أبو زيد : وإيم الله لو رجع الأمر إلى لقضيتُ فيها بقضاء أبي بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا يحيى بن
 المتوكل أبو عقيل ، عن كثير النوال قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : جعلني
 الله فداك ! أرايت أبا بكر وعمر ، هل ظلماكم من حَقِّكم شيئا . أو قال : ذهب من حَقِّكم
 بشيء ؟ فقال : لا ، والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، ما ظلمنا من حَقِّنا
 مثقال حبة من خردل ؛ قلت : جعلت فداك أفأتولاهما ؟ قال : نعم ويحك ! تولهما في الدنيا
 والآخرة ، وما أصابك في عسقي ، ثم قال : فعل الله بالمغيرة وبُثْنان ، فإنهما كذبا علينا
 أهل البيت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا عبد الله بن نافع والقمبي ، عن مالك عن
 الزهري ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وآله أردن لما توفّي أن يبعثن
 عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأله ميراثهنّ - أو قال ثمنهنّ - قالت : فقلت لهنّ : أليس قد
 قال النبي صلى الله عليه وآله « لا تُورث ، ما تركنا صدقة » .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا عبد الله بن نافع والقمبي وبشر بن
 عمر ، عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه
 وآله . قال : « لا يقسم ورثتي دينارا ولا درهما ، ما تركتُ بعد تقفة نسائي ومثونة عيالي
 فهو صدقة » .

قلت : هذا حديث عريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلا أبو بكر وحده .

وقال أبو بكر : وحدَّثنا أبو زيد ، عن الحزامي ، عن ابن وهب ، عن يونس عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذى نفسى بيده لا يقسم ورثتى شيئاً ، ما تركت صدقة . » ، قال : وكانت هذه الصدقة بيدِ عليٍّ عليه السلام ، غلب عليها العباس ، وكانت فيها خصومتها ، فأبى عمرُ أن يقسمها بينهما حتى أعرض عنها العباس وغلب عليها عليه السلام ، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابني عليٍّ عليه السلام ، ثم كانت بيدِ عليٍّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن ، كلاهما يتداولانها^(١) ، ثم بيد زيد بن عليٍّ عليه السلام .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عثمان بن عمر بن فارس ، قال : حدثنا يونس ، عن الزهري ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، أن عمر بن الخطاب دعاه يوماً بعد ما ارتفع النهار ، قال : فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش ، على وسادة آدم ، فقال : يا مالك ، إنه قد قدم من قومك أهلُ أبيات حضروا المدينة ، وقد أمرت لهم برضخ^(٢) فاقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ بذلك غيرى ، قال : اقسم أيها المرء .

قال : فبينما نحن على ذلك إذ دخل يرفاً ، فقال : هل لك في عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك ؟ قال : نعم ، فأذن لهم ، قال : ثم لبث قليلاً ، ثم جاء فقال : هل لك في عليٍّ والعباس يستأذنان عليك ؟ قال : ائذن لهما ، فلما دخلا ، قال عباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بيني وبين هذا — يعنى علياً — وهما يختصمان في الصوافي^(٣) التى أفاء الله على رسوله

(١) ب : « يتداولانها » تصحيف ، صوابه من ا (٢) الرضخ هنا : المال .

(٣) الصوافي : الأملاك الواسعة . والخبر في اللسان (صفا) .

من أموال بني النضير ، قال : فاستبّ عليّ والعباس عند عمر ، فقال عبد الرحمن :
يا أمير المؤمنين : اقض بينهما وأرخ أحدهما من الآخر ، فقال عمر : أشدكم الله الذي
تقوم بإذنه السموات والأرض ، هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
« لا نُورث ، ما تركناه صدقة » ، يعني نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك ، فأقبل على العباس وعليّ
فقال : أنشدكما الله هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم ؟ قال عمر : فإنّي أحدثكم عن هذا الأمر ،
إن الله تبارك ونعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الشيء بشيء لم يُعطه غيره ،
قال تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١١ ﴾ ، وكانت هذه
حاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما اختارها دونكم ، ولا استأثر بها عليكم ،
لقد أعطاكموها وتنتها فيكم حتى بقي منها هذا المال ، وكان ينفق منه على أهله سنتهم ،
ثم يأخذ ما بقي فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ ، فعل ذلك في حياته ثم توفّي ، فقال أبو بكر :
أنا وليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضه الله ، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأنّا حينئذ ، والتفت إلى عليّ والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم
فاجر ، والله يعلم أنّه فيها لصادق بارّ راشد ، تابع للحق ، ثم توفّي الله أبا بكر ، فقلت :
أنا أولى الناس بأبي بكر وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضتها سنتين - أو قال سنين
من إمارتي - أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثم قال :
وأنّما - وأقبل على العباس وعليّ - تزعمان أنّي فيها ظالم فاجر ، والله يعلم أنّي فيها بارّ راشد ،
تابع للحق ثم جئتماني وكنتكما واحدةً ، وأمركما جميع ، فجئتنى - يعني العباس - تسألنني
نصيبك من ابن أخيك ، وجاءني هذا - يعني عليّ - يسألني نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما :
إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، فلما بدا لي أن

أدفعها إليكما قلت : أدفعها عليّ أنّ عليكما عهد الله وميثاقه لتمعلمان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وبما عملتُ به فيها ، وإلا فلا تكلماني ! فقلتما : ادفعها إلينا بذلك ، فدفعتهما إليكما بذلك ، أفقتلتمسان مني قضاء غير ذلك ! والله الذي تقوم بإذنه السموات والأرض لا أقضى بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعاهما إليّ فأنا أكفيكماها !

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد قال : حدثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدثنا عبد الله ابن المبارك قال : حدثني يونس ، عن الزهريّ قال : حدثني مالك بن أوس بن الحدّان بنحوه ؛ قال فذكرت ذلك لعروة فقال : صدق مالك بن أوس ، أنا سمعتُ عائشة تقول : أرسل أزواجُ النبيّ صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألُهن ميراثهنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردّهنّ عن ذلك ، فقلت : ألا تتقين الله ، ألم تعلمن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، يريد بذلك نفسه ؛ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، فانتهي أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ما أمرتهنّ به .

قلت : هذا مشكل ، لأن الحديث الأول يتضمن أن عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان ، فقال : نشدتكم الله ، ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، يعني نفسه ! فقالوا : نعم ، ومن جلتهم عثمان ، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلاً لأزواج النبيّ صلى الله عليه وآله : يسأله أن يعطيهم الميراث ! اللهم ! إلا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدّقوا عمر على سبيل التقليد لأبي بكر فيما رواه وحسن الظنّ ، وسمّوا ذلك علماً ، لأنه قد يطلق على الظنّ اسم العلم .

فإن قال قائل : فهلا حسن ظنّ عثمان برواية أبي بكر في مبدء الأمر فلم يكن رسولا لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله في طلب الميراث ؟ .
 قيل له : يجوز أن يكون في مبدء الأمر شاكاً ، ثمّ يغلب على ظنه صدقه لأمارات اقتضت تصديقه ، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أنّ عمر ناشد عليّاً والعبّاس : هل تعلمان ذلك ؟ فقالا : نعم ، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر ، وقد أوردناه نحن ! وهل يجوز أن يقال : كان العبّاس يعلم ذلك ثمّ يطلب الإرث الذي لا يستحقّه ؟ وهل يجوز أن يقال : إنّ عليّاً كان يعلم ذلك ويمكّن زوجته أن تطلب مالا تستحقّه ، خرجت من دارها إلى المسجد ، ونازعت أبا بكر ، وكلمته بما كلمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه . وأيضاً فإنه إذا كان صلى الله عليه وآله لا يُورث ، فقد أشكل دفع آله ودابّته وحذائه إلى عليّ عليه السلام ، لأنّه غير وارث في الأصل ، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بمُرُضة أن ترث ، لولا الخبر ، فهو أيضاً غير جائز ، لأنّ الخبر قد منع من أن يرث منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً .

فإن قال قائل : نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً .

قيل : هذا الكلام يُفهم من مضمونه أنّهم لا يورثون شيئاً أصلاً ، لأنّ عادة العرب جاريةٌ بمثل ذلك ، وليس يقصدون نفى ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها ، بل يجعلون ذلك كالتصريح بنفى أن يورثوا شيئاً ما على الإطلاق .

وأيضاً فإنّه جاء في خبر الدابة والآلة والحذاء أنّه روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « لا نُورث ، ما تركناه صدقة » ، ولم يقل « لا نُورث كذا ولا كذا » وذلك يقتضى عموم انتفاء الإرث عن كلّ شيء .

وأما الخبر الثاني وهو الذى رواه هشام بن محمد الكلبيّ ، عن أبيه ؛ ففيه إشكال أيضا ، لأنه قال : إنّها طلبت فذكّ ، وقالت : إنّ أبى أعطانيها ، وإنّ أمّ أيمن تشهد لى بذلك ، فقال لها أبو بكر فى الجواب : إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنّما كان مالا من أموال المسلمين ، يحمل^(١) به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ؛ فلئلاّ أن يقول له : أيجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يملك أبنته أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة ، أو عقارا مخصوصا من مال المسلمين ، لَوْحَى أَوْحَى الله تعالى إليه ، أو لاجتهاد رأيّه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد ، أولاّ يجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله ذلك ؟ فإن قال : لا يجوز ، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه ، وإن قال : يجوز ذلك ، قيل : فإنّ المرأة ما اقتصرت على الدعوى ، بل قالت : أمّ أيمن تشهد لى ، فكان ينبغي أن يقول لها فى الجواب : شهادة أمّ أيمن وحدها غير مقبولة ؛ ولم يتضمّن هذا الخبر ذلك ، بل قال لها لما أدّعت وذكرت من يشهد لها : هذا مال من مال الله . لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا ليس بجواب صحيح .

وأما الخبر الذى رواه محمد بن زكريّا عن عائشة ، ففيه من الإشكال مثل ما فى هذا الخبر ، لأنّه إذا شهد لها علىّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وهب لها فذكّ ، لم يصحّ اجتماع صدّقها وصدّق عبد الرحمن وعمر ، ولا ما تكلفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم ، لأنّ كونها هبة من رسول الله صلى الله عليه وآله لها يمتنع من قوله : « كان يأخذ منها قوتكم ويقسم الباقي » ، ويحمل منه فى سبيل الله » ، لأنّ هذا يناقى كونها هبة لها ؛ لأنّ معنى كونها لها أنّها انتقلت إلى ملكيّتها ، وأنّ تتصرف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس ، وما هذه صفته كيف يقسم ويحمل منه فى سبيل الله !

(١) ا : « ويحمل » .

فإن قال قائل : هو صَلَّى الله عليه وآله أبوها ، وحُكْمُهُ في مالها كحُكْمِهِ في ماله وفي بيت مال المسلمين ، فلمَلَهُ كان بحكم الأبوة يفعل ذلك !
 قيل : فإذا كان يتصرّف^(١) فيها فيها تصرّف الأب في مال ولده ، لا يخرج ذلك عن كونه مال ولده ، فإذا مات الأب لم يجوز لأحد أن يتصرّف في مال ذلك الولد ، لأنه ليس بأب له فيتصرّف في ماله تصرّف الآباء في أموال أولادهم ؛ على أن الفقهاء أو مُظْمَهِم لا يجوزون للأب أن يتصرّف في مال الأبن .

وها هنا إشكال آخر ، وهو قول عمر لعليّ عليه السلام والعبّاس : وأتما حينئذ تزعمان أن أباً بكر فيها ظالم فاجر ، ثمّ قال لما ذكر نفسه : وأتما تزعمان أني فيها ظالم فاجر ، فإذا كانا يزعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله قال : « لا أورث » ! إن هذا لمن أعجب العجائب ، ولولا أن هذا الحديث - أعني حديث خصومة العبّاس وعليّ عند عمر - مذکور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذکور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحّته ؛ وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا ابن أبي شَيْبَةَ ، قال : حدثنا ابن عُكَيْتَةَ ، عن أيّوب ، عن عكرمة ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثَان قال : جاء العبّاس وعليّ إلى عمر ، فقال العبّاس : أفض بيني وبين هذا الكذا وكذا ، أي يشتمه ، فقال الناس : أفصل بينهما ، فقال لا أفصل بينهما ، قد علما أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله قال : « لا نُورث » ، ما تركناه صدقة .

قلت : وهذا أيضاً مُشْكَل ، لأنهما حضرا يتنازعا في الميراث ، بل في ولاية صدقة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله أيهما يتولّاها ولاية لا إرثاً ! وعلى هذا كانت الخصومة ،

(١) ب : « قد يتصرف » .

فهل يكون جواب ذلك قد علما أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث » !
قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال : حدثني يحيى بن كثير أبو غسان قال : حدثنا شعبة
عن عمر بن مرة ، عن أبي البختري قال : جاء العباس وعليّ إلى عمر وهما يختصمان ، فقال عمر
لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد : أنشدكم الله ، أسمعتم رسول الله صلى الله عليه يقول :
« كلّ مال نبيّ فهو صدقة ، إلا ما أطعمه أهله ، إنّا لا نُورَث » ! فقالوا : نعم ، قال :
وكان رسول الله يتصدق به ، ويقسم فضله ، ثم توفيّ فولّيه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان
يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنما تقولان : إنّه كان بذلك خاطئا ، وكان بذلك
ظالما ، وما كان بذلك إلّا راشدا ، ثم وليّته بعد أبي بكر فقلت لكما : إن شئكما قبلتماه
على عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده الذي عهد فيه ، فقلتما : نعم ، وجئنا إلى الآن
تختصمان ؟ يقول هذا : أريد نصيبي من ابن أخي ، ويقول هذا : أريد نصيبي من امرأتي !
والله لا أقضي بينكما إلّا بذلك .

قلتُ : وهذا أيضاً مُشْكِل ، لأن أكثر الروايات أنّه لم يرو هذا الخبر إلّا أبو بكر
وحده ، ذكر ذلك أعظم المحدثين ، حتّى إن الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك
في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابي الواحد . وقال شيخنا أبو عليّ : لا تقبل في الرواية
إلّا رواية اثنين كالشهادة ، نخالفه المتكلمون والفقهاء كلّهم ، واحتجّوا عليه^(١) بقبول
الصحابة رواية أبي بكر وحده : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث » ، حتّى إنّ بعض أصحاب
أبي عليّ تكلف لذلك جواباً ، فقال : قد روى أنّ أبا بكر يوم حجّ فاطمة عليها السلام
قال : أنشد الله امرأ سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا شيئاً ! فروى مالك
ابن أوس بن الحدثان ؛ أنّه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث ينطق

(١) ساقطة من ب .

بأنه استشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن وسعدا ، فقالوا : سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأين كانت هذه الروايات أيام أبي بكر ! ما نقل أن أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمة عليها السلام وأبي بكر روى من هذا شيئاً .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ^(١) ، عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله أرسلن عثمان إلى أبي بكر ، فذكر الحديث ، قال عروة : وكانت فاطمة قد سألت ميراثها من أبي بكر مما تركه النبي صلى الله عليه وآله ، فقال لها : بأبي أنت وأُمِّي ، وبأبي أبوك وأُمِّي ونفسي ، إن كنتِ سمعتِ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً ، أو أمركِ بشيء لم أتبع غير ما تقولين ، وأعطيتكِ ما تبتغين ، وإلا فإني أتبع ما أمرتُ به !

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد قال : حدثنا عمرو بن مرزوق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرة ، عن أبي البختري قال : قال لها أبو بكر لما طلبتُ فذك : بأبي أنت وأُمِّي ! أنتِ عدى الصديقة الأمانة ، إن كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عهدَ إليك في ذلك عهداً ، أو وعدك به وعداً ، صدقتُكِ ، وسلمتُكِ إليك ! فقالت : لم يعهد إليّ في ذلك بشيء ، ولكن الله تعالى يقول : ﴿ يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ^(٢) ، فقال : أشهد لقد سمعت ^(٣) رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إِنَّا معاشِرُ الأنبياء لا نُورَث » .

قلت : وفي هذا من الإشكال ما هو ظاهر ، لأنّها قد ادّعت أنه عهد إليها رسولُ الله صلى الله عليه وآله في ذلك أعظم العهد ، وهو النحلة ، فكيف سكّنت عن ذكر هذا لما سأله أبو بكر ! وهذا أعجب من العجب .

(١) ب : « عيسى » . (٢) سورة النساء ١١ . (٣) كذا في : ١ ، وفي ب : « كان » .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد ؛ قال : حدثنا محمد بن يحيى ، قال : حدثنا عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصاري عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس بن الحُدثان ، قال : سمعتُ عمر وهو يقول للعبّاس وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّا لَا نُورِثُ ، معاشَرَ الأنبياء ، ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل في فيثه أهله السنة من صدقاته^(١) ، ثم يجعل ما بقى في بيت المال ! قالوا : اللهم نعم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضها أبو بكر ، فجئت يا عبّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك ، وجئت يا علىّ تطلب ميراث زوجتك من أبيها ! وزعمتا أن أبا بكر كان فيها خائناً فاجراً ، والله لقد كان أمراً مطيعاً ، تابعا للحق ، ثم توفّى أبو بكر فقبضتها ، فجئنا تطلبان ميراثكما ، أما أنت يا عبّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك ، وأما علىّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها ، وزعمتا أنّي فيها خائن وفاجر ، والله يعلم أنّي فيها مطيع تابع للحق ؛ فأصلحا أمركما ، وإلا والله لم ترجع إليكما . فقاما وتركنا الخسومة وأمضيت صدقة .

قال أبو زيد : قال أبو غسان : فحدثنا عبد الرزاق الصنعانيّ ، عن معمر بن شهاب ، عن مالك بنحوه ، وقال في آخره : فغلب علىّ عباسا عليها ، فكانت بيدِ علىّ ، ثم كانت بيد الحسن ، ثم كانت بيد الحسين ، ثم علىّ بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن .

* * *

قلت : وهذا الحديث يدلّ صريحا على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية ، وهذا من المشكّلات ، لأنّ أبا بكر حصّم المادّة أوّلا ، وقرّر عند العبّاس وعلىّ وغيرها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يُورث ، وكان عمر من المساعدين له على ذلك ، فكيف يعود

(١) كذا في الأصول ، وفي الكلام غموض .

العبّاس وعلىّ بعد وفاة أبي بكر ، يحاولان أمرا قد كان فُرِغ منه ، ويُتيسر من حصوله ، اللهمّ إلا أن يكونا ظنّا أن عمر يَنْقُض قضاء أبي بكر في هذه المسألة ، وهذا بعيد ، لأنّ عليّا والعبّاس كانا^(١) في هذه المسألة^(٢) يتّهمان عمر بمهالاة أبي بكر على ذلك ألا تراه يقول : نسبتماني ونسبتما أبا بكر إلى الظلم والخيانة ، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبي بكر ويورثهما !

وأعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين : في الميراث والنّحلة ، وقد وجدتُ في الحديث أنّها نازعتُ في أمر ثالث ، ومنعها أبو بكر إياه أيضا ، وهو سهم ذوي القربى .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ : أخبرني أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثني هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثني صدقة أبو معاوية ، عن محمد بن عبد الله ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، عن يزيد الرّقاشيّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت : لقد علمت الذي ظلمتُنا عنه أهل البيت من الصدقات ، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى ! ثم قرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ . . . ﴾^(٢) الآية ، فقال لها أبو بكر : بأبي أنت وأُمّي ووالدك ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وحقّ قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه ، ولم يبلغ علمي منه أنّ هذا السهم من الخمس يسلم إليكم كاملا ؛ قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أنفق عليكم منه ، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين قالت : ليس هذا حكم الله تعالى ؛ قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسولُ الله عهده إليك

في هذا عهدا أو أوجبه لكم حقا^(١) صدقتك وسلمته كله إليك وإلى أهلِكَ ؛ قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعهد إلى في ذلك بشيء ، إلا أني سمعته يقول لما أنزلت هذه الآية : « أبشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى » ؛ قال أبو بكر : لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلم إليكم هذا السهم كله كاملا ، ولكن لكم الغنى الذي يُغنيكم ، ويفضل عنكم ، وهذا عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح فأسألهم عن ذلك ، وانظري هل يوافيك على ما طلبت أحد منهم ! فانصرفت إلى عمر فقالت له مثل ما قالت لأبي بكر ، فقال لها مثل ما قاله لها أبو بكر ، فعجبت فاطمة عليها السلام من ذلك ، وتظنت أنهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا هارون بن عمير ، قال : حدثنا الوليد ، عن ابن أبي لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، قال : أرادت فاطمةُ أبا بكر على فذك وسهم ذوى القربى ، فأبى عليها ، وجعلها في مال الله تعالى .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا أحمد بن معاوية ، عن هيثم ، عن جوير ، عن أبي الضحّاك عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، أن أبا بكر منع فاطمة وبني هاشم سهم ذوى القربى ، وجعله في سبيل الله في السلاح والكراع .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا حيّان بن هلال ، عن محمد بن يزيد بن ذريع ، عن محمد بن إسحاق ، قال : سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام ؛ قلت : أرايت عليّا حين ولّى العراق وما ولى من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوى القربى ؟ قال : سلّك بهم طريق أبي بكر وعمر ؛ قلت : وكيف ؟ ولم ، وأنتم تقولون ما تقولون ! قال : أما والله ما كان أهلُه يصدّرون إلاّ عن رأيه ؛ فقلت : فما منعه ؟ قال : كان يكره

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « أوجبه لك على » .

أَنْ يُدَّعَى عَلَيْهِ مَخَالِفَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ .

قال أبو بكر : وحدّثني المؤمّل بن جعفر ، قال : حدّثني محمد بن ميمون ، عن داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ في جماعة ، فسألناه عن مسائل ، وكنت أحدمنّ سأله ، فسألته عن أبي بكر وعمر ، فقال : سئل جدّي عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال : كانت أمّي صديقة بنت نبيّ مرسل ، فأتت وهي غَضَبِي على إنسان ، فنجح غَضَابُ لِنُضْبِهَا ، وإذا رَضِيتُ رَضِينَا . قال أبو بكر : وحدّثني أبو جعفر محمد بن القاسم قال : حدّثني عليّ بن الصّباح قال : أنشدنا أبو الحسن رواية المفضّل للكُمَيْت :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشْتَمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمرَا^(١)
وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِيَا فَدَكَاً بَلَّتَ النَّبِيَّ وَلَا مِيرَاثَهَا : كَفَرَا^(٢)
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَحْضُرَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذْرِ إِذَا اعْتَدَرَا^(٣)

قال ابن الصّباح : فقال لي أبو الحسن : أتقول : إنّه قد أكفرهما في هذا الشعر ! قلت : نعم ، قال : كذاك هو .

قال أبو بكر : حدّثنا أبو زيد ، عن هارون بن عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن إسماعيل بن عباس ، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن مولى أمّ هانئ ، قال : دخلتُ فاطمة على أبي بكر بعد ما استُخِيفَ ، فسألته ميراثها من أبيهما ، فنعها ، فقالت له : لئن مُتَّ اليومَ مَنْ كَانَ يَرُوكَ ؟ قال : ولدي وأهلي ، قالت : فلم وَرِثْتَ أَنْتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله دون ولده وأهله ؟ قال : فافعلتُ يا بنتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! قالت : بلى ، إنك عمدتَ إلى ذلك ، وكانت صافيةً لرسول الله صلى الله عليه وآله فأخذتها ، وعمدتَ إلى ما أُنزل الله من السماء فرفعته عَنَّا ، فقال : يا بنتَ رسول الله

(١) الهاشميات ٨٣ ، ٨٤ . (٢) ١ ، الهاشميات : « ميراثه » .

(٣) الهاشميات : « ماذا يأتيان به » .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لم أفعل ؛ حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُطْعِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطُّعْمَةَ مَا كَانَ حَيًّا ، فَإِذَا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ رُنَعْتُ ، فَقَالَتْ : أَنْتَ وَرَسُولُ اللَّهِ أَعْلَمُ ، مَا أَنَا بِسَائِلَتِكَ بَعْدَ مَجْلِسِي . ثُمَّ انصَرَفَتْ .

قال أبو بكر : وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُهَلَّبِيُّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمَّادٍ بْنِ سُلَيْمَانَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، قَالَتْ : لَمَّا اشْتَدَّتْ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْوَجْعُ وَثَقُلَتْ فِي عِلَّتِهَا ، اجْتَمَعَ عِنْدَهَا نِسَاءُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَقُلْنَ لَهَا : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَتْ : وَاللَّهِ أَصْبَحْتُ عَائِفَةً ^(١) لِدُنْيَاكُمْ ، قَالِيَةً لِرَجَالِكُمْ ، لَفِظْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ عَجِمْتُهُمْ ^(٢) ، وَشَنَيْتُهُمْ ^(٣) بِمَدِّ أَنْ سَبَرْتُهُمْ ^(٤) ، فَتَبَحَّحًا لِقَوْلِ الْحَدِّ وَخَوَرِ الْقَنَاءِ ، وَخَطَلِ الرَّأْيِ ! وَبِئْسَمَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ؛ لَا جَرَمَ ! قَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَهَا ، وَشَنَنْتُ عَلَيْهِمْ غَارَتَهَا ، كَبَدْنَا وَعَقَرْنَا ، وَسُخِّقْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ! وَيَحْجَهُمْ ! أَيْنَ زَحْزَحُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ ، وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ ، وَمَهَبِطِ الرُّوحِ الْأَمِينِ ، وَالطَّبِيِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَالدِّينِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ! وَمَا الَّذِي نَقَمُوا مِنْ أَبِي حَسَنِ ! نَقَمُوا وَاللَّهِ نَكِيرَ سَيْفِهِ ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ ، وَنَكَالَ وَقَعْتِهِ ، وَتَنَمَّرَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَالَّهِ لَوْ تَكَافَّوْا عَنْ زِمَامِ نَبْدِهِ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَاعْتَلَقَهُ ، وَلَسَارَ إِلَيْهِمْ سِيرَا سُجُجَا ، لَا تَكَلَّمَ حَشَاشَتُهُ ، وَلَا يَتَمَتَّعُ رَاكِبُهُ ، وَلَا وَرَدَهُمْ مَنَهْلًا كَمِيرًا فَضْفَاضًا يَطْفَحُ ضَفَّتَاهُ ، وَلَا صَدْرَهُمْ بِطَانًا قَدْ تَحَيَّرَ بِهِمُ الرَّأْيُ ، غَيْرَ مُتَحَلٍّ بِطَائِلٍ ، إِلَّا بَنَمَرَ النَّاهِلِ ، وَرَدَعَهُ سُورَةُ السَّاعِبِ ، وَلَفَتَحَتْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَسَيَأْخُذُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أَلَا هَلُمَّ فَاسْتَمِعْ وَمَا عَشْتُ

(١) عَائِفَةٌ لِدُنْيَاكُمْ ، أَيْ قَالِيَةٌ لِعَلَا كَارِهَةٌ . (٢) عَجِمْتُهُمْ : بَلَوْتُهُمْ وَخَرَجْتُهُمْ .

(٣) شَنَيْتُهُمْ : أَبْغَضْتُهُمْ . (٤) سَبَرْتُهُمْ : عَامَلْتُ أُمُورَهُمْ .

أراك الدهر عجبه ، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث ، إلى أى لجأ استندوا ، وبأى عُروة تمسكوا ! لبئس المولى ولبئس العشير ، ولبئس للظالمين بدلا ! استبدلوا والله الدُّنَابِي بالقوادم ، والعجز بالكاهل ؛ فرغما لماطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ﴿ إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، ويحهم ! ﴿ أفن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾ ! أما أمر الله لقد لقيت ، فظرة ريتما تُنتج^(١) ، ثم احتلبوها طلاع العقب دما عبيطا وذُعاقا مُمقرا هنا لك ينخسر المبطون ، ويعرف التالون غب ما أسس الأولون ، ثم طيبوا عن أنفسكم نفسا ، واطمئنوا للفتنة جأشا ، وأبشروا بسيف صارم ، وهرج شامل ، واستبداد من الظالمين يدع فيثكم زهيذا ، وجمعكم حصيدا ؛ فيا حسرة عليكم ، وأنى لكم وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ! والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين .

قلت : هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكرُ فذك والميراث ، إلا أنه من تنمة ذلك ، وفيه إيضاح لما كان عندها ، وبيان لشدة غيظها وغضبها ، فإنه سيأتي فيما بعد ذكر ما يناقض به قاضى القضاة والمرضى فى أنها هل كانت عضبي أم لا ! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه ، وإنما نذكر ما قيل ، وإذا جرى بحث نظرى قلنا ما يقوى فى أنفسنا منه .

واعلم أننا إنما نذكر فى هذا الفصل ما رواه رجال الحديث وثقاتهم ، وما أودعه أحمدُ ابنُ عبد العزيز الجوهريُّ فى كتابه ، وهو من الثقات الأمانة عند أصحاب الحديث ، وأما ما يرويه رجال الشيعة والأخباريون منهم فى كتبهم من قولهم : إنهما أهاناها وأسمعاها كلاماً غليظاً ، وإنَّ أبابكر رَقَّ لها حيث لم يكن عمرُ حاضرا ، فكتب لها بفدك كتابا ؛ فلما خرجت به وجدها عمر ، فدَّ يده إليه ليأخذها مغالبة ، فنمته ، فدفع بيده فى صدرها

(١) كذا فى ١ ، وفى ب : « تحلب » .

وَأَخَذَ الصَّحِيفَةَ نَحْرُهَا بَعْدَ أَنْ تَفَلَّ فِيهَا فَجَاهَا ، وَإِنِّهَا دَعَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ : بَقَرَ اللَّهُ بَطْنَكَ
كَمَا بَقَرْتَ صَحِيفَتِي ؛ فَشَيْءٌ لَا يَرَوِيهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَلَا يَنْقُلُونَهُ ، وَقَدَرُ الصَّحَابَةِ يَحِلُّ عَنْهُ ،
وَكَانَ عَمْرٌ أَتَى اللَّهَ ؛ وَأَعْرَفَ لِحَقْوَقِ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ نَظَّمَتِ الشَّيْخَةُ بَعْضَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ
الَّتِي يَذْكُرُونَهَا شِعْرًا أَوَّلَهُ أَبْيَاتُ لَمِيَّازِ بْنِ مَرْزُوقِ الشَّاعِرِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا (١) :

يَا أَبْنَةَ الْقَوْمِ تَرَاكِ بِالْعُ قَتَلِي رِضَاكِ (٢)

وقد ذُيِّلَ عَلَيْهَا بِبَعْضِ الشَّيْخَةِ وَأَتَمَّتْهَا ، وَالْأَبْيَاتُ :

يَا أَبْنَةَ الطَّاهِرِ كَمْ تُقْدِرُ بِالظُّلْمِ عَصَاكِ
غَضِبَ اللَّهُ لِحَطْبٍ لَيْلَةَ الْطَفِّ عَرَاكِ
وَرَعَى النَّارَ غَدَاً قَطُّ رَعَى أُمِّسَ حَمَاكِ
مَرَّ لَمْ يَعِطِفْهُ شَكْوَى وَلَا أَسْتَحْيَا بِكَ كَاكِ
وَاقْتَدَى النَّاسَ بِهِ بَعْدُ فَأُرْدَى وَلَدَاكِ
يَا ابْنَةَ الرَّاقِ إِلَى السَّبْدِ رَاكِ فِي لَوْحِ السَّكَاكِ
لَهْفَ نَفْسِي وَعَلَى مِثْلِكَ فَلْتَبْكِي الْبَوَاكِ
كَيْفَ لَمْ تَقْطَعْ يَدَهُ مُدَّةً إِلَيْكَ ابْنَ صَحَاكِ
فَرَحُوا يَوْمَ أَهَانُوا لَكَ بِمَا سَاءَ أَبَاكِ
وَلَقَدْ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رِضَاهُ فِي رِضَاكِ
دَفَعَا النَّصَّ عَلَى إِرَاكِ ثَكَ لَمَّا دَفَعَاكِ
وَتَعَرَّضْتَ لِقَدْرِ تَافِهِ وَأَنْتَهَرَاكِ

(١) ديوانه ٢ : ٣١٧ ، ٣٦٨ . (٢) في الأصول : « براك » والصواب مأثباته .

من الديوان .

وَادَّعَيْتِ النَّحْلَةَ الْمَشْهُودَ فِيهَا بِالصَّكَّائِ
فَأَسْتَشَاطًا ثُمَّ مَا إِنْ كَذَبًا إِنْ كَذَبًا
فَزَوَى اللَّهُ عَنِ الرَّحْمَةِ زَنْدِيقًا ذَوَالِ
وَنَفَى عَنْ بَابِهِ الْوَا سَع شَيْطَانًا نَفَاكَ

فانظر إلى هذه البليّة التي صَبَّتْ من هؤلاء على سادات المسلمين ، وأعلام المهاجرين !
وليس ذلك بقادح في علو شأنهم ، وجلالة مكانهم ، كما أن مُبَغِضِي الْأَنْبِيَاءِ وَحَسَدَتِهِمْ ،
ومصنِّي الكُتُبِ في إلحاق الْعَيْبِ وَالتَّهْجِينَ لشرائعهم لم تَزِدْ لَأَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا رَفْعَةً ،
ولا زادت شرائعهم إِلَّا انتشاراً في الأرض ، وقبولاً في النفس ، وبهجةً ونورا عند
ذوى الألباب والعقول .

وقال لى عَلَوِيّ في الرحلة^(١) يُعْرِفُ بَعْلَى بن مَهْنَأ ، ذَكَى ذُو فُضَائِل : مَا تَظُنُّ
قَصْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بِنَعِ فَاطِمَةَ فَدَكَ ؟ قُلْتُ : مَا قَصْدَا ؟ قَالَ : أَرَادَا أَلَّا يُظْهَرَا لِعَلِّيَّ
— وَقَدْ اغْتَصَبَاهُ الْخِلَافَةَ — رَقَّةً وَلَيْنًا وَخَذْلَانًا ، وَلَا يَرَى عِنْدَهُمَا خَوْرًا ، فَأَتْبَعَا الْقَرْحَ
بِالْقَرْحِ .

وقلت لتكلم من متكلمى الإمامية يُعْرِفُ بَعْلَى بن تَقِيٍّ من بلدة النيل^(٢) :
وهل كانت فَدَكَ إِلَّا نَحْلًا يَسِيرًا وَعَقَارًا لَيْسَ بِذَلِكَ الْخَطِيرُ ! فَقَالَ لِي : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ،
بَلْ كَانَتْ جَلِيلَةً جَدًّا ، وَكَانَ فِيهَا مِنَ النَّخْلِ نَحْوُ مَا بِالْكُوفَةِ الْآنَ مِنَ النَّخْلِ ، وَمَا قَصْدُ
أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بِنَعِ فَاطِمَةَ عَنْهَا إِلَّا أَلَّا يَتَقَوَّى عَلَى بِحَاصِلِهَا وَغَلَّتْهَا عَلَى الْمَنَازَعَةِ فِي الْخِلَافَةِ ،
وَلِهَذَا أَتْبَعَا ذَلِكَ بِنَعِ فَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ وَسَائِرَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمَطْلَبِ حَقَّهُمْ فِي الْخَمْسِ ، فَإِنَّ

(١) الحلة : تطلق على عدة مواضع ؛ منها موضع بين الكوفة والبصرة ؛ وهى حلة بنى مزيد .

(٢) النيل هنا : بليدة في سواد الكوفة ؛ قرب حلة بنى مزيد .

الفقير الذى لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه ، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة ، فانظر إلى ما قد وقر في صدور هؤلاء ، وهو داء لا دواء له ، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشيم ، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها !

الفصل الثانى

في النظر في أن النبي صلى الله عليه وآله هل يورث أم لا

نذكر في هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله في « الشافى »^(١) عن قاضى القضاة في هذا المعنى ، وما اعترضه به ، وإن استضعفنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا ، وإلا تركناه على حاله .

قال المرتضى : أول ما ابتدأ به قاضى القضاة حكايته عنا استدلالنا على أنه صلى الله عليه وآله مورث^(٢) بقوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ لَلْأُنثَىٰ﴾^(٣) وهذا الخطاب عام يدخل فيه النبي وغيره .

ثم أجاب - يعنى قاضى القضاة - عن ذلك ، فقال : إن الخبر الذى احتج به أبو بكر - يعنى قوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » - لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمر وعثمان وطاحنة والزبير وسعدا وعبدالرحمن ، فشهدوا به ، فكان لا يخل لأبي بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثاً ، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها صدقة وليست بميراث ، وأقل ما فى هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد ،

(١) الشافى ص ٢٢٨ وما بعدها . (٢) ١ : « موروث » . (٣) سورة النساء ١١ .

فلو أن شاهدين شهدا في التركة أن فيها حقاً ، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث !
فعلمه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله مع شهادة غيره أقوى . ولسنا نجعله مدّعياً
لأنه لم يدّع ذلك لنفسه ، وإنما بين أنه ليس بميراث ، وأنه صدقة . ولا يمتنع تخصيص
القرآن بذلك ، كما يخص في العبد والقاتل وغيرها ، وليس ذلك بنقص في الأنبياء ، بل هو
إجلال لهم ، يرفع الله به قدرهم عن أن يورثوا المال ، وصار ذلك من أوكد الدواعي
ألا يتشاغلوا بجمعه ، لأن أحد الدواعي القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين .
ولما سمعت فاطمة عليها السلام ذلك من أبي بكر كفت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار
الصحيحة ، فلا يمتنع أن تكون غير عارفة بذلك ، فطلبت الإرث ، فلما روى لها ما روى
كفت ، فأصابت أولاً وأصابت ثانياً .

وليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يبين النبي صلى الله عليه وآله ذلك للقوم
ولا حق لهم في الإرث ، ويدّع أن يبين ذلك لمن له حق في الإرث ، مع أن التكليف
يتصل به ؟ وذلك لأن التكليف في ذلك يتعلق بالإمام ، فإذا بين له جاز ألا يبين لغيره
ويصير البيان له بياناً لغيره ، وإن لم يسمعه من الرسول ، لأن هذا المجلس من البيان يجب
أن يكون بحسب المصلحة !

فال : ثم حكى عن أبي علي أنه قال : أتعلمون كذب أبي بكر في هذه الرواية ،
أم تجوزون أن يكون صادقاً^(١) ؟ قال : وقد علم أنه لا شيء يقطع به على كذبه ، فلا بد
من تجويز كونه صادقاً . وإذا صح ذلك قيل لهم : فهل كان يحل له مخالفة الرسول ؟
فإن قالوا : لو كان صدقاً لظهر واشتهر ، قيل لهم : إن ذلك من باب العمل ، ولا يمتنع أن
ينفرد بروايته جماعة يسيرة ، بل الواحد والاثنان ، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات ،
فإن قالوا نعم أنه لا يصح لقوله تعالى في كتابه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾^(٢) . قيل لهم :

(١) الشافعي : « أم تجوزون كذبه وصدقه » . (٢) سورة النمل ١٦ .

ومن أين أنه ورثه الأموال؛ مع تجويز أن يكون ورثه العلم والحكمة؟ فإن قالوا: إطلاق الميراث لا يكون إلا في الأموال؛ قيل لهم: إن كتاب الله يُبطل قولكم، لأنه قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١)، والكتاب ليس بمال، ويقال في اللغة: ما ورثت الأبناء عن الآباء شيئاً أفضل من أدب حسن؛ وقالوا: العلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال، على أن في آخر الآية ما يدل على ما قلناه، وهو قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿وَقَالَ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُٰمِنَا مِنْطَقَ الطَّيْرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّا هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾^(٢)، فذهب على أن الذي ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأول. فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٣)، وذلك يُبطل الخبر! قيل لهم: ليس في ذلك بيان للمال أيضاً، وفي الآية ما يدل على أن المراد النبوة والعلم، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس، وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ يدل على ذلك، لأن الأنبياء لا تحريص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع، فسأل الله تعالى ولياً يقوم بالدين مقامه. وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يدل على أن المراد العلم والحكمة، لأنه لا يرث أموال يعقوب في الحقيقة^(٤)، وإنما يرث ذلك غيره. قال: فأما من يقول: إن المراد: أننا معاشرة الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، أي ما جعلناه صدقة في حال حياتنا لا نورثه، فركبك من القول، لأن إجماع الصحابة يخالفه، لأن أحداً لم يتأوله على هذا الوجه، لأنه لا يكون في ذلك تخصيص الأنبياء، ولا مزية لهم، ولأن قوله: «ما تركناه صدقة»، جملة من الكلام مستقلة بنفسها، كأنه

(١) سورة فاطر ٣٢.

(٢) سورة النمل ١٦. (٣) سورة مريم ٥، ٦.

(٤) ب: «الحقيقة» تحريف صوابه من الشافعي.

عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال ، يبين أنه صدقة ، لأنه كان يجوز ألا يكون ميراثا ، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة .

قال : فأما خبر السيف والبنلة والعمامة وغير ذلك ؛ فقد قال أبو علي : إنه لم يثبت أن أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرث ، كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه ، وكيف يجوز لو كان وارثا أن يخصه بذلك ولا يرث له مع العم لأنه عصبه ! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغي أن يكون العباس شريكاً في ذلك وأزواج الرسول صلى الله عليه وآله ، ولو جب أن يكون ذلك ظاهراً مشهوراً ليعرف أنهم أخذوا نصيبهم من ذلك أو بدله ، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرث ألا يحصل ذلك في يده ، لأنه قد يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله تحمله ذلك ، ويجوز أيضاً أن يكون أبو بكر رأى الصلاح في ذلك أن يكون بيده لما فيه من تقوية الدين ، وتصدق ببذله بعد التقويم ، لأن الإمام له أن يفعل ذلك .

قال : وحكى عن أبي علي في البرد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعله عُدّة في سبيل الله وتقوية على المشركين ، فتداولته الأئمة لما فيه من التقوية ، ورأى أن ذلك أولى من أن يتصدق به إن ثبت ^(١) أنه عليه السلام لم يكن قد نحلّه غيره في حياته ، ثم عارض نفسه بطلب أزواج النبي صلى الله عليه وآله الميراث ، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعباس بعد موت فاطمة عليها السلام . وأجاب عن ذلك بأن قال : يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبي بكر وغيره للخبر .

وقد روي أن عائشة لما عرفت من الخبر أمسكن ، وقد بينا أنه لا يمتنع في مثل ذلك أن يخفى على من يستحق الإرث ، ويعرفه من يتقلد الأمر ، كما يعرف العلماء والحكام من أحكام الوارث ما لا يعلمه أرباب الإرث ، وقد بينا أن رواية أبي بكر مع الجماعة

(١) الشافعي : « أن يثبت » .

أقوى من شاهدين لو شهد أن بعض تركته عليه السلام دين ، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو روي ذلك .

قال : ومتى تعلقوا بعموم القرآن أريناهم جواز التخصيص بهذا الخبر ، كما أن عموم القرآن يقتضي كون الصدقات للفقراء ، وقد ثبت أن آل محمد لا تحل لهم الصدقة . هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضي القضاة^(١) .

ثم قال : نحن نبين أولاً ما يدل على أنه صلى الله عليه وآله يورث المال ، وترتب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح ، ثم نعطف على ما أورده ، ونتكلم عليه .

قال رضي الله عنه : والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا^(٢) ؛ فخير أنه خاف من بني عمه ، لأن المولى هاهنا هم بنو العم بلا شبهة ، وإنما خافهم أن يرثوا ماله فينفقوه في الفساد ، لأنه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم ، فسأل ربه ولدا يكون أحق بميراثه منهم . والذي يدل على أن المراد بالميراث المذكور ميراث المال دون العلم والنبوة على ما يقولون أن لفظة الميراث في اللغة والشرعية لا يفيد^(٣) إطلاقها إلا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث ، كالأموال وما في معناها ، ولا يستعمل في غير المال إلا تحوزاً واتساعاً ، ولهذا لا يفهم من قول القائل : لا وارث لفلان إلا فلان ، وفلان يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها . وليس لنا أن نمثل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى سبازه بغير دلالة . وأيضاً فإنه تعالى خبر عن نبيه أنه اشترط في وارثه أن يكون رضيًا ، ومتى لم يحمل الميراث في الآية على المال دون العلم

(١) الشافعي ٢٢٨ ، ٢٢٩ . (٢) سورة مريم ٦٤ . (٣) الشافعي : « لا يبعد » .

(١٦ - نهج - ١٦)

والنبوة لم يكن للاشتراط معبني ، وكان لغواً وعبثاً ؛ لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه ، ويرث مكانه فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في جملة كلامه وسؤاله ؛ فلا مقتضى لاشتراطه ؛ ألا ترى أنّه لا يحسن أن يقول : اللهم أبعث إلينا نبياً واجعله عاقلاً ، [ومكلفاً] ^(١) ؛ فإذا ثبتت هذه الجملة صحّ أن زكريّا موروثٌ ماله . وصحّ أيضاً لصحتها أن نبينا صلى الله عليه وآله ممن يورث المال ، لأن الإجماع واقع على أن حال نبينا عليه السلام لا يخالف حال الأنبياء المتقدمين في ميراث المال ، فمن مثبت للأمرين وناف للأمرين ^(٢) .

قلت : إن شيخنا أبا الحسين قال في كتاب "الفرار" : صورة الخبر الوارد في هذا الباب ، وهو الذي رواه أبو بكر : «لأنورث» ، ولم يقل : «نحن معاشر الأنبياء لأنورث» ، فلا يلزم من كون زكريّا يورث الطعن في الخبر . وتصفحت أنا كتب الصحاح في الحديث فوجدت صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين ، وإن كان رسولُ صلى الله عليه وآله عني نفسه خاصة بذلك ؛ فقد سقط احتجاج الشيعة بقصة زكريّا وغيره من الأنبياء ، إلا أنه يبعدُ عندي أن يكون أراد نفسه خاصة ؛ لأنّه لم تجرِ عادته أن يخبر عن نفسه في شيء بالنون .

فإن قلت : أيصحّ من المرتضى أن يوافق على أن صورة الخبر هكذا ، ثم يحتجّ بقصة زكريّا بأن يقول : إذا ثبت أن زكريّا موروث ، ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله يجوز أن يكون موروثاً ، لإجماع الأمة على أن لا فرق بين الأنبياء كلّهم في هذا الحكم !

قلت : وإن ثبت له هذا الإجماع صحّ احتجاجه ، ولكن ثبوته يبعد ، لأن من نفى كون زكريّا عليه السلام موروثاً من الأمة إنّما نفاه لاعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «نحن معاشر الأنبياء» ، فإذا كان لم يقل هكذا ، لم يقل : إن زكريّا عليه السلام غير موروث .

قال المرتضى : ومما يقوّى ما قدّمناه أنّ زكريّا عليه السلام خاف بنى عمّه ، فطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون العلم والنبوّة ، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيا ليس بأهل للنبوّة ، وأن يؤرّث علمه وحكمه من ليس أهلا لها ، ولأنّه إنّما بُعث لإذاعة العلم ونشره في الناس ، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الذي هو الغرض في البعث^(١) . فإن^(٢) قيل : هذا يرجع عليكم في الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل . قلنا : معاذ الله أن يستوى الحال ، لأنّ المال قد يصحّ أن يرزقه الله تعالى المؤمن والكافر والعدوّ والولى ، ولا يصحّ ذلك في النبوّة وعلومها . وليس من الضنّ أن يأسى على بنى عمّه - وهم من أهل الفساد - أن يظفروا بماله فينفقوه على المعاصي ، ويصرفوه في غير وجهه المحبوبة ، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير في الدّين ، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفساق وإمدادهم بما يُمكنهم على طرائقهم المذمومة ، وما يعمدّ ذلك شحّا ولا بخلا إلّا من لا تأمل له .

فإن قيل : أفلا^(٣) جاز أن يكون خاف من بنى عمّه أن يرثوا علمه ، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس ، ويموّهوا به عليهم ؟ قلنا : لا يخلو هذا العلم الذي أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علما على طريق المجاز ، أو يكون هو العلم الذي يحلّ القلب . فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال ، ويصحّح أن الأنبياء يؤرّثون أموالهم وما في معناها ، وإن كان الثّاني لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الذي بُعث النبيّ لنشره وأدائه ، أو أن يكون علما مخصوصا لا يتعلّق بالشريعة ، ولا يجب إطلاع جميع الأمتة عليه ، كعلم العواقب وما يجرى في مستقبل الأوقات ، وما جرى مجرى ذلك . والقسم الأوّل لا يجوز على النبيّ أن يخاف من وصوله إلى بنى عمّه وهم من جملة أمته الذين بعث لإطلاعهم على ذلك ، وتأديبته إليهم ، وكأنّه على هذا الوجه يخاف ممّا هو الغرض من بعثته . والقسم الثّاني فاسدٌ أيضا ، لأنّ

(١) والشافى : « بعثته » . (٢) د : « قال فإن قيل » . (٣) د : « فلا » .

هذا العلم المخصوص إنما يستفاد من جهته ، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه ؛ وليس هو ممّا يجب نشره في جميع الناس ، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فسادا ألا يلقيه إليه ، فإنّ ذلك في يده ، ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك^(١) .

قلت : لما كس أن يعكس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ ، ويقول له : وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمّه أمواله فينفقوها في الفساد أن يتصدّق بها على الفقراء والمساكين ، فإنّ ذلك في يده ، فيحصل له ثواب الصدقة ، ويحصل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين مبراته .

قال المرتضى رضي الله عنه : وممّا يدلّ على أنّ الأنبياء يورثون قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾^(٢) ، والظاهر من إطلاق لفظة « الميراث » يقتضي الأموال وما في معناها على ما دللنا به من قبل .

قال : ويدلّ على ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ الذَّكَرَ مِثْلُ الْإُنثَى . . . ﴾^(٣) الآية ، وقد أجمعت الأمة على عموم هذه اللفظة إلا من أخرجه الدليل ، فيجب أن يتمسك بعمومها ، لكان هذه الدلالة ، ولا يخرج عن حكمها إلا من أخرجه دليل قاطع^(١) .

قلت : أمّا قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، فظاهرها يقتضي وراثة النبوة أو الملك أو العلم الذي قال في أول الآية : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا . . . ﴾ لأنّه لا معنى لذكر ميراث سليمان المال ، فإنّ غيره من أولاد داود قد ورث أيضا أباه داود ؛ وفي كتب اليهود والنصارى أنّ بني داود كانوا تسعة عشر ، وقد قال بعض المسلمين أيضا ذلك : فأى معنى في تخصيص سليمان بالذكر إذا كان إرث المال ! وأمّا : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ ﴾ ، فالبحث في تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد ؛ هل هو حجة في

(١) الشافعي ٢٢٩ ، ٢٣٠ . سورة النمل ١٦ .

(٣) سورة النساء ١١ .

الشرعيات أم لا ! فإن ثبت مذهب المرتضى في كونه ليس بحجة فكلامه هنا جيد ، وإن لم يثبت فلا مانع من تخصيص العموم بالخبر ، فإن الصحابة قد خصصت عمومات^(١) الكتاب بالأخبار في مواضع كثيرة .

قال المرتضى : وأمّا تعلق صاحب الكتاب بالخبر الذي رواه أبو بكر وأدّعاؤه أنّه أئستشهد عمر وعثمان وفلانا وفلانا ، فأول ما فيه أن الذي ادّعه من الأئستشهاد غير معروف ، والذي روى أن عمر أئستشهد هؤلاء النفر لئما تنازع^(٢) أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضي الله عنه في الميراث ، فشهدوا بالخبر المتضمن لنفي الميراث ، وإنّما مقول مخالفينا في صحّة الخبر الذي رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأئمة عن النكير عليه ، والرّد لقضيّته^(٣) .

قلت : صدق المرتضى رحمه الله فيما قال ، أمّا عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث ، فلم يرو الخبر إلّا أبو بكر وحده . وقيل : إنه رواه معه مالك بن أوس بن الحدّثان ؛ وأمّا المهاجرون الذين ذكرهم قاضي القضاة فإنّما شهدوا بالخبر في خلافة عمر ؛ وقد تقدّم ذكر ذلك . .

قال المرتضى : ثمّ لو سلّمنا استشهاد من ذكر على الخبر لم يكن فيه حجة ، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غير موجب للعلم ، وهو في حكم أخبار الآحاد ، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا الجرى ، لأنّ المعلوم لا يُخصّ إلّا بمعلوم ، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة ، لم يجوز أن يخرج عنها بأمر مظنون ، قال : وهذا الكلام مبنيّ على أن التخصيص للكتاب والسنة المقطوع بها لا يقع

(١) ١ ، د : « عموم » . (٢) ١ والشافعي : « نازع » . (٣) الشافعي ٢٣٠ .

بأخبار الآحاد ، وهو المذهب الصحيح . وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُتمدّد في الدلالة عليه من من أن الظنّ لا يقابل العلم ، ولا يرجع عن المعلوم بالمظنون . قال : وليس لهم أن يقولوا : إنّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضا إلى علم ، وإن كان الطريق مظلونا ، ويشيرون إلى ما يدعونه من الدلالة على وجوب العمل بخبر الواحد في الشريعة ، وأنّه حجة ، لأنّ ذلك مبنى من قولهم على ما لانسلمه ، وقد دلّ الدليل على فساده - أعنى قولهم : خبر الواحد حجة في الشرع - على أنّهم لو سلّم لهم ذلك لأحتاجوا إلى دليل مستأنف على أنّه يقبل في تخصيص القرآن ؛ لأنّ ما دلّ على العمل به في الجملة لا يتناول هذا الموضع ، كما لا يتناول جواز النسخ به ^(١) .

قلت : أمّا قول المرتضى : لو سلّمنا أنّ هؤلاء المهاجرين السّنة روّوه لما خرج عن كونه خبرا واحدا ، ولما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به ، لأنّه معلوم ، والخبر مظلون .

ولقائل أن يقول : ليتّه حصل في كلّ واحد من آيات القرآن رواية مثل هذه السّنة ، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء ، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون في إثبات الآية في المصحف ، بل كانوا يحلفون من أتاها بالآية . ومن نظري كتب التواريخ عرّف ذلك ، فإن كان هذا العدد إنّما يفيد الظنّ فالقول في آيات الكتاب كذلك ، وإن كانت آيات الكتاب أثبتت عن علم مستفاد من رواية هذا العدد ونحوه ، فالخبر مثل ذلك .

فأمّا مذهب المرتضى في خبر الواحد فإنّه قولهُ أنفرد ^(٢) به عن سائر الشّيعه ، لأنّ من قبله من فقهاءهم ما عوّلوا في الفقه إلّا على أخبار الآحاد كزُرارة ، ويونس ، وأبي بصير ، وأبني بابويه ، والحلي ، وأبي جعفر القمي وغيرهم ، ثمّ من كان في عصر المرتضى منهم

(١) الشافعي ٢٣٠ . (٢) د : « تفرد » .

كأبي جعفر الطوسي وغيره ، وقد تكلمت في ” اعتبار الذريعة “ ، على ما اعتمد عليه في هذه المسألة ، وأما تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنه إذا صح كون خبر الواحد حجة في الشرع ، جاز تخصيص الكتاب به ، وهذا من فن أصول الفقه ، فلا معنى لذكره هنا .

قال المرتضى رضى الله عنه : وهذا يُسقط قول صاحب الكتاب : إن شاهدَيْن لم شهدا أن في التركة حقاً لكان يجب أن ينصرف^(١) عن الإرث ، وذلك لأن الشهادة وإن كانت مظنونة فالعمل بها يستند^(٢) إلى علم ، لأن الشريعة قد قرّرت العمل بالشهادة ولم تقرّر العمل بخبر الواحد ، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتماعا في غلبة الظن ، لأننا لا نعمل على الشهادة من حيث غلبة الظن دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها ؛ ألا ترى أننا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبي وكثير ممن لا يجوز العمل بقوله ! فبان أن المول في هذا على المصلحة التي نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع .

قال : وأبو بكر في حكم المدعى لنفسه والجار إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب ، وكذلك من شهد له إن كانت هناك شهادة^(٣) ، وذلك أن أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله يحلّ لهم الصدقة ، ويجوز أن يصيبوا فيها ، وهذه تهمة في الحكم والشهادة .

قال : وليس له أن يقول : فهذا يقتضى ألا يقبل شهادة شاهدين في تركه فيها صدقة لمثل ما ذكرتم .

(١) ١، ٢ : د : « يصرف » . (٢) الشافعي : « استند » .

(٣) بعدها في الشافعي : « قد وجدت » .

قال : وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا في الصدقة^(١) فحفظهما منها كحفظ صاحب الميراث بل سائر المسلمين ، وليس كذلك حال تركه الرسول ؛ لأنّ كونها صدقة يحرمها على ورثته ، ويبيحها لسائر المسلمين^(٢) .

قلت : هذا فرق غير مؤثر ، اللهمّ إلا أن يعنى به تهمة أبي بكر والشهود الستة في جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شهدوا على أبي هريرة مثلاً أن ما تركه صدقة ؛ لأنّ أهل أبي هريرة يشاركون في القسمة ، وأهل النبي صلى الله عليه وآله لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم ، إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة ، فتكون حصّة أبي بكر والشهود ممّا تركه رسول الله أكثر من حصّتهم ممّا يتركه أبو هريرة ، فيكون تطرّق التهمة إلى أبي بكر والشهود أكثر حسب زيادة حصّتهم ؛ وما وقفت للمرتضى على شيء أطرف من هذا ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان ، لأنّه قاد في غزاة تبوك عشرين ألفاً ، ثم وفدت إليه الوفود كلّها بعد ذلك ، فليت شعري كم مقدار ما يتوفّر على أبي بكر وستة نفر معه ، وهم من جملة خمسين ألفاً ، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطلب — وهم حينئذ عشرة نفر — لا يأخذون حصّة ، وبين ما إذا كانوا يأخذون ! أترى أليكون التوفّر على أبي بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم ! ما أظنّ أنّه يبلغ ذلك . وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبي هريرة إذا شركهم أهله في التركة ، لتكون هذه القلّة موجبة رفع التهمة ، وتلك الزيادة والكثرة موجبة حصول التهمة ! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى .

قال المرتضى رضى الله عنه : وأمّا قوله : يخصّ القرآن بالخبر^(٣) كما خصصناه في العبد والقاتل ، فليس بشيء ، لأنّا إنما خصصنا من ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم ، وليس هذا موجوداً في الخبر الذي ادّعاه . فأما قوله : وليس ذلك ينقص الأنبياء ، بل هو إجلال لهم ،

(١) كذا في ١ ، د والشافعي ، وفي ب : « بالصدقة » . (٢) الشافعي ٢٣٠ .

(٣) الشافعي : « بذلك » .

فمن الذى قال له : إنَّ فيه^(١) نقصا ! وكما أنَّه لا نقص فيه ، فلا إجلالَ فيه ولا فضيلةَ ؛ لأنَّ الداعى وإن كان قد يقوَّى على جمع المال ليخلف على الورثة ، فقد يقوِّيه أيضا إرادة صرفه فى وجوه الخير والبرِّ ، وكلا الأمرين يكون داعيا إلى تحصيل المال ، بل الداعى الذى ذكرناه أقوى فيما يتعلَّق بالدين .

قال : وأما قوله : إنَّ فاطمة لما سمعت ذلك كَفَّت عن الطلب ، فأصاب أولًا وأصاب ثانيا ؛ فلمعمرى إنها كَفَّت عن المنازعة والمشاحة ، لكنها انصرفت مغضبة متظلمة متألِّمة ؛ والأمر فى غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصف ، فقد رَوَى أكثرُ الرواة الذين لا يُتهمون بتشيع ولا عصبية فيه من كلامها فى تلك الحال ، وبمد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ، ما يدل على ما ذكرناه من سخطها وغضبها .

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى قال : حدَّثنى محمد بن أحمد الكاتب ، قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوى ، قال : حدَّثنى الزَّيادى ، قال : حدَّثنا الشَّرقى ابن القطامى ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدَّثنا صالح بن كيسان ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : لما بلغ فاطمة إجماعُ أبى بكر على منعها فدَكَ لائتُ خمارها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلتْ فى لُمة^(٢) من حَفَدتها . . .

قال المرتضى : وأخبرنا المرزبانى قال : حدَّثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي قال : حدَّثنا أبو العيْناء بن القاسم اليمانى قال : حدَّثنا ابن عائشة ، قال : لما قبُض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلتْ فاطمة إلى أبى بكر فى لُمة من حَفَدتها . ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا^(٣) . . . ونساء قومها تطأُ ذُيولها ما تحرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) د والشافى : « لانه نقص » . (٢) اللمة ، بالضم والتشديد : الرفقة والجماعة .

(٣) الشافى : « اتفقا من ها هنا » .

حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فَنِيطَتْ^(١) دونها ملاءة ، ثم أنت أنةً أجهش لها القوم بالبكاء ، وارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نَشِيحُ القوم وهدأت فَوَرَّتهم ، افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^(٢) ﴾ ، فإن تَمَزُّوه تجدوه أبي دون آبائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، فبَلِّغِ الرسالة صادعا بالنبأ^(٣) ، مائلا عن سَنَنِ المشركين ، ضاربا ثَبَجَهُم ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخِذاً بأَكْطَامِ^(٤) المشركين ؛ يهشم الأصنام ، ويفلّق الهام ، حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبُرَ ، وحسّى نفرى^(٥) الليلُ عن صُبْحِهِ ، وأسفر الحقّ عن محضه ، ونطق زعيم الدين ، وخرست شقائق الشياطين ، وتمتّ كلمةُ الإخلاص ، وكنتم على شَفَا حَفْرَةٍ من النار ، نهزة الطامع ، ومذقةُ الشارب ، وقبسةُ العجلان ، وموطأُ الأقدام ، تشربون الطَّرِيقَ^(٦) ، وتقتاتون القِدَّ ؛ أدلةً خاسئين ، يختطفكم الناس من حولكم ، حتى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللَّتْيَا والَّتِي ، وبعد أن مُنِيَ بهم الرجال وذوئان العرب ومردة أهل الكتاب ، و ﴿ كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ^(٧) ﴾ ، أو نجم قرن الشيطان ، أو ففرت فاغرة^(٨) قذف أخاه في لهواتها . ولا ينكنى^(٩) حتى يبطأ صماخها بإخصه ويطنىء عادية كهبها بسيفه — أو قالت : يحمد لهبها بحمده — مكدودا في ذات الله ، وأنتم في رفاهية فِكْهُونَ آمنون وادِعون .

(١) نيطت : أى وصلت وعلقت . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣) د : « صادرا بالتذكرة » .

(٤) الأكطام : جمع كظم ، بالتحريك ؛ وهو مخرج النفس من الحلق .

(٥) نفرى : انشق . (٦) الطرق : الماء الذى بالث الإبل فيه .

(٧) سورة المائدة ٦٤ . (٨) ففرت فاغرة : أى فتحت فاهها .

(٩) د : « فلا تنكنى » .

إلى هنا انتهى خبر أبي العيناء عن ابن عائشة. وأما عروضة عائشة ، فزاد بعد هذا: حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه ، ظهرت حسيكة النفاق ، وشمل جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين ، ونبغ خامل الآفكين ، وهدر فنيق المبطلين ، نخطر في عرصاتكم ، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم ، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين ؛ ولقربه متلاحظين . ثم استمهمضكم فوجدكم خفافاً ، وأحمسكم فألفاكم غضاباً ، فوسمتم غير إبلكم ، ووردتكم غير شربكم ، هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب^(١) والجرح لما يندمل ، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة ، ﴿ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾^(٢) ، فبهات ! وأنى بكم وأنى تؤفكون ، وكتاب الله بين أظهركم ، زواجه بينة ، وشواهد لا تحصى ، وأوامره واضحة . أرغبة عنه تريدن ، أم لغيره تحكمون ؛ بئس للظالمين بدلاً ! ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ، تسرون حسواً في ارتقاء ، ونحن نصبر منكم على مثل حرّ المدي ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ، ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾^(٣) . يابن أبي قحافة ، أرت أباك ولا أرت أبي ، لقد جئت شيئاً فرياً ! فدونها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ، والزعيم ، محمد ، والموعود القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ! ثم انكفأت إلى قبر أبيها سليها السلام ، فقالت :

قد كان بعدك أنباء وهنبشة
لو كنت شاهدتها لم تكثر الخطب
إذا فقدناك فقد الأرض وإبلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغيب

وروى حمى بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً :

فليت بعدك كان الموت صادفنا
لما قضيت وحالت دونك الكتب

(١) رحيب ، أى واسع . (٢) سورة التوبة ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ٥٠ .

قال : فحمد أبو بكر الله وأنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال : يا خَيْرَ^(١) النساء ، وابنة خيرِ الآباء^(٢) ، والله ما عدوتُ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عملتُ إلَّا بإذنه ، وإن الرائدَ لا يكذبُ أهله ، وإني أشهد الله وكفى بالله شهيدا ؛ أنى سمعتُ رسول الله يقول ، « إِنَّا معاشِرُ الأنبياء لا نورثُ ذهبا ، ولا فضة ولا دارا ولا عقارا ، وإنما نورثُ الكتاب والحكمة والعلم والنبوة » .

قال : فلما وصل الأمر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام كُلم في ردِّ فدك ، فقال : إني لأستحي من الله أن أردَّ شيئا منع منه أبو بكر وأمضاء عمر^(٣) .

قال المرتضى : وأخبرنا أبو عبد الله المرزُبانيّ : قال : حدثني عليّ بن هارون ، قال : أخبرني عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر ، عن أبيه قال : ذكرتُ لأبي الحسين زيد بن عليّ ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إياها فدك ، وقلت له : إنّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء ، لأنّ الكلام منسوق البلاغة ، فقال لي : رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم ، وقد حدثني به أبي عن جدّي يَبْلُغ به فاطمة عليها السلام^(٤) على هذه الحكاية ، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدّ أبي العيناء ، وقد حدث الحسين بن علوان ، عن عطية العوفيّ ، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر^(٥) عن أبيه هذا الكلام .

ثم قال أبو الحسن زيد : وكيف^(٦) تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام ، وهم

(١) ١ ، د : « يا خيرة » . (٢) الشافى : « الأنبياء » .

(٣) الشافى ٢٣٠ . (٤ - ٤) ساقط من د .

(٥) الشافى ، د : « ذكر » . (٦) د : « كيف » .

يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحققونه
لولا عداوتهم لنا أهل البيت . ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه ، وزاد في الأبيات بعد
البيتين الأولين :

ضائقٌ علىّ بلادى بعد ما رُحبتُ ورسمَ سِبْطاك خسفا فيه لى نصَبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادفنا قومٌ تمنّوا فأعطوا كلَّ ما طلبوا
تجهّمَتنا رجالٌ واستخفّ بنا مدغبن عنا وكلَّ الإرث قد غصبوا
قال : فما رأينا يوماً أكثرَ باكياً أو باكياً من ذلك اليوم .

قال المرتضى : وقد روى هذا الكلام على هذا الوجه من طرقٍ مختلفة ، ووجوه كثيرة ،
فمن أرادها أخذها من مواضعها ، فكيف يدعى أنّها عليها السلام كفت راضية ، وأمسكت
قائمة ، لولا البُهت وقلة الحياء ^(١) !

قلت : ليس في هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضى القضاة ، لأنه ادّعى أنّها
نازعت وخاصمت ثم كفت لما سمعت الرواية وانصرفت ، تاركة للنزاع ، راضية بموجب
الخبر المروى . وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدلّ إلا على سخطها حال
حضورها ، ولا يدلّ على أنّها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه
ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ما سمعه منه ، انصرفت ساخطة ؛ ولأى الحديث
المذكور والكلام المروى ما يدلّ على ذلك ، ولست أعتقد أنّها انصرفت راضية كما
قال قاضى القضاة ، بل أعلم أنّها انصرفت ساخطة ، وماتت وهى على أبى بكر واجدة ،
ولكن لا من هذا الخبر ، بل من أخبار آخر ، كان الأولى بالمرتضى أن يحتجّ بها على

ما يرويه في انصرافها ساخطة ، وموتها على ذلك السخط ، وأما هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدل على هذا المطلوب .

قال المرتضى رحمه الله : فأما قوله : إنه يجوز أن يبين عليه السلام أنه لا حق لميراثه في ورثته لغير الورثة ، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد ، لأنه من باب العمل ، وكل^(١) هذا بناء منه على أصوله الفاسدة في أن خبر الواحد حجة في الشرع ، وأن العمل به واجب ، ودون صحة ذلك خراط الفتاد ؛ وإنما يجوز أن يبين من جهة أخرى^(٢) إذا تساوى في الحجة ووقوع العمل ، فأما مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما ، وإذا كان ورثة النبي صلى الله عليه وسلم متعبدون بالآل يرثوه ، فلا بد من إزاحة علمتهم في هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم ، ويشأفهم به ، ويلقيه إلى من يقيم الحجة عليهم بنقله ، وكل ذلك لم يكن .

فأما قوله : أتجوزون صدقه في الرواية أم لا تجوزون ذلك ؟ فالجواب إنا لا نجوزه ، لأن كتاب الله أصدق منه ، وهو يدفع روايته ويبطالها ؛ فأما اعتراضه على قولنا : إن إطلاق الميراث لا يكون إلا في الأموال بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾^(٣) . وقولهم : ما ورثت الأبناء من الآباء شيئا أفضل من أدب حسن ، وقولهم : العلماء ورثة الأنبياء ، فعجيب ، لأن كل ما ذكر مقيد غير مطلق ، وإنما قلنا إن مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراث الأموال ، فبعد ما ذكره وعارض به لا يخفى على متأمل .

فأما استدلاله على أن سليمان ورث داود علمه دون ماله بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثَقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾^(٤) وأن المراد أنه

(١) الثاني : « فشكل » . (٢) الثاني : « من جهة دون جهة » .

(٣) سورة طه ٣٢ .

(٤) سورة النمل ١٦ .

وَرِثَ الْعِلْمَ وَالْفَضْلَ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْقَوْلِ تَعَلُّقٌ بِالْأَوَّلِ ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ يَعْوَلُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ أَنَّهُ وَرِثَ الْمَالَ بِالظَّاهِرِ وَالْعِلْمَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْأُسْتِدْلَالِ ، فَلَيْسَ يَجِبُ إِذَا دَلَّتِ الدَّلَالَةُ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ عَلَى مَعْنَى الْمَجَازِ أَنْ يَقْتَصِرَ ^(١) بِهَا عَلَيْهِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَحْمِلَهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ إِذَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ؛ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرِيدَ مِيرَاثَ الْمَالِ خَاصَّةً ، ثُمَّ يَقُولُ مَعَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّا عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الظَّيْرِ ﴾ ، وَيُشِيرُ : « الْفَضْلُ الْمُبِينُ » إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَالِ جَمِيعًا ، فَلَهُ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَضْلٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمَا ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَحْتَمِلُ الْمَالَ كَمَا يَحْتَمِلُ الْعِلْمَ ، فَلَيْسَ بِخَالِصٍ مَا ظَنَّهُ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا : إِنَّهُ خَافَ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَنْدَرِسَ ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَضْيَعَ الْعِلْمُ ، فَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى وَلِيًّا يَقُومُ بِالَّذِينَ مَقَامَهُ ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَلَا يَبْخَلُونَ بِهَا ، فَأَنْتَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي مَنَعَ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْإِتْنَاعِ بِهَا عَلَى الْفُسَادِ ، وَلَا يَعِدُّ ذَلِكَ بَخْلًا وَلَا حِرْصًا ^(٢) ، بَلْ فَضْلًا وَدِينًا ؛ وَلَيْسَ يَجُوزُ مِنْ زَكَرِيَّا أَنْ يَخَافَ عَلَى الْعِلْمِ الْأُنْدَرَسَ وَالضَّيَاعَ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَقْتَضِي حِفْظَ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْحِجَّةُ عَلَى الْعِبَادِ ، وَبِهِ تَنَزَّاهُ عِلْمُهُمْ فِي مَصَالِحِهِمْ ، فَكَيْفَ يَخَافُ مَا لَا يَخَافُ مِنْ مِثْلِهِ !

فَإِنْ قِيلَ : فَهَبُوا أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ يَأْمَنُ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَنْدَرِسَ ؛ أَلَيْسَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَجُوزًا أَنْ ^(٣) يَحْفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ ، كَمَا يَجُوزُ حِفْظُهُ بِغَرِيبٍ أَعْجَنِي ! فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أَلَّا يَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَلَا يَقُومُوا فِيهِ . مَقَامَهُ ، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا يَجْمَعُ فِيهِ هَذِهِ الْعُلُومَ حَتَّى لَا يُخْرِجَ الْعِلْمُ عَنْ بَيْتِهِ ، وَيَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ قَوْمِهِ ، فَيَلْحَقَهُ بِذَلِكَ وَصْمَةٌ !

(١) ا ، الشافى : « يقتصرها » . (٢) ب : « بخلا وحرصا » .

(٣) الشافى « لأن » .

قلنا : أمّا إذا رتب السؤال هذا الترتيب ، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحب الكتاب ، وهو أن الخوف الذي أشاروا إليه ليس من ضرر ديني ، وإثمها هو من ضرر دنيوي ، والأنبياء إنما بُعثوا لتحمل المضار الدنيوية ، ومنازلهم في الثواب إنما زادت على كل المنازل لهذا الوجه ، ومن كانت حاله هذه الحال ، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولا على مضار الدين ، لأنّها هي جهة خوفهم ، والغرض في بعثهم تحمّل ما سواها من المضار ، فإذا قال النبي صلى الله عليه : « أنا خائف » ، فلم يُعلم جهة خوفه على التفصيل ، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضار الدين دون الدنيا ، لأنّ أحوالهم وبعثهم ^(١) يقتضى ذلك ، فإذا كنّا لو اعتدنا من بعضنا الزهد في الدنيا وأسبابها ، والتعفف عن منافعها ، والرغبة في الآخرة ، والتفرد ^(٢) بالعمل لها ، لكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الذي لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليق بحاله ، ونضيفه إلى الآخرة دون الدنيا ، وإذا كان هذا واجبا فيمن ذكرناه فهو في الأنبياء عليهم السلام أوجب ^(٣) .

قلت : ينبغي ألا يقول المعارض : فيلحقه بذلك وصمة ، فيجعل الخوف من هذه الوصمة ، بل يقول : إنه خاف ألا يُفلح بنو عمّه ولا يتعلّموا العلم ، لما رأى من الأمارات الدالة على ذلك ، فالخوف على هذا الترتيب يتعلّق بأمر ديني لا دنيوي ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدا يرث عنه علمه ، أي يكون عالما بالدينيات كما أنا عالم بها .. وهذا السؤال متعلّق بأمر ديني لا دنيوي . وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى ؛ على أنّه لا يجوز إطلاق القول بأنّ الأنبياء بُعثوا لتحمل المضار الدنيوية ، ولا القول : الغرض في بعثهم تحمّل ما سوى المضار الدينية من المضار ؛ فإنّهم ما بعثوا لذلك ، ولا الغرض في بعثهم ذلك ، وإنما بعثوا لأمر آخر . وقد تحصل المضار في أداء الشرع ضمنا وتبعا ، لا على أنّها الغرض ، ولا داخلة

(١) الشافعي : « بعثهم » . (٢) د : « والتعود » . (٣) الشافعي ٢٣٢ .

في النرض ، وعلى أن قول المرتضى : لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، لأنه محموظ من الله ، فكيف يخاف ما لا يُخاف من مثله ؛ غير مستمرّ على أصوله ! لأنّ المكلفين الآن قد حرّموا بغية الإمام عنده ألقافا كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد ، وهو وأصحابه يقولون في ذلك إنّ اللوم على المكلفين ؛ لأنّهم قد حرّموا أنفسهم اللطف ، فهلاّ جاز أن يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، وإفساد الأحكام الشرعيّة ! لأنّه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم ، لأنّهم هم الذين حرّموا أنفسهم اللطف .

واعلم أنّه قد قرئ : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾^(١) ؛ وقيل : إنّها قراءة زين العابدين وابنه محمد بن عليّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان . وفسّروه على وجهين :

أحدهما أن يكون « ورأى » بمعنى خَلَفَ وبعدي ، أي قلّت الموالى وجمّزوا عن إقامة الدين ، تقول : قد خفّ بنو فلان ، أي قلّ عددهم ، فسأل زكريّا ربّه تقويّتهم ومظاهرتهم بوليّ يرزقه .

وثانيهما أن يكون « ورأى » بمعنى قدّامى ، أي خَفّ الموالى وأنا حيّ ودَرَجوا وانقرضوا ، ولم يَبْقَ منهم من به اعتضاد ؛ وعلى هذه القراءة لا يبق متعلّق بلفظة الخوف . وقد فسّر قوم قوله : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ ، أي خفتُ الذين يُلُون الأمر من بعدي ، لأنّ المولى يستعمل في الموالى ، وجمعه موالٍ ، أي خفت أن يلى بعد موتى أمراء ورؤساء يُفسِدون شيئا من الدين ، فارزقني ولدا تُنعم عليه بالنبوّة والعلم ، كما أنعمت

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ : ٧٧ .

على ، واجعل الدين محفوظا [به]^(١) ؛ وهذا التأويل غير منكر ، وفيه أيضاً دفع لكلام المرتضى .

قال المرتضى : وأما تعلق صاحب الكتاب في أن الميراث محمول على العلم بقوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ لأنه لا يرث أموال آل يعقوب في الحقيقة وإنما يرث ذلك غيره ، فبמיד من الصواب ؛ لأن ولد زكريا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالهم ، على أنه لم يقل : « يرث آل يعقوب » ، بل قال : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، تنسيهاً^(٢) بذلك على أنه يرث^(٣) من كان أحق بميراثه في القرابة^(٤) .

فأما طعنه على من تأول الخبر بأنه عليه السلام لا يورث ، ما تركه للصدقة بقوله : إن أحداً من الصحابة لم يتأوله على هذا الوجه ، فهذا التأويل الذي ذكرناه أحداً ما قاله أصحابنا في هذا الخبر ، فمن أين له إجماع الصحابة على خلافه ! وإن أحداً لم يتأوله على هذا الوجه .

فإن قال : لو كان ذلك لظهر واشتهر ، ولو قف أبو بكر عليه ، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية .

قلت : لم يكن ذلك اليوم - أعني يوم حضور فاطمة عليها السلام ، وقولها لأبي بكر ما قالت - يوم تقيّة وخوف ، وكيف يكون يوم تقيّة وهي تقول له - وهو الخليفة : يا بن أبي قحافة ، أترث أباك ولا أترث أبي ! وتقول له أيضاً : لقد جئت شيئاً فريباً ! فكان ينبغي إذا لم يؤثر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسر لأبي بكر معنى الخبر أن يعلم فاطمة عليها

(١) تكملة من د . (٢) د : « منها » .

(٣) ١ ، د : « يورث » . (٤) الشافى ٢٣٢ .

السلام تفسيره ، فتقول لأبي بكر : أنت غلط فيما ظنبت ، إنما قال أبي : ما تركناه صدقة ، فإنه لا يُورث .

واعلم أن هذا التأويل كاد يكون مدفوعا بالضرورة ، لأن من نظر في الأحاديث التي ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علما قطعيا .

قال المرتضى : وقوله إنه لا يكون إذ ذلك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزية : ليس بصحيح ، وقد قيل في الجواب عن هذا : إن النبي صلى الله عليه وآله يجوز أن يريد أن ما ننوي فيه الصدقة ، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتنا . وهذا تخصيص للأنبياء ومزية ظاهرة (١) .

قلت : هذه مخالفة لظاهر الكلام ، وإحالة اللفظ (٢) عن وضعه ، وبين قوله : ما ننوي فيه الصدقة ، وهو بعد في ملكنا ليس بموروث ؛ وقوله : ما نخلفه صدقة ليس بموروث فرق عظيم ، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللفظ المفيد للمعنى الآخر ، لأنه إلباس وتعمية . وأيضا ، فإن العلماء ذكروا خصائص الرسول في الشرعيات عن أمته وعددوها ، نحو حل الزيادة في النكاح على أربع ، ونحو النكاح بلفظ الهبة على قول فرقة من المسلمين ، ونحو تحريم أكل البصل والثوم عليه ، وإباحة شرب دمه ، وغير ذلك ، ولم يذكرها في خصائصه أنه إذا كان قد نوى أن يتصدق بشيء فإنه لا يناله ورثته ، لو قدرنا أنه يورث الأموال ، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرت ذلك ، ولا رأينا في كتاب من كتبهم ، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه ، وإجماعهم عندهم حجة .

قال المرتضى : فأما قوله : إن قوله عليه السلام : ما تركناه صدقة ، جملة من الكلام

(١) الشافعي ٢٣٢ . (٢) ١ ، د : « اللفظ » .

مستقلة بنفسها ، فصحيح إذا كانت لفظة « ما » مرفوعة على الابتداء ، ولم تكن منصوبة بوقوع الفعل عليها ، وكانت لفظة « صدقة » أيضا مرفوعة غير منصوبة ، وفي هذا وقع النزاع ، فكيف يدعى أنها جملة مستقلة بنفسها ! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول : الرواية جاءت بلفظ « صدقة » بالرفع ، وعلى ما تأولتموه لا تكون إلا منصوبة ، والجواب عن ذلك أننا لا نسلّم الرواية بالرفع ، ولم تجر عادة الرواة بضبط ما جرى هذا المجرى من الإعراب ، والأشبهاء يقع في مثله ، فمن حقّق منهم وصرّح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون أشبه عليه فظنها مرفوعة ، وهي منصوبة^(١) .

قلت : وهذا أيضا خلاف الظاهر ، وفتح الباب فيه يؤدّي إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار .

قال : وأما حكايته عن أبي عليّ أن أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث ؛ وقوله : كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه ! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الذي هو العصبة ! فما نراه زاد على التعجّب ، ومما عجب منه عجبتنا ، ولم يثبت عصمة أبي بكر فينتفى عن أفعاله التناقض^(٢) .

قلت : لا يشكّ أحد في أن أبا بكر كان عاقلا ، وإن شكّ قوم في ذلك فالعقل في يوم واحد لا يدفع فاطمة عليها السلام عن الإرث ويقول : إنّ أباك قال لي : إني لا أورث ثم يورث في ذلك اليوم شخصا آخر من مال ذلك المتوفّي الذي حكى عنه أنه لا يورث وليس أتنفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفا على العصمة ، بل على العقل .

قال المرتضى : وقوله يجوز أن يكون النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ نَحْلَهُ إِثَّاهُ وَتَرَكَهُ أَبُو بَكْرٍ
 فِي يَدِهِ - لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَقْوِيَةِ الدِّينِ - وَنَصْدَقُ بِيَدِهِ ؛ وَكُلَّ مَا ذَكَرَهُ جَائِزٌ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ
 كَانَ يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ أَسْبَابُ النَّحْلَةِ وَالشَّهَادَةِ بِهَا ، وَالْحِجَّةُ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ
 فَنَعْرِفُهُ ، وَمِنْ الْمَعْجَازِ أَنْ تَدَّعِي فَاطِمَةُ فَذَلِكَ رِجَالٌ ، وَتَسْتَشْهَدُ عَلَى قَوْلِهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ وَغَيْرُهُ ، فَلَا يُصْنَعُ إِلَى قَوْلِهَا ، وَيَتْرَكُ السِّيفُ وَالبَغْلَةُ وَالْعِمَامَةُ فِي يَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
 سَبِيلِ الدُّخْلَةِ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ ظَهَرَتْ ، وَلَا شَهَادَةٍ قَامَتْ (١) !

قلت : لعلَّ أبا بكرٍ سَمِعَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَهُوَ يَنْحَلُّ ذَلِكَ عَلَيَّاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 فَلِذَلِكَ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى الْبَيِّنَةِ وَالشَّهَادَةِ ، فَقَدْ رَوَى أَنَّهُ أَعْطَاهُ خَاتَمَهُ وَسَيْفَهُ فِي مَرَضِهِ وَأَبُو بَكْرٍ
 حَاضِرٌ ، وَأَمَّا الْبَغْلَةُ فَقَدْ كَانَ نَحْلَهُ إِثَّاهُ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ ؛
 وَأَمَّا الْعِمَامَةُ فَسَلَبَ الْمَيِّتَ ، وَكَذَلِكَ الْقَمِيصُ وَالْحِجْزَةُ (٢) وَالْحِذَاءُ ، فَالْعَادَةُ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ
 وَلَدُ الْمَيِّتِ ؛ وَلَا يَنَازَعُ فِيهِ لِأَنَّهُ خَارِجٌ ، أَوْ كَانَ خَارِجًا عَنْ التَّرَكَةِ ، فَلَمَّا غُسِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 أَخَذَتْ ابْنَتُهُ ثِيَابَهُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، وَهَذِهِ عَادَةُ النَّاسِ ، عَلَى أَنَّا قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ
 كَيْفَ دَفَعَ إِلَيْهِ آلَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَحِذَاءَهُ وَدَابَّتَهُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ اجْتِهَادًا
 لِمَصْلَحَةٍ رَأَاهَا ؛ وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ .

قال المرتضى : عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَبَيِّنَ ذَلِكَ ، وَيَذْكُرَ وَجْهَهُ بِعَيْنِهِ ، لَمَّا
 نَازَعَ الْعَبَّاسَ فِيهِ ، فَلَا وَقْتُ لَذِكْرِ الْوَجْهِ فِي ذَلِكَ أَوَّلِي مِنْ هَذَا الْوَقْتِ (٣) .
 قلت : لَمْ يَنَازِعِ الْعَبَّاسُ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ ، لَا فِي الْبَغْلَةِ وَالْعِمَامَةِ وَنَحْوِهَا ، وَلَا فِي غَيْرِ

(١) الشافعي ٢٣٢ ، ٢٣٣ . (٢) حجة الإزار : معقده .

(٣) الشافعي ص ٢٣٣ .

ذلك ، وإنما نازع عليًا في أيام عمر ، وقد ذكرنا كيفية المنازعة ، وفيما ذاكات .

قال المرتضى رضى الله عنه في البردة والقضيب : إن كان نحلةً ، أو على الوجه الآخر ، يجرى بحجرى ما ذكرناه في وجوب الظهور والاستشهاد ، ولنا نرى أصحابنا - يعنى المعتزلة - يطالبون أنفسهم في هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادّعيننا وجوهاً وأسباباً وعلالاً مجوزةً ، لأنهم لا يقنعون منا بما يجوز ويمكن ؛ بل يوجبون فيما ندّعيه الظهور والاستشهاد ، وإذا كان هذا عليهم نسوة أو تناسوه ^(١) .

قلت : أما القضيب فهو السيف الذى نَحَلَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليًا عليه السلام في مرضه ، وليس بذى الفقار ، بل هو سيفٌ آخر ؛ وأما البردة فإنه وهبها كعبُ ابن زهير ، ثم صار هذا السيف وهذه البردة إلى الخلفاء ، بعد تنقلات كثيرة مذكورة في كتب التواريخ .

قال المرتضى : فأما قوله : فإن أزواج النبي صلى الله عليه وآله إنما طلبن الميراث لأنهن لم يعرفن رواية أبي بكر للخبر ، وكذلك إنما نازع على عليه السلام بعد موت فاطمة عليها السلام في الميراث لهذا الوجه ، فن أقبح ما يقال في هذا الباب وأبعدُه عن الصواب ! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام رواية أبي بكر ، وبها دُفعت زوجته عن الميراث ! وهل مثل ذلك المقام الذى قامته ، ومارواه أبو بكر في دفعها يخفى على من هو في أقاصى البلاد ، فضلاً عمن هو في المدينة حاضر شاهد يُراعى ^(٢) الأخبار ، ويمنى بها ! إن هذا لخروج في المكابرة عن الحد ! وكيف يخفى على الأزواج ذلك حتى يطلبنه مرةً بعد أخرى ، ويكون عثمان الرسول لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، وعثمان على زعمهم أحدٌ من شهد

(١) الشافى ص ٢٣٣ . (٢) الشافى : « يعنى بالأخبار ويراعياها » . (٣) د : « من » .

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ لَا يُورَثُ ؛ وَقَدْ سَمِعَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ بِنْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ لَمْ تَوَرَّثْ مَالَهُ وَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُنَّ قَدْ سَأَلْنَ عَنِ السَّبَبِ فِي دَفْعِهَا ، فَذَكَرَ لِهِنَّ الْخَبَرَ ، فَكَيْفَ يَقَالُ : إِنْ هُنَّ لَمْ يَعْرِفْنَهُ ^(١) !

قلت : الصحيح أَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم ينزع بعد موت فاطمة في الميراث ، وإنما نازع في الولاية لِفَدَكٍ وَغَيْرِهَا مِنْ صَدَقَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ مَشْهُورٌ ، وَأَمَّا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا ثَبَتَ أَنَّ هُنَّ نَازَعْنَ فِي مِيرَاثِهِ ، وَلَا أَنَّ عُمَانَ كَانَ الْمَرْسَلُ لِهِنَّ ، وَالْمَطَالِبُ عَنْهُنَّ ، إِلَّا فِي رَوَايَةٍ شاذَّةٍ ، وَالْأَزْوَاجُ لَمَّا عَرَفْنَ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ قَدْ دُفِعَتْ عَنِ الْمِيرَاثِ أَمَسَكْنَ ، وَلَمْ يَكُنَّ قَدْ نَازَعْنَ ، وَإِنَّمَا اكْتَفَيْنَ بغيرهنَّ ، وَحَدِيثُ فَدَكٍ وَحُضُورِ فَاطِمَةَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْدَ عَوْدِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمِيرَاثِ .

قال المرتضى : فإن قيل : فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ في دفع فاطمة عليها السلام عن الميراث ، وأحتجَّ بخبرٍ لا حجة فيه ، فما بال الأئمة أقرّته على هذا الحكم ، ولم تُنْكِرْ عليه ، وفي رضاها وإمساکها دليلٌ على صوابه ^(٢) !

قلتُ : قد مضى أَنَّ تَرْكَ النُّكْرِ لَا يَكُونُ دَلِيلَ الرِّضَا إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ وَجْهُ سِوَى الرِّضَا ، وَذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلًا شَافِيًا ، وَقَدْ أَجَابَ أَبُو عُمَانَ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِ " الْعَبَّاسِيَّةِ " عَنْ هَذَا السُّؤَالِ جَوَابًا حَسَنَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظِ ، نَحْنُ

(١) الشافي ص ٢٣٣ .

(٢) الشافي ص ٢٣٣ .

نذكره على وجهه ، ليقابل بينه وبين كلامه في العثمانية وغيرها (١) .

قلت : ما كناه المرتضى رحمه الله في غير هذا الموضع أصلاً ، بل كان ساخطاً عليه ، وكناه في هذا الموضع ، وأستجاد قوله ؛ لأنّ موافق غرضه ، فسبحان الله ، ما أشدّ حبّ الناس لعقائدهم !

قال : قال أبو عثمان : وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما - يعني أبا بكر وعمر - في منع اليراث وبراءة ساحتهما ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما . ثم قال : قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلاً على صدقهما ، ل يكون ترك النكير على المتظاهرين والمحتجّين عليهما ، والمطالبين لها ، دليلاً على صدق دعواهم ، أو أستحسان مقاتلهم ، ولا سيما وقد طالبت المناجاة ، وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكّية ، واشتدّت المؤجّدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السلام ، حتّى إنّها أوصت ألاّ يصلّى عليها أبو بكر ، ولقد كانت قالت له حين أنّه طالبه بحقّها ، ومحتجّة لرّططها : من يترك يا أبا بكر إذا متّ ؟ قال : أهلى وولدى ؛ قالت : فابالنا لا نرث النّبىّ صلى الله عليه وآله ! فلمّا منعها ميراثها وبخسها حقّها وأعتلّ عليها وجلح (٢) في أمرها ، وعانيت التّهضمّ (٣) ، وأيست من التورّع ، ووجدت نشوة الضّعف وقلة الناصر ، قالت : والله لأدعون الله عليك ، قال : والله لأدعون الله لك ؛ قالت : والله لا أكلمك أبداً ، قال : والله لا أهرّك أبداً . فإن يكن ترك النكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها ؛ إنّ في ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلاً على صواب طلبها ! وأدنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت ، وتذكيرها ما نسيت ، وصرّفها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء (٤) ، وأن تقول هجر (٥) ، أو تجور عادلاً ، أو تقطع أصلاً ؛ فإذا لم تجد لهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت

(١) الشافى ٢٣٣ . (٢) جلح في أمرها : جاهر به وكاشفها .

(٣) التّهضم : الطم ، وفي ١ : « الهضم » . (٤) البذاء : الفحش .

(٥) الهجر : القبح من الكلام .

الأمور ، واستوت الأسباب ، والرجوع إلى أصل حكم الله من الموارث أولى بنا وبكم ، وأوجب علينا وعليكم .

قال : فإن قالوا : كيف تظن به ظلمها والتعدّي عليها ! وكأما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقّة ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً ، فيقول : والله لا أهرّك أبداً ، ثم تقول : والله لأدعوك الله عليك ، فيقول : والله لأدعوك الله لك ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ ، والمقول الشديد في دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة ، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتّزيه ، وما يجب لها من الرفعة والمهية ! ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتزداً متقرباً ، كلام المعظم لحقها ، الكبير لمقامها ، والصائن لوجهها ، التّحنّ عليها : ما أحذّ أعزّ على منك فقرا ، ولا أحبّ إلى منك غنى ، ولكنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه فهو صدقة » ! قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم ، والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أربيا ، وللخصومة معتادا ، أن يُظهر كلام المظلوم ، وذلة المنتصف^(١) وحَدَب^(٢) الوامق ، ومِقة^(٣) الحق . وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة ، ودلالة واضحة ، وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : مُتَمَتَّانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَتْعَةُ النِّسَاءِ ، وَمَتْعَةُ الْحَيِّجِّ ، أَنَا أُنْهَى عَنْهُمَا ، وَأَعَاقِبُ عَلَيْهِمَا ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ أَحَدًا أَنْكَرَ قَوْلَهُ ، وَلَا اسْتَشْنَعَ مَخْرَجَ نَهْيِهِ ، وَلَا خَطَّأَهُ فِي مَعْنَاهُ ، وَلَا تَعَجَّبَ مِنْهُ ، وَلَا اسْتَفْهَمَهُ ! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السَّقِيفَةِ وبعد ذلك أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « الْأُتْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ؛ ثم قال في شكاته : لو كان سالمٌ حَيًّا ما تَخَالَجْنِي فِيهِ شَكٌّ ، حين^(٤) أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستّة الذين

(١) المنتصف : المستوفى حقه . (٢) وحَدَب الوامق ؛ أى واثناء الناظر .

(٣) المقة : التودد والحب . (٤) الشافي : « حتى » .

جعلهم سُورَى ، وسالمٌ عبدٌ لامرأةٍ من الأنصار ، وهي أعتقته ، وحازتُ ميراثه ، ثم لم ينكر ذلك من قوله منكِر ، ولا قابل إنسان بين قوله ، ولا تعجب منه ، وإنما يكون ترك النكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنده دليلا على صدق قوله ، وصواب عمله ، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة ، والأمر والنهي ، والقتل والاستحياء ، والحبس والإطلاق ، فليس بحجةٍ تشفى ، ولا دلالة تضيء .

قال : وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولهما ، وصواب عملهما ، إمساك الصحابة عن حَلَمهما ، والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان في أيسر من جَحْد التنزيل ، وردّ النصوص^(١) ؛ ولو كان كما تقولون وما تصفون ، ما كان سبيل الأمة فيهما إلا كسبيلهم فيه ، وعثمان كان أعزّ نفرا ، وأشرف رهطا ، وأكثر عددا وثروة ، وأقوى عُدة .

قلنا : إنهما لم يجحدا التنزيل ، ولم ينكرا النصوص ، ولكنهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة أدعيا روايةً ، وتحديثا بحديث لم يكن مُحالا كونه ، ولا ممتنعا في حجج العقول بحيثُ ، وشهد لهما عليه من علته مثل علتهما فيه . ولعلّ بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عدلا في رهطه ، مأمونا في ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة^(٢) ، ولا جرت عليه غدره ، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ ، وتعديل الشاهد ؛ ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائق الحُجج ، والذي يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم ، فلذلك قلّ النكير وتواكل الناس ، فاشتبه الأمر ، فصار لا يُتخلص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلا العالم المتقدم ، أو المؤيد المرشد ، ولأنّه لم يكن لعُمان في صدور العوامّ وقلوب السّيلة والطّعام ما كان لهما من المحبة والهيبة ، ولأنهما كانا أقلّ استئثارا بالنيء ، وتفصّلا بمال الله منه ، ومن شأن الناس إهمال السلطان ما وفرّ عليهم أموالهم ، ولم يستأثر بخراجهم ، ولم يعطل ثغورهم . ولأنّ الذي صنع أبو بكر

(١) د : « النصوص » . (٢) الفجرة : الانبعاث في المعاصي والفجور .

من منع العِثرة حقها ، والعمومة ميراثها ، قد كان موافقا لجأته قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمان أيضا كان مضعوفاً في نفسه ، مستخفّاً بقدره ، لا يمنع ضيماً ، ولا يجمع عدواً ؛ ولقد وثب ناس على عثمان بالشتم والقذف والتشنيع والنكير ، لأُمور لو أتى أضماً فها وبلغ أقصاها لما أُجترأوا على اغتيابه ، فضلاً على مبادأته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينة بن حصن له فقال له : أما إنّه لو كان عمر لقمعك ومَنَعَكَ ؛ فقال عُيينة : إنَّ عمر كان خيراً لي منك ، أُرهبني فاتقاني .

ثم قال : والعجب أنّا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه والقدر والوعيد يردّ كلّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسناداً ، وأصحّ رجالاً ، وأحسن اتصالاً ؛ حتّى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب ، وحصّوا الخبر العامّ بما لا يداني بعض ما ردّوه ، وأكذبوا قائله ، وذلك أنّ كلّ إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ، ويصدق ما وافق رضاه .
هذا آخر كلام الجاحظ^(١) .

ثم ول المرتضى رضى الله عنه : فإن قيل : ليس ما عارض به الجاحظ من الاستدلال بترك النكير ، وقوله : كما لم ينكروا على أبي بكر ، فلم ينكروا أيضاً على فاطمة عليها السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث ، كالأزواج وغيرهنّ معارضة صحيحة ، وذلك أن نكير أبي بكر لذلك ، ودفعها والاحتجاج عليها ، ويكفيهم ويغنيهم عن تكلف نكير آخر ، ولم ينكر على أبي بكر ما رواه منكر فيستننوا بإنكاره^(٢) .

قلنا : أوّل ما يُبطل هذا السؤال أنّ أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد

(١) نقله في الشافى ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

أحتجأها من التظلم والتألم، والتعنيف والتبكيت، وقولها على ما روى: والله لأدعون الله عليك، ولا أكلمك أبداً، وما جرى هذا المجرى، فقد كان يجب أن ينكره غيره، ومن المنكر الغضب على المنصف. وبعد، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعا ومغنيا عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه، ومقامها على التظلم منه. فمن عن نكير غيرها؛ وهذا واضح^(١).

الفصل الثالث

في أن فذلك هل صح كونها نجلت رسول الله صلى الله عليه وآله

لفاطمة عليها السلام أم لا؟

تذكر في هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضي القضاة في "الغنى"، وما أعترض به عليه، ثم نذكر ما عندنا في ذلك.

قال المرتضى حاكياً عن قاضي القضاة: ومما عظمت الشيعة القول في أمر فذلك، قالوا: وقد روى أبو سعيد الخدري أنه لما أنزلت: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ بِحَقِّهِ﴾^(٢)، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فذلك، ثم فمل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك، فردّها على ولدها. قالوا: ولا شك أن أبا بكر أغضبها؛ إن لم يصحّ كلّ الذي روى في هذا الباب، وقد كان الأجمل أن يمنعهم التكرم بما ارتكبوا منها فضلا عن الدين، ثم ذكروا أنها استشهدت أمير المؤمنين عليه السلام وأُمّ أيمن، فلم يقبل شهادتهما، هذا مع تركه أزواج النبي صلى الله عليه وآله في حجرهن، ولم يجعلها صدقة، وصدقهن في ذلك أن ذلك لهنّ ولم يصدقها.

(١) الشافعي ٢٣٤.

(٢) سورة الإسراء ٢٦.

قال : والجواب عن ذلك أن أكثر ما يروون في هذا الباب غير صحيح ؛ ولسنا ننكر صحة ما روى من ادّعاءها فذلك ، فأما أنّها كانت في يدها فغير مسلم ، بل إن كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها ، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنّها ميراث ، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبي بكر قبول دعوها ، لأنه لا خلاف في أنّ العمل على الدعوى لا يجوز ، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحته بمشاهدة ، أو ماجرى مجراها ، أو حصلت بينة أو إقرار ، ثم إن البينة لا بد منها ، وإن أمير المؤمنين عليه السلام لما خاصمه اليهودي حاكمه ، وأن أم سلمة التي يطبق على فضلها لو ادّعت نَحْلًا ما قُبِلَتْ دعواها .

ثم قال : ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالي ، ولم يعلم صحة هذه الدعوى ، ما الذي كان يجب أن يعمل ؟ فإن قلتم : يقبل الدعوى ، فالشرع بخلاف ذلك ، وإن قلتم : يلتزم البينة ، فهو الذي فعله أبو بكر .

ثم قال : وأما قول أبي بكر : رجل مع الرجل ، وامرأة مع المرأة ، فهو الذي يوجه الدين ، ولم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام ، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أم أيمن .

قال : وليس لأحد أن يقول : فلماذا ادّعت ولا بينة معها ؟ لأنه لا يتمتع أن تجوز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين ، أو تجوز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد ، وهذا هو الموجب على ملتزم الحق ، ولا عيب عليها في ذلك ، ولا على أبي بكر في التماس البينة ، وإن لم يحكم لها لما لم يتم ولم يكن لها خصم ، لأن التركة صدقة على ما ذكرنا ، وكان لا يمكن أن يعول في ذلك على يمين أو نكول ، ولم يكن في الأمر إلا ما فعله . قال : وقد أنكر أبو علي ما قاله السائل من أنّها لما رُدّت في دعوى النحلة ادّعته إرثًا ، وقال : بل كان طلبت الإرث قبل ذلك ، فلما سمعت منه الخبر كفت وادّعت النحلة (١) .

قال : فأما فِعْلُ عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النحلة ، بل عمل في ذلك ماعمله عمرُ بن الخطاب بأن أقرّه في يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلاتها في المواضع التي كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، فقام بذلك مدّة ، ثم ردّها إلى عمر في آخر سنته ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ؛ ولو ثبت أنه فعل بخلاف ما فعل السلف لكان هو المحجوج بفعلهم وقولهم . وأحد ما يقوّى ما ذكرناه أن الأمر لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترك فذلك على ما كان ، ولم يجعله ميراثا لولد فاطمة ، وهذا يبيّن أن الشاهد كان غيره ، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقرب أن يحكم بملمه ؛ على أن الناس اختلفوا في الهبة إذا لم تقبض ، فعند بعضهم تستحقّ بالعقد ؛ وعند بعضهم أنها إذا لم تقبض يصير وجودها كعدمها ، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أمير المؤمنين عليه السلام من ردّها ، وإن صحّ عنده عقد الهبة ، وهذا هو الظاهر ، لأن التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان في يدها ، ولكان ذلك كافيا في الاستحقاق ، فأما حُجَرُ أزواج النبي صلى الله عليه وآله فإنما تركت في أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ، ونصّ الكتاب يشهد بذلك ، وقوله : ﴿ وَقرن في بيوتكن ﴾^(١) . وروى في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجَر على نسائه وبناته . ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثا أو صدقة لكان أمير المؤمنين عليه السلام لما أفضى الأمر إليه يغيّره .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنما لم يغيّر ذلك لأنّ الملك قد صار له ، فتبرّع به ، وذلك أن الذي يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة عليها السلام ، وهو الثمن من ميراث رسول صلى الله عليه وآله ، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهم في باب الحُجَر ، ويأخذ هذا الحقّ منهم ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه ، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلّق بالتقيّة^(٢) ، وقد سبق الكلام فيها .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) التقيّة : الحيلة .

قال : ومما يذكرونه أن فاطمة عليها السلام لغضبها على أبي بكر وعمر أوصت ألا يصلّي عليها ، وأن تُدفن سرّاً منهما ، فدفنت ليلاً ، وهذا كما ادّعوا رواية رؤوها عن جعفر بن محمد عليهما السلام وغيره ، أنّ عمر ضرب فاطمة عليها السلام بالسوط ، وضرب الزبير بالسيف ، وأن عمر قصد منزلها وفيه علىّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممن تخلّف عن أبي بكر وهم مجتمعون هناك ، فقال لها : ما أخذت بعد أبيك أحبّ إلينا منك ، وإيّم الله لأن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم ! فتمت القوم من الاجتماع .

قال : ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوّزها . وأمّا أمر الصلاة فقد روى أن أبا بكر هو الذي صلّى على فاطمة عليها السلام ، وكبّر عليها أربعاً ، وهذا أحد ما استدللّ به كثير من الفقهاء في التكبير على الميت ، ولا يصحّ أيضاً أنها دفنت ليلاً ، وإن صحّ ذلك فقد دفن رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلاً ، ودفن عمر ابنه ليلاً ، وقد كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل ، فما في هذا مما يطعن به ، بل الأقرب في النساء أن دفنهنّ ليلاً أسّتر وأوّلّى بالسنة .

ثم حكى عن أبي علىّ تكذيب ما روى من الضرب بالسوط ؛ قال : والروى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه كان يتولّاها ، ويأتى القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلّى الله عليه وآله ، روى ذلك عباد بن صُهيب ، وشعبة بن الحجاج ، ومهدى ابن هلال ، والدّرّاورديّ ، وغيرهم ، وقد روى عن أبيه محمد بن علىّ عليه السلام وعن علىّ بن الحسين مثل ذلك ، فكيف يصحّ ما ادّعوه ! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن علىّ بن أبي طالب عليه السلام هو إسماعيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت ، وآمنة أمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ليلة القدر ! فإن صدّقوا ذلك أيضاً قيل لهم : فعمّر بن الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت ! وإن قالوا : لا نصدّق ذلك ، فقد جوّزوا ردّ هذه الروايات ، وصحّ أنه لا يجوز التمويل على هذا الخبر

وإنما يتعلق بذلك مَنْ غَرَضُهُ الإلحاد كالوراق، وابن الراوندي، لأنَّ غرضهم القدح في الإسلام .

وحكى عن أبي علي أنه قال : « ولم صار غضبها إن ثبت ، كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وآله من حيث قال : « فمن أغضبها فقد أغضبني » ، « أولى من أن يقال : فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين ؛ لأنه روى عنه عليه السلام قال : « حبُّ أبي بكر وعمر إيمان ، وبغضُهما نفاق » ! ومن يورد مثل هذا فقصده الطعن في الإسلام ، وأن يتوهم الناس أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليضعفوا دلالة العلم في النفوس ..

قال : وأما حسد الإحراق فلو صحَّ لم يكن طعنًا على عمر ، لأن له أن يهدد من امتنع من المباينة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت . انتهى كلام قاضي القضاة (١) .

قال المرتضى : نحن نبتدي فنبدل على أن فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحل فذلك إلا ما كانت مصيبة فيه ، وأن مانعها ومطالبها بالبيئة متعنت ، عادل عن الصواب ، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبينة ، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل ، فنتكلم عليه .

أما الذي يدل على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط ، مأمونا منها فعل القبيح ، ومن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبينة .

فإن قيل : دللوا على الأمرين ، قلنا : بيان الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٢) والآية تتناول جماعة منهم فاطمة

(١) نقله المرتضى في الشافي ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . (٢) سورة الأحزاب ٣٣ :

عليها السلام بما تواترت الأخبار في ذلك ، والإرادة هاهنا دلالة على وقوع الفعل للمراد .
وأيضاً فيدلّ على ذلك قوله عليه السلام : « فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ،
ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجلّ » ، وهذا يدلّ على عصمتها ؛ لأنها لو كانت ممن
تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له على كلّ حال ، بل كان متى فعل المستحقّ
من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها ، إن كان الفعل يقتضيه سارّاً له ومطعياً ، على أنّنا لا نحتاج
أن ننبّه هذا الموضع على الدلالة على عصمتها ، بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما
ادّعته ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين ، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدّع ما ادّعته
كاذبة ، وليس بعد ألا تكون كاذبة إلّا أن تكون صادقة ؛ وإنّا اختلفوا في هل يجب مع
العلم بصدقها تسليم ما ادّعته بغير بينة أم لا يجب ذلك ، قال : الذي يدلّ على الفصل الثاني
أنّ البينة إنّما تراد ليناب في الظنّ صدق المدّعى ، ألا ترى أنّ العدالة معتبرة في الشهادات
لما كانت مؤثرة في غلبة الظنّ لما ذكرناه ، ولهذا جاز أن يحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة
لأنّ علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البينة ، من حيث كان أغلب
في تأثير غلبة الظنّ ، وإذا قدّم الإقرار على الشهادة لقوّة الظنّ عنده ، فأولى أن يُقدّم العلم
على الجميع ، وإذا لم يحتجّ مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوى لا يحتاج
أيضاً مع العلم إلى ما يؤثر الظنّ من البيّنات والشهادات .

والذي يدلّ على صحّة ما ذكرناه أيضاً أنّه لا خلاف بين أهل النقل في أنّ أعرابياً
نازع النبيّ صلى الله عليه وآله في ناقة ، فقال عليه السلام : « هذه لي ؛ وقد خرجتُ إليك
من ثمنها » ، فقال الأعرابيّ : من يشهدك بذلك ؟ فقال خزيمه بن ثابت : أنا أشهد بذلك ؛ فقال
النبيّ صلى الله عليه وآله : « من أين علمتَ وما حضرتَ ذلك ؟ » قال : لا ، ولكن علمتُ
ذلك من حيث علمت أنّك رسولُ الله ، فقال : « قد أجزتُ شهادتك ، وجعلتها شهادتين » ؛
فسمّى ذا الشهادتين .

وهذه القصة شبيهة لقصة فاطمة عليها السلام ، لأنّ خزّيمة اكتفى في العلم بأنّ التّافة له صلى الله عليه وآله ، وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا يقول إلّا حقاً ، وأمضى النّبيّ صلى الله عليه وآله ذلك له من حيث لم يحضر الأبتياح وتسليم الثمن ، فقد كان يجب على من علم أنّ فاطمة عليها السلام لا تقول إلّا حقاً إلّا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة ؛ هذا وقد روى أنّ أبا بكر لما شهد أمير المؤمنين عليه السلام كتب بنسليم^(١) فدكّ إليها ، فأعرض عمر قضيتّه ، وخرق ما كتبه .

روى إبراهيم بن السعيد الثّقفيّ ، عن إبراهيم بن ميمون ، قال : حدّثنا عيسى بن عبد الله ابن محمّد بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عن عليّ عليه السلام ، قال : جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر وقالت : إنّ أبي أعطاني فدكّ ، وعلىّ وأمّ أيمن يشهدان ، فقال : ما كنت لتقول على أبيك إلّا الحقّ قد أعطيتكها ، ودعا بصحيفة من آدم فكتب لها فيها ؛ فخرجت فلقيت عمر ، فقال : من أين جئت يا فاطمة ؟ قالت : جئت من عند أبي بكر ، أخبرته أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فدكّ ، وأنّ عليّاً وأمّ أيمن يشهدان لي بذلك ، فأعطانيها ، وكتب لي^(٢) بها ؛ فأخذ عمر منها الكتاب ، ثمّ رجع إلى أبي بكر ، فقال : أعطيت فاطمة فدكّ ، وكتبت بها لها ؟ قال : نعم ، فقال : إنّ عليّاً يجرّ إلى نفسه ، وأمّ أيمن امرأة ؛ وبصق في الكتاب فحماه وخرقه .

وقد روى هذا المعنى من طرق مختلفة ، على وجوه مختلفة ، فمن أراد الوقوف عليها ، واستقصاءها أخذها من مواضعها .

وليس لهم أن يقولوا : إنّها أخبار آحاد ، لأنّها وإن كانت كذلك ، فأقلّ أحوالها أنّ توجب الظنّ ، وتمنع من القطع على خلاف معناها . وليس لهم أن يقولوا : كيف يسلم إليها

(١) ب : « يسلم » ؛ والصواب ما أثبتته من ١ ، د والشاق . (٢) الشاق : « وكتبها لي » .

فَدَكَ وهو يروى عن الرسول أن ما خلفه صدقة ، وذلك لأنه لا تناهى بين الأمرين ، لأنه إنما سلمها على ما وردت به الرواية على سبيل النحل^(١) ، فلما وقست المطالبة بالميراث روى الخبر في معنى الميراث ، فلا أختلاف بين الأمرين .

فأما إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَكَ في يدها ، فما رأينا أَعْتَمَدَ في إنكار ذلك على حجة ، بل قال : لو كان ذلك في يدها لكان الظاهر أنها لها^(٢) . والأمر على ما قال ، فمن أين أنه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضى الظاهر خلافه ! وقد روى من طرق مختلفة غير طريق أبي سعيد الذى ذكره صاحب الكتاب أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(٣) دعا النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فأعطاهما فَدَكَ ! وإذا كان ذلك مرويًا فلا معنى لدفعه بغير حجة .

وقوله : لا خلاف أن العمل على الدعوى لا يجوز ، صحيح ، وقد بَيَّنَّا أن قولها كان معلوماً صحته ، وإنما قوله : إنما يعمل على ذلك متى علم صحته بشهادة أو ما يجرى مجراها ، أو حصلت بينة أو إقرار ، فيقال له : إما علمت بمشاهدة فلم يكن هناك ، وإما بينة فقد كانت على الحقيقة ، لأن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البينات وأعدلها ، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بينة ، فمن أين زعمت أنه لم يكن هناك علم ! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلت ذلك في جملة الأقسام .

فإن قال : لأن قولها بمجرد لا يكون جهةً للعلم ؛ قيل له : لم قلت ذلك ؟ أو ليس قد دللنا على أنها معصومة ، وأن الخطأ مأمونٌ عليها ثم لو لم يكن كذلك لكان قولها في تلك القضية معلوماً صحته على كل حال ، لأنها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلّة عاصية فيما ادّعته ، إذ الشبهة لا تدخل في مثله ؛ وقد أجمعت الأمة على أنها لم يظمر منها بعد

(١) ١، د : « النحلة » . (٢) ١ والشاوي : « أنه » . (٣) سورة الإسراء ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليه وآله معصية بلا شكٍ وارتياحٍ ؛ بل أجمعوا على أنَّها لم تُدَّع إلاَّ الصَّحيح ، وإن اختلفوا ؛ فن قائل يقول : مانعُها مخطئٌ ، وآخر يقول : هو أيضا مصيب ، لفقد البينة وإن علم صدقها .

وأما قوله : إنه لو حاكم غيره لطولب بالبينة ، فقد تقدَّم في هذا المعنى ما يكفي ، وقصة خزيمة بن ثابت وقبول شهادته تُبطل هذا الكلام .

وأما قوله : إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام حاكمٌ يهوديًّا على الوجه الواجب في سائر الناس ، فقد روى ذلك ، إلا أنَّ أمير المؤمنين ^(١) لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله ^(٢) ، وإنما تبرَّع به ، وأستظهر بإقامة الحجَّة فيه ؛ وقد أخطأ من طالبه ببينة كائن من كان . فأما اعتراضه بأنَّ سَلَمَةَ لم يثبت من عصمتها ما ثبت من عصمة فاطمة عليها السلام ، فلذلك احتاجت في دعواها إلى بينة . فأما إنكاره وأدعاؤه أنه لم يثبت أنَّ الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين ، فلم يزد في ذلك إلا مجرد [الدعوى و] ^(٣) الإنكار ، والأخبار مستفيضة بأنَّه عليه السلام شهد لها ، فدفع ذلك بالزَّيغ ^(٤) لا يُغنى شيئاً ! وقوله : إنَّ الشاهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله هو المنكر الذي ليس بمعروف .

وأما قوله : إنَّها جوِّزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فطريف ؛ مع قوله : فيما بعد : « إن التَّركة صدقة ، ولا خصم فيها » ، فتدخل اليمين في مثلها ؛ أفترى أنَّ فاطمة لم تكن تعلم من الشريعة هذا المقدار الذي نُبِّهه صاحب الكتاب عليه ! ولولم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشريعة يوافقها عليه .

وقوله : إنَّها جوِّزت عند شهادة مَنْ شهد لها أن يتذكر غيرهم فيشهد باطل ، لأنَّ مثلها لا يتعرَّض للظَّنة والتهمة ، ويعرَّض قوله للردِّ ، وقد كان يجب أن تعلم مَنْ يشهد لها

(١ - ١) الشافى : « لم يفعل ذلك وهو واجب عليه » .

(٢) من الشافى . (٣) الشافى : « بافتراح » .

مَنْ لَا يَشْهَدُ حَتَّى تَكُونَ دَعَوَاهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ مَعَهُ الْقَبُولُ وَالْإِمْضَاءُ ، وَمَنْ هُوَ
دُونَهَا فِي الرِّبَةِ وَالْجَلَالَةِ وَالصِّيَانَةِ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ لَا يَتَعَرَّضُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْخَطِئَةِ وَيَتَوَرَّطُهَا ،
لِلتَّجْوِيزِ الَّذِي لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا أَمَارَةَ عَلَيْهِ .

فَأَمَّا إِنْكَارُ أَبِي عَلِيٍّ لِأَنَّهُ يَكُونُ النَّحْلُ قَبْلَ ادِّعَاءِ الْمِيرَاثِ وَعَكْسُهُ الْأَمْرُ فِيهِ ، فَأَوَّلُ
مَا فِيهِ أَنَّا لَا نَعْرِفُ لَهُ غَرَضًا صَحِيحًا فِي إِنْكَارِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ كَوْنُ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ قَبْلَ الْآخَرِ
لَا يَصِحُّ لَهُ مَذْهَبًا ؛ فَلَا يُفْسِدُ عَلَى مَخَالِفِهِ مَذْهَبًا .

ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ فِي أَنَّ الْكَلَامَ فِي النَّحْلِ كَانَ الْمُتَقَدِّمَ ظَاهِرًا ، وَالرَّوَايَاتُ كُلُّهَا بِهِ وَارِدَةٌ ؛
وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَبْتَدِئَ بِطَلَبِ الْمِيرَاثِ فِيمَا تَدَّعِيهِ بَعِيْنُهُ نَحْلًا ! أَوْ لَيْسَ هَذَا يُورِجِبُ أَنْ
تَكُونَ قَدْ طَالَبْتَ بِحَقِّهَا مِنْ وَجْهِ لَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْهُ مَعَ الْاِخْتِيَارِ ! وَكَيْفَ يَجُوزُ ذَلِكَ وَالْمِيرَاثُ
يَشْرَكَهَا فِيهِ غَيْرَهَا ، وَالنَّحْلُ تَنْفَرِدُ بِهِ ! وَلَا يَنْقَلِبُ مِثْلُ ذَلِكَ عَلَيْنَا مِنْ حَيْثُ طَالَبْتَ
بِالْمِيرَاثِ بِمَدِّ النَّحْلِ ؛ لِأَنَّهَا فِي الْاِبْتِدَاءِ طَالَبَتْ بِالنَّحْلِ ، وَهُوَ الْوَجْهُ الَّذِي تَسْتَحِقُّ فَذَلِكَ
مِنْهُ ، فَأَمَّا دُفْعَتُهُ عَنْهُ طَالَبْتَ ضَرُورَةً بِالْمِيرَاثِ ؛ لِأَنَّهُ لِلْمَدْفُوعِ عَنْ حَقِّهِ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى تَنَاوُلِهِ
بِكُلِّ وَجْهِ وَسَبَبٍ ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِ أَبِي عَلِيٍّ ، لِأَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا ادِّعَاءَ الْحَقِّ مِنْ وَجْهِ
لَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْهُ ، وَهِيَ غُخْتَارَةٌ .

وَأَمَّا إِنْكَارُهُ أَنْ يَكُونَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَدَّ فَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ النَّحْلِ ، وَادِّعَاؤُهُ أَنَّهُ فَعَلَ
فِي ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ إِقْرَارِهَا فِي يَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِيَصْرِفَ غُلَاتِهَا
فِي وَجْهِهَا ، فَأَوَّلُ مَا فِيهِ أَنَّا لَا نَحْتِجُّ عَلَيْهِ بِفَعْلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى أَيْ وَجْهِ وَقَعَ ، لِأَنَّهُ
فَعَلَهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، وَلَوْ أَرَدْنَا الْاِحْتِجَاجَ بِهَذَا الْجَنْسِ مِنَ الْحُجَجِ لَذَكَرْنَا فَعْلَ الْمُأْمُونِ ، فَإِنَّهُ
رَدَّ فَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا مَشْهُورًا حَكَمَ فِيهِ بَيْنَ خَصْمَيْنِ نَصَّبَهُمَا ، أَحَدُهُمَا لِفَاطِمَةَ ، وَالْآخَرُ
لِأَبِي بَكْرٍ ، وَرَدَّهَا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَوُضُوحِ الْأَمْرِ .

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه ، وقد رَوَى محمد بن زكريا النَّلابي عن شيوخه ، عن أبي المقدم هشام ابن زياد مولى آل عثمان ، قال : لما ولَّى عمرُ بن عبد العزيز رَدَّ فَدَكَ على ولد فاطمة ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك ، فكتب إليه : إنَّ فاطمة قد ولدت في آل عثمان ، وآل فلان وفلان ، فعلى من أردَّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإنِّي لو كتبت إليك أمرُك أن تذبج شاةً لكتبتَ إليَّ : أجماء أم قرناء^(١) ؟ أو كتبت إليك أن تذبج بقرة لسألتني : ما لونها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من على عليه السلام ؛ والسلام .

قال أبو المقدم : فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه ، وقالوا له : هجنتَ فعل الشيخين ، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال : إنكم جهلتم وعلمتُ ، ونسيتم وذكرتُ ، إن أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني ، ويُرْضيني ما أَرْضاها » ، وإن فَدَكَ كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثم صار أمرها إلى مروان ، فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثتها أنا وإخوتي عنه ، فسألتهُم أن يبيعوني حصَّتهم منها ، فمن باع وواهب ، حتى استجمعتُ لي ، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة . قالوا : فإن أبيتَ إلّا هذا فأمسك الأصل ، واقسم الغلة ، ففعل .

وأما ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فَدَكَ لما أفضى الأمرُ إليه ؛ واستدلّاه بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها ، فالوجه في تركه عليه السلام رَدَّ فَدَكَ هو الوجه في إقراره

(١) الجماء : النساء . والفرناء : ذات القرن .

أحكام القوم وكفّه عن نقضها وتغييرها، وقد بينا ذلك فيما سبق ، وذكرنا أنه كان في انتهاء الأمر إليه في بقیة من التقیة قویة .

فأما استدلاله على أن حُجَرَ أزواج النبيّ صلى الله عليه كانت لهنّ بقوله تعالى : ﴿ وَفَرَّغَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾^(١)، فمن عجيب الاستدلال ، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضى الملك ، بل العادة جارية فيها أن تستعمل من جهة السكنى ، ولهذا يقال : هذا بيتُ فلان ومسكنه ، ولا يراد بذلك الملك ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾^(٢) ، ولا شبهة في أنه تعالى أراد منازل الرجال التي يسكنون فيها زوجاتهم ، ولم يُرد بهذه الإضافة الملك .

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حجّره على نسائه وبناته ، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحا أن هذه القسمة على وجه التملك دون الإسكان والإيزال ! ولو كان قد ملكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهرا مشهورا .

فأما الوجه في ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه في يده منازعة الأزواج في هذه الحجر فهو ما تقدّم وتكرّر .

وأما قوله : إنّ أبا بكر هو الذي صلى على فاطمة وكبّر أربعا ، وإنّ كثيرا من الفقهاء يستدلّون به في التكبير على الميت - وهو شيء ما مُسَمَّحُ إِلَّا مِنْهُ ، وإن كان تلقّاه عن غيره - فمن يجرى مجراه في العصبية ، وإلّا فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسير خالية من ذلك ، ولم يختلف أهل النقل في أن عليّا نليه السلام هو الذي صلى على فاطمة ، إلّا رواية نادرة شاذّة وردت بأن العباس رحمه الله صلّى عليها .

وروى الواقديّ بإسناده في تاريخه ، سن الزهريّ ؛ قال : سألت ابن عباس :

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) سورة الطلاق ١ .

متى دفنتم فاطمة عليها السلام ؟ قال : دفناها بليل بعد هدأة ؛ قال : قلت : فمن صلى عليها ؟ قال : عليّ .

وروى الطبري عن الحارث بن أبي أسامة ، عن المدائني ، عن أبي زكريا العجلاني أن فاطمة عليها السلام أُعْمِلَ لها نعش قبل وفاتها ، فنظرت إليه ، فقالت : سترتموني سترَكُم الله !

قال أبو جعفر محمد بن جرير : والثبت في ذلك أنها زينب ، لأن فاطمة دُفِنَتْ ليلا ، ولم يحضرها إلا عليّ والعبّاس والمقداد والزبير .

وروى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه ، عن الزّهرى ؛ قال حدثني عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن فاطمة^(١) عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها عليّ ليلا ، وصلى عليها ، وذكر في كتابه هذا أن عليّا والحسن والحسين عليهما السلام دفنوها ليلا ، وغيبوا قبرها .

وروى سُفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عبّيد ، عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن فاطمة دُفِنَتْ ليلا .

وروى عبدُ الله بن أبي شيبه ، عن يحيى بن سيعد القَطّان ، عن معمر ، عن الزّهرى مثل ذلك .

وقال البلاذري في تاريخه : إن فاطمة عليها السلام لم تُرَ متبسّمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها .

والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن نُطِنَب في الاستشهاد عليه ، ونذكر الروايات فيه .

(١) الشافعي : « فاطمة بنت رسول الله » .

فَمَا قَوْلُهُ : وَلَا يَصِحُّ أَنْهَا دَفِنْتُ لَيْلَا وَإِنْ صَحَّ فَقَدْ دُفِنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ لَيْلَا ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ دَفْنَهَا لَيْلَا فِي الصَّحَّةِ أَطْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَأَنَّ مُنْكَرَ ذَلِكَ كَالِدَافِعِ لِمُشَاهَدَاتِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ دَفْنَهَا لَيْلَا بِمَجْرَدِهِ هُوَ الْحُجَّةُ لِيُقَالُ : لَقَدْ دُفِنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ لَيْلَا ، بَلْ يَقَعُ الْإِحْتِجَاجُ بِذَلِكَ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ الْمُسْتَفِيزَةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي هِيَ كَالْتَوَاتُرِ ؛ أَنَّهَا أَوْصَتْ بِأَنْ تُدْفَنَ لَيْلَا حَتَّى لَا يَصِلَ الرِّجَالُ عَلَيْهِا ، وَصَرَّحَتْ بِذَلِكَ وَعَهَدَتْ فِيهِ عَهْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَا ^(١) اسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فِي سَمَرَضِهَا لِيَعُودَاها ، فَأَبَتْ أَنْ تَأْذِنَ لهُمَا ، فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيْهِمَا الْمَدَافَعَةُ رَغِبَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ لهُمَا ، وَجَعَلَاها حَاجَةً إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ ، وَأُلْحَ عَلَيْهِا ، فَأَذْنَتْ لهُمَا فِي الدُّخُولِ ، ثُمَّ أَعْرَضَتْ عَنْهُمَا عِنْدَ دُخُولِهِمَا وَلَمْ تَكَلِّمْهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجَا قَالَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلْ صَنَعْتَ مَا أُرَدْتُ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : فَهَلْ أَنْتَ صَانِعٌ مَا أَمَرْتُ بِهِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَتْ : فَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلَّا يُصَلِّيَا عَلَى جَنَازَتِي ، وَلَا يَقُومَا عَلَى قَبْرِى !

وَرَوَى أَنَّهُ عَقَى قَبْرَهَا ^(٢) وَعَلَّمَ عَلَيْهِ ^(٣) ، وَرَشَّ أَرْبَعِينَ قَبْرًا فِي الْبَقِيعِ ، وَلَمْ يَرْشْ قَبْرَهَا حَتَّى لَا يُهْتَدَى إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُمَا عَاتَبَاهُ عَلَى تَرْكِ إِعْلَامِهِمَا بِشَأْنِهَا ، وَإِحْضَارِهَا الصَّلَاةَ عَلَيْهَا ، فَمِنْ هَاهُنَا احْتِجَاجُنَا بِالْدَفْنِ لَيْلَا ، وَلَوْ كَانَ لَيْسَ غَيْرُ الدَّفْنِ بِاللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ وَمَا تَأَخَّرَ عَنْهُ ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُجَّةٌ .

وَأَمَّا حِكَايَتُهُ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ إِنْكَارَ ضَرْبِ الرَّجُلِ لَهَا . وَقَوْلُهُ : إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَأَبَاهُ وَجَدَهُ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَهُمَا ، فَكَيْفَ لَا يَنْكُرُ أَبُو عَلِيٍّ ذَلِكَ ، وَأَعْتَقَادَهُ فِيهِمَا اعْتِقَادَهُ ! وَقَدْ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ مَخَالِفِينَا يَقْتَنِعُونَ أَنْ يُنْسَبُوا إِلَى أُمَّتِنَا الْكَفِّ عَنْ الْقَوْمِ ، وَالْإِمْسَاكِ ، وَمَا ظَنَّنَا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْ يُنْسَبُوا إِلَيْهِمُ الشَّنَاءُ وَالْوَلَاءُ ،

(١) ب : « كَانَ » . (٢ - ٣) سَاقَطَ مِنَ الشَّانِ .

وقد علم كلُّ أحد أن أصحاب هؤلاء السادة المختصين بهم ، قد رَوَوْا عنهم ضدَّ ما روى
شعبة بن الحجاج وفلان وفلان وقولهم : ها أول من ظلمنا حقنا ، وحمل الناس على رقابنا ،
وقولهم : أنهما أصفيا ' بإنائنا ، واضطجعا بسبلنا ، وجلسا مجلسا نحن أحقُّ به منهما ،
إلى غير ذلك من فنون التظلم والشكاية ، وهو طويل متسع ، ومن أراد استقصاء ذلك
فليُنظر في كتاب « المعرفة » ، لأبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الثَّقَفِيّ ، فإنه قد ذكر عن
« حل من أهل البيت بالأسانيد النيرة ما لا زيادة عليه ، ثمَّ لو صحَّ ما ذكره شعبة لجاز أن
يُحمَل على التقيّة .

وأما ذكره إسرائيل وميكائيل ؛ فما كنّا نظنّ أن مثله يذكر ذلك ، وهذا من أقوال
الغلاة الذين ضلّوا في أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت ، وليسوا من الشيعة ولا من
المسلمين ، فأبى عيب علينا فيما يقولونه ! ثمَّ إن جماعة من مخالفينا قد غلّوا في أبي بكر وعمر ،
ورَوَوْا رواياتٍ مختلفة فيهما تَجَرّى مجرى ما ذكره في الشناعة ، ولا يلزم العقلاء وذوَى
الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك .

وأما معارضة ما روى في فاطمة عليها السلام بما روى في : « أن حبَّهما إيمان ،
وبغضهما نفاق » ، فالخبر الذى رويناه مُجمَع عليه ، والخبر الآخرُ مطعون فيه ، فكيف
يعارض ذلك بهذا !

وأما قوله : إنَّما قصد من يورد هذه الأخبار تضييفَ دلالة الأعلام في النفوس ، من
حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها ؛ فتشليحٌ في غير موضعه ، وأستنادٌ إلى ما لا يُجدى
نقما ، لأنَّ من شاهد الأعلام لا يضمفها ولا يُوهن دليلها . ولا يقدر في كونها حجة ، لأنَّ
الأعلام ليست ملجئة إلى العلم ، ولا موجبة لحصوله على كلِّ حال ، وإنَّما تثمر العلم لمن أمعن
النظر فيها من الوجه الذى تدلُّ منه ، فَمَنْ عدَّلَ عن ذلك لسوء اختياره لا يكون

عدولُه مؤثِّراً في دلالتها ، فكم قد عدل من العقلاء وذوى الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمل هذه الأعلام وإصابة الحق منها ! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحاً في دلالة الأعلام . على أنَّ هذا القول يُوجب أن ينفي الشك والنفاق عن كل من صحب النبي صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبي سفيان وابنه ، وعمرو ابن العاص ، وفلان وفلان ؛ ممن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكُّهم في الدين وارتياحهم باتفاق بيننا وبينه ؛ وإن كانت إضافة النفاق إلى هؤلاء لا تقدر في دلالة الأعلام ، فكذلك القول في غيرهم .

فأما قوله : إن حديث الإحراق لم يصح ، ولو صح لساغ لعمري مثل ذلك ؛ فقد بينا أن خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنه يسوغ مثل ذلك ؛ فكيف يسوغ إحراق بيت علي وفاطمة عليهما السلام ! وهل في ذلك عُذر يصفى إليه أو يسمع ! وإنما يكون علي وأصحابه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين ؛ لو كان الإجماع قد تقرر وثبت ، وليس بمتقرر ولا ثابت مع خلاف علي وحده ، فضلاً عن أن يوافقه على ذلك غيره . وبعد ، فلا فرق بين أن يُهدد بالإحراق لهذه العلة ، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلام لثلثها ؛ فإن إحراق المنازل أعظم من ضرب سوط أو سيطين ؛ فلا وجه لامتناع المخالف من حديث الضرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار^(١) !

قلت : أمّا الكلام في عصمة فاطمة عليها السلام فهو بفن الكلام أشبه ، وللقول فيه موضع غير هذا .

وأما قول المرتضى : إذا كانت صادقة لم يبق حاجة إلى من يشهد لها ؛ فلنائل أن

(١) الشافعي ٢٣٥ - ٢٣٦ .

يقول : لم قلت ذلك ؟ ولم زعمت أن الحاجة إلى البينة إنما كانت لزيادة غلبة الظن ؟ ولم لا يجوز أن يكون الله تعالى يُعبد بالبينة لمصلحة يعلمها ؛ وإن كان المدعى لا يكذب ! . أليس قد تعبد الله تعالى بالعدّة في العجوز التي قد أيسّت من الحمل ؛ وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم !

وأما قصّة خزيمة بن ثابت ؛ فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أن مصلحة المكلفين في تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وآله وحدها ؛ ويستغنى فيها عن الشهادة . ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفا لها ، وإن كان المدعى لا يكذب . ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدي الأئمة والصالحين ؛ ولو قدرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادّعى دعوى ، وقال بحضرة جماعة من الناس من جلتهم القاضي : اللهم إن كنت صادقاً فأظهر على معجزة خارقة للعادة ؛ فظهرت عليه ، لعلمنا أنه صادق ؛ ومع ذلك لا تقبل دعواه إلاّ ببينة .

وسألت على بن الفارق مدرّس المدرسة الغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدكّ وهي عنده صادقة ؟ فتبسّم ، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسننا مع ناموسه وحُرْمته وقلة دعابته ، قال : لو أعطاهها اليوم فدكّ بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافه ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء ؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقة فيها تدعى كأننا ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود ؛ وهذا كلام صحيح ؛ وإن كان أخرجه مخرج الدّعاية والهزل .

فأما قول قاضي القضاة : لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنه لم يمتدّ في إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها ، والأمر على ما قال ؛ فنأين أنها لم تخرج عن يدها على وجه ! كما أن الظاهر

يقتضى خلافه ؛ فإنه لم يُجِبْ عما ذكره قاضي القضاة ؛ لأنَّ معنى قوله : إنها لو كانت في يدها ، أى متصرفّة فيها لكانت اليد حجة في الملكيّة ؛ لأنَّ اليدَ والتصرفَ حجة لا محالة ، فلو كانت في يدها تتصرف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بدّ عوى النحل ؛ لأنَّ اليد حجة ، فهلا قالت لأبي بكر : هذه الأرض في يدي ؛ ولا يجوز انتزاعها مني إلا بحجة ! وحينئذ كان يسقط احتياج أبي بكر بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ، لأنَّها ما تكون قد أدّعتها ميراثاً ليحتجّ عليها بالخبر . وخبر أبي سعيد في قوله « فأعطاها فذلك » ، يدلُّ على الهبة لا على القبض والتصرف ؛ ولأنَّه يقال : أعطاني فلان كذا فلم أقبضه ، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرف لكان هذا الكلام متناقضاً .

فأمّا تمجّب المرتضى من قول أبي عليّ : إن دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوى النحل ، وقوله : إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك ، فإنه لا يصح له بذلك مذهب ، ولا يبطل على مخالفه مذهب ؛ فإن المرتضى لم يقف على مراد الشيخ أبي عليّ في ذلك ؛ وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه ، فإن أصحابنا استدّلوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة ، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ^(١) برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؛ قالوا : والصحيح في الخبر أن فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنحل لا بالميراث ، فلهذا قال الشيخ أبو عليّ : إن دعوى الميراث تقدّمت على دعوى النحل ، وذلك لأنه ثبت أن فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر ؛ فلو كانت دعوى الإرث متأخّرة ، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد ؛ أمّا إذا كانت دعوى الإرث متقدّمة فلمّا روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى ، فإنه يصحّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد .

(١) سورة النساء ١١ .

فأما أنا فإنّ الأخبار عندي منعارضة ، يدلّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخرة ، ويدلّ بعضها على أنها متقدمة ؛ وأنا في هذا الموضع متوقّف .

وما ذكره المرتضى من أنّ الحال تقتضى أن تكون البداية بدعوى النّحل فصحيح ، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكلّ ما ذكره المرتضى فيه فهو الذى يظهر ويقوى عندي ، لأن الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها ، وكذلك القول في موجدتها وغضبها ، فأما المقول عن رجال أهل البيت فإنّه يختلف ، فتارة وتارة ، وعلى كلّ حال فيل أهل البيت إلى ما فيه نصره أبيهم وبيتهم .

وقد أخلّ قاضى القضاة بالفضلة حكاه عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهى لفظة جيدة . قال : قد كان الأجل أن يمنهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلا عن الدّين . وهذا الكلام لا جواب عنه ، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عهده يقضى أن تعوّض ابنته بشيء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدك ونُسلم إليها تطيباً لقلبها . وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه ، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ، ولا نعلم حقيقة ما كان ، وإلى الله ترجع الأمور .

الأصل :

وَلَوْ سِئْتُ لَا هَتَدْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفًّى هَذَا الْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَرِّ ، وَلَكِنْ هِيَمَاتِ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّبَعِ - أَوْ أُبَيْتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بُطُونُ غَرَمَى ، وَأَكْبَادُ حَرَى ، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتَ بِبِطْنَةِ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ

أَفْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَا أُسَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ ! فَمَا خُلِقْتُ لِشَغْلَنِى أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ،
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ؛ هَمُّهَا عَلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ ؛ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أَتْرَكَ سُدًى ، أَوْ أَهْمَلَ عَابِثًا ، أَوْ أَجَرَ حَبَلِ
الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسَفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ !

الشَّخْرُجُ :

قد روى : « ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفى ، ولباب هذا البرّ النقي ؛
فضربت هذا بذاك ؛ حتى ينضج وقودا ، ويستحکم معقودا » .

وروى : « ولعل بالمدينة يتما تريا يتضور سغباً ، أأيت مَبْطَاناً ، وحولى بطون غرثى ،
إذن يحضرنى يوم القيامة ، وهم من ذكر وأُنثى » .

وروى : « بطون غرثى » بإضافة « بطون » إلى « غرثى » .

والقمح : الحنطة .

والجشع : أشد الحرص .

والمبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل . فأما البطن : فلضامر البطن ؛
وأما البطنين ، فالعظيم البطن لا من الأكل ؛ وأما البطن ، فهو الذى لا يهتمه إلا بطنه ؛
وأما المبطن فالعليل البطن . وبطون غرثى : جائعة ، والبطنة : الكظة ؛ وذلك أن يمتلئ
الإنسان من الطعام امتلاءً شديداً ، وكان يقال : ينبغى للإنسان أن يحمل وعاء بطنه أثلاثاً :
فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس .

والتقّم : أكل الشاة ما بين يديها بمقمتها أى بشفتها ؛ وكلّ ذى ظلف كالنور وغيره فهو ذو مقمة .

وتكثرش من أعلافها : تملأ كرشها من العلف .

قوله : « أو أجرّ جبل الضلالة » منصوب بالمطف على « يشغلنى » ، وكذلك « أترك » ويقال : أجررته رسنه ، إذا أهملته .

والاعتساف : السلوك فى غير طريق واضح .

والمناهة : الأرض يُتاه فيها أى يتحير .

وفى قوله : « لو سئت لاهتديت » شبه من قول عمر : لو نشاء لملأنا هذه الرّحاب من صلائق وصناب ؛ وقد ذكرناه فيما تقدّم .

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائى الجواد ، وأولها :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك	ويا ابنة ذى الجدين والفرس الوردي ^(١)
إذا ما صنعت الزاد فالتسى له	أكيلاً فإننى لست آكله وحدى
قصياً بعيداً أو قريباً فإننى	أخاف مذمات الأحاديث من بمدى ^(٢)
كفى بك عارا أن تبنت بيطنه	وحولك أكباد تحن إلى القدي ^(٣)
وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً	وما من خلالي غيرها شيمة العبد

(١) ديوان الحماسة بشرح المرزوق ٤ : ١٦٦٨ .

(٢) الحماسة :

* أخاً طارقاً أو جار بيت فإننى *

(٣) لم يرد فى رواية الحماسة .

الأصل :

وَكَاثِي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ ^(١) الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَاعِ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا ، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأُ خُودًا .

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوءِ مِنَ الضَّوءِ ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَصْدِ ؛ وَاللَّهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَّا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمَكَنْتِ الْفُرْصَ ^(٢) مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ .

الشرح :

الشَّجَرَةُ الْبَرِّيَّةُ : التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه ، فهي أصلب عوداً من الشجرة التي تنبت في الأرض النديّة ، وإليه وقعت الإشارة بقوله : « والرّواع الخضره أرقّ جلوداً » .

ثم قال : « والنابتات العِذْيَةُ » التي تنبت عِذْيًا ، والعِذْيُ ، بسكون الذال : الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر ، وهو يكون أقلّ أخذًا من الماء من البت سقيا ، فال عليه السلام : إنها تكون أقوى وقوداً ممّا يشرب الماء السّأخ أو ماء الناضح ، وأبطأ نخوداً ؛ وذلك لصلابة جرمها .

ثم قال : « وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء ، والذراع من العصد » ؛

(١) في د « التربة » . (٢) في د « والمراتع » .

(٣) في ا ، د « الفرصة » .

وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة في الضوء الثاني، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس ؟ فهذا الضوء هو الضوء الأول .

ثمّ إنه يقابل وجه الأرض فيضئ وجه الأرض منه ، فالضوء الذي على وجه الأرض هو الضوء الثاني ، وما دام الضوء الأول ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجه الأرض إضاءة ، لأنّ المعلول يتبع العلّة ، فشبه عليه السلام نفسه بالضوء الثاني ، وشبه رسول الله صلى الله عليه وآله بالضوء الأول ، وشبه منبع الأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الأوّل ثمّ الضوء الأول يوجب الضوء الثاني .
وها هنا نكتة ، وهي أنّ الضوء الثاني يكون أيضاً علّة لضوء ثالث ؛ وذلك أنّ الضوء الحاصل على وجه الأرض - وهو الضوء الثاني - إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم ، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً ، وإن كان لذلك المكان المظلم باب ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقي البيت ، ثمّ ذلك الجدار إن كان فيه ثقب إلى موضع آخر كان ما يحاذي ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه ، وهكذا لا تزال الأنوار^(١) يوجب بعضها بعضاً على وجه الانعكاس بطريق العلّية ، وبشرط المقابلة ، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة ؛ وهكذا عالم العلوم ؛ والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريباً كما بدأ بموجب الخبر النبويّ الوارد في الصّحاح .

وأما قوله : « والذراع من العَضُد » فلأنّ الذراع فرع على العَضُد ، والعَضُد أصل ، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد ، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له ، ولهذا قال الراجز لولده :

يا بَكْرَ بَكْرَيْنِ يَا خَلْبَ السَّكْبَدِ أَصْبَحْتَ مَنَى كَذْرَاعٍ مِنْ عَضُدٍ

(١) كذاني « د » ؛ ا ، ب : « لا يزال الضوء » .

فشيبه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى عليه وآله بالذراع الذى المضد أصله وأسه
والمراد من هذا التشبيه الإجابة عن سدة الامتزاج والاتحاد والقرب بينهما ؛ فإنّ الضوء
الثانى شبيه بالضوء الأول ، والذراع متّصل بالمضد اتصالاً بيّناً ؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إياها
رسول الله صلى الله عليه وآله فى مقامات كثيرة نحو قوله فى قصة براءة : « قد أمرت
أن لا يؤدّى عنيّ إلا أنا أو رجل مني » ، وقوله : « لتنتهنّ يا بنى وليلة ، أو لأبعثنّ
إليكم رجلاً مني » ، أو قال : « عدل نفسي » ، وقد سمّاه الكتاب العزيز « نفسه »
فقال : ﴿ وَنِسَاءُ نَا وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسُكُمْ ﴾^(١) ، وقد قال له : « لملك مختلط بلحمي ،
ودمك مسوط بدمي ، وشرك وشهري واحد » .

فإن قات : أمّا قوله : « لو تظاهرت العرب علىّ لما وليت غنما » ، فمعلوم ، فما الفائدة فى
قوله : « ولو أمكنت الفرصة من رقابها لساغت^(٢) إليها » ؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء
وبعدونه منقبة ؛ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجلوز وعفا !

قات : غرضه أن يقرّر فى نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ ،
وأنّ حربه لأهل الشام كالحجّاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ من يجاهد الكفّار
يجب عليه أن يُغليظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله
لما جاهد بنى قريظة وظفر لم يبق ولم يعف ، وحصد فى يوم واحد رقاب ألف إنسان صبراً
فى مقام واحد ، لما علم فى ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين ، فالغفولة مقام والانتقام له
مقام .

قوله : « وسأجهد فى أن أطهر الأرض » ، الإشارة فى هذا إلى معاوية ، سمّاه شخصاً
معكوساً ، وجسماً مر كوساً ، والمراد انعكاس عقيدته ، وأنها ليست عقيدة هدى ، بل هى
معاكسة للحقّ والصواب ، وسمّاه مر كوساً من قولهم : ارتكس فى الضلال ، والركس

(١) سورة آل عمران ٦١ . (٢) د « لأسرعت » .

ردّ الشيء مقلوبا ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾^(١) أى قلبهم وردّهم إلى كفرهم ، فلما كان تاركاً للفتوة التي كلُّ مولود يُولد عليها ، كان مرتكسا في ضلاله ، وأصحاب التناسخ يفسّرون هذا بتفسير آخر ، قالوا : الحيوان على ضربين : منتصب ومنحنٍ ، فالمنتصب الإنسان ، والمنحنى ما كان رأسه منكوسا إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع .

قالوا : وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) .

قالوا : أصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب ، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصب ، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشقاوة ، سماه معكوسا ومركوسا رمزا إلى هذا المعنى .

قوله : « حتى تخرج المدة من بين حبّ الحصيد » ، أى حتى يتطهّر الدين وأهله منه وذلك لأنّ الزّراع يجتهدون في إخراج المدّر والحجر والشوك والعوسج ونحو ذلك من بين الزرع كي تفسد منابته . فيفسد الحبّ الذي يخرج منه ، فشبه معاوية بالمدّر ونحوه من مُفسِدات الحبّ ، وشبّه الدين بالحبّ الذي هو ثمرة الزرع .

الشَّرْحُ :

ومن هذا الكتاب وهو آخره :

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا ، فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِيكَ ، قَدْ أَسْأَلْتُ مِنْ نَحْلِيكَ ، وَأَفْلَتُ مِنْ جَائِلِكَ ، وَاجْتَنَبْتُ الدَّهَابَ فِي مَدَاحِيكَ

(١) سورة النساء ٨٨ . (٢) سورة المالك ٢٢ .

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتَهُمْ بِمَدَائِعِكَ ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِرَحَارِفِكَ !
فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ .
وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَرِيئًا ، وَقَالَ بَا حَسِيًّا ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ
غَرَرْتَهُمْ بِالْأُمَانِيِّ ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلَفِ ،
وَأُورَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وَرْدَ وَلَا صَدَرَ !
هَيْهَاتَ ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلَقَ ، وَمَنْ رَكَبَ لُجْجَكَ غَرِقَ ، وَمَنْ أَزُورَ
عَنْ حَبَائِلِكَ وَفَّقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاقُحُهُ ؛ وَاللَّهُ نَيَّا عِنْدَهُ كَيَوْمِ
حَانَ انْسِلَاقُهُ .

الْبُشْرُخ :

إِلَيْكَ عَمِّي ، أَى اِبْعْدَى . وَحُبُّكَ عَلَى غَارِبِكَ ، كُنَايَةٌ مِنْ كُنَايَاتِ الطَّلَاقِ ، أَى اِذْهَبِي
حَيْثُ شِئْتَ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ إِذَا أَلْقَى حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا فَقَدْ فَسَحَ لَهَا أَنْ تَرعى حَيْثُ شَاءَتْ ،
وَتَذْهَبُ أَيْنَ شَاءَتْ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرُدُّهَا زَمَامُهَا ، فَإِذَا أَلْقَى حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا فَقَدْ أَهْمَلَتْ .
وَالنَّارِبُ : مَا بَيْنَ السَّنَامِ وَالْعُنُقِ . وَالْمَدَاحِضُ : الْمَزَالِقُ .
وَقِيلَ : إِنْ فِي النُّسخَةِ الَّتِي بِحِطِّ الرُّضِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « غَرَرْتَهُمْ » بِالْيَاءِ ، وَكَذَلِكَ
« فَتَنْتَهُمْ » ، وَ « أَلْقَيْتَهُمْ » ، وَ « أَسْلَمْتَهُمْ » ، وَ « أُورَدْتَهُمْ » ، وَالْأَحْسَنُ حَذْفُ الْيَاءِ ،
وَإِذَا كَانَتِ الرُّوَايَةُ وَرَدَتْ بِهَا فَهِيَ مِنْ إِشْبَاعِ الْكُسْرَةِ كَقَوْلِهِ :
أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْعِي بِمَا فَعَلْتَ لَبُونُ بْنُ زِيَادٍ
وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ ، أَى الَّذِينَ تَضَمَّنْتَهُمْ ، وَفِي الْحَدِيثِ نَهَى عَنْ بَيْعِ الْمَضَامِينِ وَالْمَلَاقِيحِ ،
وَهِيَ مَا فِي أَسْلَابِ الْفُحُولِ وَبَطُونِ الْإِنَاثِ .

ثم قال : لو كنتِ أيتها الدنيا إنسانا محسوسا ، كالواحد من البشر ، لأقتُ عليك الحدَّ كما فعلتِ بالناس .

ثم شرح أفعالها فقال : منهم من غررت ، ومنهم من ألقيت في مهاوى الضلال والكفر ، ومنهم من أتلفت وأهلكت .

ثم قال : ومن وطئ دَحْضَكَ زلق ، مكان دَحْضِ أى مرلة .

ثم قال : لا يبالى مَنْ سلم منك إن ضاق مناخه ، لا يبالى بالفقر ، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لأن هذا كله حقير لا اعتداد به في جنب السلامة من فتنة الدنيا .

قال : والدنيا عند من قد سلّم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه

الأصل :

اغزُبى عَنّى ! فوالله لا أذلُّ لك فتستذلّينى ، ولا أسأسُ لك فتَقودينى . وإني والله يَمِيناً أَسْتَنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً سَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا ، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَا دُومًا ؛ وَلَأَدْعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينَهَا ، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . أُنْمَتِلِي السَّائِمَةَ مِنْ رَغِيهَا فَتَبْرُكْ ، وَتَسْبَعُ الرَّيِيضَةَ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرِيضَ ، وَيَا كُلُّ عَلِيٍّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ !

قَرَّتْ إِذَا عَيْبُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السَّيْنِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَةِ !

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنَنِهَا بُؤْسَهَا ، وَهَجَرَتْ فِي

الليل غمضها ، حتى إذا غلب السكرى عليها افترشت أرضها ، وتوسدت كفها .
 في منصرف أسهر عيونهم خوف مآذهم ، وتجاقت عن مضاجعهم جنوبهم ،
 وهمهمت بذكر ربهم شفاهم ، وتفتشت بطول استنفارهم ذنوبهم ، ﴿ أولئك
 حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .
 فاتق الله يا بن حنيف ولتكنف أقراصك ؛ ليكُونَ مِنَ النَّارِ خلاصك .

السُّنْحُ :

السُّنْحُ : إهدى ، يقال عزب الرجل بالفتح ، أى بَمَد . ولا أسلس لك بفتح اللام ، أى
 لا أنقاد لك ، سلس الرجل بالكسر يسأس فهو بين السلس ، أى سهل قياده .
 ثم حلف ، واستثنى بالمشيئة أدبا كما أدب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله
 لبروض نفسه أى يدرّبها بالجوع ، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء
 وأرباب الطريقة .

قل : « حتى أهشّ إلى القرص » ، أى إلى الرغبة وأقنع من الإدام بالملح .
 ونصب معينها : فنى ماؤها .

ثم أنكر على نفسه فقال : أتشبع السائمة من رغيها - بكسر الراء ، وهو الكلاء -
 والريضة - جماعة من النعم أو البقر تربض في أماكنها . وأنا أيضا مثلها أشبع وأنام !
 لقد قرت عيني إذاً حيث^(١) أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعم والجد في
 السنين المتطاولة .

قوله : « وعركت بجنبها بؤسها » ، أى صبرت على بؤسها ، والمشقة التى تنالها . يقال :
 قد عرك فلان بجنبه الأذى أى أغضى عنه ، وصبر عليه .

(١) ل د د إذ .

قوله : « افترشت أرضها » أى لم يكن لها فراش إلا الأرض .
 « وتوسدت كفّها » ، لم يكن لها وسادة إلا الكفّ .
 « وتجاغت عن مضاجعهم جنوبهم » لفظ الكتاب العزيز ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ
 عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾^(١) .
 وهممت : تكلمت كلاما خفيا .
 وتفشعت ذنوبهم : زالت وذهبت كما يتفشع السحاب .
 قوله : « ولتكف أقراصك » ، إنما هو نهى لابن حنيف أن يكفّ عن الأقراص ،
 وإن كان اللفظ يقتضى أن تكفّ الأقراص عن ابن حنيف . وقد رواها قوم بالنصب ،
 قالوا : « قاتق الله يا ابن حنيف ولتكف أقراصك » ، لترجو بها من النار خلاصك » ، والتاء .
 هاهنا للأمر عوض الياء ، وهى لنة لا بأس بها ، وقد قيل : إن رسول الله صلى الله عليه
 وآله قرأ : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْتَفَرَّحُوا ﴾^(٢) ، بالتاء .

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
 ويليه الجزء السابع عشر

فهرس الخطب *

- ٣ - ٢٩ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة
- ٦ - ٣٠ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ٩ - ٣١ - من وصية له عليه السلام للحسن ابنه ، كتبها إليه بحاضرين عند
الفراق من صفين
- ١٣٢ - ٣٢ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ١٣٨ - ٣٣ - من كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة
- ١٤٢ - ٣٤ - من كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجده من
عزله بالأشتر على مصر
- ١٤٥ - ٣٥ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد
ابن أبي بكر
- ١٤٨ - ٣٦ - من كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في ذكر
جيش أنفذه إلى بعض الأعداء
- ١٥٣ - ٣٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ١٥٦ - ٣٨ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولي عليهم الأشتر
- ١٦٠ - ٣٩ - من كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص
- ١٦٤ - ٤٠ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله
- ١٦٧ - ٤١ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله أيضا
- ١٧٣ - ٤٢ - من كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة الخزومي

— ٢٩٨ —

٤٣ - من كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وكان

١٧٥

عامله على أردشير خرّ

٤٤ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية

١٧٧

كتب إليه يريد خديعته واستلحاقه

٢٩٥-٢٠٥

٤٥ - من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٥٢- ٩	ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره
٥٦٠ ٥٥	بعض ما قيل من الشعر في الدهر وفعله بالإنسان
٩٣- ٢١	أقوال حكيمة في وصف الدنيا وفناء الخلق
١٢٨، ١٢٧	بعض ما قيل من الشعر في الغيرة
١٣٠، ١٢٩	اعتزاز الفرزدق بقومه
١٣١، ١٣٠	وفود الوليد بن جابر على معاوية
١٣٢	ذكر بعض ما دار بين عليّ ومعاوية من الكتب
١٤١، ١٤٠	قثم بن العباس وبعض أخباره
١٤٣، ١٤٢	محمد بن أبي بكر وبعض أخباره
١٧٤	اختلاف الرأي حول كتاب كتبه عليّ إلى بعض عماله
١٧٤، ١٧٣	عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره
١٧٤	النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره
٢٠٤-١٧٩	نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكتبه
٢٠٦، ٢٠٥	عثمان بن حنيف ونسبه
	ذكر ما ورد من السير والأخبار في أمر فذك وفيه فصول :
٢٣٦-٢١٠	الفصل الأول فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم
٢٦٨-٢٣٧	الفصل الثاني في النظر في أن النبيّ صلى الله عليه وسلم هل يورث أم لا ؟
٢٨٦-٢٦٨	الفصل الثالث في أن فذك هل صحّ كونها نحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة أم لا

